برنامج شروح

متون طالب العلم

تحت إشراف الشيخ

د. عبد المحسن بن محمد القاسم

إمام وخطيب المسجد النبوي الشريف

شرح

كتاب التوحيد الذي هو حق اللّه على العبيد

المقدِّمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ، وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ، أَمَّا بَعْدُ:

فهذا أحد مؤلَّفات الإمام المجدِّد الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن عليٍّ التميمي، المولود سنة ألف ومئة وخمس عشرة (١١١٥) للهجرة، ببلدة العُيَيْنَة، وهي تقع شمال الرياض بقرابة خمسين (٥٠) كيلو متراً، وترَعْرَعَ فيها.

وبيته بيت عِلمٍ، فوالده كان قاضياً رحمه الله، وكان على نَهْج السلف الصالح.

ومنذ نشأته، وهو ناشئٌ على الذكاء والحذاقة والنباهة وقوة الحفظ، فقد حَفظ القرآن وعمره عشر سنواتٍ؛ بل إنه بَلغ الحُلُم في سنٍّ مبكِّرة، فقد بَلغ وعمره أحد عشر (١١) عاماً رحمه الله.

وبعد أن تَزوَّد بالعِلم من والده، ومِن علماء أهل بلده؛ انتقل إلى الأحساء؛ ليتزود من العِلم، وسافر إلى الحجاز، وتَوجَّه أيضاً إلى العراق، وصنَّف كتابه هذا في البصرة.

وكان نَهْجه رحمه الله في دينه اقتفاء السلف الصالح، فلم يأتِ بشيءٍ

مِن عنده من تلقاء نفْسه؛ بل كان حريصاً على اتِّباع الكِتاب والسُّنَّة؛ لذلك يُكثِر في مصنَّفاته من ذِكْر الدليل سواء من الكِتاب أو من السُّنَّة، فمثلاً في ثلاثة الأصول - وهو متنٌ ليس بالواسع - فيه أكثر من خمسين دليلاً، وملأ كتابه هذا - كتاب التوحيد - بالأدلَّة من الكِتاب والسُّنَّة كما سيأتي؛ لهذا لم يكن لأخصامه عليه مَدخلاً في أنَّه أتى ببدْعٍ من الدين؛ بل كلُّ ما أَتى به من الكِتاب والسُّنَّة، أو باستنباطٍ منهما على نهْج سلفِ هذه الأمَّة.

وعاش رحمه الله في حياته داعياً ومصنِّفاً وعابداً للَّه سبحانه، فكان داعياً منذ صِغره، يدعو إلى توحيد اللَّه سبحانه وتعالى، وآزَرَه الإمام محمد بن سعود رحمه الله[1]، وأيَّده ونصَره ومنَع أي أحد من أن يؤذيه، فقامت دعوته المباركة على هذا المنهج السديد.

وكان يصنِّف مع دعوته، ولم يكن هناك فنٌّ من فنون العِلم إلا وقد صنَّف فيه.

ففي الحديث مثلاً: أَلَّف كِتاباً في الأحكام، وهو من أكبر الكتب

---

(١) هو: محمد بن سعود بن محمَّد بن مقرن بن مرخان، من بني مانع المنسوب إلى مرَّة بن ذهل بن شيبان، من عدنان، توفي سنة (١١٧٩ هـ). الدرر السنية للشيخ عبد الرحمن بن قاسم (١٦/ ٣٤٧)، الأعلام للزركلي (٦/ ١٣٨).

المصنَّفة فيه، وأضاف فيه ما لم يضِفْ غيره، من علامات الساعة في آخره وغير ذلك، واختصر أيضاً «فتح الباري».

وفي الفقه: اختصر الشرح الكبير لابن قدامة[١]، والإنصاف، وألَّف شروط الصلاة وأركانها وواجباتها، وآداب المشي إلى الصلاة.

وفي العقيدة: ألَّف ثلاثة الأصول، وألَّف القواعد الأربع، وكتابه هذا العظيم، وألَّف كشْف الشبهات - الذي هو خلاصة دعوته فيما ألقاه عليه أخصامه من شبهاتٍ، وهو يُعتبَر مختصَراً لكتاب التوحيد -.

وامتاز رحمه الله في تصنيفه بسهولة العبارة؛ ليَفهم المخاطَبون ما يريد.

وامتاز أيضاً رحمه الله بذكر دليلِ ما يَذكر من المسائل؛ ليأخذ المستمِع أو القارئ ما ذكَره له بيقينٍ؛ لأنَّه أعطاه شيئاً من الكِتاب والسُّنَّة.

وممَّا امتاز به رحمه الله أنَّه يَجمع شَتَات المسائل، فمثلاً: «ثلاثة الأصول» لا تجد مصنَّفاً قط يُذكر فيه المسائل الثلاثة العظيمة - معرفة

---

(١) هو: موفق الدين أبو محمد عبد اللَّه بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي، الجماعيليُّ، وُلد سنة (٥٤١هـ)، وتوفي سنة (٦٢٠هـ). ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (٣/ ٢٨١)، سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٢/ ١٦٥).

اللَّه، ومعرفة نبيه، ومعرفة دين الإسلام -، فهو جمَع هذه الثلاث المسائل وجَعل كلَّ مسألةٍ عليها أدلَّةً، وصَنَّف في كلِّ مسألةٍ ما يَتفرَّع منها؛ بل ويزيد في كلِّ مسألةٍ الدليل على ما يَذكره.

وكان رحمه الله من أخلاقه وصِدق دعوته فيما يخاطِب به غيرَه؛ أنَّه يدعو لأخصامه في السجود، وذلك أنَّه في بعْث رسائله يكتب لأخصامه: «وأنت ممن أدعو له في سجودي بأنَّ اللَّه يهديك»[١].

وكان يعفو عن أخصامه ممَّن يؤذيه أو يخالِف دعوته أو يُؤَلِّبُ عليه، ولا يَنظر إلى مِثل ذلك.

وكان محبّاً لهدي النبيِّ صلى الله عليه وسلم كثيراً؛ بل إنه سمَّى أولاده بما سمَّى به النبيُّ صلى الله عليه وسلم أولاده وأحفاده؛ فأولاده: عليٌّ والحسن والحسين وإبراهيم وعبد اللَّه، فأسماء أولاده: أسماء أولاد أو أحفاد النبيِّ صلى الله عليه وسلم، وليس له سوى بنتٍ واحدةٍ وسمَّاها باسم بنت النبيِّ صلى الله عليه وسلم: فاطمة.

---

(١) مجموعة مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الرسائل الشخصية، الجزء السادس (ص٢٨١).

ولهذا يقال: لا يوجد بيتٌ مِن أهْل نجْدٍ أكثر تسميةٍ بأولاد النبي صلى الله عليه وسلم وأحفاده مِن بيت الشيخ رحمه الله؛ ولهذا لا مَطْعَن فيما يقال عنه في أنَّه لا يُحبُّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام، أو بأنه جافٍ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم أو أنَّه مبتعِدٌ عن دعوته؛ بل حتى أولاده سمَّاهم بأسماء أولاد وأحفاد النبيِّ عليه الصلاة والسلام.

ومِن رأفته بما رآه ممَّا تَعلَّق به أهلُ بلده، أو ممَّن انتَشر فيهم الشرك؛ أنَّه ذَهب للملتزَم عند الكعبة، والتَزم بالملتزَم ودعا ربه بأن يُظهر دعوته وأن يكتب لها القبول؛ فاستجاب اللَّه عز وجل له دعوته، فانتشرت دعوتُه بتجديد ما اندَثر من معالم الإسلام في عصره إلى الآفاق.

وقد كان عصْره عصراً قد أَوْغَل في الشرك؛ بل أَتوا بأعظم ممَّا أَتى به أبو جهلٍ؛ فلم يصِلُوا إلى طلبِ الشفاعة أو الزُّلْفَى وحسب؛ بل جَعلوهم أولياء من دون اللَّه لا يَطلبونهم الوسيلة أو الزُّلْفَى، وإنَّما يدعونهم كإله من دون اللَّه.

وكانت آنذاك ديار نجْدٍ وما حولها منتشراً فيها الشرك، من عبادة الأحجار والأشجار، فضلاً عن القبور، فرحمةٌ مِن اللَّه عز وجل بأهل بلدته ومَن بعدهم أنْ بعث هذا الإمام المجدِّد؛ لبيان التوحيد، وإحلال

النور مكان الظلام، والتوحيد بدل الشرك.

ولهذا من أتى بعده في تلك الديار: للشيخ رحمه الله حقٌّ عليه؛ لأنه قد أَنقذ آباءه بإذن اللَّه من الشرك، وإلَّا لكان آباؤه ومَن بعدهم إلى عصرنا ونحن نطوف حول الأصنام والأوثان ونحو ذلك؛ إن لم يتداركنا اللَّه عز وجل برحمته.

وأُوذي كثيراً في دعوته، وهذا نَهْج الأنبياء في الإيذاء؛ كما قال سبحانه: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [آل عمران ١٨٤]، فهذه سُنَّة اللَّه عز وجل فيمن دعا إلى التوحيد، يؤذَى؛ لرفع درجاته، وليتساقط أهل الباطل مع باطلهم، ويبقى الحق ناصِعاً مخلَّصاً.

وبعد عمْرٍ جهيدٍ من الدعوة والتصنيف والعبادة أمدَّ اللَّه عز وجل في عمره إلى عام ألف ومئتين وستة (١٢٠٦) للهجرة، ثُم توفي رحمه الله في ذلك العام، وقد عُمِّر رحمه الله؛ فقد بَلغ من العمر حين وفاته: واحداً وتسعين (٩١) عاماً رحمه الله.

هذه حياة الشيخ باختصار، وما قَدَّمه لهذه الأمَّة رحمه الله رحمةً واسعةً.

وأقلُّ ما يقدِّمه المسلمون له: الدعاء له، ونشْر مصنَّفاته، والذبُّ عنه عند من يَجهل حاله وحال دعوته فيقع فيه.

وأمَّا كِتابه - وهو هذا الكتاب - اسمه: (**كِتَابُ التَّوْحِيدِ الذِي هُوَ حَقُّ اللَّهِ عَلَى العَبِيدِ**)؛ فهو أعظم مصنَّفٍ له؛ بل لا يوجد من المصنَّفات التي جَمعت الكتاب والسُّنَّة عن التوحيد مثله، لا قبل الشيخ ولا بعده رحمه الله، فهو فريدٌ في زمانه، اقتَصر فيه على النصوص من الكِتاب والسُّنَّة، وذِكْر أقوالٍ يسيرةٍ لبعض أعلام الأمَّة فيه؛ لتوضيح معنىً من المعاني، كأقوالٍ لشيخ الإسلام[١]، وابن القيِّم[٢]، والذهبيِّ[٣]،

---

(١) هو: أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحرَّاني، ثُمَّ الدمشقي، وُلد سنة (٦٦١هـ)، وتوفي سنة (٧٢٨هـ). ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (٤/ ٤٩١).

(٢) هو: أبو عبد اللَّه شمس الدين محمد ابن أبي بكر بن أيوب الزرعي الأصل ثم الدمشقي ابن قيم الجوزية، وُلد سنة (٦٩١هـ)، وتوفي سنة (٧٥١هـ). الرد الوافر لابن ناصر الدين (١/ ٦٨).

(٣) هو: أبو عبد اللَّه شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التركماني الذهبي. وُلد سنة (٦٧٣هـ)، وتُوفي سنة (٧٤٨). طبقات الشافعية الكبرى

والبغوي[١]، وابن حزْمٍ[٢]، أمَّا هو فلم يَذكر في الكِتاب مِن أوَّله إلى آخره أي كلمة منه؛ وإنَّما جَمع نصوصاً؛ بل ولم يَجعل له مُقدِّمة؛ ليكون مقتصراً على النصوص فحسب، مع أقوالٍ يسيرةٍ جِدّاً لأئمة الدين.

فهو من أجْمع - إن لم يكن أجْمع - ما صُنِّف في هذا الباب.

وإنَّ الشخص لو اقتَصر في مسائل توحيد الألوهية على هذا الكتاب، واعتقد ما فيه؛ فإنَّه - بإذن اللَّه - يغنيه عن بقيَّة الكتب في توحيد الألوهية، قال في حاشية كتاب التوحيد: «هذا الكتاب ليس له نظير في الوجود»[٣].

واسم هذا الكتاب: (**كِتَابُ التَّوْحِيدِ الذِي هُوَ حَقُّ اللَّهِ**) يعني: الواجب، (**عَلَى العَبِيدِ**) أي: أنْ يُحقِّقوه ويَعملوا بما فيه.

للسبكي (٩/ ١٠٠).

(١) هو: أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي. طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٧/ ٧٥).

(٢) هو: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الفارسي الأصل، ثم الأندلسي القرطبي، وُلد سنة (٣٨٤هـ)، وتوفي سنة (٤٥٦هـ). سير أعلام النبلاء للذهبي (١٨/ ١٨٤).

(٣) حاشية كتاب التوحيد (١/ ٧).

وموضوع كتاب التوحيد عدة أمورٍ:

الأمر الأوَّل: بيان التوحيد.

والأمر الثاني: بيان ما ينافي التوحيد بالكلِّية.

الأمر الثالث: بيان ما ينافي كمال التوحيد الواجب.

الأمر الرابع: بيان ما ينافي كمال التوحيد المستحب.

الأمر الخامس: سدُّ الوسائل والذرائع الموصِلة إلى الشرك، سواء كانت قوليَّةً أو فعليَّةً.

يعني إذا قيل: ما الذي يَتكلَّم عنه كتاب التوحيد؟

تقول: يَتكلَّم عن هذه الأمور الخمْسة.

والمعاصي تنقسم إلى قِسمين:

١. **قِسمٌ ناشئٌ عن شبهةٍ**: كالشرك باللَّه.

٢. **وقِسمٌ ناشئٌ عن شهوةٍ**: كالزنا وشرْب الخمر.

والمعصية الناشئة عن الشبهة أشدُّ من الناشئة عن الشهوة؛ لذلك قال السلف: «قَلَّ أنْ يتوب صاحب بدعةٍ»؛ لأنها ناشئة عن شُبهةٍ، أمَّا التي عن الشهوات؛ فبإذن اللَّه يتوب كثيرٌ من العباد منها، مثل: الإسبال، أو

حلْق اللَّحية، أو التدخين ونحو ذلك.

ولكوْن المعصية الناشئة عن شبهة أشدَّ؛ جَعل الشيخ محمد بن عبد الوهاب كتابه في هذا القِسم فقط، فلم يتعرَّض للزنا، ولا لشرب الخمر، ولا لأكل الميتة، ولا لقطْع الطريق، ولا للسرقة ونحو ذلك.

وأجَلُّ علمٍ يتعلمه الإنسان هو علم التوحيد؛ بل هو أوجب واجب - كما سيأتي[١] - في أبواب التوحيد الأُولى.

وذَكر أيضاً توحيد الأسماء والصفات وجَعلها في آخر كتابه.

وأَكثَرَ من توحيد الألوهية في هذا الكتاب لأمرين:

الأمر الأوَّل: لأنه هو الذي دعت إليه الرسل.

والأمر الثاني: لكثرة وقوع الناس في عصْره فيما يناقض توحيد الألوهية.

وهذا الكتاب العظيم المفيد المختصَر حَفِظَتْه الأجيال مِن بعد الشيخ رحمه الله إلى يومنا هذا؛ لعظيم فائدته.

وتَوالى عليه العلماء بالشرح، وأوَّل مَن شَرحه حفيده رحمه الله

(١) (ص) عند قوله (لذلك أوجب الواجبات التوحيد).

الشيخ سليمان بن عبد اللَّه بن محمد بن عبد الوهاب[(١)] في كتابه: تيسير العزيز الحميد، ووَصل فيه إلى آخر باب ما جاء في منكري القدر، ولم يُكمِلْه؛ لأنه قُتِل شهيداً صغيراً وعمره ثلاثة وثلاثون (٣٣) عاماً فقط.

ثُم بعد ذلك أتى حفيده الآخر وهو الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب رحمه الله[(٢)] فهذَّب وأَكمل ما لم يُكمله ابن عمِّه سليمان المحدِّث إلى نهاية كتاب التوحيد.

ثُم بعد ذلك تَتابع العلماء في شرْح هذا الكتاب العظيم؛ مِثل: شرْح

---

(١) هو: سليمان بن عبد اللَّه بن محمد بن عبد الوهاب، من آل الشيخ. وُلد سنة (١٢٠٠هـ)، وتوفي سنة (١٢٣٣هـ). الدرر السنية للشيخ عبد الرحمن بن قاسم (١٦/ ٣٨٤)، الأعلام للزركلي (٣/ ١٢٩).

(٢) هو: عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب. وُلد سنة (١١٩٣هـ)، وتوفي سنة (١٢٨٥). الدرر السنية للشيخ عبد الرحمن بن قاسم (١٦/ ٤٠٤)، الأعلام للزركلي (٣/ ٣٠٤).

ابن عتيق رحمه الله[١]، ومثل: شرح قرَّة عيون الموحدين[٢]، ومِثل كِتاب: حاشية كتاب التوحيد لعبد الرحمن ابن قاسم[٣].

وهذا الكِتاب نَصح ولا يزال يَنصح به العلماء؛ بحفْظه ومعْرفة ما فيه؛ لاشتماله على مسائل كثيرةٍ.

***

(١) اسم كتابه: إبطال التنديد في مختصر شرح كتاب التوحيد. وابن عتيق هو: حمد بن علي بن محمد بن عتيق بن راشد بن حميضة، وُلد سنة (١٢٢٧هـ)، وتوفي سنة (١٣٠١هـ). الدرر السنية للشيخ عبد الرحمن بن قاسم (١٦/ ٤٣٠)، الأعلام للزركلي (٢/ ٢٧٢).

(٢) قرة عيون الموحدين، للشيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب رحمه اللَّه. الدرر السنية للشيخ عبد الرحمن بن قاسم (١٦/ ٤٠٩)، الأعلام للزركلي (٣/ ٣٠٤).

(٣) هو: أبو عبد اللَّه عبد الرحمن بن محمد ابن قاسم العاصمي القحطاني، وُلد سنة (١٣١٩هـ)، وتوفي سنة (١٣٩٢هـ). الأعلام للزركلي (٣/ ٣٣٦).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم

[١]

كِتَابُ التَّوْحِيدِ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ الآيَةَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ﴾ الآيَةَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ الآيَةَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ الآيَةَ.

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى وَصِيَّةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم الَّتِي عَلَيْهَا خَاتَمُهُ؛ فَلْيَقْرَأْ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ الآيَةَ».

وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه قَالَ: «كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ صلى الله

عليه وسلم عَلَى حِمَارٍ، فَقَالَ: يَا مُعَاذُ! أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى العِبَادِ، وَمَا حَقُّ العِبَادِ عَلَى اللَّهِ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

قَالَ: فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى العِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَحَقُّ العِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَلَّا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً.

فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا» أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ.

الشرح:

قال رحمه الله تعالى: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ).

اقتَصر المصنِّف رحمه الله على البسملة في أوَّل كِتابه ولم يضعْ مقدِّمةً له؛ ليكون جميع ما في هذا الكِتاب من الكِتاب والسُّنَّة؛ حتى لا يكون قد وضَع من عنده ولا حرفاً واحداً، فلم يقل: وضعتُ في هذا الكِتاب، أو: خصصتُ أو استدلَلْتُ.

وإنَّما قال: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم، كِتَابُ التَّوْحِيدِ)؛ لئلَّا يقال أنَّ الشيخ قد أتى بشيءٍ مِن تلقاء نفْسه، فاقتصر على البسملة؛ تأسِّياً بالنبيِّ عليه الصلاة والسلام في مكاتباته، واقتداءً بالقرآن العظيم، فأوَّل ما فيه: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ١-٢].

قال رحمه الله: (**بِسْمِ اللَّهِ**) الباء هنا للاستعانة والبرَكة؛ أي: يا رب أعنِّي، وأنا أَتبرَّك باسمك في هذا العمل؛ أي: أستعين باللَّه متبرِّكاً به في تأليف هذا الكِتاب.

فإذا قيل: هل إذا ذُكر اسم اللَّه تحِلُّ البرَكة به؟

نقول: نعم؛ بل قد لا يجوز لك أن تأكل بعض الأشياء إلا إذا ذَكَرْتَ اسم اللَّه عليها، فمثلاً عند الصيد، أو الذبيحة لا يجوز أن تأكلها إلا إذا ذَكرتَ اسم اللَّه عليها، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام:١٢١]، وقال: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام:١١٨].

فبمجرَّد ذكْر اسم اللَّه على الشيء تحلُّ فيه البرَكة؛ بل تَجعل المحرَّم بعيداً عنه.

وكذا عند دخول المنزل تقول: «بِسْمِ اللَّهِ»(١).

---

(١) لحديثٍ رواه أبو داود، كتاب النوم، باب ما يقول الرجل إذا دَخل بيته، رقم (٥٠٩٦)، من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه، ولفظه: «إِذَا وَلَجَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ، فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيرَ المَوْلَجِ، وَخَيْرَ المَخْرَجِ، بِسْمِ اللَّهِ وَلَجْنَا، وَبِسْمِ اللَّهِ خَرَجْنَا، وَعَلَى اللَّهِ رَبِّنَا تَوَكَّلْنَا، ثُمَّ لِيُسَلِّمْ عَلَى أَهْلِهِ».

وعند الخروج - كما وَرد[١] - تقول: «بِسْمِ اللَّهِ».

وعند دخول المسجد تقول: «بِسْمِ اللَّهِ»[٢].

وعند الخروج من المسجد تقول: «بِسْمِ اللَّهِ»[٣].

وهكذا.

والباء متعلِّقةٌ بمحذوفٍ وهو الفِعل، بمعنى: لا تقل: «آكُل بِسْم اللَّهِ»، وإنَّما احذف كلمة «آكُل» أو «أَشْرب»، واجْعل الأمر بِاسم اللَّه

(١) رواه أحمد في المسند، رقم (٢٦٦١٦)، من حديث أمّ سلمة رضي اللَّه عنها، ولفظه: «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ، قَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نَزِلَّ أَوْ نَضِلَّ، أَوْ نَظْلِمَ أَوْ نُظْلَمَ، أَوْ نَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيْنَا».

(٢) رواه أحمد في المسند، رقم (٢٦٤١٧)، من حديث فاطمة رضي اللَّه عنها، ولفظه: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ قَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ، وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ».

(٣) رواه أحمد في المسند، رقم (٢٦٤١٧)، من حديث فاطمة رضي الله عنها، ولفظه: «وَإِذَا خَرَجَ قَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ، وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ فَضْلِكَ».

مباشرةً فتقول: (**بِسْمِ اللَّهِ**) والفعْل محذوفٌ، وجُعلت الباء للاستعانة والتبرك.

وقوله: (**اسْمِ**) مِن السُّمُو - وهو العلو والارتفاع -، أو العَلَامَة.

يعني: هذا الأمر وَضَعْتُ عليه علامةً بأنِّي طلبتُ البرَكة فيه، وأنا مستعينٌ باللَّه سبحانه، وما فعلته فيه سموٌّ ورفعةٌ لي.

ومنْه قول بعض الناس: صاحب السموِّ؛ يعني: العلوِّ.

أي: أستعين وأَتبرَّك بمن علا وسمَا وهو اللَّه سبحانه وتعالى.

قوله: (**اللَّهِ**) هذا علَمٌ على اللَّه عز وجل، ولا يُطلق على غيره، وهو علَمُ الأعلام.

ومعنى اللَّه: أي: المألوه، المعبود؛ يعني: بِاسم المعبود.

وأسماء اللَّه عز وجل تنقسم إلى أربعة أقسامٍ:

القِسم الأوَّل: لا يجوز إطلاقه إلا عليه سبحانه، مثل: اللَّه، القدوس.

القِسم الثاني: يُطلق على اللَّه وعلى غيره، مثل: الحكيم، الكريم.

القِسم الثالث: عند الإطلاق لا يَنصرف إلا للَّه عز وجل، وهو الربُّ.

فإذا قيل: الربُّ؛ فلا يُطلق إلا على اللَّه سبحانه وتعالى.

وإذا أضيف؛ فعلى حسبِ ما أضيف إليه، فإذا قيل: هذا ربُّ المال؛ يعني: صاحب المال، أو: هذا ربُّ الدار؛ يعني: هذا صاحب الدار.

القِسم الرابع: يجوز إطلاقه على اللَّه عز وجل، وعلى غيره، لكن الأَولى عدم إطلاقه إلَّا على اللَّه، مثل: السَّيِّد؛ لذلك لمَّا قِيل للنبي عليه الصلاة والسلام: أنت سيدنا وابن سيِّدنا، فقال: «إنَّ اللَّه هُوَ السَّيِّدُ»(١).

وفي الكُنى: فمِن ذلك لمَّا غيَّر النبيُّ عليه الصلاة والسلام كنية رجُلٍ من أبي الحكم إلى أبي شريحٍ(٢).

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب في كراهية التمادح، رقم (٤٨٠٦)، من حديث مطرِّف رضي الله عنه، ولفظه: «السَّيِّدُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى».

(٢) رواه أبو داود، كتاب الأَدب، باب في تغيير الاسم القبيح، رقم (٤٩٥٥)، من حديث شريح بن هانئ بن أبيه رضي الله عنهما، ولفظه: « لَمَّا وَفَدَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ قَوْمِهِ سَمِعَهُمْ يَكْنُونَهُ بِأَبِي الْحَكَمِ، فَدَعَاهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَكَمُ، وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ، فَلِمَ تُكْنَى أَبَا الْحَكَمِ؟»، فَقَالَ: إِنَّ قَوْمِي إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَتَوْنِي، فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ فَرَضِيَ كِلَا الْفَرِيقَيْنِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا أَحْسَنَ هَذَا، فَمَا لَكَ مِنَ

هذه الأقسام الأربعة في الإطلاقات على اللَّه عز وجل.

قوله: (**الرَّحْمَنِ**) هذا اسمٌ من أسماء اللَّه.

(**الرَّحِيم**) أيضاً اسمٌ من أسماء اللَّه.

وكلا الاسمين يعودان إلى صِفة الرحمة، والرحمن: الصفة المتعلِّقة بذاته، والرحيم: الصفة الواصلة الى خلْقه.

والرحمة تنقسم إلى قِسمين:

القِسم الأوَّل: رحمةٌ مخلوقةٌ؛ كما قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «خَلَقَ اللَّهُ مِئَةَ رَحْمَةٍ، فَوَضَعَ وَاحِدَةً بَيْنَ خَلْقِهِ، وَخَبَأَ عِنْدَهُ مِئَةً إِلَّا وَاحِدَةً»(١).

القِسم الثاني: رحمةٌ غير مخلوقةٍ؛ وإنَّما هي صفةٌ من صفات اللَّه سبحانه وتعالى.

الْوَلَدِ؟»، قَالَ: لِي شُرَيْحٌ، وَمُسْلِمٌ، وَعَبْدُ اللَّهِ، قَالَ: «فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ؟»، قُلْتُ: شُرَيْحٌ، قَالَ: «فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ».

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الرقاق، باب الرجاء مع الخوف، رقم (٦٤٦٩)، ومسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة اللَّه تعالى وأنها سَبقت غضبهُ، رقم (٢٧٥٢)، من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه.

وقال ابن عبَّاسٍ[١] رضي الله عنهما في قوله (**الرَّحْمَنِ الرَّحِيم**): «اسمان رَقِيقَان – يعني: واسعان – أحدهما أرقُّ – يعني: أوسع – من الآخر»[٢].

فالرحمن أوسع من الرحيم؛ لأنَّ الرحيم خاصٌّ بالمؤمنين، والرحمن عامٌّ لجميع الناس؛ قال سبحانه: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾ [الأحزاب:٤٣].

فإذا قيل: ما الفرْق بين الرحمن والرحيم؟

الفرْق الأوَّل: الرحمن لا يجوز إطلاقه إلا على اللَّه، أمَّا الرحيم فيجوز إطلاقه على اللَّه وعلى غيْر اللَّه، فتقول: أنت رجُلٌ رحيمٌ، ولا يجوز أن تقول: أنت رحمنٌ أو أنت الرحمن.

---

(١) هو: أَبو العباس عَبد اللَّه بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، القُرشِيّ الهاشمي، ابن عمّ رسول اللَّه صَلى اللَّه عَلَيه وسَلم، وُلد قبل الهجرة بثلاث سنواتٍ، وتوفي سنة (٦٨هـ). الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (٦/ ٢٢٨).

(٢) تفسير البغوي (١/ ٥١)، تفسير ابن كثير (١/ ١٢٥).

لكن لو أضيفت كلمة رحمن بالإضافة يجوز كـ «رَب»، فيقول: هذا رحمن هذه البلدة، ويقال: هذا رحمن اليمامة وهكذا.

الفرْق الثاني: أنَّ الرحمن دالٌّ على الصفة المتعلقة باللَّه، والرحيم دالٌّ على تعلِّقها بالخلْق.

فمَثلاً: لو أنَّ شخصاً أَوشك على الهلاك ثم عُوفي؛ فتقول: هذا رجُلٌ تداركتْه رحمة اللَّه.

فالرحمن دالٌّ على اللَّه، والرحيم أَثَرُ هذه الرحمة على المخلوق.

الفرْق الثالث: أنَّ اسم الرحمن أوسع، مِثلما قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما عن الرحمن، فهو شاملٌ للكفار وللمؤمنين، وأمَّا الرحيم فهو خاصٌّ بالمؤمنين؛ كما قال سبحانه: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾ [الأحزاب:٤٣].

واسم الرحمن عامٌّ للجميع في الدنيا، وأمَّا الرحيم خاصٌّ بالآخرة فقط.

لذلك إن شئتَ قلتَ: الرحمن اسمٌ تعلُّقه بالصفة في الدنيا والآخرة، والرَّحيم خاصٌّ فقط بالمؤمنين في الآخرة.

قال: (كِتَابُ التَّوْحِيدِ).

(**كِتَابُ**) الكِتاب مأخوذ من الكَتْب وهو الجَمْع[١]، فكلُّ من جَمع شيئاً يقال له كتَبه.

فمن جَمع - مثلاً - تمراً، يقال: هذا مكتوبٌ من التمر، وكذا من جَمع الحروف وصنَّف يقال: هذا كِتابٌ.

وجَرت عادة المصنِّفين من العلماء أن يضعوا الأكبر: الكِتاب ثُم الباب ثُم المسألة، وهذا ما صَنعه المصنِّف رحمه الله في كِتابه هذا؛ فجَعل كِتاباً هو أُمُّ الأبواب فيما بعده، ووَضع مسائل في نهاية كلِّ بابٍ.

ثُم قال: (**التَّوْحِيدِ**) يعني: هذا كتابٌ أَذكر فيه ما هو الواجب في توحيد اللَّه عز وجل.

والتوحيدُ **لغة**: مصدر وحَّد يوحِّد توحيداً[٢].

وشرعاً: إفراد اللَّه عز وجل بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته[٣].

---

(١) الصحاح للجوهري (١/ ٢٠٨).

(٢) تاج العروس للزبيدي (٩/ ٢٦٦).

(٣) أصول الدين الإسلامي للشيخ محمد بن عبد الوهاب (١/ ٥).

وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام، وتقسيمه استقرأه السلف رحمهم الله في ظهور المخالفين، فإذا ظهَر مخالفٌ يصحُّ أن نَجعل قِسماً في التوحيد؛ للردِّ عليه.

القِسم الأوَّل: وهو أصل الأقسام كلها، وهو توحيد الربوبية: **وهو إفراد اللَّه بأفعاله سبحانه وتعالى**؛ أي: إثبات أنَّ اللَّه عز وجل الخالق الرازق المدبِّر المحيي المُمِيت وهكذا[1]، فلا نقول: الذي يُحيِي هو غير اللَّه، ولا نقول: الذي يُمِيت هو غير اللَّه.

فمَن قال مثلاً: أنَّ اللَّه هو الذي يُنزل المطر.

نقول: أنت أَفردتَ اللَّه بفعله؛ فالفعل إنزال المطر، وأنت نسبتَ هذا الإنزال للَّه؛ فهذا توحيد الربوبية.

وتوحيد الربوبية لم يُنازِع به أحدٌ، فأبو جهلٍ ومَن معه من كفار قريش ومَن قَبلهم، ومَن بعدهم؛ يُقرُّون بهذا التوحيد؛ لأنَّه لا يمكن إنكاره؛ لهذا قال سبحانه: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُوْنَ﴾ [العنكبوت:٦١]، وقال:

---

(١) تيسير العزيز الحميد لسليمان بن عبد اللَّه (١/ ١٧).

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدىً أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ:٢٤]، وقال: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُوْنَ﴾ [لقمان:٢٥]، فهم لا يُنكرون توحيد الربوبية.

ويسمَّى: «توحيد المعرفة والإثبات»؛ يعني: توحيد معرفة اللَّه، وتوحيد إثباته - بأنَّ الرب موجود - سبحانه وتعالى.

وتوحيد الربوبية لا يَكفي لدخول الجَنَّة والنجاة من النَّار؛ بل لا بدَّ من الإتيان بنوعَيِ التوحيد معه - توحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات -.

وتوحيد الربوبية يسمَّى: «التوحيد الخَبَري»؛ يعني: تُخبر عن اللَّه بأنَّ الذي أَنزل المطر هو اللَّه.

ويسمَّى: «توحيد المعرفة» فأنت عرفتَ بأنَّ اللَّه هو الذي أَنزل المطر.

فيسمَّى: توحيد الربوبية، وتوحيد المعرفة، وتوحيد الإثبات.

والدليل على أنَّ توحيد الربوبية هو الأصل في التوحيد؛ قوله سبحانه: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ﴾ [الفلق:١]، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾

[الناس:١]، هذه في توحيد الربوبية، ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ [الناس:٣] هذه في توحيد الألوهية.

وجميع أقسام التوحيد - من توحيد الذَّات، أو توحيد الطاعة -؛ كلُّها تَرجع إلى توحيد الربوبية؛ فتوحيد الربوبية هو الأمُّ في التوحيد.

القِسم الثاني: توحيد الألوهية: **وهو إفراد اللَّه بأفعال العباد**(١)؛ أي: أنَّ نيَّتك في كلِّ طاعة تُفرِدُها للَّه خالصةً له.

يعني: تُفرِد عملك كالصلاة - مثلاً - تجعلها خالصة للَّه لا تجعلها لاثنين - اللَّه وغير اللَّه -؛ لذلك قال سبحانه: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [النحل:٥١]، وإنَّما يُفرَد، فتصلِّي للَّه، وتَقرأ القرآن للَّه.

فهنا أفردتَ فِعلك للَّه، فهذا توحيد الألوهية: إفراد اللَّه بأفعال العباد.

وكذا تَطلب العِلم من أجل اللَّه؛ هذا إفراد اللَّه بفِعل العبد وهو طلب العِلم، وأفردتَ اللَّه بالقصد بقلبك فهذا هو توحيد الألوهية.

---

(١) تيسير العزيز الحميد لسليمان بن عبد الوهاب (١/ ١٩).

ويسمى توحيد الألوهية: «التوحيد الطَّلَبي»؛ يعني: تطلب بعبادتك وجه اللَّه.

ويُسمَّى: «التوحيد الإرادي»؛ يعني: لا تريد إلا وجه اللَّه.

ويُسمَّى: «توحيد القصد»؛ يعني: تَقصد بهذه الطاعة وجْه اللَّه.

وتوحيد الألوهية هو الذي مِن أجْله بعَث اللَّه عز وجل الرسل وإلا فكانت الأرض على التوحيد؛ لذلك قال سبحانه: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف:٥٦]؛ يعني: لا تفسدوا في الأرض بالشرك بعد أن كانت صالحةً بالتوحيد.

ولمَّا وَقع الشرك فيها بَعث اللَّه عز وجل الرسل من نوحٍ إلى محمدٍ عليهم الصلاة والسلام؛ لبيان هذا التوحيد؛ لذلك قال سبحانه: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف:٤٥]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، وقال اللَّه عز وجل عن نوح عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا

نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُوْنَ﴾ [المؤمنون:٢٣].

فكلُّ الآيات السابقة ما فيها توحيد ربوبيةٍ، وإنَّما يدعونهم إلى توحيد الألوهية؛ لأنهم يُقرُّون بتوحيد الربوبية.

وقال سبحانه: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:٦٥].

وقال سبحانه: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف:٧٣].

فجميع دعوة الرسل مِن أجْل توحيد الألوهية، وهو الذي وقعت فيه الخصومة بين الرسل وأقوامهم، وهو أكثر شِرْك العالمين؛ وهو دعاء مع اللَّه غيره كالأموات والجِنِّ وغير ذلك.

القِسم الثالث: توحيد الأسماء والصفات.

وهو في أصله عائدٌ إلى توحيد الربوبية؛ أي: إذا أَثبتَّ ربّاً فتُثبت أنه سميعٌ بصيرٌ عليمٌ حكيمٌ وهكذا.

وهو إثبات ما أَثبته اللَّه لنفْسه، وما أثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم من غير تحريفٍ، ولا تعطيلٍ، ومن غير تكييفٍ، ولا تمثيلٍ، ونفْي ما نفاه اللَّه عز وجل عن نفْسه وما نفاه عنه رسوله عليه الصلاة والسلام(١).

من غير تحريفٍ: ما أُحرِّف المعنى فأقول اليد: النعمة؛ وإنما أُثبت اليد للَّه.

ولا تعطيلٍ: فلا أقول: إن اللَّه لا يَسمع - مثلاً -، تعالى اللَّه عن ذلك.

ومن غير تكييفٍ: لا أُثبت صفةً للَّه على تكيِيفِي، فلا أقول مثلاً: يد اللَّه مِثل يد فلان - تعالى اللَّه عن ذلك -، أو يد اللَّه مِثل كذا؛ هذا من التكييف، أو أقول: يد اللَّه كيفِيَّتُها كذا وكذا فأُكَيِّفها من غير تمثيل بمخلوقٍ.

ولا تمثيلٍ: لا أُمَثِّل هذه الصفة بشيءٍ من المخلوقات فأقول - مثلاً -: سمْع اللَّه مثل سمْع فلانٍ، تعالى اللَّه عن ذلك وهكذا.

---

(١) تيسير العزيز الحميد لسليمان بن عبد اللَّه (١/ ١٩).

وهذا التوحيد مقرٌّ به إبليس؛ قال سبحانه عنه: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ﴾، أَثبَت صفة من صفات اللَّه وهي العزة، ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص:٨٢].

وكَفَر بهذا التوحيد الجهميَّة[١]، وما تفرَّع منهم كالمعتزلة[٢]، والأشاعرة[٣]، والماتُرِيدِيَّة[٤]، وغيرهم.

ولا يكون العبد موحِّداً إلا إذا أتى بجميع هذه الأنواع الثلاثة.

---

(١) الجهمية: هم أتباع جهم بن صفوان. الفرق بين الفرق للبغدادي (ص١٩٩)، الملل والنحل للشهرستاني (١/ ٨٦).

(٢) المعتزلة: هم أصحاب واصل بن عطاء الغزالي، اعتزل عن مجلس الحسن البصري. التعريفات للجرجاني (ص ٢٢٢)، الملل والنحل للشهرستاني (١/ ٤٣).

(٣) الأشعرية: هم أصحاب أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري. الملل والنحل والشهرستاني (١/ ٩٤).

(٤) الماتريدية: هم فرقة كلامية تنسب إلى أبي منصور الماتريدي، وقد مرَّت بعدة مراحل، ولم تُعرف بهذا الاسم إلا بعد وفاة مؤسِّسها. الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة (١/ ٩٥).

فلا يَكفي أن يكون مقرّاً بتوحيد الربوبية بأن اللَّه هو الخالق الرازق المدبِّر، ويُخلُّ بتوحيد الألوهية فيطوف على القبر مثلاً.

ولا يكون الشخص موحِّداً، فيقِرُّ بأن اللَّه هو الخالق الرازق المدبِّر ويُصلِّي للَّه ويَعبد اللَّه، ولكن يقول ليس للَّه أسماء ولا صفات - تعالى اللَّه عن ذلك -.

لذلك قال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٨٠]، فسمَّاهم مُلحِدين حتى ولو أتوا بتوحيد الربوبية أو بتوحيد الألوهية.

وتوحيد الربوبية يَلزم منه توحيد الألوهية؛ ومعنى هذا الكلام: أنَّ الشخص إذا كان يقرُّ أنَّ اللَّه هو الذي يَرزقه ويميته ويُحيِيه؛ فيَلزم من ذلك أن يعبده.

وتوحيد الألوهية متضمِّنٌ لتوحيد الربوبية؛ يعني: أنَّ الشخص إذا قال: «يا اللَّه» فمعناه أثبتَ وجود اللَّه.

مثل: لو دَخلتَ الغُرفة فمعنى ذلك أنَّك دخلت البيت؛ لأنَّ الغُرفة داخل البيت.

قال ابن القيِّم رحمه الله: «كلُّ آيةٍ في القرآن فهي متضمِّنةٌ للتوحيد، شاهدةٌ به، داعيةٌ إليه»(١).

وأَجمع أهْل العِلم على أنَّ الموحِّد مآله الجَنَّة؛ لأهمية التوحيد.

وتعريف الشرك: **دعوة غيرِ اللَّه معه.**

فمثلاً: لو قال شخصٌ: يا فلان - صاحب القبر - ارزقني؛ فهو دعاءٌ مع اللَّه غيره.

أو قال: يا صاحب القبر اغفر لي - والعياذ باللَّه -؛ فهذا دعاءٌ مع اللَّه غيره، وهذا شركٌ.

وهذا التعريف - وهو: دعوة غير اللَّه معه -؛ أَخْصر تعريفٍ للشرك، وذَكره الشيخ رحمه الله في الأصول الثلاثة(٢).

وتعريفٌ آخر ومعناه مِثله، وهو: **مساواة غير اللَّه باللَّه فيما هو من خصائص اللَّه**(٣).

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٤١٧).

(٢) متون طالب العلم، المستوى الأوَّل، الأصول الثلاثة (ص٤٧).

(٣) حاشية كتاب التوحيد لعبد الرحمن بن قاسم (١/ ١٥).

«**مساواة غير اللَّه باللَّه**»؛ يعني: عبادةٌ لا تُصرَف إلا للَّه، وأنا أَصرفها لغيره، وهذه العبادة لا تُصرف إلا للَّه، فمن صَرف لغير اللَّه؛ فقد وَقع في الشرك الأكبر.

والشيخ رحمه الله وَضع في كلِّ بابٍ نصوصاً، ورتَّبَها ترتيباً بديعاً؛ يَقصد مِن كلِّ نصٍّ حُكماً؛ أي: أنَّ ترتيبه للآيات ليس جَمعاً فقط؛ وإنما جَمعها ورَتَّبها كما سيأتي في مقاصد الشيخ رحمه الله.

وفي أوَّل هذا الكِتاب - كِتاب التوحيد - ساق المصنِّف رحمه الله خمس آياتٍ وأثَراً وحديثاً.

قوله: (**وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى**) (**قَوْلُ**) يَصحُّ بالرفع على أنَّه خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ - وهذا قولُ اللَّه -، أو: قولُ اللَّه كذا.

ويَصحُّ بالجر على أنَّه معطوفٌ على التوحيد.

قوله: (**﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾**) استَفتح المصنِّف رحمه الله كتابه بهذه الآية؛ لبيان الحِكمة مِن خلْق الإنس والجنِّ، وأنَّ اللَّه ما خَلقك إلا للتوحيد، تعرف ما الذي خلقك اللَّه عز وجل من أجله وهو التوحيد.

فقال: (﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُون﴾) يعني: وما خلقتُهم إلا لآمُرَهم أو أنهاهم؛ ليوحِّدوني.

فاللَّه عز وجل فعَل الأوَّل، وطلَب من الخلْق فِعل الثاني.

ويقال: الحِكمة من خلْق الخلْق العبادة، ولا يقال: المصلحة من خلْق الخلْق العبادة.

فإذا قيل: المصلحة؛ فكأنَّ اللَّه يَنتفع بعبادة الخلْق؛ واللَّه عز وجل غنيٌّ عن عباده، فهو خلَقهم لا ليستكثر بهم من قلَّةٍ، ولا ليتقوَّى بهم من ضَعْفٍ؛ وإنما خلقهم لحِكمةٍ، هي: أن يعبدوه، وهم إن قَصَّروا في عبادته سبحانه فهم الذين يَتضرَّرون من ذلك.

فدلَّ على أنَّ كلَّ واحدٍ محتاجٌ للَّه سبحانه ولا يستغني عنه طرفة عَينٍ، واللَّه لكرَمه على عبده أَدخله الجَنَّة، ومَن أَشرك به غيره عذَّبه سبحانه وتعالى بعدْله.

فقال: (﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾) قال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: «كلُّ آيةٍ وَردت في كتاب اللَّه يعبدون؛ يعني: يوحِّدون»[1].

فإذا كان اللَّه خَلقك من أجْل التوحيد؛ يجب أن تَعلم ما هو التوحيد.

قوله: (﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوْنِ﴾) قال ابن عباس: إلا ليوحِّدونِ[2].

فاللَّه عز وجل أعطانا الهواء والماء والرزق؛ من أجْل أن نستعين بها على توحيد اللَّه.

ثُم قال رحمه الله: (وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوْتَ﴾ الآيَةَ) ساقها رحمه الله؛ لبيان أنَّ جميع الرسل بَيَّنوا لأقوامهم التوحيد، وأَمروهم به، ونَهوهم عن الشرك؛ فدلَّ على أهمية التوحيد.

(١) تفسير الطبري (١/ ٣٨٥).

(٢) تفسير الطبري (٢١/ ٥٥٤).

وبيَّن أنَّ دعوة الرسل جميعاً للحِكمة التي خلق اللَّه عز وجل الجن والإنس لها، وهي العبادة.

فهنا يقول لك المصنِّف: اللَّه خَلقك للعبادة، والرسل بُعِثوا من أجْل بيان هذه العبادة؛ لذلك قال: (﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً**﴾) [النحل:٣٦].

وهذا مِن فضْل اللَّه عز وجل أنَّه لم يَدَعْ أُمَّةً إلا وأَرسل إليها رسولاً من جِنسها؛ بل من لسانهم؛ لذلك قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:٤].

وجَعلهم من جِنْسه، فلم يبعث للإنس رسولاً من الجنِّ؛ وإنَّما بَعث لهم رسولاً من أنفسهم؛ يُكلِّمهم ويكلمونه، ويجالسهم ويجالسونه، ويُؤَاكِلُهم ويؤاكلونه، ويسألهم ويسألونه، ويَتَّبعونه، ويَقتفون أثره وهكذا.

ولو كان هناك بلدةٌ كلُّهم صالحون لبَعث إليهم رسولاً؛ وهذا من رحمة اللَّه وكرمِه؛ لذلك قال سبحانه: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً﴾ [الإسراء:٩٥].

وهذا من رحمة اللَّه ولطفه بعباده؛ فكلُّ مجتمعٍ يحتاج إلى داعيةٍ حتى ولو كانوا صالحين، (﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾).

وكلُّ داعيةٍ - فضْلاً عن غيره - يحتاج إلى صحبةٍ صالحةٍ، حتى الرسل أَخبر اللَّه عز وجل أنَّ لهم صُحبةً؛ قال تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠].

فالتوحيد لا يكون إلا بنفيٍ وإثباتٍ، وهما ركنا التوحيد؛ لو اختلَّ أحدهما لم يكن الشخص موحِّداً.

لذلك قال: (**أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ**) يعني: أَفردوا العبادة للَّه، وهذا لا يَكفي في التوحيد؛ بل (﴿**وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾) يعني: لا بُدَّ أن يُكفر بالطاغوت - وهو ما عُبد من دون اللَّه -.

والشرع ليس من مقاصده إقامة العبادة فقط؛ وإنَّما أن تُخلَص العبادة للَّه؛ ولهذا أَخبر اللَّه عز وجل بأنَّ الكفار يَتعبَّدون اللَّه، لكنهم لم يُخلِصوا العبادة له؛ فذُمُّوا حتى ولو كانوا يَعملون أعمالاً صالحةً؛ قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ [الأنفال:٣٦]، فهذه عبادةٌ،

ومن العبادات: القتال، واللَّه يقول: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ [البقرة:٢١٧]، فلا تُحمَد العبادة لوحدها.

وكذلك ذكر عن المنافقين، فقال: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾ [التوبة:٥٤]، فهم يُنفِقون ومع ذلك لم تُقبل منهم النفقة؛ لأنَّ المقصود من العبادة هو إفراد اللَّه بالعبادة، لكنَّه اختلَّ عندهم فذُمُّوا؛ فلا بدَّ من التبرُّؤ من عبادة غير اللَّه.

فلو قال شخصٌ: إنَّ اللَّه واحدٌ.

نقول: ما يكفي؛ بل يجب أن تَزِيد أنَّ كلَّ معبودٍ غير اللَّه فعبادته باطلةٌ.

وقال: (وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ﴾ الآيَةَ).

ساقها رحمه الله؛ لبيان أنَّ أوَّل محرَّمٍ نَهى عنه الرسل هو الشرك؛ لخطورته، وأوَّل ما يَدعون إليه التوحيد؛ لأهميته.

قال: (وَقَوْلُهُ: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ الآيَةَ) ساقها رحمه الله؛ لبيان أنَّ أوَّل حقٍّ للَّه، وأوَّل واجبٍ يجب أن يفعله العبد؛ هو عبادة اللَّه، أي: توحيد اللَّه، فدلَّ على أهمية التوحيد.

(﴿وَقَضَى﴾) يعني: أمَر ووصَّى.

والمراد بالقضاء هنا القضاء الشرعي الديني؛ يعني: أنَّه واجبٌ على جميع الخلْق أن يُؤَدُّوا هذا الأمر، فمن لم يُؤَدِّه؛ أَثِم؛ لذلك قال: (﴿وَقَضَى﴾) شرعاً وديناً.

(﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾) يعني: يجب عليكم، (**أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ**) فأوَّل الأوامر التي صَدرت هي وحدانية اللَّه عز وجل وحْده.

فدلَّ على أن أعظم الأوامر هو التوحيد.

فلو أتى شخصٌ إلى قومٍ يعبدون ضريحاً وهم لا يُصَلُّون؛ نقول: لا يأتِ ويأمرهم بالصلاة أوَّلاً، وإنما أوَّلاً يأمرهم بالتوحيد وينهاهم عن الشرك، ثُم بعد ذلك بقيَّة الأوامر؛ لأن أوجب الواجبات التوحيد.

فمثلاً: لو كنتَ في مكانٍ، وأوَّل ما تَدخل هذا المكان يقال لك: اجلِس في ذاك المكان، وابتَعد عن ذاك المكان، فإنَّ ذاك المكان فيه حيواناتٌ - مثلاً - مفترِسة، فما يقال لك أيُّ أمرٍ آخر، فأوَّل أوامر اللَّه في العبادات جميعاً هو التوحيد والتحذير من ضدِّه؛ فدلَّ على أهميته.

ثُم بعد ذلك بقية الشرائع؛ وبالوالدين إحساناً وبذي القربى والمساكين؛ لأنَّ الصدقات لا تُقبل إذا لم يكن أصل الدين موجوداً وصحيحاً وسليماً.

وكذا الجار وثوابه لا يثاب على الإحسان إليه، وأصل الدين فاسدٌ.

فالمراد الأساس، أصْلِح الأساس، ثُم ينبني بعد ذلك ما فوقه من الفروع.

وقال هنا: (﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾) أعظم حقٍّ من حقوق الخلْق هو برُّ الوالدين، ولم يبيِّن ما هو الإحسان إليهم؛ وهذا راجعٌ للعُرف؛ فكلُّ إحسانٍ حسب عُرف كلِّ بلدٍ وزمنٍ يُفعل مع الوالدين.

قَالَ رحمه الله: (وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ الآيَةَ) ذَكر المصنِّف رحمه الله هذه الآية؛ لبيان أنَّ أوجب الواجبات وأوَّلها وأهمَّها وأفرضها هو توحيد اللَّه سبحانه.

(﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ﴾) العبادة: اسمٌ جامع لِمَا يُحبُّه اللَّه ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة[١].

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٠/ ١٤٩).

أي: أن كلَّ أَمْرٍ أَمَرَ به اللَّه عز وجل فهو عبادةٌ؛ سواء كان قولاً - كذكر اللَّه -، أو فعلاً - كالصلاة -.

والعبادات تنقسم إلى قِسمين:

القسم الأوَّل: الظاهرة، مِثل: الحج.

والقسم الثاني: الباطنة، مِثل: الخوف، والتوكل، والخشية وغير ذلك.

(﴿**وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً**﴾) يدلُّ عليه قوله: (﴿**وَاعْبُدُوا اللَّهَ**﴾) فإنَّ عبادة اللَّه وحْده من مستلزماتها أن يكفر بالطاغوت، لكن (﴿**وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً**﴾) من باب التأكيد.

فقرَّر المصنِّف أنَّ أوجَب الواجبات هو التوحيد بثلاث آياتٍ؛ لئلا يُنازِع فيها أحدٌ، بأن يقول لماذا تَقرؤون التوحيد؟ أو لماذا تُكثرون من التوحيد؟ فساق لك آياتٍ أنَّ أعظم الأوامر التوحيد.

فإذا قال شخصٌ: أنا موحِّدُ، فلماذا أَقرأ التوحيد؟

نقول: لأن القلب قد يَدخله شيءٌ مِن قوادح الشرك - من الرياء، أو كثرة المعاصي التي قد تؤدي إلى القدح في التوحيد -.

بل إن النِّعم قد تؤثر في توحيد الشخص؛ كما قال عليه الصلاة والسلام رِوَايَةً عَنْ ربِّهِ: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالكَوْكَبِ»(١).

قال الشيخ محمَّد بن عبد الوهاب: «فدلَّ على أنَّ الشخص قد يُمسِي مؤْمناً ويصبح كافراً»(٢).

وفي صحيح مسلمٍ: «يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِناً وَيُمْسِي كَافِراً، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِناً وَيُصْبِحُ كَافِراً، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا»(٣).

---

(١) رواه البخاريُّ، أبواب الاستسقاء، باب قول اللَّه تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «شُكْرَكُمْ»، رقم (١٠٣٨)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب بيان كُفر من قال: مُطرنا بالنوء، رقم (٧١)، من حديث زيد بن خالدٍ الجهني رضي الله عنه.

(٢) كتاب التوحيد (ص ٣١٤).

(٣) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن، رقم (١٨٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال النوويُّ رحمه الله[١]: «فهذا يدلُّ على تقلُّب الحق في قلب الشخص؛ فقد يقوَى إيمانه في أوَّل النهار ويَضعُف في آخره، وقد يَدخل في الشرك وهو لا يَعلم، وقد لا يقوى توحيده»[٢].

فإذا كان الشخص دائماً متعلِّقاً بكِتاب اللَّه عز وجل وبسنَّة النبيِّ صلى الله عليه وسلم ومكثِراً من قراءة العقيدة؛ يكون أقوى في الثبات.

والدليل: قول اللَّه عز وجل للنبي صلى الله عليه وسلم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب:١]؛ يعني: تمسَّك بالتقوى وزِدْ منها، وقال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا﴾ [النساء:١٣٦]؛ يعني: زيدوا في إيمانكم، فهذا الخطاب لهم، وحتى للنبي عليه الصلاة والسلام.

فدلَّ على أنَّ التوحيد يحتاجه الموحِّد، ويحتاجه غير الموحِّد؛ ليَخرج من لَوْثَةِ الشرك إلى الحَنِيفِيَّة وهي التوحيد.

---

(١) هو: أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري بن حسن النووي، وُلد سنة (٦٣١هـ)، وتوفي سنة (٦٧٦هـ). طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٨/ ٣٩٦).

(٢) المنهاج شرح صحيح مسلمٍ للنوويّ (١/ ١٥٠).

وأعظمُ ذنبٍ يُفعلُ في الأرضِ هو الشرك باللَّه، كما في حديث ابن مسعودٍ رضي اللَّه عنه[١] قال: «أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدّاً وَهُوَ خَلَقَكَ»[٢]، لذلك لا يَغفره اللَّه عز وجل.

فإذا حلَّ داعيةٌ بأرضٍ ورأى فيها الشرك ورأى فيها الخمور والمنكرات المتعددة - مثلاً -؛ فأوَّلُ شيءٍ يَبدَأ به هو أن يدعوهم إلى توحيد اللَّه وينهاهم عن الشرك.

---

(١) هو: عبد اللَّه بن مسعود بن غافل بن حبيب أبو عبد الرحمن الهذلي. أَسلم في أوَّل بزوغ فجر الإسلام، وتوفي (٣٢هـ أو ٣٣هـ).أسد الغابة لابن الأثير (٣/ ٣٨١).

(٢) رواه البخاريُّ، كتاب تفسير القرآن، باب قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، رقم (٤٤٧٧)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب، وبيان أعظمها بعده، رقم (٨٦).

ثُمَّ بعد ذلك قال: (قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى وَصِيَّةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم الَّتِي عَلَيْهَا خَاتَمُهُ).

وهذا الأثر في تفسير هذه الآية: (﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾) [الأنعام:١٥١].

وذَكره المصنِّف رحمه الله؛ لبيان أنَّ وصية النبيِّ صلى الله عليه وسلم هي البعد عن الشرك وتوحيد اللَّه.

قال: («مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى وَصِيَّةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم) يعني: من أراد أن يَنظر هل النبيُّ عليه الصلاة والسلام وصَّى بشيء؟

فلينظر ما في كتاب اللَّه في الوصايا العشر في آخر سورة الأنعام؛ يعني: لو كان النبي عليه الصلاة والسلام يريد أن يوصي بوصيةٍ، ويضع عليها ختْمه لم يوصِ إلا بخواتيم سورة الأنعام.

فلم يوصِ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بشيءٍ لم يَظهر إلا بعد وفاته؛ بل كلُّ ما بلَّغ به ظَهر في حياته.

(الَّتِي عَلَيْهَا خَاتَمُهُ) أي: كأنَّ وصية النبيِّ صلى الله عليه وسلم التي ختمها بختمه؛ هي المذكورة في قوله: (﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ

عَلَيْكُمْ﴾)، وهي آيات المحرَّمات العَشر المذكورة في ثلاث آياتٍ في أواخر سورة الأنعام، وأوَّل ما حُرِّم هو الشرك.

قال: (**مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى وَصِيَّةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم الَّتِي عَلَيْهَا خَاتَمُهُ**).

يعني: النبيُّ عليه الصلاة والسلام لو أراد أن يوصي لم يوصِ إلا بالتوحيد، مع أن النبيَّ عليه الصلاة والسلام وصَّى بالتوحيد، فقال: «مَنْ كَانَ آخِرُ كَلامِهِ مِنَ الدُّنْيَا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الجَنَّة»[١].

(**فَلْيَقْرَأْ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ الآيَةَ»**).

يعني: كأن المصنِّف يقول: هذه الآيات بيَّنَتْ أن أوجب الواجبات التوحيد، والسُّنَّة أيضاً أتتْ بأن أوجب الواجبات التوحيد.

هذه الوصايا العشر جميعاً.

(١) رواه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب من مات لا يُشرك باللَّه شيئاً دَخل الجنة، ومن مات مشرِكاً دَخل النار، رقم (١٥٤)، من حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه، ولفظه: «مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، ثُمَّ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا دَخَلَ الجَنَّةَ».

فإذا لم تُشركْ، وأحسنت بوالديك، ولم تقتل أولادك من إملاق، ولم تقرب الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولم تقتل النفس التي حرَّم اللَّه إلا بالحق، ولم تقرب مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن، وأوْفَيْت الكيْل والميزان بالقسط، وإذا قلْت عدلْتَ - ولو كان ذا قربى -، وأوفيت بعهد اللَّه، واتَّبعت صراط اللَّه المستقيم ولم تتبِع السُّبُل؛ فقد عملتَ بوصية النبيِّ عليه الصلاة والسلام.

فلمَّا بيَّن الأساس وهو التوحيد؛ بيَّن ما يَتفرَّع منه.

(﴿**قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ**﴾) يعني: أَقبِلوا أيها الناس وهلمُّوا؛ لأبيِّن لكم وأتلو عليكم ما حرَّم ربُّكم عليكم.

(﴿**أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً**﴾) فأوَّل محرَّمٍ وأعظم محرَّمٍ هو الشرك باللَّه عز وجل؛ لذلك في الصحيح[1] سُئل النبيُّ عليه الصلاة والسلام كما في حديث ابن مسعودٍ: «أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ ؟، قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدّاً وَهُوَ خَلَقَكَ».

---

(١) سبق تخريجه (ص)، عند قوله (وأعظمُ ذنبٍ يُفعلُ في الأرضِ هو الشرك باللَّه).

فإذا كان الشرك أعظم النواهي وأوَّلها؛ دلَّ على أن التوحيد هو أوجبُ الواجبات وهو أفضل الأوامر؛ لأنَّ فيه تعظيمٌ للَّه، وفيه إفراد اللَّه عز وجل بالعبادة، وفيه انصراف القلب بالكلِّيَّة للَّه.

وفي الشرك هضْمٌ للربوبية، وقدْحٌ في ألوهية اللَّه عز وجل، وتنقُّصٌ له.

وفيه عدم تحقيق صفات اللَّه عز وجل التي وَصف اللَّه عز وجل نفْسه بها من الوحدانية والقوة والعظمة والكبرياء.

فمَن أشرك فإنه لا يحقِّق هذه الصفات، فيتوجه إلى صاحب القبر وفي قلْبه أن اللَّه ضعيفٌ لا يستطيع أن يقضي حاجاته - والعياذ باللَّه -؛ لذلك الموحِّد هو المعظِّم للَّه وحْده.

(﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾) إلى آخر الآيات، وهي الوصايا العشر، وما مِن نبيٍّ بُعث إلا ووصَّى أمَّته بها.

وأوَّل ما يوصي الأنبياء أقوامهم: بالبعد عن الشرك والدعوة إلى التوحيد.

قال: (﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ﴾) وهو التوحيد.

فإذا قيل: إنَّ الحقَّ له أكثر من طريقٍ، فمثلاً لو قال شخصٌ: أهل الإسلام على حقٍّ والنصارى على حقٍّ واليهود على حقٍّ.

نقول: لا؛ اللَّه يقول: (﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً﴾) صراطٌ واحدٌ فقط، ليس أكثر من طريقٍ، ومن سلَك هذا الصراط نجا.

أمَّا الأهواء والآراء فليست هوىً واحداً ولا رأياً واحداً؛ بل متشعِّبةً ولا تنتهي؛ لذلك قال: (﴿فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾).

فلمَّا كانت الأهواء كثيرةً والمعتقدات المخالفة كثيرةً؛ لم تُذكر، ولمَّا كان الحق واحداً؛ ذُكِر.

ثُم بعد ذلك قال: (وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه قَالَ: «كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم عَلَى حِمَارٍ، فَقَالَ: يَا مُعَاذُ! أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى العِبَادِ، وَمَا حَقُّ العِبَادِ عَلَى اللَّهِ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

قَالَ: فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى العِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَحَقُّ العِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَلَّا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً.

فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا» أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ).

ذكر المصنِّف هذا الحديث؛ لبيان أن التوحيد حقٌّ من حقوق اللَّه، فيجب أن يُصرف له، فهو المستحقُّ لذلك دون ما سواه.

فأوَّل واجب يجب على العباد أن يَفعلوه هو التوحيد؛ كما قال صلى الله عليه وسلم: (**حَقَّ اللَّهِ عَلَى العِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً**).

قال: (**كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم عَلَى حِمَارٍ**) يدلُّ على تواضع النبيِّ صلى الله عليه وسلم إذ كان يَركب الحمار.

ويدلُّ أيضاً على جواز الإِرْدَاف.

ويدلُّ أيضاً على جواز ركوب أكثر من اثنين - إذا لم تُخشَ الفتنة - على دابَّةٍ واحدةٍ، وكذا ما في حُكم الدابة إذا كانت تُطِيق ذلك، وهذا يختلف باختلاف قوَّة الدابة وضعْفها، فهذا الحمار الذي رَكِبه النبيُّ عليه الصلاة والسلام ومعاذ لم يشقَّ عليه ركوب اثنين.

ويدلُّ أيضاً على تواضع النبيِّ صلى الله عليه وسلم ومحبته لصحابته إذ كان يُردِفُهم معه على دابته، فكان يقرِّبهم منه قلباً وحِسّاً ويجعلهم بجانبه عليه الصلاة والسلام.

قال: (**فَقَالَ: يَا مُعَاذُ!**) يدلُّ على أنَّه يجوزُ أن ينادَى الشخص باسمه؛ فهنا قال: (**يَا مُعَاذُ**) من غير لقبٍ.

ويدلُّ على التلطُّف في التعليم، فقال له: **(يَا مُعَاذُ)** ليُصغِي معاذ إلى ما سيقوله النبيُّ صلى الله عليه وسلم.

وكان النبيُّ عليه الصلاة والسلام يحبُّ معاذاً، كما في الحديث الآخر: «يَا مُعَاذُ وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»[1].

(أَتَدْرِي) ذَكر النبيُّ عليه الصلاة والسلام ذلك بصيغة السؤال؛ ليَجلب انتباه المستمِع إليه.

وهذا من أساليب حُسن التعليم:

أحياناً بالإلقاء.

وأحياناً بالسؤال.

وأحياناً بالتعليم.

وأحياناً بالعمل، كصلاة النبيِّ عليه الصلاة والسلام وصعوده على المنبر ثم رجوعه.

---

(١) رواه أحمد في المسند، رقم (٢٢١١٩)، من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه.

وأحياناً بأخلاقه عليه الصلاة والسلام.

وأحياناً بتقريراته، وهكذا.

ويدلُّ على أهمية التوحيد؛ إذ كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يعلِّمهُ صحابته حتى وهم على الحمار.

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: «هذا يدلُّ على أنَّ هذه المسألة قد خَفيت على بعض الصحابة؛ لأنَّ معاذاً قال: اللَّه ورسوله أعلم»(١).

ويدلُّ أيضاً على حِرص النبيِّ عليه الصلاة والسلام على ترسيخ التوحيد والعقيدة في قلوبهم.

(**مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ**) يعني: ما هو الواجب على العباد أن يَفعلوه؟

(**وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ؟**) أي: ما هو الحقُّ الذي تكرَّم اللَّهُ عز وجل بهِ وتَفضَّل على عباده؟

قال: (**قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ**).

---

(١) كتاب التوحيد (ص١٨٠).

هذه المسألة العظيمة خَفيت على معاذ وهو من أكابر الصحابة ومن علمائهم؛ لذلك قال عليه الصلاة والسلام: «مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ أَمَامَ الْعُلَمَاءِ بِرَتْوَةٍ»[1] يعني: بخطوةٍ، فهو من أعْلم الصحابة، ومع ذلك قال: (**اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ**).

ويدلُّ على أنَّ المسؤول إذا كان لا يَعلم ولو شيئاً من مسائلِ العقيدةِ يقول: اللَّه أعلم.

ويدلُّ على أنَّه في حياة النبيِّ صلى الله عليه وسلم يجوز أن يقال: (**اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ**)؛ لنزول الوحي عليه، أمَّا بعد انقطاع الوحي بوفاة النبيِّ صلى الله عليه وسلم؛ فلا يجوز أن يقال: (**اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ**)؛ وإنَّما «اللَّه أعلم»؛ لأنَّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام قد مات.

(قَالَ: فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ) يعني: الذي يجب على العباد أن يَفعلوه وإن لم يفعلوا ذلك؛ عذبهم اللَّه بالنَّار؛ قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الجَنَّة وَمَأْوَاهُ النَّار وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢].

---

(١) رواه الطبراني في المعجم، رقم (٤١).

ومَن أطاعه أَدخله اللَّه عز وجل الجَنَّة؛ كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً﴾ [الكهف:١٠٧].

(أَنْ يَعْبُدُوهُ) يعني: أن يفردوه بالعبادة.

فممَّا يجب عليك وحدانية اللَّه عز وجل؛ لأَنَّه هو الذي خَلقك ورَزقك وأغدق عليك بالنِّعم، وهو المستحق للعبادة، فلا أحد سواه يستحق أن يرُكع له، وأن يُسجد له، وأن تُفرد أنواع العبادة إليه؛ إلا اللَّه وحده؛ لأنه هو الكبير العظيم.

والشخص أعظم ما يقدِّمه أن يُعفِّر وجْهه للرب الواحد الكبير المتعال، ولا يَخنَع بالقلب أو بالجسد لغير اللَّه عند قبرٍ أو عند شجرٍ أو عند حجرٍ ونحو ذلك.

(ولَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً) لأنَّ المحذور أن تُصرف النية لغير اللَّه.

فإذا انصرفت النية لغير اللَّه؛ انصرف معها العمل - والعياذ باللَّه -

.

فإذا توجَّه القلب لغير اللَّه؛ فقد يَذبح لغير اللَّه؛ لذلك قال سبحانه: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة:٥].

فيجبُ على العباد أن يُصلحوا نياتهم في إخلاصها للَّه في كلِّ طاعةٍ، وهذا هو التوحيد.

فإذا قيل: لماذا تأتي النصوص بعبادة اللَّه وحده والنهي عن الشرك، والناس اليوم قد تَقدَّموا، فلم يَعبدوا صنماً ولم يَعبدوا وثناً، ونحن الآن في عصر الحضارة ونحو ذلك؟

نقول: اللَّه عز وجل ذَكر عن إبراهيم قوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم:٣٦]، فالغالب على الناس في الأرض عدم الإسلام، وهو الشرك؛ للآية السابقة، ولقوله سبحانه: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [غافر:٥٩].

وكثيرٌ من أهل الأرض لا يَعبد اللَّه، وأقلُّ القِلَّة هم أهل الإسلام الخالص من الشَّوْب، فمثلاً: شرْق الأرض كثيرٌ منهم مَن يعبد الأصنام من البوذية ونحو ذلك، وهم مِن أكثر سكان أهل الأرض؛ فقرابة ربع الأرض في تلك الجهة من غير المسلمين، ممَّن لا يَعتنق الإسلام - مِن صرْف العبادة للصنم والركوع له -.

وصدَق إبراهيم لمَّا دعا: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم:٣٦]، والواقع يَشهد بذلك.

قال: **(وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ)** يعني: الذي تَكرَّم اللَّه عز وجل به وجَعله سبحانه وتعالى فضلاً منه، وحَقّاً عليه لعباده إن وحَّدوا.

وهذا الحق لا يوجبه الخلْق على اللَّه؛ يعني: ما يقول الخلْق: ألزمْنا عليك يا ربنا أن تُدخلنا الجَنَّة لأننا وحَّدناك؛ وإنما هذا حقُّ اللَّه تَفضل به عليك إنعاماً منه وإحساناً وتكرُّماً.

قال: **(أَلَّا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً)** دلَّ على أنَّ مآل الموحد هو الجَنَّة.

ويدلُّ على أن المُوَحِّد لا يُخلَّد في النَّار، فقوله: **(أَلَّا يُعَذِّبَ)** أي: عذاباً مخلَّداً.

وقد يُعذِّب اللَّه عز وجل الموحِّد إذا كان يَعمل الكبائر أو الصغائر ولم يغفرها اللَّه؛ قال سبحانه: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء:٣١]، وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾ [النساء:٩٣].

أمَّا خلود الموحِّد في النَّار فلا، فإن اللَّه وعد أن لا يُعَذِّب الموحِّد؛ لقوله: **(أَلَّا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً)** يعني: كأنَّ اللَّه يقول: إذا وحَّدتني أنا أعدك بالجَنَّة؛ وهذا من إنعام اللَّه وفضْله.

ومن كرَم اللَّه أن جَعل التوحيد موافقاً للفطرة، فالخلق مفطورون على التوحيد؛ بل إنَّ المُوغِل في الشرك إذا حَلَّت به الشدائد يَرجع لفطرته وهو التوحيد؛ قال سبحانه: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [العنكبوت:٦٥] يوحِّدون.

لذلك قال: **(وَحَقُّ العِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَلَّا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً)** هذا يدل على عِظم فضيلة التوحيد، فمَن أَفرد اللَّه وحده سبحانه بالعبادة؛ وعدٌ من اللَّه أَلَّا يعذبه بالخلود في النَّار؛ لذلك أَجمع أهل السنة على أنَّ مآل الموحد هو الجَنَّة.

لكن بعض الموحدين قد يَعمل المعاصي، وهذه المعاصي إمَّا أن يَغفرها اللَّه عز وجل بفضْله، أو أنَّ اللَّه عز وجل يُعذبه في النَّار بتلك المعاصي، لكن مآله الجَنَّة سواء غَفر اللَّه له - بما هو دون الشرك -، أو لم يَغفر اللَّه عز وجل له.

فإذا قيل: ما دام أنَّ الموحِّد مآله إلى الجَنَّة لماذا لا يَعمل السيئات؟ فنقول:

أوَّلاً: السيئات قد تُظلِم القلب وتُورِثه وقوعاً في الشرك أو النفاق.

ثانياً: لو قال لك شخصٌ: أنا أعطيك قصراً مُشَيَّداً لكن أغمسك في النَّار نصف ساعةٍ؛ لأنك أخذتَ مني عشرة آلاف ريالٍ - مثلاً - بغير حق، وشخصٌ آخر قال: لأنك لم تأخذ مني شيئاً؛ فسوف أعطيك القصر المُشَيَّد بدون أن أَغمسك في النَّار ولا ساعةٍ.

هل ستقول: أسرق العشرة آلافٍ، وأَنغمس في النَّار ساعةً ثُم آخذ القصر المُشَيَّد، أو تقول: لن أَسرق؛ أريد القصر المُشَيَّد بدون شيءٍ.

لا شكَّ أنك ستسلك السبيل الآخر فتبتعد عن السرقة - مثلاً - حتى تنال القصر المشيد وهكذا.

قال: (**قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: «لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا» أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ**).

قال: (**أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟**) يدلُّ على أنَّ السُّنَّة تبشير الناس بالأمر السارِّ، فكلُّ خبرٍ يُفرِح؛ على المسلِم أن يُخبر به، وأن ينشره ويبثَّه فيما هو مصلحةٌ دينيةٌ لك - مثلاً - أو لغيرك، واللَّه قال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢]؛ أي: وبشِّر المؤمنين إذا وحَّدوا بأنَّ لهم الجَنَّة؛ وهذه أعظم بشارةٍ.

وهنا فَرِح معاذ رضي الله عنه بأنَّ الموحِّد مآله الجَنَّة، فقال: (**أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟**) وأُخبرهم بهذا الخبر العظيم بأنَّ مآل الموحد الجَنَّة.

ويدلُّ على محبَّة الصحابة رضي الله عنهم للمسلمين؛ إذ نفوسهم تَتشوَّق لبشارة المسلمين بأمرٍ عظيمٍ.

ويدلُّ على أنَّ اللَّه لا يُعذِّب الموحِّد، ودلَّت نصوصٌ أخرى على أنه تحت المشيئة إن عَمل ذنوباً غير الشرك؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨].

قال: (**لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا**) هذا يدلُّ على أنه يُخشى على الصالحين من الاتِّكال على ما عندهم من التوحيد، وأنَّهم قد يَعملون المعاصي؛ لذلك قال: (**أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: «لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا»**).

فإذا قيل: لماذا قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم ذلك؟

نقول: هذا في أوَّل مطلع الدعوة، فلمَّا رَسخ الدين في نفوسهم؛ أَخبر معاذ الناس وبَشَّرهم بها بعد وفاة النبيِّ صلى الله عليه وسلم.

ويدلُّ أيضاً هذا الحديث على أنَّ المخاطَب إذا كان يُخشى منه قصورٌ في العمل الصالح؛ لا يُخبَر.

ويدلُّ أيضاً على جواز تخصيص العِلم أحداً دون الآخر، مِثل أن يُعلِّم أشخاصاً الفرائض ولا يُعلِّم آخرين؛ لأنهم قد لا يستطيعون تعلُّم الفرائض وهكذا.

(**لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا**) أي: قد لا يَفهمون هذا الحديث؛ فيَعملون المعاصي والسيئات، فقد يظن المستمع أن الزاني والسارق لا يُعذَّب؛ وهو تحت المشيئة إن شاء اللَّه عذَّبه وإن شاء غَفر له.

فيدلُّ على جواز كتمان العِلم للمصلحة، مثل: لو دَخل شخصٌ على عصاةٍ، وهم يَشربون الخمور، وقبْل أن يشربوا الخمور لو أخبرهم بهذا الحديث قد يشربونها، ويقولون: نحن لا نشرك باللَّه، فيظنون أنَّ اللَّه لا يعذِّب على شرب الخمر؛ وأنَّه تحت المشيئة.

قال: (**أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ**) هنا انتهى المصنِّف رحمه الله من الباب الأوَّل.



[٢]

بَابُ

فَضْلِ التَّوْحِيدِ، وَمَا يُكَفِّرُ مِنَ الذُّنُوبِ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾.

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «مَنْ شَهِدَ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ.

وَالجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ.

أَدْخَلَهُ اللَّهُ الجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ» أَخْرَجَاهُ.

وَلَهُمَا فِي حَدِيثِ عِتْبَانَ رضي الله عنه: «فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؛ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ».

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه مَرْفُوعاً: «قَالَ مُوسَى: يَا رَبِّ! عَلِّمْنِي شَيْئاً أَذْكُرُكَ وَأَدْعُوكَ بِهِ؟

قَالَ: قُلْ يَا مُوسَى: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

قَالَ: يَا رَبِّ! كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُونَ هَذَا.

قَالَ: يَا مُوسَى! لَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ غَيْرِي وَالأَرَضِينَ السَّبْعَ فِي كِفَّةٍ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي كِفَّةٍ؛ مَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ، وَالحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ.

وَلِلتِّرْمِذِيِّ وَحَسَّنَهُ: عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ! إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئاً؛ لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً».

الشَّرح:

لمَّا ذَكر المصنِّف رحمه الله في كتاب التوحيد أهمية التوحيد، وأنَّه واجبٌ على العبد، من حُسن التعليم أنَّك إذا أَمرته بشيءٍ تبيِّن له ثواب ذلك الشيء.

فذَكر المصنِّف رحمه الله في الكتاب الأوَّل أنَّ التوحيد هو أوجب الواجبات؛ فافْعلْه واحرصْ عليه، واخشَ أن تقدحَ فيه.

ثُم بعد ذلك قال لك: إن فعلتَ ذلك فإنَّ له فضْلاً عظيماً، وإنَّ هذا التوحيد يكفِّر الذنوب.

والتوحيد يكفِّر الذنوب لأن حسنته عظيمة، فمن حقق التوحيد؛ السيئات بجانبه تُمحى، وسيأتي في الباب الذي بعده أيضاً مزيد بيان.

وساق المصنِّف رحمه الله في فضل التوحيد آيةً وأربعة أحاديث، فمِن فضائله:

الفضْل الأوَّل: أنَّ أهْل التوحيد لهم الأمن التام.

والفضْل الثاني: في حديث عُبادة: أنَّ التوحيد يُدخِل صاحبه الجَنَّة.

والفضْل الثالث: حديث عِتبان: أنَّ التوحيد يُحرِّم النَّار على صاحبه.

والفضْل الرابع: أنَّ التوحيد أرجح شيءٍ في الميزان.

والفضْل الخامس: أنَّه يكفِّر الذنوب.

قال رحمه الله: **(بَابُ فَضْلِ التَّوحِيدِ، وَمَا يُكَفِّرُ مِنَ الذُّنُوبِ)** أي: هذا بيان فضْل التوحيد، وبيان تكفيره للذنوب؛ أي: أنه يكفِّر الذنوب، فذَكر أنَّ له فضائل، وأنَّ من فضائله تكفير الذنوب؛ يعني: سأَذكر لكَ فضْل التوحيد، وأَذكر أحاديث وآيات في فضل التوحيد وما يكفِّر من الذنوب.

وإذا كان التوحيد يُكفِّر الذنوب؛ دلَّ على أنَّ الطاعة فيه طاعةٌ عظيمةٌ؛ لهذا أعظم عملٍ يَتوسَّل فيه الشخص إلى اللَّه عز وجل في قضاء حاجاته من الأعمال الصالحة؛ هو التوسُّل بالتوحيد.

فمثلاً لو قال شخصٌ: اللَّهمَّ إني أتوسل إليك بصلاتي منذ عشرين سنةٍ إن كنتَ تعلم أنها خالصة لوجهك الكريم؛ فاشفني من هذا المرض.

وقال شخصٌ آخر: اللَّهم إني أتوسل إليك بتوحيدي لك وعدم إشراكي بك إن كنت تعلم أن هذا خالصاً لوجهك الكريم؛ فاشفِ مَرضي.

نقول: توسُّل الثاني أبلغ وأعظم وأحرى بالإجابة من الأوَّل، لماذا؟ لأنَّه توسَّل بأعظم طاعة وهي التوحيد.

قال: (وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾).

ذَكر المصنِّف رحمه الله هذه الآية؛ لبيان أنَّ من فضائل التوحيد حلول الأمْن التام في الدنيا والآخرة.

الأمن في النفس: بالطمأنينة والراحة.

والأمن بين الأفراد: لا تعتدي على أحد ولا يعتدي عليك أحد.

والأمن في المجتمع: بعدم الخوف فيه من النَّهْب والسرقة ونحو ذلك.

لذلك قال ابن القيِّم رحمه الله: «فما خراب العالَم إلا بالجهل، ولا عمارته إلا بالعِلم، وإذا ظَهر العلم في بلدٍ أو محلَّةٍ قلَّ الشرُّ في أهلها، وإذا خَفي العِلم هناك ظهر الشر والفساد»(١).

ولو أنَّ الناس قد كمُل توحيدهم؛ لَمَا احتاجوا إلى تَقَاضٍ، ولَمَا احتاجوا إلى جُندٍ ولا حُرَّاسٍ ولا غير ذلك؛ فكلهم يراقب ربه.

فما يَحدث في العالم من حدوث خللٍ في الأمن أو نحو ذلك؛ هو بسبب القصور في التوحيد ومراقبة اللَّه.

والأمن، والطمأنينة، والسكينة، والراحة؛ هي من أعظم ما يَطلبه الناس؛ لذلك قال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ [طه:٢٥-٢٦]، وقال اللَّه عز وجل للنبي صلى الله عليه وسلم: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١].

فالسعادة هي في شرْح الصدر، ولا يكون ذلك إلا بالتوحيد، فهنا قال: (**﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾**) (**بِظلْمٍ**) يعني: بشركٍ، فسَّر النبيُّ صلى الله عليه وسلم هذا الظلم بالشرك، فلمَّا نزلت هذه الآية

---

(١) إعلام الموقعين (٣/ ٥٧٠).

قال الصحابة رضي الله عنهم: أَيُّنَا لَا يَظْلِمُ نَفْسَهُ – يَعنِي: بِالمَعَاصِي –؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «لَيْسَ هُوَ كَمَا تَظُنُّونَ، إِنَّمَا هُوَ كَمَا قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]»(١).

فمَن سَلِم من ظُلْم الشرك، وسَلِم من الذنوب بقدْر ما يستطيع، بترك الكبائر واجتناب الصغائر، وابتعد عن ظُلم الناس؛ بإذن اللَّه يكون له الأمن التام في الدنيا والآخرة؛ بل ويَهديه اللَّه عز وجل للدِّين القويم والثبات عليه؛ لذلك قال: (﴿**أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ**﴾) [الأنعام:٨٢]، لهم الأمن على قدر التوحيد.

وإذا وقع المرء – والعياذ باللَّه – في الشرك؛ يزول عنه الأمن.

والمراد بالأمن: الأمن في الدنيا؛ بالطمأنينة والراحة وانشراح الصدر، كما قال سبحانه: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وكما قال عز وجل: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول اللَّه تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ [النساء: ١٢٥]، رقم (٣٣٦٠)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب صِدْق الإيمان وإخلاصه، رقم (١٢٤)، من حديث عبد اللَّه بن مسعودٍ رضي الله عنه.

[الشرح: ١]، وقال سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

وأمْنٌ في مرحلة أخرى وهي مرحلة النزع - عند نزع الروح -: فالموحِّد ينزل عليه الأمن، تبشره الملائكة بذلك، والكافر - والعياذ باللَّه - تنزل عليه بالخوف والعذاب، قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا﴾ يعني: لا تخافوا من الآن وما تستقبلونه في المحشر، ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [فصلت: ٣٠] على ما تركتموه من أولاد وذرية فنحن نحفظهم لكم.

وأمن أيضاً في الآخرة للموحِّد.

وأمن تامٌّ ودائم إذا دخل الجنة؛ ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٤].

فالموحد بفضل اللَّه يتقلب من أمن إلى أمن، ولهذا ترى المؤمن منشرح الصدر، لو حلَّت به مصيبة يصبر ويحتسب، أما الكافر فإنه يجزع ويسخط مما أصابه؛ لعدم وجود الإيمان الذي يخفِّف عنه تلك المصيبة، ولهذا ثمرة الإيمان تظهر فيما تظهر فيه عند المصائب.

فمن فضائل التوحيد الراحة النفسية، والراحة في الأبدان.

ثُم ذَكر بعد ذلك الحديث الثاني: (**عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم:** «**مَنْ شَهِدَ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.**

وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ.

وَالجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ.

أَدْخَلَهُ اللَّهُ الجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ» **أَخْرَجَاهُ**).

لبيان أنَّ مِن فضائل التوحيد أنَّ مآل الموحِّد إلى الجَنَّة، لقول النبيِّ صلى الله عليه وسلم - كما سيأتي -: (**أَدْخَلَهُ اللَّهُ الجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ**)، وأيُّ فضلٍ لهذه الطاعة بأن يكون جزاؤها دخول الجَنَّة.

قال: (**عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم:** «**مَنْ شَهِدَ**) يعني: بلسانه، واستَيقن بها قلبُه، وعَلم بمعناها، واجتنب ما يناقضها من نواقض الدين، فلا يكفي التلفُّظ؛ فالمنافقون يتلفَّظون بها، فلا بدَّ من هذه الأمور - كما سيأتي بإذن اللَّه في شروط لا إله إلا اللَّه -.

وأصل الشهادة للشيء المرئي؛ أي: المبنيِّ عن مشاهدةٍ وإبصارٍ بالعَين، ولمَّا كانت الشهادة بالتوحيد يقينيَّةٌ نابعةٌ من القلب ويقرِّر اللِّسان

ذلك والجوارح تصدِّقه؛ كانت هذه الشهادة كأنها مُبصَرَةٌ فشَهد عليها؛ لذلك قال: (مَنْ شَهِدَ أن لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ).

هذه كلمة الإخلاص مبنِيَّةٌ على ركنين: النفي والإثبات.

النفي: وهو قوله: (لَا إِلَهَ) أي: لا مألوه في الكون يُعبد بحق.

ثم يأتي الإثبات: (إِلَّا اللَّهُ).

وهذا الإثبات مؤكَّدٌ بقوله: (وَحْدَهُ).

والنفي مؤكَّدٌ بقوله: (لَا شَرِيكَ لَهُ) تأكيدٌ للوحدانية.

أي: لا إله ولا شريك بحقٍّ في هذا الكون إلا اللَّه وحْده سبحانه وتعالى.

ولو أَثبت الإنسان العبودية للَّه ولغيره؛ لم يكن موحِّداً؛ بل يكون مشْرِكاً.

ومن اقتَصر على النفي فقط - وهو قول: (لَا إِلَهَ) -؛ فهو ملحِدٌ؛ بل هناك إلهٌ معبودٌ وهو اللَّه.

وقوله: (وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ) أي: وشَهِد أنَّ محمداً عبده ورسوله، هذه شهادة بالرسالة وبالعبودية، وهما من أعظم ألقاب النبيِّ صلى الله عليه وسلم.

(عَبْدُهُ)؛ لقول النبيِّ صلى الله عليه وسلم: «فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ»(١)، ولقوله سبحانه: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء:١].

(وَرَسُولُهُ)؛ لقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ﴾ [المائدة: ٦٧]، ولقول النبيِّ صلى الله عليه وسلم: «وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ»(٢).

وقوله: **(وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ)** فكلاهما موصوفان بالعبودية والرسالة وهما من أشْرف الخلق؛ لكن يزيد في الإيمان بعيسى ما تفرَّد به وهو أنه وُلد من غير أبٍ.

وذَكر عيسى عليه السلام هنا؛ لأنَّ عيسى عليه السلام هو أقرب رسولٍ للنبي صلى الله عليه وسلم فليس بينهما نبيٌّ؛ لذلك قال عيسى عليه السلام: ﴿وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب أحاديث الأنبياء، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ: ﴿وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ [مريم: ١٦]، رقم (٣٤٤٥)، من حديث عمر رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاريُّ، كتاب مواقيت الصلاة، باب قول اللَّه تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ المُشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٣١]، رقم (٥٢٣)، من حديث ابن عباسٍ رضي الله عنهما.

وذَكر أيضاً عيسى هنا؛ لكثرة مَن ضلَّ فيه لكونه خُلق من غير أبٍ، وقد دَخل بسبب فتنة عيسى عليه السلام - يعني: لأنَّه من غير أبٍ - النَّار ملايين البشر.

وهذا يدلُّ على استغفال الشيطان للناس، ولو عَلم الشخص قوة اللَّه عز وجل لم يَحصل عنده هذا اللَّبْس، فلكونه خُلق من غير أبٍ؛ جعلوه إلهاً، أو ابناً للَّه، أو ثالث ثلاثةٍ - تعالى اللَّه عن ذلك -؛ لذلك قال: **(وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ)** أي: كمحمدٍ عليه الصلاة والسلام وكبقية الرسل، كما قال عز وجل: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الزخرف: ٥٩].

وقوله: **(وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ)** **(وَكَلِمَتُهُ)** يعني: تَشهد بأن عيسى عليه السلام أَتى في بطن أمِّه جنيناً بغير أبٍ؛ بكلمةٍ من اللَّه وهي «كُن»، فقال اللَّه عز وجل: ﴿كُنْ﴾ فكان عيسى في بطن أمِّه من غير أبٍ.

فهذه الكلمة ألقاها إلى مريم، فنَفث جبريل عليه السلام في جَيْب دِرْعها - يعني: أعلى الصدر -؛ فحَملت به أمُّه من غير زوجٍ.

وقوله: (وَرُوحٌ مِنْهُ) أي: عيسى كبقية الأرواح المخلوقة، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]؛ يعني: وأنَّ عيسى روحٌ من الأرواح التي خَلقها اللَّه عز وجل، مثلهُ مثلُ غيره، وهذا من باب التشريف، مثل: بيتُ اللَّه وحرمُ اللَّه وهكذا، فهذا معناها.

(وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ)

اللَّه أَلقى إلى مريم بأنْ قال: كُن يا عيسى في بطن مريم؛ فكان جنيناً من غير أبٍ، فأصبح روحاً من الأرواح التي خلقها اللَّه عز وجل.

فمن اعتقد بأن عيسى هو عبد اللَّه، وأنه ليس شريكاً مع ربه في الألوهية، ولا عضيداً معه في الربوبية؛ وإنما هو عبد، فهذا مما تتضمنه شهادة ألَّا إله إلا اللَّه، فشهادة ألَّا إله إلا اللَّه تتضمن الشهادة للنبي عليه الصلاة والسلام بالرسالة، وتتضمَّن بأن عيسى عبد اللَّه ورسوله.

وقوله: (وَالجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ) يعني: وشَهد أن الجَنَّة حقٌّ وهي مآل المؤمنين، وأن النَّار حقٌّ وهي مآل الكفار.

والجَنَّة والنَّار الآن مخلوقتان؛ لذلك قال عليه الصلاة والسلام: «اطَّلَعْتُ فِي الجَنَّة فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الفُقَرَاءَ، وَاطَّلَعْتُ فِي النَّار فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ»[1]، فهما الآن مخلوقتان.

(وَالجَنَّةَ حَقٌّ) أي: سيَدخلها المؤمنون وليست شيئاً وهميّاً، **(وَالنَّارَ حَقٌّ)** أي: يَدخلها العصاة، ويُخلَّد فيها الكفار.

فمَن شهِد بما تقدَّم من وحدانية اللَّه؛ فجزاؤه ما قاله النبيُّ صلى الله عليه وسلم: **(أَدْخَلَهُ اللَّهُ الجَنَّةَ)** هذا فضْل التوحيد، فإذا وحَّدتَ اللَّه بذلك، ولم تَجعل عيسى ربّاً أو ابناً للَّه، وشهدتَ بأن عيسى ومحمداً عليه الصلاة والسلام عبدان رسولان، وأن الجَنَّة حقٌّ والنَّار حقٌّ؛ أَدخلك اللَّه عز وجل الجَنَّة، لذلك قال: **(أَدْخَلَهُ اللَّهُ الجَنَّة)** هذا مآله، ولهذا أَجمع العلماء على أن مآل الموحِّد إلى الجَنَّة.

وقوله: **(عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ)** أي: أنَّ درجتك في الجَنَّة تكون على قدْر العمل الذي عملتَه في الدنيا، فمآل الموحِّد الجَنَّة، لكنَّ الموحدين

---

(١) رواه مسلمٌ، كتاب الرقاق، باب أكثر أهل الجَنَّة الفقراء وأكثر أهل النار النساء وبيان الفتنة بالنساء، رقم (٢٧٣٧)، من حديث ابن عباسٍ رضي اللَّه عنهما.

في الجَنَّة درجاتٌ على قدْر أعمالهم بفضل اللَّه ورحمته، فمآله إلى الجَنَّة وإن كان مقصِّراً في بعض الأعمال، أو مرتكِباً لبعض الذنوب التي هي دون الشرك.

فدلَّ على فضيلة التوحيد، وأنَّه يجب على العبد أن يَعرفه حقَّ المعرفة؛ لأنَّه لا سبيل لدخول الجَنَّة إلا به، وأنَّ المشرك لمَّا حُرِم من التوحيد؛ حرَّم اللَّه عز وجل عليه الجَنَّة.

(أَخْرَجَاهُ).

وقوله: **(وَلَهُمَا فِي حَدِيثِ عِتْبَانَ رضي الله عنه: «فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ»).**

ذَكر المصنِّف رحمه الله حديث عِتبان في باب فضْل التوحيد؛ لبيان أنَّ من فضْل التوحيد أنَّ صاحبه حرَّم اللَّه عز وجل عليه دخول النَّار؛ يعني: لا يُمكِن للموحِّد أن يكون مآله النَّار مطلقاً، وهذا فضْلٌ عظيمٌ.

فلو قال لك شخصٌ: إن فعلتَ هذا الفِعل لا يُمكِن أن تُخلَّد في النَّار؛ فهنا إن فعلتَ التوحيد لا يُمكِن أن تُخلَّد في النَّار؛ حتى ولو عملتَ ذنوباً دون الشرك، ويكون تحت المشيئة؛ لذلك لمَّا سَأل أبو ذرٍّ رضي

الله عنه[١] النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقال: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: «وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ»[٢]، لكن على التفصيل الذي ذكرناه: قد يُعذِّبه وقد يَغفر اللَّه له ذنْبه، ويَدخل الجَنَّة بغير عذابٍ.

(**فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّار مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ**) فهذا ثواب التوحيد.

قال: (**وَلَهُمَا**) أي: البخاري ومسلِم، (**فِي حَدِيثِ عِتْبَانَ رضي الله عنه: «فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ**) أي: لا تمسُّه النَّار.

حرُم على النَّار أن يخلَّد فيها (**مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ**) ولا يكفي القول وإنما ذَكر الشرط.

فلا إله إلا اللَّه هي كلمة التوحيد، وهي كلمة الإخلاص، وهي العروة الوثقى، وهي التي من أجْلها خَلق اللَّه السموات والأرض، وهي أفضل الذكر، وهي أَحبُّ الكلام إلى اللَّه عز وجل.

---

(١) هو: أبو ذر جندب بْن جنادة بْن سفيان بْن عُبَيْد بْن حرام الغفاري، أسلم رابع أربعة وقيل الخامس، وتوفي سنة (٣٢هـ). أسد الغابة لابن الأثير (١/ ٣٥٧).

(٢) رواه البخاريُّ، كتاب الجنائز، باب ما جاء في الجنائز، ومن كان آخر كلامه: لا إله إلا اللَّه، رقم (١٢٣٧).

ومن ميزاتها: أنَّ جميع حروفها حلْقيَّةٌ فلا تتحرك الشفتان حين النطق بها؛ زيادةً في الإخلاص؛ لئلَّا يُرى المرء من بعيدٍ لو تكلَّم بها.

ومِن ميزاتها: أنَّ جميع حروفها ليس عليها نقطٌ.

ومِن ميزاتها: أنَّها مركَّبةٌ مِن حرف الألف، واللَّام، والهاء فقط.

فهي كلمةٌ عظيمةٌ تُدخِل صاحبها الجَنَّة وتُحرِّم عليه الخلود في النَّار.

ثم قال: (**يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّه**) يعني: مخلِصاً فيها للَّه، فدلَّ على أن فضْل كلمة التوحيد يأتي لكن بشروطٍ، فلا بد من الإتيان بشروطٍ حتى يكون من يقول كلمة التوحيد محرَّماً عليه الخلود النَّار.

فهنا قال: (**يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّه**)، وفي لفظ «مُسْتَيْقِناً بِهَا قَلْبُهُ»(١)، وفي لفظ «خِالِصاً مِنْ قَلْبِهِ»(٢)، فليس كلُّ مَن تكلَّم بها تحقَّقت له الفضائل السابقة؛ وإنَّما هو مشروط بسبعة شروطٍ.

---

(١) رواه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب مَن لَقي اللَّه بالإيمان وهو غير شاكٍّ فيه؛ دخل الجنة وحرم على النار، رقم (٣١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاريُّ، كتاب العِلم، باب الحرص على الحديث، رقم (٩٩)، من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه.

وهذه الشروط مجموعة في بيت واحد:

عِلْمٌ يَقِيْنٌ وَإِخْلَاْصٌ وَصِدْقُكَ مَعْ   مَحَبَّةٍ وَانْقِيَادٍ وَالقَبُولِ لَهَا(١)

هذه سبعة شروطٍ لكلمة لا إله إلا اللَّه لتُدخل صاحبها الجَنَّة وشرْحها ما يلي:

الشرط الأوَّل: «عِلْمٌ» أي: يجب على المسلم أنْ يَعلَم معنى لا إله إلا اللَّه، وهو نفي العبادة عن غير اللَّه وإثباتها للَّه وحده سبحانه وتعالى؛ قال سبحانه: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩].

الشرط الثاني: «يَقِيْنٌ» يعني: من غير شكٍّ فيها كمَا يشكُّ فيها المنافقون أو من في قلبه مرضٌ يصل إلى الشرك؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «مُسْتَيْقِناً بِهَا قَلْبُهُ»(٢)، فالشاكُّ في وحدانية اللَّه لا تنفعه تلك الكلمة؛ بل يجب اليقين بأنَّ اللَّه سبحانه وتعالى واحد، وأنَّ جميع المعبودات من دون اللَّه باطلةٌ.

---

(١) قاله سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم في شرح كتاب التوحيد (١/ ٨٨).

(٢) سبق تخريجه (ص) عند قوله: (وفي لفظ «مُسْتَيْقِناً بِهَا قَلْبُهُ»).

الشرط الثالث: «وَإِخْلَاْصٌ» أي: الإخلاص في قولها، وضده عدم الإخلاص، مثل الرياء؛ فالرياء ينافي الإخلاص، وكذلك الشرك من الطواف على الأضرحة وغير ذلك ينافي الإخلاص، والله عز وجل يقول: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

الشرط الرابع: «وَصِدْقُكَ»؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «صِدْقاً مِنْ قَلْبِه»(١)؛ أي: ليس كاذباً فيها كالكفار إذا نَطقوا بها، أو المنافقين.

«وَصِدْقُكَ» يعني: يَخرج من كان كاذباً في قولها كالمنافقين، فهم يقولون لا إله إلا اللَّه، وفي قَرَارَة أنفسهم تعلقهم بغير اللَّه في طلب الحاجات ونحو ذلك.

الشرط الخامس: «مَحَبَّةٍ» أي: تحبُّ هذه الكلمة وتحبُّ اللَّه عز وجل؛ لأَنَّه الواحد، وتحبُّ ما دلَّت عليه وتَفرح بأوامر اللَّه عز وجل،

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب العِلم، باب من خَصَّ بالعِلم قوماً دون قومٍ؛ كراهية أَلَّا يَفهموا، رقم (١٢٨)، من حديث أنس بن مالكٍ رضي اللَّه عنه.

وتَفرح بأنَّ المعبودات من دون اللَّه باطلةٌ؛ لأنَّ من عمِل عملاً وهو مبغضٌ له كفَر - ولو عَمل به -، كما ذكر الشيخ محمد بن عبد الوهاب ذلك في نواقض الإسلام(١).

والشرط السادس: «وَانْقِيَادٍ» أي: الإذعان لها، فمِمَّا يَلزم فيها أن تَنقاد لِمَا دلَّت عليه بأن لا تَعبد إلا اللَّه ولا تعبد غيره، وضدُّ ذلك الكِبْر، فمن لم ينقَدْ لها لمْ يُحقِّق تلك الكلمة؛ قال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥].

والشرط السابع: «القَبُولِ لَهَا» أي: القَبول المنافي للردِّ.

فلو قال شخصٌ لآخر: لا تطفْ على القبر، وقُل لا إله إلا اللَّه وتوكَّل على اللَّه وحده.

فإذا قال: لا أريد أن أقول لا إله إلا اللَّه.

فنقول: لم يكنْ موحِّداً؛ لذلك قال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات:٣٥]، يردُّونها، والقَبول لها بأن تَقبل هذه الكلمة وتَفرح بها وتُذعِن لها.

(١) متون طالب العلم، المستوى الأوَّل، نواقض الإسلام (ص٢٦).

وبعضهم[1] يزيد «الكُفر بالطاغوت» شرطاً ثامناً؛ لكنَّه يَدخل في الصدق والإخلاص، وبعض أهل العِلم يَجعل «البراءة من الشرك وأهله» شرطاً ثامناً؛ لقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦].

فهذه شروط لا إله إلا اللَّه، فلو أنَّ شخصاً قال: لا إله إلا اللَّه ولا يصلِّي؛ نقول: لا تنفعه، لماذا؟

لأنه لم يحقِّق معناها، فمعناها أن تَعبد اللَّه؛ لكنَّه هنا ما عَبَد اللَّه.

فلو أنَّ شخصاً يَذهب عند القبر ويَذبح.

فنقول له: هذا شِرك.

فيقول: تقول لي مشرك وأنا أقول لا إله إلا اللَّه؟!

نقول: نعم؛ لأنك لم تَصدُقْ في تلك الكلمة، ولم تُوقِنْ بها، ولم تُخلِصْ للَّه بها، فما أخلصتَ في هذه الكلمة، ولو أخلصتَ في هذه الكلمة لَمَا عَبدتَ إلا اللَّه وحده سبحانه.

---

(١) كالشيخ محمد بن إبراهيم رحمه اللَّه. شرح كتاب التوحيد (ص ٨٩).

وقد أتت النصوص بأنَّ مَنْ قَالَ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّه أَدْخلَه اللَّه الجَنَّة عَلَى مَا كَان مِنَ العمل، كحديث عبادة[١]، وكحديث عِتبان[٢]: (**«فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّار مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ»**).

ووَردت أحاديث «أنَّ اللَّه عز وجل يُخْرِجُ مِن النَّار مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثقَالَ ذَرَّةٍ أَوْ خَرْدَلَةٍ مِنْ إِيْمَانٍ»[٣].

وجاءت أحاديث أيضاً بأنَّ هناك من يقول كلمة التوحيد ويَدخل النَّار، كحديث: «لَمَّا عُرِجَ بِي مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ، يَخْمِشُونَ وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُم.

---

(١) هو: أبو الوليد عبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم بن فهر بن ثعلبة بن غنم بن سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج، شَهد البيعتين، وتوفي سنة (٣٤هـ). معرفة الصحابة لأبي نعيم (٤/ ١٩١٩).

(٢) هو: عتبان بن مالك بن عمرو بن العجلان الأنصاري الخزرجي السالمي، توفي أيام معاوية رضي الله عنه. أسد الغابة لابن الأثير (٣/ ٥٥١).

(٣) رواه البخاريُّ، كتاب التوحيد، باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم، رقم (٢٢)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحِّدين من النار، رقم (١٨٤)، من حديث أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه.

فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ؟

قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ، وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ»[(١)]، وكأهْل الربا، وكمن يَقتل عمداً وهكذا.

والجمْع بين تلك الأحاديث أنَّ من قال: لا إله إلا اللَّه، ولم يأتِ بما يُنقِص من ذلك، ثُم مات؛ فإنه يَدخل الجَنَّة.

ومن قال: لا إله إلا اللَّه وأتى بسيئاتٍ بعدها؛ فإنَّه تحت المشيئة، إن شاء اللَّه عز وجل غَفر له، وإن شاء عذَّبه.

وبهذا تجتمع النصوص، وإليه ذهب شيخ الإسلام رحمه الله[(٢)]، وهو الذي تدلُّ عليه مجموع النصوص.

ثُم بعد ذلك ذَكر حديث أبي سعيدٍ رضي الله عنه، قال: **(وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه مَرْفُوعاً** – أي: إلى النبي صلى الله عليه وسلم –: «**قَالَ مُوسَى: يَا رَبِّ! عَلِّمْنِي شَيْئاً أَذْكُرُكَ وَأَدْعُوكَ بِهِ؟**

قَالَ: قُلْ يَا مُوسَى: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

---

(١) رواه أحمد في المسند، رقم (١٣٣٤٠)، من حديث أنس بن مالكٍ رضي الله عنه.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٨/ ٢٧١).

قَالَ: يَا رَبِّ! كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُونَ هَذَا.

قَالَ: يَا مُوسَى! لَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ غَيْرِي وَالأَرَضِينَ السَّبْعَ فِي كِفَّةٍ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي كِفَّةٍ؛ مَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ، وَالحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ).

لازال المصنِّف رحمه الله يذكر فضْل التوحيد، وسَبق أنَّ مِن فضائل التوحيد حصول الأمن لصاحبه، والأمن لصاحبه على قدْر توحيد العبد لربِّه في قلْبه، وسَبق أيضاً أنَّ مِن فضائل التوحيد أنَّ مآل الموحد إلى الجَنَّة كمَا سبق: (أَدْخَلَهُ اللَّهُ الجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ).

ومِن فضائل التوحيد أنَّ الموحِّد لا يُخلَّد في النَّار بحالٍ، كمَا في حديث عِتبان: («فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّار مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ»).

وهنا في حديث أبي سعيدٍ[1] يَذكر عِظَم كلمة التوحيد، وأنَّ السموات السبع ومَن فيهن من العمار غير اللَّه عز وجل والأرضين ومَن

---

(١) هو: أبو سعيد سعد بن مالك بن سنان وقيل: ابن عبيد بن ثعلبة بن عبد بن الأبجر بن عوف بن الحارث بن الخزرج الخدري، توفي سنة (٧٤هـ). معرفة الصحابة لأبي نعيم (٣/ ١٢٦٠).

فيهن؛ لو وُضِعْن في كِفَّة، **(وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي كِفَّةٍ؛ مَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)**؛ لعِظم وثِقل وقوة هذه الكلمة.

فإذا كانت هذه الكلمة تَرجَح بمَن في السموات غير اللَّه عز وجل والأرضين ومَن فيهنَّ؛ دلَّ على عظمة ما دلَّتْ عليه، وهو توحيد اللَّه، فهذا من فضْل التوحيد حيث أنَّ كلمته تَرجح بالمخلوقات.

(قَالَ مُوسَى: يَا رَبِّ! عَلِّمْنِي شَيْئاً أَذْكُرُكَ وَأَدْعُوكَ بِهِ) أي: أُثنِي به عليك، وهذا يدلُّ على حِرص الأنبياء على أجَلِّ الطاعات فيما يرتضيه اللَّه عز وجل.

لذلك موسى يقول: **(يَا رَبِّ! عَلِّمْنِي شَيْئاً أَذْكُرُكَ بِهِ وَأَدْعُوكَ بِهِ)** أَذكرك مِن الذِّكر، وأدعوك من الدعاء، سواء دعاء عبادةٍ أو دعاء مسألةٍ، والمراد بالدعاء هنا: دعاء العبادة؛ يعني: أتعبَّد بذلك الشيء، وأجعله خاصّاً بي؛ لتكون منزلتي عاليةً عندك.

(قَالَ: قُلْ يَا مُوسَى: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) يعني: قُل هذه الكلمة، فهي من أعْظم الذكر، كمَا في صحيح مسلم: «أَحَبُّ الكَلَامِ إِلَى اللَّهِ أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ

اللَّهِ، وَالحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ»(١)، وفي لفظٍ للبخاري: «أَفْضَلُ الكَلاَمِ أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالحَمْدُ لِلَّهِ، وَلاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ»(٢).

وهي مفتاح الجَنَّة، مَن لم يأتِ بها لم يُفتح له باب الجَنَّة بحال.

(يَا رَبِّ! كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُونَ هَذَا) يعني: أنَّ موسى يَطلب شيئاً يختص به من العبادات ليرتفع عند ربه، وهذا فيه دليلٌ على أنَّ الشخص له أن يَسأل ربَّه أن يُخَص بشيءٍ ممَّا لم يَختص به سوى عباده الأفاضل؛ لذلك اللَّه يقول: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة:١٠٥].

فلو قال شخصٌ مثلاً: اللَّهم اجعلني من عبادك المخلَصين أو المصطَفين؛ نقول: هذه من الأدعية الفاضلة.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الآداب، باب كراهة التسمي بالأسماء القبيحة وبنافع وغيره، رقم (٢١٣٧)، من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاريُّ، كتاب الأيمان والنذور، باب إذا قال: واللَّه لا أتكلم اليوم، فصلى، أو قرأ، أو سبح، أو كبر، أو حمد، أو هلل، فهو على نيته، رقم (٦٦٨٠).

والحديث فيه ضعْفٌ، وأيضاً في بعضه نكارةٌ كهذه اللَّفظة: (**كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُونَ هَذَا**) يعني: كأنَّ موسى - عليه السلام - يَجهل عِظَم تلك الكلمة؛ والرسل بُعثوا من أجْلها ولأهميتها.

(**قَالَ: يَا مُوسَى! لَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ غَيْرِي وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ فِي كِفَّةٍ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي كِفَّةٍ؛ مَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ وَالحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ**).

(**قَالَ**) اللَّه عز وجل، وقبْلها: (**قُلْ يَا مُوسَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ**) هذا يدلُّ على إثبات الكلام للَّه سبحانه وتعالى، فهو سبحانه يتكلَّم متى شاء، كيف شاء، إذا شاء، بما شاء، فهو تَكلَّم سبحانه وتعالى مع موسى، ومع آدم، ومع الملائكة وغيرهم، ولا يزال يَتكلَّم سبحانه وتعالى، وسيتكلَّم في المستقبل سبحانه وتعالى من غير تكييفٍ لهذا الكلام ولا تمثيلٍ له.

(**يَا مُوسَى! لَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ**) يعني: لو أنَّ السموات السبع المخلوقة، (**وَعَامِرَهُنَّ**) أي: الملائكة التي تُعمِّر السموات بذكر اللَّه.

(**غَيْرِي**) يعني: من يَسكنها غيري؛ لأنَّ اللَّه عز وجل - كما هو معلومٌ - في السماء؛ كما قال سبحانه: ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾

[الملك:١٦]، وقال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه:٥]، لكن لا يُقال أنَّ اللَّه يَسكن في السماء؛ وإنَّما نقول: اللَّه في السماء.

(وَالأَرَضِينَ السَّبْعَ) أي: جُعلت السموات والعمار – الملائكة –، والأرضين **(فِي كِفَّةٍ)** أي: كِفَّة ميزانٍ، **(وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي كِفَّةٍ؛ مَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)** فدلَّ على عِظم وزْن تلك الكلمة.

يعني: لو جُعلت السموات وجُعلت الملائكة والأرض ومَن في الأرض في كِفَّةٍ ولا إله إلا اللَّه في كِفَّةٍ؛ لمَالَت بهن لا إله إلا اللَّه، وهذا هو الشاهد من الحديث.

ولذلك ما عُظِّم دم المسلم وماله وعرضه إلا من أجل امتثال هذه الكلمة، بالبعد عن الشرك ومحبطات الإسلام ونواقضه.

والذي يدلُّ عليه: حديث البطاقة وهو قَول النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ عز وجل يَسْتَخْلِصُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الخَلَائِقِ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلّاً، كُلُّ سِجِلٍّ مَدَّ البَصَرِ.

ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئاً؟ أَظَلَمَتْكَ كَتبَتِي الحَافِظُونَ؟

قَالَ: لَا، يَا رَبِّ. فَيَقُولُ: أَلَكَ عُذْرٌ، أَوْ حَسَنَةٌ؟

فَيُبْهَتُ الرَّجُلُ، فَيَقُولُ: لَا، يَا رَبِّ.

فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً وَاحِدَةً، لَا ظُلْمَ اليَوْمَ عَلَيْكَ، فَتُخْرَجُ لَهُ بِطَاقَةٌ، فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

فَيَقُولُ: أَحْضِرُوهُ.

فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، مَا هَذِهِ البِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ؟

فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ.

قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ.

قَالَ: فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ، وَثَقُلَتِ البِطَاقَةُ، وَلَا يَثْقُلُ شَيْءٌ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»[1]، وهذا يدلُّ على فضْل كلمة التوحيد.

وقال عن الحديث: (**رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ وَالحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ**).

قال: (**وَلِلتِّرْمِذِيِّ وَحَسَّنَهُ: عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ! إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئاً؛ لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»**).

---

(١) رواه أحمد في المسند، رقم (٦٩٩٤)، من حديث عبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنهما.

من فضائل التوحيد في حديث أنسٍ رضي الله عنه[١] أنَّ التوحيد يَحُطُّ السيئات؛ كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود:١١٤]، فأفضل الطاعات وأجَلُّ القربات هو التوحيد، وهو الذي يُذهِب السيئات.

(قَالَ اللَّهُ تَعَالَى) هذا يدلُّ على إثبات صِفة الكلام للَّه عز وجل، (يَا ابْنَ آدَمَ! إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي) هذا يدلُّ على إثبات البعث والنشور؛ كما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [الجاثية:١٥].

فإذا أتيتني بعد الممات (بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا) (قُرَابِ الأَرْضِ): يعنى مِلء الأرض خطايا، أو ما يقارب ملأَها.

(ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئاً) هذا يبيِّن أنَّ مَن قال تلك الكلمة ولم يُشرِك باللَّه شيئاً ثم مات؛ قال: (لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً) يعني: لكفَّرتُ عنك جميع السيئات بسبب تركك للشرك.

هذا يدلُّ على فضل التوحيد.

---

(١) هو: أبو حمزة أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج، توفي سنة (٩٣هـ). معرفة الصحابة لأبي نعيم (١/ ٢٣١).

فإذا قال شخصٌ: أَفعل السيئات وأنا موحِّدٌ؛ لأنَّ التوحيد سيُذهب بالسيئات.

نقول: قد يُعاقَب الشخص على سيئاته تلك؛ إن لم يغفرها اللَّه عز وجل له.

فإذا قيل: ما المراد إذاً (**لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً**)؟

نقول: تُغفر لك تلك السيئات بمشيئة اللَّه عز وجل، إن شاء يتجاوز عن تلك السيئات بتوحيدك وإن شاء عذَّبك؛ جمْعاً بين النصوص؛ كمَا قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء:١١٦].

فإذا قيل: ما الدليل على ذلك؟

نقول: لِمَا جاء في النصوص مِن أنَّ الزناة رآهم النبي صلى الله عليه وسلم في النَّار[١]، وكذلك أَكَلة الربا في النَّار وغيرهم من أهل العصيان.

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، رقم (١٣٨٦)، من حديث سمرة بن جندبٍ رضي اللَّه عنه.

وهنا ذُكر ترْك الشرك، ولم يبيَّن التوحيد، وهذا مطلقٌ، فيُحمل المطلَق على المقيَّد، (**فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّار مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ**) أي: لا بدَّ من ترْك الشرك وإثبات الوحدانية للَّه سبحانه وتعالى؛ وهما ركنا التوحيد.

فدلَّ هذا الحديث على أنَّ التوحيد يُكفِّر جميع الذنوب، ومَن عمِل سيئةً بعده؛ فإنه يَدخل الجَنَّة، لكن تَقِلُّ درجته في الجَنَّة.

ومن رجَحت سيئاته عن حسناته مع توحيده؛ فهو تحت المشيئة إن شاء اللَّه عز وجل غَفر له وإن شاء عذَّبه؛ كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

***

[٣]

بَابُ

مَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ؛ دَخَلَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وَقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾.

عَنْ حُصَيْنِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، قَالَ: «كُنْتُ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ رَأَى الكَوْكَبَ الَّذِي انْقَضَّ البَارِحَةَ؟ قُلْتُ: أَنَا.

ثُمَّ قُلْتُ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلَاةٍ، وَلَكِنِّي لُدِغْتُ.

قَالَ: فَمَا صَنَعْتَ؟ قُلْتُ: ارْتَقَيْتُ.

قَالَ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ؟

قُلْتُ: حَدِيثٌ حَدَّثَنَاهُ الشَّعْبِيُّ، قَالَ: وَمَا حَدَّثَكُمْ؟

قُلْتُ: حَدَّثَنَا عَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ حُصَيْبٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ، أَوْ حُمَةٍ، فَقَالَ: قَدْ أَحْسَنَ مَنِ انْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ.

وَلَكِنْ حَدَّثَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ.

إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ.

فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفاً يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ.

ثُمَّ نَهَضَ، فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ، فَخَاضَ النَّاسُ فِي أُولَئِكَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ وَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئاً - وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ -.

فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ: هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ.

فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ، فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: أَنْتَ مِنْهُمْ.

ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ».

الشَّرح:

لمَّا ذَكر المصنِّف رحمه الله فضْل التوحيد؛ أعْقَبَه بعد ذلك بأنَّ فضل التوحيد لا يكون إلا بتحقيق التوحيد.

ومعنى تحقيق التوحيد: الإتيان به بإتقانٍ وتمحيص.

وتحقيق التوحيد ينقسم إلى قِسمين:

القِسم الأوَّل: تحقيقٌ واجبٌ، وهو: أن يَبتعد الشخص عمَّا يُنافي التوحيد الواجب، مِثل: الشرك الأصغر، أو ما يَقدح فيه من البِدع، أو ما يُنقص ثوابه من السيئات؛ هذا التحقيق الواجب.

يعني: يجب على كلِّ مسلِمٍ أنْ يحقِّق التوحيد، فيَعمل جاهداً في فعْل هذا الأمر على إتقانه وتمامه، وهو الابتعاد عن الشرك الأصغر - نحن نتكلَّم عن المسلِم -، فيبتعد عن الشرك الأصغر ويَبتعد عن البدع وعن المعاصي التي تُنقص التوحيد، وهذا هو التحقيق الواجب، مِثل: أن لا يتعلق بالتمائم ولا يجعلها سبباً.

القِسم الثاني: تحقيق التوحيد المندوب – وهو المقصود في هذا الباب – وهو: ترْك ما لا بأس به حذراً ممَّا به بأس، هذا الضابط.

ومعنى ذلك: ترْك المباح لأمرٍ أصيب به، مِثل: ما جاء في حديث حُصَين(١) مِن أنَّ المرِيضَ لَا يطلُب مِنْ أَحد أَن يرقِيَهُ تَوَكُّلاً على اللَّه(٢)، والجامع لذلك؛ يعني: كيف يتحقق ذلك؟

بانجذاب القلب إلى اللَّه عز وجل وتعلُّقِه به؛ فلا يَركن لأحدٍ غيره سبحانه وتعالى.

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم في حديث حُصَين أنَّ في أمَّة محمدٍ صلى الله عليه وسلم «سَبْعِينَ أَلْفاً يَدْخُلُونَ الجَنَّة بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا

---

(١) هو: أبو محمد الحُصَين بن عبد الرحمن ابن عمرو بن سعد بن معاذ بن النعمان، توفي سنة (١٢٦هـ). الطبقات الكبرى – متمّم التابعين- لابن سعدٍ (١/ ٢٩٤).

(٢) رواه البخاريُّ، كتاب الرقاق، باب قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، رقم (٦٤٧٢)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حسابٍ ولا عذابٍ، رقم (٢١٨)، ولفظه: «هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ».

عَذَابٍ»[(١)]، وفي مسند الإمام أحمد «مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعِينَ أَلْفاً»[(٢)]، وهذا من فضْل اللَّه العظيم.

وذَكر رحمه الله في هذا الباب ثلاثة نصوصٍ: آيتين وحديثاً:

الآية الأُولى - (﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً**﴾) -؛ لبيان أنَّ الرسل عليهم السلام حقَّقُوا التوحيد الواجب والمندوب.

والآية الثانية - (﴿**وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ**﴾) -؛ لبيان أنَّ مِن أولياء اللَّه مَن حقَّق التوحيد أيضاً.

والنَّصُّ الثالث: - وهو حديث حُصَين بن عبد الرحمن -؛ لبيان ضابط تحقيق التوحيد، وهو التوكُّل على اللَّه وحده سبحانه وتعالى.

فجَعل الآيتين في تحقيق التوحيد الواجب في قوله: (﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً**﴾)، وفي قوله: (﴿**وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ**﴾)، وساق حديثاً

---

(١) سبق تخريجه (ص) عند قوله (مِنْ أَنَّ المَرِيضَ لَا يَطْلُبْ مِنْ أَحَدٍ أَن يرقِيَهُ تَوَكُّلاً عَلَى اللَّهِ).

(٢) رواه أحمد في المسند رقم (٨٧٠٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

في تحقيق التوحيد المندوب، وهو حديث حصين بن عبد الرحمن[١]، فمَن حقَّق التوحيد الواجب والمستحَبَّ؛ دَخل الجَنَّة بغير حسابٍ.

وعلى المرء أن يسعى جاهداً لتحقيق التوحيد؛ لينال ذلك الثواب العظيم.

يعني: كأنَّ المصنِّف يقول لك: حقِّقْ توحيدك الواجب والمندوب؛ لتدخل الجَنَّة بغير حسابٍ، وهذا يدلُّ على عظمة التوحيد، فليس هناك من حَقَّق شيئاً يكون ثوابه دخول الجَنَّة بغير حسابٍ سوى التوحيد.

فلو أنَّ شخصاً – مثلاً – يُشرك باللَّه من الطواف على الأضرحة لكنَّه يحقِّق صلاته بأركانها وواجباتها وسننها تحقيقاً تامّاً؛ نقول: لا ينال ذلك الثواب؛ لأنَّ الأصل عنده فاسدٌ.

لذلك قال: (﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾) هذه الآية في بيان وجوب تحقيق التوحيد الواجب، وذلك

---

(١) هو: أبو محمد الحصين بن عبد الرحمن ابن عمرو بن سعد بن معاذ بن النعمان، توفي سنة (١٢٦هـ). الطبقات الكبرى - متمّم التابعين- لابن سعدٍ (١/ ٢٩٤).

بالبراءة من الشرك، وأهل الشرك؛ لذلك قال: (﴿**وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾)، هذا الشاهد.

يعني: (**إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً**)، ومن الأشياء التي أُثني عليه بها؛ أنَّه لم يكن من أهل الشرك، وهو متبرِّئٌ أيضاً من الشرك وأهله.

فقال: (**إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً**) (**أُمَّةً**) يعني: إماماً يُقتدى به في الأعمال الصالحة، وأعظمها التوحيد فهو إمام الحنفاء.

أو أنه جمع من التوحيد والأعمال الصالحة ما تعمله أمة.

وكلا المعنَيين صحيحٌ؛ يعني: إبراهيم عليه السلام يُقتدى به، وإبراهيم عليه السلام مُكثرٌ من الطاعات فهو أمَّة لكثرة أعماله الصالحة.

وهذا هو **الوصف الأوَّل** الذي وُصف به.

والوصف الثاني: قال: (**قَانِتاً لِلَّهِ**) أي: خاشعاً؛ يعني: مصلِّيا للَّه عز وجل مُخبِتاً له، كما وَصفه سبحانه في آيةٍ أخرى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ [هود:٧٥]؛ يعني: رجَّاعٌ ومنيبٌ إلى اللَّه عز وجل.

والوصف الثالث قال: (**حَنِيفاً**) أي: مائلاً عن الشرك إلى التوحيد، واستحقَّ لقب إمام الحنفاء وإمام الموحِّدين، وجميع الرسل لم يَخرج أحدٌ

منهم إلا من ذريته؛ كما قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، ولم ينزل الكِتاب إلا على أحدٍ مِن ذريته.

وساق المصنِّف ذلك؛ لبيان أنّه يجب علينا أن نقتدي بإبراهيم عليه السلام بتحقيق التوحيد، فلمَّا أُلقي في النَّار في صحيح البخاريِّ[(١)] قال: «حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما.

والوصف الرابع قال: (﴿**وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾)، وهذا الشاهد؛ يعني: محقِّقاً للتوحيد بالبراءة من الشرك وأهله.

إذاً: لا يكون الشخص محقِّقاً للتوحيد إلَّا إذا تبرَّأ من المشركين وعبادتهم؛ فيتبرأ من المشركين بالتبرؤ من الشرك وأهله؛ بأن يعتقد بطلان عبادتهم ويُبغض أهلها؛ كما قال سبحانه في آيةٍ أخرى: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف:٢٧-٢٨].

والوصف الخامس الذي وُصف به: ﴿شَاكِراً لِأَنْعُمِهِ﴾ [النحل:١٢١]، المصنِّف ما ذَكرها؛ لأنَّها خارجةٌ عن الشاهد.

---

(١) كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣] الآيَةَ، رقم (٤٥٦٤).

فممَّا يُمدح به الشخص عند اللَّه؛ شُكر النِّعم المُسْدَاة إليه من اللَّه عز وجل؛ لذلك اللَّه عز وجل ذَكر أنَّ عباد اللَّه الشاكرين قلَّةٌ، كما قال سبحانه: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:٢٤٣]، وقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣].

(وقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾) لبيان أنَّ من عباد اللَّه من لم يقع في الشرك، وحقَّق التوحيد، فيجب علينا جميعاً أن نكون مثلهم؛ يعني: لا يكون الشخص محققاً للتوحيد إلا إذا كان نابذاً للشرك.

فالأُولى: البراءة من الشرك وأهله (**﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾**)، لم يقل: ولم يكن مشرِكاً، وإنما: لم يكن من المشركين؛ أي: ولم يكن منهم ومن عبادتهم.

وهنا قوله: (**﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾**)؛ يَدخل فيها أيضاً الشرك الأصغر، من تعليق التميمة، والحلِف بغير اللَّه عز وجل كالنبي والأمانة والكعبة وغير ذلك.

فالأوَّل: تحقيقٌ واجبٌ للتوحيد باجتناب الشرك الأكبر.

والثاني: تحقيقٌ واجبٌ للتوحيد باجتناب الشرك الأصغر.

ثُم بعد ذلك يأتي المندوب.

ثُم بعد ذلك قال: (عَنْ حُصَيْنِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، قَالَ: «كُنْتُ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ رَأَى الْكَوْكَبَ الَّذِي انْقَضَّ الْبَارِحَةَ؟ قُلْتُ: أَنَا.

ثُمَّ قُلْتُ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلَاةٍ، وَلَكِنِّي لُدِغْتُ.

قَالَ: فَمَا صَنَعْتَ؟ قُلْتُ: ارْتَقَيْتُ.

قَالَ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ؟

قُلْتُ: حَدِيثٌ حَدَّثَنَاهُ الشَّعْبِيُّ، قَالَ: وَمَا حَدَّثَكُمْ؟

قُلْتُ: حَدَّثَنَا عَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ حُصَيْبٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ، أَوْ حُمَةٍ، فَقَالَ: قَدْ أَحْسَنَ مَنِ انْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ.

وَلَكِنْ حَدَّثَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ.

إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ.

فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفاً يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ.

ثُمَّ نَهَضَ، فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ، فَخَاضَ النَّاسُ فِي أُولَئِكَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ وَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئاً - وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ -.

فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ: هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ.

فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ، فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: أَنْتَ مِنْهُمْ.

ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ»).

هنا يَذكر الحديث في تحقيق التوحيد المندوب.

فلمّا ذَكر تحقيق التوحيد الواجب، وهو تخليصه من الشرك - سواء الشرك الأكبر أو الأصغر -؛ شَرع بعد ذلك في ذِكر تحقيق التوحيد المندوب.

قال: (عَنْ حُصَيْنِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، قَالَ: «كُنْتُ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ رَأَى الْكَوْكَبَ الَّذِي انْقَضَّ الْبَارِحَةَ؟) يعني: سعيدٌ[١] يَسأل حُصَيْناً رحمهما الله وكلاهما من التابعين، فيدلُّ على أنَّ السَّلف رحمهم الله يتفكرون في الكون، وما يحدث على غير ما عُرِف؛ يوقظ ذلك قلوبهم.

وقال سعيدٌ: (أَيُّكُمْ رَأَى الْكَوْكَبَ) أي: النجم، (الَّذِي انْقَضَّ) أي: سَقط، (الْبَارِحَةَ) اللَّيلة التي مضت.

وهذا يدلُّ على تفكُّر السلف واعتبارهم بما يحدث في الكون، حتى النجم الساقط من السماء يخافون أن يكون عقوبةً من اللَّه عز وجل، وما ذاك إلا لحياة قلوبهم، وفي الصحيح[٢]: النبي صلى الله عليه وسلم كان كثيراً ما ينظر إلى السماء، واللَّه يقول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ

---

(١) هو: أبو محمد سعيد بن جبير بن هشام الأسدي الوالبي مولاهم، توفي سنة (٩٥هـ). سير اعلام النبلاء للذهبي (٤/ ٣٢١).

(٢) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب بيان أن بقاء النبي صلى الله عليه وسلم أمان لأصحابه، وبقاء أصحابه أمان للأمة، رقم (٢٥٣١)، من حديث أبي بردة عن أبيه رضي الله عنه، وفيه: «فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، وَكَانَ كَثِيرًا مِمَّا يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ».

وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

(قُلْتُ) يعني: حُصَيْن، (أَنَا، ثُمَّ قُلْتُ) أي: حُصَيْن.

قال: (أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلَاةٍ) يعني: لم أكن مستيقظاً من أجْل أن أصلِّي؛ لدفْع التهمة بأنَّه يرائي بعمَله، ولِئلَّا يُمدح بما لم يَفعله، كأنَّه يقول: فلا تظنَّ يا سعيد بن جبير أنِّي كنتُ مصلِّياً في تلك الساعة.

وهذا يدلُّ على أنَّ السلف يخشون من إظهار عملٍ صالحٍ لهم لمْ يفعلوه؛ حذراً من الوعيد في الآية: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران:١٨٨].

قال: (وَلَكِنِّي لُدِغْتُ) يعني: استيقظتُ بسبب لدغة عقربٍ لي أيقظتني من النوم، فلمَّا استيقظت رأيتُ كوكباً ساقطاً.

وهذا يدلُّ على ضعْف الإنسان؛ فلدْغةٌ أَيقظتْه طوال اللَّيل.

(قَالَ: فَمَا صَنَعْتَ؟) وهذا يدلُ على محبَّة السلف بعضهم لبعضٍ، فيَسأل بعضهم بعضاً عمَّا أصاب الآخر من شرٍّ أو مكروهٍ.

(قُلْتُ: ارْتَقَيْتُ) أي: طلبتُ من يرقيني، واللَّفظ الذي في مسلمٍ[١] «استَرْقَيْتُ»، يعني: فعلتُ الرقية، أو: طلبتُ الرقية.

يعني: الرقية بالقرآن، وهذا يدلُّ على تعلُّق السلف بكتاب اللَّه سبحانه وتعالى.

ويدلُّ أيضاً على جواز طلبِ الرقية من الآخر، وكذا جواز الذهاب للطبيب ونحوه لطلب العلاج، ولكن كما سيأتي الأفضل ما هو.

(قَالَ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ؟) يدل على تعلُّق السلف رحمهم الله بالنصوص، يعني: ما دليلك؟ ما هو الدليل على أنه لمَّا لدغتْك عقرب لجأتَ إلى الرقية؟

فانظرْ إلى السلف، لُدِغ بعقرب، ومع ذلك يقول: ما هو الدليل؟ وهكذا الشخص في أمور الدين يَطلب الدليل حتى يزول عنه الإشكال.

وهذا يدلُّ على أنَّ السلف يتباحثون في العِلم في كلِّ واقعةٍ، فهنا لمَّا ذَكر النجم، وأتى بمسألة اللَّدْغ والرقية؛ فيسأله ما هو الدليل على أنك

(١) كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجَنَّة بغير حسابٍ ولا عذابٍ، رقم (٢٢٠).

طلبتَ الرقية، وهذا يدلُّ على مشروعية التباحُث في طلبِ العِلم ولو بالأمر الذي يُظَنُّ أنه واضحٌ.

(قُلْتُ: حَدِيثٌ حَدَّثَنَاهُ الشَّعْبِيُّ) يعني: حُصَينٌ رحمه الله يقول: الدليل على أني ارتقَيْت..

قال: (فَقَالَ: وَمَا حَدَّثَكُمْ؟ قُلْتُ: حَدَّثَنَا عَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ حُصَيْبٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: لَا رُقْيَةَ) يعني: لا رقية أَولى وأفضل وأَنفع من رقية القرآن بسبب العين أو الحُمَة كما سيأتي.

وليس المقصود أنّ الرقية فقط محصورةٌ في هذين الأمرين - وهما العين ولدْغ العقرب -؛ وإنَّما القرآن شافٍ لجميع الأمراض؛ لذلك (لَا رُقْيَةَ) يعني: أَولى وأفضل.

(إِلَّا مِنْ عَيْنٍ، أَوْ حُمَةٍ) هذا الشاهد في استدلال حُصَيْن بن عبد الرحمن رحمه الله.

يعني: حُصَين رحمه الله يقول: لمَّا علمتُ بهذا الحديث أنَّ الرقية تَنفع مِن لدغة العقرب؛ فعلتُ الرقية.

ويدلُّ على أنَّ العَين حقٌّ وأنَّها تُؤثِّر، والنبي صلى الله عليه وسلم قال: «أَكْثَرُ مَنْ يَمُوتُ مِنْ أُمَّتِي بِالأَنْفُسِ بَعْدَ كِتَابِ اللَّهِ»(١)، وفي الحديث الآخر: «العَيْنُ تُدْخِلُ الْجَمَلَ الْقِدْرَ، وَالرَّجُلَ الْقَبْرَ»(٢).

وهذا الحديث دلَّ على أنَّ مِن علاج العين الرقية بالقرآن العظيم؛ كمَا قال سبحانه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وهناك علاجٌ آخر لها وهو: أن يُؤخذ مِن أثرِ العائِن إذا عُرف، وصفة ذلك أن يُوضع ماءٌ في ذلك الأثر، وله صفتان:

الصفة الأولى: إمَّا أن يَغتسل به المُصاب.

والصفة الأخرى: أن يَنثر الماء على قفا وظَهْر المصاب بالعين على حين غفلةٍ منه.

(إِلَّا مِنْ عَيْنٍ) وهي الحسد؛ يعني: من أُصيب بعَينٍ؛ فبإذن اللَّه القرآن يزيل شرَّ العين التي أُصيب بها.

---

(١) رواه ابن أبي عاصمٍ في السُّنَّة، بَابٌ فِي ذِكرِ قَوْلِهِ علَيْهِ السَّلامُ: «لَوْ قُلْتُ: إِنَّ شَيْئاً سَابِقُ القَدَرِ؛ لَقُلْتُ: العَيْنُ تَسْبِقُ القَدَرَ»، رقم (٣١٠)، (١/ ١٢٦)، من حديث جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنهما.

(٢) رواه أبو نعيمٍ في الحِلية (٧/ ٩٠)، من حديث جابرٍ رضي الله عنه.

(أَوْ حُمَةٍ) وهي لدغة العقرب.

أي: أنَّ الرُّقية تَنفع في إزالة العين، وفي إزالة أذى لدغة العقرب وما في حُكمها.

فيدلُّ على أنَّ القرآن العظيم علاجٌ للأمراض العُضوِية أيضاً.

فالأوَّل: العَين مرضٌ؛ لكنَّه ليس محسوساً، فلا نستطيع أن نَلمس العين التي أصابت الرجُل.

فدلَّ على أن القرآن علاجٌ للأمور الحسِّيَّة والمعنوية.

ومن رحمة الله عز وجل أن القرآن هو الموصوف من بين الكتب السابقة بأنه شفاء.

وجَمع النبي صلى الله عليه وسلم بين العين والعقرب؛ لبيان أنَّ كلاهما أنفسٌ شرِّيرةٌ؛ لذلك النبي صلى الله عليه وسلم أَمر بقتل العقرب(١).

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب جزاء الصيد، باب ما يَقتل المحرِم من الدواب، رقم (١٨٢٩)، من حديث عائشة رضي الله عنها، ولفظه: «خَمْسٌ مِنَ الدَّوَابِّ، كُلُّهُنَّ فَاسِقٌ، يَقْتُلُهُنَّ فِي الحَرَمِ: الغُرَابُ، وَالحِدَأَةُ، وَالعَقْرَبُ، وَالفَأْرَةُ، وَالكَلْبُ العَقُورُ».

والعَين قال ابن القيم رحمه الله: «أنفسٌ خبيثةٌ تَخرج من العائن؛ فتَدخل في بدن المحسود - والعياذ باللَّه -»(١).

إلى الآن ما أَتى الشاهد؛ لكن المصنِّف يَذكر الحديث بتمامه، يعني: ما أَتى الشاهد على أنَّ تحقيق التوحيد يُدخِل الرجُل الجَنَّة بغير حِسابٍ - إذا كان محقِّقاً للتوحيد الواجب والمندوب -.

فقال: (قَدْ أَحْسَنَ مَنِ انْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ) يعني: سعيد بن جبيرٍ رحمه الله يقول: الذي فعلتَه صحيح.

وفيه أدبُ العلماء فيما بينهم، فلم يعنِّفه على فِعله؛ لأنَّ عنده دليلاً، فقال: (قَدْ أَحْسَنَ مَنِ انْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ)، فأنت أحسنتَ بفِعلك لِما بلغك من هذا العِلم؛ يعني: فعلتَ ذلك الأمر؛ لأنّ عندك دليلاً فقد أحسنتَ في ذلك، ولكن عندي دليلٌ آخر لو فعلتَه؛ فهو أفضل ممَّا فعلتَ - كما سيأتي -.

وهذا يدلُّ على احترام السلف بعضهم لبعضٍ وكذا أهْل العِلم، إذ فعَل أمراً مبنيّاً على نصٍّ.

(١) الطب النبوي (١/ ١٢٤).

ويدلُّ على عِلم السلف العمِيق حتى في حياتهم الخاصة - مِن لدغة العقرب ونحوها -.

قال رحمه الله تعالى: (وَلَكِنْ حَدَّثَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ) يعني: سعيد بن جبيرٍ يقول لحُصَينٍ: الذي فعلتَه صحيحٌ؛ لكن سوف أعطيك أمراً آخر أفضل من الذي فعلتَه؛ وهو عدم طلبِ الرقية من الآخرين، وإنَّما تَرْقِي نفْسَك بنفْسك، وتتوكَّل على اللَّه، فمن فعل ذلك؛ دَخل الجَنَّة بغير حسابٍ.

وهذا يدلُّ على أنَّ علماء السلف يَنظرون إلى الدرجات العُلى وإن كان الأَوَّل أمراً مشروعاً؛ لكنَّهم يطلبون ما هو الأفضل من المشروع.

(عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ) أي: في المنام، وهذا يدلُّ على فضْل النبي صلى الله عليه وسلم إذ عَرض اللَّه على النبي صلى الله عليه وسلم الأمم الأخرى؛ ليستبشر بأنَّ هذه الأمَّة هي أكثر الأمم، وعند الترمذي(١): «لَمَّا أُسْرِيَ بِالنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم جَعَلَ يَمُرُّ بِالنَّبِيِّ وَالنَّبِيَّيْنِ وَمَعَهُمُ القَوْمُ

(١) أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، باب، رقم (٢٤٤٦).

وَالنَّبِيِّ وَالنَّبِيَّيْنِ وَمَعَهُمُ الرَّهْطُ وَالنَّبِيِّ وَالنَّبِيَّيْن وَلَيْسَ مَعَهُمْ أَحَدٌ»، فرأى النبي صلى الله عليه وسلم آيةً من اللَّه عز وجل.

(فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ) (**الرَّهْطُ**) العدد من عشرة فمَا دون.

وأقوام الأنبياء لم يستجِب قوم كلهم لنَبِيِّهم سوى يونس عليه السلام؛ كما قال سبحانه: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا﴾ [يونس: ٩٨]، وكما قال سبحانه: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۞ فَآمَنُوا﴾ [الصافات: ١٤٧-١٤٨].

وأمَّا غير يونس عليه السلام، فمنهم من يَكثر أتباعهم - فالنبي صلى الله عليه وسلم أكثر الأمم تابعةً له، ثُم يلي ذلك موسى عليه السلام-، ومِن الأنبياء مَن يؤمن بهم القليل.

(وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ) يعني: لم يُؤمن به سوى رجُلٍ أو رجلين، ومنهم من لا يؤمن به سوى رجُل واحد، وهذا يدلُّ على أنَّ الرسل لا يَملكون هداية الناس؛ كما قال سبحانه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦].

(وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ) يعني: يدعو قومه ويَحرِص على إيمانهم لكن لم يؤمن منهم أحدٌ.

وهذا يدلُّ على أنَّ الداعية لا يَنظر إلى كثرة المدعوِّين؛ وإنَّما يَفعل ما أمره اللَّه عز وجل به من تبليغ الدعوة، أمَّا فتْح القلوب فهو بيد اللَّه.

فالشخص - مثلاً - يدعو ويُعلِّم غيره ويَحرص عليهم، إن آمنوا؛ فهذا بفضل اللَّه، وإن لم يؤمنوا؛ هذا إلى اللَّه؛ كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ [هود:١٢]، وقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام:١٠٧]، وقال سبحانه: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية:٢٢]، ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [المائدة:٩٩].

وليس فيه نقْصٌ للأنبياء، وكذا ليس فيه نقصٌ لمن سار على نهْج الأنبياء ولم يتبعه أحدٌ، واللَّه عز وجل هو القهَّار وحِكمته هي الحِكمة البالغة؛ كما قال سبحانه: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [فاطر:٨].

ويدلُّ هذا - والعياذ باللَّه - على طغيان بني آدم، فنبيٌّ يُوحَى إليه لا يستجيب أحدٌ إليه!

ويدلُّ على صبْر الأنبياء عليهم السلام.

ويدلُّ على أن الداعية لا يُلام في قلَّة التابعين له إذا كان على الحق؛ بل هو منصورٌ؛ كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: ٥١]، ووَرد أن نوحاً عليه السلام لم يؤمن به سوى عشرة فقط، وقِيل:

أَقَلُّ[(١)]، مع طول مكْثِهِ في قومه؛ كما قال تعالى: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً﴾ [العنكبوت:١٤].

(إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ) يعني: لكثرة الناس فيه، فمن بعيد يُظن أنهم سوادٌ عظيمٌ؛ بمعنى: إذا رأيت الرؤوس من بعيدٍ كاشفةً؛ يُظن أنها سوادٌ كاللَّيل.

لذلك قال: (إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ) فرأيتُ ذلك السَّواد؛ يعني: كثرة الناس، (فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي) يعني: ظننتُ أنهم أمَّة الإجابة - لا الدعوة -؛ لأنَّ النبي محمداً صلى الله عليه وسلم يَطمع أن تكون أمَّته خير الأمم، وكذا كانت.

(فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ) مع أنَّ موسى عليه السلام ليس فصيحاً في الكلام، كما أخبر اللَّه عز وجل عنه: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢]؛ ومع ذلك أمَّته هي أكثر الأمم بعد أمَّة محمد صلى الله عليه وسلم.

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٢١).

فدلَّ على أنَّ البلاغة والفصاحة ليست شرطاً في قبول الناس؛ وإنَّما الأصل هو صلاح النية والإخلاص للَّه سبحانه وتعالى، فموسى عليه السلام لا يستطيع الكلام؛ لذلك يدعو ربه يقول: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ [طه:٢٧]، وفرعون يَسخر منه ويقول: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف:٥٢] ما يستطيع أن يَتكلَّم؛ لكن لِصِدق إخلاصه وصِدق دعوته وحِرصه؛ تبعه أمَّةٌ كُثر وإن كان ضعيفاً في البيان.

لهذا: فالشخص إن كان ضعيفاً في تبليغ الدعوة سواء ضعفاً مادياً أو بيانياً أو جسدياً؛ فهو يبلِّغ واللَّه عز وجل هو الذي يسدِّد؛ لذلك يقول سبحانه: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال:١٧]

(فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ) يعني: أكثر من السواد الأوَّل، والمراد بأمَّتك في هذا الحديث: أمَّة الإجابة؛ يعني: من استجاب للنبي صلى الله عليه وسلم وآمن، لا أمَّة الدعوة؛ فأمَّة الدعوة هم من بُعث النبي عليه الصلاة والسلام إليهم مِن يوم بِعْثته إلى قيام الساعة.

فكلُّ الناس مؤمنهم وكافرهم يُسمَّون أمَّة محمدٍ صلى الله عليه وسلم؛ يعني: أمَّة الدعوة، فمن آمن مِنهم يقال لهم أمَّة إجابةٍ؛ أي: أمَّة استجابت للنبي صلى الله عليه وسلم.

فمثلاً: اليهود والنصارى بعد بعْثة النبي صلى الله عليه وسلم يُطلق عليهم أنهم مِن أمَّة محمد صلى الله عليه وسلم؛ لكنْ أمَّة الدعوة: دُعوا للتوحيد ولاتِّباع النبيِّ عليه الصلاة والسلام.

وهذا يدلُّ على كثرة أمَّة محمدٍ صلى الله عليه وسلم.

(وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفاً يَدْخُلُونَ الجَنَّة بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ) هذا الشاهد أنَّ من أمَّة محمدٍ صلى الله عليه وسلم مَن يدخل الجَنَّة بغير حسابٍ ولا عذابٍ، وعددهم سبعون ألفاً.

وفي رواية عند الإمام أحمد: «مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعِينَ أَلْفاً»(١)، وهذا كرمٌ من اللَّه عز وجل وفضلٌ؛ يعني: سبعون ألفاً مع كلِّ ألفٍ سبعون ألفاً أيضاً، وهذا من بعثة النبي عليه الصلاة والسلام إلى قيام الساعة.

---

(١) سبق تخريجه (ص)، عند قوله (وفي مسند الإمام أحمد «مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعِينَ أَلْفاً).

وإذا نظرتَ إليه فهو عددٌ قليلٌ على كثرة تَوَارُدِ القرون مِن هذه الأمَّة؛ ليس فيهم سوى هذا العدد القليل.

قال: (ثُمَّ نَهَضَ) النبي صلى الله عليه وسلم؛ أي: قام، (فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ)؛ يعني: لمَّا قال ذلك النبي عليه الصلاة والسلام قام ودَخل بيته بعد أن ذَكر هذه المَزِيَّة العظيمة.

(فَخَاضَ النَّاسُ فِي أُولَئِكَ) أي: يَتكلموا: مَن هؤلاء السبعون؟

وهذا يدلُّ على عُمق إيمان وعِلم الصحابة رضي الله عنهم، لعِلمهم بأنه لا يصل أحدٌ لهذه المرتبة إلَّا بالعمل؛ لذلك كلُّ واحدٍ يَذكر عملاً فاضلاً ممَّا هو في نظره.

ويدلُّ على حِرص الصحابة أن يكونوا من أهل تلك الصفة، وهي أن يدخلوا الجَنَّة بغير حسابٍ ولا عذابٍ.

ويدلُّ على أنَّ هَمَّ الصحابة رضي الله عنهم هو في الآخرة إذ أهمَّهم ذلك الأمر.

(فَقَالَ بَعْضُهُمْ) يعني: الصحابة بعضهم لبعضٍ يقولون: ما هي الأعمال التي يَعملها أو عمِلها السبعون ألفاً حتى يدخلوا الجَنَّة بغير حسابٍ؟

فقال بعضهم: (فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم) يعني: بعض الصحابة قال: لعلَّ أولئك هم نحن الصحابة؛ لأنَّ الصُّحبة لها منزلةٌ عاليةٌ، وهذه المنزلة لا توجد بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام، فهي منزلةٌ زمنيةٌ قصيرةٌ ثُم تنتهي، ومن وُجد في ذلك العصر مؤمناً؛ وَعَده اللَّه عز وجل بدخول الجَنَّة، كما قال سبحانه: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التوبة:١٠٠].

وهذا يدلُّ على عِلم الصحابة بعلوِّ منزلة الصحبة، لهذا: عمر بن عبد العزيز[١] من التابعين، ومعاوية[٢] من الصحابة؛ قال الإمام أحمد رحمه الله: «لَغُبارٌ لحِق بأنف جواد معاوية بين يدي رسول اللَّه صلى الله

(١) هو: عمر بن عبد العزيز بن مروان ابن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب، وُلد سنة (٦٣هـ)، وتوفي سنة (١٠١هـ). سير أعلام النبلاء للذهبي (٥/ ١١٤).

(٢) هو: أبو عبد الرحمن معاوية بن أبي سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، أسلم قبل الفتح وعمره ١٨ سنة، وتوفي سنة (٦٠هـ). معرفة الصحابة لأبي نعيم (٥/ ٢٤٩٦).

عليه وسلم خيرٌ من عمر بن عبد العزيز»[١]، وسُئِل رحمه الله: مَن أفضل معاوية أو عمر بن عبد العزيز؟ قال: «من رأى رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم، وقال رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم: خير الناس قرني»[٢]؛ لفضْل الصحبة؛ لذلك قال شيخ الإسلام عنهم: «لا كان ولا يكون مثلهم»[٣]؛ يعني: الصحابة رضي الله عنهم.

ويكفيك شَرَف أنَّ اللَّه بشَّرهم جميعاً بالجَنَّة وهم أحياءٌ؛ قال سبحانه: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ [الحديد:١٠]؛ فجميع الصحابة وعَدهم اللَّه بالجَنَّة؛ قال ابن حزمٍ رحمه الله: «الصحابة كلهم من أهل الجنة قطعاً»[٤].

(وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ وَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئاً) قالوا ذلك؛ لأن فيه جملة من الصحابة كانوا على الشرك، فلما أتى

(١) شذرات الذهب لأبي الفلاح (١/ ٢٧٠).

(٢) أخرجه الخلال في «السُّنَّة» (٦٦١)، قال المحقق: إسناده صحيح.

(٣) متون طالب العلم، المستوى الثالث، العقيدة الواسطية (ص١٦٩).

(٤) الإصابة (١/ ١٩).

الإسلام أسلموا، يعني: يتحسَّرون في أنفسهم أنهم لو ولدوا على الإسلام، فقالوا قد تكون هذه منقَبة فاتت علينا.

وإن كان الصحابة أفضل لا شك ممن بعدهم؛ لفضل الصحبة.

قال: (وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ) يعني: كلُّ واحدٍ منهم يَذكر عملاً يظنُّ أنه هو الذي يُدخل السبعين ألفاً الجنة بغير حساب ولا عذاب.

(فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم) وهم يخوضون في ذلك ويتحدثون؛ خَرج عليهم النبي عليه الصلاة والسلام.

فدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان قريباً من صحابته، وعليه: فعلى الداعي أو المعلم أن يكون قريباً ممن يدعوه، وبهذا ينتشر الإسلام.

وهذا يدلُّ على عِظم هِمَّة الصحابة رضي الله عنهم في البحث عن أسباب ووسائل الرفعة عند اللَّه عز وجل، فكل منقَبَةٍ تُذكر يتمنون أنهم ينالونها، ومن ذلك دخول الجَنَّة بغير حسابٍ ولا عذابٍ.

(فَأَخْبَرُوهُ) أي: فأخبروه بأنهم يَتحدثون عن أعمال أولئك ويخوضون فيها ما هي وأنَّها خَفِيَت عليهم.

(فَقَالَ) وهو الشاهد من الحديث.

فلمَّا ذَكروا للنبي عليه الصلاة والسلام أنهم يخوضون في أولئك؛ بيَّن لهم النبي عليه الصلاة والسلام ما هي صفات وأعمال الذين يدخلون الجَنَّة بغير حسابٍ ولا عذابٍ، وهم الذين حقَّقوا التوحيد المندوب؛ لأنَّ تحقيق التوحيد إمَّا أن يكون واجباً كما سَبق - بترك الشرك الأكبر والبدع والمعاصي -، وتحقيقه بترك ما لا بأس به حذراً ممَّا به بأسٌ.

ومعنى هذا - يعني: تحقيق التوحيد المندوب -: «تَركوا ما لا بأس به» يعني: تركوا شيئاً ليس محرَّماً؛ وإنما تركوا شيئاً مباحاً أو تركوا شيئاً مكروهاً، «حذراً ممَّا به بأس» وممَّا يُنزل درجتهم عن تحقيق التوحيد المندوب.

لكن لو فعلوا ما سَبق من الأمور المباحة من طلبِ الرقية والكَيّ؛ فإنهم لم يفعلوا أمراً محرَّماً، وإنمَّا تَركوا هذه الأمور المباحة؛ طلباً فيما عند اللَّه عز وجل.

لذلك قال: (هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ) يعني: كأنَّه يقول: هم الذين يتوكَّلون على اللَّه عز وجل توكُّلاً قويّاً منجذبةً قلوبهم إلى اللَّه سبحانه،

ومن ذلك: (**لَا يَسْتَرْقُونَ**) يعني: لا يَطلبون من أحدٍ أن يرقِيَهم إذا مَرضوا.

وهذا مما رَدَّ به سعيد بن جبير على حصين بن عبد الرحمن، قال: أنت قلت: لا رقية إلا من عين أو حُمَة، وارْتَقَيْتَ؛ لكن عندي حديث فيه بيان منزلة أفضل، وهو أنك لو لم تَرْتَقِ - تطلب من أحد أن يرقيك -؛ كان أفضل.

والرُّقيَة مباحةٌ، فقد رقى النبي عليه الصلاة والسلام نفْسه(١)، ورُقِي من قِبل جبريل وميكائيل(٢)، فالرقية لا بأس بها، لكن أن يرقي

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب فضائل القرآن، باب فضْل المعوِّذات، رقم (٥٠١٦)، ومسلمٌ، كتاب السلام، باب رقية المريض بالمعوِّذات والنفث، رقم (٢١٩٢)، من حديث عائشة رضي اللّه عنها، ولفظه: «أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم كَانَ إِذَا اشْتَكَى يَقْرَأُ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ، وَيَنْفُثُ، فَلَمَّا اشْتَدَّ وَجَعُهُ كُنْتُ أَقْرَأُ عَلَيْهِ، وَأَمْسَحُ عَنْهُ بِيَدِهِ؛ رَجَاءَ بَرَكَتِهَا».

(٢) رواه مسلمٌ، كتاب السلام، باب الطبّ والمرض والرقى، رقم (٢١٨٦)، من حديث أبي سعيدٍ رضي الله عنه، ولفظه: «أَنَّ جِبْرِيلَ، أَتَى النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ اشْتَكَيْتَ؟ فَقَالَ: «نَعَمْ» قَالَ: «بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ

الإنسان نفْسه، وإنما الأقل منزلةً أن يَطلب الإنسان من غيره أن يرقِيَه الرقية الجائزة ولو بالقرآن، فكَوْن الإنسان يتنازل إلى غيره فيقول: ارقِني؛ ولم يتوكل على اللَّه في ذلك؛ يَنزل عن مرتبة تحقيق التوحيد المندوب.

وليس معنى ذلك أنَّ الرقية بالقرآن محرَّمةٌ، وإنما ترْك طلبِ الحاجات من الناس؛ يعلو به الإنسان مرتبةً.

ومِن ذلك: طلبُ الشفاء من الآخرين وإن كان ذلك مباحاً، لكن تركوا ما لا بأس به - وهو المباح -؛ مما به بأس - مما ينقصهم من تلك الدرجة -.

فقال: (**هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ**) فطلبُ الرقية تُنقِص الدرجة، ولو رقى الإنسان نفْسه لا بأس به.

ولو أنَّ الإنسان إذا لم يرقِ نفْسه، أو يَذهب للطبيب للعلاج - وتوكُّله ليس قوياً -؛ يُنقصه عن التعلُّق باللَّه، ويؤدِّي به إلى التجزُّع والتسخُّط، وعدم الإيمان بالقضاء والقدر.

شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنِ حَاسِدٍ، اللَّهُ يَشْفِيكَ بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ».

نقول: في حقِّ هذا الرجل: أن يَطلب الدواء من غيره أفضل في حقه من أن يتسخَّط ويتجزَّع على القضاء والقدر؛ لأنَّ الإيمان بالقضاء والقدر ركنٌ من أركان الإيمان، فلا يفعل المرء شيئاً يُخِلُّ بإيمانه من أجْل طلبِ أمرٍ مندوبٍ.

لكن من وُجد له إيمانٌ قويٌّ وقال: أنا لا أريد أن يرقِيَنِي غيري أو أطلب الشفاء من غيري، متوكِّلاً على اللَّه توكُّلاً قويّاً وأدعوه.

نقول: في حق من كانت هذه صفاته أفضل، لكن عامَّة الناس ممَّن يتجزَّع؛ نقول: طلبُ الدواء في حقهم أفضل؛ لئلَّا يقع في أمرٍ محظورٍ وهو عدم الرضا بالقضاء والقدر، أو التجزُّع على قدر اللَّه، أو عدم الرضا بما كَتبه اللَّه عليه.

لذلك قال: (**هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ**).

ثُم ذَكر صفةً من صفات المتوكِّلين على اللَّه – أيضاً – توكُّلاً قويّاً وذكرها بقوله: (**وَلَا يَكْتَوُونَ**) يعني: لا يطلبون من أحد أن يَكوِيَهم بالنار.

وإن كان ذلك مباحاً؛ فالنبي عليه الصلاة والسلام «بَعَثَ إِلَى أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ طَبِيباً، فَقَطَعَ مِنْهُ عِرْقاً، ثُمَّ كَوَاهُ عَلَيْهِ»(١)، والنبي عليه الصلاة والسلام قال: «شِفَاءُ أُمَّتِي فِي ثَلاَثَةٍ: فِي شَرْطَةِ مِحْجَمٍ، أَوْ شَرْبَةِ عَسَلٍ، أَوْ كَيَّةٍ بِنَارٍ»(٢).

وقال: «أَنْهَى أُمَّتِي عَنِ الكَيِّ»(٣).

فدلَّ على أنَّ الكيَّ مباحٌ لكن ترْكه توكُّلاً على اللَّه عز وجل إذا حصل مرضٌ؛ أفضل وأَولى، فالكيُّ نوعٌ من العلاج.

والفرْق بين (**لَا يَسْتَرْقُونَ**)، و(**لَا يَكْتَوُونَ**):

---

(١) رواه مسلم، كتاب السلام، باب لكل داءٍ دواء واستحباب التداوي، رقم (٢٢٠٧)، من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاريُّ، كتاب الطب، باب الشفاء في ثلاث، رقم (٥٦٨١)، من حديث ابن عباسٍ رضي الله عنهما.

(٣) رواه البخاريُّ، كتاب الطب، باب الشفاء في ثلاث، رقم (٥٦٨١)، من حديث ابن عباسٍ رضي الله عنهما.

أنَّ الرقية شفاءٌ معنويٌ، والكيّ شفاءٌ حسيٌ، فمن ترَك طلبَ الشفاء من غيره من الأدوية المعنوية أو الحِسِّيَّة توكُّلاً على اللَّه، طلباً لتحقيق التوحيد المطلوب؛ نقول: هذا أفضل في حقِّه - على التفصيل السابق -.

قال: (وَلَا يَتَطَيَّرُونَ) لا يتشاءمون لا بزمن ولا بفعل.

أي: لا يتشاءمون بالطير ونحوه، وسيأتي بابٌ خاصٌّ بالطيرة بإذن اللَّه.

وإنَّما ذُكرت الطيرة في التوكل؛ لأنَّ التطيُّر فيه ضعْف توكُّلٍ على اللَّه عز وجل بمَا يغيره من المشؤومات، سواء كان تطيُّراً بالأشهُر - كصَفَرٍ -، أو كان تطيُّراً بالطيور - كالغراب ونحو ذلك -، أو تطيُّراً بأحوالٍ أو ألوانٍ - كالأسود ونحو ذلك -، أو كثرة الوفيات في أبنائه؛ إذا سمَّى اسماً معيناً يموت ابنه ثُم إذا سمَّى نفس الاسم يموت ابنه وهكذا.

فالتطيُّر يُنقص التوكل على اللَّه عز وجل، وإن كان شركاً لكن ذُكر في هذا الحديث؛ لأنَّ ضعف التوكل إمَّا أن يكون في فعْل أمرٍ مباحٍ أو أمرٍ محرَّمٍ؛ أمرٌ مباحٌ في الرقية والكيِّ، أو محرَّم في التطير.

لذلك قال: (هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَكْتَوُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ).

ثُم عَطف عطفاً عامّاً على ما تَقدَّم فقال: ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ هذا مِن عطْف العام على الخاص، فمن أمثلة التوكل: ترْك الرقية، ترْك الكي، ترْك الطيرة.

إذاً مَن حقَّق التوحيد الواجب بترْك الشرك بنوْعَيْه، وحقَّق التوحيد المندوب بقوة التوكل على اللَّه عز وجل؛ فإنَّه موعودٌ بأن يكون من السبعين ألْفاً الذين يَدخلون الجَنَّة بغير حسابٍ ولا عذابٍ.

فدلَّ على أنَّ مِن فضائل التوحيد أنَّ مَن حقَّقه يَدخل الجَنَّة بغير حسابٍ ولا عذابٍ، فلا يُعذَّب بالنَّار البتَّة، ولا يُحاسَب على ما فعلَه من أعمالٍ قد تكون مُنقِصةً له.

فصفة الذين يدخلون الجَنَّة بغير حسابٍ ولا عذابٍ هم المتوكِّلون على اللَّه، وهذا هو الشاهد أنَّ تحقيق التوحيد يَتحقَّق بكمال التوكُّل على اللَّه عز وجل.

ومِن ذلك: عدمُ طلبِ الاستشفاء أو الدواء من الآخرين ونحو ذلك، أمَّا أن يرقي نفْسه أو يداوي نفْسه؛ فيجوز؛ لأنه لم يَعتمد على غيره، فالنبي صلى الله عليه وسلم رقى نفسه، وكذا رَقَاه جبريل عليه السلام.

وضابط هذا الأمر - الذي هو كمال التوكل على اللَّه في حال المرض ونحوه -: أنْ يرزقه اللَّه عز وجل كمال الإيمان بالقضاء والقدر، وكمال التوكل على اللَّه سبحانه وتعالى.

أمَّا إذا لم يتداوَ فيتجزَّع ويَتسخَّط ممَّا أصابه؛ فإنَّ هذا الأفضل في حقِّه أن يتداوى؛ لئلَّا يقع في النهي المحذور عنْه بعدم الإيمان بالقضاء والقدر.

قال: (**فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ، فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ**) هذا يدلُّ على عُمْق التوحيد في قلوب الصحابة فما قال: اجعلني أنت منهم، وإنَّما قال: (**ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ**).

ويدلُّ على عِظم منزلة الدعاء؛ فبدعوةٍ يصل الإنسان إلى أعالي الجنان.

ويدلُّ أيضاً على حِرص الصحابة على تلك المنزلة.

ويدلُّ أيضاً على جواز طلبِ الدعاء من الصالحين الأحياء ومن ذلك الرسل، ولكنَّ الأفضل عدم طلبِ الدعاء من الآخرين - من الصالحين ونحوهم -؛ لأنه ينافي كمال التعلُّق باللَّه سبحانه وتعالى؛ قال شيخ الإسلام رحمه الله: «ولهذا لم يُعرَف قط أن الصديق ونحوه من أكابر

الصحابة سألوه شيئاً من ذلك، ولا سألوه أن يدعو لهم وإن كانوا قد يطلبون منه أن يدعو للمسلمين»[١]، وأمَّا حديث «يَا أَخِي، لَا تَنْسَنَا مِنْ دُعَائِكَ»[٢] فهو ضعيفٌ.

وعُكَّاشة بن مِحصَن رضي الله عنه من صغار الصحابة، فكان صغار الصحابة رضي الله عنهم يَطلبون من النبي صلى الله عليه وسلم ذلك، وهذا ليس بمحرَّمٍ، ولكن الأفضل أن لا تَطلب من أحدٍ أن يدعو لك؛ وإنما اجْعل قلبك معلَّقاً باللَّه.

(فَقَالَ: أَنْتَ مِنْهُمْ) هذا يدلُّ على أنَّ النبي عليه الصلاة والسلام نبيٌّ حقٌّ؛ فشهِد له بأمرٍ مغيَّبٍ بأن يكون من أولئك، وقد قُتل رضي الله عنه شهيداً.

قال: (ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ) يدلُّ على مسارعة الصحابة أن يكونوا من أهل الفضائل؛ فهنا قام رجُلٌ آخر (**فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ**)، ويدلُّ على جواز التنافس في الخير.

---

(١) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة (١/ ٦٤).

(٢) رواه أحمد في المسند، رقم (١٩٥)، من حديث عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهما.

(فَقَالَ: سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ) يدلُّ على علوِّ خُلقِ النبي صلى الله عليه وسلم؛ إذْ لم يردَّه بردٍّ يُحزن طالب الدعاء؛ فلم يعنِّفه، ولم يؤنِّبه، ولم يقلْ أنت لست منهم؛ وإنما قال بجوابٍ سديدٍ غير مؤلمٍ: **(سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ)**.

ويدلُّ أيضاً هذا الحديث على أنَّ المرء إذا فُتح له باب خيرٍ؛ عليه أن يسارع إليه فقد يُغلق هذا الباب، فهنا أُغلق هذا الباب برجُلٍ سَبقه وهو عُكَّاشة رضي الله عنه.

وهكذا فتْح أبواب الخير لا يتكرر؛ لذلك قال ابن القيم رحمه الله - في فوائد غزوة تبوك -: «فُتح باب الخير للصحابة فتخلَّف كعبٌ وهلالٌ ومَرَارَة بن الربيع ولم يتكرر لهم هذا الغزو»[1]، فلم يغْزُ الرسول عليه الصلاة والسلام تبوك مرةً أخرى ولم يغزُها سوى مرَّةٍ، فإذا فُتِح باب الخير؛ بادِر وسارِع إليه فقد يُغلق.

فدلَّ ما تقدَّم على أنَّ المسلِم عليه أن يُحقِّق كمال التوحيد الواجب، والمستحب؛ لينال تلك المنزلة العالية.

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٥٠٣).

***

[٤]

بَابُ
الخَوْفِ مِنَ الشِّرْكِ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾.

وَقَالَ الخَلِيلُ عليه السلام: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾.

وَفِي الحَدِيثِ: «أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ: الشِّرْكُ الأَصْغَرُ، فَسُئِلَ عَنْهُ؟ فَقَالَ: الرِّيَاءُ».

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو لِلَّهِ نِدّاً؛ دَخَلَ النَّارَ» رَوَاهُ البُخَارِيُّ.

وَلِمُسْلِمٍ: عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «مَنْ لَقِيَ اللَّهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً؛ دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً؛ دَخَلَ النَّارَ».

الشرح:

قال المصنِّف رحمه الله: (بَابُ الخَوْفِ مِنَ الشِّرْكِ) يعني: باب وجوب الخوف من الشرك، وذكره بعد (بَابُ مَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ؛ دَخَلَ

الجَنَّة بِغَيْرِ حِسَابٍ)؛ أي: أنَّ تحقيق التوحيد لا يكون إلا بالخوف من الشرك.

وتحقيق التوحيد أيضاً يكون بأمرين:

الأمر الأوَّل: بالبحث عمَّا يُكَمِّل التوحيد.

الأمر الثاني: بالبحث عمَّا يُنقِص التوحيد من أعمالٍ أو أقوالٍ شِرْكِيَّةٍ.

لذلك قال: إذا سَعَيْتَ لتحقيق التوحيد فاخشَ من الشرك؛ فقد يَطرأ عليك وأنت لا تَعلم.

قال رحمه الله: (**بَابُ الخَوْفِ مِنَ الشِّرْكِ**) أي: وجوب الخوف من الشرك؛ أي: هذا باب الخوف من الشرك في بيانه لخطورته.

وذَكر المصنِّف رحمه الله فيه آيتين وثلاثة أحاديثٍ:

الآية الأُولى - (﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ**﴾) - ساقها؛ لبيان خطر الشرك، وأنَّ اللَّه عز وجل يَغضب على صاحبه ولا يَغفر لمن وَقع في ذلك الذنب.

الآية الثانية - (﴿**وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ**﴾) - ساقها؛ لبيان أنَّ الأنبياء كانوا يخافون من الشرك - كما سيأتي -.

والحديث الأوَّل - (**أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ: الشِّرْكُ الأَصْغَرُ**) - ساقه لبيان أنَّ الشرك يَدخل في الصالحين، وأنَّه يجب أيضاً على المسلِم أن يَخاف على نفسه حتى الشرك الأصغر وليس الأكبر فحسْب.

والحديث الثاني - (**مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو للَّه نِدّاً؛ دَخَلَ النَّار**) - ساقه؛ لبيان أنَّ مآل المشرك - والعياذ باللَّه - دخول النَّار.

والحديث الثالث - (**مَنْ لَقِيَ اللَّهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً؛ دَخَلَ الجَنَّة**) - ساقه؛ لبيان أن دخول الجَنَّة مشروطٌ بأن لا يُشرك بأيِّ نوعٍ من أنواع الشرك، وسيأتي تفصيل ذلك.

والشرك ينقسم إلى قِسمين:

القِسم الأوَّل: الشرك الأكبر، وهو مساواة غير اللَّه باللَّه فيما هو من خصائص اللَّه[1].

ولهُ تعريفٌ آخر، وهو الذي عرَّفه به الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: «وَهُوَ دَعْوَةُ غَيْرِهِ مَعَهُ»[2]، كأنْ يدعو الشخص الأموات أو

---

(١) حاشية كتاب التوحيد للشيخ عبد الرحمن بن قاسم (١/ ١٥).

(٢) متون طالب العلم، المستوى الأول، الأصول الثلاثة وأدلتها (ص٤٧).

الأحياء الغائبين أو أن يدعو حيّاً لكنَّه غير قادرٍ، كأن يدعو حيّاً يقول له: اغفر لي ذنبي ونحو ذلك؛ فهذا الشرك الأكبر.

وينقسم هذا الشرك إلى: أعمالٍ، وأقوالٍ، واعتقادٍ.

القِسم الأوَّل أعمالٌ؛ كالطواف والنذر ونحو ذلك.

القِسم الثاني أقوالٌ؛ كأن يقول: يا رسول اللَّه أغثني.

القِسم الثالث اعتقاد؛ كأن يعتقد أنَّ غيره ينفع أو يضر، كأن يعتقد الشخصُ أنه إذا لم يزرْ قبر الولي الفلاني فإنَّه سوف تأتيه مصيبةٌ - والعياذ باللَّه -؛ فهذا من الشرك الأكبر.

هذه أقسام الشرك الأكبر.

القِسم الثاني: **الشرك الأصغر**، والشرك الأصغر ينقسم إلى قِسمين:

القِسم الأوَّل: شِركٌ أصغر ظاهر، وهذا الظاهر ينقسم إلى قِسمين أيضاً:

ظاهرٌ بالأقوال: كالحلِف بغير اللَّه.

أو ظاهرٌ بالفعل: مثل: تعليق التميمة؛ فهو شركٌ أصغر ظاهرٌ؛ يعني: نراه بأعيننا - بالبصر -.

والقِسم الثاني: شركٌ أصغر خفيٌّ - يعني: غير ظاهرٍ -، وهو يَسِير الرياء.

الرياء خفيٌّ؛ لأنَّه في القلب، فما نَعلم هل الشخص أَخلص للَّه أم لم يُخلص للَّه؛ أي: يَفعل شيئاً لكي يراه الناس.

إذاً: الشرك ينقسم إلى قِسمين: أكبر وأصغر.

والأكبر ينقسم إلى ثلاثة أقسامٍ: بالقول وبالفعل وبالقلب.

والشرك الأصغر ينقسم إلى قِسمين: ظاهرٌ نراه أو نسمعه، بالقول أو بالفعل، والقِسم الثاني لا نراه وهو الرياء.

وسَبق أنَّ تعريف الشرك الأكبر: دعوة غيره معه.

وتعريف الشرك الأصغر: هو كلُّ نصٍّ أتى به الشرع بأنه شركٌ لكن لا يصل إلى الشرك الأكبر.

مثل: قوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ»(١)، هنا لفظ شركٍ؛ لكن لأنَّه لا يصل إلى الشرك الأكبر في طلبِ النفع أو دفع الضر؛ فكان أصغر.

---

(١) رواه أحمد في المسند، رقم (١٧٤٢٢)، من حديث عقبة بن عامرٍ رضي اللَّه

ومِثل: قوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَر أَوْ أَشْرَكَ»(١)، هنا الحلِف بغير اللَّه إذا كان الشخص حلَف بغير اللَّه؛ تعظيماً لذلك الشخص، لا أنَّه ينفع أو يضر؛ فلم يصِل به إلى الشرك الأكبر، فهو شركٌ أصغر.

إذاً: كلُّ نصٍّ أتى به الشرع بلفظ الشرك ولم يصل للشرك الأكبر؛ فهو شركٌ أصغر.

فإذا قيل: ما الضَّابط في معرفة أنَّ هذا النص أتى للشرك الأصغر أو الأكبر؟

نقول: لا يخلو:

إذا كان في الأقوال: إذا كان وقوعه في الشرك بالتلفُّظ به على سبيل التعظيم؛ فهو شرك أصغر.

مثل لو شخص قال: «والنبي» معظِّماً للنبي صلى الله عليه وسلم؛ هذا شرك أصغر.

عنه.

(١) رواه أحمد في المسند، رقم (٥٣٧٥)، من حديث ابن عمر رضي اللَّه عنهما.

فلو حلف بالنبي عليه الصلاة والسلام معتقداً أنه ينفع أو يضر؛ نقول: لا، انتقل هنا إلى شرك أكبر.

فإذاً: إذا تلفَّظ بالشرك معتقداً أنه سبب معظِّماً له؛ فهو أصغر.

القسم الثاني: في العمل؛ يعني: إذا أتى النص في أمور عَمَلِيَّة – ليست لفظية –، واعتقد أنَّها سبب فقط لا تجلب نفعاً ولا ضرّاً؛ فهو شرك أصغر.

«مَنْ عَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ»(١)، فإذا كان يعتقد أنَّ هذه التميمة سبب في جلب النفع وسبب في دفع الضر؛ فهو شرك أصغر.

فإن كان يعتقد أنها بذاتها تنفع وتضر؛ فهو شرك أكبر.

والفرْق بين الشرك الأكبر والشرك الأصغر:

أن الشرك الأكبر خطورته فيما يلي:

الأمر الأوَّل: أنه يُحبِط جميع الأعمال – والعياذ باللَّه –؛ قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ

---

(١) رواه أحمد في المسند، رقم (١٧٤٢٣).

عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وقال سبحانه: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾ [الفرقان:٢٣].

الأمر الثاني: أنَّ صاحبه مخلَّدٌ في النَّار – والعياذ باللَّه –، ولا يدخل الجنة البَتَّة؛ قال سبحانه: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الجَنَّة وَمَأْوَاهُ النَّار وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢].

الأمر الثالث: أنه يَنقل من المِلَّة، فينتقل الشخص من ملَّة الإسلام إلى غير الإسلام؛ قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥].

أما آثاره فكثيرة:

مثل: غضب اللَّه عز وجل على الكافر، ومثل: بغض اللَّه عز وجل للكافر، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الكَافِرِينَ﴾ [الروم: ٤٥]، ومثل: أنَّ الشيطان يكون قريباً له يَؤُزُّه لكل شر، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً﴾ [مريم: ٨٣].

أمَّا الشرك الأصغر:

الأمر الأوَّل: صاحبه لا يخلَّد في النَّار؛ وإنَّما هو تحت المُوَازَنَة؛ أي: يؤخذ من حسناته بقدر ذلك الذنب، فإن فَنِيَت حسناته زِيدَ في

سيئاته، ويَدخل النَّار بقدْر ذلك، ثُم يَدخل الجَنَّة؛ أي: أنه ليس تحت المشيئة ككبائر الذنوب، مثل: الزنا، والسرقة؛ فهو أعظم من كبائر الذنوب.

الأمر الثاني: من وَقع فيه لا ينتقل من ملَّة الإسلام؛ وإنَّما يكون مسلماً - وإن وَقع في الشرك الأصغر -، فيُصلَّى عليه، ويُزوَّج، وتَحلُّ ذبيحته وغير ذلك من الأحكام المترتبة على الإسلام والكفر.

الأمر الثالث: الشرك الأصغر لا يُحبِط جميع الأعمال؛ وإنَّما يُحبط العمل الصالح الذي قارَنَه، وقلْنا العمل الصالح؛ لأنَّ التميمة - مثلاً - ليست عملاً صالحاً؛ وإنما نقول: يُحبِط العمل الصالح الذي قارنه، مثل الرياء.

فلو أنَّ شخصاً قام يصلِّي فزيَّن صلاته من أجْل الناس؛ تَبطل تلك الصلاة فحسب، أمَّا الحج والصيام فلا، ويُعاقَب على ذلك؛ لأنه وَقع في الشرك، لكن لا يُحبِط جميع الأعمال.

فصاحب الشرك الأصغر يَدخل الجَنَّة، ولا يخلَّد في النَّار كصاحب الشرك الأكبر.

ولو أنَّ شخصاً يقع - والعياذ باللَّه - في القتل والزنا، وشخصٌ آخر يحلف بغير اللَّه؛ نقول: شرعاً الذي يزني ويسرق ويقتل؛ أقلُّ جُرماً من الذي يَحلف بغير اللَّه.

قال ابن مسعودٍ رضي الله عنه: «لَأَنْ أَحْلِفَ بِاللَّهِ كَاذِباً أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ بِغَيْرِهِ صَادِقاً»(١)؛ لأنَّ الأوَّل كبيرةٌ وهو تحت المشيئة، والثاني شركٌ واللَّه لا يغفر الشرك.

ووجَب الخوف من الشرك؛ لأنَّ الشرك هَضْمٌ للربوبيَّة، وتنقُّصٌ للألوهيَّة، وسوء ظنٍّ برب العالمين سبحانه وتعالى، فمن أشرك باللَّه غيره أضعفَ صفات اللَّه في نفْسه.

فمثلاً: لو حَلف شخصٌ بمخلوق، فمعناه أنه لم يرَ تعظيم اللَّه عز وجل في قلبه، فرأى أنَّ غير اللَّه أحقُّ بالتعظيم؛ فهنا تنقَّصَ اللَّه عز وجل في ألوهيته، وهضمَ ربوبيته في قلبه، وأساء الظَّنَّ بربِّ العالمين.

---

(١) رواه الطبراني في الكبير، رقم (٨٩٠٢).

فمثلاً: لو أنَّ شخصاً لجأ إلى القبر وطلبَ منه الشفاء؛ فهنا أساء الظن باللَّه عز وجل بأنَّه لا يَملك الشفاء، وأنَّ الذي يملك الشفاء مَن هو موسَّدٌ تحت التراب.

لذلك كان الشرك الأكبر أمراً خطيراً؛ لأنَّ فيه طعناً باللَّه عز وجل.

لذلك قال عليه الصلاة والسلام: «لَا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذىً يَسْمَعُهُ مِنَ اللَّهِ عز وجل»، مِن أذىً؛ يعني: يَسمعه اللَّه عز وجل، قال: «إِنَّهُ يُشْرَكُ بِهِ، وَيُجْعَلُ لَهُ الْوَلَدُ، ثُمَّ هُوَ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ»(١).

فيجب على المسلِم أن يَبتعد عن الشرك سواء كان الأكبر أو الأصغر، ويحذِّر غيره من الوقوع فيه، فهو أعْظم ذنبٍ في الأرض.

فلو قَتل شخصٌ ألْف نفسٍ، والآخر يأتي إلى القبر يقول: يا فلان أغثني أو اشفني.

نقول: ذاك الذي قتل ألْف نفسٍ وزنى بألف امرأةٍ وكلُّهن حملْن منه سِفَاحاً؛ أقلُّ جُرماً مِن الذي أَشرك باللَّه؛ لذلك لمَّا سُئل النبي صلى الله

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب الصبر على الأذى، رقم (٦٠٩٩)، ومسلم، كتاب صفات القيامة والجنة والنار، باب لا أحد أصبر على أذىً من اللَّه عز وجل، رقم (٢٨٠٣)، من حديث أبي موسى الأشعري رضي اللَّه عنه.

عليه وسلم: أيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدّاً وَهُوَ خَلَقَكَ»(١) هذا أعظم ذنْبٍ.

وأوَّل أمرٍ في كتاب اللَّه الأمرُ بالتوحيد؛ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

وأوَّل نهيٍ النَّهيُ عن الشِّرك؛ قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢].

وقُتِل مَن قُتِل من الرسل؛ لأنهم أَمروا بتوحيد اللَّه عز وجل ونَهوا عن الشرك، فانظر إلى دماء الأنبياء رَخصت من أجل النهي عن الشرك وإقامة التوحيد، فهم فَدوا أنفسهم وأرواحهم؛ لئلَّا يُعصى اللَّه عز وجل بأعظم ذنْبٍ، وليحققوا أهم واجب وهو التوحيد.

لذلك قال (**بَابُ الخَوْفِ مِنَ الشِّرْكِ**) يعني: باب وجوب الخوف من الشرك والحذر منه.

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، رقم (٤٤٧٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب، وبيان أعظمها بعده، رقم (٨٦)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾) يعني: لخطَره وعظيم جُرمه؛ فاللَّه لا يَغفره، فإذا كان هذا هو الذنب الوحيد من الذنوب الكثيرة الذي لا يُغفر؛ دلَّ على عظيم خطرِه.

لذلك قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء:١١٦]؛ يعني: يَغفر ما دون ذلك من الذنوب لمَن يشاء، إذا شاء غَفر له وإن شاء عز وجل عذَّبه، وهو العزيز الحكيم.

وقوله: (﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾) يَدخل فيه الشرك الأكبر، والأصغر.

ولأنَّ مآل الشرك خطيرٌ؛ يجب على كل مسلِمٍ أن يخافه على نفْسه.

وتحقيق الخوف بأمرين:

الأمر الأوَّل: بالتوجُّه إلى اللَّه سبحانه وتعالى، والتعلُّق به، والدعاء أنَّ اللَّه يُنجيه من ذلك.

والأمر الثاني: بالبحث في الشرك ووسائله؛ ليَحذرها على نفْسه، ومِن ذلك: وجوب أن يَتعلَّم كتاب التوحيد حتى يعرف الشرك ووسائل الشرك؛ لأنه أجْمع كتابٍ في ذلك.

وفي الصحيح(١) سُئل النبي صلى الله عليه وسلم: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قال: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدّاً، وَهُوَ خَلَقَكَ».

وقال سبحانه: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدّاً * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً﴾ [مريم: ٩٠-٩١]؛ بسبب الشرك.

ثُم قال: **(وَقَالَ الخَلِيلُ عليه السلام: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾)** ساق المصنِّف رحمه الله هذه الآية؛ لبيان أنَّ الأنبياء عليهم السلام يخافون من الشرك، فإذا كان الأنبياء يخافون من الشرك؛ فغير الأنبياء أَولى وأَولى.

فإبراهيم الذي كسَّر الأصنام بيده، وبنى الكعبة بيده، وهو إمام الموحِّدين، وإمام الحنفاء؛ خاف أن يقع في الشرك؛ لذا دعا لنفسه ولذريته بأن يجنِّبه اللَّه هذا الذنْب الذي يَغضَب اللَّه عز وجل منه، ومَن يأمن الشرك على نفْسه بعد إبراهيم؟!

---

(١) رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، رقم (٤٤٧٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب، وبيان أعظمها بعده، رقم (٨٦).

وكلَّما قَوي توحيد الشخص؛ كلَّما زاد خوفه من الشرك، وكلَّما ضعُف توحيد الشخص؛ كلَّما هان في نفْسه الخوف من الشرك.

وإبراهيم عليه السلام خاف من الشرك بأمرين:

الأمر الأوَّل: بالدعاء، لذلك قال: (**وَاجْنُبْنِي**) يعني: يا ربِّ اجعل عبادة الأصنام في جانبٍ وأنا في جانبٍ، لم يقل لا أعبدها فقط؛ بل قال لا أراها؛ وهذا من عظيم التوحيد.

وهذا الدعاء ليس مقتصِراً لنفْسه، وإنما لعِلمه بضرره قال: (﴿**وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ**﴾) يعني: حتى أبنائي لا يعبدونها، يا ربِّ جنِّبهم عبادة الأصنام.

الأمر الثاني: خافه إبراهيم في الآية التي بعدها، ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم:٣٦]، فإذا كان الأكثر من الناس على الضَّلال؛ فخاف إبراهيم على نفْسه أن يكون مع أولئك الكثرة، فقال: يا رب أبعِدني عنهم ولا تجعلني منهم.

فإذا كان هذا دعاء إمام الحنفاء وإمام الموحِّدين؛ فغيره أَحرى وأَولى بالخوف من الشرك، وأن يدعو المرء لنفْسه بأن يَبتعد عن الشرك؛

لذلك من الدعوات التي ينبغي للمسلم أن يدعوها: «ربِّ اجعلني من عبادك المخلِصين» يعني: اجعلني مخلِصاً، وأعمالي اجْعلها لك يا رب.

ويدعو الشخص أيضاً: (**وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ**)، فهذه دعوةٌ عظيمةٌ من إمامٍ عظيمٍ، واللَّه يقول: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠]، فيدعو الشخص بما دعا به أولئك.

ثُم بعد ذلك قال: (**وَفِي الحَدِيثِ**) يعني: في الحديث الذي رواه الإمام أحمد[١] أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**«أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ: الشِّرْكُ الأَصْغَرُ، فَسُئِلَ عَنْهُ؟ فَقَالَ: الرِّيَاءُ»**) يأتي إن شاء اللَّه بابٌ خاصٌّ (**بَابُ الرِّيَاء**)، وهنا ساقه المصنِّف رحمه الله في باب الخوف من الشرك.

وساق المصنِّف هذا الحديث في هذا الباب؛ لبيان أنَّه يجب أيضاً الخوف من الشرك الأصغر، وليس مقتصراً على الشرك الأكبر.

---

(١) في المسند، رقم (٢٣٦٣٠)، من حديث محمود بن لبيدٍ رضي اللَّه عنه.

فقال: («**أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ: الشِّرْكُ الأَصْغَرُ**) فالنبي عليه الصلاة والسلام خاف على أصحابه الرياء؛ لذلك قال في تيسير العزيز الحميد: «فدلَّ على أن الرياء أخوف ما يخاف على الصالحين»[(١)].

والشيطان يشمُّ ويَتتبع قلوب الخلْق ويُوقِع في قلوبهم ما يُفسد أعمالهم الصالحة، أو يُنقِصها.

فمثلاً: يَذهب إلى التجار، ويَقذف في قلوبهم حبَّ الغش والكذب.

ويَذهب – مثلاً – إلى من يُحبُّ كثرة الكلام فيلقي في لسانه كثرة الغيبة والنميمة.

ويَذهب إلى أولئك الزهاد الصالحين الذين ليس لهم لا في البيع ولا في الشراء وإنَّما هم منقطعون إلى اللَّه؛ فيُفسد أعمالهم بالرياء.

وهكذا.

لذلك قال: («**أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ**) دلَّ على خطورة الشرك؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم خافه على الصحابة والوحي يَتنزَّل والنبي صلى الله عليه وسلم بينهم.

---

(١) تيسير العزيز الحميد (١/ ٩١).

(**الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ**) فدلَّ على أن الشرك ينقسم إلى قِسمين: أصغر، وأكبر.

فتقسيم الشرك إلى قِسمين؛ تقسيمٌ من النبي صلى الله عليه وسلم له.

(**فَسُئِلَ عَنْهُ؟**) أي: عن الأصغر، (**فَقَالَ: الرِّيَاءُ**) والرياء المراد به: أن يروْه الناس بأعينهم، ويَدخل في ذلك - كما سيأتي إن شاء اللَّه في باب الرياء -: السُّمعة، فيَدخل في الشرك الأصغر: الرياء والسمعة؛ يعني: المُرَاءَاة بالبصر في الصلاة، في طول الصلاة ونحو ذلك، أو بالسمع كتحسين تلاوة القرآن وكثرة الذِّكر وهكذا.

فالرياء ليس مقتصِراً على البصر فحسب كما سيأتي؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم: «مَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللَّهُ بِهِ» بالبصر، «مَنْ يُسَمِّعْ - يعني: يريد أن الناس يسمعوه - يُسَمِّعِ اللَّهُ بِهِ»(١).

وفي الحديث: («**أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ: الشِّرْكُ الأَصْغَرُ، فَسُئِلَ عَنْهُ؟ فَقَالَ: الرِّيَاءُ**») فدلَّ على أن الشرك قد يَخفى على بعض الناس عِلمه.

---

(١) رواه مسلمٌ، كتاب الزهد والرقائق، باب من أَشرك في عمله غير اللَّه، رقم (٢٩٨٧)، من حديث جندب العلقي.

والرياء كما سَبق[١] نوعٌ من أنواع الشرك الأصغر؛ فالشرك الأصغر ظاهرٌ بالقول والفعل، أو خفيٌّ وهو الرياء ليراه الناس.

والرياء مأخوذٌ من الرؤية لكي يُثني الناس عليه بعمله، وسُمِّي خفيّاً؛ لأنه أَخفى من دَبِيبِ النمل على الصخرة الصَّمَّاء السَّوداء في اللَّيلة الظلماء، ولأَنَّه قد يسري إلى القلب والمسلم لا يَشعر به - والعياذ باللَّه -.

ومن أمثلة ذلك: يسير الرياء في تلاوة القران؛ ليمدحه الناس عليه، وكذلك يُلقِي كلِمةً؛ ليمدحه الناس عليها وهكذا.

وأمَّا حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه لمَّا أخبره النبي صلى الله عليه وسلم أَنَّه كان يستمع إلى قراءته، قال: «لَوْ عَلِمْتُ لَحَبَّرْتُهُ لَكَ تَحْبِيراً»[٢] لا للرياء؛ وإنما ليستمتع النبي صلى الله عليه وسلم بالقرآن العظيم.

---

(١) (ص) عند قوله (والقِسم الثاني: شركٌ أصغر خفيٌّ؛ يعني: غير ظاهرٍ، وهو يسير الرياء).

(٢) رواه البيهقي في السنن، كتاب الصلاة، باب من جَهر بها إذا كان من حوله لا يتأذى بقراءته، رقم (٤٧٧٠).

قال رحمه الله: **(وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو لِلَّهِ نِدّاً؛ دَخَلَ النَّارَ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ).**

ذَكر المؤلِّف رحمه الله هذا الحديث في باب الخوف من الشرك؛ لبيان أنَّ مآل المشرك - والعياذ باللَّه - إلى النَّار ولا يَدخل تحت المشيئة، لذلك قال: **(مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو للَّه نِدّاً)** من الأوثان والأصنام والأولياء والأضرحة أو الصالحين ونحو ذلك؛ **(دَخَلَ النَّار)**.

والنَّار وصفها اللَّه عز وجل بقوله: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ [القارعة:١١]، وهي تحرق الجسد، فيجب على المسلِم أن يُنقذ نفْسه من ذلك الوعيد.

فإذا كان ذنْب الشرك لا يُغفر ويؤدي إلى النَّار؛ فيَجب على المسلِم أن يخافه على نفْسه؛ لخطورته، فهو الذنْب الوحيد الذي لا يُغفر إلا بالتوبة؛ قال سبحانه: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

وقوله: **(مَنْ مَاتَ)** يدلُّ على أنَّ مَن كان مشْركاً ثُم تاب؛ فقد تكرَّم اللَّه عز وجل بأن يبدِّل سيئاته إلى حسناتٍ.

وأمَّا من مات على الشرك - والعياذ باللَّه - فعاقبته:

إذا كان شركاً أكبر فهو مخلَّدٌ في النَّار.

وإذا كان شركاً أصغر فهو تحت الموازنة؛ أي: أنَّ اللَّه لا يَغفره وإنَّما يؤخذ من حسناته بقدر ذلك الشرك الأصغر، فإن فَنيت حسناته - والعياذ باللَّه -؛ أُلقي في النَّار بقدْر ذلك الشرك الأصغر؛ لعموم قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨].

وقوله: **(نِدّاً)** النِّدُّ المراد به هنا: كلُّ ما يُعبد من دون اللَّه؛ قال سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥].

وبعضُ الناس اليوم لا يَتخذ معبوداته ندّاً - أي: مساويةً للَّه ويطلب منها الشفاعة مثلاً، أو يسألها أن تطلب من اللَّه الشفاء -؛ وإنما جَعَلوا - والعياذ باللَّه - ذلك المعبود هو الربَّ، فيطلبون منه الشفاء، والمغفرة، والتوفيق، والبعد عن الشر ونحو ذلك - والعياذ باللَّه -.

قال: **(دَخَلَ النَّارَ)** واللَّه عز وجل خَلق النَّار في أصلها للكفار؛ كما قال سبحانه: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤]، ويَدخل فيها العصاة من المسْلِمين ممن لم يُرِد اللَّه عز وجل أن يَغفر لهم ذنوبهم.

ثم قال: (وَلِمُسْلِمٍ: عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «مَنْ لَقِيَ اللَّهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً؛ دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً؛ دَخَلَ النَّار»).

ذَكر المؤلِّف رحمه الله هذا الحديث في باب الخوف من الشرك؛ لبيان أنَّ جميع أنواع الشرك سواء كانت الاستغاثة، أو الدعاء من دون اللَّه، أو الذبح لغير اللَّه، والنذر لغير اللَّه؛ عقوبتها الخلود في النَّار.

قال: (شَيْئاً) أيُّ نوعٍ من أنواع الشرك، حتى الشرك الأصغر لا يغفره اللَّه عز وجل، ومتوعَّدٌ صاحبه بالنَّار إذا لم يكن له حسناتٌ تَحجزه عن دخول النَّار.

فدلَّ على وجوب الحذر الشديد من جميع أنواع الشرك سواء الشرك الأكبر، أو الأصغر بنوعيه؛ الشرك بالمسموعات، أو الشرك في الأمور المرئية، وهو الرياء.

وقوله: (مَنْ لَقِيَ اللَّهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً) نكرةٌ في سياق النفي تفيد العموم، فدلَّ على أنَّ الجَنَّة لا يَدخلها المشرك، فلا يَدخل الجَنَّة إلا الموحِّد، لذلك قال: (دَخَلَ الجَنَّة).

وقوله: (وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً دَخَلَ النَّار) وهذا هو الشاهد.

فدلَّ على وجوب الخوف من الشرك؛ لأنَّ هذا الذنْب يؤدِّي إلى النَّار، ولا يَدخل تحت المشيئة، ولا يَغفره اللَّه سبحانه وتعالى.

فالمصنِّف رحمه الله بهذا انتهى من باب الخوف من الشرك، ويجب على الإنسان أن يدعو ربه أن يَعصمه سبحانه وتعالى من هذا الذنْب العظيم، وأن يبصِّره بوسائله وذرائعه وينجيه منها.

***

[٥]

بَابُ
الدُّعَاءِ إِلَى شَهَادَةِ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لَمَّا بَعَثَ مُعَاذاً إِلَى اليَمَنِ قَالَ لَهُ: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْماً مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ؛ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ: شَهَادَةُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ - وَفِي رِوَايَةٍ: إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ -.

فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ؛ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ.

فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ؛ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ.

فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ؛ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ» أَخْرَجَاهُ.

وَلَهُمَا: عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله

عليه وسلم قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ: «لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غداً رَجُلاً يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ؛ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ.

فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ؛ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا.

فَلَمَّا أَصْبَحُوا؛ غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا، فَقَالَ: أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟ فَقِيلَ: هُوَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ.

فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ، فَأُتِيَ بِهِ، فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ، وَدَعَا لَهُ، فَبَرَأَ حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ، فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ، وَقَالَ: انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ.

ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِ، فَوَاللَّهِ! لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ».

قَوْلُهُ: «يَدُوكُونَ» أَيْ: يَخُوضُونَ.

الشَّرح:

قال رحمه الله: (بَابُ الدُّعَاءِ إِلَى شَهَادَةِ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) أي: باب وجوب الدعوة إلى التوحيد، فلمَّا ذَكَر المؤلِّف رحمه الله أنَّ التوحيد له فضْلٌ عظيمٌ ويكفِّر الذنوب، وأنَّ الشرك خطيرٌ ويُدخِل النَّار؛ ذَكر أنه يجب على المسْلِم أن يَدعوَ إلى التوحيد؛ لفضله ولخطورة ضده.

وذَكر المصنِّف رحمه الله آيةً وحديثين:

النَّصُّ الأوَّل - **الآية**: (﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ**..﴾) -؛ لبيان أنَّ نهْج الأنبياء هو الدعوة إلى اللَّه سبحانه وتعالى، وأوَّل ما يبدأ به هو الدعوة إلى اللَّه عز وجل.

والنَّصُّ الثاني - حديث ابن عباسٍ رضي الله عنهما -؛ لبيان أنَّ أوَّل ما يُبدأ به هو التوحيد في حال الأمْن.

والنَّصُّ الثالث - حديث سهلٍ رضي الله عنه -؛ لبيان أنَّ أوَّل ما يُبدأ به في حال الحرب أيضاً هو التوحيد، فدلَّ على أنَّ التوحيد هو أوَّل ما يُبدأ به في جميع الأحوال.

وكذا لبيان أنَّ التوحيد يَعصم دم المرء وماله؛ فلا يُقاتَل مَن استجاب للتوحيد.

قال: **(وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾)** أي: قُل يا محمد لجميع الناس هذه سبيلي وطريقي ونهجي.

ما هو هذا الطريق؟ قال: **(أَدْعُو إِلَى اللَّهِ)** أي: أدعو إلى توحيد اللَّه سبحانه وتعالى.

فدلَّ على أن أعْظم مهمَّةٍ للرسل هي دعوة الناس وتعليمهم.

(عَلَى بَصِيرَةٍ) أي: على عِلمٍ ومعرفةٍ وعلى برهانٍ ويقينٍ من اللَّه عز وجل لا عن جهلٍ.

(﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾) أي: نَهْج الرسل وأتباعهم هو الدعوة إلى التوحيد.

فإذا قيل: ما هو الدليل على أنَّ نَهْج الأنبياء هو الدعوة إلى التوحيد؟

نقول: بقيَّة الآية: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨].

﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ أي: ونُنزِّه اللَّه عن الشرك، ونَحذر منه.

﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ يدلُّ على أن المشرك لا يكون داعيةً إلى الإسلام، فالذي يدعو إلى التوحيد هو من هداه اللَّه على بصيرةٍ.

فدلَّ على أنَّه يجب على المسْلِم أن يبيِّن للناس ما أمَرَ اللَّه عز وجل به الرسل، وهو إفراد اللَّه بالعبادة وتحذيرهم من الشرك، والداعي لا يَصلح أن يكون مشْرِكاً.

فمضمون الآية: أنا موحِّدٌ وأتباعي كذلك، وأدعو أنا وإيَّاهم إلى توحيد اللَّه عز وجل.

فدلَّ على أنَّ نَهْج الأنبياء هو الدعوة إلى التوحيد.

فإذا قال لك شخصٌ: لماذا تدعون إلى التوحيد؟

نقول: لأنه نهج الأنبياء.

فإذا قال: ما هو الدليل؟

نقول: هذه الآية: (﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي**﴾)، وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

ثم قال: (**وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لَمَّا بَعَثَ مُعَاذاً إِلَى اليَمَنِ قَالَ لَهُ:** «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْماً مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ؛ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ: شَهَادَةُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ - **وَفِي رِوَايَةٍ:** إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ -.

فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ؛ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ.

فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ؛ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ.

فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ؛ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ» **أَخْرَجَاهُ**).

(لَمَّا بَعَثَ مُعَاذاً إِلَى اليَمَنِ) وكان ذلك في السَّنَة العاشرة؛ معلِّماً وقاضياً لهم.

فإذا قيل: كيف يَخرج من المكان الفاضل وهو المدينة إلى مكانٍ مفضولٍ وهو اليمن، كما في هذا الحديث، ولأنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لَا يَخْرُجُ مِنْهُمْ أَحَدٌ رَغْبَةً عَنْهَا» أي: المدينة؛ «إِلَّا أَخْلَفَ اللَّهُ فِيهَا خَيْراً مِنْهُ»[1]؟!

نقول: إذا كان الشخص في مكانٍ هو أتقى للَّه عز وجل فيه؛ يكون فيه حتى لو كان المكان الذي يخرج منه فاضلاً.

وإذا كانت المصلحة متعدِّيةٌ؛ فالأفضل أن يخرج من المكان الفاضل إلى المكان المفضول؛ لذلك بَعث النبي عليه الصلاة والسلام معاذاً رضي الله عنه إلى خارج المدينة، لكن لمصلحةٍ عظيمةٍ وهي الدعوة إلى هذا الدين، وكذا بَعث ابنَ مسعود رضي الله عنه ليعلِّم الناس، وهكذا.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الحج، باب المدينة تنفي شرارها، رقم (١٣٨١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فيدلُّ على مشروعية بعْث الدعاة إلى الأمصار؛ لتعليم الناس الدين.

ويدلُّ أيضاً على أنَّ البلدان تتفاوت من حيث العِلم، ولكن هذا التفاوت قد ينتقل؛ فقد تكون بلدةٌ فيها عِلمٌ وفي قرنٍ آخر يقلُّ فيها العِلم وهكذا، وهذا من فضل اللَّه؛ لئلا يكون العِلم في مكانٍ أو في نَسَبٍ واحدٍ؛ وإنَّما يتنقل.

واللَّه عز وجل هو أعْلم بالقلوب فيما يستحق التشريف بالعِلم.

وقوله: (إِنَّكَ تَأْتِي قَوْماً مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ) يعني: أعطاه النبي صلى الله عليه وسلم خبراً؛ لتوْطِئَتِه على مَن سيدعو.

لذلك النبي عليه الصلاة والسلام أَخبره ما هو الأمر الذي يحتاجه أهْل اليمن هناك؛ يعني: ستأتيهم فخُذ الأُهْبَة في العِلم، وفي استحضار الحُجج، ونحو ذلك.

فيدلُّ على أن من بُعِث إلى مكانٍ؛ عليه أن يَعلم ما هي طبيعة أهْل ذلك البلد.

ويدلُّ أيضاً على أن الإنسان يَستعدُّ للدرس، وللمحاضرة، وللدعوة قبل أن يأتي المَدْعُوِّين؛ وهذا من سُنن المصطفى صلى الله عليه وسلم.

ويدلُّ على أنَّ الداعية يَجب أن يكون ذا عِلمٍ بعقيدة اليهود والنصارى إذا كان سيدعو عندهم.

قوله: **(مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ)** هنا قال: **(مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ)** فدلَّ على أن توحيد اللَّه عز وجل قد يَخفى على من كان عنده عِلمٌ، فهنا أهْل الكِتاب أصحاب عِلمٍ - خاصّةً اليهود -، ومع ذلك يَخفى عليهم أو يَستكبرون عن الانقياد للتوحيد.

لذلك قال: **(إِنَّكَ تَأْتِي قَوْماً مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ)** عندهم كتابٌ وعِلمٌ ومع ذلك قال: **(فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ)** يدلُّ على أن الداعية أوَّل ما يبدأ في الدعوة في أي مكانٍ - سواء كان فيه موحِّدون أم لا -؛ هو توحيد اللَّه.

فإذا كان أهله موحِّدين؛ فيُذكَّرونَ به لترسيخ عقيدة التوحيد في قلوبهم؛ قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ﴾ [النساء: ١٣]؛ يعني: زيدوا في الإيمان.

وإذا كان المدعوُّون فيهم شِركٌ؛ فذلك لتحذيرهم.

وقوله: **(شَهَادَةِ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)** يعني: تعليم الشهادة، ودعوتهم إلى العمل بمعناها وتحذيرهم ممَّا يناقضها؛ لأنَّهم يَجهلونها.

فدلَّ على أنَّ أوَّل ما يُدعى إليه هو التوحيد في حال الأمْن وكذا - كما سيأتي - في حال الحرب.

ولا يخلو حال الناس من حال حربٍ أو أمْنٍ؛ أي: في جميع الأحوال أوَّل ما يُبدأ به هو التوحيد.

(شَهَادَةِ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) يدلُّ على أن الإنسان يَدخل في الإسلام بهذه الكلمة، ولا يُدخِلهُ في الإسلام سوى هذه الكلمة، فلو قال مثلاً: اللَّه أكبر؛ فلا يُعدُّ مسْلِماً، فلا بد من نفْي الألوهية عمَّا سوى اللَّه وإثباتها له سبحانه وحده.

قال: (وَفِي رِوَايَةٍ) أي: لمسلمٍ، (إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ) يعني: تفسير الشهادة: هي الدعوة إلى توحيد اللَّه، فالشهادة هي علامةُ وَسِمةُ التوحيد، فشعار التوحيد هو لا إله إلا اللَّه.

فلا يُعلم توحيد الشخص الذي في القلب مِن غيرِه؛ إلا بإظهار هذه العلامة وهي كلمة الشهادة: «لا إله إلا اللَّه».

وقوله: (فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ) يعني: فإن استجابوا ووحَّدوا اللَّه عز وجل؛ فأْمُرْهم بالصلوات الخمس.

يدلُّ على أنَّ الداعية يَتدرَّج في تعليم الناس، وأيضاً في إبعادهم عن المنكرات يكون بالتدرُّج.

وإذا نَزل شخصٌ ببلدٍ فيه منكَراتٌ متعددةٌ؛ قال شيخ الإسلام: «فالشريعة أتت بالتدرُّج ولا يَلزم منه - وإن كان متولِّياً على المشركين - أن يأمرهم دفعةً واحدةً بتطبيق الإسلام»، واستدلَّ رحمه الله بقصة النَّجاشي؛ قال: «فهو في أرض نصارى ولم يُطبِّق جميع أحكام الشريعة»(١)، فإذا كان المرء والياً أو داعياً؛ يتدرَّج في تطبيق الشريعة، لكن أوَّل ما يَبدأ به هو التوحيد.

ويدلُّ أيضاً على أنَّهم إن لم يوحِّدوا اللَّه؛ لا تدعوهم إلى بقية الطاعات؛ لأنَّ الطاعات لا تنفع مع الشرك.

فإذا قيل: إذا ما استجابوا لي في التوحيد، يعني: لا آمرهم بالصلاة والزكاة؟

نقول: نعم، ولكن استمرَّ على دعوتهم للتوحيد؛ لذلك قال: (**فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ**)، لكن فإن عَصَوْكَ لا تنتقل لتعليم الصلاة.

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٩/ ٢١٨).

وقوله: (فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ) يعني: فإن استجابوا ووحَّدوا اللَّه عز وجل؛ فأْمرهم بالصلوات الخمس.

فيدلُّ على أن الصلوات فرضٌ؛ كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً﴾ [النساء: ١٠٣].

وقوله: (فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ) يدلُّ على أن الصلوات الخَمس ليست في النهار فقط ولا في الليل فقط، وهذا من فضْل اللَّه أنَّها في الليل والنهار؛ حتى يكون المسلِم متَّصِلاً باللَّه في ليله ونهاره.

ومن فضْل اللَّه عز وجل أنْ فَرَض تلك الصلوات؛ لتكون صلةُ العبد بربِّه قويةً.

وخصَّ اللَّه عز وجل الصلوات من بين شعائر الإسلام بخصائص لا توجد في غيرها.

فلا يوجد شعيرةٌ لها أذانٌ سوى الصلاة.

ولا تُفعل عبادةٌ خلْف رجُلٍ إلا الصلاة.

وشُرعت في السماء.

وكلَّم اللَّه عز وجل فيها النبي عليه الصلاة والسلام من غير واسطةٍ.

ولعظمتها كانت خمسين صلاةً ثُم خُفِّفَت.

ويؤمر بها الذكر والأنثى، والعبد والحرُّ، والغنيُّ والفقير.

ولا يُعذر منها إلَّا المجنون، والحائض والنُّفَسَاء وحسب.

ولمْ يَتخلَّف النبي عليه الصلاة والسلام يوماً مِن غير عذرٍ عن أداء صلاة الجماعة؛ فلم يتخلَّف إلا في حال مرضهِ عليه الصلاة والسلام، فحتى في السفر يصلِّيها.

فدلَّ على أهمِّية الصلاة ووجوبها جماعةً في بيوت اللَّه عز وجل؛ كما قال عز وجل: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [النور:٣٦].

ولا توجد هناك شعيرةٌ فيها الأمر بضرْب الصغير سوى الصلاة، ممَّا يدلُّ على عظَمة شأنها وأهمِّيتها عند اللَّه عز وجل.

قال: (فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ؛ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً) والمراد بذلك: يعني الزكاة المفروضة.

وهذا يدلُّ على التدرُّج: الشهادة ثُم الصلاة ثُم الزكاة.

(تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ) يعني: فيما تتوفَّر فيه شروط أداء الزكاة.

يدلُّ على أنَّ الفقير له حقٌّ في مالِ الغنيِّ؛ لأنَّ المال مالُ اللَّه.

وأَخَذ بعض أهل العلم[١] من هذا أنَّ الزكاة الأفضل أن لا تُنقل من البلد الذي فيه المال، (**تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ**)، هذا الأفضل لكن لو نُقلت لمصلحةٍ؛ فلا بأس.

قال: (**فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ**) يعني: إذا أدوا الزكاة لك فلا تأخذ أنفَس ما عندهم من الزكاة، مِثل: من بهيمة الأنعام لا يؤخذ مثلاً الشاة الكبيرة السمينة ولا البخيسة في الثمن؛ وإنما يؤخذ الوسط، (**فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ**) يعني: الأنفَس من أموالهم سواء من بهيمة الأنعام أو غيرها، كذلك مثلاً في زكاة التمر لا يؤخذ أنفَس ما فيه وإنَّما المتوسط.

وهذا من عدْل الإسلام؛ فإنَّه لا يريد الإضرار بالغنيِّ، وإنَّما يريد تطهير مال الغنيِّ ونفْع الفقير.

قال: (**وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ**) لأنَّه ذَهب هناك قاضياً، فقال: (**وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ**) اجعل بينك وبين هذه الدعوة وقايةً؛ وهي العدل، وعدم التسرُّع في الحُكم.

---

(١) وهم الحنفيَّة. تبيين الحقائق للزيلعي (١/ ٣٠٥)

و(**دَعْوَةَ المَظْلُومِ**) ليس خاصّاً بمن يتقاضى أو بمن يؤخذ حقُّه قهراً ونحو ذلك؛ وإنَّما هذا عامٌّ في كلِّ مظلومٍ سواء من قِبل الأجير مع مؤجِّره، أو من قِبل الزوج مع زوجته إذا ظَلمها، أو الزوجة في ظُلم أبنائها، أو في ظُلم الأفراد بعضهم بعضاً وهكذا.

وهذا الحديث عظيمٌ، فيدلُّ على أنَّ المظلوم سببٌ لهلاك الظالم سواء في أخْذ ماله من البهائم في الزكاة وغيرها.

قال: (**فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ**) وهذا وعْدٌ نبويٌّ بأنَّ دعوة المظلوم مستجابةٌ حتى ولو كان المظلوم كافراً؛ فتُستجاب دعوته.

وقد يعذِّب اللَّه عز وجل الظالم ولو لم يدعُ المظلوم عليه، كما في قصة البستان في سورة القلم: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ [القلم:١٩-٢٠]، لمَّا همُّوا بظلم الفقراء بمنْع حقهم؛ أتاهم العذاب.

فيدلُّ على أنَّ اللَّه عز وجل يستجيب دعوة المظلوم الكافر؛ لأنَّه بَعثه إلى أهل كتابٍ، لذلك الكافر يستجيب اللَّه دعاءه إذا كان مظلوماً أو مكروباً؛ قال سبحانه عن المشرِك المكروب: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ

دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ﴾ [العنكبوت: ٦٥]؛ يعني: استجاب اللَّه دعاءهم ونجَّاهم.

ويدلُّ على سرعة إجابة اللَّه للمظلوم؛ قال ابن عقيلٍ[1] رحمه الله: «يستجاب للمظلوم بسرعةٍ»[2].

والشاهد من هذا الحديث: (**فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ: شَهَادَةِ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ**)، فمَن حلَّ في بلدٍ؛ أول ما يتكلم به في توحيد اللَّه سبحانه وتعالى، وأركان الإيمان والإسلام، وهذا خيرُ ما يَتكلم به؛ فهو من أصول الدين.

قال رحمه الله: (**وَلَهُمَا: عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ: «لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَداً رَجُلاً يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ؛ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ.

فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ؛ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا.

فَلَمَّا أَصْبَحُوا؛ غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، كُلُّهُمْ**

---

(١) هو: أَبُو الوفاء علي بْن عقيل بن محمد بن عقيل البغدادي، وُلد سنة (٤٣٢هـ)، وتوفي سنة (٥١٣هـ). طبقات الحنابلة لأبي يعلى (٢/ ٢٥٩).

(٢) الفنون لابن عقيل (٢/ ٧٥٠).

يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا، فَقَالَ: أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟ فَقِيلَ: هُوَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ. فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ، فَأُتِيَ بِهِ، فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ، وَدَعَا لَهُ، فَبَرَأَ حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ، فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ، وَقَالَ: انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ. ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِ، فَوَاللَّهِ! لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ».

قَوْلُهُ: «يَدُوكُونَ» أَيْ: يَخُوضُونَ).

هنا لمَّا ذكر أنَّ أوَّل ما يُدعى إليه في حال الأمن هو التوحيد؛ أعقبه بعد ذلك بحديث سهلٍ رضي الله عنه أنَّه حتى في حال الحرب أوَّل ما ندعو الكفار إليه قبل قتالهم: التوحيد؛ فدلَّ على أهمية هذا الأمر.

وذَكر المصنِّف رحمه الله هذا الحديث العظيم في باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا اللَّه؛ لبيان أنَّ الحِكمة من الجهاد هو قتالُ من صدَّ عن الدعوة إلى التوحيد، فدلَّ على أهمية التوحيد إذ فُرِضَ الجهاد من أجْله.

قوله: (وَلَهُمَا) أي: البخاري ومسلم.

قال: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ) وهي مدينةٌ تقع شمال المدينة المنورة قرابة مئة وخمسين (١٥٠) كيلو.

(لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ) (الرَّايَةَ) هي قطعةٌ من قماشٍ في الغالب، يَرفعها كلُّ جيشٍ؛ أمارةً على وجود القائد فيه، فإذا سقطت الراية فهو أمارةٌ على هزيمة ذلك الجيش؛ لذلك كانوا لا يعطون الراية إلا رجُلاً شجاعاً؛ لئلا تسقط منه الراية خشية العدو أو لضعفه.

وكانت راية النبي عليه الصلاة والسلام في القتال سوداء، ولِوَاؤُه لونه أبيض، الراية لعموم الجيش، يحملها أشجعهم، واللواء يوضع عند النبي عليه الصلاة والسلام؛ يعني: هذا مكان النبي عليه الصلاة والسلام في القتال.

وهذا يدلُّ على شجاعة علي رضي الله عنه، فالنبي عليه الصلاة والسلام قال: (لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَداً رَجُلاً يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ) يعني: أعطيه راية الجيش.

(غَداً) هو اليوم المستقبل الذي يلي يومك.

(رَجُلاً يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) هذا يدلُّ على أنَّ اللَّه يُحِبُّ ويُحَبُّ، وهذه منقبةٌ عظيمةٌ تدلُّ على صِدق الإيمان في القلب، وأنَّ المحبة التي في القلب قد قَبِلَها اللَّه عز وجل.

يعني: هذا المؤمن الذي سأعطيه يحبُّ اللَّه ورسوله، واللَّه عز وجل أيضاً يُحبُّه، ورسوله يحبُّه.

وليس الشأن في ادِّعاء محبة اللَّه عز وجل ومحبة رسوله؛ وإنَّما الفخر إذا كان اللَّه عز وجل يحبُّك، فالإنسان يَسعى بالطاعات؛ ليحبُّه اللَّه عز وجل، ومَن أحبَّه اللَّه؛ رضي عنه وأَدخله جنَّاته.

والحُبُّ للَّه وللرسول يكون بِفِعل الأوامر واجتناب النواهي؛ كما قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران:٣١].

والمنقبة العظيمة أيضاً في قوله: (وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ) فدلَّ على إثبات صفة المحبَّة للَّه سبحانه وتعالى؛ كما يليق بجلاله وعظمته، ولا يجوز تأويلها بنزول الخير أو الرحمة ونحو ذلك.

(وَرَسُولُهُ) يدلُّ أيضاً على أن النبي صلى الله عليه وسلم يُحِبَّ المؤمنين بلا شكٍّ.

وقوله: (يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ) أي: يَفتح حصون خيبر ويكون النصر على يديه؛ وهذا عَلَمٌ من أعلام النبوة، فِفيه بيان أنَّ فتْح خيبر سيكون يوم غدٍ، وحَصل ما أَخبر به النبي صلى الله عليه وسلم، ففُتحت خيبر على يدي النبي صلى الله عليه وسلم والراية بيد عليٍّ رضي الله عنه.

(فَبَاتَ النَّاسُ) يعني: لم يناموا تلك الليلة، كلُّ صحابيٍّ يَتمنَّى بأن ينالَ تلك المنقبة؛ وهي صدْق الإيمان بالمحبة للَّه وللرسول صلى الله عليه وسلم، وأيضاً حُبُّ اللَّه ورسوله له.

(يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ، أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا) يعني: يخوضون ويَتحرَّكون ويَلتفتون يميناً وشمالاً مَن الذي سيعطيه النبي صلى الله عليه وسلم تلك البشارة العظيمة أيُّهم يُعطى هذه الراية.

وهنا بُشِّروا ببشارتين:

البشارة الأُولى: بأنَّ ذلك الرجُل يحبُّ اللَّه ورسوله واللَّه يحبُّه ورسوله؛ وهذه بشارةٌ دينيَّةٌ.

البشارة الثانية: دينية ودنيوية، وهي أنَّ الحِصن سيُفتح.

فخوضُ الصحابة في الأمر الأوَّل عظيمٌ، وهو أن اللَّه يحبُّه وهو يحبُّ اللَّه؛ فدلَّ على أنَّ الصحابة يتنافسون في الأمر الفاضل إذا كان هناك

مفضول، فلم يَفرحوا ويَتكلَّموا بفتْح الحِصن، وإنما تَكلَّموا بتلك المنقبة العظيمة، لماذا؟ لأنَّ تلك المنقبة خاصَّةٌ لشخصٍ معيَّنٍ؛ أمَّا فتْح الحِصن لجميع المؤمنين، فهم يَنظرون إلى المنقبة الخاصَّة التي سيُعطاها ذلك الرجُل.

ويدلُّ على أنَّ الشخص عليه أن يبادر إلى المنافسة في الخيرات، فلمَّا قال النبي عليه الصلاة والسلام ذلك ما تكاسلوا؛ بل سَعى كلُّ واحدٍ منهم أن ينال تلك المنقَبَة.

(فَلَمَّا أَصْبَحُوا؛ غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم) يعني: طِوال الليل وكلُّ واحدٍ منهم يريد أن ينال ذلك الفضل العظيم.

وهذا يدلُّ على حِرص الصحابة على الخير ومسابقتهم إليه.

ويدلُّ على سعْي الصحابة رضي الله عنهم لكلِّ ما يحبُّه اللَّه ورسوله.

(فَقَالَ: أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟) وعمْرُه حينئذٍ قرابة اثنين وعشرين (٢٢) عاماً لكنَّه كان شجاعاً.

(فَقِيلَ: هُوَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ) من الرَّمَد فما يستطيع أن يأتي، لعل النبي صلى الله عليه وسلم يعطي أحد الحاضرين الراية؛ لأنَّ علياً رضي الله عنه في عينيه مرضٌ.

وقوله: (يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ) يدلُّ على حِرْص الصحابة رضي الله عنهم على صحبة النبي صلى الله عليه وسلم في جهاده وفي سفره حتى ولو كانوا مرضى، فهذا عليٌّ رضي الله عنه أُصيب بالرَّمَد ومع ذلك خَرج مع النبي صلى الله عليه وسلم.

(فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ) وفي لفظٍ «فَأَرْسِلُوا إِلَيْهِ»[(١)]؛ يعني: أرسِلوا إليه أحداً ليُمسك علياً؛ لأنه لا يستطيع أن يَمشي لضعْف البصر أو عدم القدرة على فتْح العينين من الرَّمَد.

(فَأُتِيَ بِهِ) إلى النبي صلى الله عليه وسلم، (فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ) يعني: تَفل في عينيه عليه الصلاة والسلام، وهذا خاصٌّ بالنبي صلى الله عليه وسلم، ومِن معجزاته.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب من فضائل علي بن أبي طالبٍ رضي الله عنه.

(وَدَعَا لَهُ) يعني بالشفاء؛ (فَبَرَأَ) يعني: شُفي من ذلك المرض.

(حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ) يعني: شُفي من ذلك الوجع كأنَّه لم يُصَب بذلك المرض قط.

وهذا فيه آيةٌ من آيات النبوَّة أنَّ المريض بأمر اللَّه شُفي بذلك الفِعل، وهذا خاصٌّ بالأنبياء.

ويدلُّ على أن النبي صلى الله عليه وسلم نبيٌّ حقاً.

(فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ) ويدلُّ هذا على وجوب الإيمان بالقضاء والقدر؛ فقد يأتي الرزقُ لشخصٍ لم يسعَ إليه كعليٍّ رضي الله عنه، رجلٌ فيه رَمَدٌ وما يستطيع أن يأتي حتَّى إلى طليعة الجيش، وغيره قويٌّ وأتى للنبي عليه الصلاة والسلام وأمامه، ومع ذلك أُعطي ذلك الرجل الذي لم يأتِ.

فرزْق اللَّه عز وجل إن حلَّ؛ لم يمنعْه أحدٌ، ورزق اللَّه عز وجل قد يأتيك بدون فعْل السبب.

ويدلُّ أيضاً على أنَّ الشخص لا يُحصِّل الرزق بمجرد السعي في الكسب؛ فهؤلاء سَعوا للكسب في الليل؛ لم ينَامُوا، ويتمنَّونها ثُم أَتوا للنبي صلى الله عليه وسلم؛ كلٌّ منهم يَتطلَّع أن ينالها، ومع ذلك لم ينَالوها.

والفضْل بيد اللَّه؛ كما قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [آل عمران:٧٣].

فأعطاه صلى الله عليه وسلم الراية ليَحملها، وسوف يُقدِم على قتال اليهود، وعليٌّ رضي الله عنه صغير السنِّ؛ يعني: وقت الهجرة كان عمْره ثمانية عشر (١٨) عاماً؛ يعني: في حال تلك الغزوة عمره قرابة ثلاثة وعشرون (٢٣) عاماً فقط، ومع ذلك وهو في شبابه؛ فاق غيره في ذلك الأمر، والفضْل بيد اللَّه سبحانه.

(وقَالَ: انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ) يعني: سِر واذْهب إلى حصون القوم ولكن على رِسْلِك؛ يعني: على تَأَنٍّ وتمهُّلٍ وعدم رفع صوتٍ أو صَخَبٍ؛ لأنَّ الإسلام ليس فيه فزعٌ ولا تخويفُ الآخرين، وإنَّما الإسلام يَذهب إلى حصون الآخرين؛ ليَعرض عليهم الدين ولا يَتشوَّف إلى قطْع الرقاب، فإذا دخلوا في الدين يكفُّ المسلمون عن قتالهم كمَا سيأتي.

ويدلُّ أيضاً على أنَّ من أراد مباغَتَة قومٍ عليهم أن لا يرفعوا أصواتهم؛ لأنَّ النبي صلى الله عليه وسلم أغار على بني المُصْطَلِق حِيْنَ طَلَعَ الصُّبْحُ وهُمْ غارُّونَ(١)؛ يعني: وهم على غفلةٍ.

قال: (حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ) يعني: حتى تَنزل قريباً من حصونهم، الساحة: ما كان خارج الحِصن أو خارج الجدْر؛ يعني: سِر فإذا قَربت من أسوار خيبر.

(ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ) يعني: تَوقَّف ثُم ادعهم إلى الإسلام.

فيدلُّ على أنَّ الإسلام لا يَتشوَّف لقتْل النفوس؛ وإنَّما مقصده دعْوة الناس، الآن جيش قوي ويحاصِر قوماً في حصونهم، فالعلامات الظاهرة

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب العتق، باب من مَلك من العرب رقيقاً، فوهب وباع وجامع وفدى وسبى الذرية، رقم (٢٥٤١)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب جواز الإغارة على الكفار الذين بلغتهم دعوة الإسلام، من غير تقدِّم الإعلام بالإغارة، رقم (١٧٣٠)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، ولفظه: «إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَغَارَ عَلَى بَنِي المُصْطَلِقِ وَهُمْ غَارُّونَ، وَأَنْعَامُهُمْ تُسْقَى عَلَى المَاءِ؛ فَقَتَلَ مُقَاتِلَتَهُمْ، وَسَبَى ذَرَارِيَّهُمْ، وَأَصَابَ يَوْمَئِذٍ جُوَيْرِيَةَ». ومعنى (غارُّون): غافلون. لسان العرب لابن منظور (٥/ ٢٢).

انهزام أولئك القوم المحاصَرين، ومع ذلك فالإسلام لا يُريد قطْع أعناقهم، فندعوهم للإسلام أوَّلاً؛ وهذا من عظمة الإسلام، ولو بُثَّ الإسلام إلى العالم بحقيقته؛ لدخل الناس في دين اللَّه أفواجاً.

ولو بُيِّن مثْل هذا الحديث لغير المسلمين؛ لعَجبوا منه وأحبُّوا الدين.

(**ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ**) وهم محاصَرون، ادعهم إلى الإسلام.

فدلَّ على أنَّ أوَّل ما يُدعى إليه في حال الحرب هو الإسلام، لا يَدعو للصلاة ولا للزكاة، فإذا تَشهَّدوا ودخلوا في الدين؛ يَكفُّ عن قتالهم.

وإذا كانت الدعوة لم تَبلُغْ أولئك القوم مِن قَبل؛ فيجب وجوباً عرْض الإسلام عليهم، وإذا كان قد بَلغهم - مِثل خيبر -؛ فيُندَب أن يُعرض عليهم مرَّةً أخرى؛ لعلهم أن يُسْلِموا.

(**وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِ**) يعني: ادعهم إلى الإسلام، فإذا دخلوا في الإسلام وتشهَّدوا؛ أخبرهم بما يَجب عليهم من حقِّ اللَّه تعالى فيه - في الإسلام -؛ يعني: أَخبرهم بواجبات الدين من الصلاة، والزكاة، والصيام، وبقيَّة الشرائع، لكن أوَّلاً الإسلام: (**ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ**) يعني: التوحيد، وأخبرهم بعد ذلك بقية الشرائع.

(فَوَ اللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً) ممَّن يَدخل في الدين، أو ممَّن هو على الدين لكنَّه استقام.

فيدلُّ على جواز الحلِف على الأمور الدينيَّة.

ويدلُّ أيضاً على جواز الحلِف على الأمور الدينية ولو لم يُستحلَف الإنسان، كما حَلف النبي عليه الصلاة والسلام هنا.

أمَّا الأمر الدنيويُّ فاللَّه يقول: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة:٨٩]، وكمَا سيأتي[١] في آخر كتاب التوحيد بأن كثرة الحلِف باللَّه عز وجل وإنْ كان الشخص صادقاً هذا يَقدح في التوحيد؛ لأن المعظِّم لا يَحلف إلَّا في أمرٍ عظيمٍ، أمَّا أن يَحلف به في كلِّ حينٍ؛ فليس هذا من التعظيم.

(خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ) يعني: خيرٌ لك من الجِمال الحمراء التي كانت تتفاخر العرب بتملُّكها لنَفاستها.

وهذا يدلُّ على تشبيه أمور الآخرة بالدنيا، فهناك أجرٌ عظيمٌ في الآخرة؛ فشَبَّهَ ذلك الأجر ببهيمة الأنعام الجميلة البهيَّة العظيمة؛ لتقريب تلك المسائل إلى النفوس.

---

(١) (ص) عند قوله: (بَابُ مَا جَاءَ فِي كَثْرَةِ الْحَلِفِ).

يعني: أيُّهما أبلغ؟ لو قال: فواللَّه لأن يَهدي اللَّه بك رجُلاً واحداً؛ فاللَّه يعطيك أجراً عظيماً، - والعرب يَتفاخرون بالإبل ويَتفاخرون بالأنعام – أو قال: إذا هدى اللَّه على يديك رجُلاً واحداً؛ خير مِن نَعمٍ عظيمةٍ بهيَّةٍ يتمنَّاها الأثرياء منهم.

لا شكَّ أنَّ الأمر الثاني أبْلغ، وهذا من أساليب الدعوة إلى هذا الدين: تقريب الأمور والثواب إلى العقل؛ ليبادر الشخص إلى العمل.

فتبيَّن مِن هذا الباب أنَّ أهمَّ ما يُدعى إليه هو التوحيد، وأول ما يُبدأ به هو التوحيد.

وهو الميثاق الأوَّل الذي أُخذ على بني آدم؛ كما قال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف:١٧٢]، ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ ثم ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ [البقرة:٨٣].

وهو الذي يُفطَر عليه جميع الخلْق؛ كما قال سبحانه: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم:٣٠].

(قَوْلُهُ: «يَدُوكُونَ» أَيْ: يَخُوضُونَ) يعني: في قول (**يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ**) يعني: يخوضون بالقول، ويخوضون أيضاً بالفعل وبالحركات؛ يذهبون، ويأتون.

***

[٦]

بَابُ
تَفْسِيرِ التَّوْحِيدِ وَشَهَادَةِ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ الآيَةَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ الآيَةَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الآيَةَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ الآيَةَ.

فِي الصَّحِيحِ: عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم؛ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ؛ حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ».

وَشَرْحُ هَذِهِ التَّرْجَمَةِ مَا بَعْدَهَا مِنَ الأَبْوَابِ.

الشرح:

لمَّا وَضع المصنِّف لك قواعد في أهمية التوحيد، وفضْله، والدعوة إليه، والخوف من ضده؛ ذَكر هنا تفسيره، وإنْ كان قد بيَّنه في أوَّل بابٍ؛ لكن أعاده هنا لبيان مزيدٍ من التوضيح.

قال رحمه الله: (**بَابُ تَفْسِيرِ التَّوْحِيدِ**) يعني: معنى التوحيد.

(**وَشَهَادَةِ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ**) هذا من عطْف الدالِّ على المدلول؛ يعني: إذا أردتَ أنْ تكون موحِّداً؛ فلن يكون ذلك إلا بالشهادة، وهي التي تدلُّك على التوحيد، فلا إله إلا اللَّه هي التي تدلُّ على التوحيد.

يعني: باب تفسير وتوضيح وبيان معنى التوحيد؛ حتى يرسَخ في ذِهنك.

وساق المصنِّف رحمه الله أربع آياتٍ وحديثاً واحداً؛ لبيان التوحيد وتوضيحِه:

ففي الآية الأُولى - (﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ﴾) -: بيَّن أن التوحيد يتحقَّق بترْك عبادة الصالحين والأصنام، وعبادة اللَّه عز وجل وحْده.

والآية الثانية - (﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾) -: يَتحقَّق التوحيد بتحقيق البراء من الشرك وأهله.

والآية الثالثة - (﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ**﴾) -: التوحيد يتحقق باعتقاد أنَّ المشرِّع هو اللَّه عز وجل، وعدم اتباع المشرِّعين فيما يُخالِف دين الإسلام.

والآية الرابعة - (﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً**﴾) -: تحقيق التوحيد يكون بتحقيق المحبَّة للَّه؛ محبَّة التألُّه والتعظيم والعبادة.

والحديث - (**مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّه**) -: ساقه المصنِّف رحمه الله؛ لبيان أنَّ تحقيق التوحيد يكون بالكُفر بالطاغوت وعبادة اللَّه وحده سبحانه وتعالى.

وساق المصنِّف رحمه الله هذه الأدلَّة في هذا الباب؛ لتفسير التوحيد على أربعة أمورٍ:

الأوَّل: ببيان ضدِّه، فبيَّن الشرك.

الثاني: بيان ركني التوحيد، وهما: النفي والإثبات.

الثالث: بيَّن شِرك الطاعة، فمن كان طائعاً للَّه فيما أَحلَّ وفيما حَرَّم؛ فهو موحِّدٌ، فمن فَعل ضدَّ ذلك فهو المشرِك.

الرابع: في شِرك المحبة، فإنْ كان شِرك المحبة شركاً؛ فضدُّه التوحيد.

لذلك قال رحمه الله: (وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾) ساق المصنِّف رحمه الله هنا ما هو ضد التوحيد وهو الشرك؛ لبيان أنَّ التوحيد هو ضد ذلك.

فأوَّل الآية بخطاب اللَّه عز وجل للمشركين: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ يعني: يا محمد قُل لهم: إنْ كنتم صادقين في عبادتكم لهذه الأصنام من دون اللَّه؛ ادعوهم.

﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ﴾ أي: زوال المرض - مثلاً - فمنْ كان مريضاً؛ لا تشفيه الأنداد، ولا تُحيي الموتى، ولا تُميتُ الحيَّ.

﴿وَلَا تَحْوِيلاً﴾ [الإسراء: ٥٦]؛ أي: ولا يحوِّلون الضُرَّ - كالمرض - منكم إلى رجلٍ آخر فهي تَملك عدماً، عاجزة عن كلِّ شيءٍ.

وبيَّن سبحانه أنَّ حقيقة الصالحين أنَّهم يتنافسون في عبادة اللَّه وحْده أيُّهم يرتقي درجةً عاليةً، ولا يَدَّعون لأنفسهم أنَّهم يُدْعَون من دون اللَّه؛ لذلك قال: (﴿**أُولَئِكَ**﴾) أي: الصالحون والأنبياء، (﴿**الَّذِينَ يَدْعُونَ**﴾) أي: يعبدونهم، والدعاء هنا دعاء العبادة.

حال الذين يعبدونهم: (﴿يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الوَسِيلَةَ﴾) أي: يتسابقون للقُرب من اللَّه، ويَطلبون رضا اللَّه والدرجة العالية، (﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾).

وحالهم أيضاً: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧]: يَخافون عذاب اللَّه، ويخافونه، فإنْ كانوا يخافون اللَّه؛ فلا يستحقون العبادة من دون اللَّه.

فإذا كانت عبادة الصالحين والأصنام والأضرحة شركاً؛ فالتوحيد هو ترْكها وعبادة اللَّه وحده.

وهذا من عظيمِ بديعِ تصنيف المصنِّف رحمه الله في سياق الآيات.

ودلَّ على أنَّ عبادة اللَّه هي التوحيد، فالذي يَذهب إلى الأنداد لا يُحَصِّل توحيداً؛ بل هؤلاء هم المشْرِكون، فالموحِّد هو الذي التجأ إلى اللَّه، فضد الشرك: التوحيد.

وهذه الآية جَمعت أركان العبادة؛ المحبة والخوف والرجاء:

(﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾): المحبة، ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ﴾: الرجاء، ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾: الخوف.

وأركان العبادة تسير كالطائر، فالمحبة: الرأس، والخوف والرجاء: الجناحان.

فرجاءُ ما عند اللَّه يَسير مع الخوف مِن عذاب اللَّه والنَّار، ومحبَّة اللَّه تقُوده، هذه الأمور الثلاثة؛ فيعبد اللَّه محبةً فيه، وخوفاً منه، ورجاءَ ما عنده.

ثُم قال رحمه الله: (**وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾**) يبيِّن لك أنَّ التوحيد لا يُمكن تحقيقه إلا بالإتيان بركني التوحيد، وهما: النفي والإثبات.

النفي: لا يوجد معبودٌ بحقٍّ في هذا الكون، **والإثبات**: إلا اللَّه.

كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾ نفيٌ، ﴿وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] إثبات.

فلو أنَّ شخصاً يصلِّي ويصوم، ويَنطق بالشهادتين، ولم يَكفر بالطاغوت، ويقول: عبادة الأصنام صحيحةٌ.

نقول: هذا ليس بالموحِّد، ولو أَتى بالشهادة؛ فلا بد من النفي، بأنَّ جميع المعبودات باطلةٌ.

وبيَّن أن توحيد الخليل عليه السلام هو التبرُّؤ والبُعد عن المشرِكين وآلهتهم.

(﴿**إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي**﴾) فإنِّي أقْرُب منه وهو اللَّه سبحانه وتعالى؛ أي: خَلقني وأَدعوه وحْده.

فموالاة المشركين بالنصرة على المسْلمين، واتفاقه مع المشركين ضد المسلمين؛ هذا يُضادُّ الإسلام؛ لذلك قال: (﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ**﴾) فهو بريءٌ من المشركين، ومن عبادة المشركين للأصنام، وبريءٌ من مظاهرة المشركين ضد المسلمين، وهو مَعنى: لا إله، (﴿**إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي**﴾): هو معنى: إلا اللَّه، ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٨]، كلمة التوحيد باقية في ذريته يَرجعون إليها.

ثُم قال رحمه الله: **(وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾)** أي: أَهْل الكِتاب؛ أي: اتَّخذوا مُشرِّعين يحلِّلون لهم - مثلاً أكْلَ الخنزير -، ويحلِّلون لهم شرْب الخمر، هذا في شِرك الطاعة.

فاليهود والنصارى اتَّخذوا زعماءهم وعُبَّادهم مشرِّعين من دون اللَّه، فما حرَّمه اللَّه؛ يحلِّلونه، وما أحلَّه اللَّه؛ يحرِّمونه.

فمَن اتَّخذ هؤلاء مشرِّعين له؛ فهذا يُسمَّى شرْك الطاعة.

فلو أنَّ شخصاً قال: شُرب الخمر حلالٌ، وشرِب شخصٌ الخمر، ويقول: إنَّ الراهب الفلانيَّ قال بأنَّ الخمر حلالٌ.

فهذا يُسمَّى: شرك الطاعة.

فلا يكون الشخص موحِّداً حتى يكون طائعاً للَّه وحده.

فكأنَّهم جعلوهم أرباباً من دون اللَّه - الرب مفردٌ، والأرباب متنوِّعين -، وجَعلوا المسيح عيسى عليه السلام ربّاً من دون اللَّه، فبيَّن اللَّه عز وجل أنَّ فعْلهم هذا شركٌ.

وأمَّا التوحيد: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

وشِرك الطاعة: إذا كان الشخص يَعتقد صحَّة ما قالوه؛ يعني: يَشرب الخمر، ويعتقد أنه حلالٌ؛ لأنَّ فلاناً قال: إنَّه حلالٌ، وهو المشرِّع له؛ فهذا – والعياذ باللَّه - كفرٌ بالإجماع(١).

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام (٢/ ٢٤٩)، مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١/ ٤٢٤).

ولو قال شخصٌ: شُرْب الخمر حلالٌ، وشَرِبه آخَرٌ ويقول: أنا أعْلم أنه يَكذب، وشُرب الخمر حرامٌ.

فهذا ليس بكفْرٍ؛ وإنَّما ذنْبٌ عظيمٌ؛ لأنَّ النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي المَعْرُوفِ»(١)، وهذا قد أطاعه في غير معروفٍ.

ومن ذلك: بعض الأزواج يطيع زوجته في سماع الأغاني، والتصوير، وحلْق اللَّحية ونحو ذلك، فإنْ أطاعها؛ يَدخل في الأمر الثاني، فهو يَعلم أنَّه حرامٌ، ولكن أطاعها محبةً لها.

(﴿أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾) جمْع ربٍّ، والمسيح ابن مريم أيضاً اتَّخذوه إلهاً من دون اللَّه.

فالذي يَتَّبِع المشرِّع من دون اللَّه ينقسم لِقسمين:

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصيةٌ، رقم (٧١٤٥)، ومسلمٌ، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصيةٍ وتحريمها في المعصية، رقم (١٤٦٥)، من حديث علي رضي الله عنه.

القِسم الأوَّل: أن يَتَّبعه على أنَّه هو الذي يُشرِّع له، فيقول مثلاً: شُرب الخمر حلالٌ، فيطيعه؛ تعظيماً لذلك العالِم ويَفعل ما حرَّم اللَّه، أو يقول: لا تأكل بهيمة الأنعام لأنَّها حرامٌ، فهذا العالِم حرَّم ما أحلَّ اللَّه.

فهذا كُفْر.

القِسم الثاني: أن يطيع مَن هو أقوى منْه في أمرٍ محرَّمٍ، كأن يقول: لا تصلِّي جماعةً، فيطيعه وهو يَعلم أنَّها معصيةٌ وأنَّه ليس له من التشريع بشيءٍ؛ هذا ليس بشركٍ، وإنَّما هو من جُملة الذنوب.

فدلَّ على أن التوحيد هو اتِّباع اللَّه عز وجل في تشريعه؛ كما قال سبحانه: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين:٨]، وقال سبحانه: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى:٢١].

ثُم قال رحمه الله: (وَقَوْلُهُ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾) هذه الآية الرابعة في تفسير وتوضيح التوحيد، فكأنَّ المصنِّف يقول لك: إنَّ مَنْ أحبَّ غير اللَّه محبَّةً قلبيةً فقط، دون العبادة من ركوعٍ وسجودٍ ونحو ذلك؛ فهو مشْركٌ، فيقول لك: إنَّ محبَّة اللَّه توحيدٌ؛ ففسَّرتُ لك أنَّ المحبة توحيدٌ أيضاً.

(﴿أَنْدَاداً﴾) يعني: أضرحةً وأصناماً.

(﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾) يُحبُّ هذا الصنم، أو صاحب هذا القبر، كحُبِّ اللَّه؛ يعني: يُحبُّ اللَّه أيضاً، لكن في زعْمه أنَّ الصنم أو صاحب القبر يَنفع أو يَضر.

فاللَّه عز وجل ذَكر أنَّ مَن أحبَّ مع اللَّه غيره؛ فهو مشركٌ، فكيف بمن جَعل في قلبه محبَّةً خالصةً لذلك المعبود - لغير اللَّه - من قبرٍ أو صنمٍ أو وثنٍ؟

لا شكَّ أنَّ هذا أعظم الشرك، فليس الشرك فقط في المحبة؛ بل حتى في المساواة في المحبة؛ يعني: يجب أنْ يكون قلبك مليئاً بمحبَّة اللَّه، وأن لا تحبَّ أحداً سوى اللَّه.

والمحبَّة تنقسم إلى أقسام:

القِسم الأوَّل: محبَّةٌ جبِلِّيَّةٌ، كمحبَّة الرجُل للطعام والماء.

والقِسم الثاني: محبَّةٌ عاطفيةٌ، كمحبَّة الوالد للابن، والأمِّ لولدها.

هذا لا محذور فيه؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم عن الحسن والحسين رضي الله عنهما: «اللَّهُمَّ إِنِّي أُحِبُّهُمَا فَأَحِبَّهُمَا»(١).

---

(١) رواه البخاريُّ (٣٧٤٧)، كتاب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم،

القِسم الثالث: أن يُحبَّ الإنسان شيئاً مُعظَّماً كأنَّه إله.

فهذه هي المحبة - والعياذ باللَّه - الشِّركيَّة.

فمحبَّة التألُّه والتعبُّد لو كانت للَّه ولغير اللَّه أيضاً؛ فهذا شركٌ ليس بتوحيد؛ لأنَّ اللَّه أَثبت للمشركين أنَّهم يحبُّون اللَّه كحبِّ الأوثان، فالتوحيد أن تكون محبة التعبُّد والتألُّه للَّه سبحانه وتعالى.

فمثلاً: لا يقول شخصٌ: أنا أحبُّ الصنم أو صاحب القبر محبةً عظيمةً؛ لأنَّه ينفعني أو يضرني؛ هذا هو المنهيُّ عنه - المحبَّة الشركيَّة - .

فدلَّ على أن التوحيد هو صرْف المحبة للَّه سبحانه وتعالى.

والمراد **بالمحبة الشِّركِيَّة** هنا: إنْ كانت عن ذلٍّ وتعظيمٍ.

مثلاً: شخص مرَّ عند قبرٍ؛ فذَلَّ له، وخَضع له؛ حُبّاً له.

نقول: هذه - والعياذ باللَّه - محبَّةٌ شركيَّةٌ تُخرج الشخص من دائرة الإسلام، حتى لو لم يَطُفْ على القبر، وحتى لو لم يدْعُه من دون اللَّه.

باب مناقب الحسن والحسين رضي اللَّه عنهما، مِن حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما.

أمّا **المحبَّة الجبلِّيَّة** مِثل: محبَّة النوم، أو الماء البارد.

فهذه ليست شركيَّةً؛ إنَّما جِبِلِّيَّةٌ.

ومِثل **محبة الإشفاق**، مثل: محبَّة الوالد لولده؛ هذه ليست شركيَّةً.

ومثل: محبَّة الشخص لشريكه أو زميله في العمل؛ لأنه يساعده في العمل؛ فهذه ليست محبَّةً شركيَّةً.

وإنما المحبَّة الشركيَّة ما كانت عن ذلٍّ وتعظيم، فيُذِلُّ لصاحب القبر رأسه، ويَخضع بقلبه، ويُعظِّمه في قلبه؛ هذا هو الشرك.

وهذا الباب - باب المحبَّة - لأهميته؛ أَفرد له المصنِّف باباً؛ قال: **(بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾)** فبيَّن المحبَّة وأنواعها هناك.

قال: **(فِي الصَّحِيحِ: عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم؛ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ؛ حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ»)**.

هذا الحديث تفصيلٌ للآية الثانية: (**﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾**)، ففيهما بيان ركني التوحيد: النفي والإثبات.

قوله: (**فِي الصَّحِيحِ**) صحيح مسلمٍ[١].

والمصنِّف رحمه الله أحياناً يقول: وفي الصحيح؛ يعني: صحيح البخاريِّ.

وأحياناً يقول: وفي الصحيح؛ يعني: صحيح مسلمٍ.

وأحياناً يقول: وفي الصحيح؛ يعني: وفي الحديث الصحيح.

يعني: كأنَّه يبيِّن لك أنَّه حديثٌ صحيحٌ، سواء في البخاري، أو في مسلمٍ، أو في غيرهما.

(**عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم؛ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ**)،

الركن الأوَّل: الإثبات.

ويُشترط مع القول: اليقين والمعرفة بها، وأنَّ معناها: لا معبود بحقٍّ إلا اللَّه.

وأنْ يحقِّق شروطها: العلم، اليقين، الإخلاص، الصدق، المحبة، الانقياد، والقبول.

---

(١) كتاب الإيمان، بَابُ الْأَمْرِ بِقِتَالِ النَّاسِ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، رقم (٢٣)، من حديث أبي مالك عن أبيه رضي الله عنه.

مع البُعد عن نواقضها، التي هي نواقض الإسلام.

(**وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ**) الركن الثاني: النفي؛ أي: لا يَستحقُّ العبادة أحدٌ إلا اللَّه، فيَعتقد الشخص ويتكلَّم ويقول: كل ما يُعبَد من دون اللَّه من الآلهة؛ فهي باطلةٌ.

(**حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ**) لا يجوز أخْذ ماله، ولا يجوز سَفْك دمه.

(**وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ**) في الدنيا يُحكَم عليه بالإسلام، فمن قال أمامنا: لا إله إلا اللَّه؛ فهو عندنا في الدنيا مسلمٌ، واللَّه هو الذي يحاسبه في الآخرة، هل هو صادقٌ فيها؟ هل هو منافقٌ؟ هل هو كافرٌ بها في قلبه؟ أَمْ لا.

فدلَّ على أنَّ التوحيد لا يَتحقَّق إلا بالكُفر بالمعبودات من دون اللَّه؛ كما قال سبحانه: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

فمثلاً: لو شخصٌ يصلِّي ويقول: لا إله إلا اللَّه، ويقول: إنَّ صاحب هذا القبر يَنفع ويضر؛ هذا لم يَكفر بما يُعبد من دون اللَّه.

أو يقول: إنَّ عبادة هؤلاء للأضرحة صحيحةٌ، لهم دينهم، وفعْلهم هذا صحيحٌ، ونحن نعبد اللَّه وديننا صحيحٌ؛ هذا - والعياذ باللَّه - لم يُحقِّق التوحيد.

فتحقيق التوحيد: اعتقاد أنَّ المعبودات من دون اللَّه باطلةٌ، وهو معنى لا إله إلا اللَّه.

ثُم قال: (وَشَرْحُ هَذِهِ التَّرْجَمَةِ مَا بَعْدَهَا مِنَ الأَبْوَابِ) يعني: الآن بيَّن لك التوحيد، وما بعد هذا الباب يفصِّل لك فيما يُخِلُّ بالتوحيد من تمائم، ولبْس الحَلقة والخيط، ومن الذبح لغير اللَّه، والسحر، وغيرها ممَّا ينافي التوحيد.

فالآن وَضع لك قاعدةً في التوحيد، والدعوة إليه، وتفسيره، وبيان فضْله، ثم يفصِّل لك ما يضادُّ التوحيد مما يقع فيه الناس، فهذه الأبواب التي سَبقت هي قواعد في بيان التوحيد، ثُم سيبدأ يفصِّل في وسائل شركيَّةٍ أو شِرك أو ما يناقض التوحيد، ويُثبِت في آخره توحيد الأسماء والصفات.

***

[٧]

بَابٌ

مِنَ الشِّرْكِ لُبْسُ الحَلْقَةِ وَالخَيْطِ وَنَحْوِهِمَا؛ لِرَفْعِ البَلَاءِ أَوْ دَفْعِهِ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾ الآيَةَ.

عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم رَأَى رَجُلاً فِي يَدِهِ حَلْقَةٌ مِنْ صُفْرٍ، فَقَالَ: «مَا هَذِهِ؟! قَالَ: مِنَ الوَاهِنَةِ، قَالَ: انْزِعْهَا؛ فَإِنَّهَا لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْناً، فَإِنَّكَ لَوْ مِتَّ وَهِيَ عَلَيْكَ؛ مَا أَفْلَحْتَ أَبَداً» رَوَاهُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ لَا بَأْسَ بِهِ.

وَلَهُ: عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه مَرْفُوعاً: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً؛ فَلَا أَتَمَّ اللَّهُ لَهُ، وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدَعَةً؛ فَلَا وَدَعَ اللَّهُ لَهُ».

وَفِي لَفْظٍ: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً؛ فَقَدْ أَشْرَكَ».

وَعَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه: أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً فِي يَدِه خَيْطٌ مِنَ الحُمَّى، فَقَطَعَهُ، وَتَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

الشرح:

قال رحمه الله: (بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ لُبْسُ الحَلْقَةِ وَالخَيْطِ وَنَحْوِهِمَا؛ لِرَفْعِ البَلَاءِ أَوْ دَفْعِهِ).

هذا أوَّل بابٍ من الأبواب التي يُفصِّل فيها شيخ الإسلام رحمه الله في التوحيد أو ضد التوحيد؛ يعني: ما سبق من الأبواب كالتمهيد والقواعد لهذا الباب وما بعده.

قال: (**بَابٌ**) يصحُّ أن يُقال بالتنوين؛ أي: هذا (**بَابٌ**)، ويصحُّ بدون تنوين (**بَابُ**)؛ أي: هذا (**بَابُ مِنَ الشِّرْكِ لُبْسُ الحَلْقَةِ وَالخَيْطِ**..).

وقوله: (**بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ**) مِن هنا تبعيضيَّةٌ؛ أي: هذا بابٌ فيه بيان حُكم لُبس الحَلقة والخيط ونحوهما.

وهي تنقسم إلى قِسمين:

القِسم الأول: إذا كان يعتقد أنَّ لُبس الخيط ونحوه سببٌ في رفْع البلاء أو دفْعه.

فهذا شركٌ أصغر ينافي كمال التوحيد الواجب، وهو أكبر من الكبائر؛ يعني: أكبر من شرْب الخمر، ومن السرقة وغير ذلك.

والقِسم الثاني: أن يعتقد أنَّ هذا الخيط، أو الخاتم ونحوه يَنفع ويَضر بذاته.

فهذا - والعياذ باللَّه - شركٌ أكبر.

وقوله: (**لُبْسُ الحَلْقَةِ**) الحَلْقة: الشيء المستدير[1] سواء كان من نحاسٍ، أو من فضةٍ، أو من ألماسٍ، أو من خرزاتٍ ونحوها.

وقوله: (**وَالخَيْطِ**) هو الخيط المعروف، سواء من جلدٍ، أو من قماشٍ أو نحو ذلك.

وقوله: (**لُبْسُ الحَلْقَةِ وَالخَيْطِ**) ليس ذلك مقيَّداً باللَّبس، فلو وضع خيطاً في جيبه مثلاً؛ يأخذ نفس الحُكم.

وأيضاً التعليق ليس للآدمي فقط، وإنَّما لو علَّق على السيارة مثلاً، أو على الدابة؛ لئلَّا تصيبها عينٌ مثلاً.

فهي لا تخلو من الشرك؛ إمَّا من الأكبر، وإمَّا من الأصغر.

قوله: (**وَنَحْوِهِمَا**) يعني: نحْو لبْس الحلْقة والخيط، مِثل: لبْس ما يوضع على الصدر، ومِثل: لو إنسانٌ وضَع نمشاً أو وشماً على جسده يعتقد ذلك، أو لبس خاتماً يعتقد فيه أنَّه سببٌ لدفع العين؛ فيأخذ نفْس الحُكم أيضاً.

---

(١) مقاييس اللَّغة لابن فارس (٢/ ٩٨).

وقوله: **(لِرَفْعِ البَلَاءِ)** أي: لرفْع الضر الذي نَزل - من المرض، أو من الصَّرَع، أو من العين ونحو ذلك -؛ أي: لرفْعه بعد وقوعه.

مِثل: لو أنَّ شخصاً مريضاً زاره شخصٌ، فقال: ضَع هذه التميمة فتُشفى؛ فهنا رفْع البلاء من سقمٍ وهمٍّ وغمٍّ ونحوه.

(أَوْ دَفْعِهِ) أي: دفْع البلاء قبْل نزوله.

مِثل: أن يَلبسها في زعْمه أنَّ الجنَّ لن يضرُّوه، أو أنه لن يُمسَّ بسحْرٍ، أو بعينٍ أو نحو ذلك.

وهذا - والعياذ باللَّه - كما سبق شركٌ؛ إمَّا أكبر، وإمَّا أصغر - على التفصيل السابق -.

فمَن فعل ذلك: حُكمه ينقسم إلى ثلاثة أقسامٍ:

القِسم الأوَّل: إذا كان علَّقها يَعتقد أنها تنفع أو تضرُّ بذاتها.

فهذا شركٌ أكبر - والعياذ باللَّه -.

القِسم الثاني: إذا كان يعلِّقها ويَعتقد أنَّ النَّفع والضرَّ من اللَّه، لكن يعتقد أنَّها سببٌ.

فهذا شركٌ أصغر.

القِسم الثالث: إذا لِبس شخصٌ في أصبعه خاتماً فيه الخرزات، وما يَمنع من العين من اللَّون الأزرق - مثلاً -، وقال: أعرف أنَّها لا تنفع ولا تضرُّ، وإنَّما ألبسها للتجمُّل بها.

نقول: لا يجوز، حتى لو لم يعتقد بها؛ لأنَّها من مظاهر الشرك، ولا يجوز وضْع مظاهر الشرك.

ولمَّا بيَّن المصنِّف هذه الترجمة، وهي: أنَّ التمائم والحلقات شركٌ؛ أعطاك الأدلَّة، وكأنَّه يقول: لم آتِ بشيءٍ وإنما بوَّبتُ ذلك، وهذه الأدلَّة فخُذها.

قال: (وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾).

ساق المصنِّف رحمه الله هذه الآية؛ لبيان أنَّ المتَعَلَّق به من دون اللَّه لا يَدفع عن الإنسان الضُّرَّ.

وهذه الآية في بيان الشرك الأكبر، وسِيقَت في بيان الشرك الأصغر، فمَنْ لَبس الحلْقة؛ تَسُوق له هذه الأدلَّة:

قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧]، ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ

لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام:١٧]، ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر:٢].

وثَبت في الصحيحين(١) عن المغيرة بن شعبة(٢) رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في دُبُرِ كلِّ صلاةٍ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلاَ مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلاَ يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ»، فالنافع الضارُّ هو اللَّه، وهذا يبيِّن أنَّ التميمة شركٌ.

وقوله سبحانه: (﴿**قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ**﴾) أي: أيُّها المشركون، (﴿**مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ**﴾)، وكذلك ما تعلِّقونه من الحِلَق والخيوط.

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الأذان، باب الذكر بعد الصلاة، رقم (٨٤٤)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، رقم (٥٩٣).

(٢) هو: أبو عبد اللَّه المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود بن معتب بن مالك بن كعب ابن عمرو بن سعد بن عوف بن قيس الثقفي، أَسلم عام الخندق، توفي سنة (٥٠هـ). الاستيعاب لابن عبد البر (٤/ ١٤٤٥).

(﴿**إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ**﴾) أي: الآلهة، هل تستطيع أن تَمنع الضرَّ الذي أراده اللَّه عليك من الموت أو المرض؟

الجواب: لا.

فدلَّ على أنَّ لبْس الخيط، والحلْقة كذلك لا تَدفع عنك الضرر.

وقوله: ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾ يعني: اللَّه أرادني برحمةٍ، ورزقٍ، ومالٍ، ﴿هَلْ هُنَّ﴾ أي: الآلهة، ﴿مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ [الزمر: ٣٨] يمنعون عني الرزق؟ لا.

إذاً: يجب التوكُّل على اللَّه عز وجل والتعلُّق به سبحانه، وأنَّ هذه الخيوط ونحوها من الشرك.

مِثل: ما يَفعله بعض أصحاب السيارات الكبيرة من الشاحنات، أو سيارات الأجرة؛ من وضْع خيوطٍ سوداء في أطراف السيارة.

هذه نوعٌ من أنواع الحلْقة والخيط، الذي هو شركٌ - والعياذ باللَّه -.

ثُمَّ بعد ذلك قال رحمه الله: (**عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم رَأَى رَجُلاً فِي يَدِهِ حَلْقَةٌ مِنْ صُفرٍ، فَقَالَ:**

«مَا هَذِهِ؟! قَالَ: مِنَ الْوَاهِنَةِ، قَالَ: انْزِعْهَا؛ فَإِنَّهَا لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْناً، فَإِنَّكَ لَوْ مِتَّ وَهِيَ عَلَيْكَ؛ مَا أَفْلَحْتَ أَبَداً» رَوَاهُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ لَا بَأْسَ بِهِ).

ذَكر المصنِّف رحمه الله هذا الحديث؛ لبيان أنَّ لُبس الحلْقة والخيط ونحوهما فيه ضررٌ؛ فتُبعِد عن كلِّ خيرٍ وفلاحٍ؛ لأنها شركٌ، لذلك قال:

(عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم رَأَى رَجُلاً)، وفي روايةٍ: «أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم رَآنِي»[(١)]؛ أي: رأى عمرانَ بن حصينٍ.

(فِي يَدِهِ حَلْقَةٌ مِنْ صُفْرٍ) يعني: من نحاسٍ أصفر، ومِنه ما يُباع في بعض المحلاَّت من قولهم أنَّها تُنظِّم حركات القلب ونحو ذلك؛ هذا من أنواع لبس الحلقة والخيط.

(فَقَالَ: «مَا هَذِهِ؟») من باب الاستنكار عليه، أو الاستِفصَال.

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الطب، رقم (٧٥٠٢)، من حديث عمران بن حصين رضي الله عنهما، ولفظه: «دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، وَفِي عَضُدِي حَلْقَةٌ مِنْ صُفْرٍ، فَقَالَ: مَا هَذِهِ؟ فَقُلْتُ: مِنَ الوَاهِنَةِ، فَقَالَ: انْبِذْهَا».

(قَالَ: مِنَ الْوَاهِنَةِ) والواهنة: مرضٌ يصيب اليد[١]، اسمه الواهنة، ما بين الكتف إلى المِرفَق، فلبِسَها في زعْمه أن هذه الحلْقة سببٌ في رفْع ذلك.

(قَالَ: انْزِعْهَا) هذا يدلُّ على غِلظ معصية الشرك الأصغر - والعياذ باللَّه - حيث أمر النبي صلى الله عليه وسلم بإزالة ذلك المنكَر.

(فَإِنَّهَا لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْناً) دلَّ على أنَّ الخيوط ونحو ذلك تُوهِن الشخص، وتضعِفه، وتحلُّ به الأمراض؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الآخر: «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئاً وُكِلَ إِلَيْهِ»[٢]، فمن تعلَّق بخيطٍ وكَله اللَّه لذلك الخيط، والخيط لا يَنفعه.

وقوله: (فَإِنَّكَ لَوْ مِتَّ وَهِيَ عَلَيْكَ؛ مَا أَفْلَحْتَ أَبَداً) يدلُّ على أنَّ لبْس مِثل ذلك، مِثل ما يعلَّق على الأطفال من السلاسل ونحوها في زعمهم أنها تمنع من العين؛ فالنبي صلى الله عليه وسلم أَخبر أنَّ هذا الطفل لن يُفلح، وكذا من علَّقها وهو كبيرٌ لن يُفلح.

---

(١) لسان العرب لابن منظور (١٣/ ٤٥٤).

(٢) رواه أحمد في المسند، رقم (١٨٧٨١)، من حديث عبد اللَّه بن عُكَيْم رضي الله عنه.

وهذا يدلُّ على أنَّ الإنسان لا يُعذر بالجهل في الشرك، لذا يَجب على المسلم أن يتعلَّم التوحيد وما يضادُّ التوحيد؛ لئلا يقع في شيءٍ يضادُّ التوحيد أو يُنقِصه، وهو لا يَعلم.

والنبي صلى الله عليه وسلم نفى الفلاح عن ذلك المعلِّق للنحاس في يده حتى ولو كان يَجهل ذلك - والعياذ باللَّه -.

ومِن هنا يَعرف المسْلِم أهمِّيَّة تعلُّم التوحيد؛ بل تكرار ذلك في قلبه حيناً بعد آخر؛ ليكون الإيمان قويّاً في قلبه.

قال: (**رَوَاهُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ لَا بَأْسَ بِهِ**).

وهذا الحديث يفيد عدة أمورٍ:

الأمر الأوَّل: أنَّ مَنْ رأى على غيره تميمةً؛ يجب عليه أنْ يَنزعها.

الأمر الثاني: لبْس التميمة يأتيك به ضد ما فعلتَ من أجْله، فإنْ كان لا يريد السحْر؛ يأتيه، وهكذا.

الأمر الثالث: أنَّ مَن علَّق تميمةً؛ فإنَّه لن يُفلح أبداً، لا في الدنيا، ولا في الآخرة، ونفْي الفلاح المطلق يدلُّ على أنَّ التميمة شركٌ.

ثُم قال: (**وَلَهُ: عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه مَرْفُوعاً**: «**مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً؛ فَلَا أَتَمَّ اللَّهُ لَهُ، وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدَعَةً؛ فَلَا وَدَعَ اللَّهُ لَهُ**»).

وَفِي لَفْظٍ: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً؛ فَقَدْ أَشْرَكَ»).

ذَكر المصنِّف رحمه الله هذا الحديث؛ لبيان أنَّ مَن علَّق خيطاً ونحوه؛ لرفع البلاء، أو دفعه، فإنَّ اللَّه تعالى لن يُتمَّ له مراده.

قوله: (مَنْ تَعَلَّقَ) أي: علَّق، (تَمِيمَةً) سيأتي بإذن اللَّه تعريف التمائم في الباب الذي يليه.

(فَلَا أَتَمَّ اللَّهُ لَهُ) هذا إخبارٌ بأنَّ اللَّه لن يُتم له أمره.

أي: مَن علَّق تميمةً من أجْل أن لا تصيبه العين؛ فإنَّ العين تصيبه، ومَن علَّق تميمةً مِن أجْل أن لا يَمرض؛ فإنَّ المرض يَحلُّ به وهكذا.

فمن علَّق تميمةً تتجاذَبُه ثلاثة أمورٍ:

الأمر الأَوَّل: وَقع في الشرك.

والأمر الثاني: لن يَتمَّ له مقصوده.

الأمر الثالث: يُنفَى عنه الفلاح في كلِّ شيءٍ، والفلاح هو: الخير والظفَر والسعادة.

وقوله: (وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدَعَةً) الودَع: هو الحصى الأبيض الذي عند ساحل البحر الذي يُخرجه البحر(١)، أبيض مِثل القَوْقَعَة.

كانت العرب تتخذه تتَّقي به العين أو الضرَّ في زعمها، مثل: الصَّدَفَات، يُعلَّق على الصدر، وأحياناً على اليد، يزعمون أنَّه يُسكِّن النفس.

فمَنْ علَّقها؛ لن يُحقَّق مُراده، ولن يُفلح.

(فَلَا وَدَعَ اللَّهُ لَهُ) أي: لن يدعه اللَّه ساكناً في الأمر الذي اتَّخذه.

فمن اتَّخذه ليزول عنه المرض؛ فالمرض سيكون فيه ولن يدعَه.

ومن اتَّخذه لئلا يُسحَر؛ فلن يدعه اللَّه وسوف يُسحر وهكذا.

وهذا فيه وعيدٌ شديدٌ لمَن يتخذ الِحلَق، أو الخيوط، أو التمائم ونحوها، وأنَّ الواجب هو التعلُّق باللَّه عز وجل.

وعلَّة تحريم ذلك: هو عدم الاعتماد على اللَّه سبحانه وتعالى، والاعتماد على الجمادات؛ قال سبحانه: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس:١٠٧].

---

(١) الصحاح للجوهري (٣/ ١٢٩٥).

ثُم قال رحمه الله: (وَفِي لَفْظٍ: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً؛ فَقَدْ أَشْرَكَ»).

ذَكر هذه الرواية؛ لبيان حُكم المعلَّق من الخيوط ونحوها من التمائم، وأنَّه شركٌ.

فإذا سألك أحدٌ: ما حُكم التميمة؟

قُل له: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً؛ فَقَدْ أَشْرَكَ).

فإن كان يَعتقد في التميمة أنها سببٌ في دفْع الضرر أو جلْب النفع؛ فهو شركٌ أصغر.

وإن كانَ يعتقد أنها بذاتها تنفع وتضرُّ؛ فهو شركٌ أكبر.

ثُم قال: (وَعَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه: أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً فِي يَدِهِ خَيْطٌ مِنَ الحُمَّى، فَقَطَعَهُ، وَتَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ).

ذَكر المصنِّف رحمه الله هذا الأثر؛ ليبيِّن ضررَ هذا الذنْب، ولبيان وجوب إنكار لبْس الخيوط ونحوها؛ لرفْع البلاء، أو دفْعه، وأنَّ مَن استطاع أنْ يزيله؛ فيجب عليه ذلك.

(وَعَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه: أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً فِي يَدِه خَيْطٌ مِنَ الحُمَّى)

أي: لئلَّا تصيبه الحمَّى، فيَزعم أنَّ هذا الخيط يَدفع عنه الحمَّى.

(فَقَطَعَهُ) حذيفة رضي الله عنه؛ لأنه يزيد الحُمَّى ولا يَرفعها عنه، ولأنه شركٌ - والعياذ باللَّه -.

(وَتَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ﴾) أي: وما يؤمن أكثرهم بتوحيد الربوبية، (﴿إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾) بتوحيد الألوهية.

وهذا يدلُّ على فَهْم الصحابة رضي الله عنهم لنصوص العقيدة وغيرها.

وأيضاً يدلُّ على أنَّه يصحُّ الاستدلال بآيات الشرك الأكبر على الشرك الأصغر؛ بجامع أنَّ كليهما شركٌ - والعياذ باللَّه -.

فدلَّ على خطورة تعليق الخيوط ونحوها، وأنَّه يجب إنكارها وإذا كان لا ضرر في إزالتها بالقطع؛ فتُقطع، وإذا كان فيه ضررٌ؛ فتُترك ويُكتفى باللِّسان - بالإنكار به -.

وساق المصنِّف رحمه الله هذا الأثر، ليبيِّن أنَّ الصحابة والسَلَف يستدلُّون بآيات الشرك الأكبر على فعْل الشرك الأصغر، ومِثل الآية

الأُولى: (﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾).

هذا من جانب ضرر التميمة، وحُكمها، والتفصيل في لبْسها.

ومِن أعظم أضرار التميمة:

الأمر الأوَّل: أنَّ القلب يتعلَّق بغير اللَّه، فينظر إلى الخيط دائماً، ويَترك التعلق باللَّه، وإنْ ترَكَ التعلُّق باللَّه؛ فقد فرَّط بعبادةٍ كبيرةٍ، وهي التوكُّل؛ قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

الأمر الثاني: تُفوِّت عليه منافع التوكّل على اللَّه؛ مِن تيسير الرزق، ومِن تيسير الأمور، ومِن زوال الهموم، فيَجعل القلب دائماً متعلّقاً بتلك الجمادات.

الأمر الثالث: وتُفوِّت عليه أيضاً عبادة الإيمان بالقضاء والقدر، فيَدفع نفسه جاهداً للجمادات؛ جَزَعاً ممَّا يقع عليه من القضاء والقدر.

الأمر الرابع: وأيضاً استَحوذ عليه الشيطان، بأنْ أوقعه في الشرك، وجلَب لنفسه الضرر؛ بأنْ لن يَحصل له ما أراده، ونفى الفلاح عن نفْسه في الدنيا والآخرة.

الأمر الخامس: ومَن فعَل ذلك؛ ظاهِرٌ فيه نقصان في العقل، فكيف يَعتقد في خيطٍ أنْ يدفع عنه ضرّاً، أو يَجلب له نفعاً، وهو نفسُه قادرٌ على إزالة ذلك الخيط.

***

[٨]

بَابُ

مَا جَاءَ فِي الرُّقَى وَالتَّمَائِمِ

فِي الصَّحِيحِ: عَنْ أَبِي بَشِيرٍ الأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه: «أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَأَرْسَلَ رَسُولاً: أَلَّا يَبْقَيَنَّ فِي رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلَادَةٌ مِنْ وَتَرٍ، أَوْ قِلَادَةٌ؛ إِلَّا قُطِعَتْ».

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «إِنَّ الرُّقَى، وَالتَّمَائِمَ، وَالتِّوَلَةَ؛ شِرْكٌ» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ.

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُكَيْمٍ رضي الله عنه مَرْفُوعاً: «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئاً؛ وُكِلَ إِلَيْهِ» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ.

التَّمَائِمُ: شَيْءٌ يُعَلَّقُ عَلَى الأَوْلَادِ عَنِ العَيْنِ، لَكِنْ إِذَا كَانَ مِنَ القُرْآنِ؛ فَرَخَّصَ فِيهِ بَعْضُهُمْ، وَبَعْضُهُمْ لَمْ يُرَخِّصْ فِيهِ، وَيَجْعَلُهُ مِنَ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ - مِنهُمُ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه -.

وَالرُّقَى: هِيَ الَّتِي تُسَمَّى العَزَائِمَ، وَخَصَّ مِنْهُ الدَّلِيلُ مَا خَلَا مِنَ الشِّرْكِ؛ فَقَدْ رَخَّصَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مِنَ العَيْنِ وَالحُمَةِ.

والتِّوَلَةُ: شَيْءٌ يَصْنَعُونَهُ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ يُحَبِّبُ المَرْأَةَ إِلَى زَوْجِهَا، وَالرَّجُلَ إِلَى امْرَأَتِهِ.

وَرَوَى الإِمَامُ أَحْمَدُ: عَنْ رُوَيْفِعٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «يَا رُوَيْفِعُ! لَعَلَّ الحَيَاةَ سَتَطُولُ بِكَ؛ فَأَخْبِرِ النَّاسَ أَنَّ مَنْ عَقَدَ لِحْيَتَهُ، أَوْ تَقَلَّدَ وَتَراً، أَوْ اسْتَنْجَى بِرَجِيعِ دَابَّةٍ أَوْ عَظْمٍ؛ فَإِنَّ مُحَمَّداً بَرِيءٌ مِنْهُ».

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: «مَنْ قَطَعَ تَمِيمَةً مِنْ إِنْسَانٍ؛ كَانَ كَعِدْلِ رَقَبَةٍ» رَوَاهُ وَكِيعٌ.

وَلَهُ: عَنْ إِبْرَاهِيمَ قَالَ: «كَانُوا يَكْرَهُونَ التَّمَائِمَ كُلَّهَا مِنَ القُرْآنِ وَغَيْرِ القُرْآنِ».

الشرح:

قال: (بَابُ مَا جَاءَ فِي الرُّقَى وَالتَّمَائِمِ) (**الرُّقَى**) جمْع رُقيةٍ، وهي ما يُستشفى به[(١)]، وتنقسم إلى قِسمين:

القِسم الأوَّل: رقيةٌ شرعيةٌ: وهي ما كانت بالقرآن، وبالسنَّة، أو بالأدعية المشروعة، أو بالأدوية المباحة.

والرقية المشروعة لها ثلاثة شروطٍ:

الشرط الأوَّل: أن تكون بالقرآن والسنَّة والأدعية المباحة.

الشرط الثاني: أن تكون بلسانٍ عربيٍّ مفهومٍ، ليس فيه تَمْتَمَاتٌ.

الشرط الثالث: أن يُعتَقد بأنها سببٌ، قد تَنفع وقد لا تَنفع.

فقد يَذهب الشخص إلى راقٍ ولا يستفيد منه، ويَذهب إلى غيره ويستفيد منه، فدلَّ على أن ليس كل رقيةٍ تَنفع، فقد يَنتفع من الراقي، وقد لا يَنتفع منه.

والرقية لها أنواعٌ:

(١) الصحاح للجوهري (٦/ ٢٣٦١)، تاج العروس للزبيدي (٣٨/ ١٧٥).

النوع الأوَّل: أنْ يرقي الإنسان نفْسه؛ وهذه أكْملها، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يرقي نفْسه[١].

النوع الثاني: أنْ يرقيه غيْره، وينقسم إلى قِسمين:

القِسم الأوَّل: أنْ يرقيه غيره بغير طلبٍ منه، مِثل: أنْ يزور شخصٌ آخر، فيجده مريضاً، ثُم يأتي هذا الشخص ويرقي ذلك المريض، من غير طلبٍ منه.

وهذا مشروعٌ؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَنْفَعَ أَخَاهُ فَلْيَفْعَلْ»[٢].

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب فضائل القرآن، باب فضل المعوذات، رقم (٥٠١٦)، ومسلم، كتاب السلام، باب رقية المريض بالمعوذات والنفث، رقم (٢١٩٢)، من حديث عائشة رضي الله عنه، ولفظه: «أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم كَانَ إِذَا اشْتَكَى يَقْرَأُ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ، وَيَنْفُثُ، فَلَمَّا اشْتَدَّ وَجَعُهُ كُنْتُ أَقْرَأُ عَلَيْهِ، وَأَمْسَحُ عَنْهُ بِيَدِهِ، رَجَاءَ بَرَكَتِهَا».

(٢) رواه مسلم، كتاب السلام، باب استحباب الرقية من العين والنملة والحمة والنظرة، رقم (٢١٩٩)، من حديث جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنهما.

القِسم الثاني: أنْ يَطلب الشخص مِن غيره أنْ يرقِيَه، إمَّا أنْ يذهب إليه، أو يكون هو مريضٌ ويأتيه شخصٌ صالحٌ يزوره، فيقول له: اقرأ عليَّ القرآن، وانفث عليَّ.

وهذا جائزٌ، ولكنَّ الأفضل عدم الطلب، كمَا في الحديث: «هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»(١).

فلو مرِضَ شخصٌ وقال: هل الأفضل أنْ أذهب إلى شيخٍ يقرأ عليَّ القرآن، أوْ الأفْضل أنْ لا أَذهب؟

نقول: إذا كان عندك إيمانٌ قويٌّ يَمنعك من التجزُّع والتسخُّط؛ فالأفضل عدم الذهاب، وتقرأ أنت على نفسك.

أمَّا إنْ كان إيمانك ضعيفاً، ويَنتج عن ذلك تجزُّع وتسخُّط على القضاء والقدر؛ نقول: تَذهب أفضل؛ لئلَّا يكون في قلبك وصدرك عدم

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الرقاق، باب قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، رقم (٦٤٧٢)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجَنَّة بغير حسابٍ ولا عذابٍ، رقم (٢١٨).

الرضا بالقضاء والقدر، وحتى لا تقع في الأمر المحرَّم - وهو عدم الرضا بالقضاء والقدر -؛ لأجْل أمرٍ مستحبٍّ - وهو دخول الجَنَّة بغير حسابٍ ولا عذابٍ -.

ومِثله الذهاب إلى الطبيب: فلو مرِض شخصٌ، وقال: أيهما أفْضل أَذهب إلى الطبيب أم لا أَذهب؟

نقول: إذا أنت متوكِّلٌ على اللَّه، وتقرأ على نفسك؛ الأفضل عدم الذهاب.

أمَّا إنْ كنت تجلس في بيتك وأنت مريض وتتجزَّع؛ فالأفضل لك أنْ تذهب؛ لئلَّا يكون عندك قدحٌ في القضاء والقدر.

والرقية سواء كانت بعلاجٍ معنويٍّ - وأفضله لا شك: القرآن؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، و﴿مِن﴾ هنا: بيانيَّةٌ، وليست تبعيضيةٌ؛ بمعنى: أنَّ كلَّ آيةٍ في كتاب اللَّه هي بإذن اللَّه سببٌ في الشفاء -.

أو كانت بأدويةٍ مباحةٍ مشروعةٍ، مثل: الحبَّة السوداء «شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ»(١) ، ومِثل: زمزم «إِنَّهَا مُبَارَكَةٌ»(٢)، وتمْر العجوة يَمْنَعُ مِنَ السُّمِّ والسِّحْر(٣)، وعجوة عالية المدينة «إِنَّ فِي عَجْوَةِ العَالِيَةِ شِفَاءً - أَوْ إِنَّهَا تِرْيَاقٌ - أَوَّلَ البُكْرَةِ»(٤).

فهذه أدويةٌ جاء الشرع بها.

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الطب، باب الحبة السوداء، رقم (٥٦٨٨)، ومسلمٌ، كتاب السلام، باب التداوي بالحبة السوداء، رقم (٢٢١٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلمٌ، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب من فضائل أبي ذرٍ رضي اللَّه عنه، رقم (٢٤٧٣)، من حديث أبي ذرٍ رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاريُّ، كتاب الأطعمة، باب العجوة، رقم (٥٤٤٥)، ومسلمٌ، كتاب الاشربة، باب فضْل تمر المدينة، رقم (٢٠٤٧)، من حديث سعد بن أبي وقاصٍ رضي الله عنه، ولفظه: «مَنْ تَصَبَّحَ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعَ تَمَرَاتٍ عَجْوَةً، لَمْ يَضُرَّهُ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ سُمٌّ وَلاَ سِحْرٌ».

(٤) رواه مسلمٌ، كتاب الاشربة، باب فضْل تمر المدينة، رقم (٢٠٤٨)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

ولو كان هناك أدويةٌ مباحةٌ للشفاء من السحر والعين، مثل: الاغتسال بالسِّدر للمسحور، والاغتسال بالملح يطرد السِّحر، أوْ جُرِّب نفعه؛ فهو مباحٌ، ويَدخل في ذلك حُكم الأدوية.

والقِسم الثاني: **الرقية الممنوعة**، وتنقسم إلى قِسمين:

القِسم الأوَّل: ما كان فيها شركٌ؛ فهي - والعياذ باللَّه - شركٌ.

والقِسم الثاني: ما كانت بمحرَّم، مثل: التداوي بالخمر ونحو ذلك.

وقوله: (**وَالتَّمَائِمِ**) التمائم كما عرَّفها المصنِّف: (**شَيْءٌ يُعَلَّقُ عَلَى الأَوْلَادِ عَنِ العَيْنِ**)، وكذا يُعلَّق على غير الأولاد مِن الدوابِّ، أو كبار السِّنِّ، أو الشباب، أو على البيوت ونحو ذلك.

والفرْق بين الرقى والتمائم:

الرقى علاجٌ معنويٌّ، جمع رقية، والتمائم تُتَّخذ - في زعْمهم - علاجاً حسِّيّاً، وهي التي تُعَلَّق إمَّا في اليد، أو في المنكب، أو في الدابَّة، سواء من خيطٍ أو آياتٍ ونحو ذلك.

فالرقى بالكتاب والسُّنَّة والأدعية: معنويةٌ، وأمَّا التمائم فهي حسِّيَّةٌ.

والرقى مِنها ما هو مشروعٌ، ومنها غير مشروعٍ، وأمَّا التمائم فكلُّها ممنوعةٌ، والمنع ينقسم إلى أقسام:

القِسم الأوَّل: أن يَعتقد أن التميمة تَنفع أو تضر بذاتها؛ فهذا شركٌ أكبر.

القِسم الثاني: إذا كان يَعتقد أنها سببٌ في النفع، أو الضر؛ فهذا شركٌ أصغر.

وإذا كانت من القرآن؛ فالراجح أَنَّها لا تجوز أيضاً؛ فلم يَثبت عن الصحابة رضي الله عنهم أنهم رخَّصوا في تعليق التميمة مِن القرآن كما سيأتي.

والفرْق بين هذا الباب والباب السابق:

أنَّ هذا الباب في طلبِ زوال المرض بالرقية، أو التميمة؛ لأنَّ المصنِّف رحمه الله يرى أنَّ التميمة: (**شَيْءٌ يُعَلَّقُ عَلَى الأَوْلَادِ عَنِ العَيْن**).

وأمَّا الباب السابق فهو عامٌّ سواء كان قبل الضرِّ، أو بَعده؛ لذلك قال هناك: (**لِرَفْعِ البَلَاءِ أَوْ دَفْعِهِ**).

وأيضاً الباب السابق عامٌّ في التميمة وغير التميمة.

فلو وَضع شخصٌ - مثلاً - في جيبه قلماً ونحو ذلك؛ يعتقد فيه رفْع الضر؛ فهذا يَدخل في الباب السابق، وأمَّا هذا الباب فخاصٌّ بالتميمة وكذا الرقية.

والمصنِّف رحمه الله ذَكر حديث أبي بشيرٍ[(١)] رضي الله عنه؛ لبيان أنَّ التمائم التي تُعلَّق على الدواب وغيرها منهيٌّ عنها.

ثُم ذَكر حديث ابن مسعودٍ رضي الله عنه؛ لبيان أنَّ هذا النهي لكونه شركاً.

ثُم ذَكر حديث عبد اللَّه بن عُكيمٍ[(٢)] رضي الله عنه؛ لبيان أنَّ مَن تعلَّق بالرقية، أو التميمة؛ وكَلَه اللَّه عز وجل إلى ذلك، ولم تَنفعه.

لذا قال المصنِّف رحمه الله: (وَفِي الصَّحِيْحِ) أيْ: أنَّ الحديث صحيحٌ سنده، وهذا في البخاري ومسلِم[(٣)].

---

(١) قيل هو: أبو بشيرٍ قيس بن عبيد بن الحارث بن عمرو بن الجعد من بنى مازن بن النجار، توفي قيل: بعد الحرة، وقيل: سنة (٤٠هـ)، والأوَّل أصحّ. الاستيعاب لابن عبد البر (٤/ ١٦١١).

(٢) هو: أبو معبدٍ عبد اللَّه بن عكيمٍ الجهني، أَدرك النبي صلى اللَّه عليه وسلم ولم يره، توفي سنة (٨٨هـ). معرفة الصحابة لأبي نعيم (٣/ ١٧٤٠)، سير أعلام النبلاء للذهبي (٣/ ٥١٠).

(٣) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، بَابُ مَا قِيلَ فِي الجَرَسِ وَنَحْوِهِ فِي أَعْنَاقِ الإِبِلِ، رقم (٣٠٠٥)، ومسلم، كتاب اللّباس والزينة، بَابُ كَرَاهَةِ قِلَادَةِ

(فِي الصَّحِيحِ: عَنْ أَبِي بَشِيرٍ الأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه: «أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ) هذا يدلُّ على حرْص الصحابة رضي الله عنهم على رفقة النبي صلى الله عليه وسلم؛ محبةً له، وإقامةً للجهاد، وللانتفاع بعِلمه وهدْيه عليه الصلاة والسلام.

(فَأَرْسَلَ رَسُولاً) أي: أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم بَعث رسولاً في الجيش، وهو حِبُّ رسول اللَّه صلى الله عليه سلم زيد بن حارثة رضي الله عنه.

(أَلَّا يَبْقَيَنَّ فِي رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلَادَةٌ) وهي الشيء المستدير حول العنق، كانوا في الجاهلية يعلِّقون عليها تميمةً؛ يعتقدون أن لا يصيبهم بسببها شيءٌ.

(مِنْ وَتَرٍ) يعني: سواء كانت من الأوتار - الوتر: هو الخيط الذي يكون بين طرفي القوس ليُرمى به[١] -، مِثل: المطاط الآن، وكانت العرب إذا بَلي هذا الخيط يعلقونه ويتبركون به - والعياذ باللَّه -.

الْوَتَرِ فِي رَقَبَةِ الْبَعِيرِ، رقم (٢١١٥).

(١) لسان العرب لابن منظور (٥/ ٢٧٨).

(أَوْ قِلَادَةٌ)، وعند أبي داود[١]: «وَلَا قِلَادَةَ» ليس بشكٍ، وإنما جزْم.

سواء كانت من وَتَرٍ، أو ثوبٍ، أو غترةٍ، أو أيُّ قلادةٍ؛ فهي ممنوعةٌ، فمَن علَّقها فليقطعها سواء على العنق، أو غير العنق.

قال: (إِلَّا قُطِعَتْ)؛ لأنَّه لا يجوز تعليق التمائم على الدوابِّ، أو على غيرها، ويَجب التعلُّق باللَّه سبحانه وتعالى فهو النافع الضار وحْدَه.

وعلى المرء أنْ يَقرأ أوراد الصباح والمساء.

ثُم بعد ذلك قال: (وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «إِنَّ الرُّقَى) أي: التي ليست من الكِتاب ولا من السُّنَّة ولا من الأدعية المشروعة، أو الأدوية المباحة؛ فهي شِركٌ، مِثل: الرقية التي يقوم بها بعض السحرة يَزعمون أنَّها تشفي، بالاستعانة بالجِنِّ، والشياطين - والعياذ باللَّه -.

(وَالتَّمَائِمَ) جمْع تميمةٍ، والشرك منها ما كان مِن غير القرآن، وأمَّا بالقرآن فهو محرَّم ولا يصل للشرك.

---

(١) كتاب الجهاد، باب في تقليد الخيل بالأوتار، رقم (٢٥٥٢)، من حديث أبي بشيرٍ رضي الله عنه.

(وَالتِّوَلَةَ) نوعٌ من أنواع السحر يَصنعه بعض النساء؛ ليحبَّها زوْجها - والعياذ باللَّه -؛ وهذا من نواقض الإسلام؛ كما قال المصنِّف رحمه الله في نواقض الإسلام: «السَّابِعُ: السِّحْرُ، وَمِنْهُ: الصَّرْفُ وَالعَطْفُ»(١)، فالعطْف: هو الذي يُصنع من قِبل النساء؛ ليُحبَّها زوْجها في زعْمها.

قال: (شِرْكٌ) - والعياذ باللَّه -؛ فدلَّ على أن تعليق التمائم شركٌ باللَّه سبحانه وتعالى، فيجب الحذر منها ويجب التوكُّل على اللَّه وحْده والتعلُّق به؛ قال سبحانه: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ١٧]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠]،

قال: (رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ).

فلو قال لك شخصٌ: ما حُكم التمائم؟

تقول: شركٌ.

ولو قال: كيف تقول هذا شركٌ؟ وهو أمرٌ عظيمٌ؟

---

(١) متون طالب العلم، المستوى الأوَّل، نواقض الإسلام (ص٢٧).

تقول له: هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم: (**إِنَّ الرُّقَى، وَالتَّمَائِمَ، وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ**)، ولم يَثبت عن أحدٍ من السلف تجويز تعليق التمائم من القرآن، فجميع التمائم محرَّمةٌ.

وأكثر التمائم الآن شركِيَّاتٌ، من أسماء الجِنِّ، أو الملائكة، أو أسماء وهميةٍ.

ثُمَّ بعد ذلك قال: (**وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُكَيْمٍ رضي الله عنه مَرْفُوعاً: مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئاً**) هذا نكرةٌ في سياق الشرط يدلُّ على العموم؛ أي: تعلَّق أيَّ شيءٍ، سواء كان التعليق من خيطٍ، أو من نحاسٍ.

قال: (**وُكِلَ إِلَيْهِ**) يعني: أن اللَّه سبحانه وتعالى يَتخلَّى عنه، ويُوكَل الشخص لذلك الخيط، أو الحِلَق، أو التميمة، وهي لا تَملك له نفعاً ولا ضراً؛ أي: أن المعلِّق لها هالكٌ؛ لأنَّه تعلَّق بسَرَابٍ، وأمَّا اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠].

أمَّا الجمادات، والتعلُّق بالشياطين - والعياذ باللَّه -، والتعلُّق بالسحرة؛ فلن ينفعوك؛ قال سبحانه: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾

[طه: ٦٩]، والذي ينفع هو الدعاء، والتوكل على اللَّه؛ قال جل وعلا: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً﴾ [الطلاق: ٤].

فإنْ قال شخصٌ: حكمتَ أنَّ التميمة شركٌ، فما أضرار التميمة؟

نقول: أَوْجَزَها النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث، وهي:

تُوكَل إلى هذه التميمة.

ويصيبك سِحرٌ، أو ما أردتَ دفْعه؛ فمنْ وُكِلَ إلى غير اللَّه خاب وخسر.

قال رحمه الله: (التَّمَائِمُ: شَيْءٌ يُعَلَّقُ عَلَى الأَوْلَادِ عَنِ العَيْنِ).

لمَّا ذَكر رحمه الله حديث (إِنَّ الرُّقَى، وَالتَّمَائِمَ، وَالتِّوَلَةَ؛ شِرْكٌ)؛ بدأ يبيِّن معنى ذلك.

قال: (التَّمَائِمُ: شَيْءٌ) يعني: أيُّ شيءٍ يُعلَّق سواء من الخيط، أو من الخرزات، أو من فصوص الفضة كاللَّون الأزرق ونحو ذلك.

(عَنِ العَيْنِ) أي: عن العين؛ لئلَّا تصيبه، وكذا لو عُلِّق على غير الأولاد من الدواب، أو السيارات، أو على الكبار؛ يَأخذ نفس الحُكم.

وأيضاً سواء عُلِّق عن العين، أو عن المرض، أو عن شر الجِنِّ ونحو ذلك.

فإذا كانت من غير القرآن؛ فهي باتفاق أهل العِلم شركٌ؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «مَنْ عَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ»(١).

وإذا كانت من القرآن، فقال رحمه الله: (لَكِنْ إِذَا كَانَ مِنَ الْقُرْآنِ: فَرَخَّصَ فِيهِ بَعْضُهُمْ) أي: السَّلف، ولم يَثبت عن أحدٍ منهم ذلك، (فَرَخَّصَ فِيهِ بَعْضُهُمْ)، وإنَّما وَرد عن بعضهم جواز التعليق من القرآن؛ لكن لم يَثبت.

(وَبَعْضُهُمْ لَمْ يُرَخِّصْ فِيهِ) أي: في تعليق القرآن؛ لدفْع العين ونحو ذلك، (وَيَجْعَلُهُ مِنَ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ)، وسيأتي في آخر الباب أنَّ المصنِّف رحمه الله يَرى أن التمائم كلها محرَّمةٌ سواء من القرآن أو من غير القرآن.

من غير القرآن: شركٌ.

ومن القرآن: لا تجوز.

---

(١) رواه أحمد في المسند، رقم (١٧٤٢٢)، من حديث عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه.

لأن تعليق القرآن وسيلةٌ إلى الشرك.

ولأن فيه امتهاناً للقرآن.

ولأنه لم يَرد عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولا عن صحابته فعْل ذلك.

ولأنه ينافي التوكُّل على اللَّه عز وجل.

ثُم بعد ذلك عَرَّف الرُّقى فقال: (هِيَ الَّتِي تُسَمَّى العَزَائِمَ)، ويسميها أهل نجْد: العزيمة، شخصٌ يَذهب إلى شخصٍ، ويَكتب له في صحنٍ، يُغسَل به، أو يُشرب منه، أو في ورقٍ ويغسله ويشرب ماءه، فهذه هي العزيمة.

وسَبق في أنواع الرقى أنَّ الشركية محرَّمة[١].

ورخَّص النبي صلى الله عليه وسلم في العين والحُمَة، وسَبق في حديث بريدة بن حُصَيب[٢]، لا رقية أنفع من رقية الملدوغ بالعقرب، والمصاب بالعين، من القرآن.

---

(١) (ص) عند قوله (والقِسم الثاني: الرقية الممنوعة).

(٢) (ص) عند قوله (قُلْتُ: حَدَّثَنَا عَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ حُصَيْبٍ أَنَّهُ قَالَ).

والرُّقى تنقسم إلى أقسامٍ:

القِسم الأوَّل: أن تكون بالنفث مباشرةً على المريض.

القِسم الثاني: تكون بالقراءة في الماء؛ ويَشرب ذلك الماء، أو يُكتب القرآن على ورقٍ، أو في صحونٍ، ثم يُوضع عليه ماءٌ ويُشرب ذلك الماء.

فقد ثبت عن بعض السَّلف كتابة القرآن، ثم يُخلط بالماء ويُشرب(١).

(١) ذَكر شيخ الإسلام عن الإمام أحمد رحمه اللَّه فعْل ذلك. مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٩/ ٦٤)، وكذا ذَكر ابن القيِّم فعْل ذلك عن ابن عباسٍ وأبي قلابة رضي اللَّه عنهما. الطبّ النبويّ لابن القيّم (١/ ١٢٦).

والنفث مشروعٌ قبل أن يَحِلَّ المرض، مثل: ما فَعله النبي صلى الله عليه وسلم قبْل النوم كَان يَنفُثُ وَيَمْسَحُ بِجَسَدِه[١]، وكان أيضاً يَنفُثُ عَلى الحَسَنِ وَالحُسَيْنِ يُعوِّذهُمَا[٢].

ويكون النفث أيضاً إذا نَزل به المرض.

والرقى منها ما هو مشروعٌ، ومنها ما ليس بمشروعٍ:

(١) رواه البخاريُّ، كتاب فضائل القرآن، باب فضْل المعوذات، رقم (٥٠١٧)، من حديث عائشة رضي اللَّه عنه، ولفظه: «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ، ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا فَقَرَأَ فِيهِمَا: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ، ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ، يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ».

(٢) رواه البخاريُّ، كتاب أحاديث الأنبياء، باب، رقم (٣٣٧١)، من حديث ابن عباسٍ رضي اللَّه عنهما، ولفظه: « كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعَوِّذُ الحَسَنَ وَالحُسَيْنَ، وَيَقُولُ: «إِنَّ أَبَاكُمَا كَانَ يُعَوِّذُ بِهَا إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ، مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لاَمَّةٍ».

فالمشروع ما كان بالقرآن، وبما جاءت به السُّنَّة، مِثل: التداوي بالحبة السوداء، وبتمر العجوة، وبزمزم، وبالعسل(١) وكذا جاء به القرآن - أي: العسل -(٢).

ومِنه مالم يأتِ به الشرع؛ لكن دلَّت عليه الخبرة، مثل: شُرب دواءٍ لمرضٍ؛ فهذا مشروعٌ؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «فَتَدَاوَوْا وَلَا تَدَاوَوْا بِحَرَامٍ»(٣).

القِسم الثالث: إذا كان التداوي بمحرَّمٍ، مثل: الطلاسم - والعياذ باللَّه -، أو بسحْرٍ، أو بمشروبٍ أو مأكولٍ محرَّمٍ - كالخنزير، أو الخمر -.

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الطب، باب الشفاء في ثلاثٍ، رقم (٥٦٨١)، من حديث ابن عباسٍ رضي الله عنهما.

(٢) قال تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩].

(٣) رواه أبو داود، كتاب الطب، باب في الأدوية المكروهة، رقم (٣٨٧٤)، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

لذلك قال المصنِّف رحمه الله: (وَالرُّقَى: هِي الَّتِي تُسَمَّى العَزَائِمَ، وَخَصَّ مِنْهُ الدَّلِيلُ) أي: والدليل أتى بأشياءَ مباحةٍ، وهو: (مَا خَلَا مِنَ الشِّرْكِ)، على ما سبق التفصيل في ذلك.

لذلك قال: (فَقَدْ رَخَّصَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم) أي: بالرقية بالقرآن.

(مِنَ العَيْنِ وَالحُمَةِ) أي: لدغة العقرب.

وقوله: (مِنَ العَيْن) أي: هذا يَشمل الأمراض المعنويَّة، مثل: التداوي من المسِّ، أو من السحْر، أو من ضيق الصدر ونحو ذلك.

وقوله: (وَالحُمَةِ) يَشمل الأمراض الحسيَّة مثل: الزكام، أو الوجع في السن ونحو ذلك؛ يُشرع فيه أيضاً الرقية بالقرآن، أو بالأدوية، أو بالأدعية، أو بِما جاء من الأحاديث.

ثُم قال: (والتِّوَلَةُ: شَيْءٌ) يعني: من أنواع السحْر - والعياذ باللَّه -، (يَصْنَعُونَهُ) السحرة؛ (يَزْعُمُونَ أَنَّهُ يُحَبِّبُ المَرْأَةَ إِلَى زَوْجِهَا، وَالرَّجُلَ إِلَى امْرَأَتِهِ) ويُسمَّى أحياناً: المشروب، تصنعه المرأة أحياناً تُشرِبه زوجها؛ ليحبَّها؛ وهذا سحْرٌ، مَن فعَله يَخرج من الدين.

ويُسمَّى أيضاً: السِّقَا، وهو الذي يُسمَّى: سحْر العطف، والناقض السابع من نواقض الإسلام: السحر، ومِنه الصرف والعطف، يَعطِف قلب المرأة للرجُل، ويعطف قلب الرجُل للمرأة.

وكما سيأتي إن شاء اللَّه: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تُطُيِّرَ لَهُ، أَوْ تَكَهَّنَ أَوْ تُكُهِّنَ لَهُ، أَوْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ»(١)، وقول النبيِّ صلى الله عليه وسلم سيأتي: «وَمَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ»(٢).

ولمَّا بيَّن معاني الكلمات الواردة في الحديث السابق قال: (**وَرَوَى الإِمَامُ أَحْمَدُ: عَنْ رُوَيْفِعٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «يَا رُوَيْفِعُ! لَعَلَّ الحَيَاةَ سَتَطُولُ بِكَ؛ فَأَخْبِرِ النَّاسَ أَنَّ مَنْ عَقَدَ لِحْيَتَهُ، أَوْ تَقَلَّدَ وَتَراً، أَوْ اسْتَنْجَى بِرَجِيعِ دَابَّةٍ أَوْ عَظْمٍ؛ فَإِنَّ مُحَمَّداً بَرِيءٌ مِنْهُ»**).

ساق المصنِّف رحمه الله هذا الحديث؛ لبيان أنَّ مَن تعلَّق تميمةً فالنبي صلى الله عليه وسلم بريءٌ منه.

---

(١) رواه البزار، رقم (٣٥٧٨)، من حديث عمران بن حصينٍ رضي الله عنهما.

(٢) رواه النسائي، كتاب تحريم الدم، باب حُكم السحرة، رقم (٤٠٧٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وهذا الوعيد يجري على ظاهره ولا يُفسَّر؛ ليكون أبلغَ وأردع.

قال: (لَعَلَّ الحَيَاةَ سَتَطُولُ بِكَ) وطالت الحياة به رضي الله عنه حتى سنة ستٍّ وخمسين (٥٦)، فأَخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن أمرٍ مغيَّبٍ ووقَع، فقد توفي في السنة السادسة والخمسين (٥٦) من الهجرة.

(فَأَخْبِرِ النَّاسَ) يدلُّ على أنَّ أمور العقيدة يُخبَر بها عموم الناس سواء كان جاهلاً، أو عالِماً.

(أَنَّ مَنْ عَقَدَ لِحْيَتَهُ) جدِيلَة يَجدلها مثل النساء، تُسمَّى: العَمِيلَة، وكانوا يعقدونها سواء في الحرب أو غير الحرب، ومِثل ما يفعل بعض اليهود من عقد اللَّحية.

فتْل اللَّحية يعني: جعْل عميلةٍ للِّحْية مِثل عميلة الرأس، وهذا يَفعله الآن بعض اليهود يضعون الفَتْل من قرابة الأُذن فتجد لهم شعراً طويلاً متدلِّياً من اللَّحية معقوداً.

وجاء النهي عن هذا؛ لعدم مشابهة اليهود، فمنْ فعَل ذلك؛ فصاحبه متوعَّد بأن النبي صلى الله عليه وسلم بريءٌ منه.

قال: (أَوْ تَقَلَّدَ وَتَراً) هذا هو الشاهد، (تَقَلَّدَ وَتَراً) أي: من علَّق تميمةً من وترٍ، وهو الخيط الذي يكون بين طرفي القوس.

(أَوْ اسْتَنْجَى بِرَجِيعِ دَابَّةٍ) رَجيع الدابة: فضلات الدابة؛ لأنه طعام الجِنِّ، وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنها لا تُطَهِّر(١)، وجاء في الحديث الآخر أنَّ العظم يكون لحماً للجِنِّ، وأن الروْث يكون طعاماً لبهائم الجِنِّ(٢).

---

(١) رواه الدارقطني، كتاب الطهارة، باب الاستنجاء، رقم (١٥٢)، من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه، ولفظه: «إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى أَنْ يُسْتَنْجَى بِرَوْثٍ أَوْ عَظْمٍ، وَقَالَ: إِنَّهُمَا لَا تُطَهِّرَانِ».

(٢) رواه مسلمٌ، كتاب الصلاة، باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجِنّ، رقم (٤٥٠)، من حديث ابن مسعودٍ رضي اللَّه عنه، ولفظه: «أَتَانِي دَاعِي الْجِنِّ فَذَهَبْتُ مَعَهُ فَقَرَأْتُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ» قَالَ: فَانْطَلَقَ بِنَا فَأَرَانَا آثَارَهُمْ وَآثَارَ نِيرَانِهِمْ وَسَأَلُوهُ الزَّادَ فَقَالَ: «لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْماً وَكُلُّ بَعْرَةٍ عَلَفٌ لِدَوَابِّكُمْ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَلَا تَسْتَنْجُوا بِهِمَا فَإِنَّهُمَا طَعَامُ إِخْوَانِكُمْ».

(أَوْ عَظْمٍ) وكذا العَظْم، فلا يجوز الاستنجاء بالعظم؛ لأنه بإذن اللَّه يَنقلب إلى لحمٍ يَطعمه الجِنُّ، «لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ»(١)؛ يعني: يَنقلب لحماً بإذن اللَّه.

فلا تؤذِ إخوانك الجِنَّ بغسْل فضلاتك بطعامهم، فالمراد هنا عظْم البهائم، ومن باب أَولى لو كان عظم بني آدم؛ فهذا يحرُم.

ثُمَّ بعد ذلك قال: (وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ) رحمه الله، (قَالَ: مَنْ قَطَعَ تَمِيمَةً مِنْ إِنْسَانٍ) يعني: أزال هذا المنكر.

(كَانَ كَعِدْلِ رَقَبَةٍ) يعني: كان ثوابه كثواب مَن أَعتق رجُلاً من النَّار، بأن أَدخله في دين الإسلام، فدلَّ على أَنَّها شركٌ.

وساق المصنف هذا الأثر؛ لبيان ثواب مَن قطَع تميمةً، وهذا مشروطٌ ألَّا يَترتب عليه مفسدة أكبر من ذلك.

ويدلُّ على فضْل إنكار ذلك المنكَر.

ولمَّا ذَكر التفصيل في التمائم؛ ذَكر رحمه الله الدليل على أنَّ جميع التمائم التي تُعلَّق من القرآن وغير القرآن محرَّمة، فقال: (وَلَهُ: عَنْ

(١) سبق تخريجه (ص). عند قوله: (الآخر أنَّ العظم يكون لحماً للجِنِّ).

(إِبْرَاهِيمَ) أي: النخعي، (كَانُوا يَكْرَهُونَ) الكراهة هنا: كراهة التحريم؛ كما قال عز وجل: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً﴾ [الإسراء: ٣٨]، وأوَّل المكروهات المذكورة في الآيات: الشرك باللَّه(١).

فإنْ أطلِقَت الكراهة في مثل هذا؛ يُقصَد بها كراهة التحريم.

فكأنَّ المصنِّف يقول لك: ذكرتُ لك الخلاف في تعليق التميمة من القرآن، لكنَّ الصحيح أنَّه لا يجوز تعليق التميمة حتى من القرآن؛ لأنَّه لم يَردْ عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن الصحابة، وفيه امتهانٌ للقرآن.

(كَانُوا يَكْرَهُونَ) أي: يرون تحريم (التَّمَائِمَ كُلَّهَا مِنَ الْقُرْآنِ وَغَيْرِ الْقُرْآنِ)، وهذا هو القول الراجح لما سبق.

***

(١) أي: قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ﴾ [الإسراء: ٢٢]

[٩]

بَابُ

مَنْ تَبَرَّكَ بِشَجَرَةٍ أَوْ حَجَرٍ وَنَحْوِهِمَا

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالعُزَّى﴾ الآيَاتِ.

عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ رضي الله عنه قَالَ: «خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم إِلَى حُنَيْنٍ، وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ، وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا وَيَنُوطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ، يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ أَنْوَاطٍ.

فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: اللَّهُ أَكْبَرُ! إِنَّهَا السُّنَنُ، قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ.

الشرح:

قال رحمه الله: (بَاب مَنْ تَبَرَّكَ بِشَجَرَةٍ أَوْ حَجَرٍ وَنَحْوِهِمَا).

قوله: (بَابُ مَنْ) (مَنْ) هذه: إمَّا أن تكون شَرطيَّةً؛ أي: بابُ بيانِ حُكم مَن تبرَّك بشجرٍ وحَجرٍ ونحوهما بأنَّه مشْركٌ.

ويصحُّ أن تكون موصولةً؛ أي: بيانُ حُكم الذي يَتبرك بشجرةٍ أو حَجرٍ ونحوهما.

وقوله: (تَبَرَّكَ) التبرك: هو طلبُ البركة، ورجاؤها - أي: رجاء أن تناله البركة -، واعتقادها - أي: يعتقد في ذلك المُتَبَرَّك به أنه يجلب له البرَكة -.

والمراد بالتبرُّك: جلْب النفع، أو دفْع الضر.

والبرَكة تنقسم إلى قِسمين:

إمَّا مِن اللَّه.

وإمَّا برَكة بالمخلوقين.

واللَّه هو المبارَك؛ قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾ [الفرقان: ١]، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ المُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١]، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً﴾ [الفرقان: ١٠]؛ يعني: تعاظَم وبَلغ النهاية في البرَكة، فأسماؤه وصفاته وأفعاله مبارَكةٌ.

وكلامه جل وعلا - وهو من صفاته -؛ مبارَكٌ؛ قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾ [ص: ٢٩]، والبرَكة من اللَّه؛ قال صلى الله عليه وسلم: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»(١).

وكلمة (تبارك) لا تُطلَق سوى على اللَّه؛ للآيات الثلاث السابقة، ولم تردْ كلمة (تبارك) إلَّا في حقِّ اللَّه.

وكلمة بعض الناس: (كلُّك بركةٌ)؛ خطأٌ، فالإنسان فيه شرٌّ، كما في الحديث: «وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي»(٢).

وكذا: (يُفتح هذا من بركاتك)؛ لا يصح.

وكذا قول: (تباركت علينا بالزيارة)؛ لا يجوز.

والبرَكة في المخلوقين قِسمان:

القسم الأوَّل: من البشر.

القسم الثاني: مِن غير البشر.

فالتي من البشر تنقسم إلى قِسمين:

---

(١) رواه مسلمٌ، كتاب صلاة المسافرين وقصْرها، باب الدعاء في صلاة اللَّيل وقيامه، رقم (٧٧١)، من حديث عليٍّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه.

(٢) رواه أحمد في المسند، رقم (٥١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

القِسم الأوَّل: مِن الأنبياء.

القسم الثاني: من غير الأنبياء.

فالقِسم الأوَّل الذي في الأنبياء بشرط: أنْ يكون في حياتهم.

مِثل: لمَّا تسابق الصحابةُ إلى شَعْر النبي صلى الله عليه وسلم[(١)]، وكما كانت تفعل أم سُلَيم؛ فكانت تضع عرَق النبي صلى الله عليه وسلم فِي طيبٍ لها[(٢)].

وأمَّا بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم؛ لا يجوز التبرُّك به؛ وإنَّما البرَكة بعد وفاته؛ باتباع سنَّته.

وأمَّا القِسم الثاني الذي هو غير الأنبياء؛ لا يجوز التبرُّك بذواتهم، كالعلماء والعبَّاد والصالحين.

---

(١) رواه مسلمٌ، كتاب الحج، باب بيان أنَّ السُّنَّة يوم النحر أن يرمي، ثُم ينحر، ثُم يحلق والابتداء في الحلق بالجانب الأيمن من رأس المحلوق، رقم (١٣٠٥)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب طيب عرق النبي صلى اللَّه عليه وسلم والتبرك به، رقم (٢٣٣١)، من حديث أنس رضي الله عنه.

وإنَّما تكون البرَكة بالجلوس معهم؛ كما قال صلى الله عليه وسلم: «هُمُ القَوْمُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ»(١)، فمجالستهم برَكةٌ.

وأمَّا القسم الثاني مِن التبرُّك بالمخلوقين، وهم غير البشر؛ فينقسم إلى أقسامٍ:

القِسم الأوَّل: برَكةٌ في الأماكن، مِثل: البيت الحرام، وبلاد الشام، ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: ١]، ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٢٧].

القِسم الثاني: بركةٌ في الأزمنة، مِثل: شهر رمضان مبارَكٌ.

القِسم الثالث: بركةٌ في الأطعمة، مثل: الحبة السوداء، ومثل العجوة.

القِسم الرابع: بركةٌ في الأشربة، مثل ماء زمزمٍ «إِنَّهَا مُبَارَكَةٌ»(٢).

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الدعوات، باب فضل ذكر اللَّه عز وجل، رقم (٦٤٠٨)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل مجالس الذكر، رقم (٢٦٨٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سَبق تخريجه (ص)، عند قوله: (ومِثل: زمزم «إِنَّهَا مُبَارَكَةٌ»).

فالتبرُّك المقصود في هذا الباب: هو التبرُّك بالجمادات؛ كما ساقها المصنِّف رحمه الله، مِثل: الشجر والحَجر والأصنام والأتربة ونحو ذلك؛ فإنَّه لا يجوز طلبُ البركة منها، ولا العكوف عليها.

ووسائل التعظيم ثلاثةٌ: التبرُّك والعكوف والتعظيم.

أوَّلاً: ترجو من الشيء البركة، كالشجر ونحوه.

ثانياً: تعظِّمه في نفسك، وتراه شيئاً عظيماً.

ثالثاً: تَمكث عنده وترجو منه البرَكة.

فمَن أتى إلى شجرةٍ يَتمسَّح بها، ويرجو نفعها وخيرها؛ فهذا نوعٌ من الشرك الأكبر، والتبرك بها غير مأذونٍ فيه.

وبيان ذلك: لو أنَّ رجُلاً جَلس عند ضريحٍ، أو قبرٍ، أو عند منبرٍ، أو محرابٍ؛ جَلس عنده يَطلب منه النفع أو الضر حتى لو من غير دعاء.

فإذا كان يَعتقد أنَّ هذا الذي أمامه فيه البرَكة؛ فهو- والعياذ باللَّه - شركٌ أكبر.

والعكوف، والتعظيم، والتبرُّك - هذه الثلاثة والعياذ باللَّه -: هي أصلٌ في الشرك.

وأمَّا التمسُّح بأستار الكعبة – مثلاً –، أو بأبواب المسجد الحرام، أو النبوي، أو غيرهما، أو بالأعمدة، أو بالمنبر، أو التمسح بالصالحين، والعلماء، من باب المحبة أو التعظيم لا لطلب البركة، أو اعتقاد البرَكة؛ فهو محرَّمٌ ووسيلةٌ إلى الشرك – والعياذ باللَّه –.

وما جاء الشرع بالبركة فيه؛ مِثل ماء زمزم؛ كما قال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّهَا مُبَارَكَةٌ»[1] فيشربه الإنسان ولا يعتقد أنَّ البرَكة منه؛ وإنَّما اللَّه عز وجل جَعل فيه سبباً من أسباب البرَكة.

وبعض الناس يَخلط بيْن التمسُّح بالصالحين والأبواب، وبيْن اعتقاد البرَكة؛ فاعتقاد البرَكة ليس فيه شركٌ أصغر؛ بل اعتقاد التبرك شركٌ أكبر – والعياذ باللَّه –، أمَّا التمسُّح سَبق حُكمه.

وأمَّا تقبيل الحَجر الأسود فليس من باب طلبِ البرَكة؛ وإنَّما من باب التعبُّد فقط، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في صحيح البخاريِّ[2]: «إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ، لَا تَضُرُّ وَلاَ تَنْفَعُ» يعني: لا يُتبرَّك

---

(١) سَبق تخريجه (ص)، عند قوله: (ومِثل: زمزم «إِنَّهَا مُبَارَكَةٌ»).

(٢) كتاب الحج، باب ما ذُكر في الحجر الأسود، رقم (١٥٩٧)، ورواه مسلمٌ، كتاب الحج، باب استحباب تقبيل الحجر الأسود في الطواف، رقم (١٢٧٠).

بك، «وَلَوْلاَ أَنِّي رَأَيْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يُقَبِّلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ»، وإنما نُقبِّل تعبُّداً.

فإذا قيل: هل في الإسلام شيءٌ يجوز أن نَتبرَّك به؟

نقول: لا؛ لأن التبرُّك، وطلب البركة من غير اللَّه شركٌ أكبر - والعياذ باللَّه -.

وقوله: (بِشَجَرَةٍ) أي: أنَّ التبرُّك بشجرة - أيّاً كان نوعها -؛ لذلك أَمَر عمر رضي الله عنه بقطع الشجرة التي بايع الصحابة رضي الله عنهم تحتها النبي صلى الله عليه وسلم في بيعة الرضوان؛ كما قال سبحانه: ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]؛ لعِلمه أنَّ ذلك شركٌ أكبر - والعياذ باللَّه -.

(أَوْ حَجَرٍ) أي: حتى لو تَبرَّك بحجرٍ فإنه شركٌ أكبر - والعياذ باللَّه -.

(وَنَحْوِهِمَا) أي: نحو الشجر والحَجر.

مِثل: لو اعتَقد أنَّ الكعبة تَنفع، أو تَضرُّ، فيتبرك بها بالجلوس عندها؛ هذا شركٌ أكبر - والعياذ باللَّه -.

وكذلك لو اعتقد أنَّ مكان صلاة النبي صلى الله عليه وسلم يُتبرَّك به - أي: يَنفع، أو يَضرُّ -؛ هذا شركٌ أكبر - والعياذ باللَّه -.

والفرْق بين التبرُّك، وبين دعاء الشرك:

أنَّ التبرُّك لا يَحتاج إلى تلفُّظٍ بالقول، فمجرَّد اعتقاد القلب أنَّ هذا العمود ينفع أو يضرُّ برَكةً فيه؛ فهو شركٌ أكبر.

أمَّا الدعاء في الشرك؛ فهو يتلفظ يقول: يا فلان – الميَّت - أزلْ عني المرض ونحو ذلك.

والمصنِّف رحمه الله ساق في هذا الباب آيةً وحديثاً.

فالآية الأُولى - (﴿**أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى**﴾) -؛ لبيان أنَّ التبرُّك بالأحجار شركٌ أكبر.

والنَّصُّ الثاني - حديث أبي واقدٍ - ساقه؛ لبيان أنَّ التبرك بطلب النفع أو الضر من الأشجار شركٌ أكبر.

فقال عن الآية الأولى: (﴿**أَفَرَأَيْتُمُ**﴾) استفهام إنكار؛ يعني: هل تَفكرتم فيها لا تَنفع ولا تضرُّ.

(﴿اللَّاتَ وَالعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾) المشرِكون لهم عدَّة أصنامٍ حول الكعبة، ثلاث مئة وستون صنماً، فبعضهم كان يَتخذ صنماً له، وله أيضاً مع غيره أو مع قبيلته صنمٌ آخر أكبر منه.

واللَّه عز وجل ذَكر في هذه الآيات ثلاثة أصنامٍ، هي من أكبر أصنام العرب:

الصنم الأوَّل: (اللَّاتَ): اللَّات في الطائف، وهي لرجُلٍ كان يلُتُّ السويق للحُجَّاج.

الصنم الثاني: (وَالعُزَّى): شجرةٌ بين مكة وبين الطائف.

الصنم الثالث: (وَمَنَاةَ): عند قديد، بين مكة والمدينة.

﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى * تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ [النجم: ٢٠-٢١]، فعلتُم هذه الأمور، وجعلتُم في زعْمكم أنَّ للَّه الملائكة وهم الإناث، ولكم الذكور.

أي: أنَّها لا تَملك لكم ضراً ولا نفعاً فلا تتبرَّكون بها.

لذلك قال أبو سفيان قبل أن يُسْلِم: «لنا العزى ولا عزى لكم»[١].

---

(١) ذُكر في حديثٍ رواه البخاريُّ، كتاب الجهاد والسير، باب ما يُكره من التنازع

فدلَّ على أنَّ طلب البّركة من الحجارة باعتقاد نفعها، أو دفع ضرر عن الناس بالعكوف عندها والجلوس؛ - والعياذ باللَّه - شركٌ أكبر.

فالشاهد من الآية: أنَّ المشْرِكين تبرَّكوا بالشجر - العزَّى -، وتبرَّكوا بأحجارٍ وهي الأصنام؛ فوَقعوا في الشرك.

ودلَّ على أنَّ مَنْ تبرَّك بالشجر ونحوه، فهو شركٌ أكبر - والعياذ باللَّه -.

ثُم ذَكر الحديث فقال: (عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم) أي: بعد فتْح مكة، وكانوا أكثر من ألْف رجُلٍ بعد فتْح مكة.

قال: (إِلَى حُنَيْنٍ) وحنينٌ: شرْق مكة، والآن تُسمَّى الشرائع؛ وادٍ في الطريق إلى الطائف.

(وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ) يعني: عهْدنا قريبٌ بالكُفر وأَسلمنا حديثاً؛ أي: فلمَّا خرجْنا مع النبي صلى الله عليه وسلم سِرنا.

والاختلاف في الحرب، وعقوبة من عَصى إمامه، رقم (٣٠٣٩)، من حديث البراء بن عازبٍ رضي اللَّه عنه.

(وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ يَعْكِفُونَ عِنْدَهَا) العكوف: هو المكث(١)؛ يعني: يَجلسون عندها كمَا يَفعله بعض عبَّاد القبور أياماً معينةً في السَّنَة يَذهبون عند الضريح ويَجلسون عنده، فإذا لم يَذهب إليه يَخشى أن يضره في شيءٍ؛ لأنَّ البرَكة فيه - والعياذ باللَّه -.

فإذا قيل: ما هو الدليل على أنَّ العكوف عبادةٌ حتى تَجعلونه شركاً؟

فالدليل: ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، فالعكوف في المسجد، واللَّبث فيه، والمكوث فيه عبادةٌ؛ فدلَّ على أنَّ اللَّبث عند الأصنام والأحجار والأشجار عبادةٌ، وإذا كان عبادة فهو شركٌ.

(وَيَنُوطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ) أي: يُعلِّقون عليها أسلحتهم؛ طلباً لبرَكة تلك الشجرة بأنَّ سلاحهم يصيب، ويكون قويّاً ونحو ذلك.

(يُقَالَ لَهَا: ذَاتُ أَنْوَاطٍ) يعني: اسمها ذات أنواطٍ؛ لكثرة أغصانها، وفروعها.

---

(١) الصحاح للجوهري (٤/ ١٤٠٦)، تاج العروس للزبيدي (٢٤/ ١٧٩).

قال: (فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ) السدرة: نباتٌ معروفٌ لا زال اسمه السدر، شجر السدر.

(فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ) طَلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم ذلك؛ في ظنِّهم أنَّ الجلوس عند الشجرة تعظيماً لها ممَّا يحبُّه اللَّه.

(كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ) لمَّا رأى الصحابة ذلك – مَن هم حدثاء عهد بالإسلام – قالوا: يا رسول اللَّه اجعل لنا، وشرِّع لنا شجرةً؛ نتبرَّك بها كما يَفعل المشركون.

(فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: اللَّهُ أَكْبَرُ!) أي: اللَّه أعظم، وأعزُّ مِن أن يُتَّخذ شريك معه.

فدلَّ على أنَّ طلبَ البركة من الأشجار ونحوها؛ شركُ أكبر – والعياذ باللَّه –.

قال المؤلِّف رحمه الله: «لمَّا طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم ذلك؛ وَقعوا في الشرك الأصغر؛ لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: (اللَّهُ أَكْبَرُ!)؛ منزِّهاً اللَّه عن ذلك.

قال: ولو فَعلوا - أي: التبرك وجَلسوا - وَقعوا في الشرك الأكبر، لكن لمَّا نهاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن قولهم ذلك؛ رَجعوا عنه»[١].

وتكبير النبي صلى الله عليه وسلم استعظامٌ؛ لأنهم طَلبوا أمراً عظيماً، وهو أمر شركي.

(إِنَّهَا السُّنَنُ) السنَن أي: الطرق[٢]، بضم السين: سُنن؛ أي: طُرُق، وبالفتح: سَنن: طريقٌ واحدٌ[٣].

أي: هذه طرق المشركين - والعياذ باللَّه - من بني اسرائيل، ومَن قبلهم، أو بعدهم؛ طلب التبرك بالجمادات.

(قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ) يعني: واللَّه الذي يستطيع نزْع الروح.

أي: حلَف النبي صلى الله عليه وسلم؛ إنكاراً لذلك الشرك.

(كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى) بنو إسرائيل: هم أولاد يعقوب عليه السلام.

---

(١) متون طالب العلم، كشْف الشبهات (ص٧٣).

(٢) الصحاح للجوهري (٥/ ٢١٣٨).

(٣) فتح المجيد (ص١٤٠).

دلَّ على أنَّ المشْرِكين وإنْ تنوَّعت أمكنتهم وأزمنتهم؛ فإنَّ شرْكهم لا يَختلف؛ فبيْن موسى عليه السلام وبيْن زمن النبي صلى الله عليه وسلم زمناً متطاولاً؛ لكنَّ طريقة الشرك واحدةٌ في التعلُّق بالشرك.

والشيطان يَسعى بكل طريقٍ؛ ليقع العبد في الشرك.

(﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾) أي: أنَّ مَن كان قبْلكم طَلبوا شيئاً يَعكفون عنده ويَجلسون؛ طلباً لبرَكته.

فلمَّا أنقذ اللَّه عز وجل موسى ومَن معه، وأغرق فرعون؛ ما شَكروا النعمة التي وقعت لهم بإنجائهم من الغرق؛ بل قالوا لموسى: (﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً﴾).

(﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾) فدلَّ على أن المشْرِك جاهلٌ، ولو حاز من العلوم ما حاز؛ لأنَّ مَن لم يَعرف التوحيد فهو جاهلٌ.

(لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ) أي: لتتبعنَّ طُرقهم - والعياذ باللَّه - إلَّا من عصَمه اللَّه عز وجل من أفعالهم المشينة.

فدلَّ على أنَّ التبرك بالأشجار والأحجار شركٌ.

وأمَّا المكث في منىً وعرفة فليس لطلب البركة من تلك الأماكن، وإنما يقفون هناك؛ ليؤدوا عبادةً أمرهم اللَّه عز وجل بها يوحِّدوه فيها.

ولمَّا طَلَبَ أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أنْ يَجعل لهم السِّدرة؛ استَشكل ذلك على بعض الناس، فقالوا: هل هذا شركٌ أم لا؟

وذَكر الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في كَشْف الشبهات، في الشبهة التاسعة؛ قال: «طَلبوا، فلمَّا طَلبوا وقَعوا في الشرك الأصغر، ولو أَنَّهم استمروا؛ لوَقعوا في الشرك الأكبر»(١).

فلو قال شخصٌ: طلبُ الشرك يكفُر به أم لا؟

فالشيخ محمد بن عبد الوهاب قال: فمَن وَقع في الشرك، ثم نُبِّه، فعاد من ساعته؛ لا نقول أنَّه وَقع فيه؛ لأَنَّه عاد، ولم يستمر في الشرك(٢).

فطلبُ بني إسرائيل والصحابة لذلك الأمر؛ أَوقعهم في الشرك الأصغر، فلمَّا نُبِّهوا؛ عادوا.

فطلبُ البركة والخير من غير اللَّه من الشرك، والدليل أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم نبَّههم على ذلك، وأَنكر، وحَلف أنَّ هذا نفْس فعْل بني إسرائيل الذي وَقعوا فيه في الكُفر.

---

(١) متون طالب العلم، كشف الشبهات (ص٧٣).

(٢) متون طالب العلم، كشف الشبهات (ص٧٣).

واللَّه عز وجل وَصفهم بالجهل فقال: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨-١٣٩].

فدلَّ على أنَّ التبرُّك بالشجر والحجر من الشرك الأكبر.

***

[١٠]

بَابُ
مَا جَاءَ فِي الذَّبْحِ لِغَيْرِ اللَّهِ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ الآيَةَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾.

عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ: حَدَّثَنِي رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ آوَى مُحْدِثاً، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الأَرْضِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَعَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «دَخَلَ الجَنَّةَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ، وَدَخَلَ النَّارَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ، قَالُوا: وَكَيْفَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟

قَالَ: مَرَّ رَجُلَانِ عَلَى قَوْمٍ لَهُمْ صَنَمٌ لَا يَجُوزُهُ أَحَدٌ حَتَّى يُقَرِّبَ لَهُ شَيْئاً.

فَقَالُوا لِأَحَدِهِمَا: قَرِّبْ، قَالَ: لَيْسَ عِنْدِي شَيْءٌ أُقَرِّبُ، قَالُوا لَهُ: قَرِّبْ وَلَوْ ذُبَاباً، فَقَرَّبَ ذُبَاباً، فَخَلَّوْا سَبِيلَهُ؛ فَدَخَلَ النَّارَ.

وَقَالُوا لِلْآخَرِ: قَرِّبْ، قَالَ: مَا كُنْتُ لِأُقَرِّبَ لِأَحَدٍ شَيْئاً دُونَ اللَّهِ عز وجل، فَضَرَبُوا عُنُقَهُ؛ فَدَخَلَ الجَنَّةَ» رَوَاهُ أَحْمَدُ.

الشرح:

لم يَذكر المصنِّف رحمه الله أنَّه من الشرك الأكبر؛ لبَشَاعة هذا الذنْب، ولمعرفة أنه شرك أكبر.

والمصنِّف رحمه الله ذَكر أربعة نصوصٍ:

النَّصُّ الأوَّل - (﴿**قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ..**﴾ **الآية**) -؛ لبيان أنَّ الذبح لغير اللَّه شركٌ.

والنَّصُّ الثاني - (﴿**فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ**﴾) -؛ لبيان أنَّ الذبح عبادةٌ فلا يُصرف إلا للَّه.

والنصُّ الثالث - حديث عليٍّ رضي الله عنه -؛ أنَّ اللَّه لعَن من ذبح لغير اللَّه - والعياذ باللَّه -؛ أي: تعرُّضه للوعيد.

والنَّصُّ الرابع- حديث طارق بن شهابٍ رضي الله عنه -: في بيان عقوبته في الآخرة؛ وهو أنَّه في النَّار.

والذبح لغير اللَّه سواء كان لصنمٍ، أو لقبرٍ، أو عند مرور السلطان تعظيماً له يذبح أمامه شيئاً من بهيمة الأنعام؛ فهذا كلُّه من الشرك الأكبر.

قال رحمه الله: (بَابُ مَا جَاءَ فِي الذَّبْحِ لِغَيْرِ اللَّهِ) أي: هذا نوع من الشرك - وهو الذبح لغير اللَّه -.

والذبح لغير اللَّه - والعياذ باللَّه - شركٌ أكبر.

وحُكمه لا يَنقسم - أي: أنَّه لا يوجد في الذبح لغير اللَّه شركٌ أكبر أو أصغر؛ بل كلُّه شركٌ أكبر -؛ لأنَه عبادةٌ فصرْفها لغير اللَّه شركٌ أكبر.

قال: (وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ﴾) أي: قل يا محمد للمشركين.

(إِنَّ صَلَاتِي) الصلاة المفروضة أُخلص فيها للَّه.

(وَنُسُكِي) أي: ذبحي.

إذاً: مَن ذبَح لغير اللَّه تعظيماً لصاحب القبر، أو للوثن؛ نقول: شرك أكبر.

(وَمَحْيَايَ) ما أَفعله في حياتي.

(وَمَمَاتِي) ما أدَّخره بعد مماتي من الأعمال الصالحة في الدنيا.

(لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ) يعني: كل ما أذبحه للَّه.

دلَّ على أنَّ الذبح قَرِين الصلاة.

فإذا كانت الصلاة عبادةٌ - وهو مقرَّرٌ عندهم -؛ فكذلك الذبح عبادةٌ، لا يجوز صرْفها لغير اللَّه.

(لَا شَرِيكَ لَهُ﴾) تأكيداً بأنَّ تلك العبادات للَّه، أي: لا أشرك في الذبح مع اللَّه غيره.

فدلَّ على أنَّ صرْف الصلاة أو الذبح لغير اللَّه شركٌ، ومَن أفردها للَّه فقد تجرَّد له سبحانه.

﴿وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ مِن أمَّته، أي: أنَّ مَن ذبَح للَّه فهو مسلِمٌ.

وموسى عليه السلام قال: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]؛ أي: من أمّته، والنبي صلى الله عليه وسلم أوَّل المؤمنين من هذه الأمَّة.

قال: (وَقَوْلُهُ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾) ساق المصنِّف رحمه الله هذه الآية؛ ليبيِّن أنَّ الذبح عبادةٌ، وصرْفها لغير اللَّه شركٌ، كمَا أنَّ صرْف الصلاة لغير اللَّه شركٌ.

(﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾) أي: اصرف الصلاة للَّه وحْده، سواء كانت صلاة العيدين، أو الصلوات المفروضة أو غيرها.

(﴿وَانْحَرْ﴾) أي: اذبح لربِّك فقط؛ لأنَّه عبادةٌ، ودلَّ على أنَّه عبادةٌ أنَّ اللَّه قَرَنه بالصلاة.

قال: (عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ: حَدَّثَنِي رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: لَعَنَ اللَّهُ) اللَّعن - والعياذ باللَّه -: هو الطرد والإبعاد من رحمة اللَّه.

ولا يجوز لعْن المسلِم؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «لَعْنُ الْمُؤْمِنِ كَقَتْلِهِ»(١).

ولا يجوز - أيضاً - لعْن الدواب؛ لأن رجُلاً لعن دابَّةً له، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «انْزِلْ عَنْهُ، فَلَا تَصْحَبْنَا بِمَلْعُونٍ»(٢)، فتَركوها تسير وحْدها.

وكذا لا يجوز لعْن النِّعم التي أغدقها اللَّه عز وجل على العبد، مثل: لعْن السيارة ونحو ذلك.

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب ما ينهى من السباب واللَّعن، رقم (٦٠٤٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفْسه، وأنَّ من قتل نفْسه بشيءٍ عُذِّب به في النار، وأنه لا يَدخل الجَنَّة إلا نفسٌ مسلِمةٌ، رقم (١١٠)، من حديث ثابت بن الضحاك رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلمٌ، كتاب الزهد والرقائق، باب حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر، رقم (٣٠٠٩)، من حديث جابرٍ رضي الله عنه.

قال: (لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ) أي: أنَّ مَن ذَبح لغير اللَّه فقد طَرده اللَّه من رحْمته.

ويدلُّ أيضاً على جواز لعْن غير المعيَّن، كقوله – أيضاً – عليه الصلاة والسلام: «لَعَنَ اللَّهُ السَّارِقَ، يَسْرِقُ البَيْضَةَ»(١)، وقال سبحانه: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨].

أمَّا لعْن المعيَّن، فالراجح: عدم جوازه؛ لأنَّ النبي صلى الله عليه وسلم لمَّا لعَن صفوان ومَن معه في الصلاة؛ أنزل اللَّه ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨](٢).

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الحدود، باب لعن السارق إذا لم يسم، رقم (٦٧٨٣)، ومسلمٌ، كتاب الحدود، باب حد السرقة ونصابها، رقم (١٦٨٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاريُّ، كتاب المغازي، باب ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، رقم (٤٠٦٩)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وفيه دليلٌ على أنَّ اللَّه يَلعن بالقول، كما يَلعن بالفعْل؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً﴾ [النساء: ٥٢].

وقوله: (لَعَنَ اللَّهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ) والعياذ باللَّه، فمَن لعَن والديه؛ فقد لعَنه اللَّه؛ لعظيم حقهما وكبير معروفهما.

ولعْن الوالدين يكون بأمرين:

الأمر الأوَّل: يَسبُّ الرجلُ أبَا الرجلِ؛ فيسبُّ أباه، ويسبُّ أمَّه؛ فيسبُّ أمَّه؛ يعني: بأنّه يتسبب في لعْنهما.

الأمر الثاني: - والعياذ باللَّه - أنَّ الرجُل يباشر بلعْن أمه، أو بلعْن أبيه.

وهذا من الخذلان، ومن أشدِّ العقوق، ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ [الإسراء: ٢٣].

وكما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم: أنَّ مَنْ لعَنَ مُسْلِماً فَإنْ كَان كَمَا كَان وَإلَّا رَجَعَتْ عَلَيهِ [1].

---

(١) رواه أبو داوود، كتاب الأدب، باب في اللَّعن، رقم (٤٩٠٥)، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، ولفظه: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا لَعَنَ شَيْئاً صَعِدَتِ اللَّعْنَةُ إِلَى السَّمَاءِ فَتُغْلَقُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ دُونَهَا، ثُمَّ تَهْبِطُ إِلَى الأَرْضِ فَتُغْلَقُ أَبْوَابُهَا دُونَهَا، ثُمَّ تَأْخُذُ

وقوله: (لَعَنَ اللَّهُ مَنْ آوَى مُحْدِثاً) المراد بالمُحدِث: أي: الجاني، أو فاعل المعصية إذا طلَبه السلطان؛ آواه إليه.

أو (مُحْدِثاً) أي: لعَن اللَّه من آوى صاحب بدعةٍ، أو نصره، أو أيَّده، أو دافع عنه؛ يعني: مَن فعَل بدعةً أو أمراً محدَثاً في بلدٍ؛ فالواجب ردْعه وعدم نصْره.

وقوله: (لَعَنَ اللَّهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الأَرْضِ) يعني: علامات الأرض.

وهذا يكون في أمرٍ خاصٍّ وعامٍّ:

ففي أمرٍ خاصٍّ: كتغيير معالم ما بينك وبيْن جارك، كأن يكون هناك حدٌّ ينتهي إليه دارك أو مزرعتك؛ فتغيِّرها.

وفي أمرٍ عامٍّ: في أمور الناس العامة، مِثل: لوحةٌ إرشاديةٌ مكتوبٌ عليها (مكة تتجه يساراً)، فيأتي أحدٌ ويغيِّرها؛ فيُتَوِّه المسافر إلى مكة، ويتجه يميناً.

قال: (رَوَاهُ مُسْلِمٌ) والحديث في صحيح مسلمٍ.

يَمِيناً وَشِمَالاً، فَإِذَا لَمْ تَجِدْ مَسَاغاً رَجَعَتْ إِلَى الَّذِي لُعِنَ، فَإِنْ كَانَ لِذَلِكَ أَهْلاً وَإِلَّا رَجَعَتْ إِلَى قَائِلِهَا».

وهنا لمَّا ذَكر رحمه الله اللَّعْن لِمن ذبح لغير اللَّه؛ ذَكر حديثاً آخر أنَّ مَنْ فَعل ذلك دَخل النَّار.

قال: (وَعَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «دَخَلَ الجَنَّة رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ) قد يكون هؤلاء من بني إسرائيل، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر مِن ذكْرهم لأصحابه؛ لقُرب العهد بهم.

(دَخَلَ الجَنَّة رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ) يعني: بسبب ذباب.

(وَدَخَلَ النَّار رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ) وهذا يدلُّ على أنَّ أصغر المخلوقات قد تكون سبباً في دخول الإنسان الجَنَّة، أو النَّار.

وِمثل أيضا: «دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّار فِي هِرَّةٍ»(١).

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب بدْء الخلق، باب خمسٍ من الدواب فواسق يقتلن في الحرم، رقم (٣٣١٨)، ومسلمٌ، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم تعذيب الهرة ونحوها من الحيوان الذي لا يؤذي، رقم (٢٦١٩)، من حديث ابن عمر رضي اللَّه عنهما.

وقد يكون أيضاً الجماد سبب دخول الإنسان الجَنَّة، مِثل: «لمَّا أزالَ رجُلٌ غصْنَ شَجَرةٍ؛ غَفَرَ اللَّهُ لَه، وَشَكَرَهُ اللَّهُ»(١).

أي: أنَّ الإنسان لا يَحتقر مخلوقاً.

وكما في قصة سليمان مع الهدهد.

(قَالُوا: وَكَيْفَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟) يعني: مخلوقٌ صغيرٌ سببٌ في دخول رجُلٍ الجَنَّة، وآخر النَّار!

(قَالَ: مَرَّ رَجُلَانِ عَلَى قَوْمٍ لَهُمْ صَنَمٌ) يدلُّ على أنَّ عبادة الأصنام قديمةٌ؛ لذلك إبراهيم عليه السلام دعا ربه أن يُجنِّبه وذريته إياها؛ بل قال إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦]؛ أي: أنَّ أكثر أهْل الأرض عُبَّادٌ للأصنام كما هو الحال في كثيرٍ منهم في شرْق هذه القارَّة، منهم من يعبد البُوذَا وغيره.

(لَا يجُوزُهُ أَحَدٌ حَتَّى يُقَرِّبَ لَهُ شَيْئاً) لا يمرُّ من الطريق حتى يَذبح للصنم.

---

(١) رواه مسلمٌ، كتاب البرِّ والصلة والآداب، باب فضْل إزالة الأذى عن الطريق، رقم (١٩١٤)، من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه.

وهذا مَثَلٌ ذكَره النبي صلى الله عليه وسلم لبني إسرائيل، فإنهم وَضعوا صنماً في الطريق، لا يُجوِّزون إلا مَن ذَبح له؛ ليوقِعوا الناس في الشرك.

(فَقَالُوا لِأَحَدِهِمَا: قَرِّبْ) يعني: افعل شيئاً لهذا الصنم، اجعله قُربَةً لك؛ ليَدفع عنك الضر ويَجلب لك النفع.

(قَالَ: لَيْسَ عِنْدِي شَيْءٌ أُقَرِّبُ) فقيرٌ ليس عنده شيءٌ.

(قَالُوا لَهُ: قَرِّبْ وَلَوْ ذُبَاباً، فَقَرَّبَ ذُبَاباً، فَخَلَّوْا سَبِيلَهُ؛ فَدَخَلَ النَّار)

تقدير الحديث: خلَّوا سبيله، فعاش، فمات، فدخل النَّار؛ فهذا جزاء مَن ذبح لغير اللَّه.

فدلَّ على قُرب النَّار - والعياذ باللَّه - من الإنسان وقد لا يَشعر فقد كان مسْلماً، فقرَّب ذباباً فدَخل النَّار.

(وَقَالُوا لِلْآخَرِ: قَرِّبْ، قَالَ: مَا كُنْتُ لِأُقَرِّبَ لِأَحَدٍ شَيْئاً دُونَ اللَّهِ عز وجل) هذا مؤمنٌ موحِّدٌ، لن يَذبح شيئاً لغير اللَّه مطلَقاً، فضَربوا عنقه، مع أنه يجوز له أن يَفعل ذلك للإكراه؛ كما قال سبحانه: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦]، لكنَّه جَهر بالتوحيد.

وهذا الرجُل لم يُدَاهِن لا بقلبه ولا بلسانه؛ فدَخل الجَنَّة شهيداً موحِّداً لله عز وجل، وهذا جزاء الموحِّد، وهو دخول الجَنَّة.

قال: (فَضَرَبُوا عُنُقَهُ) أي: فمات، (فَدَخَلَ الجَنَّةَ) فدلَّ على قُرب الجَنَّة من الموحِّد.

وتبيَّن أنَّ عاقبة من ذَبح لغير اللَّه النَّار، وأنَّه لا يجوز ذبْح أي شيءٍ للقبر، ولو صَغُر ذلك المذبوح - سواء دجاجة -، أو كَبُر - كالبعير مثلاً -.

قال: (رَوَاهُ أَحْمَدُ).

دلَّ الحديث على أنَّ مَنْ قرَّب شيئاً لغير اللَّه، ولو يسيراً - كبعوضةٍ ونحوها -، أو شيئاً كبيراً - كالناقة -، أو متوسِّطاً - كالغنم أو الدجاج أو الطير -؛ فإنَّه - والعياذ باللَّه - يقع في الشرك الأكبر.

يعني: لو أنكرتَ على شخصٍ، وقلتَ له: لا تَذبح للصنم.

فقال: أنا أعظِّم الصنم فقط؛ أذبح تعظيماً له، وليس عبادةً.

فتقول له: الذبح عبادةٌ، فاللَّه عز وجل يقول لمحمدٍ صلى الله عليه وسلم: (﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾)، فمَن ذَبح لغير اللَّه فقد أَشرك.

ودليلاً آخر: (﴿**فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ**﴾)، فجَعل اللَّه الذبح عبادةً، كما أنَّ الصلاة عبادةٌ.

والفرْق بين الشرك الأكبر والأصغر:

أنَّ الشرك الأكبر يُحبِط جميع الأعمال - والعياذ باللَّه -: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾ [الفرقان: ٢٣].

ويُخَلَّد صاحبه في النَّار: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ [الأحزاب: ٦٤].

أمَّا الشرك الأصغر:

فهو كلُّ ما وَرد لفظُه في النصوص بأنَّه شركٌ، ولم يصل إلى الشرك الأكبر.

وصاحبه لا يُخلَّد في النَّار، وإنِّما على **أحد القولين**: يكون تحت المشيئة.

والقول الآخر: أنَّه لا يُغفر له، فيُنظر في حسناته، ويُحبَط منه، ثم يُنظر إذا بقي له من حسناته؛ يَدخل الجَنَّة، أو يَدخل النَّار، ولا يُخلَّد فيها.

ومَن ذبح لغير اللَّه؛ فهو خالدٌ - والعياذ باللَّه - في النَّار، لا يَدخل الجَنَّة، ولا يَجد ريحها.

***

[١١]

بَابٌ
لَا يُذْبَحُ للَّهِ بِمَكَانٍ يُذْبَحُ فِيهِ لِغَيْرِ اللَّهِ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً﴾ الآيَةَ.

عَنْ ثَابِتِ بْنِ الضَّحَّاكِ رضي الله عنه قَالَ: «نَذَرَ رَجُلٌ أَنْ يَنْحَرَ إِبِلاً بِبُوَانَةَ، فَسَأَلَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم؟ فَقَالَ: هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الْجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ؟ قَالُوا: لَا.

قَالَ: هَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ؟ قَالُوا: لَا.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: أَوْفِ بِنَذْرِكَ، فَإِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَإِسْنَادُهُ عَلَى شَرْطِهِمَا.

الشرح:

قال رحمه الله: (بَابٌ لَا يُذْبَحُ لِلَّهِ بِمَكَانٍ يُذْبَحُ فِيهِ لِغَيْرِ اللَّهِ).

لمَّا ذَكر المصنِّف رحمه الله أنَّ من أنواع الشرك: الذبح لغير اللَّه؛ أَعقَبَه بعد ذلك في بيان خطورة الذبح لغير اللَّه، بذكْر أنَّ المكان الذي يُذبَح فيه لغير اللَّه؛ لا يجوز أنْ يُفعَل فيه أيُّ ذبحٍ للَّه سبحانه وتعالى، حتى

وإن كان قصْد الذابح حسناً، كإظهار شعيرة الذبح، أو ذبْح عقيقةٍ لولده، أو في إكرام ضيفٍ، وإنْ كانت تلك عباداتٌ؛ فلا يجوز أن تُفعَل في مكان ذُبح فيه لغير اللَّه.

وذَكر المصنِّف رحمه الله هذا الباب؛ لبيان تحريم الذبح للَّه في مكانٍ يُذبح فيه لغير اللَّه.

ويريد منه أيضاً مزيد تأكيدٍ على أنَّ النَّذر لغير اللَّه لا يجوز.

فإنْ كانت الطاعة لا يجوز فعْلها في مكانٍ ذُبح فيه بشركٍ؛ فمن باب أَولى النَّذر لغير اللَّه لا يجوز.

قال رحمه الله: (**بَابٌ لَا يُذْبَحُ لِلَّهِ بِمَكَانٍ يُذْبَحُ فِيهِ لِغَيْرِ اللَّهِ**) أي: أنَّ العبادة هي للَّه لكن المكان فيه شركٌ؛ وفيه من شعائر المشركين.

والنهي للتحريم؛ لأنه وسيلةٌ - والعياذ باللَّه - إلى الشرك، وسواء كانت هذه العبادة ذبحاً، أو صلاةً، أو غير ذلك.

مِثل: لو أراد شخصٌ أن يُضحِّي يوم العيد بشاةٍ فذهب عند قبرٍ وذبحها عنده، وإن كان يقصدها للَّه، لكن لا يجوز أن تُفعل في مكانٍ فيه شركٌ أو مظنَّة شركٍ.

والمصنِّف رحمه الله خصَّص هنا عبادة الذبح للَّه أنَّها لا تُفعَل في مكان ذُبح فيه لغير اللَّه، وسيأتي إن شاء اللَّه بابٌ أعمُّ من هذا، وهو أنَّ كلَّ عبادةٍ للَّه لا يجوز أن تُفعَل عند قبورٍ أو أضرحةٍ أو غير ذلك من أماكن الشرك، عند قوله: (**بَابُ مَا جَاءَ مِنَ التَّغْلِيظِ فِيمَنْ عَبَدَ اللَّهَ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ؛ فَكَيفَ إِذَا عَبَدَهُ؟!**).

والمصنِّف رحمه الله ساق آيةً، وحديثاً:

ساق الآية؛ لبيان أنَّه لا يجوز أن تقام الطاعة في مكان كُفرٍ إذا كان المبنى قائماً، أو مظاهر الشرك قائمةً.

والآية عامَّةٌ في جميع العبادات؛ فلا تقام الطاعة في مكانٍ يحادُّ فيه اللَّه ورسوله، ويُقاس عليها الذبح.

وساق الحديث؛ لبيان أنَّه حتى ولو كانت معالم الشرك زائلةً؛ لا يجوز أن تُؤدَّى فيه طاعةٌ.

والحديث ينصُّ على عبادة الذبح خاصَّةً، فلا يُذبح في مكانٍ يُذبح فيه لغير اللَّه.

لذلك قال: (**وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً﴾**) أي: لا تصلِّي في مسجد الضِّرَار؛ لأنه بُني على الكُفر، وإن كانت الصلاة للَّه، لكن المكان

أقيم لغير اللَّه، ومقاصدهم فيه كما قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [التوبة: ١٠٧]، فأَسَّسوا مسجداً، لكن لفساد نيَّتهم؛ أَصبح هذا المحسوس - المسجد - لا يجوز أنْ تُقام فيه العبادة، وهذه نيَّاتٌ قبيحةٌ؛ فهو مكانٌ للكُفر - والعياذ باللَّه - فلا يجوز أن يُصلَّى فيه.

وكذا لا تجوز الصلاة في الكنائس إذا كانوا يظهرون الشِّرك فيها.

فدلَّ على أنَّ النِّيَّة تؤثِّر حتى في البقاع، فهذا مسجدٌ، ولأنَّ النية فيه خبيثةٌ؛ أَصبحت العبادة فيه محرَّمةٌ.

وقال سبحانه: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ [التوبة: ١٠٨]؛ لصفاء النية.

والمسجد الذي أُسِّس على التقوى جاءت أحاديث بأنَّه المسجد النبوي[١]،وأحاديث أخرى بأنَّه مسجد قباء[٢].

ولا منافاة بين القولين؛ فكلاهما أُسِّس على التقوى.

فهنا آيةٌ عامَّةٌ في أنَّ الصلاة لا تجوز إقامتها في مكان قُصد فيه غير اللَّه، ويقاس على ذلك الذبح.

ثُمَّ بعد ذلك ذَكر المصنِّف رحمه الله حديثاً في تخصيص الذبح فقال:

(عَنْ ثَابِتِ بْنِ الضَّحَّاكِ رضي الله عنه قَالَ: «نَذَرَ رَجُلٌ أَنْ يَنْحَرَ إِبِلاً بِبُوَانَةَ)

---

(١) منها ما رواه أحمد في المسند، رقم (٢٢٨٠٥)، من حديث سهلٍ رضي الله عنه، ولفظه: «اخْتَلَفَ رَجُلَانِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فِي الْمَسْجِدِ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى؟ فَقَالَ أَحَدُهُمَا: هُوَ مَسْجِدُ الرَّسُولِ، وَقَالَ الْآخَرُ: هُوَ مَسْجِدُ قُبَاءٍ، فَأَتَيَا النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَسَأَلَاهُ فَقَالَ: " هُوَ مَسْجِدِي هَذَا».

(٢) منها ما رواه أبو داود، كتاب الطهارة، باب في الاستنجاء بالماء، رقم (٤٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه: «نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي أَهْلِ قُبَاءٍ: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾». والضمير في قوله ﴿فِيهِ﴾ يعود على مسجد قباء.

(بُوَانَةَ) جبلٌ غرب المدينة المنورة على الساحل، قريبٌ من ينبع، وهو قبْل مدينة أُملُج الآن للذاهب من مكة إلى أُملُج على ساحل البحر الأحمر.

فهناك جبلٌ نَذر رجُلٌ أن يَذبح فيه، فسأل النبيُّ صلى الله عليه وسلم هل كان يُشرك فيه مع اللَّه غيره.

(فَسَأَلَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم؟) أي: الصحابيُّ سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك.

فسأله النبيُّ صلى الله عليه وسلم: **(هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ)** والوثن أعمُّ من الصنم، فهو يَشمل القبور والأحجار والأشجار وهكذا.

(مِنْ أَوْثَانِ الجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ؟) يعني: حتى ولو أُزيل، هل كان موجوداً؟

(قَالُوا: لَا) فدلَّ على أنَّ المكان حتى ولو أُزيل منه معالم الشرك؛ لا يجوز أن تُقام فيه طاعةٌ.

(قَالَ: هَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ؟) أي: أن الشرك ليس فيه مستمراً طول العام، وإنما يأتونه في أيامٍ يُشرِكون فيه ويعودونه فيه.

وهذا يدلُّ على أنَّ الصحابة رضي الله عنهم إذا كان في نفوسهم شيءٌ من الأمور؛ يأتون ويسألون النبي صلى الله عليه وسلم.

وهذا الصحابيُّ سأله النبيُّ صلى الله عليه وسلم سؤالين اثنين؛ حتى يتأكد من أنه يجوز ذلك الذبح:

السؤال الأوَّل: هل كان هناك وثنٌ قائمٌ يأتيه الناس باستمرارٍ؟

السؤال الثاني – أخصُّ –: هل كان عيداً يأتون إليه في وقتٍ معيَّنٍ، أو زمنٍ مخصَّصٍ؟

ولم يسأله صلى الله عليه وسلم عن مقصده حَسناً أو غير حَسنٍ؛ وإنَّما سأله عن خلوِّ المكان من الشرك، فدلَّ على أنَّ حُسن النية لا يُنظَر إليه في مكان الشرك.

(قَالُوا: لَا) فدلَّ على أن المكان إذا كان فيه شركٌ، أو أزيل ولكنهم يأتون فيه أيَّاماً؛ فإنه لا يجوز أن تقام فيه الطاعة.

لذلك قال عليه الصلاة والسلام: (أَوْفِ بِنَذْرِكَ) فلمَّا خَلتْ تلك البقعة من الوثن، أو من زمنٍ مخصَّصٍ يأتون إليه؛ أمَره النبي صلى الله عليه وسلم بالوفاء بنذره.

(فَإِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ) فدلَّ على أنَّ العبادة في أماكن الشرك معصيةٌ، فلو كان فيه وثنٌ من أوثان الجاهلية؛ لا يجوز الوفاء به.

(وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ) مِثل: لو نذر رجُلٌ أن يبيع سيارة جارِه وهو لا يملكها؛ فلا يوفِ بنذره؛ لأنَّه لا وفاء فيما لا يَملكه؛ وإنَّما عليه كفارة يمينٍ.

ولو قال: عليَّ نذرٌ أنْ أخرج من مالي مئة ريالٍ؛ نقول: يَلزم إذا كان في الطاعة.

وكذلك الصلاة عند القبر قاصداً التوجه للقبر؛ قال شيخ الإسلام رحمه الله: «هذا عين المحادَّة - أي: العصيان - للَّه ولرسوله»(١).

لذلك في صحيح البخاريِّ أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «القَبْرَ القَبْرَ»(٢)؛ يعني لا تصلِّي إلى القبر.

وإذا كان هذا الوعيد فيمن يَعبد اللَّه في مكان كفرٍ؛ فما ظنُّك بمن يُشرك باللَّه ويَكفر في تلك الأمكنة - والعياذ باللَّه -.

فدلَّ على أنَّ الأماكن تتفاضل بالطاعة، وأن الشرك يُفسد على أهل الطاعة طاعاتهم في الأرض.

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لشيخ الإسلام (٢/ ١٩٣).

(٢) رواه البخاريُّ، كتاب الصلاة، باب هل تُنبش قبور مشركي الجاهلية، ويُتخذ مكانها مساجد، رقم (٤٢٧).

❊❊❊

[١٢]

بَابٌ

مِنَ الشِّرْكِ النَّذْرُ لِغَيْرِ اللَّهِ

لِقَوْلِه: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾.

وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾.

وَفِي الصَّحِيحِ: عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللَّهَ فَلاَ يَعْصِهِ».

الشرح:

قال رحمه الله: (بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ) أي: من أنواع الشرك الأكبر.

فمَنْ نَذر شيئاً لغير اللَّه؛ فقد ارتكب هذا الشرك الأكبر.

(النَّذْرُ لِغَيْرِ اللَّهِ) النَّذْر: هو إيجاب الإنسان على نفسه ما لم يجب عليه في أصل الشرع[١].

مِثل: لو أن شخصاً قال: عليَّ نذرٌ أن أتصدق كلَّ يومٍ بريالٍ.

---

(١) التعريفات للجرجاني (١/ ٢٤٠).

هذا نذْرٌ، وهذا الشخص أَوجب على نفْسه هذا الأمر، وصدقةٌ في كلِّ يومٍ بريالٍ لم يُوجِبها الشرع.

والنَّذر ينقسم إلى قِسمين:

القِسم الأوَّل: نذْرٌ للَّه، وهو ينقسم أيضاً إلى قِسمين:

القِسم الأوَّل: أن يكون النذْر طاعةً وقربةً للَّه.

مِثل: لو قال: للَّه عليَّ نذْرٌ أن أصلِّي كلَّ يومٍ في اللَّيل ركعتين.

وإمَّا أن يكون في أمرٍ مباح، مثل: لو نذَر أنْ يلبس في كل يوم الثوب الفلاني، في ساعةٍ معينةٍ.

والقِسم الثاني: نذرٌ ممنوعٌ، وهو ما كان للَّه لكنَّه يكون في أمْرٍ محرَّمٍ؛ يعني: ليس بشركٍ.

مِثل: أن يَنذر معصيةً للَّه، كأنْ ينذر للَّه أنْ يَشرب خمراً – والعياذ باللَّه–، أو أنْ يعقَّ والدَيه، أو يَقطع أرحامه.

مِثل: لو قال شخصٌ: نذرٌ عليَّ أن لا أسلِّم على عمِّي.

أو نذرٌ لا حاجة للإنسان فيه، واللَّه غنيٌّ عنه.

مِثل: لو نذر شخصٌ أن يمشي من المدينة إلى مكة حافياً على قدميه للحج، واللَّه عز وجل غنيٌّ عن ذلك؛ فلا يوفِ بنذره، وإنَّما يكفِّر كفارة يمينٍ.

والقِسم الثاني: نذرٌ شركيٌّ، وهو النَّذر لغير اللَّه.

مثل: لو قال شخصٌ: نذْرٌ عليَّ أنْ أذبح للقبر الفلاني؛ فهذا شركٌ.

ولهذا القِسم بوَّب المصنِّف رحمه الله هذا الباب.

ولا انقسام فيه؛ يعني: على كل أحواله شركٌ أكبر، فمَنْ نَذَرَ لغير اللَّه شيئاً؛ فقد وَقع في الشرك الأكبر.

وساق فيه آيتين وحديثاً؛ ليبيِّن أنَّ النَّذرَ عبادةٌ، فإذا تبيَّن لك أنَّه عبادةٌ؛ فإذاً صرْفه لغير اللَّه شركٌ.

الآية الأُولى - (﴿**يُوفُونَ بِالنَّذْرِ**﴾) -؛ لبيان أنَّ النَّذْر المشروع عبادةٌ يكافئ اللَّه عز وجل من وَفى به الأجر.

وساق الآية الثانية - (﴿**وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ**﴾) -؛ لبيان أنَّ النَّذر عبادةٌ قرين الصدقة.

وساق الحديث – حديث عائشة رضي الله عنها –؛ لبيان أنَّه إذا كان النذر في طاعةٍ؛ فيُوفَّي به، وإنْ كان في معصيةٍ – وأعظم ذلك: الشرك –؛ فإنَّه لا يجوز أن يوفِّي به.

قال عن الآية الأُولى: (**لِقَوْلِهِ**)، وهذا هو الموضع الوحيد في كتاب التوحيد الذي قال فيه المصنِّف: (**لِقَوْلِهِ**)، وذَكر هذه العبارة؛ لإثبات أنَّ النَّذر عبادةٌ؛ لأنَّ بعض من ينذر لغير اللَّه يقول: أنَّ النَّذر ليس بعبادةٍ حتى يكون شركاً، فأثبت المصنِّف رحمه الله أنَّ النَّذر عبادةٌ.

لذلك قال: (**لِقَوْلِه: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾**) ثناءٌ لأهل الجَنَّة بأنَّ مِن أعمالهم أنَّهم يوفون بالنَّذر، فإذا كانوا يوفون بالنَّذر، وهو لم يوجَب عليهم، وإنما أَوجبوه هم على أنفسهم؛ فمِن باب أَولى أنَّهم يوفون بما أَوجب اللَّه عليهم، من صلاةٍ، وصيامٍ، وزكاةٍ ونحو ذلك.

واللَّه عز وجل لا يثني على فريقٍ؛ إلا لعمل الطاعات.

فدلَّ ثناء اللَّه عليهم على أنَّ النَّذر عبادةٌ، وإذا كان عبادةً فلا تُصرف إلا للَّه، فمَن صرفه لغير اللَّه وقَعَ في الشرك الأكبر.

كما لو صَرَفَ شخصٌ الصلاة لغير اللَّه، أو حجَّ لغير اللَّه، كأنْ يذهب ويطوف على قبر وليٍّ – كما يزعم –، أو نَذَر أنْ يضع نوراً أو طيباً

أو أقمشةً عند القبر الفلاني مِثل أنْ يقول: نذْرٌ عليَّ أنْ أضع طيباً أو شمعاً أو أتصدَّق بمبلغٍ للقبر الفلاني، أو للولي الفلاني.

والنَّذر - والعياذ باللَّه - كثيرٌ عند الأضرحة.

وكما قال شيخ الإسلام رحمه الله: «النَّذر لغير اللَّه أعْظم في الحُرمة من الحلِف بغير اللَّه»[(١)]؛ لأنَّ النَّذر يمينٌ معقودةٌ، فيها تعظيمٌ شديدٌ للمنذور، فكأنك تقول: لك نذرتُ يا ربِّ؛ لأنك عظيمٌ بأنْ أتصدَّق بعشرة ريالات، فكذلك مَن نذَر لميتٍ، فإنه قد عَقد التعظيم في قلبه لذلك الميت، فكان شركاً في صرْفه تلك العبادة لغير اللَّه.

وحُكم النَّذر إذا كان للَّه، ينقسم إلى قِسمين:

القِسم الأوَّل: النَّذر المعلَّق، مثل: إن نجحتُ في الاختبار نذرٌ عليَّ أن أتصدَّق بعشرة ريالاتٍ.

وهذا النَّذر مكروهٌ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم نَهى عن النَّذر، وقال: «إِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ البَخِيلِ»[(٢)].

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٣/ ١٢٣).

(٢) رواه البخاريُّ، كتاب القدر، باب إلقاء النذر العبد إلى القدر، رقم (٦٦٠٨)، من حديث ابن عمر رضي اللَّه عنهما.

والقِسم الثاني: النذر المطلَق، مِثل: لو قال شخصٌ: نذرٌ عليَّ أن أصلِّي الآن ركعتين، فنذْره هنا ليس مقابل شيءٍ من نجاحٍ، أو شفاءٍ، أو غير ذلك.

قال شيخ الإسلام عن هذا النوع: «وهذا الذي أثنى اللَّه عز وجل على الموفين به، فقال: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾»(١).

واللَّه عز وجل لا يثني على شيءٍ إلا إذا كان عبادةً، فدلَّ على أن النَّذر عبادةٌ، فأَثنى اللَّه على المؤدِّين له.

قال: (وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ﴾) سواء كانت واجبةً، أو نافلةً؛ فإن اللَّه يَعلمها، وهو يكافئ عليها سبحانه وتعالى.

(﴿أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾) أي: ويكافئكم عليه ويجازيكم به.

فمجازاته عليه، وتوفيته أجورهم؛ دلَّ على أنَّ النَّذر عبادةٌ كالصدقة والإنفاق، فكما أنَّ البذل والإنفاق، والصدقة على الفقراء عبادةٌ، فكذلك النَّذر عبادةٌ.

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٥/ ٣٤٤).

فإذا كان عبادةً؛ فإنه لا يُصرف لغير اللَّه، ومَن صرَفه لغير اللَّه فهو شركٌ أكبر.

والنَّذر لغير اللَّه كالتبرُّك ليس له قسيمٌ - أي: ليس هناك نذرٌ لغير اللَّه شركٌ أصغر ونذرٌ لغير اللَّه شركٌ أكبر -، وإنما كلُّه - والعياذ باللَّه - شركٌ أكبر.

ثُمّ قال: (وَفِي الصَّحِيحِ: عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعْهُ).

فدلَّ على أنه عبادةٌ، وأنه يجب الوفاء بالنذر إذا كان للَّه وفي طاعةٍ، كصدقةٍ أو بذلٍ أو أمرٍ مقدورٍ عليه.

ومَن لم يَقدر على ذلك الأمر؛ فليكفِّر كفَّارة يمينٍ، وهي إطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم، أو تحرير رقبةٍ، فإذا لم يستطع فيصوم ثلاثة أيامٍ متتابعاتٍ.

وإذا كان للَّه وفي معصيةٍ، كأن يقول: نذرٌ عليَّ أن أسرق؛ فلا يجوز أن يوفي به.

قال: (وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللَّهَ فَلَا يَعْصِهِ).

سواء كان في أصل النَّذر بأن جَعله لغير اللَّه، مِثل أن يقول: نذرٌ عليَّ أن أتصدَّق لهذا القبر؛ لجلْب النفع، أو: نذْرٌ عليَّ أن أصلِّي لهذا القبر.

هذا شركٌ في أصله - والعياذ باللَّه -.

أو كان النَّذر في معصية اللَّه؛ فلا يَعصه، مثل: إنْ نَذَرَ أنْ يَترك الصلاة، فلا يَعصِ اللَّه، ويصلِّي، ومِن باب أَوْلَى مَن نَذَر لغير اللَّه؛ فيحرُم الوفاء به؛ لأنَّ النذر عبادةٌ، وإذا كان عبادةً؛ يحرم الوفاء به، وهو شركٌ.

وإذا عُقِدَ النذر لغير اللَّه؛ فليس فيه كفَّارةٌ - والعياذ باللَّه -.

وإذا عُقد للَّه وفي معصيةٍ كالسرقة؛ ففيه كفَّارةٌ.

فساق المصنِّف رحمه الله هذا الحديث، ليبيِّن هذين الأمرين، وهما:

الأمر الأوَّل: أنَّ النَّذر عبادةٌ يجب الوفاء به، كالوضوء والصلاة.

الأمر الثاني: أنَّه لا يجوز أنْ يوفِّيَ بالنَّذر في معصيةٍ، كذلك لا يجوز أنْ يوفِّيَ بالنَّذر إذا كان شركاً لغير اللَّه.

ودلَّ على أنه عبادةٌ، وأنَّ مَن صرَفه لغير اللَّه فقد اقتَرف الشرك الأكبر - والعياذ باللَّه -.

فتبيَّن ممَّا سبق: أنَّ النَّذر عبادةٌ قرينٌ لبقية العبادات، كالصلاة، والحلِف، والصدقة، والصيام، فإذا صُرِفَ لغير اللَّه؛ فقد وَقع - والعياذ باللَّه - صاحبُه في الشرك الأكبر.

وقرَّر المصنِّف رحمه الله أنَّ النَّذر عبادةٌ بآيتين، ثُمَّ ساق حديثاً؛ ليبيِّن أنَّه إذا كان النَّذر في طاعةٍ للَّه؛ يوفَّى به، وإذا كان في معصيته؛ لا يوفَّى به؛ فمِن باب أَولَى إذا كان لأمرٍ شركيٍّ بالإجماع.

ويجب عليه التوبة إلى اللَّه، والدخول في الدين؛ لأنَّه اقترف أمراً عظيماً، وهو الشرك الأكبر بالنَّذر لغير اللَّه.

***

[١٣]

بَابٌ

مِنَ الشِّرْكِ الاسْتِعَاذَةُ بِغَيْرِ اللَّهِ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الجِنِّ﴾ الآيَةَ.

عَنْ خَوْلَةَ بِنْتِ حَكِيمٍ رضي الله عنها قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلاً فَقَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ؛ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

الشرح:

قال رحمه الله: (بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ) أي: من أنواع الشرك الأكبر.

(الاسْتِعَاذَةُ بِغَيْرِ اللَّهِ) الاستعاذة هي: الالتجاء والاعتصام والتحصُّن باللَّه سبحانه[١].

---

(١) تاج العروس للزبيدي (٩/ ٤٣٨).

وحقيقة الاستعاذة باللَّه: أنْ يتعلَّق القلب باللَّه وحْده في إزالة الضر الواقع فيه، أو دفْع ما قد يقع من ضرٍّ.

والاستعاذة تكون قبل وقوع الأمر؛ فتستعيذ باللَّه أن لا يقع عليك المكروه من سحْرٍ أو عينٍ وغيره.

وتكون أيضاً بعد وقوع الأمر؛ أنْ تستعيذ من شرور ما وَقع فيك.

والاستعاذة تنقسم الى ثلاثة أقسامٍ:

القِسم الأوَّل: الاستعاذة باللَّه، وهي واجبةٌ؛ قال سبحانه: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ [المؤمنون: ٩٧]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]، وقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: ١]، وقالت مريم: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ﴾ [مريم: ١٨].

وهي نوعٌ من أنواع العبادات، فإذا استعاذ الإنسان بربِّه أثابه اللَّه.

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يُعَوِّذ الحَسَنَ وَالحُسَينَ بِالمُعَوِّذتَيْنِ[١]، وكان إبراهيم عليه السلام يعوِّذ أبناءه بـ «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ، مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لاَمَّةٍ»[٢].

والقِسم الثاني - من أنواع الاستعاذة -: استعاذةٌ لا يَقدر عليها إلا اللَّه، مِثل: أن تستعيذ باللَّه من النَّار، ومِن شرور نفْسك.

ومِن استعاذ بغير اللَّه فيما لا يقدر عليه إلا اللَّه؛ وَقع في الشرك الأكبر؛ كالاستعاذة بغائبٍ، أو بميتٍ.

مِثل: لو ذَهب شخصٌ إلى آخر، وقال له: أعذْني من شرِّ ذنوبي.

ومثال الغائب: استعاذة الإنسان بالجِنِّي، كأن يقول: يا جنِّيّ أعذْني من الإنس أو من الجِنِّ - والعياذ باللَّه -.

ومثال الاستعاذة بالأموات؛ كأن يأتي شخصٌ إلى ميتٍ؛ فيقول: أعذْني من شر أولادي.

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب أحاديث الأنبياء، باب، رقم (٣٣٧١)، من حديث ابن عباسٍ رضي الله عنهما.

(٢) رواه البخاريُّ، كتاب أحاديث الأنبياء، باب، رقم (٣٣٧١)، من حديث ابن عباسٍ رضي الله عنهما.

فهذه شركٌ أكبر.

والاستعاذة بغير اللَّه فيما لا يقدر عليه إلا اللَّه ليس لها قسيم؛ أي: إنما هي شركٌ أكبر ليس فيها أصغر.

والقِسم الثالث - من أنواع الاستعاذة -: استعاذةٌ يَقدر عليها البشر، وهي الاستعاذة بالحيِّ الحاضر القادر.

وهذه تجوز، والدليل على ذلك: «أَنَّ امْرَأَةً مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ سَرَقَتْ، فَأُتِيَ بِهَا النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم، فَعَاذَتْ بِأُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: وَاللَّهِ لَوْ كَانَتْ فَاطِمَةُ لَقَطَعْتُ يَدَهَا، فَقُطِعَتْ»[1].

ومِثل: لو أن طفلاً يَضرب طفلاً وأنت رجُلٌ كبير، وأتاك هذا الطفل وقال لك - وأنت قادرٌ -: أعذني من ضرْب هذا الطفل؛ فتجوز هذه اللَّفظة.

---

(١) رواه مسلمٌ، كتاب الحدود، باب قطْع السارق الشريف وغيره، والنهي عن الشفاعة في الحدود، رقم (١٦٨٩)، من حديث جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنهما.

ومِثل: أنْ تقول لصاحبك: أعذْني من هذه الشوكة؛ فهو يَقدر أنْ يُخرجها منك، وكذا لو دَخلتَ سيارةً وأُغلق بابها، فيستطيع أن يَفتحه لك.

أمَّا إنْ كان الشخص مصروعاً، ويقال لشخصٍ: أعذْه مما هو فيه؛ فهذا لا يقدر عليه إلا اللَّه.

والمصنِّف رحمه الله ذكر في هذا الباب آيةً وحديثاً:

وذَكر الآية؛ لبيان أنَّ الاستعاذة بغير اللَّه شركٌ، ومِن جُملة ما يَفعله الناس من الشرك استعاذتهم بالجِنِّ.

وذَكر الحديث؛ لبيان أنَّ الاستعاذة لا تكون إلا باللَّه، وأنَّ الذي يَنفع هو الاستعاذة باللَّه وحْده.

لذلك قال: (**وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الجِنِّ﴾**) هذه الآية فيما يَفعله الجِنّ بالإنس من شرورٍ، وتخويفٍ، وإيحاء زخرف القول.

فقد كانت العرب إذا نَزلت وادياً خَوَّفهم الجِنُّ بإصدار أصواتٍ ونحو ذلك؛ ليستعيذوا بهم، فكانوا يستعيذون بأسياد الجِنِّ فينادي منادٍ منهم: يا جنُّ أعيذونا من سفهائكم ونحو ذلك.

قال اللَّه: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقاً﴾ [الجنّ: ٦]؛ أي: أنَّ الجنَّ لمَّا أَشرك الإنس بهم زاد تخويفُهم لهم، فزادوهم أذيةً وخوفاً؛ ليوغِلوا في الشرك ويَتعلَّقوا بالجِنِّ أكثر؛ فيَمرقون من الدين أكثر.

والشاهد: أنّ أفعال الجِنِّ ضد الإنس ليستعيذوا بهم من دون اللَّه، وسيقت الآية؛ للذمِّ لحالهم.

وهكذا مَن تعلَّق بغير اللَّه من السحرة ونحوهم؛ يُخوفونه ليتعلَّق بهم أكثر؛ ليُفسدوا عقيدته، ويأخذوا أموالاً بالباطل منه.

فدلَّ على أنَّ الاستعاذة بغير اللَّه شركٌ أكبر، وأنَّها لا تَنفع بل تضرُّ.

فمن استعاذ بغير اللَّه زاد ضررُه.

ومَن استعاذ باللَّه عُصِم؛ قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].

قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق]

فالاستعاذة تكون بما في المخلوق من شرورٍ.

والملائكة والنبيون ليس فيهم شرٌّ؛ فلا يُستعاذ منهم.

ثُمّ قال: (عَنْ خَوْلَةَ بِنْتِ حَكِيمٍ رضي الله عنها) قال عمر بن عبد العزيز عن خولة بنت حكيم رضي الله عنها: «نعمت المرأة الصالحة العابدة»[١].

(قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: مَنْ نَزَلَ مَنْزِلاً) يعني: إذا أتيتَ إلى أيِّ مكانٍ تقول هذا الدعاء الآتي ذكْره.

وهذا الدعاء ليس خاصّاً بالسفر؛ بل أيُّ مكانٍ تَنزل فيه؛ سواء دخلتَ منزلك، أو ركبتَ السيارة، أو الطائرة، أو ذهبتَ إلى المدرسة.

فدلَّ على أن هذا الدعاء عظيمٌ؛ فقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنَّه لن يضرّه شيءٌ.

قال: (فَقَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ) أي: أَلتجئ وأَعتصم وأَتوجَّه إلى اللَّه، وأَتوسَّل بكلمات اللَّه، (التَّامَّاتِ) التي لا نقْص فيها؛ أن يَدفع عنِّي الشر، وأن لا يَلحقني ضررٌ في المكان الذي أنا فيه.

قال: (مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ).

---

(١) بلفظ: «زعمتِ المرأة الصالحة خولة بنت حكيمٍ». مسند الحميدي (١/ ٣٣١)، الإصابة لابن حجر (٨/ ١١٦).

فدلَّ على أنَّ للَّه عز وجل في مخلوقاته ثلاثة أقسامٍ:

القِسم الأوَّل: خيرٌ محضٌ؛ يعني: لا ضرر فيه أبداً، كالملائكة، والرسل.

القِسم الثاني: شرٌّ محضٌ لا خير فيه، وهو إبليس وذريَّته.

القِسم الثالث: فيه خيرٌ، وفيه شرٌّ، كنفْس الإنسان؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي»[1].

فالمستعيذ هنا يستعيذ من المخلوق الذي فيه شرٌّ فقط؛ قال: **(مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ)** أي: من شرِّ مَن خَلق، ومن كلِّ مخلوقٍ فيه شرٌّ.

قال: **(لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ)** يعني: لم يَلحقه أيُّ ضررٍ، **(حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ)** أي: حتى يغادر ذلك المنزل.

فدلَّ على وجوب الاستعاذة باللَّه سبحانه، وأنَّ الاستعاذة باللَّه هي النافعة، وأنَّها عبادةٌ.

فليست الدلالة فقط بأنَّ الاستعاذة الشركية منهيٌّ عنها؛ بل يجب الاستعاذة باللَّه، ويكون هذا بيقينٍ، وليس بشكٍّ أو تجربةٍ؛ فهذا لا يجوز؛

---

(١) رواه أحمد في المسند، رقم (٥١)، من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه.

فلا بد من اليقين في قولها، فاللَّه عز وجل قادرٌ على كلِّ شيءٍ في دفْع الضر عنك.

ودلَّ على أن الأسباب قد تتخلَّف؛ قال القرطبي[١] رحمه الله: «خبرٌ صحيحٌ أكيدٌ جرَّبناه»؛ قال: «فلدغتني عقربٌ، فتذكَّرتُ فإذا بي لم أكن قلتُ الدعاءَ»[٢].

فعلى المسْلِم أن يَتعلَّق باللَّه بهذا الدعاء.

ولمَّا وَقع السحْر على النبي صلى الله عليه وسلم نَزلتْ سُورَتَي الفَلَقِ وَالنَّاسِ، «وَمَا تَعوّذ مُتعوِّذٌ بِمِثلِهِمَا»[٣]، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يُعوِّذ الحَسَنَ وَالحُسَينَ، فَلمَّا نزلت هاتان السورتان عَوَّذهُما بِهِمَا[٤].

---

(١) هو: أبو عبد اللَّه محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرْح الأنصاري الخزرجي المالكي القرطبي. توفي سنة (٦٧١هـ). طبقات المفسرين للسيوطي (١/ ٩٢)، طبقات المفسرين للداوودي (٢/ ٧٠).

(٢) المفهِم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلمٍ، للقرطبي (٧/ ٣٦).

(٣) رواه أبو داود، باب تقريع أبواب الوتر، باب في المعوّذتين، رقم (١٤٦٣)، من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

(٤) سبق تخريجه (ص) عند قوله (وكان إبراهيم عليه السلام يعوِّذ أبناءه).

قال ابن القيِّم رحمه الله: «وحاجة العبد إلى الاستعاذة بهاتين السورتين أحوج إليه من الطعام والشراب»[١].

ومعنى ﴿الفَلَقِ﴾: الصُّبح[٢]، ﴿غَاسِقٍ﴾: القمر، وما في اللَّيل[٣]، ﴿وَقَبَ﴾: خَرج، ﴿النَّفَّاثَاتِ﴾: السواحر[٤].

فما مِن شرٍّ إلا وذُكِر في هذه السورة.

﴿مِنْ شَرِّ الوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ [الناس: ٤]، استعاذةٌ مِن شرور الإنس والجِنِّ.

فالاستعاذة عبادةٌ عظيمةٌ، يتوجَّه فيها القلب للَّه.

وإذا كانت عبادةً عظيمةً وفعلتَها فإنَّك تنال أموراً هي:

الأمر الأولَّ: شرَف هذه العبادة.

الأمر الثاني: رفعة للدرجات.

الأمر الثالث: فخرٌ لك بأنَّك تلتجئ إلى ربٍّ عظيمٍ قديرٍ ملِكٍ، فأنتَ

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ١٩٩).

(٢) تفسير الطبري (٢٤/ ٧٠٠).

(٣) تفسير الطبري (٢٤/ ٧٠٢).

(٤) تفسير الطبري (٢٤/ ٧٠٥).

تلتجئ إلى الجليل الذي لا أجَلَّ منه.

الأمر الرابع: تُعاذ ويُحقَّق لك مرادك.

لذا يجب على المسْلِم أنْ يعلِّق قلبه باللَّه تعالى في كل أموره، ويخلِّص نفْسه من الأوهام بأنَّ فلاناً سيصيبه بعينٍ أو سحْرٍ؛ بل بالاستعاذة يكون القلب متوكِّلاً على اللَّه؛ قال صلى الله عليه وسلم: «وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ»(١).

فتبيَّن ممَّا سَبق: أنَّ الاستعاذة فيما لا يَقدر عليه إلا اللَّه، كالنجاة من النَّار، ومن الحرز، والعصمة من الشرور والآفات؛ كلُّ ذلك من الشرك الأكبر إذا استعاذ بغير اللَّه فيها.

وفيما يَقدر عليه البشر فإنَّه جائزٌ.

مِثل: لو وَجدتَ سارقاً وبجانبه جنديٌّ؛ فتقول للجندي: أعذْني من هذا السارق، فهو قادرٌ على إمساكه.

ولا يجوز قول: أعوذ باللَّه وبك؛ بل يُقال: أعوذ باللَّه ثُمَّ بك.

ودلَّ الباب على أنَّ المسْلِم يجب عليه أنْ يتوكَّل على اللَّه، ويفوِّض

---

(١) رواه أحمد في المسند، رقم (٢٦٦٩)، من حديث ابن عباسٍ رضي الله عنهما.

أموره للَّه.

ويدلُّ هذا الباب أيضاً على أنَّه ينبغي للمسْلِم أنْ يكرِّر هذا الدعاء في كلِّ مكانٍ يَنزله، حتى يكون في يومه وليلته مُحصَّناً من شرور الإنس والجِنِّ.

***

[١٤]

بَابٌ
مِنَ الشِّرْكِ أَنْ يَسْتَغِيثَ بِغَيْرِ اللَّهِ؛ أَوْ يَدْعُوَ غَيْرَهُ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ * وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ الآيَةَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ﴾ الآيَةَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ﴾ الآيَتَيْنِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ الآيَةَ.

رَوَى الطَّبَرَانِيُّ: «أَنَّهُ كَانَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم مُنَافِقٌ يُؤْذِي المُؤْمِنِينَ.

فَقَالَ بَعْضُهُمْ: قُومُوا بِنَا نَسْتَغِيثُ بِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مِنْ هَذَا المُنَافِقِ.

فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: إِنَّهُ لَا يُسْتَغَاثُ بِي؛ وَإِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِاللَّهِ.

الشرح:

ذَكر المصنِّف رحمه الله في هذه الترجمة: الاستغاثة والدعاء.

والدعاء أعمُّ من الاستغاثة، فكلَّما قلتَ: يا رب؛ فهذا دعاءٌ.

وإذا طلبتَ من اللَّه العون على أمرٍ؛ فهذا يُسمَّى: استعانة.

وإذا طلبتَ منه استعاذةً من شر؛ فهذا يُسمَّى: استعاذة.

وإذا طلبتَ منه تفريج كربٍ وقعتَ فيه؛ فهذا يسمَّى: استغاثة.

والدعاء أعمُّ، ومنه: استعانةٌ، واستعاذةٌ، واستغاثةٌ.

فكلُّ استغاثةٍ دعاءٌ، وليس كلُّ دعاءٍ استغاثةً.

قال رحمه الله: **(بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ)** أي: الأكبر.

(أَنْ يَسْتَغِيثَ) الاستغاثة: طلب الغَوْث، وهي الإنقاذ من شدةٍ، كغرقٍ مثلاً، أو مرضٍ ونحو ذلك.

(أَنْ يَسْتَغِيثَ بِغَيْرِ اللَّهِ أَوْ يَدْعُوَ غَيْرَهُ) يعني: بابٌ من أنواع الشرك الأكبر - أيضاً - أنْ يستغيث بغير اللَّه، فيما لا يَقدر عليه إلا اللَّه.

أمَّا ما كان فيما يقدر عليه البشر، وهم أحياءٌ حاضرون؛ فيجوز.

مِثل: إن سقطت ْعليك خشبةٌ، وقلتَ لشخصٍ: ارفعها عني، فهذه استغاثةٌ بهذا الشخص؛ ليَرفع عنك تلك الخشبة، ولو سقطتَ جريحاً، فقلتَ لمن معك: اسعفني وخذني إلى الطبيب، فهذا يُسمَّى استغاثةً.

فإذا كان البشر قادرون على إجابة غَوْثِك؛ فهذه تسمَّى استغاثة جائزة.

فإذا قيل لك: ما هو الدليل على أنَّه يجوز الاستغاثة بالبشر؟

تقول: كما قال اللَّه عز وجل: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥].

وأمَّا الاستغاثة فيما لا يقدر عليه إلا اللَّه، إذا طُلِبت من البشر؛ فهذا شركٌ أكبر.

كمَن يكون مريضاً، طريح الفراش، ويستغيث أهله بساحرٍ أو كاهنٍ في أن لا تَخرج روحُه.

فهذا أمرٌ لا يقدر عليه إلا اللَّه، فلا يَملك البشر نزْع الروح أو ردَّها لبَدن ذلك المريض؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٣-٨٥].

فالاستغاثة بغير اللَّه، فيما لا يقدر عليه إلا اللَّه؛ شركٌ أكبر.

كذلك لو دعوتَ غير اللَّه بما لا يقدر عليه سوى اللَّه؛ أيضاً شركٌ أكبر.

مثل: لو ذهبتَ إلى رجُلٍ صالحٍ، أو عالمٍ، وقلتَ له - والعياذ باللَّه -: يا شيخ فلان اغفِر لي ذنوبي، كما يفعل الأحبار والرهبان من اليهود والنصارى.

أمَّا إنْ دعوتَه وهو حاضرٌ قادرٌ، مِثل أنْ تقول له: أعطني قلماً؛ فهذا أمرٌ ليس شركيّاً؛ وإنما مباحاً، والدليل على إباحته قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢].

وذَكر المصنِّف رحمه الله ثلاث آياتٍ تدلُّ على أنَّ من دعا غير اللَّه فيما لا يقدر عليه إلا اللَّه فإنه شركٌ أكبر.

وذَكر آيةً في الاستغاثة.

وذَكر الحديث في الاستغاثة فيما لا يقدر عليه إلا اللَّه.

فالاستغاثة نوعٌ من أنواع الدعاء، فهو من عطْف العام - أي: الدعاء - على الخاص - وهو الاستغاثة -.

فإنَّ الدعاء منه ما هو طلبُ زيادةٍ في الرزق مثلاً، ومنه ما هو في حال شدةٍ، كغريقٍ.

والاستغاثة بغير اللَّه، ودعاء غير اللَّه هما أكثر ما يقع بين الناس في الشرك - والعياذ باللَّه - مِن دعائهم للأصنام مثلاً، أو دعائهم الأموات ونحو ذلك.

ودعوة جميع الرسل أن يَتوجَّه دعاء الإنسان لربِّه وحْده سبحانه وتعالى، سواء كان طلب نفعٍ، أو طلب غوثٍ، وجَمع بينهما المصنِّف في هذا الباب؛ لأنَّ من يدعو لا يخلو إمَا أن يكون دعاؤه طلباً، أو تفريج كربةٍ.

وذَكر المصنِّف **الآية الأُولى** - (﴿**وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ**﴾) -؛ لبيان أنَّ اللَّه نهى حتى النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو غير اللَّه، وحاشا النبي صلى الله عليه وسلم أنْ يَفعل ذلك.

والآية الثانية - (﴿**فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ**﴾) -؛ لبيان أنَّ طلبَ الرزق نوعٌ من أنواع الدعاء والعبادة.

والآية الثالثة - (﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ﴾) -؛ لبيان أنَّ أشد الناس ضلالاً هو الذي يدعو غير اللَّه - والعياذ باللَّه -.

والآية الرابعة - (﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾) -؛ لبيان أنَّ اللَّه عز وجل هو الذي يُستغاث به في الشدائد كما يُستغاث به في الرخاء.

والنَّصّ الخامس - (إِنَّهُ لَا يُسْتَغَاثُ بِي؛ وَإِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِاللَّهِ) -؛ لبيان أنَّ الاستغاثة التي لا يَقدر عليها إلا اللَّه لا تُصرف حتى للأنبياء.

والمصنِّف رحمه الله قال في الآية الأُولى: **(وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ * وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾)**.

(﴿وَلَا تَدْعُ﴾) أي: يا محمد، **(مِنْ دُونِ اللَّهِ)** أي: أيَّ أحدٍ غير اللَّه، **(مَا لَا يَنْفَعُكَ)** يعني: إذا دعوتَه لن يعطيك سُؤلَك ولا حاجتك، **(وَلَا يَضُرُّكَ)** لا يضرُّك لو تركتَ دعوته، ولكن لو لم تدعُ ربك، واستكبرتَ عن عبادته؛ يضرُّك ذلك.

(فَإِنْ فَعَلْتَ) ودعوتَ غير اللَّه؛ (﴿فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ﴾)، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

فظُلْم العبد لنفْسه بالشرك أعظم من أنْ يَظلم الآخرين ويأخذ أموالهم ويَهتك أعراضهم؛ فكونُه أشرك باللَّه فهذا أعظم الظلم.

ثُمَّ فصَّل اللَّه عز وجل في ذلك فقال: (﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾) أي: أنَّ الذي يَملك الخير ودفْع الضر هو اللَّه وحدَه؛ فيجب أن يَتعلَّق المرء باللَّه وحْده، فكلُّ ضرٍّ يرفعه اللَّه عنك؛ كما قال: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢]، ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧].

والنبي صلى الله عليه وسلم بَعْدَ كلِّ صلاةٍ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ»(١).

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الأذان، باب الذكر بعد الصلاة، رقم (٨٤٤)، ومسلمٌ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، رقم (٥٩٣).

فلا يُعطي إلا اللَّه، ولا يَمنع إلا اللَّه، فإن كان الربُّ سبحانه بتلك الصفات العظيمة؛ يجب علينا أنْ نتوجَّه إليه، وأنْ نَرفع حاجاتنا للَّه عز وجل.

ومن كرمِ اللَّه سبحانه لخلْقه أنَّ يدَيه مبسوطتان؛ قال سبحانه: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤].

ويَدُه سُبحَانَه سَحَّاءُ اللَّيلِ والنَّهارِ، لا تغيضُهُ نَفَقَةٌ(١).

ومِن فضْله سبحانه: أنَّه لا يدعو المسلِم بدعوةٍ إلا ويستجيب له؛ كما قال صلى الله عليه وسلم: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ، وَلَا قَطِيعَةُ رَحِمٍ، إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ بِهَا إِحْدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا» قَالُوا: إِذاً نُكْثِرُ، قَالَ: «اللَّهُ أَكْثَرُ»(٢) - أي: ما عنده من الخير والعطاء أكثر-.

---

(١) يشير إلى حديثٍ رواه البخاريُّ، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وكان عرشه على الماء﴾ [هود: ٧]، رقم (٤٦٨٤)، ومسلمٌ، كتاب الزكاة، باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف، رقم (٩٩٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه أحمد في المسند، رقم (١١١٣٣)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي

واللَّه عز وجل مع ما عنده من العطاء يَسْتحِي أَنْ يَردَّ عَبْدَهُ صِفراً، إِذَا رَفَعَ يَدَيهِ إِلَيْهِ(١).

فإذا كانت صفات اللَّه عز وجل المدعو بهذه الصفات العظيمة:

قوَّة، قدرة، كرَم، حياء من أن يردَّ العبد، غنيٌّ، حميدٌ، يعطيك ما شئتَ، وشكورٌ يعطيك فوق ما أعطيت.

وذاك صنمٌ، جمادٌ، لا يَنفع ولا يَضر.

فإلى مَن تَتوجَّه؟

لا شكَّ أَنَّك تَتوجَّه إلى مَن اتَّصف بهذه الصفات العُلى الكاملة، وله سبحانه الأسماء الحسنى.

فكلُّ ضرٍّ لا يَرفعه إلا اللَّه، حتى الذي بيْن البشر فيما يقدرون عليه، إذا أمَر اللَّه برفْعه إذا قدر البشر يرفعه اللَّه، أو لا يرفعه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠].

اللَّه عنه.

(١) رواه الترمذي، أبواب الدعوات، باب، رقم (٣٥٥٦)، من حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه.

فلو كان في قدْرة الرجُل الآخر إعانتك، لكن لم يشأِ اللَّه أنْ يعينك، وإنَّما يُعرض عنك؛ فسيعرض عنك؛ لأنَّ اللَّه أراد ذلك.

إذاً: فحتى فيما يَقدر عليه البشر، قد لا يستطيعون عونك، ولا إغاثتك، فلا يَقدر على كلِّ أمرٍ إلا اللَّه، ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٢٠].

فإن أراد لك خيراً؛ فهو على كل شيءٍ قديرٌ، ومن قوة اللَّه إذا أراد لك خيراً؛ فقط يقول: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧] سبحانه.

ومن الأخطاء الشائعة أنَّ بعض الناس يقول: أمره بين كافٍ ونونٍ، ولكنَّ الصحيح: أمره بالكاف والنون، ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧].

فتوجَّهْ إليه سبحانه، ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾ [المزمل: ٩]، ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الشورى: ١٢]، فما في الكون مقاليدٌ؛ مهيمنٌ ربنا عليه، وقادرٌ عليه بالعطاء والمنع؛ قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦] ، وقال: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩].

إذاً يجب علينا مع اعتقادنا أنَّه لا يَنفعنا إلا اللَّه، ولا يضرُّنا إلا اللَّه؛ أنْ نتوجَّه إلى اللَّه في كلِّ أمرٍ صغيرٍ أو كبيرٍ؛ قال صلى الله عليه وسلم: «وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ» [رواه الترمذي، وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ](١)(٢).

بل إنَّ الضرر المحض في الظاهر الذي قد ينالك أذاه، إذا أراد اللَّه أن لن يمسَّك منه شيءٌ؛ ما استطاع أن يؤذيك؛ قال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وإبراهيم الخليل عليه السلام وُضِع في النَّار؛ ولم يَحترق بأمرٍ من اللَّه.

فكلُّ الأمور بيد اللَّه، فتعلَّق باللَّه وحْده، ومَن تعلَّقَ بغير اللَّه – وهذا هو الشاهد –؛ فقد وَقع في الشرك الأكبر؛ قال سبحانه: ﴿ادْعُونِي

---

(١) متون طالب العلم، المستوى الأوَل، الأربعون النووية، (ص١٠١).

(٢) أبواب صفة القيامة والرقائق والورَع، باب، رقم (٢٥١٦)، من حديث ابن عباسٍ رضي الله عنهما.

أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

ومِن رحمة اللَّه بالإنسان أنَّ اللَّه لم يَأمره بأن يَتوجَّه لغيره؛ لأنَّ التوجه إلى غيره لا يَحصل في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، فمَن حَصلتْ له كربةٌ - مثلاً - وهو مسافرٌ، ومعبوده من دون اللَّه - كالضريح - بعيدٌ عنه؛ لا يستطيع أن يَتوجَّه إليه وهو في كربةٍ.

أمَّا اللَّه عز وجل فأبواب السماء مفتوحة إليه سبحانه وتعالى ليلاً نهاراً؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «يَدُ اللَّهِ مَلْأَى لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ»(١).

ومن دعا غير اللَّه - والعياذ باللَّه -؛ فقد وَقع في الشرك الأكبر.

فلو قلتَ لشخصٍ: لا تَطلب من هذا الوثن حاجتك.

فقال لك: دعني أسأله؛ لأنه لن يَضرَّني إنْ دعوتُه.

---

(١) سبق تخريجه (ص) عند قوله: (ويَدُه سُبحَانَه سَحّاءُ اللَّيلِ والنَّهارِ، لا تُغيضُهُ).

فتقول له: لا يضرُّك؛ يعني: لا يضرُّك إنْ تركتَه، فدلَّ على أنَّه لا شيء، فإن استنجدتَ به لا يَنفعك، ولو تركتَه لا يضرك، فدلَّ على أنَّه عدمٌ وجوده كاللَّاوجود.

أمّا اللَّه عز وجل إنْ دعوتَه استجاب لك، وإنْ أعرضتَ عنه فإنَّ ذلك إعراضٌ واستكبارٌ على اللَّه.

فدلَّ على وجوب توجُّه القلب له، وأنّك مأمورٌ بعبادته.

ثُمّ قال رحمه الله: **(وَقَوْلُهُ: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ﴾ الآيَةَ)**

هذا من قول إبراهيم عليه السلام لقومه؛ أي: إذا أردتم أن تَبحثوا عن الرزق فابتغوه عند اللَّه، تجدوه عنده سبحانه.

والشاهد أنَّ طلب الرزق دعاءٌ، فطلبُ الرزق من غير اللَّه فيما لا يقدر عليه إلا اللَّه؛ شركٌ أكبر.

(**﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ﴾**)، فدلَّ على أن طلبَ الرزق - من المال، والمأكل، والعافية - تُطلب من اللَّه، ومن صرَفها لغير اللَّه وقع في الشرك؛ لأن طلب الرزق عبادةٌ ولا تكون إلا للَّه.

فلا يقول رجُلٌ: يا محمد ارزقني مالاً - والعياذ باللَّه -؛ هذا شركٌ أكبر.

أَمَّا لو طلبَ شخصٌ من رجُلٍ قادرٍ على إعطائه المال، فقال: أعطني مالاً، وهو حيٌّ؛ فلا بأس به.

فلو ذَهب شخصٌ إلى وثنٍ أو ضريحٍ أو لقبر النبي صلى الله عليه وسلم، فيقول: يا رسول اللَّه هيِّئ لي وظيفةً، أو يا رسول اللَّه زوِّجني.

فهذا - والعياذ باللَّه - شركٌ أكبر؛ قال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ [الذاريات: ٢٢]، وليس في الأرض! وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

أَمَّا ما كان في أيدي البشر من الرزق؛ مع عدم ركون القلب إليهم؛ فهذا سببٌ مباحٌ، مثل: لو ذهبتَ إلى رجُلٍ، وقلتَ: هل عندك وظيفةً؟، لكنَّك تَعلم أنَّ اللَّه هو الرزاق، ولكنَّك ذهبتَ له من باب فعْل الأسباب، فالقلب معلَّقٌ باللَّه، والجوارح تَعمل بالسبب؛ فهذا أمرٌ مباحٌ.

أَمَّا أنْ تذهب وتَعتقد أنَّ بيد المخلوق مقاليد الرزق، وبيده كلُّ شيءٍ، وتقول: يا فلان ارزقني وأعطني وظيفةً؛ فهذا من الشرك، ويناله من الشرك بحسب تعلِّقه وتوكِّله على الشخص المطلوب.

والحصر في قوله: (**عِنْدَ اللَّهِ**) يدلُّ على أنَّ طلب ودعاء غير اللَّه فيما لا يَقدر عليه إلا اللَّه، من رزقٍ، وشفاءٍ، وإحياءٍ، وإماتةٍ، ومغفرة ذنوبٍ وغير ذلك؛ شركٌ أكبر - والعياذ باللَّه -.

ثُمّ ذَكر المصنِّف الآية الثالثة؛ وهي شاهد الباب، فقال: (**وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ الآيَتَيْنِ**).

وساقها المصنَّف رحمه الله؛ للدلالة على أنَّ دعوة غير اللَّه فيما لا يقدر عليه إلا اللَّه؛ شركٌ أكبر، وأعظم الضَلال الذي لا ضَلال بعده.

(**﴿وَمَنْ أَضَلُّ**) أي: لا أحدَ في الكون أضلُّ من هذا المُشرك، وهو: (**مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ**)، والسبب عدة أمورٍ:

الأمر الأولَّ: أنَّه دعا أحداً غير اللَّه.

والأمر الثاني: صفات الذي يدعوه، فقال: (**مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾**) أي: لو جَلس أحدٌ عند قبرٍ يدعوه، فلو جَلس إلى يوم القيامة؛ لن يُحقّق له سُؤلَه.

الأمر الثالث: الغفلة؛ قال اللَّه: ﴿وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥]، فهذا الصنم، أو القبر غافلٌ عنه، فهو في قبره إمَّا منعَّمٌ، وإما معذَّبٌ.

والأمر الرابع: أنَّ هذا الذي دعاه من دون اللَّه يَنقلب عدوّاً له يوم القيامة؛ كما قال سبحانه: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾ [الأحقاف: ٦]، فيمن رَضي بالعبادة، وأمَّا مَن لم يرضَ بعبادتهم له؛ فإنَّه لا يَأثم، مِثل: مَنْ دعا عيسى عليه السلام، والنبيَّ عليه الصلاة والسلام.

يعني: الذي تدعوه، وتَطلب منه النفع؛ يوم القيامة سوف يعاديك، ويقول: لماذا دعوتني ولم تدعُ اللَّه؟ وأنتَ ستَجعله عدوّاً في نفْسك يوم القيامة؛ لأنَّ فعْلك هذا سببٌ في هلاكك، ودخولك النَّار.

إذاً هذه الأسباب: عدم الاستجابة، الغفلة، العداوة، والكُفر؛ جَعَلَتْ دعوة غير اللَّه من الضلال.

يعني: لو قال لك شخص: لِمَ تقول أنَّ الشرك من أعظم الذنوب؟

تقول له: لا يَستجيب لك، وغافلٌ عنك، ويوم القيامة بينك وبينه عداوةٌ؛ لأنك لم توجِّه العبادة للَّه، وأيضاً أصبحتَ بذلك من أهل الكُفر.

والأمر الخامس: أنَّ المدعوَّ يَكفر بعبادة ذلك الداعي الذي أتى إلى قبْره يدعوه؛ كما قال سبحانه: ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦].

فدلَّ على أنَّ دعوة غير اللَّه لا نفْعَ فيها البتة؛ بل تُسخط اللَّه ولا تُحقِّق المبتغى.

وأمَّا اللَّه عز وجل فكما قال زكريا: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً﴾ [مريم: ٤]؛ أي: لم تَردَّ لي دعوةً.

ولمَّا انتهى رحمه الله من ذِكر الآيات في دعاء غير اللَّه؛ انتقَل بعد ذلك إلى الاستغاثة، فقال: **(وَقَوْلُهُ: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ الآيَةَ)** أي: المكروب كمَن أَوشك على حريقٍ، أو على حادثٍ، أو مرضٍ.

وساقها المصنِّف رحمه الله؛ لبيان أنَّ الاستغاثة بغير اللَّه، فيما لا يقدر عليه إلا اللَّه؛ كُفْرٌ.

فلا يجيب المضطر سوى اللَّه، ولا يَكشف السوء سوى اللَّه، فمَن صرَف تلك الأفعال لغير اللَّه؛ فقد وَقع في الشرك الأكبر.

فاللَّه عز وجل هو الذي يُجيب الدعاء، ويَكشف عنك ذلك الذي طلبتَه، فلا حاجة لدعاء غير اللَّه سبحانه وتعالى، فغير اللَّه لا يَملك شيئاً،

إنَّما الذي يَملك هو اللَّه؛ كما قال سبحانه: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٠٧].

ثُمَّ ذَكَرَ رحمه الله الحديث الأخير في الباب أيضاً في الاستغاثة، فقال:

(رَوَى الطَّبَرَانِيُّ: «أَنَّهُ كَانَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم مُنَافِقٌ يُؤْذِي الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: قُومُوا بِنَا نَسْتَغِيثُ بِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مِنْ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «إِنَّهُ لَا يُسْتَغَاثُ بِي؛ وَإِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِاللَّهِ»).

قال: **(رَوَى الطَّبَرَانِيُّ: «أَنَّهُ كَانَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم مُنَافِقٌ يُؤْذِي الْمُؤْمِنِينَ»)** وهو عبد اللَّه ابن أُبَيٍّ بن سلول.

(فَقَالَ بَعْضُهُمْ: قُومُوا بِنَا نَسْتَغِيثُ بِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم) أي: نَطلب منه أن يَكفَّ أذى هذا المنافق عنا، فالنبي صلى الله عليه وسلم بشرٌ؛ بل حتى هو آذوه عليه الصلاة السلام.

(فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: إِنَّهُ لَا يُسْتَغَاثُ بِي) أي: لا يُطلب مني الغَوْث، وتفريج الكربة، وهذا فيما لا يَقدر عليه إلا اللَّه.

(وَإِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِاللَّهِ) وحْده سبحانه وتعالى.

يعني: كيف تطلبون منِّي شيئاً؛ فهو بشرٌ وأنا بشرٌ، هو يَمرض وأنا أمرض، هو يموت وأنا أموت؛ فاستغيثوا باللَّه.

وهذا يدلُّ على أنَّ الداعي إذا ذُكِر له الخطأ؛ يبيِّن الصواب.

فلو قال لك شخصٌ: أين قبر النبي صلى الله عليه وسلم؟ أريد أنْ أدعوه؛ تقول له: لا يجوز، وادعُ اللَّه عز وجل.

فلا تقل: لا يجوز فقط وتَسكت؛ بل توجِّهه للصواب.

ولو قال لك شخصٌ: أريد قراءة التوراة.

تقول له: لا يجوز، واقرأ القرآن، فتُبيِّن له الخطأ والصواب.

وهذا منهج القرآن والسنة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، والخطأ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] وهكذا.

وكلُّ نداءٍ مصدَّرٌ بكلمة: [يا]؛ فهو دعاءٌ.

فلو قلتَ: يا خالد بن الوليد، قُمْ، وأَصلح الأمة.

فنقول: -والعياذ باللَّه - هذا شركٌ أكبر؛ بل قل: يا ربِّ أَصلح أحوال الأمَّة، فخالد بن الوليد في قبره لا يَنفعك، ولا يَضرُّك، ولا

يَسمعك؛ بل قد لا تَعرف أين قبره؟، ولو عرفتَه؛ قال اللَّه: (﴿**وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ**﴾).

لكن كلمة: وامُعتَصمَاه؛ ليست دعاءً؛ وإنَّما نُدبة، والنُّدبة أخفُّ.

أمَّا إذا كان المخلوق حيّاً، حاضراً، قادراً على كشف الكربة؛ فيجوز.

مِثل: لو وَقع حادثٌ لشخصٍ وهو في السيارة، وقال لمن حوله: أغثني، أو أَنقذني؛ فهذا يجوز، لقوله سبحانه: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢].

أمَّا الذي لا يَقدر عليه إلا اللَّه؛ فقال سبحانه: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩]، فاللَّه سميعٌ قويٌّ قديرٌ، تستغيثه؛ يستجيب لك، تدعوه؛ يستجيب لك.

حتى الكافر إذا كان مضطراً يستجيب اللَّه دعاءه، ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]؛ قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله:

«دلَّ على أنَّ الكافر قد يُسلِم، فلمَّا رَكب البحر، وحَصلت له الضراء؛ أَسلم، فنجَّاه اللَّه ممَّا فيه من الكَرب»[١].

قال القرطبي رحمه الله: «ومَن أراد أنْ يؤمن بأنَّ اللَّه هو القادر؛ فليَركب البحر، فإذا حَلَّت الأمواج؛ يستغيث باللَّه»[٢].

فيجب على المسلم أن يُعلِّق قلبه باللَّه وحْده سبحانه، وأن يُنزل به حاجاته؛ بل يُنزِل به تفاصيل حاجاته، واللَّه عز وجل يُحبُّ ذلك.

***

(١) الجواهر المضية (ص٢١).

(٢) تفسير القرطبي (٧/ ٣٤١).

[١٥]

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً﴾ الآيَةَ

وَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ الآيَةَ.

فِي الصَّحِيحِ: عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: «شُجَّ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يَوْمَ أُحُدٍ، فَقَالَ: كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ؟! فَنَزَلَتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

وَفِيهِ: عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما: «أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم - إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فِي الرَّكْعَةِ الآخِرَةِ مِنَ الفَجْرِ - يَقُولُ: اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلاَناً، وَفُلاَناً، وَفُلاَناً؛ بَعْدَمَا يَقُولُ: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ»؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

وَفِي رِوَايَةٍ: «يَدْعُو عَلَى صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ، وَسُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو، وَالحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ؛ فَنَزَلَتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

وَفِيهِ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: «قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم حِينَ أُنْزَلَ عَلَيْهِ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾؛ قَالَ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا - اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ؛ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً.

يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ! لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً.

يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ! لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً.

وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ! سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي؛ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً».

الشرح:

قال رحمه الله: (بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً﴾ الآيَةَ).

هذا بابٌ عظيمٌ ساقه المصنِّف؛ لبيان بطلان عبادة المشركين، وأنَّ دعوة غير اللَّه لا تَنفع؛ بل تضر.

وهذا الباب فيه الردُّ على كلِّ مشرِكٍ، سواء يدعو الملائكة، أو الأنبياء، أو الصالحين، أو الأصنام، أو الأنداد.

وفيه الردُّ على حال المدعُوِّين الذين يَدعونهم من دون اللَّه.

ففي الباب السابق بَيَّنَ أنَّ مِن الشرك أن يستغيث بغير اللَّه، أو يدعو غيره، وهنا عامٌّ في الاستغاثة، وفي الدعاء، وفي الذبح، وفي النَّذر، وفي الطواف، وفي الرجاء، والخوف، والتوكُّل على المعبودات وغير ذلك.

فساق المصنِّف رحمه الله هذا الباب؛ لبيان أنَّ المعبودات من دون اللَّه ضعيفةٌ، لا تُحقِّق المبتغَى.

وساق المصنِّف رحمه الله في هذا الباب ستة نصوصٍ:

النَّصُّ الأوَّل: ساق الآية - (**﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾**) -؛ لبيان أنَّ المعبودات من دون اللَّه لا تَخلق، ولا تَنصر غيرها، ولا تَنصر نفْسها.

النَّصُّ الثاني - (**﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾**) -: ساقها؛ لبيان أنَّ المعبودات من دون اللَّه لا تَملك شيئاً ولا قِطمِيراً سواء من الملائكة، أو من غيرهم.

النَّصُّ الثالث - حديث أنسٍ رضي الله عنه -؛ لبيان أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم لم يستطع أن يَدفع عن نفسه الأذى يوم أُحدٍ.

النَّصُّ الرابع - حديث ابن عمر رضي الله عنهما -: أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم وهو في الصلاة، ويَؤمُّ الناس والصحابة خلْفه يُؤَمِّنُونَ

ويدعو على أناسٍ؛ وأنزل اللَّه: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾؛ فهدايتهم ليست عندك.

النَّصُّ الخامس؛ لبيان أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم لا يَملك نفعاً لأحدٍ، أو جلب ضرٍّ لأحدٍ، فالذين كان يدعو عليهم، الثلاثة جميعهم أَسلموا، مع دعائه عليه الصلاة والسلام عليهم باللَّعنة.

والنَّصُّ السادس: ساقه المصنِّف؛ لبيان أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم لا يَملك لعشيرته الأقربين شيئاً؛ حتى ابنته لا يَملك لها شيئاً.

لذلك قال المصنِّف رحمه الله: (**بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾**).

جَعل المصنَّف رحمه الله عنوان هذا الباب الآية؛ لعظمة هذا الباب، لقطْع دابِر الشرك.

قال: (**بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾**) هذا استفهامٌ إنكاريٌّ، وتوبيخٌ، وتعنيفٌ على مَن يُشرك باللَّه شيئًا، فكيف تُشرك بما لا يَخلق شيئاً؟!

(﴿مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً﴾) فكيف يَدْعون نبياً، أو صنماً، أو شجراً، وهذه مخلوقةٌ من اللَّه، وليست قادرةً على خلق شيءٍ؛ فالخلْق كلُّه للَّه، والأمر للَّه.

فهذه التي تُدعى من دون اللَّه لا تَخلق شيئاً، فلماذا تعبدونهم؟ واللَّه يقول: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فلم يشاهدوا وأنا أَخلق، ولم يكونوا مساعدين ومعاونين لي في خلْق السماوات والأرض؛ لضعفهم ووهْنهم، فهم لا يستطيعون أن يخلقوا شيئاً، ومع ذلك هم المخلوقين: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧]، فالواجب على الداعي هذا أنْ يَتوجَّه إلى اللَّه بالعبادة والدعاء.

فمِن صفات المعبود أنه يَخلق، والأصنام لا تَخلق؛ فبَطلت عبادتهم، **وهذا السبب الأوّل**، قال سبحانه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ المُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ المَوْتَ وَالحَيَاةَ﴾ [الملك: ١-٢]، وقال: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [الأنعام: ٧٣].

والسبب الثاني: أنّها لا تستحق العبادة، وأنّها مخلوقةٌ؛ قال سبحانه: (﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾) فمخلوقٌ يَطلب مخلوقاً؛ هذا أمرٌ باطلٌ.

والسبب الثالث: أنَّها لا تستطيع أن تَنفع غيْرها؛ لذلك قال: (﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً﴾) أي: الآلهة - من الأموات، والأصنام - لا تَنصر أحداً يستغيث بها.

فتلك المعبودات لا تستطيع نصْر الأحياء؛ بل إنَّ الأحياء هم الذين يَحملون الأموات، ويأخذونهم من مكانٍ إلى مكانٍ آخر.

والسبب الرابع: أنَّها لا تستطيع أيضاً نصْر نفْسها، لذلك قال: ﴿وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٢]، لا يستطيعون نصْر أنفسهم، فلو أتاهم ماءٌ؛ ما استطاعوا أنْ يردُّوا الماء عنهم، ولو أتاهم شيءٌ من حشرات الأرض؛ ما استطاعوا ردَّه عن أجسادهم أيضاً.

فالميت – مثلاً – تُقلِّبه ولا يستطيع أن يَدفع عن نفْسه شيئاً؛ بل قد تُحرِقه ولا يستطيع أن يَمنع عن نفْسه النَّار.

فدلَّ على بطلان عبادة غير اللَّه سبحانه وتعالى.

فاللَّه سبحانه وتعالى يستحق العبادة؛ لأنه يَخْلُق، ولأنه يَنْصُرُ سبحانه وتعالى؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وقال: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ١٠].

وهاتان الصفتان: (﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾) أبلغ من السابقة، فلا يستطيع نصْر مَن يدعوه من دون اللَّه؛ بل لا يستطيع نصْر نفْسه.

فدلّ على أنَّ الخالق الناصر القويَّ القدير العظيم؛ هو المستحقُّ للعبادة سبحانه.

ففيما ساقه المصنِّف رحمه الله ردٌّ على كل مَن دعا غير اللَّه.

ثُمّ قال: (وَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾).

ساق المصنَّف رحمه الله هذه الآية؛ لبيان حال المُدْعَوْن من دون اللَّه، فكلُّ ما يُدعى من دون اللَّه لا يَملك شيئاً في الكون، حتى لو مَلَكَ شيئاً جزئيّاً سيموت ويَرحل عنه، لذلك قال: (﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾).

والقِطمير: هو اللّفافة الرقيقة الخفيفة التي فوق نواة التمر[١]، فهذه القشرة لا تستطيع الملائكة أنْ تَخلقها.

---

(١) الصحاح للجوهري (٢/ ٧٩٧).

فإذا كان هذا الشيء اليسير، وأعظم خلْق اللَّه – الملائكة – لا يستطيعون خلْقها؛ فمِن باب أوْلى غيرهم لا يَخلقون شيئاً حتى القشرة الرقيقة.

فدلَّ على أنَّ من صِفات المعبود المُلك؛ كما قال سبحانه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك: ١].

أمَّا المخلوق فمُلكه زائلٌ؛ كما قال سبحانه: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥٨].

﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤]؛ أيْ: لا ينبئك بحال المدعوِّين بأنَّهم لا يَسمعون دعاءكم، ولو سَمعوا لا يستجيبون لكم، ويوم القيامة يَكفرون بشرككم، فلا ينبئك مِثل هذه الأخبار؛ إلَّا خبيرٌ وعالمٌ بأحوالهم، وهو اللَّه سبحانه.

ولمَّا بيَّن المعبودات السابقة سواء كانت من الملائكة، أو مِن غيرهم؛ ذَكر بعد ذلك حقيقة النبي صلى الله عليه وسلم الذي هو أفضل

الخَلق أنه لا يَملك نفعاً لأحدٍ، ولا يستطيع أن يَدفع عن نفْسه الضر، فقال:

(فِي الصَّحِيحِ) أي: صحيح البخاريِّ.

(عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: شُجَّ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يَوْمَ أُحُدٍ) (شُجَّ) أي: أصابه جُرحٌ، الشَّجَّة: الجُرح على الرأس والوَجه[1]، والوجه فيها أخصُّ.

فشُجَّ النبي صلى الله عليه وسلم حتى أتت فاطمة رضي الله عنها ووَضعتْ عليه الرَّمَاد؛ فتوقَّف الدم.

(وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ) (رَبَاعِيَتُهُ) السِّنَّان الأوَّلان من النبي صلى الله عليه وسلم، ولم تُكسَر الرَّباعية أصلها، وإنَّما شيءٌ يسيرٌ.

وفي مسلمٍ[2]: «جُرِحَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ - الرباعية: السِّنُّ الأَيْمَنُ، والأَيْسَر الَّذي عِندَ الثنيِّ الأَعْلَى وَالأَسْفَل -، وَهُشِمَتِ البَيْضَةُ عَلَى رَأْسِهِ، فَكَانَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ

(١) الصحاح للجوهري (١/ ٣٢٣).

(٢) كتاب الجهاد والسير، باب غزوة أحد، رقم (١٧٩٠)، من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي اللَّه عنه.

رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم تَغْسِلُ الدَّمَ، وَكَانَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ يَسْكُبُ عَلَيْهَا بِالمِجَنِّ، فَلَمَّا رَأَتْ فَاطِمَةُ أَنَّ المَاءَ لَا يَزِيدُ الدَّمَ إِلَّا كَثْرَةً، أَخَذَتْ قِطْعَةَ حَصِيرٍ فَأَحْرَقَتْهُ حَتَّى صَارَ رَمَاداً، ثُمَّ أَلْصَقَتْهُ بِالجُرْحِ، فَاسْتَمْسَكَ الدَّمُ».

(فَقَالَ: كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ؟!) أي: لن يُفلح قومٌ شَجُّوا نبيهم، فنفى النبي صلى الله عليه وسلم الفلاح عن الذين قاتلوه؛ لكونهم شَجُّوا نبيهم.

(فَنَزَلَتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾) أي: ليس لك أن تَمنع الفلاح عنهم، فهذا ليس بيدك، فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يَستطع دفْع الضرِّ؛ بل سال الدم عن وجهه، وكسرت رباعيته، وكسَرها عبد اللَّه بن قَمِئَه.

ونهى اللَّه عز وجل النبي أن يَنفي السعادة، والظفر، والفوز عن غيره.

فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم لم يستطع وهو حيٌّ أن يَدفع الضرَّ عن نفْسه؛ فغير النبي صلى الله عليه وسلم أَولى، وكذا لو كان ميتٌ وهو غير النبي صلى الله عليه وسلم أَولى وأَولى.

ثُمّ قال: (وَفِيهِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما: «أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم - إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فِي الرَّكْعَةِ الآخِرَةِ مِنَ الفَجْرِ) أي: الأخيرة.

(يَقُولُ: اللَّهُمَّ العَنْ فُلاَنَاً، وَفُلاَنَاً، وَفُلاَنَاً؛ بَعْدَ مَا يَقُولُ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ»؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾).

(وَفِيهِ) في البخاري، وأيضاً في مسلمٍ.

أي: لا تَلعن أحداً ولا تستطيع ذلك؛ كما قال سبحانه: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا البَلَاغُ﴾ [المائدة: ٩٩]، وقال: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ [هود: ١٢]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧].

فالنبي صلى الله عليه وسلم هنا في الصلاة ويدعو ويؤمِّن خلْفه الصحابة؛ واللَّه يقول: (﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾) هدايتهم بيد اللَّه، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

(وَفِي رِوَايَةٍ: يَدْعُو عَلَى صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ، وَسُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو، وَالحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ) وكل هؤلاء أسلموا، (فَنَزَلَتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾).

واللَّعن أقسامٌ:

القِسم الأوَّل: لعْن عموم الكافرين، والظالمين؛ فهذا يجوز.

والقِسم الثاني: لعْن عموم الفسَّاق، مثل: لعَن اللَّه السارق، لعَن اللَّه الزاني؛ فهذا يجوز.

والقِسم الثالث: لعْن المؤمن؛ وهذا لا يجوز؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لَعْنُ الْمُؤْمِنِ كَقَتْلِهِ»(١).

والقِسم الرابع: لعْن الكافر المعيَّن؛ وهذا الراجح لا يجوز؛ لأن اللَّه عزَّ وجلَّ أنزل: (﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ**﴾)، لمَّا عيَّن النبي صلى الله عليه وسلم أشخاصاً.

والقِسم الخامس: لعْن المنافقين على سبيل العموم؛ فهذا جائزٌ.

والقِسم السادس: لعْن الفاسق بعينه؛ وهذا لا يجوز، مِثل: اللَّهم العن زيداً؛ لأنَّه يَحلق لحيته؛ هذا لا يجوز.

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الأَدب، باب ما ينهى من السباب واللَّعن، رقم (٦٠٤٧)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفْسه، وأنَّ من قتل نفسه بشيءٍ عُذِّب به في النَّار، وأنه لا يدخل الجَنَّة إلا نفسٌ مسلمةٌ، رقم (١١٠)، من حديث ثابت بن الضحاك رضي الله عنه.

وهذا الحديث يدلُّ على عدَّة مسائل:

المسألة الأُولى: دلَّ على أنَّه عند النوازل يجوز أنْ يَقنُت الشخص على المشْركين، فالنبي صلى الله عليه وسلم قَنَتَ على المشركين.

المسألة الثانية: دلَّ على أنَّ القنوت في الركعة الأخيرة في صلاة الفجر، وأيضاً في غيرها؛ فورَد في صَلاة الفَجرِ والمَغْرِب[١]، ووَرَدَ فِي صَلاةِ العَصْرِ والمَغْرِبِ[٢].

المسألة الثالثة: دلَّ على أنَّه في حال النوازل لا يطيل الشخص في القنوت.

المسألة الرابعة: دلَّ على أنَّ القنوت يَرفع صوته فيه، فقوله: (**أَنَّهُ سَمِعَ**)؛ دلَّ على أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم رَفع صوته فيها.

---

(١) رواه البخاريُّ، أبواب الوتر، باب القنوت قبل الركوع وبعده، رقم (١٠٠٤)، من حديث أنس بن مالكٍ رضي الله عنه، ومسلمٌ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نَزلت بالمسلمين نازلةٌ، رقم (٦٧٨)، من حديث البراء رضي الله عنه.

(٢) رواه أحمد في المسند، رقم (٢٧٤٦)، من حديث ابن عباسٍ رضي الله عنهما.

والشاهد من الحديث: أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم دعا على ثلاثةٍ بأعيانهم وبأسمائهم باللَّعْن والطرد من رحمة اللَّه، ومع ذلك ليس له من الأمر شيءٌ، والهداية والضلال بيد اللَّه؛ بل وأَسلموا جميعهم، وحسُن إسلامهم.

فدلَّ على أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم لا يَملك شيئاً.

وذَهب بعض أهل العِلم[1] إلى جواز لعْن الكافر بعينه؛ لهذا الحديث.

وقال بعضهم[2]: أنَّه أتى النهي: (﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ**﴾)؛ فدلَّ على عدم تخصيص الأعيان؛ وإنَّما يجوز لعْن الكافرين على العموم،

(١) وهم بعض المالكية والحنابلة. أحكام القرآن لابن العربي (١/ ٧٤)، الفروع لابن مفلح (١٠/ ١١١٩)، الإنصاف للمرداوي (١٠/ ٢٥٠).

(٢) وهم الحنفية وبعض المالكية والشافعية، واختاره شيخ الإسلام رحمه اللَّه. حاشية ابن عابدين (٣/ ٤١٦)، أحكام القرآن لابن العربي (١/ ٧٤)، أسنى المطالب لزكريا الأنصاري (٤/ ٣٤٦)، مختصر الفتاوى المصرية للبعلي (١/ ٥١٢).

كما قال تعالى: ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩]، وقال: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨].

ثُمّ بعد ذلك قال: (وَفِيهِ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: «قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم حِينَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾)، نذارةٌ خاصَّةٌ؛ يعني: قومك المقرَّبين إليك، ولمَّا نزلت: ﴿أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ [يونس: ٢]؛ هذه نذارةٌ عامَّةٌ.

ولمَّا نزلتْ: (﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾)؛ نادى صلى الله عليه وسلم فقال: (يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ!)، و(مَعْشَرَ) جماعة.

فنادى النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا: «يَا صَبَاحَاهْ»(١).

ثُمّ بَدأ يُنادي فروع قريش، فقال: (يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا - اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ) يعني: أَنقذوا أنفسكم، (لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ

(١) رواه البخاريُّ، كتاب تفسير القرآن، بَابُ قَوْلِهِ: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾ [النصر: ٣]، رقم (٤٩٧١)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، بابٌ في قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، رقم (٢٠٨)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

شيئًا)، فمَن مات على الكُفر مِن قبيلته؛ فالنبي صلى الله عليه وسلم لا يستطيع منْعه مِن دخول النَّار.

ولمَّا عمَّم النبي صلى الله عليه وسلم على القبيلة؛ بدأ يُخصِّص الأفراد، فقال: (يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ المُطَّلِبِ!) فبَدأ بعمِّه، (لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً).

ثُمَّ نادى عمَّته: (يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ! لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً).

ثُمَّ نادى مَن هي بضعةٌ مِنه؛ وهي ابنته فاطمة رضي الله عنها، فقال: (وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ! سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي؛ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً).

فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يستطيع أن يَنفع ابنته، وعمَّته، وعمَّه، وقبيلته؛ فمِن باب أَولى أنَّه لا يستطيع أنْ يَنفع غيرهم أيضاً.

فالنافع الضارُّ هو اللَّه سبحانه وتعالى؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ [يونس: ١٠٧].

فدلَّ على أنَّ التعلَّق بالأموات أو غيرهم من الأوْلياء، أو الصالحين، أو الجِنِّ، أو الملائكة؛ كلُّ ذلك باطلٌ، ومن الشرك الأكبر - والعياذ باللَّه -.

(اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ) أنقِذوها بالإيمان، فاشتروا الآخرة بالدنيا.

(سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي) الذي أَملكه لكِ يا ابنتي هو المال، فخذي ما شئتِ من المال، لكن اسعِ إلى طريق الهداية والرشاد، فأنا لا أَملك لكِ شيئاً.

فدلَّ على أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم لا يَملك لغيره نفعاً ولا ضراً.

(لَا أُغْنِي) هذا إقرارٌ وبيانٌ من النبي صلى الله عليه وسلم لجميع الأمَّة أنه لا يَملك نفعاً ولا ضراً.

فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم قد بيَّن وأَعلن أنَّه لا يَملك مغفرةً؛ فمِن باب أَولى لا يَملك ضراً ولا نفعاً.

والمراد من الباب: الردُّ على كلِّ مشْركٍ يَتعلَّق بالمَشْرُوكَات من دون اللَّه - مِن الملائكة إلى النَّمل -.



[١٦]

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الحَقَّ وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ﴾

فِي الصَّحِيحِ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: «إِذَا قَضَى اللَّهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ؛ ضَرَبَتِ المَلاَئِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خَضَعَاناً لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ، ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الحَقَّ وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ﴾، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا، بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ - وَصَفَهُ سُفْيَانُ بِكَفِّهِ فَحَرَّفَهَا، وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ -.

فَيَسْمَعُ الكَلِمَةَ فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوِ الكَاهِنِ.

فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِئَةَ كَذْبَةٍ، فَيُقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا؟ فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ».

وَعَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُوحِيَ بِالأَمْرِ؛ تَكَلَّمَ بِالوَحْيِ، أَخَذَتِ السَّمَوَاتِ مِنْهُ رَجْفَةٌ - أَوْ قَالَ: رِعْدَةٌ شَدِيدَةٌ - خَوْفاً مِنَ اللَّهِ عز وجل.

فَإِذَا سَمِعَ ذَلِكَ أَهْلُ السَّمَوَاتِ؛ صَعِقُوا، وَخَرُّوا لِلَّهِ سُجَّداً، فَيَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ، فَيُكَلِّمُهُ اللَّهُ مِنْ وَحْيِهِ بِمَا أَرَادَ.

ثُمَّ يَمُرُّ جِبْرِيلُ عَلَى المَلَائِكَةِ، كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ سَأَلَهُ مَلَائِكَتُهَا: مَاذَا قَالَ رَبُّنَا يَا جِبْرِيلُ؟ فَيَقُولُ جِبْرِيلُ: قَالَ الحَقَّ، وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ.

قال: فَيَقُولُونَ كُلُّهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ جِبْرِيلُ.

فَيَنْتَهِي جِبْرِيلُ بِالوَحْيِ إِلَى حَيْثُ أَمَرَهُ اللَّهُ عز وجل».

الشرح:

بوَّب المصنِّف رحمه الله هذا الباب على آيةٍ.

وأحياناً يبوِّب على حديثٍ، وأحياناً يذكر حُكماً مُجمَلاً، وأحياناً يذكر سؤالاً مستفهِماً.

قال رحمه الله: (بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الحَقَّ وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ﴾).

ساق المصنِّف رحمه الله هذا الباب؛ لبيان حال مخلوقَيْن عظيمَيْن مع اللَّه عز وجل إذا تَكلَّم سبحانه وتعالى بالوحي؛ كيف يكون حالهم من الخضوع والذُّلِّ والخوف منه سبحانه وتعالى، والتعظيم له.

فإذا كان هذا هو حال هذيْن المخلوقَيْن العظيمَيْن بتعظيمهم للَّه وخوفهم فيذلُّون، ويُصعَقون، ويُغمى عليهم، ويُغشى عليهم؛ دلَّ على أنَّه لا يُصرف لهم شيءٌ مِن العبادة.

فمَن يأخذه خَوفٌ، ويَذلُّ، ويَخضع، ويَنكسر؛ كيف يُعبَد؟!

فمِن باب أوْلى ما هو أدنى في الخِلقة لا يُعبَد؛ من الأصنام والأوثان والأنبياء والصالحين.

فدلَّ على أنَّ هؤلاء لا يَصلحون للعبادة، وغيرهم من باب أَولى؛ لذلك يقال[1]: «هذه الآية: (﴿**حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ**﴾) تَقطع عروق الشرك من أصوله»؛ يعني: أنَّها حُجَّةٌ قويةٌ في إخراج الشرك من القلب.

والمصنِّف رحمه الله ذَكر آيةً وحديثين.

---

(١) قاله ابن القيِّم رحمه الله. الصواعق المرسلة (٢/ ٤٦١).

الآية الأُولى – (﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾) –: بيان حال الملائكة إذا تَكلَّم اللَّه عز وجل.

والنَّصُّ الثاني – حديث أبي هريرة رضي الله عنه –: بيان صِفة تلك الحال.

والنَّصُّ الثالث – حديث النوَّاس رضي الله عنه –: صفة المخلوق الثاني، وهي السماوات إذا تَكلَّم اللَّه عز وجل بالأمر.

قال: (بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾) هذا من بديع تصنيف المؤلِّف رحمه الله؛ إذ بوَّب على الباب بآيةٍ، كصنيع كبار الأئمَّة؛ كالإمام البخاريِّ رحمه الله(١)، والنسائيِّ(٢)، وغيرهما.

قال: (﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾) أي: عن قلوب الملائكة بعد أنْ أصابهم من الفزع والخوف ما يأتي وصفُه.

---

(١) هو: أبو عبد اللَّه محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بَرْدِزْبَهْ الجعفي مولاهم البخاري، وُلد سنة (١٩٤هـ)، وتوفي سنة (٢٥٦). تذكرة الحفاظ للذهبي (٢/ ١٠٤).

(٢) هو: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر الخراساني، وُلد سنة (٢١٥هـ)، وتوفي سنة (٣٠٣هـ).تذكرة الحفاظ للذهبي (٢/ ١٩٤).

(﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾) أي: أنَّ اللَّه عز وجل إذا تَكلَّم بالوحي - كما سيأتي في حديث النواس رضي الله عنه -؛ يُغشى على الملائكة، فيكون أوَّل من يُفيق هو جبريل عليه السلام، فيكلِّمه اللَّه بالوحي بما أراد.

ثُمَّ إذا أفاق بقيَّةُ الملائكة يقولون لجبريل: ماذا قال ربُّنا؟

فيقول: قَالَ: (﴿الحَقَّ وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ﴾).

فكلُّهم يقولون: قَالَ: (﴿الحَقَّ وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ﴾).

ثُمَّ يُنفذ جبريل عليه السلام أمر اللَّه كما شاء سبحانه وتعالى.

فقوله: (﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾) يدلُّ على أن الملائكة تُفزَع مِن كلام اللَّه.

ويدلُّ على أنَّ للملائكة قلوباً.

(﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾)، قوله: (﴿قَالَ رَبُّكُمْ﴾) فيه إثبات القول والكلام للَّه سبحانه وتعالى.

وقوله: (﴿قَالُوا الحَقَّ﴾) فيه إثبات اسم الحقِّ للَّه عز وجل، وهو حقٌّ، موصوف بالحق أيضاً، فقوله حقٌّ، ووعدُه حقٌّ، وهو حقٌّ سبحانه وتعالى.

(﴿وَهُوَ العَلِيُّ﴾) فيه إثبات صفة العلوِّ للَّه سبحانه وتعالى.

(﴿الكَبِيرُ﴾) فيه إثبات صفة الكِبَر للَّه سبحانه وتعالى على ما يليق بجلاله وعظمته.

ثُمَّ قال: (فِي الصَّحِيحِ) صحيح البخاريِّ، ورَوى نحوه مسلم.

يبيِّن هذا الحديث ما هو حال الملائكة عند كلام اللَّه عز وجل، وأمْرِهم بالأمر.

(عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «إِذَا قَضَى اللَّهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ) أي: إذا تَكلَّم به - كما في حديث النَّوَّاس رضي الله عنه -.

وهذا الحديث يدلُّ على أنَّ اللَّه يَتكلَّم، وهو سبحانه يتكلَّم بما شاء، متى شاء، كيف شاء، إذا شاء سبحانه.

(ضَرَبَتِ المَلاَئِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا) تذِلُّ وتخضع ذُلّاً وانكساراً وخوفاً وذُعراً من اللَّه عز وجل.

فيدلُّ على أنَّ للملائكة أجنحةً؛ كما قال سبحانه: ﴿أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [فاطر: ١]، وفي الصحيحين(١) أنَّ «جِبْرِيلَ عليه السلام لَهُ سِتُّ مِئَةِ جَنَاحٍ»، كلُّ جناح منها قد سَدَّ الأُفق.

وضرْب الملائكة بأجنحتها: (خَضَعَاناً لِقَوْلِهِ) أي: خُضوعاً له سبحانه وتعالى.

فإذا كانت الملائكة تَخضع لكلام اللَّه إذا تَكلَّم، ويُغشى عليها؛ فدلَّ على أنَّه لا يجوز أن يُصرف لها شيءٌ من العبادة.

والملائكة هم أكبر مخلوقٍ عُبِدَ من دون اللَّه؛ لذلك ذَكر النبي صلى الله عليه وسلم حالهم هذه.

قال: (كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ) أي: كأنَّ كلام اللَّه عز وجل (سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ) السلسلة معروفة، وهي: حِلَق الحديد المتداخلة،

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب بدْء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء، آمين فوَافقت إحداهما الأخرى؛ غُفر له ما تَقدم من ذنْبه، رقم (٣٢٣٢)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ [النجم: ١٣]، رقم (١٧٤)، من حديث ابن مسعودٍ رضي اللَّه عنه.

(عَلَى صَفْوَانٍ) الحَجر الأملس؛ أي: دويٌّ قويٌّ، فالسلسة على الصفوان تُخرج صوتاً قوياً.

فإذا تَكلَّم اللَّه كأنَّ كلامه سلسلةٌ على صفوانٍ، تَخضع منه الملائكة.

(يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ) أي: ذلك الصوت يَنفذ إلى قلوب الملائكة، ويُفزعهم، ويَخضعون للَّه عز وجل.

ثُمَّ استشهد النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الموقف بقوله: (﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الحَقَّ وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ﴾) يعني: لم يقل إلا حقّاً سبحانه.

فإذا تكلَّم اللَّه؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم: (فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ) يعني: الذي يَسرق السمع من الشياطين.

(وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا، بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ - وَصَفَهُ سُفْيَانُ بِكَفِّهِ فَحَرَّفَهَا) أيْ: أمالها، (وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ) يعني: فرَّق.

بمعنى: شيطانٌ، فوق شيطانٍ، فوق شيطانٍ؛ بعضهم فوق بعضٍ إلى السماء الدنيا؛ لذلك في الحديث الآخر قال: «إِنَّ المَلَائِكَةَ تَنْزِلُ فِي العَنَانِ»(١)؛ يعني: إلى العنان، وَهُوَ السَّحَاب.

فدلَّ على أن اللَّه عز وجل يَتكلَّم، وأنَّ جبريل يُبَلِّغ كلام اللَّه.

ويدلُّ على أن الجِنَّ لهم قوَّةٌ خارقةٌ، فيَصطفُّ بعضهم فوق بعضٍ إلى علوٍّ شاهقٍ.

قال: (فَيَسْمَعُ الكَلِمَةَ) أي: الشيطان، (فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوِ الكَاهِنِ) فدلَّ على أن السحرة يستعينون بالشياطين، وكذلك الكهَّان.

و(**السَّاحِرِ**) هو من يَعمل أعمالاً شيطانيةً تكون سبباً في ضرر الآخرين.

أمَّا (**الكَاهِنِ**) هو الذي يدَّعي عِلم الغيب في الزمن المستقبل.

والعرَّاف: الذي يدَّعي عِلم الغيب في المكان.

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب بدْء الخلق، باب ذكْر الملائكة، رقم (٣٢١٠)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

وقوله: (فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا) كانت الشياطين قبْل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم تَسترق السمع بكثرةٍ، ولمَّا بُعث النبي صلى الله عليه وسلم حَفظ اللَّه السماء منهم؛ كما قال سبحانه عن الجِنِّ: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً﴾ [الجِن: ٩].

فلحِكمةٍ من اللَّه يجعلهم يَأخذون شيئاً من الكلام؛ فتنةً للناس، عن طريق السحرة والكهان كما سيأتي.

قال: (وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا) الشيطان على لِسان الساحر، أو الكاهن، (قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ) الشهاب.

(فَيَكْذِبُ) أي: الساحر، أو الكاهن، (مَعَهَا مِئَةَ كَذْبَةٍ) أي: مع تلك الكلمة.

فالشياطين يَرتقي بعضهم على بعضٍ إلى ما يَتكلَّمه الملائكة فيما يقول ربهم، وأحياناً يرتقون إلى العَنان - إلى السماء الدنيا -؛ فيَسمعون ما تَتكلَّمه الملائكة بما قضى اللَّه به الأمر، مثلاً قول: فلان سيموت.

فيسمعها مُسترق السمع، فإذا سَمعها الأعلى؛ يلقيها إلى مَن تحته، فربَّما هذا الذي تحته قد يُدركه الشهاب؛ فيقتله قبْل أنْ يلقيها، فلا

يعلمون ماذا قُضِيَ في السماء، وقد يُلقيها قبْل أنْ يدركه الشهاب؛ فتنةً وبلاءً وامتحاناً.

ثُمّ يلقونها إلى مَن كفَر باللَّه مِن الكُهَّان؛ فيُلقيها على الكاهن، أو الساحر، أو العرَّاف؛ فتكون فتنةً على الناس، ويَكذب معها مئة كذبةٍ.

(فَيُقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا؟) فيقول أهْل الباطل بعضهم إلى بعضٍ – إنْ قيل لهم: كيف تصدِّقون هذا الكاهن وهو كاذبٌ –: إنَّه قال يوم كذا سيموت فلانٌ؛ وصَدقَ.

فنَسوا ما كان يَكذب فيه، وأَخذوا ما صَدق فيه.

(فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الكَلِمَةِ التي سُمِعَت مِنَ السَّمَاءِ) يعني: لم يستطع أنْ يَعلم شيئاً من الغيب، وإنَّما ممَّا خُطِفَ له من السماء.

فدلَّ على ضَعف الإنسان؛ إذ يُصدِّق بكلمةٍ واحدةٍ، ومئة كلمة كلُّها كذبٌ.

ويدلُّ أيضاً على أنَّ باطل السحرة والشياطين أضعاف أضعاف صِدقهم؛ أي: ليس عندهم مِن الصدق إلا النَّزْر اليسير؛ ليدلِّسوا به على الناس.

مثل: لو سَمعوا كلمة «زيدٌ» من السماء؛ فيزيدون كلمة «زيدٌ سيموت في يوم كذا، وكذا».

فساق المصنِّف رحمه الله هذا الحديث؛ لبيان أنَّه لا يجوز أن تُصرف العبادة إلا للَّه وحْده، وأنَّ جميع المخلوقات وإنْ عظُمت؛ فهي ضعيفةٌ، وخاضعةٌ، وذالَّةٌ للَّه سبحانه وتعالى.

وهذا الحديث يدلُّ على كَذِب الكهَّان، وعلى ضعْف عقول الناس الذين يأتون إليهم.

فإذا كان لك صاحبٌ يتكلَّم في عشرة أخبارٍ، لكنَّه يَكذب في خمسة أخبارٍ؛ أيْ: في نصف الأخبار، أتصدِّقه وتتخذه صاحباً لك؟ ولو كان يَكذب في ثمانٍ، ويصدق في اثنين؛ فستقول: هذا كذَّابٌ لا أصاحبه.

فكيف يصدِّق الناس بمن يَكذب مئة كذبةٍ، ويَصدُق في واحدة؟

فمِن باب أولى يدلُّ على وجوب عدم تصديقهم؛ لأنَّ الغالب فيهم الكذب.

ولمَّا سألت عائشة رضي الله عنها النبي صلى الله عليه وسلم عن حال الكُهَّان الذين يَتكَهَّنون في أخبار المستقبل؛ قال في صحيح

البخاريِّ(١): «لَيسُوا بِشَيءٍ»، فهذه كلمةٌ جامعةٌ في وصْفهم، ولو كانوا شيئاً، أو لهم قدْرٌ؛ لنَفعوا أنفسهم، وأَسرعوا بالتوبة قبل أنْ يموتوا فيكونوا خالدين مخلَّدين في النَّار.

فهم لا يَعلمون غَيب أنفسهم من الموت وعدم الاستعداد له؛ فمن باب أَوْلى عدم الإخبار لغيرهم من الغيب.

فإذا كان هذا حال الكُهَّان في كذبهم مئة كذبةٍ، وأنهم ليسوا بشيء؛ دلَّ على تحريم الذهاب إليهم.

ودلَّ على أنَّ تصديقهم يُخرِج الإنسان من هذا الدين؛ كما قال صلى الله عليه وسلم: «مَنْ أَتَى كَاهِناً، أَوْ عَرَّافاً، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ»(٢).

والشاهد من هذا الحديث: أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم بيَّن حال الملائكة عند كلام اللَّه عز وجل، وأنَّهم يخضعون له جل وعلا بالذلِّ

---

(١) كتاب الأدب، باب قول الرجل للشيء: ليس بشيءٍ، وهو ينوي أنه ليس بحقٍّ، رقم (٦٢١٣).

(٢) رواه أحمد في المسند، رقم (٩٥٣٦)، من حديث أبي هريرة والحسن رضي الله عنهما.

والانكسار والخوف، فإذا كان هذا حال هؤلاء الخلق العظيم، ومنهم: جبريل عليه السلام وله ست مئة جناحٍ، الجناح الواحد يسدُّ الأفق مِن كبَر وعِظم هذا الخلق، وفي الحديث الآخر: «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ مِنْ حَمَلَةِ العَرْشِ، إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِ مِئَةِ عَامٍ»(١).

فإذا كان هذا وصْف الملَك في خِلقته؛ فكيف بالجبَّار سبحانه الذي قال عن نفْسه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

فإذا كانت الملائكة يُصعقون، ويُغشَى عليهم، ويذلُّون للَّه إذا تكلَّم بالكلام فقط؛ دلَّ على أنه لا يُصرَف لهم شيءٌ مِن أنواع العبادة؛ من صلاةٍ، أو عبادةٍ، أو ذبحٍ، أو نحو ذلك.

ودلَّ على أنَّ غيرهم أضعف وأضعف؛ فعبادتهم من دون اللَّه باطلةٌ.

---

(١) رواه أبو داود، كتاب السنة، بابٌ في الجهميَّة، رقم (٤٧٢٧)، من حديث جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنهما.

قال رحمه الله: (وَعَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُوحِيَ بِالأَمْرِ؛ تَكَلَّمَ بِالوَحْيِ...).

هذا الحديث تكملةٌ للآية والحديث السابق؛ يبيِّن أنَّه إذا كان هذا حال أعظم المخلوقات إذا سمعوا كلام اللَّه عز وجل؛ يُصعَقوا ويَخِرُّوا للَّه سُجَّداً؛ فدلَّ على أنَّهم لا يستحقون صرْف أيِّ نوعٍ من أنواع العبادة.

ودلَّ على أنَّ ما دونهم في الخلْق من الأوْلياء والأشجار والأحجار وغير ذلك؛ لا يَصلح أنْ يُصرَف لهم شيءٌ من العبادة.

وإذا تبيَّن ضَعْف المخلوقين؛ دلَّ على أنَّ العبادة لا تُصرَف إلا للَّه القوي القهَّار سبحانه وتعالى؛ كما قال: ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦١]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢]، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

يَذكر هنا رحمه الله حال الخلْق الثاني العظيم من مخلوقات اللَّه إذا تكلَّم اللَّهُ عز وجل، فسَبق حال الملائكة، وهنا رحمه الله يَذكر حال السمَاوَات إذا تَكلَّم بالوحي.

فقال: (إِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُوحِيَ بِالأَمْرِ) أي: إذا أراد أن يدبِّر أمراً من الأمور يتكلم سبحانه؛ كما قال جل وعلا عن نفسه: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

(تَكَلَّمَ بِالوَحْيِ) فيه إثبات صفة الكلام للَّه عز وجل، فهو سبحانه تكلَّم ويتكلَّم وسيتكلَّم، متى شاء، إذا شاء، كيف شاء، بما شاء سبحانه وتعالى؛ كما قال سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، وهو سبحانه موصوفٌ بالكلام، تكلَّم، ويتكلَّم، وسيتكلَّم، ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

فإذا تكلَّم بما أراده سبحانه، فلِكلام اللَّه: قال: (أَخَذَتِ السَّمَوَاتِ مِنْهُ رَجْفَةٌ) الرجفة: الحركة والاضطراب؛ أي: إذا تكلَّم اللَّه تحرَّكت السماوات، واضطربت.

لماذا هذه الحركة والاضطراب؟

قال: (خَوْفاً مِنَ اللَّهِ عز وجل)، وقوله: (- أَوْ قَالَ: رِعْدَةٌ شَدِيدَةٌ -) الرِّعْدَة: هو التحرُّك والاضطراب، وهذا شكٌّ من الراوي في اللَّفظ؛ لكنَّ المعنى واحدٌ.

فدلَّ على أنَّ هذا المخلوق العظيم وهي السمَاوَات تَخاف إذا تَكلَّم اللَّه سبحانه وتعالى.

فدلَّ على أنَّ غيْرَها من المخلوقات الضعيفة من الأموات، أو من عموم البشر لا يستحقُّون شيئاً من صَرْف العبادة لهم.

ففيه حال السماوات إذا تكلَّم اللَّه بالوحي ترتجف خوفاً من اللَّه وذُعراً، وحال مَن في السماوات مِن الملائكة يُصعَقون، ويَخِرُّون للَّه سُجَّداً.

وقوله: **(رَجْفَةٌ)** أو **(رِعْدَةٌ شَدِيدَةٌ)** يدلُّ على أن السمَوَات تَسمع لكلام اللَّه سبحانه وتعالى.

وفي لفظٍ لمسلم: «وَلَكِنْ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى اسْمُهُ، إِذَا قَضَى أَمْراً سَبَّحَ حَمَلَةُ العَرْشِ، ثُمَّ سَبَّحَ أَهْلُ السَّمَاءِ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، حَتَّى يَبْلُغَ التَّسْبِيحُ أَهْلَ هَذِهِ السَّمَاءِ الدُّنْيَا»(١).

---

(١) رواه مسلمٌ، كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهّان، رقم (٢٢٢٩)، من حديث ابن عباس رضي اللَّه عنهما.

ففي حال كلام اللَّه: فَزَعٌ، وخَوفٌ، وحَركةٌ من الملائكة، وفي السمَوَات.

قال: ﴿فَإِذَا سَمِعَ ذَلِكَ أَهْلُ السَّمَوَاتِ﴾ أي: سَمعت الملائكة كلام اللَّه عز وجل.

﴿صَعِقُوا﴾ وهو الغَشْي؛ يعني: يُغشى عليهم، ﴿وَخَرُّوا لِلَّهِ سُجَّداً﴾ فيحدث منهم الأمران: الغَشْي، والسجود للَّه، وذلك إذا سَمعوا كلام اللَّه عز وجل.

وأيُّهم أوَّل: الصَّعْق ثُمَّ السجود، أم السجود ثُمَّ الصعق؟

اللَّه أعلم، والأمر عند اللَّه سبحانه.

﴿فَيَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ﴾ يعني: من يُفِيق ﴿جِبْرِيلُ﴾ عليه السلام.

فدلَّ على أنَّ جِبْريل مُقَرَّبٌ من اللَّه، وأنَّه أفضل الملائكة؛ فهو سَفِيرٌ بين اللَّه عز وجل وبين رسُله.

فإذا غُشي عليهم وسَجدوا؛ أوَّل مَن يرفع رأسه جبريل عليه السلام.

قال: ﴿فَيُكَلِّمُهُ اللَّهُ مِنْ وَحْيِهِ بِمَا أَرَادَ﴾ فيكلِّمه اللَّه عز وجل بما شاء من الوحي.

(ثُمَّ يَمُرُّ جِبْرِيلُ عَلَى المَلَائِكَةِ، كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ) يدلُّ على سرعة جبريل عليه السلام؛ ففي لحظةٍ يمرُّ على السمَوَات السبع.

فيقولون: (مَاذَا قَالَ رَبُّنَا يَا جِبْرِيلُ؟).

فيقول: (قَالَ الحَقَّ) أي: قال القول الحقَّ، (وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ).

(فَيَقُولُونَ كُلُّهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ جِبْرِيلُ).

(فَيَنْتَهِي جِبْرِيلُ بِالوَحْيِ) أي: بتبليغ الوحي إلى من أراد اللَّه مِن رسُله، (إِلَى حَيْثُ أَمَرَهُ اللَّهُ عز وجل).

فجبريل هو سفير الملائكة بين اللَّه وبين خلْقه.

فإذا أراد اللَّه أن يوحي شيئاً إلى الأنبياء والرسل؛ يُبلغه لجبريل عليه السلام؛ لأنَّه هو المكرَّم والمشرَّف بالرسالة بين اللَّه وخلْقه.

ويدلُّ أيضاً على سرعة جبريل عليه السلام، فمِن ذلك أنَّ امرأة ثابت بن قيس بن شمّاس رضي الله عنهما تجادل في زوجها، وهي لم تبعد عن النبي صلى الله عليه وسلم - لا زالت تجادله -، فنَزل جبريل من السماء السابعة إلى الأرض وهي لم تَتعدَّ مكانها [١].

(١) تفسير البغوي (٥/ ٣٨).

فدلَّ على أنَّ صرْف أيَّ عبادةٍ لغير اللَّه من الملائكة، أو من الجِنِّ، أو من الأموات؛ باطلةٌ؛ لأنَّهم مخلوقون ضعفاء.

فإذا كان هذا الخلْق العظيم من الملائكة، أو من السمَوَات تخاف من اللَّه؛ فدلَّ على أنَّ العبادة لا يَصلح صرْف شيءٍ منها إلا للَّه سبحانه وتعالى.

ويدلُّ الحديث على ضعْف الملائكة؛ في الصَّعْق، والسجود للَّه مع عظمة خلْقتهم؛ قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤]، ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١]، ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [الحشر: ١] ، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور: ٤١]، ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٥]، ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَرْداً﴾ [مريم: ٩٣-٩٥].

فدلَّ على أنَّه لا يجوز عقلاً ولا شرعاً صرْف شيءٍ من أنواع العبادة لمن يُصعَق ويَخاف ويُغشى عليه؛ لأنَّ العبد يريد أنْ يتمسَّك بمعبودٍ

قويٍّ، قهَّارٍ، جبَّارٍ، قديرٍ، حميدٍ، عظيمٍ، ولا يمكن أنْ توجد هذه الصفات إلا في الربِّ جل وعلا، فلا تُصرَف العبادة إلا له سبحانه.

***

[١٧]

بَابُ

الشَّفَاعَةِ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ * وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ الآيَةَ.

قَالَ أَبُو العَبَّاسِ: «نَفَى اللَّهُ عَمَّا سِوَاهُ كُلَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ المُشْرِكُونَ - فَنَفَى أَنْ يَكُونَ لِغَيْرِهِ مُلْكٌ، أَوْ قِسْطٌ مِنْهُ، أَوْ يَكُونَ عَوْناً لِلَّهِ - وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الشَّفَاعَةُ، فَبَيَّنَ أَنَّهَا لَا تَنْفَعُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّبُّ، كَمَا قَالَ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾.

فَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ الَّتِي يَظُنُّهَا الْمُشْرِكُونَ هِيَ مُنْتَفِيَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ كَمَا نَفَاهَا الْقُرْآنُ.

وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: أَنَّهُ يَأْتِي فَيَسْجُدُ لِرَبِّهِ وَيَحْمَدُهُ، لَا يَبْدَأُ بِالشَّفَاعَةِ أَوَّلاً، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ.

وَقَالَ لَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؛ خَالِصاً مِنْ قَلْبِهِ.

فَتِلْكَ الشَّفَاعَةُ لِأَهْلِ الإِخْلَاصِ - بِإِذْنِ اللَّهِ - وَلَا تَكُونُ لِمَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ.

وَحَقِيقَتُهُ: أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي يَتَفَضَّلُ عَلَى أَهْلِ الإِخْلَاصِ فَيَغْفِرُ لَهُمْ بِوَاسِطَةِ دُعَاءِ مَنْ أَذِنَ لَهُ أَنْ يَشْفَعَ؛ لِيُكْرِمَهُ، وَيَنَالَ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ.

فَالشَّفَاعَةُ الَّتِي نَفَاهَا الْقُرْآنُ مَا كَانَ فِيهَا شِرْكٌ، وَلِهَذَا أَثْبَتَ الشَّفَاعَةَ بِإِذْنِهِ فِي مَوَاضِعَ، وَقَدْ بَيَّنَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا لِأَهْلِ التَّوْحِيدِ وَالإِخْلَاصِ» انْتَهَى كَلَامُهُ.

الشرح:

قال رحمه الله: (بَابُ الشَّفَاعَةِ).

الشَّفْعُ في اللَّغة: ضد الوتر، والشفاعة: هي طلبُ الخير للغير[١]، والتي تسمى عند الناس اليوم «الواسطة»؛ يعني: أنْ يَطلب رجُلٌ من رجُلٍ عظيمٍ أو بيده أمرٌ عند آخر؛ أنْ يُخلِّص أمْر ذلك الآخر.

والمراد بها هنا: سؤال الوقاية من النَّار، ودخول الجَنَّة، وتفريج الكَرب ونحو ذلك.

وشفاعة المشركين يَطلبونها من دون اللَّه.

والشفاعة تنقسم إلى قِسمين:

القِسم الأوَّل: شفاعةٌ منفيَّةٌ: وهي التي تُطلب من غير اللَّه فيما لا يَقدر عليه إلا اللَّه.

مثل: لو ذهب شخصٌ إلى قبرٍ، وقال للميت: اشفع لي عند اللَّه؛ ليغفر لي ذنوبي، فمغفرة الذنوب لا يقدر عليها الميت.

فسؤال الميت هذا الأمر شركٌ أكبر.

---

(١) لسان العرب لابن منظور (٨/ ١٨٤).

والقِسم الثاني: شفاعةٌ مثبَتةٌ: وهي ما تُطلب من اللَّه سبحانه، ويُشترط لها شرطان:

الشرط الأوَّل: إِذْنُ اللَّه للشافع أن يَشفع.

والشرط الثاني: رضاه عن المشفوع له.

ولا تكون الشفاعة يوم القيامة إلا لمن كان موحِّداً، سواء الشافع أو المشفوع له.

يعني: الشفاعة الصحيحة الغير منهيٍّ عنها هي: أنْ يَطلب العبد من ربِّه أنْ يَغفر ذنْب فلانٍ، أو لا يُدخله النَّار، أو يَرفع درجاته في الجَنَّة.

ويُشترط في الشفاعة: **أوَّلاً**: أنْ يكون هذا الشافع من أهْل التوحيد، فالمشْرِك لا يَشفع، وفي البخاري: سأل أبو هريرة النبي صلى الله عليه وسلم: «مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَا رَسُوْلَ اللَّهِ؟ قال: مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، خَالِصاً مِنْ قَلْبِهِ»(١).

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب العِلم، باب الحرص على الحديث، رقم (٩٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ثُمَّ لا يَشفع هذا المرتَضَى إلا إذا أذِن اللَّه له؛ يعني: لا يقوم في المحشر، ويقول: يا رب أنا أَشفع في فلانٍ أنْ تَغفر له، أوْ ترفع درجاته؛ حتى يأذن اللَّه للشافع أنْ يَشفع، كما سيأتي في الأدلة.

ثانياً: رضا اللَّه عز وجل عن المشفوع له، بأنْ يكون المشفوع له - أيْ: صاحب الذنْب - من أهل التوحيد.

وشفاعة المشركين يَطلبون من الأنداد والأوثان أنْ يَطلبوا من ربِّهم إنزال المطر، أو شفاء المريض ونحوه؛ وهذه شفاعةٌ منفيَّةٌ.

مثال ذلك: لو رجُلٌ استحق دخول النَّار، وهو من أهل التوحيد، فإذا أذِنَ اللَّه لرجُلٍ صالحٍ من قراباته - مثلاً - أن يَشفع له أن لا يَدخل النَّار؛ فهذه شفاعةٌ مثبَتةٌ، وصحيحةٌ، وشرعيَّةٌ.

ولكون أهل الشرك تَعلَّقوا في شركهم بزعمهم أنَّ ما يفعلونه ليس بشركٍ؛ قالوا: نَطلب منهم الشفاعة؛ لأنهم لو قالوا: إنَّا ندعوا الميت، فسيقال لهم مباشرةً: هذا شركٌ أكبرٌ؛ لذلك يأتون بحيلةٍ ويقولون: نَطلب منهم الشفاعة؛ لذلك قال اللَّه: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَعْقِلُونَ * قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً﴾ [الزمر: ٤٣-٤٤].

وَجُلُّ الشرك الآن؛ بزعْم الشفاعة.

وشبهتهم في هذا: قياسهم على حال أهل الدنيا، فيقولون: نحن لا نستطيع أن ندعو اللَّه؛ لأن اللَّه عظيمٌ ونحن لا نستطيع أن نقابله بذنوبنا؛ فيذهبون إلى ميتٍ ويقولون له: أنت ادع اللَّه.

وأَخْبَرَ اللَّه عز وجل أن ذلك كِبْرٌ؛ لأنَّهم لم يتوجهوا إليه سبحانه؛ لذلك قال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقال سبحانه في الآية الأخرى لمَّا أَمر بالدعاء: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾؛ أي: دعائي، ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]؛ لذلك قال سبحانه: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

ولا تَدْعُوا الأموات، فدعاء الأموات إعراضٌ عن اللَّه سبحانه؛ لذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣]، فَحَكَمَ اللَّه سبحانه وتعالى بكفرهم.

والشفاعة من الشبهات والأبواب التي اتَّخذها المشرِكون في شركهم باللَّه عز وجل، فقالوا: إنَّ ذنوبنا كثيرةٌ، ولا نستطيع أنْ نطلب من اللَّه شيئاً؛ فنَذهب إلى الأنداد والأموات، ونَطلب منهم أنْ يَشفعوا لنا عند

اللَّه عز وجل بأنْ يَغفر لنا، فيأتي إلى القبر ويقول: يا فلان، أو يا رسول اللَّه، اطلب مِن ربِّك أنْ يَغفر لي، أو اشفع لي عند ربك أنْ يزوِّجني مثلاً.

فهذه شفاعةٌ شركيَّةٌ؛ لأنَّ النبي صلى الله عليه وسلم ميِّتٌ، والشفاعة لا تكون إلا يوم المحشر.

وإنَّما إنْ أراد المرء أنْ يدعو فيقول: يا ربِّ شفِّع فيَّ نبيَّك، ولا يَذهب للنبي صلى الله عليه وسلم ويقول: يا رسول اللَّه اشفع لي؛ فالنبي صلى الله عليه وسلم لا يَملك ذلك.

وساق المصنِّف رحمه الله خمس آياتٍ في الشفاعة:

الآية الأُولى – (﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾) –؛ لبيان ضعْف المدعوِّين من دون اللَّه في طلب الشفاعة؛ لأنَّهم يخافون، ويبيِّن أنَّ أصحاب الجَنَّة هم الذين لم يَدعوا مع اللَّه شفعاء وشركاء.

وممَّا يدلُّك على أنَّ مَن اتَّخذ من دون اللَّه شفعاء وشركاء قد أَشرك؛ قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ

لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣]، وإلّا فأصحاب الجَنَّة: الذين لم يدعوا مع اللَّه أحداً.

والآية الثانية – (﴿**قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً**﴾) –؛ لبيان أنَّ الشفاعة كلَّها للَّه سبحانه وتعالى، فبيَّن أنَّ اللَّه هو الذي يملك الشفاعة، فلا تذهب إلى الأنداد والأصنام وتطلبها.

والآية الثالثة؛ لمَّا كانت الشفاعة للَّه؛ فاللَّه سبحانه تَكرَّم وتفضَّل بأن يَشفع عنده من يَأذن له سبحانه وتعالى بالشفاعة؛ فقال: (﴿**مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ**﴾)، ذَكر لك شرطاً من شروط الشفاعة المثبتة، وهو الإذْن للشافع بأن يشفع.

والآية الرابعة – (﴿**وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً**﴾) – ساقها؛ لبيان الشرط الآخر، وهو: رضا اللَّه عز وجل عن الشافع، والمشفوع له.

والآية الخامسة – (﴿**قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ**﴾) –: بيَّن قوة اللَّه عز وجل وأنه لا يحتاج إلى شفعاء، ولا إلى شركاء، ولبيان أسباب منْع اللَّه سبحانه وتعالى الشفاعة الشركية، وذَكر تعالى ثلاثة أسبابٍ سيأتي ذكرُها بإذن اللَّه.

وهذا الباب مهمٌّ للرد على من يدعو غير اللَّه؛ بزعْم الشفاعة؛ لكثرة شُبهة المشركين فيه.

فإنْ قيل لك: هل الشفاعة صحيحةٌ، أَم غير صحيحةٍ؟

فقل: الشفاعة تنقسم إلى قِسمين:

شفاعةٌ شركيةٌ؛ وهي المنفيَّة.

وشفاعةٌ مُثبَتةٌ.

ومَن كان ليس مِن أهل التوحيد؛ لا تُقبَل شفاعته.

فإذا كان يوم القيامة وأذن اللَّه للشافع أن يَشفع؛ فلن يشفع لمشرك؛ قال تعالى: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨].

فإنْ قيل: فكيف بشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم في عمِّه أبي طالب حتى خُفِّف عذابه في النَّار؟

نقول: هذه شفاعةٌ خاصَّةٌ فقط، وهو المشرِك الوحيد الذي أُذِن للنبي صلى الله عليه وسلم أنْ يَشفع فيه، وشفاعته فيه ليست في منْع دخوله النَّار، أو دخوله الجَنَّة؛ وإنَّما في التخفيف عنه من عذاب النَّار - والعياذ باللَّه -.

فقوله تعالى: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]؛ تدلُّ على أنَّ المشرك لا يَشفع له أحدٌ، ولا تَنفعه شفاعة أحدٍ.

قال المصنِّف رحمه الله: (وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ﴾) يعني: وأَنذِر بالقرآن، فدلَّ على أن القرآن نذيرٌ.

وهو أيضاً ذكرى، وموعظةٌ؛ كما قال سبحانه: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، وكما قال: ﴿وَمَوْعِظَةً﴾ [آل عمران: ١٣٨].

(﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾) وهم المؤمنون الأتقياء الصالحون؛ يعني: أن القرآن يَنتفع به من يخاف اللَّه سبحانه وتعالى.

وصِفتهم: (﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ﴾) يعني: يَتولَّى أمورهم ويُنجيهم من العذاب، (﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾) يَشفع لهم.

فهُم إذاً: لا يَتَّخذون أولياء من دون اللَّه، ولا يَتَّخذون شفعاء من دون اللَّه.

فمَن تجنَّب الشفاعة المنفيَّة، واحتَرز من نواقض الإسلام، وأتى بدعائم الإسلام؛ فإنَّه يكون داخلاً في هذه الآية.

فدلَّ مفهوم الآية على أنَّ طلب الشفاعة والأوْلياء من دون اللَّه؛ شركٌ، وهي الشفاعة المنفيَّة.

فإذا كان المدعوُّون هذا حالهم؛ وهو خوفهم من اللَّه؛ فدلَّ على أنَّ طلبَ الشفاعة منهم لا يصحُّ، فكيف نَطلب الشفاعة من مخلوقٍ يَخاف من اللَّه! فتعيَّن أنَّا نَطلبها من اللَّه سبحانه وتعالى وحْده.

قال: (وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً﴾) يُخبر اللَّه عز وجل بأنَّه لا أحد يَملك الشفاعة؛ لا الأنبياء، ولا الأولياء، ولا الصالحين؛ بل الشفاعة كلُّها للَّه فاطلُبوها منه.

يعني: تقول: يا ربِّ اجْعل النبي صلى الله عليه وسلم يوم القيامة يَشفع لي؛ لأنَّه لا أحد يستطيع أنْ يَشفع من غير إذن اللَّه، فدلَّ على ضعْف المخلوقين؛ لذلك نَطلبها من اللَّه، قال اللَّه: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٠٧]، ومَن تُطلب منه الشفاعة من دون اللَّه لا يَملك السموات ولا يَملك الأرض.

ثُمّ قال المصنِّف: (وَقَوْلُهُ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾)

أي: لا أحد يَشفع عند اللَّه إلا إذا أَذن اللَّه له.

أي: لو أنَّ الأب وولده – مثلاً – في المحشر، وحُكِمَ أنَّ الولد من أهْل النَّار؛ لا يستطيع الأب أن يَشفع له إلا إذا أَذن اللَّه له.

فذَكر في الآية شرْطاً من شروط الشفاعة المثبتة الغير منفيَّة؛ وهو إذْن اللَّه للشافع؛ يعني: لا أحدَ يستطيع في الحشر أنْ يَشفع حتى يَأذن اللَّه، فلا بُدَّ من إذْن اللَّه للشافع أنْ يَشفع.

وهذا يدلُّ على تمام المُلك والقوَّة للَّه جل وعلا؛ قال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً﴾ [مريم: ٩٣]، وقال: ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً﴾ [طه:١٠٨]؛ مِن خوفهم من اللَّه، فلا أحد يستطيع أنْ يتكلَّم، وكمَا في آخر سورة النبأ: ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً﴾ [النبأ: ٣٨].

واللَّه عز وجل لا يَأذن إلا لأهل التوحيد.

وكذلك محرومٌ من الشفاعة مَن أتى فيه النَّص في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّعَّانِينَ لَا يَكُونُونَ شُهَدَاءَ وَلَا شُفَعَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(١)، فيُحرَم من الشفاعة مَن يَلعن – والعياذ باللَّه –.

---

(١) رواه مسلمٌ، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن لعنْ الدواب وغيرها، رقم (٢٥٩٨)، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

وإذْن اللَّه للشافع أنْ يَشفع؛ فيه تعظيمٌ وتبجِيلٌ للشافع، ومعناه: أنَّ له منزلةً عظيمةً عند اللَّه، فلو كان مسخوطاً عليه؛ لم يؤْذن له بالشفاعة.

فليسْعَ العبد لأنْ يكون رجُلاً صالحاً عالِماً؛ ليكون اللَّه عز وجل راضياً عنه، ويؤذن له بالشفاعة يوم القيامة.

ثُمَّ قال: (وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ﴾) يدلُّ على أنَّ مساكن الملائكة في السماء، والسماء أشْرف من الأرض؛ لأنَّ اللَّه عز وجل في السماء.

(﴿لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً﴾) فدلَّ على أنَّ شفاعة الملائكة لا يُمكن أن تتحقَّق؛ إلا إذا أَذن اللَّه لهم.

فإذا كان هذا حال الملائكة لا يَشفعون إلا إذا أَذن اللَّه لهم؛ فمِن باب أَولى المدعوُّون من الأموات من الإنس، ومن الصالحين الأحياء.

(﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾) وفيه الشرطان: الإذن والرضا.

الشرط الأوَّل: (﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾)؛ كما قال عز وجل: (﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾)، فيأذن لمن يشاء مِن الرسل، والأنبياء، والأولياء، والشهداء، والأفراط[(١)].

الشرط الثاني: (﴿وَيَرْضَى﴾) أي: يَرضى عن المشفوع له، فلا يُشفع لرجُلٍ كافرٍ.

فلا بدَّ أن يَرضى اللَّه عز وجل عن الشافع والمشفوع له؛ بأن يكون من أهل التوحيد، كما في الصحيح[(٢)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه لمَّا سأل النبي صلى الله عليه وسلم: «مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ؟ قَالَ: مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؛ خَالِصاً مِنْ قَلْبِهِ»، فالمشرِكُ لا يَشفع ولا يُشفع له.

قال: (﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾) فيبيِّن تمام قدْرة اللَّه، ومُلْكه، وهيْمَنَتِه، وجبروته، وكمال حُكمه على خلْقه سبحانه.

---

(١) جمع فَرَطٍ، وهم الأولاد الذين ماتوا صغاراً. لسان العرب لابن منظور (٧/ ٣٦٧).

(٢) سبق تخريجه (ص) عند قوله (ويُشترط في الشفاعة أوَّلاً: أنْ يكون هذا الشافع من أهْل التوحيد).

قال عنها ابن القيم: «إنَّها تَقطع الشرك مِن عُرُوقِه»[١]، فيها تعجيزٌ لجميع الخلْق.

يعني: الذين تدعونهم - سواء في الشفاعة، أو غير الشفاعة -؛ ضعفاءٌ.

وأسباب منْعهم من الشفاعة، وتحريم دعوتهم من غير اللَّه؛ ثلاثةٌ:

السبب الأوَّل: (﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾) الذرَّة: الشي اليسير الخفيف جداً والصغير.

فإذا كان المخلوق لا يَملك هذه؛ فمِن باب أَولى أنه لا يستطيع أن يَشفع.

والسبب الثاني: (﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ﴾) يعني: ليسوا شركاء مع اللَّه في الكون.

السبب الثالث: (﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾) يعني: ليسوا أعواناً للَّه سبحانه وتعالى في الكون.

فلمَّا لم يكونوا مالكين شيئاً في الكون.

---

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٦١).

ولا شركاء مع اللَّه فيه.

ولم يكونوا مُعِينين له.

فدلَّ على بطلان شفاعتهم؛ لذلك قال اللَّه تعالى في الآية: (﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾)، وقال سبحانه: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً﴾ [الكهف: ٥١]؛ يعني: يساعدونني في السموات والأرض.

وأيضاً لا يَملكون الشفاعة.

فماذا بقي لهم؟ ما بقي لهم شيء.

ومعنى ذلك كأنَّ اللَّه يقول: ولا أعطي الشفاعة - لمَّا تبيَّن لكم ملْكي القويُّ - إلا لمن أذنتُ له، ولِمَا علمتُم أنَّه ليس لهم حقٌّ ولا نصيبٌ في هذا الكون لا بالمُلك، ولا بالشَّرَاكة، ولا بالمعاونة، ولا بالشفاعة؛ إلَّا مَن أذنتُ له أنْ يَشفع.

فلمَّا تبيَّن ذلك؛ دلَّ على أنَّ الشفاعة لا تكون إلا للَّه بعد إذْن اللَّه للشافع، ورضاه عن المشفوع له.

والذي يَشفع يوم القيامة: الملائكة، والأنبياء، والرسل، والصِّدِّيقون، والصالحون، والشهداء.

والحِكمة من الشفاعة المثبتة؛ أنَّ اللَّه عز وجل يتكرَّم ويتفضَّل على الشافع بأنْ أعلى مكانته، وقَبِل شفاعته.

ويتفضَّل أيضاً سبحانه وتعالى على المشفوع له بعدم دخوله النَّار، أو خروجه منها، أو رفْع درجته في الجَنَّة.

مثال ذلك: لو أنَّ مَلِكاً من ملوك الدنيا قال: أنا لا أَقبل شفاعة أحدٍ في السَّجين الفلاني؛ إلا مِن زيدٍ؛ فلو أنَّ زيداً شَفع قَبِلْتُ شفاعته؛ فهذا فيه تكريمٌ لزيدٌ.

وإذا شَفع زيدٌ وقال: نعم، أنا أريد إخراج السَّجين من السجن؛ فهو تَكرَّم على ذلك المسجون أيضاً بإخراجه من السجن.

فكلاهما حَصل على تشريف المَلِك لهما.

أمَّا في الدنيا فالشفاعة تنقسم إلى ثلاثة أقسامٍ:

القِسم الأوَّل: أنْ يدعو الإنسان ربَّه أن يُشفِّع فيه النبي، أو الصالحين أو غير ذلك؛ مِثل أن يقول الشخص: اللَّهم شفِّع فيَّ نبيَّك أن يرفع درجتي في الجَنَّة، أو: شفِّع فيَّ أبي أن أكون أنا وإياه في منزلةٍ عاليةٍ في الجَنَّة.

فهذا مشروع؛ لأنَّه دعاء اللَّه عز وجل.

القِسم الثاني: أن يدعو ميتاً، أو حيّاً فيما لا يقدر عليه إلا اللَّه.

فهذا شركٌ أكبر.

والقِسم الثالث: شفاعةٌ دنيويَّةٌ.

مِثل: أن يَشفع إنسانٌ لآخر كَيْ يَدخل الجامعة ونحو ذلك.

فهذه مشروعةٌ بشرْطين:

الشرط الاوَّل: أن لا تكون في مُحرَّمٍ، فلا يَعمل مثلاً في أمْرٍ محرَّمٍ.

والشرط الثاني: أن لا يكون فيه ظُلم لأحدٍ.

لذلك قال سبحانه - إذا تَحقَّق الشرطان - في ذلك: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا﴾، وإن لم يَتحقق الشرطان قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا﴾ [النساء: ٨٥]؛ يعني وِزرٌ.

والنبي صلى الله عليه وسلم قال في الشفاعة المتوفِّرة فيها الشرطان في الدنيا: «اشْفَعُوا فَلْتُؤْجَرُوا»(١)، وشَفَعَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم فِي زَوجِ بَرِيْرَة عِندَ بَرِيرَة(٢).

فتبيَّن ممَّا سَبق أنَّ الشفاعة قِسمان:

القِسم الأوَّل: شفاعةٌ منفيَّةٌ، شركيَّةٌ.

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب تعاون المسلمين بعضهم بعضاً، رقم (٦٠٢٦)، ومسلمٌ، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب الشفاعة فيما ليس بحرامٍ، رقم (٢٦٢٧)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاريُّ، كتاب الطلاق، باب شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم في زوج بريرة، رقم (٥٢٨٣)، من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، ولفظه: «أَنَّ زَوْجَ بَرِيرَةَ كَانَ عَبْداً، - يُقَالُ لَهُ: مُغِيثٌ - كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ يَطُوفُ خَلْفَهَا؛ يَبْكِي وَدُمُوعُهُ تَسِيلُ عَلَى لِحْيَتِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم لِعَبَّاسٍ: «يَا عَبَّاسُ، أَلَا تَعْجَبُ مِنْ حُبِّ مُغِيثٍ بَرِيرَةَ، وَمِنْ بُغْضِ بَرِيرَةَ مُغِيثاً؟». فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «لَوْ رَاجَعْتِهِ». قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، تَأْمُرُنِي؟ قَالَ: «إِنَّمَا أَنَا أَشْفَعُ». قَالَتْ: لَا حَاجَةَ لِي فِيهِ».

مَن طلبها – والعياذ باللَّه –؛ وَقع في الشرك، وهي التي تُطلَب من الأموات، والأولياء، والصالحين ونحو ذلك.

وهذه – أيْ الشفاعة المنفيَّة – مَدخلٌ كبيرٌ، وبابٌ من أبواب الشبهة على المشركين؛ لوقوعهم في الشرك.

القِسم الثاني: الشفاعة المُثبَتَة: وهي التي تُطلَب من اللَّه، لكن بشرطين:

الشرط الأوَّل: إذن اللَّه للشافع.

الشرط الثاني: رضا اللَّه عن المشفوع له.

والشفاعة منها ما هو خاصٌّ بالنبي صلى الله عليه وسلم، ومنها ما ليس خاصّاً بالنبي صلى الله عليه وسلم.

فالشفاعة الخاصَّة بالنبي صلى الله عليه وسلم ثلاث شفاعات هي:

الشفاعة الأولى: الشفاعة في الموقف العظيم؛ بأنْ يَطلب من الربِّ سبحانه، ويَشفع؛ بأنْ يُخَلِّص العباد للفصْل بين الخلائق، وهي:

المقام المحمود الذي يَحمده ويَغبطه عليه جميع الخلائق؛ كما في العقيدة الواسطية[١].

الشفاعة الثانية: الشفاعة في أهل الجنة حتى يدخلوا الجنة.

الشفاعة الثالثة: يشفع في عمه أبي طالب أن يخفف عنه.

والشفاعة العامَّة، وهي تكون للرسول صلى الله عليه وسلم ويشاركه فيها من شاء اللَّه من الملائكة والنبيين والصالحين: كالشفاعة لأناس قد دخلوا النَّار في أن يخرجوا منها، والشفاعة لأناس قد استحقوا النَّار في أن لا يدخلوها.

قال رحمه الله: **(قَالَ أَبُو العَبَّاسِ)** هو الإمام الشَّهير والعَلَم الكبير شيخ الإسلام ابن تَيميَّة رحمه الله: **(«نَفَى اللَّهُ عَمَّا سِوَاهُ كُلَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ)** يعني: نفى ربُّنا في آية: (**﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾**) جَمِيعَ ما يَتعلَّق به أهل الشِّرك على سواه، **(فَنَفَى أَنْ يَكُونَ لِغَيْرِهِ مُلْكٌ، أَوْ قِسْطٌ مِنْهُ)** فنفى المُلْك بقوله: (**﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾**)، ونفى الشَّرِكَة بقوله: (**﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ**

(١) متون طالب العلم، المستوى الثالث، العقيدة الواسطية (ص١٥٠).

شِرْكٍ﴾)، (أَوْ يَكُونَ عَوْناً لِلَّهِ) ونفى الظَّهِير - وهو المُعِين - بقوله: (﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾)، (وَلَمْ يَبْقَ) لهم شيء يَتشبَّثون به (إِلَّا الشَّفَاعَةُ).

(فَبَيَّنَ) بقوله: (﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾) (أَنَّهَا لَا تَنْفَعُ) لا تكون (إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّبُّ) يعني: عن رضا الرَّبِّ، (كَمَا قَالَ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ فَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ الَّتِي يَظُنُّهَا الْمُشْرِكُونَ هِيَ مُنْتَفِيَةٌ يَوْمَ القِيَامَةِ كَمَا نَفَاهَا القُرْآنُ) وحقيقتُها: أنَّ الشَّافِعَ يَتقدَّم ويَشْفع لهم عند اللَّه من غير إذنه، كما يَشْفَعُ المخلوق عند المخلوق، ودَلِيلُها من الكتاب والسُّنَّة: قوله تعالى: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]، وقوله: (﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾)، (وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ صلى اللَّه عليه وسلم: أَنَّهُ يَأْتِي فَيَسْجُدُ لِرَبِّهِ وَيَحْمَدُهُ، لَا يَبْدَأُ بِالشَّفَاعَةِ أَوَّلاً، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ).

(وَقَالَ لَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: «مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ القِيَامَةِ؟) يعني: مَنْ أَحقُّ النَّاس وأَوْلَاهُم مِنْ أُمَّتِك يا رَسُولَ اللَّه، (قَالَ) فأجابه النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم، (مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؛ خَالِصاً مِنْ قَلْبِهِ») يصدِّق قَلْبه لسانه، ولسانه قَلْبه.

(فَتِلْكَ الشَّفَاعَةُ لِأَهْلِ الإِخْلَاصِ بِإِذْنِ اللَّهِ) وفي هذا قَيْد وشَرْط.

(وَلَا تَكُونُ لِمَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ) فأبطل صلى الله عليه وسلم زعْمهم الكاذب، وأخبر أنَّها تُنالُ بتَجريدِ التَّوحيد للَّه وحده، لا الالتجاء إلى الصَّالحين.

(وَحَقِيقَتُهُ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي يَتَفَضَّلُ عَلَى أَهْلِ الإِخْلَاصِ) خاصَّةً، (فَيَغْفِرُ لَهُمْ بِوَاسِطَةِ دُعَاءِ مَنْ أَذِنَ لَهُ أَنْ يَشْفَعَ لِيُكْرِمَهُ) إمَّا في الدُّنيا أو في الآخرة؛ فهي مَحضُ فَضْلٍ من الرَّبِّ وإِحسانٍ منه للشَّافعِ والمَشفوعِ له.

(وَيَنَالَ المَقَامَ المَحْمُودَ) هذا مُخصَّصٌ بنَبيِّنا صلى الله عليه وسلم ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾ [الإسراء: ٧٩].

(فَالشَّفَاعَةُ الَّتِي نَفَاهَا القُرْآنُ مَا كَانَ فِيهَا شِرْكٌ) أي: هي التي تُطلَب من غير اللَّه، (وَلِهَذَا أَثْبَتَ الشَّفَاعَةَ بِإِذْنِهِ فِي مَوَاضِعَ وَقَدْ بَيَّنَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا لِأَهْلِ التَّوْحِيدِ وَالإِخْلَاصِ» انْتَهَى كَلَامُهُ)

وكلامُ شيخِ الإسلامِ رحمه الله كافٍ شافٍ في تفسير الآيات[1].

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٧/ ٧٩).

***

[١٨]

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

فِي الصَّحِيحِ: عَنِ ابْنِ الْمُسَيَّبِ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: «لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ؛ جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَعِنْدَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ وَأَبُو جَهْلٍ، فَقَالَ لَهُ: يَا عَمِّ! قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ.

فَقَالَا له: أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟! فَأَعَادَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فَأَعَادَا، فَكَانَ آخِرَ مَا قَالَ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى﴾، وَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي أَبِي طَالِبٍ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾».

الشرح:

قال رحمه الله: (بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾).

ساق المصنِّف رحمه الله هذا الباب؛ لبيان أنَّ اللَّه تعالى نفى عن النبي صلى الله عليه وسلم أن يهدي أحداً هداية توفيقٍ وإلهامٍ.

ولمَّا كانت الهداية هي أعظم نفع للإنسان، والنبي صلى الله عليه وسلم لا يَملك أن يعطيها أحداً؛ دلَّ على أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم لا يستطيع أن يَنفع أحداً إلا بإذن اللَّه.

وإذا كان هذا في حقِّ النبي صلى الله عليه وسلم؛ فغيْره من المخلوقين مِن باب أَولى لا يَملكون لأحدٍ نفعاً إلا بإذن اللَّه.

فبيَّن أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم لا يَملك لأحدٍ نفعاً، ولو كان أقرب الناس إليه؛ وهو عمُّه أبو طالب.

فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يَملك حتى لأقاربه نفعاً: لا نجاةً من النَّار، ولا دخولاً إلى الجَنَّة؛ دلَّ على أنَّ غيرهم - مِن غير أقاربه - كذلك لا يَملك لهم نفعاً.

ودلَّ على أنَّ غير النبي صلى الله عليه وسلم من الأولياء والصالحين أيضاً لا يَملكون لأحدٍ نفعاً ولا ضراً.

والفرْق بين هذا الباب، وبين الباب الذي قبله ببابين وهو: (**بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً﴾ الآيَةَ**) - والذي ذَكر فيه قصة النبي صلى الله عليه وسلم عندما شُجَّ يوم أحدٍ:

أنَّ ذاك الباب: النبي صلى الله عليه وسلم لا يَستطيع أن يَدفع عن نفْسه ضرّاً، وهذا الباب: النبي صلى الله عليه وسلم لا يَجلب لغيره نفعاً.

فدلَّ على أنَّ الأمر كلَّه للَّه.

وساق المصنِّف رحمه الله: (**بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الحَقَّ وَهُوَ العَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾**) -؛ لبيان عجْز الملائكة، وضعْفهم، وأنَّ العِبادة لا تَصلح لهم.

وهنا بيَّن عجْز النبي صلى الله عليه وسلم، وضعْفه، وأنَّ العبادة لا تَصلح أن تُصرف له.

فإذا كان الملائكة، والأنبياء لا يجوز أن يصرف لهم شيءٌ؛ فغيْرهم من باب أَولى.

وساق المصنِّف رحمه الله في هذا الباب آيةً بوَّب عليها، وحديثاً:

فساق الآية؛ لبيان أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم لا يَملك نفعاً لأيِّ أحدٍ.

وساق الحديث؛ لبيان أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم لا يَملك نفعاً لأحدٍ، ولو كان من أقْرب الناس إليه، وأنْفعهم له في دعوته.

لذا قال رحمه الله: (**بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾**).

جاءت آياتٌ أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يَهدي.

وجاءت آياتٌ أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم لا يَهدي.

فمِن الآيات التي جاءت في أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم يَهدي؛ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

ومِن التي جاءت في أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم لا يَهدي؛ هذه الآية: (**﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾**).

فكيف نَجمع بين هذه الآيات؟

والجواب: بأنَّ الهداية تنقسم إلى قِسمين:

القِسم الأوَّل: هدايةٌ لا يَملكها إلا اللَّه، وهي: هداية التوفيق والإلهام.

وهذه بيد اللَّه؛ كما قال سبحانه: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النحل: ٩٣].

وهي من مقتضيات ربوبيته سبحانه؛ فهي من أفعاله.

ولأهمية الهداية؛ لم يَجعلها سبحانه بيد أحدٍ من مخلوقاته.

وهي: أنَّ اللَّه هو الذي يَملك القلب، ويوفِّقه، ويُلهمه، ويدلُّه، ويهيِّئ له الصلاح، وأسباب الصلاح، والاستقامة.

فلا يَملك هذه الهداية إلا اللَّه؛ والدليل قوله تعالى: (**﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾**)، وفي الآية الأخرى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقوله سبحانه: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣]، وقوله عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ»[١].

---

(١) رواه مسلم، كتاب القدَر، باب تصريف اللَّه تعالى القلوب كيف شاء، رقم (٢٦٥٤)، من حديث عبد اللَّه بن عمرو بن العاص رضي اللَّه عنهما، ولفظه: «إِنَّ

فهداية التوفيق والإلهام، وجعْل القلْب يهتدي بتغييره؛ هذه لا يَملكها إلا اللَّه، وهي المذكورة في صدْر هذا الباب: (﴿**إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ**)، وكما في قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

والقِسم الثاني: هداية الدلالة، والإرشاد، والتوجيه.

وهذه سببٌ من أسباب الهداية جَعلها اللَّه عز وجل للنبي صلى الله عليه وسلم ولكلِّ أحدٍ؛ قال سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]؛ يعني: النبي صلى الله عليه وسلم يدلُّ على طريق الجَنَّة؛ لاتِّباعه، ويُحَذِّر من طريق النَّار؛ لاجتنابه، لكنَّه لا يَملك أنْ يوصل الناس إليه.

فهو صلى الله عليه وسلم فقط يدلُّهم؛ والدليل قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقوله: ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٣]، فلا يَملك هدايةً، وقوله: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا البَلَاغُ

قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ».

الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤]، وقوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٣٤].

فلا يَملك أحدٌ الهدايةَ إلا اللَّه، والنبي صلى الله عليه وسلم فقط يدلُّ بالنذارة، والبشارة، والرسالة، والبيان، والإرشاد.

فلا يَملك ولا غيرُه أنْ يَهدي الضالَّ، أو يُضلَّ المهتدي؛ كما قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾، فالرسل فقط يبيِّنون؛ ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٤].

ثُمَّ قال رحمه الله: (**فِي الصَّحِيحِ**).

أحياناً في الحديث الصحيح.

وأحياناً في صحيح البخاريِّ أو صحيح مسلمٍ.

وأحياناً معناها: في البخاري ومسلم.

وهنا (**فِي الصَّحِيحِ**) أيْ: في الحديث الصحيح الذي اتَّفق عليه البخاريُّ ومسلمٌ.

(**عَنِ ابْنِ الْمُسَيَّبِ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: «لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الوَفَاةُ**) أبو طالب: هو عمُّ النبي صلى الله عليه وسلم، وقد كان يُدافع عن النبي صلى الله عليه وسلم، ويأمره بتبليغ دعوته، وهو مشرِكٌ.

وفي الصحيحين[١] أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ اللَّهَ لَيُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الفَاجِرِ».

وهذا يدلُّ على أنَّ دين اللَّه قويٌّ، وقاهرٌ؛ فينصره من كان من أتباعه، ويَنصره من كان ليس من أتباعه؛ فهذا أبو طالب مشركٌ ويَأمر النبي صلى الله عليه وسلم أنْ يدعو النَّاس إلى التوحيد.

ولمَّا مات أبو طالبٍ اشتَدَّ أذى المشركين للنبي صلى الله عليه وسلم لاسِيَّما بعْد موت خديجة رضي الله عنها[٢] بعده بثَمَانية أيامٍ؛ لذا سُمِّي «عام الحزن».

وقوله: (**لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الوَفَاةُ**) أي: أمارات الوفاة وعلاماتها؛ كشدة الضعف ونحو ذلك.

---

(١) البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب إنَّ اللَّه يؤيِّد الدين بالرجُل الفاجر، رقم (٣٠٦٢)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتْل الإنسان نفْسه، وأنَّ مَن قَتَل نفسه بشيءٍ عُذب به في النَّار، وأنَّه لا يَدخل الجَنَّة إلا نفسٌ مسلِمةٌ، رقم (١١١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) هي: خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي القرشية الأسدية، توفيت (٣ق.هـ) وقيل (٤ق.هـ). الاستيعاب لابن عبد البر (٤/ ١٨١٧).

قال: (جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم) فدلَّ على جواز زيارة المشرك حتى في آخر حياته؛ لدعوته إلى اللَّه سبحانه وتعالى، ولبيان الطريق المستقيم له.

ويدلُّ أيضاً على أنَّ المسلِم يدعو غيره ولو كان قد أَوشك على الرحيل.

قال: (وَعِنْدَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ وَأَبُو جَهْلٍ) عبد اللَّه بن أبي أميَّة أَسلَم وحسُنَ إسلامُه، أمَّا أبو جهْلٍ فقُتل في بدرٍ على الكُفر.

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: (يَا عَمِّ) هذا يدلُّ على مشروعية تلطُّف الداعية في الألفاظ للمدعوِّ وإن كان مشرِكاً.

ويدلُّ على رأفة النبي صلى الله عليه وسلم بعمِّه؛ لخوفه أنه إن لم يُسلِم - والعياذ باللَّه - كان في الهاوية.

(قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً) فدلَّ على أنَّ الجُمل تسمَّى كلمة أيضاً؛ فقوله: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) أكثر من جُملةٍ وسمِّيت كلمةً.

(أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ) أي: تَمنعك بإذن اللَّه من دخول النَّار، وأحاجُّ ربي لك بأنَّك متَّ على التوحيد؛ يعني: أشهد بها عند اللَّه أنَّك من الموحِّدين، فأسلِمْ حتى وأنت في آخر الحياة.

وهذا يدلُّ على أنَّ مَن خُتِم له بالإسلام، ولو لم يَعمل أعمالاً صالحةً؛ فإنَّه يكون مِن أهْل الجَنَّة.

ويدلُّ أيضاً على أنَّ الأعمال بالخواتيم؛ كما قال صلى الله عليه وسلم: «فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّة حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ؛ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّار، فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّار، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ؛ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّة، فَيَدْخُلُهَا» رواه البخاريُّ ومسلمٌ(١).

فالأعمال بالخواتيم؛ لهذا يَنبغي للمسلِم أنْ يدعو كثيراً بأنْ يُحسِن اللَّه له الخاتِمة؛ فلا يَعلم ماهي الخاتمة التي يُختَم له بها.

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٧١]، رقم (٧٤٥٤)، ومسلمٌ، كتاب القدر، باب كيفية خلْق الآدمي في بطن أمّه وكتابة رزْقه وأجلهِ وعملهِ وشقاوتهِ وسعادتهِ، رقم (٢٦٤٣)، من حديث عبد اللَّه ابن مسعودٍ رضي الله عنه.

ولـمَّا كان أبو طالبٍ يَعلم معنى هذه الكلمة؛ لم يَنطق بها، لأنَّه يَعلم بأنَّ معناها: التبرُّؤ من المشركين، ومِن آلهتهم، وعنده عبد اللَّه بن أبي أميَّة، وأبو جهْلٍ.

ولئلَّا يُتكَلَّم بأنَّه في آخر حياته مرَق مِن دينه، فبَقي على الأَنَفة والاستكبار، كما وَصفه جل وعلا وغيرَه في القرآن، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥].

فبحضور هذين الصاحبين؛ استكبر أبو طالبٍ عن قول تلك الكلمة.

والقلوب بيد اللَّه، يقلِّبها كيف يشاء.

ويدلُّ على شفقة النبي صلى الله عليه وسلم بجميع أفراد أمَّته، فحتى مَن حضره النزْع؛ يذهب إليه ويَدعوه كما في هذا الحديث.

وكما في صحيح البخاريِّ(١): «لـمَّا مرِضَ الغُلَامُ اليهوديُّ؛ زارهُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم، وَدَعَاهُ إِلى الإِسلَامِ، فَنَظر الغُلامُ إِلَى أَبِيهِ، فَقَالَ

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات، هل يصلى عليه، وهل يعرض على الصبي الإسلام، رقم (١٣٥٦)، من حديث أنسٍ رضي الله عنه.

لَه: أَطِعْ أَبَا القَاسِم، فَأَسلَم، فَخَرَجَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم مِن عِندِ هَذا الغُلَام وَوَجْهُهُ يَتَلَأْلَأُ»، فزار النبي صلى الله عليه وسلم الغلام الصغير وهو كافرٌ؛ ليدعوه إلى الإسلام عند النَّزْع، وزار الشيخ الكبير في السِّنِّ - وهو أبو طالب -؛ ليدعوه إلى الإسلام.

فيدلُّ هذا على أنَّه لا احتقار في دعوة الآخرين مهما كان الذي أمامك، حتى ولو في آخر رَمَقٍ في حياته؛ فإنَّك تدعوه إلى الخير، وإلى الصراط المستقيم.

وقد كان أبو طالبٍ هو الذي يَحُوطُ النبي صلى الله عليه وسلم، ويناصره، ويؤازره على هذا الدين، وهو كافرٌ؛ لكنه كان يدافع عنه حَمِيَّةً، وعصبيَّةً، ولم يدافع عنه لأجل هذا الدين.

ثُمَّ لمَّا مات أبو طالبٍ؛ توفيت خديجة رضي الله عنها بعده بأَيَّامٍ، - وهي التي أيضاً كانت تحُوطُه صلى الله عليه وسلم -؛ فسُمِّي هذا العام عام حزنٍ على النبي صلى الله عليه وسلم؛ فكلُّ مَن كان ينصره من البشر في ذلك الزمن قد توفِّي.

ولمَّا مات أبو طالبٍ؛ اشتدَّ أَزْرُ المشركين لأذية النبي صلى الله عليه وسلم.

(فَقَالَا له) أي: رفقاء السوء: (أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ؟!) يعني: هل تريد أنْ تَترك الشرك، وتدخل في الإسلام؟ يُعَنِّفانه.

فدلَّ على أنَّ أبا جهلٍ، وعبد اللَّه بن أبي أميَّة، وأبا طالبٍ يَعلمون معنى كلمة «لا إله إلا اللَّه» وأنَّها لا معبود بحقٍّ إلا اللَّه؛ أي: لا يصحُّ أن تُصرف العبادة إلا للَّه.

ويدلُّ على أنَّ بعض المسلمين ممَّن يَنتسب إلى هذه الكلمة لا يَعرف معناها، فيقولها ويُشرك باللَّه - والعياذ باللَّه - من الطواف على القبور ونحو ذلك.

وفي روايةٍ أنَّ أبا طالبٍ قال: «لَوْلَا أَنْ تُعَيِّرَنِي قُرَيْشٌ، يَقُولُونَ: إِنَّمَا حَمَلَهُ عَلَى ذَلِكَ الجَزَعُ لَأَقْرَرْتُ بِهَا عَيْنَكَ»[1].

وهذا يدلُّ على أنَّ مراقبة الناس وعدم مراقبة اللَّه؛ من أسباب دخول النَّار - والعياذ باللَّه -، فمنَع نفْسه من نعيم الجَنَّة من أجْل الناس.

---

(١) رواه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب أوَّل الإيمان قول لا إله إلا اللَّه، رقم (٢٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ويدلُّ أيضاً قوله: (**أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟!**) على أنَّ قريشاً معروفةٌ بالشرك، فجَعلوا لأنفسهم ملَّةً؛ أي: ديناً خاصًّاً بهم - والعياذ باللَّه -.

ومع ذلك فالنبي صلى الله عليه وسلم لم ييْأس وأعاد عليه، (**فَأَعَادَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم**) يعني: كلمة التوحيد.

فدلَّ على أنه يُشرع تلقين من حَضرتْه الوفاة كلمة التوحيد؛ لفعْل النبي صلى الله عليه وسلم هنا، ولقوله عليه الصلاة والسلام: «لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»(١).

وجزاؤها: «مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الجَنَّة»(٢).

ويدلُّ على أنَّ المُحتَضِر تُعاد عليه هذه الكلمة؛ كما فعَل صلى الله عليه وسلم.

---

(١) رواه مسلمٌ، كتاب الجنائز، باب تلقين الموتى لا إله إلا اللَّه، رقم (٩١٦)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب من مات لا يُشرك باللَّه شيئاً؛ دخل الجنَّة، ومن مات مشركاً؛ دخل النَّار، رقم (١٥٤)، من حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه، ولفظه: «مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، ثُمَّ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا دَخَلَ الجَنَّة».

وقوله: (فَأَعَادَا) يعني: فأعادا عليه كلمة: **(أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ)**.

وهذا أيضاً يدلُّ على قُبْح رفقة السوء؛ فكانا سبباً في تخليد أبي طالب في النَّار أَبَدَ الآبِدِين؛ لذا يجب على المسلِم أن يَبتعد عن الصحبة السيئة.

فيدلُّ على أنَّ رفيق السوء شؤمه يكون أيضاً عند الموت، فلم يَدَعَاه وشأْنَه؛ بل جَلسا عنده ليموت على الكُفر.

وهذا يدلُّك على أنَّ أهل السوء يتسابقون إلى مَن كان معهم في السوء، ولا يَدَعونه، حتى تتيقَّن نفوسهم أنَّه دَخل النَّار، ولا يَرحمون صديقهم، فهما لم يَدَعا أبا طالبٍ وهو في هذه الحال التي فيها عطْفٌ ورحمةٌ؛ بل وَقفا على رأسه، ولم يَدَعاه؛ حتى يَدخل النَّار.

وهذا فيه الحذر مِن رفقة السوء.

وبيَّن اللَّه عز وجل أنَّ رفيق السوء رفيق ندامةٍ لا محالة، سيندم الإنسان عليه في الدنيا والآخرة؛ كما قال عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ [الفرقان: ٢٧-

٢٩]، فمَن صاحب سيِّئاً؛ يعضُّ على يديه، وهذه كناية على شدة الحَسرة؛ بأنَّه اتَّخذ رفيق سوءٍ.

ورفيق السوء مُرْدٍ لك إلى الأعمال الطَّالِحة، ومُبعِدُك عن الأعمال الصالحة.

لهذا يجب على المسلِم - وخاصَّةً الشابُّ -؛ أنْ يبتعد عن رفقاء السوء، وأنْ يحرص ويَقرب من الرفقة الصالحة، ومن طلاب العِلم، ومن أهل العِلم؛ ليقوِّي ويَحفظ إيمانه، ويَبتعد عن طريق الضلالة، وطريق الانحراف.

والصحبة الصالحة لها شأنٌ عظيمٌ في الإسلام؛ أمَر اللَّه عز وجل بها كثيراً، وفي صحيح البخاريِّ(١): قالت عائشة رضي الله عنها: «لَمْ أَعْقِلْ أَبَوَيَّ إِلَّا وَهُمَا يَدِينَانِ الدِّينَ، وَلَمْ يَمُرَّ عَلَيْنَا يَوْمٌ إِلَّا يَأْتِينَا فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، طَرَفَيِ النَّهَارِ: بُكْرَةً وَعَشِيَّةً» يعني: كان النبي صلى الله عليه وسلم يزور أبا بكرٍ رضي الله عنه كلَّ يومٍ في الصباح وفي المساء.

(١) كتاب اللَّباس، باب هل يزور صاحبه كل يومٍ، أو بكرةً وعشياً، رقم (٦٠٧٩).

فدلَّ على أنه يَنبغي للإنسان أنْ يَتَّخذ صاحباً، صالحاً، ملازماً له، يَنفعه، وأما الذي يضره؛ فيَبتعد عنه.

وهذا الحديث فيه التحذير منْ رفقة السوء، فحتى عند الموت؛ وهم معه.

قال: (فَكَانَ آخِرَ مَا قَالَ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ).

(أَبَى) استكبر؛ مِثل ما قال اللَّه: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ﴾ [البقرة: ٣٤].

فما منَع الكفَّار من الإسلام إلا الاستكبار، والإعراض عن هذا الدين، ولو كانوا خاضعين ذالِّين للَّه؛ لم يستكبروا عن طاعته؛ كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

قال المصنِّف رحمه الله فيها: «فتبّاً لِمَن كان أبو طالبٍ، وأبو جهلٍ، وابن أبي أميَّة؛ أعرَف منه بهذه الكلمة»(١).

---

(١) كتاب التوحيد (ص ٢٥٩).

فأهْل الكُفر: أبو جهْلٍ – وكنيته: أبو الحَكَم؛ فكنَّاه النبي صلى الله عليه وسلم أبا جهلٍ –، وعبد اللَّه بن أبي أميَّة، وأبو طالبٍ؛ يَعرفون معنى هذه الكلمة أنها: لا معبود بحقٍّ إلا اللَّه.

وبعض الناس لا يَعلمون ما معنى هذه الكلمة؛ يَنطقها بلسانه، ولا يَعلم معناها، لكن هذا أبو طالب، ومَن معه مِن المشركين، يَعلمون مَعنى هذه الكلمة.

(هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ)، وفي المُسند: **(أَنَا عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ)**[1]؛ يعني: آخر كلمةٍ قالها أبو طالب: الإقرار.

وتصرَّف الراوي من كلمة: «أنا»، إلى: **(هُوَ)**؛ لاستبشاعها في اللِّسان.

فمات أبو طالبٍ على هذه الكلمة؛ فكان مِن أهل النَّار.

---

(١) رواه أحمد في المسند، رقم (٢٣٦٧٤).

وأتى النَّص على أنَّه مِن أهل النَّار؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «أهْونُ أَهْلِ النَّار عَذَاباً أَبُو طَالِبٍ وَهُوَ مُنتَعِلٌ نَعلَينِ يَغْلِي مِنهُمَا دِماغُهُ» متفق عليه[١]، فخُفِّفَ عنه العذاب؛ لنصرته للنبي صلى الله عليه وسلم.

فلمَّا مات أبو طالبٍ؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ) يعني: أدعو لك بالمغفرة حتى لو مِتَّ على الكفر؛ ما لم أُنهَ عن الاستغفار.

فدلَّ على أن النبي صلى الله عليه وسلم وهو نبيٌّ، وأمامه عمُّه أبو طالبٍ، ويَعرف معنى كلمة التوحيد، وسيفارق هذه الحياة - أي: لن يعبد اللَّه لحظةً -؛ ولم يَستطع هداية عمِّه.

فدلَّ على أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يَملك نفعاً لأحدٍ حتى لو بالنطق بكلمةٍ.

فدلَّ على أن النافع هو اللَّه؛ فيجب أن تتعلق القلوب به.

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب صفة الجَنَّة والنَّار، رقم (٦٥٦١)، من حديث النعمان بن بشيرٍ رضي الله عنه، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب أهون أهل النَّار عذاباً، رقم (٢١٢)، من حديث ابن عباسٍ رضي الله عنهما، واللَّفظ لمسلمٍ.

(فَأَنْزَلَ اللَّهُ عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى﴾) يعني: لا يجوز للنبي صلى الله عليه وسلم، ولا للمؤمن أن يَدعو بالمغفرة للمشرِك، ولو كان من قراباته.

فدلَّ على أن أبا طالبٍ مات على الكُفر.

يعني: لا تَستغفر يا نبيَّ اللَّه، ولا يَستغفر أيضاً المؤمنون للمشركين حتى لو كانوا أقارب لهم، فمنهيٌّ عن الاستغفار لهم، والدعاء لهم بالمغفرة.

فدلَّ على أنَّ الكافر لا يُدعَى له بالمغفرة، ولا يُدعَى له بالرحمة، ولا يُدعى له بخيرٍ.

وهذه الآية نَزلت أيضاً لمَّا استأذن النبي صلى الله عليه وسلم أنْ يزور قبر أمِّه؛ فأَذن اللَّه له، فاستأذن مِن ربِّه أنْ يستغفر لها؛ فأنزل اللَّه هذه الآية[1].

إذاً: كان نزول الآية في الموقفين:

في أبي طالبٍ.

---

(١) تفسير البغوي (٢/ ٣٤٩).

وأيضاً عند استئذان النبي صلى الله عليه وسلم ربَّه أنْ يستغفر لأمِّه التي ماتت على الكُفر.

قال: (وَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي أَبِي طَالِبٍ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾) يعني: في شأن وحال أبي طالب، وعدم قدرة النبي صلى الله عليه وسلم على هدايته.

أيْ: يا محمد: نقْل القلوب من الكُفر إلى الإيمان، ومن الإيمان إلى الكفر ليست لك؛ وإنَّما مِن مقتضيات ربوبيتنا، فالذي يملك القلوب هو اللَّه.

ولو نظرتَ إلى أسباب الهداية؛ فهي متوفرةٌ.

فهو عمُّه صلى الله عليه وسلم، وقريبه، يَنصره، ويَحوطه، وكبيرٌ في السن، والنبي صلى الله عليه وسلم كان حيّاً؛ بل حَضر إليه، ولقَّنه، وأعاد عليه كلمة التوحيد؛ بل قال: (**لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ**)، ومع ذلك لم يَملك النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً من ذلك.

فدلَّ على أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم لا يَملك لمَن هو إليه أقرب في النسب من غيره شيئاً، وعلى أنَّه لا يَملك لغيره نفعاً ولا ضراً؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ

إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ * وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس:١٠٦ - ١٠٧].

فإذا كان هذا النبي صلى الله عليه وسلم في هذا المقام العظيم، وفي حضور عمِّه، لا يَملك قلْب أحدٍ، وأنَّ اللَّه هو الذي يَملكه بالهداية والإلهام؛ دلَّ على أنَّه يجب أنْ تتوجَّه القلوب إلى اللَّه وحْده.

بل إنَّ النبي صلى الله عليه وسلم كمَا في صحيح مسلم[1]: في آخر اللَّيل يدعو في دعاء الاستفتاح، فيقول: «اللَّهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «اهْدِنِي»، وأُمِر هو وأمَّتُه أنْ يقولوا في كل صلاةٍ مفروضةٍ، ونافلةٍ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾

(١) كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة اللَّيل وقيامه، رقم (٧٧٠)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

[الفاتحة: ٦]، فدلَّ على أنَّ البشر لا يَملكون تلك الهداية؛ وهي هداية التوفيق، وهداية الإلهام.

ومِن هذا يتبيَّن لنا أنَّ الهداية، والنَّفع؛ لا يَملكه إلا اللَّه؛ كما قال عز وجل: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢]، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يكرّر: «اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ»(١)، ويقول جل وعلا: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

فدلَّ على أن النفع والضرَّ بيد اللَّه وحده، ومَن تعلَّق باللَّه كفاه اللَّه كلَّ شأنه؛ قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

***

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الاذان، باب الذكر بعد الصلاة، رقم (٨٤٤)، من حديث المغيرة رضي اللَّه عنه، ومسلمٌ، كتاب الصلاة، باب ما يقول إذا رفع رأسه مِن الركوع، رقم (٤٧٧)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

[١٩]

بَابُ

مَا جَاءَ أَنَّ سَبَبَ كُفْرِ بَنِي آدَمَ وَتَرْكِهِمْ دِينَهُمْ هُوَ الغُلُوُّ فِي الصَّالِحِينَ

وَقَوْلُ اللَّهِ عز وجل: ﴿يَا أَهْلَ الكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾.

فِي الصَّحِيحِ: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما فِي قَوْلِ اللَّهِ عز وجل: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً﴾؛ قَالَ: هَذِهِ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا؛ أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ: أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ فِيهَا أَنْصَاباً، وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، فَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَنُسِيَ العِلْمُ؛ عُبِدَتْ».

وَقَالَ ابْنُ القَيِّمِ: «قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: لَمَّا مَاتُوا؛ عَكَفُوا عَلَى قُبُورِهِمْ، ثُمَّ صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُمْ، ثُمَّ طَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ؛ فَعَبَدُوهُمْ».

وَعَنْ عُمَرَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ» أَخْرَجَاهُ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «إِيَّاكُمْ وَالغُلُوَّ، فَإِنَّمَا أَهَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الغُلُوُّ» حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

وَلِمُسْلِمٍ: عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ - قَالَهَا ثَلَاثاً -».

الشرح:

لمَّا ذَكر المصنِّف رحمه الله أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم فمَن دوْنه لا يَملكون لأحدٍ نفعاً ولا ضراً؛ أَعقبها بثلاثة أبوابٍ كلُّها في الغلوِّ؛ ليبيِّن مضرَّة الغلوِّ، وأنَّه سبب الكُفر.

فساق هذا الباب؛ قال رحمه الله: (**بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ سَبَبَ كُفْرِ بَنِي آدَمَ وَتَرْكِهِمْ دِينَهُمْ هُوَ الغُلُوُّ فِي الصَّالِحِينَ**)، هذا هو **الباب الأوَّل**.

ثُمَّ بعد ذلك **الباب الثاني**: (**بَابُ مَا جَاءَ مِنَ التَّغْلِيظِ فِيمَنْ عَبَدَ اللَّهَ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ؛ فَكِيفَ إِذَا عَبَدَهُ؟!**).

والباب الثالث: (**بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ الغُلُوَّ فِي قُبُورِ الصَّالِحِينَ يُصَيِّرُهَا أَوْثَاناً تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ**).

يعني: ذَكر رحمه الله السبب، ثُمَّ التغليظ، ثُمَّ بعد ذلك ماذا يَؤول إليه هذا الغلوُّ، وعَقد هذه الثلاثة الأبواب متتاليةً؛ لأهميتها.

ولمَّا خَلق اللَّه الأرض لم يكن عليها شركٌ، وكانوا على الحنيفيَّة، ثُمَّ لمَّا هَلك الصالحون من قوم نوحٍ؛ وَضعوا لهم تماثيل؛ ليزدادوا من العبادة، فكلَّما رأوا صورة ذلك الرجُل الصالح؛ يَزدادون من العبادة، هذا كان قصدُهم فقط؛ من باب المحبَّة والتعظيم لأولئك الصالحين؛ لينشطوا في العبادة.

فلمَّا طال عليهم الأَمَد - كما سيأتي -؛ أَتى الشيطان إلى مَن بعدهم، وقال: إنَّ هذه الصور لم تُجعَل إلا لتُعبَد؛ فعُبِدَت.

ثُمَّ بعد ذلك أَرسل اللَّه الرسل؛ لبيان أنَّ هذا شركٌ.

فدلَّ على أنَّ سبب وقوع الكُفر في الأرض؛ التصوير.

فإذا قيل لك: كيف وَقع الشرك في الأرض؟

تقول: بسبب التصوير.

وهنا قال المصنِّف: (**مَا جَاءَ أَنَّ سَبَبَ كُفْرِ بَنِي آدَمَ وَتَرْكِهِمْ دِينَهُمْ هُوَ الغُلُوُّ فِي الصَّالِحِينَ**) بتصوير صُوَرِهِم، كما هو قول ابن عباسٍ رضي الله عنهما.

ولهذا يُحَرَّم التصوير بجميع أنواعه وألوانه: مِن نحْتٍ على الصخور، أو الأحجار، ومن رسمٍ باليد، ومن تصوير المتحرِّك، ومن تصوير الثابت.

والحديث: «لَعَنَ اللَّهُ المُصَوِّرَ»[(١)]، عامٌّ؛ فالألف واللَّام للعموم.

وأيضاً في مسلم[(٢)]: «كلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ».

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَاباً يَوْمَ القِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهُونَ بِخَلْقِ اللَّهِ»، - يعني: المُصَوِّرُوْن -، «ويُقال لَهُم: أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ»، والحديث في البخاريِّ ومسلم[(٣)]، من حديث عائشة رضي الله عنها.

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب اللِّبَاس، باب مَن لعَن المصور، رقم (٥٩٦٢)، من حديث عون بن أبي جحيفة عن أبيه رضي الله عنه، ولفظه: «أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم لَعَنَ الْمُصَوِّرَ».

(٢) كتاب اللِّبَاس والزينة، باب لا تَدخل الملائكة بيتاً فيه كلبٌ ولا صورةٌ، رقم (٢١١٠)، من حديث ابن عباسٍ رضي الله عنهما.

(٣) رواه البخاريُّ، كتاب اللِّبَاس، باب ما وُطئ من التصاوير، رقم (٥٩٥٤)، ومسلمٌ، كتاب اللِّبَاس والزينة، باب لا تَدخل الملائكة بيتاً فيه كلبٌ ولا صورة،

والتصوير المتحرِّك أشد في الفتنة من التصوير الثابت.

فلو قيل لك: هل تريد أنْ تَرى رجُلاً وهو يَتحرك ويتكلَّم؟ أو تريد أنْ ترى رجُلاً وهو في صورةٍ ثابتةٍ؟

فلا شك أنك تقول: المتحرك.

وكذا الخاطِب، لو قيل له: هل تريد أنْ ترى مخطوبتك وهي تَتحرَّك، وتقوم، وتَتكلم؟ أم تريد أنْ ترى صورةً ثابتةً؟

يقول: لا، أريد المتحرِّكة.

فدلَّ على أنَّ الفتنة بالمتحرِّك كالفيديو ونحوه؛ أشد فتنةً وتعظيماً من الصور الثابتة.

وإذا قيل: الصور الثابتة هي حبسٌ للظل.

نقول: لا، ليست حبْساً للظل؛ فلا تُقاس على صورة الشخص في الماء مثلاً؛ يعني: لا تُقاس على المِرآة؛ لأنَّهم يقيسون التصوير الثابت على المِرآة.

رقم (٢١٠٧)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

نقول: لا؛ تَختلف المِرآة؛ فلو أتى رجُلٌ ونَظر إلى المرآة، ثُمَّ ذَهب، وأتى رجُلٌ آخر؛ فصورة الرجل الأوَّل لا تثبت، فإذاً الفتنة زالت.

وكذا: لو نَظر رجُلٌ في نهرٍ، ثُمَّ ذَهب، وأتى رجُلٌ آخر؛ فلا تظهر صورة الرجل الأوَّل.

إذاً: فالإشكال في الثبوت؛ فمتى ما أردتَ أن تشاهد صورة ذلك الرجُل، أو المرأة؛ تُشاهدها، فهنا الفتنة.

لكنَّ المِرآة ليس فيها فتنةٌ؛ لأنها لا تَثبت، وتزول صورة الناظر.

فهذا الفرق بين الثابت، والمِرآة.

هذا ناهيك عمَّا في الصور من مفاسد سلوكيةٍ، وأخلاقيَّةٍ، وأحياناً عقديَّة؛ ممَّا يُوضع فيها ألوانٌ وأنواعٌ من الشرك، كمثل ما عند الطوائف الأخرى.

فقال: (**بَابُ مَا جَاءَ**) أي: من الآيات، ومِن قول الصحابة، وأهل العِلم، والأحاديث، (**أَنَّ سَبَبَ كُفْرِ بَنِي آدَمَ**) بعد أن كان بنو آدم على التوحيد، (**وَتَرْكِهِمْ دِينَهُمْ**) أي: ما جاء في سبب ترْك بني آدم دينهم وهو التوحيد.

(هُوَ الغُلُوُّ فِي الصَّالِحِينَ) فأوَّل كُفرٍ في الأرض، وترْك الملَّة الحنيفيَّة؛ كان بسبب الغلو في الصالحين بتصويرهم.

والغلوُّ: هو مجاوزة الحد(١).

و **(الغُلُوُّ فِي الصَّالِحِينَ)**: إنزالهم فوق منزلتهم التي وَضعهم اللَّه عز وجل عليها؛ مِثل: أن يعتقد في الرجُل الصالح سواء أكان حيّاً أو ميتاً؛ أنَّه يَغفر الذنوب، ويشفي المرضى، ويُدخل الجَنَّة، ويُباعد عن النَّار.

والصالحون لا يخلو: إمَّا أن يكونوا أحياءً، وإما أنْ يكونوا أمواتاً.

فإنْ كانوا أمواتاً: فمثلهم كغيرهم من أموات المسلمين، يُدعى لهم بالمغفرة والرحمة.

وإنْ كانوا أحياءً: فلا نَغلوا في محبتهم، ولا في تعظيمهم.

فنُبَجِّلهم، ونُقَدِّرهم، ونَحترمهم، ونعطيهم قدْرهم، ونتأدَّب بالآداب الدينية أمامهم، ولا نرفع الصوت، ولا نتعنَّت في السؤال.

نَأخذ منهم العِلم، ولا نجادل، ولا نمارِي معهم.

لكن لا نُعظِّمهم فوق ما أمرنا اللَّه بتعظيمنا إياهم.

---

(١) الصحاح للجوهري (٦/ ٢٤٤٨).

فلا نَخضع لهم، ولا نَركع لهم، ولا نَسجد لهم، ولا ندعوهم من دون اللَّه؛ وإنما نتأدَّب معهم بأدبٍ رفيعٍ كما يَتأدَّب الولد مع والده.

والسبب في أنَّ الناس يَغلُون في الصالحين حتى يوصلوهم إلى الشرك باللَّه؛ بسبب أمرين: المحبَّة، والتعظيم؛ فيُحِبُّ الرجُل الصالحَ، ويعظِّمه، حتى يَجعله في منزلة الألوهية – والعياذ باللَّه –.

وهذه الأمَّة وسطٌ بين الإفراط، والتفريط.

فالنصارى أَفرطوا في عيسى، وقالوا: إنَّه ابن اللَّه.

واليهود فرَّطوا في عيسى، وقالوا: إنَّه ابن بغيٍّ – والعياذ باللَّه –.

وهذه الأمَّة وسطٌ قالت: هو عبدُ اللَّه ورسوله.

وأكثر شركِ الناس هو في الصالحين؛ لأنَّ النفوس مجبولةٌ على محبتهم، وتعظيمهم.

فأتى الإسلام بالنهي عن إعطائهم شيئاً من الربوبية، فحقهم الاحترام، والتَّبْجِيل، وعدم إيذائِهم، والدعاء لهم؛ لكن يَحرُم أنْ نَرفعهم إلى منزلة الألوهية فهو شركٌ.

ويَحرُم أيضاً أن نَهضِمَهم حقَّهم بالأذية، أو عدم احترامهم؛ قال عليه الصلاة والسلام: قال اللَّه عز وجل: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيّاً فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ»[١].

ثُمَّ لمَّا بوَّب بهذه الترجمة العظيمة، وأنَّ السبب في الكُفر هو الغلوُّ في الصالحين؛ ذَكر الأدلَّة على ذلك، فساق ستة نصوصٍ:

النَّصُّ الأوَّل – (﴿**يَا أَهْلَ الكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ**﴾) –؛ لبيان النهي عن الغلوِّ.

والنَّصّ الثاني – حديث ابن عباسٍ رضي الله عنهما –؛ لبيان أنَّ التصوير هو سببٌ من أسباب الغلوِّ.

النَّصُّ الثالث – وهو قول ابن القيِّم –؛ لبيان أنَّ العُكُوف سببٌ من أسباب الغلوِّ في الصالحين.

والنَّصُّ الرابع؛ لبيان أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم نهى أن يغلوَ أحدٌ فيه؛ فقال: («**لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ**»).

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم (٦٥٠٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والنَّصُّ الخامس: (**«إِيَّاكُمْ وَالغُلُوَّ»**)؛ لبيان التحذير من الغلوِّ حتى في غير النبي صلى الله عليه وسلم.

والنَّصُّ السادس: (**«هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ»**)؛ لبيان أنَّ الغالِي متوعَّدٌ بالهلاك -والعياذ باللَّه-.

فقال رحمه الله: **(وَقَوْلُ اللَّهِ عز وجل: ﴿يَا أَهْلَ الكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾)**.

الغلوُّ يُخرج الشخص مِن هذا الدين؛ إذا كان غُلُوّاً يُوصِل إلى مرتبة الألوهية أو الربوبية.

ولأنَّ اليهود والنصارى غلَوا؛ حذَّرهم اللَّه من ذلك فقال: (**﴿يَا أَهْلَ الكِتَابِ لَا تَغْلُوا﴾**)، وفي الآية الأخرى قال: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لَا تَغْلُوا﴾ [المائدة: ٧٧].

(**﴿يَا أَهْلَ الكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾**) فلا تُعَظِّموا الأنبياء، ولا الصالحين.

﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الحَقَّ﴾ [النساء: ١٧١]؛ أيْ: أَفرِدوه وحْده بالعبادة، ولا تَجعلوا غيره من المخلوقين في مرتبة الألوهية.

واليهود غَلَوا في عُزَير، وجَعلوه ربّاً، والنصارى غَلَوا أيضاً في عيسى، وجعلوه إلهاً؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ [التوبة: ٣٠].

وهذا الخِطاب لليهود والنصارى، وهو أيضاً لأمَّة محمد؛ يعني: يا أمَّة محمدٍ لا تَغلوا في نبيِّكم كما غَلت النصارى في عيسى، وكما غَلت اليهود في عُزَيرٍ.

إذاً كيف نَنظر إلى نبيِّنا محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم؟

نقول: كما قال هو عن نفْسه: (**فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ**»)، بعد ما قال: («**لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ**).

ومعنى (**عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ**): منزلةٌ عظيمةٌ، جليلةٌ، فالرسالة لا يمكن أن تكون لأحدٍ بعده؛ فإذاً أعطيناه منزلةً عاليةً.

والعبودية التي هي العبودية الخاصة؛ رتبةٌ عاليةٌ لا ينالها إلا مَن اصطفاه اللَّه عز وجل، وجَعله عبداً من عباده الخاصِّين.

فالمراد: العبودية الخاصَّة، وليست العبودية العامة؛ وإلَّا: ﴿كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً﴾ [مريم: ٩٣]، والعبودية الخاصَّة لا تكون إلا لمن أطاع اللَّه.

فكأنك إذا قلتَ: (**عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ**) تقول: يا محمَّد أنت من العُبَّاد الخالصين للَّه، وأنت الرسول الذي اصطفاك اللَّه بالرسالة.

فأنت أعطيته قدْره، وأيضاً لم تتجاوز، ولم تَطعن في مقام الربوبية، فلم تقل: أنت يا محمد تَملك نفعاً أو ضراً؛ بل قلتَ: أنتَ عبدٌ للَّه، وأنت رسول للَّه.

ولا يَنال هذا الوصف؛ إلا هو صلى الله عليه وسلم؛ ولذلك أثنى اللَّه عليه في أجلِّ المقامات:

ففي الإسراء قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَى﴾ [الإسراء: ١]

وقال في إنزال كتابه: ﴿الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الكِتَابَ﴾ [الكهف: ١]، ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣].

ففيه ثناءٌ، وتعظيمٌ، ومنزلةٌ عاليةٌ؛ فهو المطيع للَّه، المُعَظِّم له.

فلا تَغلوا أيتها الأمَّة المحمدية في نبيِّكم، كما غَلت الأمَّتَيْن السابقتين في نبيِّهما.

الملل السابقة لا تخلو:

إما أن يكون لهم كتابٌ؛ كاليهود لهم التوراة، والنصارى لهم الإنجيل.

أو ليس لهم كتابٌ؛ كعبَّاد الأصنام من قريشٍ في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وما قبْله، وغيرهم.

وأهْل الكتاب كانت لهم ملَّةٌ صحيحةٌ؛ لكنَّها نُسخَت، والآن حُرِّفت.

لكن عُبَّاد الأصنام ليس لهم ملَّةٌ صحيحةٌ في الأصل؛ فهي من أصلها باطلةٌ.

وببعْثة النبي صلى الله عليه وسلم نُسخت جميع الأديان؛ فلم تبقَ إلا ملَّة محمدٍ عليه الصلاة والسلام؛ قال سبحانه: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقوله: (﴿**يَا أَهْلَ الكِتَابِ**﴾) هو أيضاً نداءٌ لأمَّة محمَّدٍ؛ أي: احذروا ممَّا حُذِّر منه أهل الكتاب.

(﴿يَا أَهْلَ الكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾) أي: يا أمَّة محمَّدٍ لا تغلوا أيضاً في دينكم كما غَلت اليهود والنصارى.

فدلَّ على أنَّ سبب كُفر النصارى؛ الغلوُّ في عيسى، وأنَّ سبب ترك اليهود لدينهم؛ هو الغلوُّ في عُزَيرٍ.

وهذه الأمَّة يقال لها: احذروا أنْ تَغلوا في نبيِّكم محمِّدٍ صلى الله عليه وسلم، أو في الصالحين؛ فتقعوا في المحذور الذي وَقع فيه أهل الكتاب من قبْلكم.

ثُمَّ بعْد ذلك قال: (فِي الصَّحِيحِ: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما فِي قَوْلِ اللَّهِ عز وجل: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً﴾؛ قَالَ: هَذِهِ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ) وذلك أنَّ مِن زمن آدم إلى نوحٍ عليهما السلام كانت الأرض على التوحيد لا يوجد فيها شركٌ.

وأوَّل شركٍ حَدث في عهْد نوحٍ؛ لذلك بَعث اللَّه عز وجل نوحاً إلى قومه وكانوا مِن قبْل عشرة قرونٍ - يعني: ألْف سنةٍ - على التوحيد، واللَّه قال: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ﴾؛ أي: بالشرك والمعاصي، ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]؛ أي: بعْد أن كانت على التوحيد.

(فَلَمَّا هَلَكُوا) يعني: لمَّا مات هؤلاء الصالحون.

(أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ) يعني: لمَّا ماتوا صار قومهم يَتحدثون بأفعالهم الصالحة؛ ليتنشَّطوا على العبادة، فقال لهم الشيطان - وهو يَمكر بهم -: حتى تتنشطوا بقوَّةٍ على العبادة: (انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ) أي: مجالس الصالحين التي كانوا يجلسون فيها، (أَنْصَاباً) يعني: ضعوا فيها تماثيل، ليس لأجل أن تعبدوهم؛ وإنَّما إذا رأيتم صُورهم تَنشطون على العبادة، (وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ).

(فَفَعَلُوا) ولم يَعبدوها.

وهذا أمرٌ منهيٌّ عنه وهو التصوير بنحْت التماثيل كما فعَل قوم نوحٍ، حتى ولو كانت نيَّتهم حسنةً، فهنا كانت نيتهم التَّقَوِّي على العبادة، لكنَّه لمَّا كان أمراً مُبتَدَعاً؛ حُرِّم ذلك حتى ولو صحَّت النية؛ فالعبرة بما جاء به الشَّرع.

قال: (فَفَعَلُوا، فَلَمْ تُعْبَدْ حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ) يعني: مات الذين عاصروا، وعَرفوا الصالحين، والذين نَصبوا الأنصاب لهم.

زيَّن لهم الشيطان وضْع الصور؛ لينشطوا في العبادة كلَّما رأوهم؛ ففَعلوا، وصوَّروهم، فلم يُعبَدوا، حتى مات جيلٌ، وجيلٌ، حتى مكثَت

عشرة قرونٍ؛ أي: أَلْف سنةٍ، وبعْد ألف سنَةٍ والشيطان يستدرج الأجيال، فلمَّا طالَ عليْهِم الأمَد، (وَنُسِيَ العِلْمُ) الذي هو الحَذَر من الشرك، ونُسِي العِلم أيضاً بأنَّهم لم يضعوا هذه الصور إلا للتذكُّر، ولم يجعلوها للعبادة، فلمَّا نُسِيَ ذلك؛ عُبِدَت من دون اللَّه، والسبب في ذلك التصوير.

فانظر كيف يستدرج الشيطان الأجيال والأفراد أَلْف سنَةٍ، حتى يوقعهم في أعظم ذنبٍ يُعصَى اللَّه به، وهو الشرك باللَّه.

(وَنُسِيَ العِلْمُ؛ عُبِدَتْ) فوقع الشرك - والعياذ باللَّه -.

فأَنزل اللَّه عز وجل الكتُب، وأَرسل الرسل، وجاءت الشرائع؛ بسبب هذا الذنْب العظيم الذي هو أعظم ذنْبٍ في الأرض؛ كما قال عليه الصلاة والسلام في صحيح البخاريِّ[1] لمَّا سُئل: «أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدّاً وَهُوَ خَلَقَكَ».

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب تفسير القرآن، باب قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، رقم (٤٤٧٧)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب، وبيان أعظمها بعده، رقم (٨٦).

فدلَّ على أن الإنسان يجب عليه أنْ يَبتعد عمَّا كان سبباً للشرك، وهو التصوير؛ بسبب فتنته؛ لأنَّه يُسَبِّب فتنةً، وهي الشرك؛ لأنَّه حتى لو لم يُفعل الآن قد يُفعل في المستقبَل.

ودلَّ أيضاً على أنَّ من أسباب منْع الشرك في الأرض؛ وجود العلماء، فلمَّا هَلك العلماء في وقتهم - كما قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: **(وَنُسِيَ العِلْمُ)** -؛ وَقع الشرك.

فدلَّ على أنَّ العلماء الربانيِّين هم الحافظون للناس من الشرك بإذن اللَّه، وهم السبب في عدم وقوع غضبِ اللَّه على الإنسان؛ فوَجب علينا أن نَحترم العلماء؛ فهم سببُ كلِّ خيرٍ للأمَّة.

فأرسل اللَّه رسولاً يَتلو رسولاً؛ حتى ينهاهم عن هذا الذنْب الذي وَقع في الأرض بسبب التصوير؛ لذلك يجب أن لا يتهاون المسلِم في التصوير، كما قد تهاون الناس فيه تهاوناً ملحوظاً.

ولا يَنظر الشخص إلى كثرة المصوِّرين؛ وإنَّما ينظر إلى الحُرمة، حتى لو اتَّفق جميع الناس أو تواطؤوا على التصوير.

فلا تُصوِّر ذوات الأرواح، أمَّا الشجر، والحجر، والجبل؛ ما فيه بأسٌ.

أمَّا من ذوات الأرواح ممَّا يتنفَّس ويموت؛ فهذا لا يجوز تصويره؛ للأحاديث السابقة التي في البخاريِّ ومسلمٍ.

ثُمّ بعد ذلك استدلَّ المصنِّف رحمه الله بقول بعض السلف، الذي نَقَله ابن القيِّم: (وَقَالَ ابْنُ القَيِّم رحمه الله) في كتابه إغاثة اللَّهفان[1]:

(قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: لَمَّا مَاتُوا؛ عَكَفُوا عَلَى قُبُورِهِمْ)

العكوف: هو المُكث في مكانٍ؛ معتقِداً فيه الحبُّ، والتعظيم، والبرَكة.

مِثل: لو أنَّ شخصاً يأتي إلى شجرةٍ في كلِّ أسبوعٍ مرَّةً، ويَجلس عندها؛ معظِّماً لها، ويقال له: لماذا تَجلس؟

يقول: لأنَّ بجلوسي عندها تنالني البركة؛ بسبب تلك الشجرة.

فهذا - والعياذ باللَّه - مفتاح الشرك؛ بل هو - أي: التبرُّك - شركٌ أكبر.

فساق المصنِّف رحمه الله قول ابن القيِّم رحمه الله؛ لبيان أنَّ سبباً من أسباب الشرك: العكوف.

---

(١) إغاثة اللَّهفان من مصائد الشيطان (١/ ١٨٤).

وبيَّن لك التدرُّج في الشرك: عَكفوا على قبورهم، ثُمَّ صوَّروا تماثيلهم، ثُمَّ بعد ذلك عُبِدَت من دون اللَّه.

وسبب العكوف: التعظيم، يأتون إليها، ويقفون عندها، ويَنظرون إليها؛ محبَّةً، وتعظيماً، ويُكثِرون التردد عليها، وهذا هو العكوف والمُكث؛ وهو من وسائل الشرك، ثُمَّ بعد ذلك عَبدوهم من دون اللَّه؛ بسبب التصوير.

قال: (ثُمَّ صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُمْ) من الأسباب أيضاً: التصوير؛ كما سَبق في قول ابن عباسٍ رضي الله عنهما.

قال: (ثُمَّ طَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ؛ فَعَبَدُوهُمْ) والعياذ باللَّه، فيحرُم أن يذهب شخصٌ - مثلاً - عند قبرٍ ويَجلس عنده معظِّماً له طالباً عنده البركة؛ فهذا شركٌ أكبر.

ويحرُم أيضاً أن يَمكث عند القبر ولو لم يَعرفه، ويَجلس عنده؛ معظِّماً لصاحب ذلك القبر ولو لم يَعتقد فيه البرَكة؛ لا يجوز؛ لأنه وسيلةٌ

إلى عبادته من دون اللَّه، لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيداً»[١]؛ يعني يُعَادُ مرَّةً بعد مرَّةٍ.

قال رحمه الله: **(وَعَنْ عُمَرَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ)**.

ساق المصنِّف رحمه الله هذا الحديث؛ لبيان تحريم الغلو في النبي صلى الله عليه وسلم.

وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن الغلوِّ فيه؛ فمن باب أَولى لا يجوز الغلوُّ في غيره من الصالحين؛ لأن الغلوَّ هو سبب كُفر بني آدم.

فأول شركٍ وَقع في الأرض بسبب الغلوِّ في الصالحين.

قال: (**لَا تُطْرُونِي**) الإطراء: مجاوزة الحد سواء في الكلام، أو في الأعمال، أو في الاعتقادات[٢].

---

(١) رواه أحمد في المسند، رقم (٨٨٠٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) لسان العرب لابن منظور (١٥/ ٦).

فلا يجوز إطراء النبي صلى الله عليه وسلم بالقول؛ بأن يُجْعل في منزلةٍ أعلى من المنزلة التي أنزله اللَّه عز وجل إيَّاها.

وكذا لا يجوز الغلوُّ فيه في الاعتقاد بأنَّه يَنفع، أو يَضر، ولو لم يُتكلَّم باللِّسان.

وكذلك لا يجوز الغلوُّ في النبي صلى الله عليه وسلم بالجوارح؛ مثل: الانحناء، أو الخضوع في الجسد حال السلام على النبي صلى الله عليه وسلم.

لذلك قال: (**لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَم**) فيُحذِّر صلى الله عليه وسلم أمَّته؛ لأنَّ الأمم السابقة هَلكت بسبب التعظيم، والنصارى ما هَلكت إلا بسبب عيسى؛ قالوا: «إنَّه إلهٌ»، وقالوا: «ثالث ثلاثةٍ»، وقالوا: «ثاني اثنين»، وكذلك اليهود غَلت في عُزَيرٍ؛ فجعلوه ابن اللَّه.

فالنبي صلى الله عليه وسلم حذَّر أمَّته؛ لمَّا رأى مَن هَلك من الأمم السابقة، فقال: (**لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَم**) وقالوا: إنَّه إله.

ولمَّا بيَّن النبي صلى الله عليه وسلم أنَّه لا يجوز إطراؤه؛ بيَّن منزلته عليه الصلاة والسلام فقال: (**إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ**) أي: ليس لي شيءٌ من مقتضيات

الربوبية من النفع، أو دفْع الضر، أو مغفرة الذنوب، أو شفاء المرضى ونحو ذلك.

فإذاً ماذا نقول لك؟ قال: (فَقُولُوا) أي: بالكلام العدْل الوسط: (عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ) وهي منزلةٌ عظيمةٌ.

(عَبْدُ اللَّهِ) هذه العبودية الخاصَّة التي يُمدح عليها المرء، وقد بَلغ النبي صلى الله عليه وسلم غايتها؛ فلا يجوز أن يُعبد من دون اللَّه.

(وَرَسُولُهُ) أي: أُعطي مقام الرسالة؛ فتجب طاعته.

فالنبي صلى الله عليه وسلم نهى أمَّته عن الغلوِّ، وقال: أنا عبدٌ ورسولٌ، لا أَملك نفعاً ولا ضراً.

قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [التغابن: ١٢]، ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ﴾ [العنكبوت: ٥٠]، ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ [يونس: ١٠٨]، ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: ١٠٧]، ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام: ١٠٤]، ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

فمهمَّته ورسالته: البيان والتبليغ فقط، ولا يَملك لأحدٍ ضراً ولا نفعاً.

(أَخْرَجَاهُ) فالحديث في البخاريِّ ومسلمٍ.

وذَكر النبي صلى الله عليه وسلم العبودية والرسالة، ولم يذكر السِّيَادَة - يعني: يا سيد، أو سيدنا رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم -؛ لأنَّ مقام العبودية والرسالة أكمل، وأعلى، وأكثر مدحاً من السيادة؛ لأنَّ الأسياد في أمَّته ومَن هم قبل أمَّته كثير، بخلاف الرسالة؛ فليس في أمَّته سوى هو عليه الصلاة والسلام.

فإذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الغلوِّ فيه؛ فيحرُم أن نَغلو في غيره أيضاً.

ثُمّ قال: (وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «إِيَّاكُمْ وَالغُلُوَّ»).

ذَكر المصنِّف هذا الحديث؛ لبيان النهي عن الغلوِّ في كلِّ أحدٍ حتى غيْر النبي صلى الله عليه وسلم.

فكلُّ شيء فيه غلوٌّ؛ يُهلِك، وأعظم الغلو المُهلِك هو الغلوُّ في الدين.

يعني: أنْ ترفع رجلاً فوق منزلته، وتدعوه من دون اللَّه؛ هذا غلوٌّ.

والطواف بالكعبة: فيَغلو في الكعبة، ويَعتقد أنها تنفع وتضر، ويتمسَّح بها، ويَتبرَّك بها؛ فيهلك.

والمشاعر كذلك؛ يتبرَّك بتُرْبَتها ونحو ذلك؛ فيهلَك.

وكذلك قبور الصالحين والأولياء؛ يعتقد أنها تنفع وتضر؛ فيغلو ويَهلك.

والأصل أنَّ الإنسان لا يَغلو؛ كما قال تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢]، والنبي صلى الله عليه وسلم قال: «وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ»[١]؛ فهو دينٌ متينٌ، عظيمٌ، سبيلٌ وسطٌ، قيِّمٌ، بيِّنٌ، واضحٌ، هادٍ، لا إفراط ولا تفريط؛ قال تعالى: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: ٤٣]، وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم: («**إِيَّاكُمْ وَالغُلُوَّ، فَإِنَّمَا أَهَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الغُلُوُّ**»).

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الإيمان، باب الدين يُسر، رقم (٣٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وهكذا كلَّما كان الإنسان على سجيَّته، وعدم غلوِّه؛ كلَّما كان أقبل للنفوس، وأطهر لقلبه، وأريَح في نفسه، وفي قلبه وبدنه وماله ومأكله ومشرَبِه.

لهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يَتكلَّف موجوداً، ولا يَطلب مفقوداً في أكله، يقدِّم الموجود، ولا يطلب ما هو معدوماً عنده، يأتون يَطلبون منه طعاماً؛ فيَطلب من أبياته: هَلْ عِندَكُم مِن طَعَامٍ؟ فيقولون: ما عندنا شيءٌ ولا ماء، فيقول للسائل: مَا عِندَنَا شَيءٌ؛ فلا يتكلَّف.

تَطرق اليهودية على بيت عائشة رضي الله عنها تَطلب الطعام، وتَبحث فلا تجد في بيتها سوى تمرتين، وعلى فِطرتها وسَجِيَّتِها تعطيها(١).

فلا يَتكلَّف الإنسان لا في الملْبس، ولا في الكلام، ولا في المطعَم والمشرَب، ولا يَتكلَّف في المِشية، ولا يَتكلَّف في المسكن؛ فيكون على سجيَّته في كل شيء.

قال: (**إِيَّاكُمْ**) أي: أحذِّركم من (**الغُلُوُّ**)، لماذا؟

---

(١) رواه أحمد في المسند، رقم (٢٥٠٨٩)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

لأنَّه هو سبب الهلاك، فقال: (فَإِنَّمَا أَهَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الغُلُوُّ) فهَلك النصارى بالشرك بسبب الغلوِّ، وهَلك اليهود بالشرك بسبب الغلوِّ، وهَلك قوم نوحٍ بالشرك بسبب الغلو، وهكذا.

ومن غلا في شيءٍ يَهلك، فمن غلا في الملبس فوق ما أُمِرَ به؛ يَهلك.

ومن غلا في مشيته يَتَبَخْتَر؛ هلك، وأُبغِض.

ومَن تشدَّق في كلامه؛ هَلك، وأُبغِض.

ومَن غلا في الإسراف؛ هَلك؛ قال اللَّه: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ [الإسراء: ٢٧].

وعدم التكلُّف وعدم الغلوِّ؛ هو الذي جَعل النبي صلى الله عليه وسلم مقبولاً في الأرض، ومقبولاً بين الصحابة، وسبب محبَّة الصحابة رضي الله عنهم له.

والحديث رواه أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما[١].

(١) في المسند، رقم (١٨٥١).

ثُمَّ بعد ذلك ذكر حديثاً آخر في صحيح مسلمٍ: قال: (وَلِمُسْلِمٍ: عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ - قَالَهَا ثَلَاثاً -»).

ذَكر المصنِّف هذا الحديث؛ لبيان أنَّ المتنطِّع، والغالِي في الفعْل، أو في الكلام، أو في الإسراف في المال؛ هالكٌ.

وإذا كان المتنطِّع هالكاً؛ فيجب عليه أن ينقذ نفْسه من ذلك الهلاك.

فبيَّن لك ما هو مآل المتنطِّع.

فإن كان الشخص يتنطَّع في الكلام، ويتنطَّع في الحركة، ما هو مآله؟

قال النبي صلى الله عليه وسلم: (**هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ**)، ولن يفلحوا؛ لأنَّ اللَّه عز وجل جَعل في هذه الحياة موازين، من زاد عليها هَلك، ومن نَقص عنها هَلك؛ لذلك قال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩].

قال: (**قَالَهَا ثَلَاثاً**) يعني: كرَّرها ثلاثاً؛ لخطورة الغلوِّ.

وأشدُّ الهالكين - كما سَبق - هو المتنطِّع في الدين، بالغلوِّ في الأَوْلياء والصالحين والملائكة، حتى الغلو في الجِنِّ؛ مِن أنْ يَذبح لهم، أو أنْ يدعوهم من دون اللَّه، أو يَعتقد أنهم ينفعون أو يَضرُّون.

لذلك ساق المصنِّف رحمه الله هذا الباب العظيم؛ ليبيِّن مضرَّة الغلو في الصالحين، وأنه سبب الكفر.

وسبب الغلو في الصالحين هو التصوير؛ لذا يجب علينا الحذر من هذه المنهيات، لئلَّا نقع في الغلو ونَهلك.

***

[٢٠]

بَابُ
مَا جَاءَ مِنَ التَّغْلِيظِ فِيمَنْ عَبَدَ اللَّهَ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ؛ فَكَيفَ إِذَا عَبَدَهُ؟!

فِـي الصَّحِيحِ: عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها: «أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ ذَكَرَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم كَنِيسَةً رَأَتْهَا بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ، وَمَا فِيهَا مِنَ الصُّوَرِ؛ فَقَالَ: «أُولَئِكِ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ - أَوِ العَبْدُ الصَّالِحُ - بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِداً، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، أُولَئِكِ شِرَارُ الخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ».

فَهَؤُلَاءِ جَمَعُوا بَيْنَ الفِتْنَتَيْنِ: فِتْنَةِ القُبُورِ، وَفِتْنَةِ التَّمَاثِيلِ.

وَلَهُمَا: عَنْهَا رضي الله عنها قَالَتْ: «لَمَّا نُزِلَ بِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا، فَقَالَ - وَهُوَ كَذَلِكَ -: «لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى اليَهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِد - يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا، وَلَوْلَا ذَاكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ؛ غَيْرَ أَنَّهُ خُشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِداً -» أَخْرَجَاهُ.

وَلِمُسْلِمٍ: عَنْ جُنْدُبٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ وَهُوَ يَقُولُ: «إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلاً كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً.

وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً مِنْ أُمَّتِي خَلِيلاً؛ لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً.

أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ؛ إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ».

فَقَدْ نَهَى عَنْهُ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ، ثُمّ إِنَّهُ لَعَنَ - وَهُوَ فِي السِّيَاقِ - مَنْ فَعَلَهُ.

وَالصَّلَاةُ عِنْدَهَا مِنْ ذَلِكَ - وَإِنْ لَمْ يُبْنَ مَسْجِدٌ - وَهُوَ مَعْنَى قَولِهَا: «خُشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِداً»؛ فَإِنْ الصَّحَابَةَ لَمْ يَكُونُوا لِيَبْنُوا حَوْلَ قَبْرِهِ مَسْجِداً.

وَكُلُّ مُوضِعٍ قُصِدَتِ الصَّلَاةُ فِيهِ فَقَدِ اتُّخِذَ مَسْجِداً؛ بَلْ كُلُّ مُوضِعٍ يُصَلَّى فِيهِ يُسَمَّى مَسْجِداً؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «جُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً».

وَلِأَحْمَدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ: عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه مَرْفُوعاً: «إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ: مَنْ تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ القُبُورَ مَسَاجِدَ». وَرَوَاهُ أَبُو حَاتِمٍ فِي «صَحِيحِهِ».

الشرح:

في هذه الترجمة كأنَّ سائلاً يسأل: ما الحُكم إذا صليتُ للَّه عز وجل مخلِصاً في هذه الصلاة له وحده، لكن عند قبر رجُلٍ، ما الحكم في ذلك؟

الجواب: (بَابُ مَا جَاءَ مِنَ التَّغْلِيظِ فِيمَنْ عَبَدَ اللَّهَ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ؛ فَكَيفَ إِذَا عَبَدَهُ؟!).

يعني: ما حُكم أنْ يَفعل المسلم طاعةً من الطاعات عند القبور؟

الحُكم في ذلك: لا يجوز، وهو وسيلةٌ كبيرةٌ إلى الشرك؛ بل قال شيخ الإسلام رحمه الله: «الصلاة عند القبور - يعني: للَّه - هو عين المحادَّة للَّه ورسوله»(١).

فلا يجوز أنْ يصلِّيَ المسْلِم ركعتين - مثلاً - عند قبرٍ.

فإذا قيل: ما حُكم الصلاة في المسجد الذي فيه قبر؟

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لشيخ الإسلام (٢/ ١٩٣).

نقول: ذَهب أهل العِلم إلى بطلان الصلاة في المسجد الذي فيه قبرٌ.

فإذا كان المسجد محاطاً بأربعة جدران، والقبر في داخله؛ لا يجوز الصلاة فيه؛ بل هي باطلةٌ؛ كما قال ذلك الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله[١]، وكما ذَكر ذلك الشيخ ابن بازٍ رحمه الله[٢]؛ ببطلان الصلاة في المسجد الذي فيه قبرٌ.

وهكذا كلُّ عبادةٍ عند قبرٍ؛ لا تجوز، إلا ما جاء النَّص بها، وهو الدعاء للميت فقط.

يعني: لا يجوز أنْ يَتصدَّق العبد في المقابر؛ لأنها عبادةٌ للَّه لا يجوز فعْلها في المقابر، وكذلك لا يَأخذ المصحف ويَقرأ القرآن في المقابر.

فالعبادات لا تُفعَل في المقابر، ومنهيٌّ أنْ تُتَّخذ المقابر أماكن للعبادات.

لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «وَلَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُوراً»[٣]؛ يعني: لا تَجعلوها كالمقابر؛ لا يُصَلَّى فيها، ولا يؤدَّى فيها

---

(١) شرح كتاب التوحيد (ص ٤٠٧).

(٢) مجموع فتاوى ابن باز (١٠/ ٢٩٦).

(٣) رواه أحمد في المسند، رقم (٨٨٠٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

عبادةٌ؛ بمعنى: أنَّه متقرِّرٌ عند الصحابة أنَّ أيَّ عبادةٍ في المقبرة لا تجوز؛ مِن صدقةٍ، أو قراءة قرآنٍ، أو تفريج كُرُباتٍ ونحو ذلك.

وإنما تُزار المقابر لثلاثة أمورٍ:

الأمر الأوَّل: تذكيرٌ بالآخرة.

الأمر الثاني: الدعاء للميت.

الأمر الثالث: وفاءٌ للميت إذا عُرِف بعَيْنِه؛ كما زار النبي عليه الصلاة والسلام قبر أمِّه آمنة(١).

ففعْل أيِّ عبادةٍ كصلاةٍ، وصيامٍ؛ كأن يكون صائماً ويُفطر عند المقابر؛ لا يجوز؛ فليست المقابر أماكن للعبادات، وإنما تُزار للأمور الثلاثة السابقة؛ كما ذَكر ذلك أيضاً ابن القيِّم رحمه الله في زاد المعاد(٢) فيما هو المقصد من زيارة المقابر، وأنَّ المقصد الشرعي هي الأمور الثلاثة: الدعاء للميت، تذكُّر الآخرة، الوفاء للميت من أبٍ، أو أخٍ، أو عمٍّ، أو قريبٍ، أوصديقٍ ونحوه.

---

(١) رواه مسلمٌ، كتاب الجنائز، باب استئذان النبي صلى الله عليه وسلم ربَّه عز وجل في زيارة قبر أمِّه، رقم (٩٧٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) (١/ ٥٠٧).

فإذا قيل: لو صلَّى شخصٌ في المقبرة صلاة العصر – مثلاً –، فما حُكم هذه الصلاة؟

نقول: يُعيد الصلاة؛ وهي باطلةٌ.

وفي صحيح البخاريِّ[1] أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى أَنَساً رضي الله عنه يصلِّي إلى القبر؛ فقال عمر: «القَبْرُ القَبْرُ»؛ أيْ: احذر القبر، وابتَعد عنه.

فهو متقرِّرٌ عند الصحابة تحريم الصلاة عند القبر، والبُعد عنه.

والشيطان له مَدخلٌ كبيرٌ في إغواء بني آدم؛ لصرْف شيءٍ من هذه العبادة للميت، أو الخضوع له، أو الذلِّ له، أو الخوف منه، أو طلب الرجاء.

لذلك سدّاً لباب الذريعة؛ لا يجوز فعْل أيِّ عبادةٍ عند القبور؛ بل غلَّظ النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك؛ بل لعَن؛ بل ذَكر أنهم من شرار

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الصلاة، باب هل تُنبش قبور مشركي الجاهلية، ويُتَّخذ مكانها مساجد، رقم (٤٢٧).

القوم عند اللَّه، وحتى في آخر حياته صلى الله عليه وسلم يحذِّر من ذلك الفعل؛ فلا يجوز أن تؤدَّى العبادة عند القبور؛ لخطورة ذلك.

قال رحمه الله: (**بَابُ مَا جَاءَ مِنَ التَّغْلِيظِ**) أي: من الوعيد والتهديد.

(**فِيمَنْ عَبَدَ اللَّهَ**) أي: أنَّه أَخلص في عبادته هذه للَّه، ولكن المكان منهيٌّ عن تلك العبادة فيه، ففَعَل هذه العبادة خالصاً للَّه، لكنَّ المكان خطأٌ، وهو: (**عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ فَكَيفَ إِذَا عَبَدَهُ؟!**).

فكأنه يقول لك: فِعْل العبادة للَّه عند القبر وسيلةٌ للشرك الأكبر، فكيف إذا عبده؟!

يعني: احذر فقد يؤدِّي بك الشيطان إلى عبادته من دون اللَّه.

فلو دعوتَ ربك، ثُمَّ يُخيِّل لك الشيطان أنَّ استجابة الدعاء بسبب ذلك الميِّت، فيُزيغ الشيطان قلبك؛ فتؤدي العبادات لذلك القبر من دون اللَّه عز وجل.

فإذا كان هذا النهي وهي عبادةٌ للَّه لكنَّ المكان محذورٌ؛ فكيف بمَن يَفعل عبادةً يصرفها لغير اللَّه، كمِثْل مَن يطوف على القبر، أو يدعوه من دون اللَّه، أو يذبح له وغير ذلك - والعياذ باللَّه -.

لأنَّ عبادة اللَّه عند القبور من صلاةٍ، أو صدقةٍ، أو تلاوة قرآنٍ؛ كلُّ ذلك وسيلةٌ للشرك.

فيُبتعَد عن أماكن القبور في أداء العبادات فيها؛ إلا ما جاء النصُّ فيه؛ كصلاة الجنازة(١)، أو الدعاء للميت بعد دفْنه(٢).

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الصلاة، باب كنْس المسجد والتقاط الخرق والقذى والعيدان، رقم (٤٥٨)، ومسلمٌ، كتاب الجنائز، باب الصلاة على القبر، رقم (٩٥٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه: «أَنَّ امْرَأَةً سَوْدَاءَ كَانَتْ تَقُمُّ الْمَسْجِدَ - أَوْ شَابّاً - فَفَقَدَهَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فَسَأَلَ عَنْهَا - أَوْ عَنْهُ - فَقَالُوا: مَاتَ، قَالَ: «أَفَلَا كُنْتُمْ آذَنْتُمُونِي» قَالَ: فَكَأَنَّهُمْ صَغَّرُوا أَمْرَهَا - أَوْ أَمْرَهُ - فَقَالَ: «دُلُّونِي عَلَى قَبْرِهِ» فَدَلُّوهُ، فَصَلَّى عَلَيْهَا، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ هَذِهِ الْقُبُورَ مَمْلُوءَةٌ ظُلْمَةً عَلَى أَهْلِهَا، وَإِنَّ اللَّهَ عز وجل يُنَوِّرُهَا لَهُمْ بِصَلَاتِي عَلَيْهِمْ».

(٢) رواه أبو داود، كتاب الجنائز، باب الاستغفار عند القبر للميت في وقت الانصراف، رقم (٣٢٢١)، من حديث عثمان رضي الله عنه، ولفظه: كانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم، إِذَا فَرَغَ مِنْ دَفْنِ الْمَيِّتِ وَقَفَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: «اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ، وَسَلُوا لَهُ بِالتَّثْبِيتِ، فَإِنَّهُ الْآنَ يُسْأَلُ».

ثُمَّ ذَكر رحمه الله أحاديث تبيِّن التغليظ في ذلك بأنه وسيلةٌ من وسائل الشرك.

والتعلُّق بالصالحين بعد مماتهم هو أكبر أبواب الشرك، والدخول فيها، والولوغ فيه خاصَّةً من العوام.

فإذا رأوا رجُلاً صالحاً، أو عابداً، أو زاهداً، أو عالماً مات؛ تتعلق القلوب به، بالعكوف عنده، وبطلب استجابة الدعوات، وتفريج الكربات، والاستغاثات؛ بسبب جهلهم؛ فنفوسهم تتعلَّق بالصالحين.

وسَبق [١] أنَّ المصنِّف رحمه الله ذَكر ثلاثة أبواب في هذا المعنى في الغلوِّ في الصالحين في هذا الباب، والباب السابق، ثُمَّ الباب القادم.

والمصنِّف رحمه الله ذَكر أربعة نصوصٍ في هذا الباب:

النَّصُّ الأوَّل - (**أُولَئِكِ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ**) -؛ لبيان أنَّ بناء القبور على المساجد، ووضْع صورٍ للميت فيها من عادة اليهود والنصارى.

---

(١) (ص) عند قوله (أعقبها بثلاثة أبوابٍ كلُّها في الغلوِّ).

والنَّصُّ الثاني - (لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ) -؛ لبيان أنَّ اللَّه توعَّدهم باللَّعن؛ فدلَّ على أنَّه كبيرةٌ من كبائر الذنوب.

والنَّصُّ الثالث - (إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ) -؛ لبيان أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم نهى أمَّته عن مشابهتهم في بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها.

والنَّصُّ الرابع - (إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ: مَنْ تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ) -؛ أنَّ مَن فعَل ذلك من هذه الأمَّة؛ فهو من شرار الخلْق - والعياذ باللَّه -.

وقال المصنِّف رحمه الله عن النص الأوَّل: **(فِي الصَّحِيحِ)** في الحديث الصحيح الذي رواه البخاريُّ ومسلمٌ.

(عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ، ذَكَرَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم كَنِيسَةً رَأَتْهَا بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ) وذلك لأنَّ أمَّ سلمة رضي الله عنها هاجرت في الهجرة الأُولى إلى الحبشة.

ولـمَّا توفِّي أبو سلمة رضي الله عنه؛ سَمعت قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي خَيْراً مِنْهَا»(١).

فقالت: مَن لي خير مِن أبي سلمة؟ وقالت هذا الدعاء إيقاناً باللَّه أيضاً؛ فعوَّضها اللَّه عز وجل بالنبي صلى الله عليه وسلم خيرٍ من أبي سلمة، والحديث في المسنَد(٢).

فَرأت تلك الكنيسة، (وَمَا فِيهَا مِنَ الصُّوَرِ) أي: مِن صور معبوداتهم من دون اللَّه من صالِحِيهِم وغير ذلك، أو من الصور المعظَّمة عندهم.

فلمَّا كانت في الحبشة هناك؛ رأت كنيسةً؛ لأنَّ الحبشة كانت في ذلك الزمان أرض نصارى، فحَكَت للنبيِّ صلى الله عليه وسلم ما رأت في الكنيسة، وما فيها من التصاوير؛ لأنَّ مِن فِرَق النصارى مَن يصوِّر في كنائسهم؛ يصوِّر مريم، أو يصوِّر عيسى، وبعض الفِرَق لا تصوِّر، ولا يضعون تصاوير لا لمريم ولا لعيسى عليهما السلام.

---

(١) رواه مسلمٌ، كتاب الجنائز، باب ما يقال عند المصائب، رقم (٩١٨)،

(٢) رواه أحمد في المسند، رقم (١٦٣٤٤).

فذَكرت أمُّ سلمة رضي الله عنها ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم محذِّراً لها، ومنبِّهاً من فعْلهم وصَنِيعِهِم؛ (فَقَالَ: أُولَئِكِ) بالكسر؛ لأنَّ المخاطَب أنثى - يعني: يا أم سلمة - (أُولَئِكِ إِذَا مَاتَ فِيهِمِ الرَّجُلُ الصَّالِحُ - أَوِ العَبْدُ الصَّالِحُ -) فالنفوس منذ القِدَم تتعلَّق بالصالحين أكثر إذا ماتوا، والشيطان يحرص على هذا؛ كما فعَل في قوم نوحٍ عليه السلام.

فإذا مات رجُلٌ صالحٌ؛ سعى الشيطان إلى إغواء العوامِّ في تعلُّق القلب به؛ لتُصرف العبادة له من دون اللَّه، ولو بعد قرونٍ متتاليةٍ.

فهنا يَفعلون أمرين:

الأمر الأوَّل: (بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِداً) أي: يَجعلون قبره في داخل معبدهم، أو يضعونه في مكانٍ ثُمَّ يبنون حوله مسجداً.

وليس المراد فقط تشييد المسجد بالأعمدة والبناء؛ وإنَّما يَجعلون عنده مكاناً للصلاة، فيأتون عنده، ويعكفون عنده، ويزورونه.

وكل موضع يُصلَّى فيه يُسمَّى مسجداً؛ كما يُفسر هذا شيخ الإسلام رحمه الله - كما سيأتي -: (**وَكُلُّ مُوضِعٍ قُصِدَتِ الصَّلَاةُ فِيهِ فَقَدِ اتُّخذ مَسْجِداً؛ بَلْ كُلُّ مُوضِعٍ يُصَلَّى فِيهِ يُسَمَّى مَسْجِداً**)، وإنْ لم يُبْنَ؛ بدليل قول

النبي صلى الله عليه وسلم: «جُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً»[١]، فالمراد هنا: بَنوا على قبره مسجداً؛ يأتون ويصلُّون عنده للَّه.

والأمر الثاني الذي يَفعلونه؛ قال: **(وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ)** ليتذكروا ذلك الرجُل الصالح.

مَن هؤلاء الصِّنف؟ وما موقف الإسلام منهم؟ وما مقدارهم عند اللَّه؟

قال رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم: **(أُولَئِكِ)** يعني: يا أم سلمة، **(شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ)** بسبب فعْلهم هذين الأمرين.

فشرُّ الخلْق الذي يبني على القبور.

وشر الخلْق الذي يُصوِّر تماثيلهم، ويَعكف عندهم.

هؤلاء هم شرار الخلْق عند اللَّه.

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الصلاة، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «جُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً»، رقم (٤٣٨)، ومسلمٌ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، رقم (٥٢١)، من حديث جابر رضي الله عنه.

فدلَّ على تحريم تعظيم قبور الصالحين؛ سواء بالبناء عليها، أو وضْع عليها مسجداً، أو جعْل الدفن في المسجد.

وأمَّا قبْر النبي صلى الله عليه وسلم، فإنَّه لمَّا مات دفَنه الصحابة في بيته - في بيت عائشة رضي الله عنها - وليس في المسجد؛ لمَّا قال لهم أبو بكر رضي الله عنه: سمعتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقول: «مَا قُبِضَ نَبِيٌّ إِلَّا دُفِنَ حَيْثُ يُقْبَضُ»[(١)].

فلمَّا مات الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم، ولم يبقَ أحدٌ من الصحابة في المدينة؛ أَدخل الوليد بن عبد الملك توسعةً شرقيَّةً فجَعلها داخل المسجد، وإلا فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يُدفن في المسجد وإنَّما في بيته.

قال ابن تيمية رحمه الله: (فَهَؤُلَاءِ جَمَعُوا بَيْنَ الفَتْنتين: فِتْنَةِ القُبُورِ لأنَّهم بَنوا عليها، (وَفِتْنَةِ التَّمَاثِيلِ) لأنَّهم صَوَّروا عليها تلك الصور.

وهاتان المسألتان هما الباب إلى الشرك:

---

(١) رواه ابن ماجه، كتاب الجنائز، باب ذكْر وفاته صلى اللَّه عليه وسلم، رقم (١٦٢٨)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

١. العكوف عند القبر؛ واللَّه يقول: ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، والعكوف المراد به: المكث.

٢. والصلاة عنده؛ فيأتي ويصلي ثُمَّ يَذهب، ثُمَّ يأتي ويصلِّي ثُمَّ يَذهب.

(**وَفِتْنَةِ التَّمَاثِيلِ**) يعني: التصوير، فيصوِّرون صورة ذلك الرجُل الصالح، كما صوَّروا عيسى عليه السلام، وكما صوَّروا مريم عليها السلام.

والتصوير هو المَدخل الأوَّل للشرك، ولو بعد قرونٍ متطاولةٍ.

فهبْ أنَّ صورةً لأحدٍ من الصحابة وُجِدت؛ كيف ستَتَهَافَت القلوب إليها، والنظر إليها؟

فدلَّ على أنَّه على الإنسان أنْ يُغلِق هذا الباب، كما أنَّ الإسلام أَغلقه؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لَعَنَ اللَّهُ الْمُصَوِّرَ»(١)، «كلُّ

---

(١) سبق تخريجه (ص) عند قوله: (والحديث: «لَعَنَ اللَّهُ الْمُصَوِّرَ»).

مُصَوِّرٍ فِي النَّار»[١]، «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَاباً يَوْمَ القِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهُونَ بِخَلْقِ اللَّهِ»[٢]، والأحاديث في البخاريِّ ومسلمٍ.

فهذا الحديث دلَّ على أنَّ وجود الصور، وإتيان الشخص للعكوف عندها؛ هذا أمرٌ مغلَّظ؛ بدليل: **(أُولَئِكِ شِرَارُ الخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ)**.

ثُمَّ بعْد ذلك قال المصنِّف رحمه الله: **(وَلَهُمَا)** أيضاً للبخاريِّ ومسلمٍ، **(عَنْهَا رضي الله عنها قَالَتْ: لَمَّا نُزِلَ بِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم)** يعني: حَضرتْه الوفاة، **(طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا)** يعني: جَعل ينزع غطاءً كان يَتغطى به من شدة الكرب؛ فينزعه من شدة الكرب.

(فَقَالَ - وَهُوَ كَذَلِكَ -: لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى اليَهُودِ وَالنَّصَارَى؛ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ) فانظر إلى آخر رمَقٍ في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، وانظر إلى حاله في النزع، وانظر إلى آخر نبوَّته؛ يحذِّر من أمرٍ عظيمٍ: (**«لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى اليَهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ**

(١) سبق تخريجه (ص) عند قوله: وأيضاً في البخاري: «كلُّ مُصَوّرٍ فِي النَّار).

(٢) سبق تخريجه (ص) عند قوله: (وقال النبي صَلَّى اللَّه عَليهِ وسَلَّم: «أَشَدُّ النَّاسِ).

مَسَاجِدَ») يعني: أنَّ اليهود والنصارى من عقيدتهم أنهم يتَّخذون القبر؛ يُذهب إليه، ويعكفون عنده.

فإذا قيل: إنَّ عيسى عليه السلام ليس له قبرٌ وهو في السماء، فكيف اتَّخذوا قبر نبيِّهم مسجداً؟

نقول: هذا في معتقدهم، ففي معتقدهم: أنَّهم يَفعلون ذلك، ويبنون على قبورهم مساجد، ولو كان لهم نبيٌّ لم يُرفع؛ لفَعلوا ذلك.

كما أنَّه من معتقدهم عدم إعفاء اللِّحية، حتى إنْ أعفى منهم مَن أعفى؛ لكنَّه ليس من معتقدهم.

وكذلك من معتقدهم: الكذب، وأخْذهم الربا، ولو صَدقوا، ولم يأخذوا الربا؛ فهذا ليس مِن معتقدهم.

فالنبي صلى الله عليه وسلم لعَن لأمرٍ مهمٍ؛ (يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا) أي: لا تَفعلوا بي كما تَفعل اليهود والنصارى فتدفنوني في المسجد أو تُبرِزُون قبري.

قالت عائشة رضي الله عنها: (وَلَوْلَا ذَاكَ) يعني: ذلك النهي من النبي صلى الله عليه وسلم؛ (أُبْرِزَ قَبْرُهُ) يعني: لأَبرز الصحابة قبره؛ لكن لمَّا عَلموا بنهْي النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك؛ لم يَدفنوه في

المسجد، وإنَّما دفنوه في بيته رضي الله عنهم؛ لئلا تُصاب هذه الأمة باللَّعنة؛ باتخاذ قبره مسجداً، حتى أتى حديث أبو بكرٍ رضي الله عنه أنَّ الأنبياء يُدفنون في المكان الذي قُبِضوا فيه.

فكان قبره صلى الله عليه وسلم مَصُوناً محفوظاً في بيت عائشة رضي الله عنها؛ من أنْ يأتي الناس، ويصلُّون إلى قبره، فسَلِمت هذه الأمة من اتخاذ قبر نبيِّها مسجداً.

ودلَّ الحديث على أنَّه لا يجوز اتخاذ قبور الأولياء، ولا الأنبياء؛ مكاناً يُعبد اللَّه فيه.

فإذا كان المسجد الذي تؤدَّى فيه العبادة للَّه، لا يجوز أن يُصلَّى فيه إذا كان فيه قبرٌ لأنَّه كبيرةٌ من كبائر الذنوب؛ فكيف بمن يُصلِّي، أو يَصرف العبادة لغير اللَّه؟!

ونُهي عن ذلك؛ لأنَّ مِن أسباب الشرك الغلوَّ في قبور الصالحين.

وقد ذَكر ابن القيم رحمه الله بطلان الصلاة في المسجد الذي فيه قبرٌ[١].

---

(١) زاد المعاد لابن القيم (٣/ ٥٠١).

وفي صحيح البخاري[١] عن أنسٍ رضي الله عنه لمَّا صلَّى جهة القبر؛ قال له عُمر: «القَبْرَ القَبْرَ»؛ يعني: ابتعد عن القبر، فلا تجوز الصلاة في مسجدٍ فيه قبرٌ ولو كانت الصلاة فيه للَّه.

قال رحمه الله: **(وَلِمُسْلِمٍ: عَنْ جُنْدُبٍ رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ..)**.

ساق المصنَّف رحمه الله هذا الدليل؛ ليبيِّن لك التغليظ في أنَّه لا يجوز أن تُفعل أيُّ عبادة عند القبور.

فلمَّا كانت عبادة اللَّه عز وجل عند قبر أيِّ نبيٍّ، أو رجُلٍ صالحٍ؛ وسيلةً إلى الشرك؛ حذَّر منها النبي صلى الله عليه وسلم أشدَّ تحذيرٍ؛ بل إنَّه لعَن من فعَل ذلك.

وحذَّر النبي صلى الله عليه وسلم أُمَّته حتى قبْل أن يموت بخمس ليالٍ؛ لئلَّا يُتَّخذ قبره عليه الصلاة والسلام مسجداً ويُعبد من دون اللَّه.

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الصلاة، باب هل تُنبش قبور مشركي الجاهلية، ويتخذ مكانها مساجد، رقم (٤٢٧).

فقوله: (بِخَمْسٍ) أي: خمسة أيامٍ؛ أي: أن هذا الحُكم لم يُنسخ، فهو من آخر ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم.

ويدلُّ أيضاً على أنَّ مَطْلع دعوة النبي صلى الله عليه وسلم في التوحيد؛ «قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تُفْلِحُوا»[١]، وختامها بالتمسك بالتوحيد، والتحذير من وسائل الشرك.

قال سمعته وهو يقول: (إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ) التبرِّي: كلمة وعيد، والمراد به ليس من أتباع النبي صلى الله عليه وسلم.

والمراد هنا: (أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ) أي: أعلن وأُبرئ ذمتي في أنَّه ليس في قلبي خلَّةٌ لأحدٍ من الخلق.

(أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ) فمثلاً لو أنَّ شخصاً يحبُّ شخصاً للَّه؛ فهذه المحبة عبادةٌ، فيجوز أنْ يحبَّ البشر بعضهم بعضاً للَّه - من الرسل ومن دونهم -، ويحبُّ النبي صلى الله عليه وسلم صحابته، والصحابة يحبُّون النبي صلى الله عليه وسلم محبةً لا تُخِلُّ بمحبة اللَّه.

---

(١) رواه أحمد في المسند، رقم (١٦٠٢٣)، من حديث ربيعة بن عباد الديليِّ رضي الله عنه.

الخُلَّة: مرتبةٌ أعظم من المحبة؛ تخلو بالقلب كله؛ أيْ: هذا القلب مليءٌ بالخُلَّة.

فما في قلْب النبي صلى الله عليه وسلم من الخُلَّة مصروفٌ للَّه، كما أنَّ ما في قلْب إبراهيم عليه السلام من الخلَّة مصروفٌ للَّه.

وهذا من كمال العبودية للَّه سبحانه وتعالى.

ثُمّ قال: (فَإِنَّ اللَّهَ قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلاً كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً) هذه جملةٌ معترِضةٌ بينها وبين الجملة الآتية: (وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً)، فمعنى الكلام: أبرأ إلى اللَّه أن يكون لي منكم خليلٌ.

(اتَّخَذَنِي) اصطفاني أنْ أَصرف مرْتبة الخُلَّة له؛ كما أنَّ إبراهيم عليه السلام خليل اللَّه.

ثُمَّ بين أنَّ اللَّه عز وجل اتَّخذ النبي صلى الله عليه وسلم خليلاً، فقوله: (فَإِنَّ اللَّهَ قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلاً) هذا يدلُّ على إثبات صفة الخُلَّة للَّه سبحانه وتعالى كما يليق بجلاله وعظمته، وهي منزلةٌ أعلى من المحبة.

وجاء النص بأنَّ اللَّه اتَّخذ خليلين له؛ إبراهيم، ومحمد صلى الله عليهما وسلم.

وقد يكون اللَّه عز وجل اتَّخذ خليلاً غيرهما؛ لكن لم يأتِ به نصٌّ.

(فَإِنَّ اللَّهَ قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلاً كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً) وهذا تكرُّمٌ من اللَّه عز وجل على إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم.

قال: (وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً مِنْ أُمَّتِي خَلِيلاً لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً) يعني: لو كان في قلبي خلَّةٌ لأحدٍ لكانت لأبي بكرٍ.

وفي صحيح البخاريِّ[1] في روايةٍ؛ قال: «وَلَكِنْ أَخِي وَصَاحِبِي»؛ يعني: محبَّة وليست خُلَّةً.

الشاهد: (أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ) أي: الأمم السابقة من اليهود والنصارى.

(كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ) يعني: يتَّخذون ما حول القبر مكاناً لصلاتهم، وليس المراد فقط بناء مسجدٍ - كما سيأتي -.

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً خَلِيلاً»، رقم (٣٦٥٦)، من حديث ابن عباسٍ رضي الله عنهما، ومسلمٌ، كتاب فضائل الصحابة رضي اللَّه تعالى عنهم، باب من فضائل الصديق أبي بكرٍ رضي الله عنه، رقم (٢٣٨٣)، من حديث ابن مسعودٍ رضي الله عنه.

(أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا القُبُورَ) يعني: ما حولها، (مَسَاجِدَ) يعني: لا تصلُّوا حول القبور.

(إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ) فنهى النبي صلى الله عليه وسلم أن تُفعل عبادةٌ للَّه في مكانٍ فيه قبرٌ؛ قال شيخ الإسلام رحمه الله: «والصلاة عند القبر هو عَيْن المحادَّة للَّه ورسوله»[١]؛ يعني: عَيْن العصيان؛ لأنَّه وسيلةٌ قويةٌ للشرك - والعياذ باللَّه -.

فمَن أراد أنْ يصلِّي فليَبتعد عن مكان القبور.

ففي هذا تصريحٌ بأنَّه محرَّمٌ ووسيلةٌ للشرك.

فهنا قبْل وفاته بخمسة أيامٍ، وحديث عائشة رضي الله عنها عند النزع؛ فدلَّ على خطورة هذا الأمر.

ثُمّ ذَكر المصنِّف رحمه الله قول شيخ الإسلام رحمه الله في هذه المسألة وإيضاحها، فقال:

---

(١) سبق بيان المرجع (ص)، عند قوله: (الحُكم في ذلك: لا يجوز، وهو وسيلةٌ كبيرةٌ إلى الشرك).

(فَقَدْ نَهَى عَنْهُ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ لَعَنَ - وَهُوَ فِي السِّيَاقِ - مَنْ فَعَلَهُ، وَالصَّلَاةُ عِنْدَهَا مِنْ ذَلِكَ - وَإِنْ لَمْ يُبْنَ مَسْجِدٌ - وَهُوَ مَعْنَى قَولِهَا: «خُشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِداً»، فَإِنَّ الصَّحَابَةَ لَمْ يَكُونُوا لِيَبْنُوا حَوْلَ قَبْرِهِ مَسْجِداً، وَكُلُّ مُوضِعٍ قُصِدَتِ الصَّلَاةُ فِيهِ فَقَدِ اتُّخِذَ مَسْجِداً؛ بَلْ كُلُّ مُوضِعٍ يُصَلَّى فِيهِ يُسَمَّى مَسْجِداً؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «جُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً»).

بيَّن شيخ الإسلام رحمه الله هنا ثلاث مسائل:

المسألة الأُولى: تعدُّد صيغ النهي عن اتخاذ القبور مساجد، فالنبي صلى الله عليه وسلم نهى بل لعَن مَن فعَل ذلك؛ كما قال: («**لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»).

المسألة الثانية: وهي مهمَّةٌ؛ قال: (**وَالصَّلَاةُ عِنْدَهَا مِنْ ذَلِكَ**) يعني: الصلاة عند القبور من اتِّخاذها مسجداً، كأنك بنيتَ عليها مسجداً؛ لذلك قال: (**فَإِنَّ الصَّحَابَةَ لَمْ يَكُونُوا لِيَبْنُوا حَوْلَ قَبْرِهِ مَسْجِداً**) وإنَّما خَشي أن يأتوا ويصلُّوا للَّه عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم؛ لذلك كانت ترجمة الباب: (**بَابُ مَا جَاءَ مِنَ التَّغْلِيظِ فِيمَنْ عَبَدَ اللَّهَ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ**)؛ لأنَّه وسيلةٌ للشرك.

والمسألة الثالثة: ذَكر شيخ الإسلام رحمه الله بأنَّ المسجد يُطلق على أمرين:

الأمر الأوَّل: إذا قصدتَ الصلاة في مكانٍ؛ فهو مسجدٌ، فإذا قصدت الصلاة عند قبرٍ؛ فيعتبر مسجداً وإن لم تَبنِ عليه شيئاً.

والأمر الثاني: (وَكُلُّ مُوضِعٍ قُصِدَتِ الصَّلَاةُ فِيهِ فَقَدِ اتُّخِذَ مَسْجِداً)

مثل: الحرم قُصِد فيه الصلاة؛ فهو مسجدٌ، وكذلك مسجد الحيِّ.

فكلُّ مكانٍ يُصلَّى فيه فهو مسجدٌ.

وكلُّ مكانٍ فيه قبرٌ؛ لا تأتِ وتصلِّ فيه؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لعَن مَن اتَّخذ القبور مساجد.

يعني: إذا بنيتَ مسجداً – بنايةً – على قبر؛ فهو مسجد، وإذا لم تبنِ على القبر بنايةً وإنما صليتَ من غير بنايةٍ؛ فهو أيضاً مسجدٌ.

واستدَلَّ بما في الصحيحين: («جُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً») فكلُّ الأرض إذا صُلِّي فيها تُعتبر مسجداً للمسلِم.

فلو قال لك شخصٌ: النبي صلى الله عليه وسلم لعَن من بنى المساجد على القبور وعبدَها، ونحن لم نعبدْها؛ وإنَّما نحن نريد أن نصلِّي عند القبر من غير بناءٍ؟

تقول: هذا يَدخل في النهي.

ثُمَّ بعد ذلك قال رحمه الله: **(وَلِأَحْمَدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ: عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه مَرْفُوعاً: «إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ: مَنْ تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ»)**.

(إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ) أي: أشد الناس شرّاً - والعياذ باللَّه -.

وشرُّ الخلْق صنفان:

الصنف الأوَّل: (مَنْ تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ) يعني: الذين تقوم عليهم الساعة.

فالساعة تقوم ولا يوجد أحدٌ يقول: «اللَّه اللَّه»، فتأتي آخر الزمان ريحٌ باردةٌ، فلا تَدع رجُلاً في قلبه ذرةٌ من إيمانٍ - حتى لو كان في غارٍ -؛ إلا وتَنزع روحَه.

ثُمَّ تقوم الساعة على شِرار الخلق؛ لأنهم لا يَعبدون اللَّه.

والصنف الثاني: (وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ) وهم الذين يأتون إليها، ويَعكفون، ويُصلُّون، حتى لو كانت العبادة مصروفةً للَّه؛ فكيف إذا عَبدوا أصحاب القبور.

فهم - والعياذ باللَّه - شرُّ الناس.

فإذا اتَّخذوها مسجداً للصلاة للَّه عندها؛ فهم شرُّ الناس.

وإذا عَبدوا صاحب القبر؛ فهذا شركٌ باللَّه.

وإذا بنوا عليه مسجداً حسِّيّاً بحجرٍ ونحوه، فمَن يفعل ذلك؛ فهو من شرار الناس - والعياذ باللَّه -.

قال: (وَرَوَاهُ أَبُو حَاتِمٍ).

فدلَّ الباب على أنَّ العبادات لا تؤدَّى عند القبور حتى وإن كانت خالصةً للَّه؛ فكيف بمَن يصرفها لصاحب القبر؛ فهذا أعظم وأعظم.

ودلَّ على أن القبور يَحرُم البناء عليها، أو تَجْصِيصُها، أو تمييز قبرٍ عن آخر، أو أن يُصلَّى عند أي قبرٍ - ولو كان صاحب القبر كافراً -، ومن باب أَولى لا يجوز أن يُدعى صاحب ذلك القبر؛ لأنه شركٌ أكبر - والعياذ باللَّه -.

فيجب على المسلم أن يَعلم هذه المسألة، خاصَّةً ما ذَكره شيخ الإسلام أنَّ (**كُلُّ مُوضِعٍ قُصِدَتِ الصَّلَاةُ فِيهِ فَقَدِ اتُّخِذ مَسْجِداً؛ بَلْ كُلُّ مُوضِعٍ يُصَلَّى فِيهِ يُسَمَّى مَسْجِداً**)؛ وهذا هو خلاصة ما في هذا الباب.

***

[٢١]

بَابُ

مَا جَاءَ أَنَّ الغُلُوَّ فِي قُبُورِ الصَّالِحِينَ يُصَيِّرُهَا أَوْثَاناً تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ

رَوَى مَالِكٌ فِـي «الْمُوَطَّأ»؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَناً يُعْبَدُ، اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ».

وَلِابْنِ جَرِيرٍ بِسَنَدِهِ: عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ فِـي قَوْلِهِ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى﴾.

قَالَ: كَانَ يَلُتُّ لَهُمُ السَّوِيقَ، فَمَاتَ؛ فَعَكَفُوا عَلَى قَبْرِهِ».

وَكَذَا قَالَ أَبُو الجَوْزَاءِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «كَانَ يَلُتُّ السَّوِيقَ لِلْحَاجِّ».

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم زَائِرَاتِ الْقُبُورِ، وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ» رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ.

الشرح:

قال رحمه الله: (بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ الغُلُوَّ فِـي قُبُورِ الصَّالِحِينَ يُصَيِّرُهَا أَوْثَاناً تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ).

(بَابُ مَا جَاءَ) أي: من الأدلَّة، والبراهين، والأمثلة التي وَقعت على (أَنَّ الغُلُوَّ) وهو مجاوزة الحد، (فِي قُبُورِ الصَّالِحِينَ) أو غير الصالحين، ولكن خُصَّ الصالحين؛ لأنَّ النفوس تَضعف عند قبْر الرَّجُل الصالح.

فمِن أعظم وسائل الشِّرك: الغلوُّ في الصالحين، فعلى المسْلِم أنْ يكون نهْجه الوسط فلا يَرفعهم فوق مرتبتهم، ولا يَحقرهم؛ بل الواجب تبجيلهم، واحترامهم؛ فهم ورثة الأنبياء بالعِلم لا بالدرهم ولا بالدينار.

ولمَّا اعتقد بعض الناس أنّ لهم شأناً عظيماً، وأنّ لهم من مرتبة الربوبيَّة ما لهم؛ كان منهم وقوعٌ في الشرك؛ فعَقد المصنِّف رحمه الله هذه المسألة في ثلاثة أبوابٍ: هذا الباب، والبابين السابقين.

والغلوُّ في الصالحين يُدرَأ ليس خشيةَ أنْ يُعبدوا جميعهم؛ وإنَّما لو عُبِدَ حتى شخصٌ واحدٌ؛ فهنا تقع المفسدة؛ لهذا ذَكر المصنِّف رحمه الله وبيّن لك أنّ سبب عبادة اللات التي عَكف عليها آلاف البشر كان بسبب الغلوّ.

فالغلوُّ في الصالحين وسيلةٌ للشرك، واللات عُبدت من دون الله بعد قرونٍ متفاوتةٍ، ولو نظرتَ إلى عمله؛ لوجدته يسيراً، فكان يلتُّ العجين للحُجَّاج، فمات؛ فوَضعوا له صنماً على قبره حتى صار وثناً.

والشرك لم يأتِ في هذه الأمَّة إلَّا من باب الأموات؛ لذلك يجب على المسْلِم أنْ يكون متوازناً في زيارة القبور، فيَجعل مَقصده ثلاثة أمورٍ:

الأمر الأوَّل: العظة والعبرة؛ كما في الحديث: «فَزُورُوهَا فَإِنَّهَا تُذَكِّرُكُمِ الْآخِرَةَ»[1].

الأمر الثاني: وفاء للميت إذا قُصِد بعينه كالأب أو الأمّ أو الأخ.

الأمر الثالث: الدعاء للميت.

فمَن زاد عن هذه الأمور الثلاثة؛ فقد وَقع في المحظور.

فلا يُعكَف عندها، ولا يُدعَى عندها، ولا تُدعَى هي.

ويأتي الشيطان بشبهة القبور؛ لأنَّ الرجُل الصالح ميّتٌ لا يستطيع أنْ يُنكِر ما وَقع على قبره.

---

(١) رواه أحمد في المسند، رقم (١٢٣٦)، من حديث عليٍ رضي الله عنه.

(يُصَيِّرُهَا أَوْثَاناً) أي: أن الغلوُّ يُصيِّر تلك القبور بعد أنْ كانت قبوراً؛ تصبح أوثاناً تعبد، وتُزار، وتُدعى، وهذا ما سعى إليه الشيطان بعد عشرة قرونٍ؛ فقد استدرج بني آدم حتى وَقعوا في الشرك، حتى بَعث اللَّه نوحاً؛ وإلا قَبْله كان الناس أمّةً واحدةً حتى وَقع الشرك.

(تُعبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ) أيْ: أَصبحت أوثاناً، وقد سبق أنَّه بسبب غلوِّ قوم نوحٍ في صالحيهم؛ أنْ عَبدوهم من دون اللَّه.

وساق المصنِّف رحمه الله الترجمة على حال اللَّات: كان قبراً لرجُلٍ صالحٍ، يَلتُّ العجين؛ أي: يضع معه الماء والسمن، فلمَّا مات؛ عَبدوه من دون الله.

ولو مات الرجُل الصالح ودُفِن، ولم تُفعَل معه سوى الأمور الثلاثة مِن الدعاء له، وزيارته، وتذكُّر الموت فقط لا يزاد عن ذلك؛ فلا بأس، أمّا العكوف عنده، وكثرة اعتياد زيارته، حتى يُغلا فيه؛ فهذا بابٌ خطيرٌ.

وذَكر المصنِّف رحمه الله ثلاثة نصوصٍ في هذا الباب:

النَّصّ الأوَّل - (**اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَناً يُعْبَدُ**) -؛ لبيان خطورة الغلوِّ في قبور الصالحين؛ فالنبي صلى الله عليه وسلم دعا ألَّا يكون وثناً[(١)]، ونهى - كما سيأتي - أن يُتَّخذ قبره عيداً[(٢)].

والنَّصّ الثاني - قول ابن عباسٍ ومجاهد -؛ لبيان أنَّ سبب عبادة اللات هو الغلوُّ في رجُلٍ صالحٍ.

والنَّصّ الثالث - (**لَعَنَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم زَائِرَاتِ الْقُبُورِ**) -؛ لبيان أنَّ الصلاة عند قبور الصالحين، ووضْع السُّرُج عليها، وإيقادها، وتَطييبها؛ وسيلةٌ من وسائل الشرك؛ لأنَّه من الغلوِّ فيها.

وقال رحمه الله عن النَّصّ الأوَّل: **(رَوَى مَالِكٌ فِي «الْمُوَطَّأ»؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَناً يُعْبَدُ)**، واتِّخاذه وثناً يُعبد بكثْرة العكوف عنده واتخاذِهِ عيداً.

---

(١) رواه مالكٌ في الموطأ، كتاب الصلاة، باب جامع الصلاة، رقم (٨٥)، من حديث عطاء بن يسار رضي الله عنه، ولفظه: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَناً يُعْبَدُ».

(٢) رواه أحمد في المسند، رقم (٨٨٠٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه: «لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيداً».

لئلَّا يُغلا في قبره؛ أي: يُصلِّي الناس إليه سواء بتحديد زمنٍ كيوم العيد أو الجمعة، أو يكون قبره مكاناً يعاد مرةً بعد أخرى.

ثم بيَّن أنَّ الله عزَّ وجلَّ يَشتدّ غضبُه من ذلك الفعْل؛ فقال: **(اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ)**، أيضاً بسبب الغلوُّ فيهم؛ فاتّخذتْ قبورهم مساجد؛ أيْ: مكاناً يُعبَد فيه.

والمقابر ليس هذا ما يُصنَع فيها، وليس هذا ما وُضِعَت له؛ وإنما وُضعت لستر الميت لا أنْ تُجعَل مساجد، أو أضرحةً ظاهرةً.

ودلَّ هذا الحديث على إثبات صفة الغضب للَّه على ما يليق بجلاله وعظمته.

ودلَّ أيضاً على أنَّ غضب اللَّه يَشتدُّ؛ فمنه ما هو شديدٌ، ومنه ما هو أشد.

وممَّا اشتد فيه غضب اللَّه: **(عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ)** يعني: يصلُّون عندها.

فدلَّ على أنَّ من أعظم وسائل عبادة النبي صلى الله عليه وسلم هو الغلوُّ في قبره باتِّخاذه عيداً يعاد، ثُم وثناً يُعبد؛ بسبب الوصول إلى قبره والصلاة عنده.

والله عزَّ وجلَّ قد استجاب لدعاء النبي صلى الله عليه وسلم فلا أحد يستطيع أن يَصل إلى قبره، وأحاطه اللَّه عز وجل بجدران، ومِن خلْف الجدران حواجز؛ فلذا لا أحد يستطيع أن يصل إلى قبره؛ وهذا من حفْظ الله عز وجل للنبي صلى الله عليه وسلم؛ لئلَّا يُعْبد، وكذلك من رحمة الله بالناس؛ لئلَّا يقعوا في الشرك.

فإذا قيل: هل يُعقَل أنّ قبر رجُلٍ صالحٍ يُجعَل وثناً؟ نقول: نعم.

فإذا قيل: ما هو الدليل؟ نقول: أنّ النبي صلى الله عليه وسلم خشيَ أنْ يُتّخَذ قبره وثناً من دون الله.

وبعض أهل العِلم[1] ذَهب إلى أنّ اللَّه استجاب دعوته؛ فحمى قبره بالحيطان التي قبْل قبره فلا يوصل إليه.

---

(١) كابن القيّم رحمه الله؛ حيث يقول في نونيته – الكافية الشافية – (ص٢٥٢):

ودعا بأن لا يُجعل القبرُ الذي ... قد ضمَّه وثناً من الأوثان

فأجاب ربُّ العالمين دعاءَه ... وأحاطه بثلاثةِ الجدرانِ

وبعض أهل العلم ذَهب إلى أنّ الله عزَّ وجلَّ لم يستجبها؛ لحكمةٍ، وأنّ قبره قد يُجعَل في بعض الأوثان، يُعبَد من دون الله، وليس المقصود أنْ يوضَع صنماً؛ فكلُّ ما عُبد من دون الله يُطلَق عليه وثن.

ويدلُّ الحديث على عِظم وتحريم بناء المساجد على القبور، ودعوتها من دون اللَّه؛ لأنَّها توجب غضَب اللَّه، وعبادتها من دون اللَّه أشدّ وأشدّ.

لذا يجب إذا دُفِن الرجُل الصالح، وغير الصالح من المسلمين؛ أنْ يُدفن في مقابر المسلمين فلا يُرفَع، ولا يُمَيّز عن غيره؛ وإنَّما هو كغيره من عِباد الله يُدفن في المقابر.

والنبيّ صلى الله عليه وسلم دعا ألَّا يُجعَل قبره وثناً يُعبَد، واللفظة الثانية شاهدةٌ على الباب: (**اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**).

ثُم قال: (وَلِابْنِ جَرِيرٍ) أي: الطبريّ في تفسيره، (بِسَنَدِهِ: عَنْ سُفْيَانَ) الثوري[١] (عَنْ مَنْصُورٍ) بن معتمرٍ[٢]، (عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ) أي: في تفسير قوله: (﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى﴾)، واللَّات كانت إحدى ثلاثة أصنامٍ هي أكبر أصنام العرب، وهي في الطائف.

(قَالَ: كَانَ يَلُتُّ لَهُمُ السَّوِيقَ)، واللتُّ: هو خلْط الدقيق، أو الحنطة بالماء أو السمن[٣]؛ (فَمَاتَ؛ فَعَكَفُوا عَلَى قَبْرِهِ)، وهو ليس له منقبة عالية مِثل النبوَّة، أو الرسالة؛ وإنَّما يَصنع طعاماً لكنْ لمَّا غَلو في قبره؛ جُعل قبره مِن أعظم الأصنام.

كأنّ المصنِّف يقول: أنا سقتُ لك هذه الترجمة، وبيَّنتُ لك معبوداً واحداً ضلّ فيه كثيرٌ من البشر، وهو اللات، وسُقتُ لك تفسير ابن عباسٍ ومجاهد على أنّ سبب عبادة اللات من دون الله هو الغلوُّ فيه.

---

(١) هو: أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق بن حبيب الثوري، وُلد سنة (٩٧هـ)، وتوفي سنة (١٢٦هـ). سير أعلام النبلاء للذهبي (٧/ ٢٢٩).

(٢) هو: أبو عتاب منصور بن المعتمر السلمي، توفي سنة (١٣٢هـ). سير أعلام النبلاء للذهبي (٥/ ٤٠٢).

(٣) مقاييس اللغة لابن فارس (٥/ ٢٠٠)، لسان العرب لابن منظور (٢/ ٨٣).

فكان يغتنم مَقدم الحُجاج من الطائف إلى مكة، ويلتُّ لهم العجين حتى يُصبح ليِّناً، ويَطبخه، ويُقدِّمه لهم.

فلمَّا مات؛ عبدوه من دون الله.

ولشنيع فعْلهم؛ نَزل القرآن بالتحذير مما يُفعَل عنده: (﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى﴾)؛ بسبب الغلوِّ في الصالحين.

قال: (وَكَذَا قَالَ أَبُو الجَوْزَاءِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «كَانَ يَلُتُّ السَّوِيقَ لِلْحَاجِّ»)، وأبو الجوزاء[1] هو تلميذٌ لابن عباسٍ، والأثر في البخاريِّ[2]، وأثر ابن جرير وأبو الجوزاء صحيحان.

ثُم بعد ذلك ذَكر حديث ابن عباسٍ رضي الله عنهما: (لَعَنَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم زَائِرَاتِ الْقُبُورِ وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ).

---

(١) هو: أبو الجوزاء أوس بن عبد الله الربعي البصري، قُتل يوم الجماجم سنة (٨٣هـ). سير أعلام النبلاء للذهبي (٤/ ٣٧١).

(٢) رواه البخاريُّ، كتاب تفسير القرآن، بَابُ ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالعُزَّى﴾ [النجم: ١٩]، رقم (٤٨٥٩).

ومناسبته للترجمة: بأنَّ الغلوَّ في القبور إسراجها، وإضاءتها، ووضْع بنايات عليها، والأضرحة ونحو ذلك.

وزيارة القبور في الشرع مرت بمراحل:

أوَّلاً: كان الجميع يزور.

ثُم جاء الشرع بنهي الجميع - الرجال والنساء - عن زيارة القبور(١)؛ لأنَّ النفوس في صدْر الإسلام يُخشَى عليها التعلُّق بالمعبودات من دون الله من الأموات.

فلمَّا قَوِي الإيمان في النفوس؛ أبيح للرجال، وبقي النهي على النساء؛ قال صلَّى الله عليه وسلَّم: «إِنِّي كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا فَإِنَّهَا تُذَكِّرُكُمِ الْآخِرَةَ»(٢).

وفي هذا الحديث مفهوم إباحة الزيارة للرجال، والمرأة قلبها ضعيفٌ، ويَتعلَّق بالأموات في دعائهم، ويُخشى عليها من الشرك،

(١) لحديث: «إِنِّي كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ». سبق تخريجه (ص). عند قوله (**الأمر الأوَّل**: العظة والعبرة).

(٢) سبق تخريجه (ص). عند قوله (العظة والعبرة؛ كما في الحديث: «فَزُورُوهَا).

والتجزُّع، والتسخّط، وعدم الستر، وعدم العفاف، فقد تَتكشَّف عند الخروج، وقد تَتجمّل في هذا المكان، وهو مكانٌ للعظة والعبرة؛ فنُهيت زيارة النساء لها.

وليس المراد بالمسجد في القبور هو التشييد بالمبنى؛ وإنَّما وقوع العبادة، وإذا شُيّدت؛ كان التحريم أغلظ.

ودلَّ على إثبات صفة اللعن للَّه عز وجل، فالرسول يَلعن من لعن الله؛ لذلك قال: (لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم زَائِرَاتِ الْقُبُورِ)؛ فدلَّ على تحريم زيارة النساء للقبور؛ لذلك لا يُعرف صحابياتٌ كُنَّ يَزرن القبور.

قال: (وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ) أي: يُصلُّون عندها ويُوقدونها؛ فدلَّ على أنَّ الصلاة عند القبور، وإيقادها، وإسراجها - يعني: وضْع السرج عليها -، وكذلك وضْع الحبوب عليها، والبناء عليها، والكتابة عليها؛ كلُّ ذلك من الغلوِّ فيها، فدلَّ على وجوب الحذر من الغلوِّ في أيِّ قبرٍ بأيِّ نوعٍ من الأنواع.

قال: (رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ).

فتبيّن ممَّا سَبق: أنّ المصنِّف كرَّر وأكّد خطورة الغلوّ في الصالحين في ثلاثة أبوابٍ متتاليةٍ، ونوّع فيها الآيات، والأحاديث، والآثار؛ ليتيقّن العبد أنّ هذا بابٌ عظيمٌ لوقوع الشرك.

***

[٢٢]

بَابُ

مَا جَاءَ فِـي حِمَايَةِ الْمُصْطَفَى صلى الله عليه وسلم جَنَابَ التَّوْحِيدِ وَسَدِّهِ كُلَّ طَرِيقٍ يُوصِلُ إِلَى الشِّرْكِ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ الآيَةَ.

عَن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللهُ عَنهُ قَال: قَالَ رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُوراً، وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيداً، وَصَلُّوْا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ، رُوَاتُهُ ثِقَاتٌ.

وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ: «أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً يَجِيءُ إِلَى فُرْجَةٍ كَانَتْ عِنْدَ قَبْرِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، فَيَدْخُلُ فِيهَا، فَيَدْعُو، فَنَهَاهُ.

وَقَالَ: أَلَا أُحَدِّثُكُمْ حَدِيثاً سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي، عَنْ جَدِّي، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيداً، وَلَا بُيُوتَكُمْ قُبُوراً.

فَإِنَّ تَسْلِيمَكُمْ يَبْلُغُنِي أَيْنَمَا كُنْتُمْ» رَوَاهُ فِي «الْمُخْتَارَةِ».

الشرح:

قال رحمه الله: (بَابُ مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ الْمُصْطَفَى صلى الله عليه وسلم جَنَابَ التَّوْحِيدِ وَسَدِّهِ كُلَّ طَرِيقٍ يُوصِلُ إِلَى الشِّرْكِ).

قوله: (بَابُ مَا جَاءَ) أي: من الأدلَّة، (فِي حِمَايَةِ الْمُصْطَفَى صلى الله عليه وسلم) (الْمُصْطَفَى) أي: المختار، فاختاره الله للرسالة، و(حِمَايَةِ الْمُصْطَفَى) يعني: حفْظ النبي صلى الله عليه وسلم، (جَنَابَ) أي: جانب (التَّوْحِيدِ وَسَدِّهِ) أي: منْعِه، (كُلَّ طَرِيقٍ يُوصِلُ إِلَى الشِّرْكِ).

فكلُّ ما يَقدح في التوحيد سواء الواجب أو المستحب؛ سدَّه النبي صلى الله عليه وسلم، وكلُّ طريقٍ يوصل إلى الشرك؛ فقد أَغلقه النبي صلى الله عليه وسلم؛ لشفقته، ونصْحه للأمَّة.

وساق المصنِّف رحمه الله في الباب قبل الأخير من الكِتاب: (**بَابُ مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم حِمَى التَّوْحِيدِ، وَسَدِّهِ طُرُقَ الشِّرْكِ**).

والفرْق بين هذا الباب وذاك: هنا في حماية جانب التوحيد؛ أيْ: ما قَرُب منه، وذاك الباب في حِماه، وهو أوسع وأعمُّ.

كأنَّ المصنِّف رحمه الله يبيّن للمسلِم ما يَحمي جانب التوحيد ممَّا يُخلُّ به، ثُم بعد ذلك كأن الإيمان والعِلم بالتوحيد قد ازدادا عند طالب العلم؛ فيوسع الدائرة، فيبيِّن حمى التوحيد البعيد ممَّا يَقدح فيه.

وأيضاً في هذا الباب بيّن المصنِّف رحمه الله الأفعال التي يُحمَى منها التوحيد، وما قبْل الأخير: في الأقوال.

فلا يَظنُّ المتعلّم أنّ هذا تكرارٌ؛ وإنَّما فيه الفرْقين السابقين، فكلُّ طريقٍ يوصل إلى الشرك فقد أَغلقه النبي صلى الله عليه وسلم.

لهذا أتت الشريعة بقاعدتين؛ كما قال الشاطبي[١]: «تأمَّلتُ الشريعة، فإذا هي جلْب المصالح، ودرْء المفاسد، ثُمَّ تأمَّلتُها فإذا هي درْء المفاسد»[٢].

والمصنِّف رحمه الله ذَكر في هذا الباب ثلاثة نصوصٍ:

---

(١) هو: أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الغرناطي الشهير بالشاطبي. توفي سنة (٧٩٠هـ). شجرة النور الزكية في طبقات المالكية لمخلوف (١/ ٣٣٢).

(٢) الموافقات للشاطبي (١/ ٣١٨).

النَّصّ الأوَّل – (﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾) –؛ لبيان حرْص النبي صلى الله عليه وسلم على هذه الأمَّة من الوقوع في الشرك.

والنَّصّ الثاني– حديث أبي هريرة رضي الله عنه –؛ لبيان أنَّ من حرْص النبي صلى الله عليه وسلّم ألَّا تقع هذه الأمَّة في الشرك؛ نهى أن يُجعل قبره عيداً.

والنَّصّ الثالث – عن عليٍّ بن الحسين –؛ بيَّن فيه طريقةً مِن طرق اتخاذ القبر عيداً؛ وهي كثرة المجيء إليه.

قال: (**وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾**) أي: ما يُبلغكم به فهو حقٌّ، (**﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾**) يَعني: تَعرفون صدْقه وأمانته، وذلك أبلغ في إقامة الحجَّة؛ فهو منكم من الإنس، فليس من الملائكة يتعبَّد أكثر منكم، ولا من الجِنِّ عنده من الخوارق ما لا يَملكها البشر؛ بل هو بشرٌ منهم وبيْنهم، لقَّبوه بالصادق الأمين.

(**﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾**) أي: يَشق عليه كلُّ أمرٍ فيه ضيقٌ وعسرٌ عليكم؛ بمعنى: أنَّه يَخشى أن يَنزل على الأمَّة من التكاليف ما لا تطيق؛ مِثل: تردُّده في الإسراء حتى خُفّفت الصلاة من خمسين صلاةً إلى خمس

صلواتٍ، وخَشي أنْ تُفرَض عليهم صلاة التراويح؛ فنهاهم أنْ يصلُّوا بصلاته.

فما من خيرٍ إلا دلّ الأمَّةَ عليه، وما من شرٍّ إلا حذَّرها منه.

فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلَّم علَّم الصحابة حتى آداب الخلاء، ودخول المنزل، والنكاح، والأكل، والشرب؛ فقد بيَّن ما هو أَولى، وهو الواجب الذي خُلِق الإنسان له؛ وهو التوحيد، وسدّ كل طريقٍ يَقدح في هذا التوحيد.

(﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾)، وحيث أن التوحيد هو أهمُّ أمرٍ في الدين؛ كان أحرص الناس عليه صلى الله عليه وسلَّم بالحفاظ عليه ومنْع كلِّ سببٍ، أو وسيلةٍ تؤدي إلى ضده – وهو الشرك –.

(﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾)، ومع حِرصه فهو رحيمٌ بأمَّته كبيرهم وصغيرهم، ذكرِهم وأنثاهم، ويزور مريضهم، ويتّبع جنائزهم، ويدعو لهم، ويتحمّل دَين مَن عليه دَين.

وأمَّا على الكافرين فقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحريم: ٩]؛ فدلَّ على حِرص النبي

صلى الله عليه وسلَّم على حماية جَناب التوحيد مِن أنْ يَقع فيه أحدٌ؛ فكيف لو وَقع أحد في الشرك؟!

فالشاهد من الآية: أنّ النبي صلى الله عليه وسلم حمى جَناب التوحيد، وسدّ كلَّ طريقٍ يوصل إلى الشرك؛ لأنّ الله وصَفه بأنَّه (﴿**حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ**﴾).

وأشدّ وأعظم وأبلغ ما حرص عليه النبي صلى الله عليه وسلم على أمته هو التوحيد، وأشدّ ما حذَّرها منه هو الشرك؛ لذا لما سُئل: أيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدّاً وَهُوَ خَلَقَكَ»[(١)].

وأوّل ما دعا صلى الله عليه وسلم قومه قال: «قُوْلُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تُفْلِحُوْا»[(٢)]؛ بل أُوذي من أجْل هذا الأمر العظيم، وهو التوحيد، وقُوتِل، وحاولوا قتْله عدَّة مراتٍ؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ

(١) رواه البخاريُّ، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، رقم (٤٤٧٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب، وبيان أعظمها بعده، رقم (٨٦)، من حديث ابن مسعودٍ رضي الله عنه.

(٢) رواه أحمد في المسند، رقم (١٦٠٢٣)، من حديث ربيعة بن عباد الديليِّ رضي الله عنه.

أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ [البقرة: ١١٩].

ثُم قال: (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُوراً») أي: لا تَجعلوها كالمقابر: لا تُؤدَّى فيها الصلاة؛ لذلك كان النبي صلى الله عليه وسلَّم يُصلِّي النوافلَ فِي البَيتِ[1]؛ لئلَّا تُهجر الطاعة في البيت.

(١) وردت أحاديث في ذلك منها ما رواه مسلمٌ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جواز النافلة قائما وقاعدا، وفعل بعض الركعة قائماً وبعضها قاعداً، رقم (٧٣٠)، من حديث عائشة رضي الله عنها، ولفظه: «كَانَ يُصَلِّي فِي بَيْتِي قَبْلَ الظُّهْرِ أَرْبَعاً، ثُمَّ يَخْرُجُ فَيُصَلِّي بِالنَّاسِ، ثُمَّ يَدْخُلُ فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، وَكَانَ يُصَلِّي بِالنَّاسِ الْمَغْرِبَ، ثُمَّ يَدْخُلُ فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، وَيُصَلِّي بِالنَّاسِ الْعِشَاءَ، وَيَدْخُلُ بَيْتِي فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، وَكَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ تِسْعَ رَكَعَاتٍ فِيهِنَّ الْوِتْرُ».

فلا تَجعلوا بيوتكم كالمقابر؛ بل اجْعلوا فيها نصيباً من العبادة؛ لهذا قال: «أَفْضَلَ صَلَاةِ المَرْءِ فِي بَيْتِهِ إِلَّا الصَّلَاةَ المَكْتُوبَةَ»[1]، وقال: «صَلَاةُ الْمَرْأَةِ فِي بَيْتِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي المَسْجِدِ»[2].

ونوافل الرجل في البيت أفضل من المسجد، والبيت الذي تُقْرَأُ فِيْهِ الْبَقَرَةُ يَنفِرُ مِنهُ الشَّيْطَانُ[3].

ويجب أنْ تُطفَأ العبادات عند المقابر؛ لأنَّه ليس محلّها.

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الاعتصام بالكِتاب والسُّنَّة، باب ما يُكره من كثرة السؤال وتكلُّف ما لا يعنيه، رقم (٧٢٩٠)، ومسلمٌ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة النافلة في بيته، وجوازها في المسجد، رقم (٧٨١)، من حديث زيد بن ثابتٍ رضي الله عنه.

(٢) رواه أحمد في المسند، رقم (٢٧٠٩٠)، من حديث أم حميدٍ رضي الله عنها، ولفظه: «وَصَلَاتُكِ فِي دَارِكِ خَيْرٌ لَكِ مِنْ صَلَاتِكِ فِي مَسْجِدِ قَوْمِكِ».

(٣) كما في الحديث الذي رواه مسلمٌ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة النافلة في بيته، وجوازها في المسجد، رقم (٧٨٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ، إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ».

فإذا وجدتَ رجُلاً يصلِّي في مقبرةٍ؛ قل: لا تصلِّ فيها.

فإذا قال: أين أصلِّي؟؛ فقل: الأفضل في بيتك، والدليل: «أَفْضَلَ صَلَاةِ الْمَرْءِ فِي بَيْتِهِ إِلَّا الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَةَ»[(١)]، والنبي صلى الله عليه وسلَّم كان يصلِّي النوافل في بيتِهِ، وأيضاً لهذا الحديث: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُوراً»[(٢)]، وكان النبي صلى الله عليه وسلَّم يقوم الليل؛ قال تعالى: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [المزمل: ٢]، فيصلِّي نصف الليل، وثلثه؛ يُحيِي تلك الصلاة في بيته.

(وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيْداً) هذا هو الشاهد من الحديث؛ فالنبيّ صلى الله عليه وسلَّم سدّ كلَّ طريقٍ يوصل إلى الشرك؛ قال: **(وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيْداً)**: فلا يكن قبري عيداً تأتون إليه باستمرار.

والعيد: ما يعود، وسُمّي العيد بذلك؛ لأنَّه يعود في السنَة مرتين؛ فقبر النبي صلى الله عليه وسلَّم ليس مكاناً يُعاد عليه مرَّةً بعد مرَّةٍ.

---

(١) سبق تخريجه (ص). عند قوله (فيها نصيباً من العبادة؛ لهذا قال).

(٢) رواه أحمد في المسند، رقم (٧٨٢١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والمراد بالعيد هنا: سواء العيد الزمني؛ يُحدَّد يوماً لزيارته، أو: عيداً مكانيّاً؛ يَجتمع الناس عنده باستمرار؛ أي: يعوده الناس كثيراً، ومن حِرصه علينا، وشفقته علينا؛ لئلَّا يأتي الشيطان فيؤزّ بعض الناس إلى دعوة النبي صلى الله عليه وسلم مع الله.

قال: (وَصَلُّوْا عَلَيَّ؛ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ) يعني: قد خَفف الله عزَّ وجلَّ عليكم الإتيان إلى قبري؛ فصلُّوا عليَّ في كلِّ مكانٍ.

وأَخبر صلى الله عليه وسلَّم بأنّ الصلاة عليه تُعرَضُ عَلَيهِ، ويُبَلّغ السَّلَام، ولم يُخبِر بأنه يَسمع الصلاة والسلام؛ يعني: كأنَّه يقول لك: أنا لا أَسمع صلاتكم، ولا سلامكم، فأنا ميّتٌ، ومن رحمة الله بي وبكم أنّ هناك ملائكةً يُبلِّغوني عن أمتي السلام؛ فحيث ما كنتم، وصلَّيتم، وسلّمتم عليّ؛ فصلاتكم تُعرض عليّ، ويَردّ الله عليّ روحي؛ وأردّ السلام؛ فلا تجعلوا قبري عيداً، ولا تتزاحموا عند قبري.

قال الحسن[(١)]: «أنتم ومَن في الأندلس سواء في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلَّم»[(٢)]، وهذا مِن فضْل الله وكرمِه بأنْ تَنال فضْل الصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم، فلم تُجعَل في مكانٍ مخصوص؛ بل جُعِلت في كلِّ مكانٍ.

وهي نوعٌ من الدعاء؛ لأنَّ معنى «صلى الله عليه وسلم»: يا ربِّ اثنِ عليه عندك في الملأ الأعلى من الملائكة، وسَلِّمه مِن كلِّ مكروهٍ.

والدعاء ليس له مكان مخصوص عند القبر.

فالنبي صلى الله عليه وسلم سدّ هذا الباب؛ وهو العكوف عند القبر، والدعاء عنده، وزيارته، وجعْله عيداً.

وأَرشد النبي صلى الله عليه وسلم إلى الأمر المشروع؛ وهو: (فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ) أي: تُبلِّغ الملائكة سلام المسَلِّمين عليه

---

(١) هو: الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، توفي سنة (٩٧هـ). تهذيب التهذيب لابن حجر (٢/ ٢٦٣).

(٢) رواه سعيد بن منصورٍ في (سُننه). اقتضاء الصراط المستقيم لشيخ الإِسلام (١/ ٣٣٩).

صلى الله عليه وسلم؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ لِلَّهِ عز وجل فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً سَيَّاحِينَ يُبَلِّغُونَ عَنْ أُمَّتِي السَّلَامَ»[١].

قال: (رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ، رُوَاتُهُ ثِقَاتٌ).

فدلَّ على أنَّه لا يجوز أن يُفعل ذلك عند قبر النبي صلى الله عليه وسلَّم؛ ومِن باب أَولى قبر غيره، فإذا كان أشرف القبور وهو قبر النبي صلى الله عليه وسلَّم؛ ونَهى عن ذلك؛ فما ظنُّك بقبر غيره؟!

ثم قال: (وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ) الملقب بزين العابدين[٢] وهو حفيد علي بن أبي طالبٍ رضي الله عنه، وهو من الفقهاء.

(أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً يَجِيءُ إِلَى فُرْجَةٍ كَانَتْ عِنْدَ قَبْرِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم) يعني: عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم؛ (فَيَدْخُلُ فِيهَا، فَيَدْعُو، فَنَهَاهُ)؛ لأنَّ ذلك خلاف ما كان الصحابة عليه؛ فلا يأتون إلى قبر النبي

---

(١) رواه أحمد في المسند، رقم (٣٦٦٦)، من حديث عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه.

(٢) هو: أبو الحسن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، وُلد سنة (٣٨هـ)، وتوفي سنة (٩٤هـ)، وقيل (٩٩هـ). وفيات الأعيان لابن خلْكان (٣/ ٢٦٦)، تقريب التهذيب لابن حجر (١/ ٤٠٠).

صلى الله عليه وسلم باستمرارٍ يعودونه، فلمَّا رأى الرجُل؛ لم يتركْه، ولم يقل: هذا جدِّي فأَجعل الناس يعظّمونه؛ بل نهاه عن ذلك؛ لعِلمه أنّ هذا فعلاً يوصل إلى الغلوِّ في النبي صلى الله عليه وسلم، ومِن ثُم عبادته، فما طَرأت العبادة على الأرض عند القبور؛ إلا بسبب الغلو.

(وَقَالَ: أَلَا أُحَدِّثُكُمْ حَدِيثاً سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي، عَنْ جَدِّي، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيداً) يعني: تعودونه مرةً بعد مرةً، **(وَلَا بُيُوتَكُمْ قُبُوراً؛ فَإِنَّ تَسْلِيمَكُمْ يَبْلُغُنِي أَيْنَمَا كُنْتُمْ)**، فدلَّ على أنَّ كثرة الإتيان إلى القبر من اتِّخاذه عيداً؛ وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن اتِّخاذ قبره عيداً.

ودلَّ أيضاً على أنه يَنهى عن اتِّخاذ قبر غيره عيداً؛ لأنَّه وسيلةٌ من وسائل الشرك - والعياذ بالله -.

(**المُخْتَارَةِ**) تأليف ضياء المقدسي[١]، وَضع أحاديث اختارها؛ قال شيخ الإسلام: «ما في المختارة أصحّ مما في المُستدرك»[٢].

فساق المصنف رحمه الله الآية والحديثين؛ ليبيّن أنّ كلَّ ما يَطرأ على القلب إلى غير الله سواء إلى قبر النبي صلى الله عليه وسلم، أو قبر غيره؛ قد سدّه صلى الله عليه وسلَّم؛ كما قال تعالى: (﴿**حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ**﴾)، فأتى النهي بخصوص قبره، وكذا قبر غيره.

***

(١) هو: أبو عبد الله ضياء الدين محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن عبد الرحمن السَّعْدي المَقْدِسي، الصالحي، الحنبلي، وُلد سنة (٥٦٩هـ)، وتوفي سنة (٦٤٣هـ). سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٣/ ١٢٦)، المقصد الأرشد لابن مفلح (٢/ ٤٥٠).

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٣/ ١٣).

[٢٣]

بَابُ

مَا جَاءَ أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ الأُمَّةِ يَعْبُدُ الأَوْثَانَ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ القِرَدَةَ وَالخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ الآيَةَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِداً﴾.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ القُذَّةِ بِالقُذَّةِ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! اليَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: فَمَنْ؟!» أَخْرَجَاهُ.

وَلِمُسْلِمٍ: عَنْ ثَوْبَانَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِيَ الأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الكَنْزَيْنِ - الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ -.

وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَلَّا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ، وَأَلَّا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوّاً مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ.

وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ! إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَلَّا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ، وَأَلَّا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوّاً مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضاً وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضاً».

وَرَوَاهُ البَرْقَانِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» وَزَادَ: «وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الأَئِمَّةَ المُضِلِّينَ، وَإِذَا وَقَعَ عَلَيْهِمُ السَّيْفُ؛ لَمْ يُرْفَعْ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ.

وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالمُشْرِكِينَ، وَحَتَّى تَعْبُدَ فِئَامٌ مِنْ أُمَّتِي الأَوْثَانَ.

وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثَلَاثُونَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، لَا نَبِيَّ بَعْدِي.

وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الحَقِّ مَنْصُورَةً، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى».

الشرح:

ساق المصنِّف رحمه الله هذا الباب؛ للردِّ على مَن شبَّه في زمانه، وأَنكروا عليه، وقالوا له: كيف تقول لنا أنَّ فعْلنا هذا شركٌ وأمَّة محمدٍ أمَّة مصطفاة لا يقع منها الشرك؟

فساقه للرد عليهم؛ ليبيِّن أنَّه يوجد في هذه الأمَّة مَن يَعبد الأوثان.

واتَّخذ المصنِّف رحمه الله في تقريره طريقين:

الأوَّل: حديثاً صريحاً؛ وهو حديث ثوبان في الباب.

الثاني: ساق ثلاث آياتٍ، ثُم حديثاً، فالآيات تُبَيِّن أنّ الأمم السابقة تَعبد الأوثان؛ فأَخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنّ هذه الأمَّة تتَّبع شيئاً ممَّا كان عليه الأمم السابقة، وتَعبد الأوثان؛ بل اتّبعتها حتى في الملبس، وفي الشعر، وفي الممشى، حتى لو دَخلوا جحر ضبٍّ؛ لاتَّبعوهم مع علْمهم مشقَّة وفساد ذلك.

والأوثان: لفظٌ عامٌّ لكلِّ ما عُبِد مِن دون اللَّه، من شجرٍ، وحجرٍ، وصنمٍ، وساريةٍ، وقبورٍ، وغيره.

فساق المصنِّف رحمه الله هذا الباب؛ للردِّ على مَن قال: إنَّ بعضاً من أمَّة محمدٍ لن يعبدوا الأوثان؛ استدلالاً بقول النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ المُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ العَرَبِ، وَلَكِنْ فِي

التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ»[١]؛ فساق المصنِّف رحمه الله هذا الباب لمَّا قال لهم: إنَّ عبادة الأوثان شركٌ؛ قالوا: لا، مَن كان في جزيرة العرب لن يَعبد الأوثان.

فذَكر المصنِّف رحمه الله تحقيق التوحيد، وذَكر وسائل الشرك وأسبابه، وبيَّن بعد ذلك أنَّه قد يوجد من هذه الأمَّة ولو في جزيرة العرب من يَعبد الأوثان، وأمَّا الحديث السابق: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ..»؛ يعني: حَصل عنده يأسٌ، لكنَّه وَسْوَسَ لهم حتى عَبدوه.

وساق المصنِّف رحمه الله في هذا الباب خمسة نصوصٍ:

النَّصّ الأوَّل - (﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ**﴾) -؛ لبيان أنَّ اليهود والنَّصارى يَعبدون الأوثان.

ساق **النَّصّ الثاني** - (﴿**قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ**﴾) إلى أن قال: (﴿**وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ**﴾) -؛ لبيان أنَّ اليهود يعبدون الأوثان.

(١) رواه مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس وأن مع كل إنسان قريناً، رقم (٢٨١٢)، من حديث جابر رضي الله عنه.

والنَّصّ الثالث – (﴿**لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً**﴾) –؛ لبيان أنَّ النصارى – أيضاً – عَبدوا الطاغوت؛ لأنَّ المصنِّف رحمه الله يرى أنَّ أصحاب الكهف مِن أتباع عيسى عليه السلام.

والنَّصّ الرابع – (**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَذْوَ القُذَّةِ بِالقُذَّةِ**) – ؛ لبيان أنَّ هذه الأمَّة ستتَبع أهل الكتاب في كلِّ شيءٍ.

والنَّصّ الخامس – (**وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ**) –؛ لبيان أنَّ ممَا تَبعته هذه الأمَّة لأهل الكتاب عبادة الأوثان؛ (**وَحَتَّى تَعْبُدَ فِئَامٌ مِنْ أُمَّتِي الْأَوْثَانَ**).

قال رحمه الله: (**بَابُ مَا جَاءَ**) أي: أنَّ من الأدلَّة على (**أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ الأمَّة يَعْبُدُ الأوْثَانَ**).

وأشار رحمه الله إلى **النَّصِّ الأوَّل** بقوله: (﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا**﴾) أُعطوا، (﴿**نَصِيباً**﴾) حظّاً، (﴿**مِنَ الْكِتَابِ**﴾) وهم اليهود والنصارى، ومع ذلك: (﴿**يُؤْمِنُونَ بِالجِبْتِ**﴾) الشيطان أو الأوثان.

والجبت في الأصل هو كلُّ شيءٍ لا قيمة له؛ ومنه الكهَّان؛ لأنَّهم كذَبةٌ، والسَّحَرة؛ لأنَّهم منبوذون في المجتمع وهكذا.

(﴿**وَالطَّاغُوتِ**﴾) قيل: هو الشيطان، أو كلُّ ما عُبد من دون اللَّه.

فدلَّ على أنَّ أهْل الكتاب وعندهم عِلمٌ؛ ومع ذلك عَبدوا الأوثان؛ وهذا تحذيرٌ لهذه الأمَّة؛ لئلَّا تقع فيما وَقع فيه أهل الكِتاب حتى ولو كان نبيُّهم خير الأنبياء - محمداً صلى الله عليه وسلم -.

الآن يُقرِّر آياتٍ في أنَّ الأمم السابقة عَبدوا الأوثان؛ فيبيِّن أنَّ اليهود والنَّصارى أوتوا حظّاً من الكتاب؛ ومع ذلك منهم مَن يؤمِن بالجبت والطاغوت.

والنَّصُّ الثاني: يبيِّن أنَّ مِن بني إسرائيل مَن مُسخ قردةً وخنازير.

قال: (وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾) يعني: أيها اليهود، (﴿بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ﴾) أي: بشرٍّ من قولكم بأنَّ الدين الذي جئتم به باطلٌ أيها المسْلِمون، (﴿مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾) أي: جزاءً يجازيكم اللَّه به عليه يوم القيامة من العقاب.

(﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾) وهم اليهود، (﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾) وهؤلاء القردة والخنازير مُسخوا ثم هَلكوا، ولم يبقَ لهم نسلٌ؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في صحيح مسلمٍ[1]: «إنَّ

(١) كتاب القدَر، باب بيان أنَّ الآجال والأرزاق وغيرها لا تزيد ولا تنقص عمَّا

اللَّهَ عز وجل لَمْ يُهْلِكْ قَوْماً، أَوْ يُعَذِّبْ قَوْماً، فَيَجْعَلَ لَهُمْ نَسْلاً، وَإِنَّ الْقِرَدَةَ وَالخَنَازِيرَ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ»[1]، فالقردة والخنازير الآن ليسوا من الممسوخين من اليهود، وإنما هم خلْقٌ مستقلٌّ.

قال: (﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾) أيْ: جَعل منهم مَن عبد الطاغوت؛ يعني: في اليهود من يَعبد الطاغوت - وهي الأوثان - مع ما أوتوا من العِلم.

ثُم بعد ذلك قال: (وَقَوْلُهُ: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ﴾) أي: أصحاب الكهف: (﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِداً﴾)؛ لأنَّ من عقيدة النصارى البناء على قبور الصالحين؛ فاتَّخذوا عليها مسجداً، وهذا يشير إلى أنَّهم عبدوهم من دون اللَّه.

---

(١) رواه مسلمٌ، كتاب القدر، باب بيان أن الآجال والأرزاق وغيرها لا تزيد ولا تنقص عما سبق به القدر، رقم (٢٦٦٣)، من حديث عبد اللَّه ابن مسعودٍ رضي الله عنه.

سبق به القدَر، رقم (٢٦٦٣)، من حديث عبد اللَّه ابن مسعودٍ رضي الله عنه، ولفظه: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يُهْلِكْ قَوْماً، أَوْ يُعَذِّبْ قَوْماً، فَيَجْعَلَ لَهُمْ نَسْلاً، وَإِنَّ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ».

فدلَّ على أنَّ النَصارى عبدةُ الأوثان مع أنَّ لهم نبيّاً وكتاباً، وكذلك هذه الأمَّة لها نبيٌّ وكتابٌ ويقع فيها عبادة الأوثان؛ أي: ليحذر الإنسان المسْلِم من هذه الأمَّة أن يقع في عبادة الأوثان.

فهذه الآية تبيِّن أنَّ غير اليهود والنصارى، وغير بني إسرائيل؛ اتَّخَذوا القبور مساجد؛ ففي قصَّة أصحاب الكهف لمَّا رأوهم في الصور التي ظَهروا فيها، وبأمرٍ معجزٍ؛ قالوا: إذا ماتوا نَبني على قبورهم مساجد.

فمتقرِّرٌ عند الأمم السابقة عبادة الأوثان، والأضرحة.

ثُم قال: (عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ) أي: طرق، (مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالقُذَّةِ) هي الريش التي على السهم، فإذا كانت القذة على اليمين فتوضع قذةٌ بحذائها موازيةً لها؛ لئلَّا يميل الرمي.

أي: أنَّ ما يَفعله اليهود والنَّصَارى؛ فستفعله هذه الأمَّة كما فعلتْه تماماً.

(حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ) يعني: حتى لو كان أمراً شاقّاً على هذه الأمَّة سيفعلونه.

وهذا فيه تحذيرٌ من التشبُّه باليهود والنصارى، وهنا اتِّباع سننهم ليس المراد جميع هذه الأمَّة؛ وإنَّما أفرادٌ منها، وقد يَكثرون أو يقلُّون، وليحذر المسْلِم مِن أن يكون ممَّن يَتبعهم.

فهذه الأمَّة ستَفعل كما تَفعله الأمم السابقة؛ القذَّة بالقذَّة، وأعظم ما تَفعله الأمم السابقة الشرك، فيقعون في الشرك، والاستهزاء، والسِّحْر، والصدِّ عن سبيل اللَّه، وكلِّ الأمور المحرَّمة؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «حَتى إِنْ وُجِدَ مَن يَأتِي أُمَّهُ عَلاَنِيَةً، فَسَيَكُونُ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ مَن يَأتِي أُمَّهُ عَلاَنِيَةً»(١)، وإن كثُرت عندهم المسكرات؛ فسيكون في هذه الأمَّة مَن يَشربها، وهكذا في كل الأمور.

(قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّه! الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، قَالَ: فَمَنْ؟!»)، وفي لفظٍ: «وَمَنِ النَّاسُ إِلَّا أُولَئِكَ»(٢)؛ فاستَغرب الصحابة، وفَزعوا مِن هذا الخبر؛

---

(١) رواه الترمذي، أبواب الإيمان، باب ما جاء في مَن يموت وهو يَشهد أن لا إله إلا اللَّه، رقم (٢٦٤١)، من حديث عبد اللَّه ابن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) رواه البخاريُّ، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنَّة، باب قَوْلِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: «لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»، رقم (٧٣١٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بأنَّ هذه الأمَّة التي نجَّاها اللَّه من الشرك، ومن المنكَرات، ومن المحرَّمات؛ سيكون منها ما وَقع من أولئك من المحرَّمات؛ فسألوا النبي صلى الله عليه وسلم: (**اليَهُودُ وَالنَّصَارَى؟**)، قال: «فَمَنِ القَوْمُ إِلَّا هُمْ»، وفي لفظٍ: «نَعَمْ».

والإسلام عزيزٌ، والمسْلِم عزيزٌ فلا يتابع ديانةً منسوخةً وباطلةً، فالمسْلِم يجب أن يكون متبوعاً لا تابعاً؛ لأنَّ معه الوحي.

فأَخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأنَّ هذه الأمَّة ستتبع اليهود والنصارى؛ ومن ذلك: عبادتهم للأصنام - والعياذ باللَّه -؛ ولهذا أكثر أهل الأرض الآن هم عُبَّادٌ للأصنام كالبوذية(١)، والهندوسية(٢)؛ هذه

---

(١) البوذية: هي طائفةٌ ظَهرت في الهند، تُنسب إلى رجلٍ يُلقَّب بـ (بوذا)، وهي تميل إلى الإلحاد والوثنية. الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة لعبد القادر شيبة الحمد (ص ٧١)، الموسوعة الميسرة في المذاهب والأديان المعاصرة (٢/ ٧٥٨).

(٢) الهندوسية: هي ديانةٌ وثنيةٌ يعتنقها معظم أهل الهند، وهم الذين يَزعمون أنَّ العقل يُغني عن الوحي، وتسمى كذلك (البرهمية). الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة لعبد القادر شيبة الحمد (ص ٥٩).

أكثر مِن نصف الأرض؛ فإبراهيم عليه السلام، قال: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم:٣٦]؛ يعني: الأصنام.

فيجب على المسْلِم أن يَدعو ربَّه كما دعا إبراهيم عليه السلام أن يُنجِّيه اللَّه من عبادة الأصنام، ولا يقول المرء إنَّها اندَثرت؛ بل هي كثيرةٌ وتكثر.

فإذا تبيَّن لك أنَّ هذه الأمَّة تَتبع الأمم السابقة حذْو القذَّة بالقذَّة، والطريقة بالطريقة، والسير بالسير، والنهج بالنهج، وأعظم ما تَفعله الأمم السابقة هو الشرك؛ دلَّ على أنَّ مِن هذه الأمَّة مَن سيقع في الشرك.

وفي حديث أبي هريرة في الصحيحين[1]: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَضْطَرِبَ أَلَيَاتُ نِسَاءِ دَوْسٍ عَلَى ذِي الخَلصَةِ»؛ الخَلصَة: صنمٌ في جنوب الجزيرة كان في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، ثُم اندثر، أَلَيَاتُ:

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الفتن، باب تغيير الزمان حتى تُعبَد الأوثان، رقم (٧١١٦)، ومسلمٌ، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى تعبد دوس ذا الخَلصة رقم (٢٩٠٦).

مؤخرات نساء دوسٍ، يطوفون بها، فلا تقوم الساعة؛ حتى يقع هذا الشرك.

ومِثل حديث النبي صلى الله عليه وسلم: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَر أَو أَشْرَكَ»(١)؛ فوَقع في الأمَّة مَن حَلف بغير اللَّه، ومثل: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ»(٢)؛ وقد وَقع ذلك.

كذلك: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦]، وفي عهْد النبي صلى الله عليه وسلم مَن كَفر بعد إيمانه، وفي حرْب المرتدين في زمن أبي بكرٍ؛ وَقع في الكُفر مَن وقع.

فساق المصنِّف رحمه الله هذا الحديث؛ لبيان التأكيد على وقوع الشرك في الأمَّة؛ لدحْض الشبهة.

---

(١) رواه أحمد في المسند، رقم (٥٣٧٥)، من حديث ابن عمر رضي الله عنها.

(٢) رواه أحمد في المسند، رقم (١٧٤٢٢)، من حديث عقبة بن عامرٍ رضي الله عنه.

قال رحمه الله: (وَلِمُسْلِمٍ: عَنْ ثَوْبَانَ رضي الله عنه)، ثوبان[١] هو: مولى النبي صلى الله عليه وسلم، وكان يَخدم النبي صلى الله عليه وسلم حتى مات.

وهذا حديثٌ عظيمٌ، فيه عَلم من أعلام النبوة.

وإثبات صفاتٍ لله.

وبشارةٌ للمسلمين.

وفيه إثبات قوَّة اللَّه.

وبيان أمورٍ مستقبليةٍ لم تقع؛ فوَقعت.

(أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «إِنَّ اللَّه زَوَى لِيَ الأَرْضَ)، زوى أي: جَمع[٢]، هذا قطعةٌ من حديثٍ ساقه المصنِّف للرواية التالية لهذه الرواية التي فيها الشاهد؛ وهي أنَّ في هذه الأمَّة من يَعبد الأوثان.

---

(١) هو: أبو عبد اللَّه ثوبان بن بجدد، وقيل ابن جحدر، توفي سنة (٥٤هـ). معرفة الصحابة لأبي نعيم (١/ ٥٠١).

(٢) لسان العرب لابن منظور (١٤/ ٣٦٣).

وقد ساق الإمام أحمد رحمه الله هذا الحديث مع الذي يليه قطعةً واحدةً في حديثٍ واحدٍ[١].

وهذا الحديث جَمعَ عدَّة جُملٍ فيها من أعلام النبوة للنبي عليه الصلاة والسلام؛ مما أَخبر به من الغيب ممَّا وَافق فيه الواقع.

(زَوَى) أمال؛ فقرّب له البعيد؛ وهذا يدلُّ على قوة اللَّه بأمرين:

الأمر الأوَّل: يَزوي الأرض؛ وهو زويٌ حقيقةً.

الأمر الثاني: إعطاء النبي صلى الله عليه وسلم قدرةً على أنْ يرى مشارق الأرض ومغاربها وهو في مكانه.

عندنا: انتشار الإسلام في الأرض، وعندنا: حُكم الإسلام للأرض؛ فانتشار الإسلام في الأرض انتشر في كلِّ بقعةٍ، والمراد في هذا الحديث: حُكم الإسلام.

قال: **(فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا)** وهذا من آيات نبوَّة النبي صلى الله عليه وسلم؛ حيث جُمعت له الأرض فرآها جميعاً.

---

(١) رواه أحمد في المسند، رقم (١٧١١٥)، من حديث شداد بن أوسٍ رضي الله عنه.

وهذا يدلُّ على قدْرة اللَّه عز وجل العظيمة؛ فهنا زَوَى الأرض، ويوم القيامة يضع الأرضين على أصبعٍ سبحانه وتعالى.

(وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا) يعني: حكم الإسلام للأرض.

(مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا) وهذا عَلَمٌ من أعلام النبوة؛ ففيه: أنَّ الأرض سكّانها يَنتشرون في مشرقها وفي مغربها؛ أمَّا شمالها وجنوبها فسكَّانها لا ينتشرون فيهما، ففي أقصى الشمال وأقصى الجنوب المحيط المتجمِّد.

وقد حَدث ما ذَكره النبي صلى الله عليه وسلم؛ فانتَشر الإسلام في شرْق الأرض حتى وَصل إلى الصين، وانتَشر إلى أقصى الغرب في غرْب القارة الإفريقية.

فزُوِيَ للنبي صلى الله عليه وسلم المشرق والمغرب، واتِّساع وامتداد الملك للدولة الإسلامية من جهة المشرق والمغرب؛ أكثر من جهة الشمال والجنوب؛ فامتدَّ في عهد الدولة الأُمويَّة من جهة المغرب إلى المحيط الأطلسي في المغرب العربي، ومن الشرق إلى الصين، أمَّا من الشمال والجنوب أقلُّ؛ فمن الجنوب إلى الصومال، ومن الشمال إلى أفغانستان، وفي عهد الدولة العباسيَّة بَقيت على ما بَقيت عليه، وثُبِّت مُلكها على هذه الحدود.

وبعْد أن كان المسْلِمون مضطهدون، وكان النبي صلى الله عليه وسلم عند الجمرات في حال بيعة العقبة، ويختفي في الغار؛ انتَشر الإسلام في الآفاق، وهذا يدلُّ على أنَّه دينٌ حقٌّ؛ قال سبحانه: ﴿وَقُلْ جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ﴾ [الإسراء: ٨١]، وقال: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، فلمَّا كان دين الفطرة؛ كان أسرع للقبول في النفوس.

وفي الحديث أيضاً أنَّها ستُفتَح له ممالك كِسرى وقيصر.

قال: (وَأُعْطِيتُ الكَنْزَيْنِ الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ) الكنز الأَحْمَر: المراد به الذهب؛ ويَقصد به هنا مُلك كِسرى، والأبيض: المراد به الفضة، والجواهر المقاربة له في اللون؛ ويقصد به هنا مُلْكَ الروم في الشام؛ لأنَّ أكثر تجارتهم وتعاملاتهم بالفضة.

وقد حَدث هذا؛ ففي عهْد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وُضع تاج كسرى بين يديه، وكان تاجه من الذهب؛ فقَسم عمر رضي الله عنه ذلك بين فقراء المسلمين، وكذلك حَدث في مُلك الروم فَجُبِيَت غنائمها إلى المسلمين.

قال: (وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَلَّا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ) (بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ) أي: بجوعٍ مهلِكٍ للجميع، فالسنَة المراد بها الجوع؛ كما قال عليه الصلاة والسلام: «اللَّهمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ»(١).

ولم يَحدث أن هَلكت أمَّة محمد - كثيرٌ منها - بسبب الجوع؛ فقد يوجد أفرادٌ هَلكوا، لكنَّ هلاك جماعاتٍ كثيرةٍ لم يَحدث في أمَّة محمدٍ صلى الله عليه وسلم؛ وهذا ببركة دعائه عليه الصلاة والسلام؛ لئلَّا يكون هلاكهم كالأمم السابقة، مِثل: صيحة تُهلك الجميع، أو ريح ويَهلك الجميع، أو طوفان فيُقطَع دابر القوم، وينتهون، ولا يبقى منهم بقيةٌ؛ فاستجاب اللَّهُ دعاء النبي صلى الله عليه وسلم.

قال: (وَأَلَّا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوّاً مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ) يعني: دعوتُ اللَّه أَلَّا يُسلِّط عليهم عدوّاً من غير ملَّتهم كاليهود والنصارى؛ فتهلك الأمَّة المحمدية، فلا يبقى للإسلام ذِكر.

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الأذان، باب: يهوي بالتكبير حين يَسجد، رقم (٨٠٤)، ومسلمٌ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب القنوت في جميع الصلاة، رقم (٦٧٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ) أي: جماعتهم والكثرة منهم ويهلك إمامهم؛ وهذا لم يَحدث بحمد اللَّه؛ ببركة دعاء النبي صلى الله عليه وسلم، وقد يحدث إذا اختلَّ الشرط الذي سيأتي.

قال: (وَإِنَّ رَبِّي قَالَ) هذا يدلُّ على أنَّ اللَّه سبحانه وتعالى يَتكلَّم، ففيه إثبات صفة الكَلام لله بصوتٍ وحرْفٍ مسموعين.

ويدلُّ أيضاً على أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم كليم الرحمن أيضاً، فاللَّه عز وجل كلَّمهُ من غير واسطة.

(إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ) كما في الحديث: «وَلَا رَادَّ لِمَا قَضَيْتَ»[1]، وكما قال جل وعلا: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥].

وهذا يدلُّ على قوَّة اللَّه؛ فإذا قضى أمراً؛ لا يردُّه أحدٌ من الخلْق، فهو سبحانه له الكمال المطلَق، والقوة المطلقة، وكمال الهيمنة والجبروت على الخلْق؛ وهذا مِن تمام وكمال قدْرة اللَّه سبحانه وتعالى

---

(١) رواه البيهقي في شُعب الإيمان، باب حفْظ اللسان عمَّا لا يحتاج إليه، فصل في فضل السكوت عن كلِّ ما لا يعنيه، وترْك الخوض فيه، رقم (٤٦٢٧)، من حديث المغيرة رضي الله عنه.(٧/ ٩٤).

ومُلكه التام؛ فإذا قضى قضاءً لا يردُّه أحدٌ؛ لأنَّ اللَّه سبحانه هو المتصرِّف، والمدبِّر في الكون، وأمره نافذٌ.

قال: (وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ) استجاب دعاءه فيما طلبهُ، ولكن بشروطٍ في بعضها.

(لِأُمَّتِكَ أَلَّا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ) وهذا مِن كرمِ اللَّه وفضْله بأنْ وعد نبيّه بأن لا يُهلك الأمَّة المحمدية، بأنْ لا يبق لها ذِكر، فلم يَحدث، ولن يَحدث.

قال: (وَأَلَّا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوّاً مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا)، (بَيْضَتَهُمْ) عامَّتهم، وجماعتهم؛ يعني: لو اجتَمع على المسلمين كلُّ الكفار ستبقى جَماعتهم، وكثرتهم، لكن استجابة الدعوة مشروطةٌ.

(حَتَّى) هذه غائية؛ يعني: كأنه يقول: إلَّا (يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضاً)؛ أي: إذا اقْتَتَلَت أمَّة محمدٍ بضعها مع بعضٍ، (وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضاً).

فاللَّه عز وجل قد يُسَلِّط عليهم عدوّاً من سوى أنفسهم، لكن مع بقاء طائفةٍ من أمَّة محمدٍ منصورةٍ، لا يَضرَّها من خَذلها، ولا من خالفها؛

أي: أنَّ أعداء هذه الأمَّة قد يَتسلَّطون عليها؛ بسبب النزاعات، والاقتتال بين أمَّة محمد صلى الله عليه وسلم.

وحتى ولو اقتّتلت أمَّة محمدٍ صلى الله عليه وسلم؛ ففيه طائفةٌ منصورةٌ باقيةٌ إلى يوم القيامة.

فإذا أَهلك بعضُ هذه الأمَّة بعضاً، وسبى بعضُها بعضاً؛ عندها تكون الأمَّة في خطرٍ بأن يَتسلَّط عليها مَن وراءها؛ فيهلكها، ولا يَبقى لها كلمةٌ.

وفي هذا تنبيهٌ وتحذيرٌ لعدم الفرقة، وعدم النزاع؛ وإلا فإنها تُهلك، ويسبي بعضها بعضاً.

فدلَّ على وجوب الاتفاق على كلمة اللَّه، وعدم الفرقة، وعدم النزاع، وعدم طرْق أسباب ذلك، وعلى المسْلِم أنْ يُبعِد نفسه عمَّا يُحدث مِثل ذلك.

وذَكر اللَّه أمر بني إسرائيل في أنَّهم لم يتفرقوا، ولم يَختلفوا، إلا بعد أنْ جاءهم العِلم، ولمَّا كانوا جُهَّالاً؛ كانوا متعاونين ومتآلفين؛ فلمَّا جاءهم العِلم حَسد بعضُهم بعضاً، وطَعن بعضهم في بعضٍ؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا

اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ العِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ٩٣]؛ للنزاع الذي وَقعوا فيه.

لهذا يجب على المسْلِم أنْ يَبتعد عن مواطن النزاع، وأنْ يُطهِّر قلبه، وأنْ يُطهِّر جوارحه من تلك النزاعات، وأنْ يجعل قلبَه مليئاً بالعبادة، والتوجُّه إلى اللَّه، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦]، فمحاسبة الشخص، والطعن في النيات؛ من مقتضيات الربوبية؛ لا يجوز للخلق أنْ يَدخلوا فيه، ومَن دَخل فيه؛ أذلَّه اللَّه عز وجل.

فللَّه صفاتٌ؛ لا يَأذن لأحدٍ أنْ يقع فيها، مِثل: الكِبْر فهو متفرِّدٌ به، ومثل: عدم النوم، ومثل: الغِنَى التامُّ فلا أحدَ يدَّعي الغِنَى التامَّ.

فمَن لجأ إلى الصفات الخاصة لله سبحانه؛ فإنه يُذَل؛ قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ [المجادلة: ٢٠].

ودعا النبي صلى الله عليه وسلم بدعوةٍ: «وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا» رواه مسلمٌ(١).

(١) في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمَّة بعضهم ببعضٍ، رقم

والحديث هذا في صحيح مسلمٍ[١]، ورواه أيضاً أبو داود[٢] وغيره.

وهذا من أعلام النبوة؛ إذ أنَّ الدين كأنَّه الآن نَزل علينا مع ما مرَّ عليه في التاريخ من حروبٍ، ومجاعةٍ في بعض الأمكنة، وجهلٍ شديدٍ؛ إلا أن اللَّه حَفظ لنا هذا الدين.

قال رحمه الله: **(وَرَوَاهُ البَرْقَانِيُّ فِي «صَحِيحَهِ»)** البرقاني هو: أبو بكر الخوارزمي، توفي سنة (٤٢٥هـ)[٣]، وَضع مسنداً ذَكر فيه الأحاديث التي توَخّى فيها الصحة.

---

(١) كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمَّة بعضهم ببعضٍ، رقم (٢٨٨٩)، من حديث ثوبان رضي الله عنه.

(٢) كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكْر الفتن ودلائلها، رقم (٤٢٥٢)، من حديث ثوبان رضي اللَّه عنه.

(٣) هو: أبو بكر أحمد بن محمد بن أحمد بن غالب الخوازمي، البرقاني، الشافعي، وُلد سنة (٣٣٦هـ)، وتوفي سنة (٤٢٥هـ). طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٤/ ٤٨).

فذَكَر ما سَبق - ما هو في صحيح مسلمٍ -، وزاد أيضاً: («وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ) أي: الذين يُلبسون على الناس الباطل، أو يَكتمون العِلم، أو لا يعملون بالعِلم، وكلُّ هذا وَقع عند علماء اليهود؛ لذلك غَضب اللَّه عز وجل عليهم؛ لِمَا عندهم من العِلم، لكنَّهم حُرموا من العمل، وزلَّة العالِم تَسري على غيره؛ لأنَّ العامَّة يُقلِّدونه.

وفيه أيضاً أنَّه يجب على المسْلِم أن يَطلب العِلم؛ لئلَّا يزلَّ بزلة العالِم.

وفيه حثُّ علماء هذه الأمَّة على تقوى اللَّه، ومخافته، والعمل بما أوتوا من العِلم.

فما خاف النبي صلى الله عليه وسلم على الأمَّة مِن أنْ يُهلك بعضها بعضاً، ولا أنْ يَسبي بعضهم بعضاً، ولا أن يتسلط عليهم الأعداء فقط؛ وإنَّما خاف عليهم من أمرٍ عظيمٍ، وهم: الأئمة المضلون؛ الذين يحلِّلون ما حرَّم اللَّه، ويُحرِّمون ما حلَّل اللَّه، ويتهاونون في الأمور التي حرَّمها اللَّه عز وجل، وتُزَيّن لهم، وتُصبَغ بالصبغة غير التي أرادها اللَّه.

لهذا يجب على طالب العِلم أنْ يكون سائراً خلْف الكتاب والسنَّة، ومُقتَفِياً أثرهما؛ لئلَّا يقع في مِثل هذا الذنْب العظيم، ولئلَّا يكون العبد

ممَّن خاف الرسول صلى الله عليه وسلم على أمته منهم، وهم أعداءٌ للأمة؛ لإضلالهم لها.

ولا حرج، ولا تثريب في أنْ يقول الشخص في الأمور التي يشتبه بها، أو يتورَّع عنها: لا أعلم؛ بل هذه رفعةٌ له، وعلوٌّ، وعزَّةٌ له؛ لئلَّا يقترف شيئاً لم يَأذن اللَّه له به، وواجبٌ عليه أنْ يقتفي أثر الكِتاب والسنَّة؛ ليكون مسدَّداً، ولئلَّا يقتفي أثره أهْل الجهل.

ثُم قال: (**وَإِذَا وَقَعَ عَلَيْهِمُ السَّيْفُ**) يعني: على هذه الأمَّة؛ (**لَمْ يُرْفَعْ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ**) يعني: إذا بَدأ القتل فيها لم يُرفع إلى يوم القيامة، وقد بَدأ القتل فيها بقتل عثمان رضي الله عنه، ولا زال اقتتال الناس من ذلك الزمن إلى اليوم؛ بل إلى يوم القيامة سيكون ذلك الاقتتال؛ ولهذا لا تخلو الأرض من اقتتالٍ بيْن هذه الأمَّة.

(**إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ**) هذا علمٌ من أعلام النبوة، ووَقع السيف في مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه، ولم يقع في عهد النبي صلى الله عليه وسلم - يعني: يَقتتل المسلمون بعضهم مع بعضٍ -، فالنبي صلى الله عليه وسلم قال: إذا اقتتل المسلمون؛ فلن تنطفئ الفتنة إلى قيام الساعة.

ويقع الاقتتال بحيث لا تُخمد الحرب بينهم في بقعةٍ من الأرض، ولكن بين مُقِلّ ومستكثرٍ؛ فقد يَقلُّ في مكانٍ، ويَكثر في مكانٍ، ويقع هذا الأمر إلى قيام الساعة.

ثُم قال: (وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي) (حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي) مجموعة المساكن أو قبيلةٌ من القبائل، (بِالمُشْرِكِينَ) أي: يرتدُّون - والعياذ باللَّه - عن هذا الدين، ويكونون مع المشركين؛ وقد وَقع ذلك كثيراً، كما في عهد أبي بكرٍ رضي الله عنه، ووَقع أيضاً بعده.

(وَحَتَّى تَعْبُدَ فِئَامٌ) أي: جماعاتٌ، (مِنْ أُمَّتِي الأَوْثَانَ) يبيِّن أنَّه يوجد في هذه الأمَّة مَن يَعبد الأوثان؛ وهاتان اللفظتان هما الشاهد من الحديث.

وفي لفظٍ: «وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَلْحَقَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي بِالمُشْرِكِينَ»[١]، والمعنى: أنَّهم يَنزلون في ديارهم، ويصيرون منهم؛ بالردة ونحوه.

---

(١) رواه أبو داوود، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكْر الفتن ودلائلها، رقم (٤٢٥٢)، من حديث ثوبان رضي اللَّه عنه.

وفي صحيح مسلمٍ(١): «لَا يَذْهَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّى تُعْبَدَ اللَّاتُ وَالعُزَّى»، وهذا عَلَمٌ أيضاً.

وإذا كان كذلك؛ فيجب على العبد أنْ يَحذر مِن الوقوع في الشرك، ووَجب على المسْلِم أنْ يبيِّن التوحيد لغيره، ويُحذِّر من الشرك؛ لأنَّ النبي صلى الله عليه وسلم أَخبر أنه يوجد في أمَّته مَن يقع في الشرك.

وفي البخاريِّ ومسلمٍ(٢): «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَضْطَرِبَ أَلَيَاتُ نِسَاءِ دَوْسٍ عَلَى ذِي الخَلصَةِ»؛ يعني: يطوفون على الصنم: دوسٍ، واللات، والعزى، ودوسٌ في جزيرة العرب، وقول النبيِّ صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ العَرَبِ»(٣)؛ أي: إمَّا المراد جميع جزيرة العرب، أو أنه يَئس لكن ما عُصم من هذا اليأس؛ بل استمر حتى أَوقعهم في الشرك - والعياذ باللَّه -.

---

(١) كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى تعبد دوس ذا الخلصة رقم (٢٩٠٧)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) سبق تخريجه (ص) عند قوله (الخَلصَة: صنمٌ في جنوب الجزيرة).

(٣) سبق تخريجه (ص) عند قوله (إنَّ بعضاً من أمَّة محمدٍ لن يعبدوا الأوثان؛ استدلالاً بقول النبي صلى الله عليه وسلم).

فدلَّ على أنَّه يجب على المسلِم أن يَخاف على نفْسه من عبادة الأوثان، فقد أَخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه يوجد مَن سيعبد الأوثان من هذه الأمَّة؛ بل وفي جزيرة العرب، فيجب على المسلِم أن يَتعلَّم العِلم الشرعي؛ لئلَّا يقع في الشرك وهو لا يَشعر.

ثم يبيّن لك نعْمة أنَّ اللَّه اصطفاك، بأن جَعلك من الموحِّدين، ولم تكن من عباد الأوثان.

ثُم قال: (وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثَلَاثُونَ) وهذا وَقع؛ بل ويقع أكثر من هذا العدد، والمراد بهؤلاء: الذين لهم شوكةٌ، وقوةٌ؛ أي: ممَّن لهم شوكةٌ ورايةٌ، وإلَّا فالذي يدَّعي أنَّه نبيٌّ من أفرادٍ ضعيفين كُثر.

فمِثل مَن قامت لهم راية: مسيلمة[١]، والأسود العنسيُّ[٢]، وسُجاح[٣] في اليمن، وخَرج غيرهم كثير، وكلُّ مرةٍ وأخرى يَخرج مَن يدَّعي النبوة.

وقيل: أنَّ هذا العدد لا مفهوم له، فليس المراد ثلاثين فقط؛ بل أكثر، مِثل قوله عز وجل: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّه لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]، فلو استغفر لهم إحدى وسبعين مرة؛ لن يَغفر لهم أيضاً.

فمعنى الحديث: كثرة الكذابين.

(كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ) بل بعضهم وَضع لنفسه قرآناً؛ لأنَّه لُبِّس عليه بما أنَّه نبيٌّ فعليه أن يأتي بما أوتي محمدٌ صلى الله عليه وسلم.

---

(١) هو: أبو ثمامة مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب الحنفي الوائلي، لُقب بمسيلمة الكذاب، قُتل سنة (١٢هـ).الأعلام للزركلي (٧/ ٢٢٦).

(٢) هو: عبهلة بن كعبٍ بن عوف العنسيّ المذحجي، قتل سنة (١١هـ). الأعلام للزركلي (٥/ ١١١).

(٣) هي: سجاح بنت الحارث بن سويد بن عقفان، التميمية، من بني يربوع. تُوفيت سنة (٥٥هـ). الأعلام للزركلي (٣/ ٧٨).

ثم قال: (وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، لَا نَبِيَّ بَعْدِي) كما قال عز وجل: ﴿وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، فهو خاتمهم؛ يعني: كأن الرسالة وُضعت في مِثل الإناء، ثُم أتى النبيُّ صلى الله عليه وسلم وخَتمها، وكأن الرسل والأنبياء يُبعثون ويُبعثون، ثم جُعل محمد صلى الله عليه وسلم هو الخاتَم عليهم لا أحد يأتي بعده.

وأمَّته آخر الأمم في الرسالة، لكنَّها أوَّل الأمم دخولاً للجنة، وهو صلى الله عليه وسلم آخر الرسل، وهو الذي يشفع الشفاعة الخاصة، بأنْ يستفتح للمسلمين دخول الجَنَّة، فدلَّ على فضْل هذه الأمَّة، بفضل اللَّه تعالى، ثم بفضل نبيها.

(لَا نَبِيَّ بَعْدِي) هذا تأكيد للكلمة السابقة؛ لذلك من أعظم الخير الذي فقدتْه هذه الأمَّة موت النبيِّ صلى الله عليه وسلم؛ لأن بموته انقطع الوحي.

ثم قال: (وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الحَقِّ مَنْصُورَةً) هذه جملةٌ عظيمة تَفتح باب الفأل لكلِّ مسلمٍ، وتَمنع عنه اليأس، وتزيد في توكُّله على اللَّه؛ بأنَّ اللَّه سينصره.

قوله: (**وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ**) لا يشترط اجتماعها في مكانٍ واحدٍ؛ فقد يكونون في مكانٍ وقد يكونون متفرِّقين ونحو ذلك؛ قال ابن مسعود رضي الله عنه: «أنت أمَّةٌ ولو كنتَ وحدك»(١)، وقال سبحانه عن إبراهيم: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠].

(**عَلَى الْحَقِّ مَنْصُورَةً**) فاللَّه ناصرهم، ومؤيِّدهم، وليس المراد الهيْمنة على البلاد؛ بل إنَّ اللَّه حمى لهم الدين في قلوبهم، فكون العبد يَلقى ربه، وتوحيده سالمٌ؛ فهذه أكبر نصرةٍ.

فأكبر نصرةٍ للعبد بأنْ يَحمي اللَّه له الدين في قلبه؛ واللَّه قال عن الأنبياء: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: ٥١]، مع وجود مَن قُتل من الأنبياء، فنصْرته ببقاء دعوته مِن بعده، ونصْرته في الآخرة برفع درجاته، ورضوان اللَّه عز وجل عليه.

وقد تكون النصرة في الدنيا والآخرة، مِثل: نصْر اللَّه لمحمدٍ صلى الله عليه وسلم، ولموسى عليه السلام.

---

(١) رواه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنَّة والجماعة، رقم (١٦٠) (١/ ١٢١).

(لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ) قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: «وهذا من أعجب الأمور: يُخذلون، لكن هذا الخذلان لا يضرهم»(١).

والمراد بالخذلان: عدم نصْرتهم سواء من المكر بهم، أو من الكيد بهم، أو عدم الوقوف معهم، فلا يَضرُّهم خذلان غيرهم لهم؛ لأنَّ اللَّه معهم ومقوِّي أفئدتهم.

يعني: لكثرة المخالفين لدينهم في الأرض؛ لم يتضرر دينهم، ولكثرة مَن خذَلهم؛ لم يَضرُّهم ذلك، فهم أقوياء في أنفسهم.

والكثرة ليست محمودةٌ في هذا الدين؛ فأكثر أهل الأرض على غير الإسلام؛ كما قال عز وجل: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: ١٧]، ﴿قَلِيلاً مَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٥٨]، ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩].

---

(١) كتاب التوحيد (ص٢٨٨).

فالأصل في الكثرة عدم الإيمان؛ كما في البخاريِّ[١] عن أبي سعيدٍ رضي الله عنه؛ قال: قال رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: يَا آدَمُ.

فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالخَيْرُ فِي يَدَيْكَ.

فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ، قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟

قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِئَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، فَعِنْدَهُ يَشِيبُ الصَّغِيرُ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ».

قال الفضيل بن عياض[٢]: «لا تغترَّ بالباطل لكثرة الهالكين، ولا تستوحش من الحق لقلَّة السالكين»[٣].

---

(١) كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، رقم (٣٣٤٨)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي اللَّه عنه.

(٢) هو: أبو علي الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي اليربوعي، وُلد سنة (١٠٥هـ)، وتوفي سنة (١٨٧هـ). سير أعلام النبلاء للذهبي (٨/ ٤٢١)، طبقات الحفاظ للسيوطي (١/ ١١٠).

(٣) الاعتصام للشاطبي (١/ ١١٢).

فهذه الفئة التي اصطفاها اللَّه؛ لا يضرُّهم من خالفهم، ولا يضرُّهم من خَذلهم.

قال: (حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى) يعني: قيام ساعتهم هم، فيموتون على هذا الدين، ولا نقول: حتى قيام الساعة؛ لأنَّ الساعة لا تُقام إلا على شرار الخلْق.

وهذا من فضْل اللَّه ورحمته ونصْرته لهذا الدين، فهو الذي تكفَّل بهذا الدين وبحفْظه، فالسعيد من تَمسَّك بهذا الدين؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: ٣٨]، فإن تَمسَّك العبد بهذا الدين؛ يدافع اللَّهُ عنه، حتى من كلام الناس من غيبةٍ، أو نميمةٍ، أو ضررٍ عليه؛ قال ابن كثيرٍ: «بقدْر تمسِّكك بالدين تكون المدافعة»[(١)].

فإن قلَّ التمسك بالدين؛ تقل مدافعة اللَّه له، وهكذا زيادةً، ونقصاناً؛ كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

فلو قيل: وُجِدَ عالِمٌ وقُتل؛ فكيف هذا نصْرٌ له؟

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٤٣٣).

نقول: الشهادة نصرٌ، واللَّه عز وجل وَعد الأنبياء بالنصر، ومع ذلك قال سبحانه: ﴿وَيَقْتُلُونَ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ١١٢]، فالأنبياء قُتلوا واللَّه ذَكر أنَّهم منصورون؛ فقتْلهم امتدادٌ لنصْرهم في الآخرة.

فيجب على المسلِم أن يَتمسَّك بهذا الدين، وأن يَثق بموعود اللَّه سبحانه، وأعظم ذلك هو الثبات على الدين في وقْت الفتن والمِحَن، ونحو ذلك.

فدلَّ هذا الحديث العظيم على أنَّه يوجد في هذه الأمَّة من يَعبد الأوثان، وإذا كان كذلك؛ فحريٌّ بالمسلِم أن يُنبِّه خلْق اللَّه بالتحذير من الشرك، والدعوة إلى التوحيد بالحكمة والموعظة الحسنة، لئلَّا يُعانوا على الشيطان، فيَهلكون بإهلاك الشيطان لهم.

***

[٢٤]

بَابُ

مَا جَاءَ فِي السِّحْرِ

وَقَوْلُ اللَّه تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾.

قَالَ عُمَرُ: «الجِبْتُ: السِّحْر، وَالطَّاغُوتُ: الشَّيْطَانُ».

وَقَالَ جَابِرٌ: «الطَّوَاغِيتُ: كُهَّانٌ، كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فِي كُلِّ حَيٍّ وَاحِدٌ».

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ الغَافِلَاتِ المُؤْمِنَاتِ» أَخْرَجَاهُ.

وَعَنْ جُنْدُبٍ مَرْفُوعاً: «حَدُّ السَّاحِرِ: ضَرْبُهُ بِالسَّيْفِ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: «الصَّحِيحُ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ».

وَفِي «صَحِيحِ البُخَارِيِّ»: عَنْ بَجَالَةَ بِنْ عَبَدَةَ؛ قَالَ: «كَتَبَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه: أَنِ اقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ. قَالَ: فَقَتَلْنَا ثَلَاثَ سَوَاحِرَ».

وَصَحَّ عَنْ حَفْصَةَ رضي الله عنها: «أَنَّهَا أَمَرَتْ بِقَتْلِ جَارِيَةٍ لَهَا سَحَرَتْهَا؛ فَقُتِلَتْ».

وَكَذَلِكَ: صَحَّ عَنْ جُنْدُبٍ.

قَالَ أَحْمَدُ: «عَنْ ثَلَاثَةٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم».

الشرح:

قال رحمه الله: **(بَابُ مَا جَاءَ فِي السِّحْرِ)**.

ذَكر المصنِّف رحمه الله في كتاب التوحيد أربعة أبواب في السِّحْر، وما في معناه:

الباب الأوَّل: (بَابُ مَا جَاءَ فِي السِّحْرِ) أي: في التحذير منه.

والباب الثاني: (بَابُ بَيَانِ شَيْءٍ مِنْ أَنْوَاعِ السِّحْرِ).

والباب الثالث: (بَابُ مَا جَاءَ فِي الكُهَّانِ وَنَحْوِهِمْ).

والباب الرابع: (بَابُ مَا جَاءَ فِي النُّشْرَةِ) وهو حلُّ السِّحْر.

وهذا الباب وهو باب السِّحْر؛ هو الباب الأوَّل من الأبواب التي ذَكرها المصنِّف.

قال: (بَابُ مَا جَاءَ فِي السِّحْرِ) أي: (بَابُ مَا جَاءَ) من الأدلَّة (فِي) التحذير من (السِّحْرِ)، وأنَّه شركٌ باللَّه تعالى.

وذَكره المصنِّف رحمه الله في كتاب التوحيد؛ لبيان أنَّ السِّحْر نوعٌ من أنواع الشرك؛ لكونه استعانةً بالشياطين.

وَالسِّحْر في اللغة هو: كل ما خفي ولَطُف سببه(١)؛ يعني: لا يُعرف ما هو السبب، أو حركة السبب سريعةٌ؛ فتُجهل، أو مخفيةٌ.

أمَّا في الشرع، فكلُّ ساحرٍ يَختلف في سحره في الأغلب، لكن في جُملته: أنه أدعيةٌ، وتدخيناتٌ، وبعضهم عُقَدٌ يَتخذها الساحر؛ ليَفعل السِّحْر.

والسِّحْر قديمٌ؛ ويدلُّ على قِدمه قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢]، فدلَّ على أنّ أقوام الرسل كانوا يَعرفون السِّحْر، فما يأتي رسولٌ إلا ويُرمَى بالسِّحْر.

---

(١) الكليات لأبي البقاء (١/ ٤٩٥).

وكقوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وكان أيضاً موجوداً في عهْد موسى عليه السلام وبكثرةٍ؛ قال تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٤٦].

وهو محرَّمٌ في جميع الأديان؛ قال تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه: ٦٩]، فكل أمرٍ يفعله الساحر؛ فهو باطلٌ.

وسيأتي أنواعه في الباب الذي يلي هذا بإذن اللَّه.

والمصنِّف رحمه الله ذَكر أربعة نصوصٍ في هذا الباب:

النَّصّ الأوَّل: - (**﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾**) -؛ لبيان أنَّ السِّحْر كفرٌ باللَّه.

والنَّصّ الثاني: - (**﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾**) -؛ لبيان أنَّ من أسباب كُفر اليهود عملهم السِّحْر.

والنَّصّ الثالث - (**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ**) -؛ لبيان أنَّ السِّحْر من المهلِكات.

والنَّص الرابع - (**حَدُّ السَّاحِرِ: ضَرْبُهُ بِالسَّيْفِ**) -؛ لبيان أنَّ حدَّ الساحر في الدنيا القتل.

والنَّصَ الخامس: ساق آثاراً في بيان أنَّ الصحابة رضي الله عنهم نفَّذوا القتل في السَّحَرة.

وعقد المصنِّف رحمه الله في مصنَّفه هذا أربعة أبوابٍ في السَّحَرة والكهَّان؛ لخطرهم مِن خاصة حُكم أنفسهم بالكفر، ولخَطر فعْل ذلك السِّحْر من تفريق البيوت، وإمراض الأصحَّاء، وإماتة بعضهم بالسِّحْر وغير ذلك.

والسِّحْر منه ما هو مشروبٌ.

ومنه ما يُعقَد.

ومنه ما يُرَشُّ في الماء؛ بأنْ يُخلط بالماء، ويُرش في طريق الشخص المراد سحره، فإذا وَطِئَ ذلك الشخص الماء؛ وَقع عليه السِّحْر.

وفي الأغلب أنَّ السِّحْر لا يُعقَد إلا بوجود أثرٍ من المسحور من شَعره أو ملابسه أو صورةٍ له؛ ومن هنا تَعلم أن مِن حِكَم تحريم التصوير: أن لا يُضَرُّ المرء به، فالساحر يأخذ الصورة، ويَسحر صاحبها.

والسِّحْر لا شك أنه حقٌّ، وله أنواع:

منه ما هو تخييلٌ: يُخَيَّل للمرء أنه فَعل الشيء، ولم يفعله، مِثل: يُخَيَّل له أنه يَشرب الماء، وهو لا يَشربه، أو يُخَيَّل له أنَّه يرى فلان، وهو لا يراه.

ومنه ما هو حقيقةٌ: مِثل: أنْ يَكره زوجته، أو يَكره ابنه، أو يَكره وظيفته، أو يُبدد أمواله ونحو ذلك.

وكلٌّ من هذين الصنفين أتى في القرآن؛ فذكر اللَّه عز وجل عن سحرة موسى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ [طه: ٦٦]، فهذا سحْرٌ في التخييل، وسحْرٌ في الحقيقة أيضاً، لما وضعوا عصيهم؛ فتحركت، تحركت حقيقة.

وقد سُحِر النبي صلى الله عليه وسلم، وسحْره ليس في قلْبه، ولا عقْله، فليس في النبوة؛ وإنما سُحِر في جسده فكَانَ يُخَيَّل إليه أنَّه يأتي أهله، ولا يأتيهم، وسحْر النبي صلى الله عليه وسلم ثابتٌ في صحيح البخاريِّ(١)، ولا يُنقص ذلك من قدْر النبي صلى الله عليه وسلم؛ بل

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ، وَإِيتَاءِ ذِي القُرْبَى، وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ وَالبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، رقم (٦٠٦٣)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

يزيد؛ لأَنَّه نوعٌ من أنواع المرض، والمسلِم إذا ابتُلي بالمرض؛ رُفعت درجته، وحُطَّت خطاياه.

ويدلُّ أيضاً على أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم بشرٌ من البشر، لا يَملك لنفْسه نفعاً ولا ضراً، فسُحِر في آخر حياته؛ حتى تستيقن النفوس بأنّ هذا النبيَّ العظيم الذي بلَّغ الرسالة لا يَملك لنفْسه لا نفعاً ولا ضراً؛ فيعتصِموا باللَّه.

ومَكث سحْر النبيِّ صلى الله عليه وسلم قرابة ستة أشهرٍ؛ كما في فتح الباري[(١)][(٢)]، ثُم زاد عليه في الأيام الأخيرة؛ حتى أتاه جبريل وميكائيل.

قالت عائشة رضي الله عنها: «سَحر رسولَ اللَّه صلى الله عليه وسلم رجُلٌ مِن بني زُرَيقٍ يُقال له لَبِيدُ بْنُ أَعْصَمَ، حَتَى كَان رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَأْتِي أَهْلَهُ وَلاَ يَأْتِي.

(١) أي: فتح الباري شرح صحيح البخاري، لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، الشافعي. نظم العقيان في أعيان الأعيان للسيوطي (١/ ٤٥).

(٢) فتح الباري لابن حجر (١٠/ ٢٢٦).

قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقَالَ لِي ذَاتَ يَوْمٍ: «يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللَّه أَفْتَانِي فِي أَمْرٍ اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ: أَتَانِي رَجُلاَنِ، فَجَلَسَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رِجْلَيَّ وَالآخَرُ عِنْدَ رَأْسِي.

فَقَالَ الَّذِي عِنْدَ رِجْلَيَّ لِلَّذِي عِنْدَ رَأْسِي: مَا بَالُ الرَّجُلِ؟

قَالَ: مَطْبُوبٌ، يَعْنِي مَسْحُوراً.

قَالَ: وَمَنْ طَبَّهُ؟

قَالَ: لَبِيدُ بْنُ أَعْصَمَ.

قَالَ: وَفِيمَ؟

قَالَ: فِي جُفِّ طَلْعَةٍ ذَكَرٍ فِي مُشْطٍ وَمُشَاقَةٍ، تَحْتَ رَعُوفَةٍ فِي بِئْرِ ذَرْوَانَ.

فأتاها رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فِي نَاسٍ مِن أَصْحابه، فَجَاء، فَقَالَ: «يَا عَائشَةُ كَأَنَّ رُءُوسَ نَخْلِهَا رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ، وَكَأَنَّ مَاءَهَا نُقَاعَةُ الحِنَّاءِ».

قلتُ: يَا رَسُولُ اللَّهِ، أَفَلا اسْتَخْرَجْتَه؟

فقال: «أَمَّا اللَّهُ فَقَدْ شَفَانِي، وَأَمَّا أَنَا فَأَكْرَهُ أَنْ أُثِيرَ عَلَى النَّاسِ شَرّاً» فَأَمَر بِهَا فَدُفِنَتْ» رواه البخاريُّ(١).

ذَكر المصنِّف رحمه الله في هذا الباب حُكم السِّحْر، وعقوبة الساحر؛ فحكم السِّحْر ذَكر بأنه كفُرٌ، فقوله: (**بَابُ: مَا جَاءَ فِي السِّحْرِ**) يَعني: أنَّه كفْرٌ، ومنافٍ للتوحيد بالكلِّية؛ والدليل قول النبي صلى الله عليه وسلم: «مَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ»(٢).

فكل مَن سحَر، وفعَل السِّحْر؛ فقد أَشرك؛ لأنَّ الساحر لا يستطيع أنْ يَتوصل إلى ما يريد من الجِنِّ، وإلى سحْره؛ إلا أنْ يَكفر - والعياذ باللَّه - بربِّ العالمين؛ فيَخدمونه؛ فدلَّ على أنَّ فعل السِّحْر كفْرٌ.

وقال رحمه الله في **النَّصّ الأوَّل**: (**وَقوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾**) أي: أهل الكتاب، (**﴿لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾**) مَن فعَله؛ أي: من استعاض بالسِّحْر

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الأدَب، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ، وَإِيتَاءِ ذِي القُرْبَى، وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ وَالبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، رقم (٦٠٦٣).

(٢) رواه النسائي، كتاب تحريم الدم، باب الحُكم في السحرة، رقم (٤٠٧٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

عن الدين، (﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾) ليس له شيءٌ من الحسنات؛ أي: أنَّ جميع أعماله حابطةٌ؛ فدلَّ على أنَّ جميع أعماله هباءٌ، وذَهبت جميع أعماله الصالحة بسيِّئة الشرك والكُفر - والعياذ باللَّه -، فدلَّ على أنَّ السِّحْر كُفرٌ.

وأركان السِّحْر ثلاثةٌ:

الركن الأوَّل: الساحر، وهو - والعياذ باللَّه - كافرٌ.

الركن الثاني: المسحور له؛ أي: الذي يَأتي للساحر، ويقول: اعمل لي السِّحْر الفلاني؛ ليَمرض فلانٌ مثلاً، فهذا قال عنه الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في نواقض الاسلام: «السَّابِعُ: السِّحْر - وَمِنْهُ: الصَّرْفُ وَالْعَطْفُ - فَمَنْ فَعَلَهُ أَوْ رَضِيَ بِهِ؛ كَفَرَ»(١).

«السَّابِعُ - أيْ: الناقض السابع من نواقض الإسلام -: السِّحْر - وَمِنْهُ: الصَّرْفُ وَالْعَطْفُ - فَمَنْ فَعَلَهُ أَوْ رَضِيَ بِهِ؛ كَفَرَ»، والصرف: صرْف المرء عمَّا يريد، مِثل: أنْ يَكره المرء الجامعة، أو يَكره المرء

(١) متون طالب العلم، المستوى الأول، نواقض الإسلام (ص٢٧).

الوظيفة ونحو ذلك، والعطْف: عكس الصرْف، يُحبِّب الرجُل إلى المرأة، والمرأة إلى الرجُل وهكذا.

«أَوْ رَضِيَ بِهِ؛ كَفَرَ» ذَهب إلى الساحر؛ ليَسحر، فالذاهبُ للسحرة يَطلب منهم سحْر الآخرين؛ كافرٌ – والعياذ باللَّه –.

قال: «والدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾».

وهنا ساحرٌ، وكاهنٌ، وعرّافٌ، ومشعوِذٌ.

فالساحر هو: الذي يَفعل السِّحْر بالعُقَد، أو بالرشِّ، أو يَجعل سحره في مطعوم أو مشروب؛ يفعله ليُقرِّب أو يُفرِّق، أو يُمرِض، أو يُبعد الشخصَ عما يريد؛ أيْ: يفعل أموراً تَخرج عن قدرة البشر من الأمور القلبيَّة، والجسديَّة أيضاً – من الأمراض ونحو ذلك –.

ووقوع السِّحْر حقٌّ؛ فقد يَترك المرء وظيفته بسبب السِّحْر، وقد تَتزوج المرأة بمن لا تريد؛ بسبب السِّحْر، وقد يسافر المرء من بلدٍ إلى آخر لكراهته هذا البلد ونحوه، بسبب السِّحْر.

فالساحر قد يقع منه ما يريد بإذن اللَّه الكونيِّ القدريِّ؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، وقال سبحانه:

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]؛ فدلَّ على أنَّه حقيقةٌ.

أمَّا الكاهن: فالكهانة ليست بحقٍّ؛ يعني: كلُّ ما يقوله باطلٌ، وهو: الذي يدَّعي الأمور المستقبلية، مِثل: ما الذي يحدث غداً، أو بعد شهرٍ؛ فكلُّ ما يقوله الكاهن كذبٌ ليس بحقٍّ.

والدليل على أنَّه ليس بحقٍّ؛ في صحيح البخاريِّ(١) لمَّا سألت عائشةُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم عن الكُهَّان؛ قال: «لَيسُوا بِشَيءٍ»، وقوله تعالى: ﴿عَالِمُ الغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً﴾ [الجن: ٢٦]، وقوله: ﴿عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الأنعام: ٧٣]، وقوله: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

أمَّا العرَّاف: فلا يدَّعي عِلم المستقبل، ولا يَضرُّ الآخرين بعقْد سِحرٍ؛ وإنَّما يَدَّعي أنَّه يَعرف أين مكان المسروق، أو الضالَّة، أو أين

---

(١) كتاب الأدَب، باب قول الرجل للشيء: ليس بشيءٍ، وهو ينوي أنه ليس بحقٍّ، رقم (٦٢١٣)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

فلان؛ يعني: يَعرف أين المكان فقط، فيقول لك: فلانٌ في المكان الفلاني، وسيارة فلانٍ في المكان الفلاني.

فنقول: قد يَعلم ذلك بما يستخدمه من أخبارٍ من قرين الآخر؛ كما قال سبحانه: ﴿رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٨].

وقد يُخبِر بحقٍّ، وقد لا يُخبر بحقٍّ؛ لكن لا يجوز الإتيان إليه، ومَن أتاه؛ فقد كَفر بما أُنزل على محمدٍ صلى الله عليه وسلم.

أمَّا المشعوذ: كذابٌ لا يَعرف شيئاً، فلا يَعرف سحراً ولا كهانةً ولا عرافةً؛ وإنَّما يدَّعي أنَّه يَعرف هذه الأمور؛ من أجل أنْ يأخذ أموال الناس، فالمشعوذ يتقمَّص شخصية السَّحَرة والدجالين والعرّافين، كأنَّه يَعرف؛ لكنَّه يَكذب في ذلك.

وهذه هي الأصناف الأربعة الذين يدّعون أنَّهم يتعاملون مع الجن، لا تتعداهم؛ وحُكمهم في هذا الكُفْر.

والركن الثالث من أركان السحر: المسحور، وهو الذي وقع عليه السِّحْر؛ وهذا مظلومٌ، واللَّه سبحانه وتعالى وَعد بنصر المظلوم.

وقال سبحانه عن الصنفين الأولين: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه: ٦٩]، فكلُّ أعمال الساحر ومن يَذهب إليه على غير الفلاح بل في الخسران والبطلان.

وأمَّا تاريخ السِّحْر فقد وُجِد مع وجود الإنسان؛ قال سبحانه: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢]، فكلَّ نبيٍّ يُبعث يقول قومه عنه إنه ساحرٌ، فالسِّحْر موجودٌ من عهد نوحٍ عليه السلام، وزاد السِّحْر في عهد موسى عليه السلام؛ لذلك استنصر فرعون بالسَّحَرة، ولكن خابوا، ونصَر اللَّه موسى عليه السلام؛ قال سبحانه: ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الشعراء: ٤٥].

ومنشأ السِّحْر - يَعني: سبب السِّحْر -: هو عدم الرضا بالمكتوب، وحسدُ الآخرين، فمثلاً: رجُلٌ موفَّقٌ في عملِهِ، وآخر لا يرضى بالقضاء والقدر بتوفيق اللَّه لذلك الرجُل؛ فيحسده، ثُم يَسحره - والعياذ باللَّه - .

والساحر كافرٌ؛ للآية التي ساقها المصنِّف، ولقول النبيِّ صلى الله عليه وسلم: «مَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ»(١).

ومن أتى إلى الساحر كافرٌ أيضاً؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تُطُيِّرَ لَهُ، أَوْ تَكَهَّنَ أَوْ تُكُهِّنَ لَهُ، أَوْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ»(٢).

ثُم بعد ذلك قال المصنِّف رحمه الله: **(وَقَوْلُهُ: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾)**.

ذَكر اللَّه هذه الآية في سبيل الذّم للنصارى، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾؛ أي: من أسباب كُفرهم أنَّهم يؤمنون بالجبت.

والجبت في الأصل: هو كلُّ شيءٍ باطلٌ، فالشرك باطلٌ، والكُفر باطلٌ، والسِّحْر باطلٌ، والربا باطلٌ وهكذا.

---

(١) سبق تخريجه (ص). عند قوله (ومنافٍ للتوحيد بالكلِّية؛ والدليل قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).

(٢) رواه البزار، رقم (٣٥٧٨)، من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه، (٩/ ٥٢).

والطاغوت عرفه ابن القيِّم رحمه الله بكلامٍ جامعٍ؛ فقال: «ما تجاوز به العبد حده»[١]، فكلُّ مجاوزة لِلحدِّ في شيءٍ فهو طاغوتٌ، فإذا فَعل الساحر السِّحْر وأضرَّ غيره؛ تجاوز الحد بإشراكه باللَّه، والإضرار بغيره وهكذا.

وذَكر المصنِّف رحمه الله أنَّ الجبت والطاغوت عامٌّ ويَدخل تحته أفرادٌ كثيرةٌ من معانيه؛ فساق تفسير عمر بن الخطاب رضي الله عنه للجبت؛ فقال: («الجِبْتُ: السِّحْر)؛ لأنَّه نوعٌ من أنواع الباطل، الساحر، والمُرَابي، والسارق وهكذا.

والطاغوت قال: (وَالطَّاغُوتُ: الشَّيْطَانُ)، وليس المراد به إبليس؛ وإنَّما فردٌ من أفراد الشيطان؛ أي: ما يَفعله الشيطان من أمورٍ تجاوز فيها الحد من أزِّ عباد اللَّه للشرك، أو الفواحش ونحو ذلك.

والجبت لفظٌ عامٌّ، يُطلَق على الساحر، والكاهن، ويُطلَق على الصنم، وفسّره عمر رضي الله عنه ببعض أنواع الجبت، وهو السِّحْر، ومنه: ادَّعاء الغيب، والسلف يفسِّرون المعنى ببعض أفراده.

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين (٢/ ٩٢).

وعدَّهم عمر رضي اللَّه عنه السَّحَرة؛ لأنَّهم تعدَّوا ما نهاهم اللَّه عنه من ادِّعاء علم الغيب الذي لا يَعلمه إلا اللَّه، فتجاوزوه فكانوا من الطواغيت – والعياذ باللَّه –؛ لذلك قال ابن القيم رحمه الله: «الطاغوت كلُّ ما تجاوز به العبد حدَّه، من معبودٍ أو متبوعٍ أو مطاعٍ»(١)، والكاهن لمَّا تجاوز الحدَّ كان طاغوتاً.

وهذا قول ابن عباسٍ، وقتادة، والحسن، وغيرهم(٢).

ثُم ذَكر رحمه الله تفسير جابرٍ رضي الله عنه لبعض أفراد الطاغوت، وأنَّهم الكهَّان، فمن الطواغيت السَّحَرة، والكهان، والشياطين، والظَّلَمَة وهكذا.

قال: (الطَّوَاغِيتُ كُهَّانٌ كَانَ يَنزِلُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ) ليُلقي عليهم كلمةً سُمِعَت من السماء بعد أن يَكذب معها مئة كذبةٍ.

قال: (فِي كُلِّ حَيٍّ وَاحِدٌ) يعني: لكلِّ ساحرٍ إذا كان في أحد الأحياء يَنزل عليه شيطانٌ؛ لأنَّ طريقة السَّحَرة أنَّ كلَّ ساحرٍ يستعين بشيطانٍ

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين (٢/ ٩٢).

(٢) تيسير العزيز الحميد للشيخ سليمان بن عبد الوهاب (١/ ٣٠٧).

يَتخذه بعد أن يَكفر باللَّه، فيَزعم هذا الشيطان أنَّه سيعينه، ثُم بعد فترة يَتبرأ منه هذا الشيطان؛ لأنَّ مقصود الشيطان بإعانة الساحر لكي يَكفر أحدٌ من بني آدم، فإذا كَفر وتَغلغل في الكُفر يَتبرأ منه الشيطان ويَذهب إلى غيره وهكذا؛ وهذا سبب إعانة الشياطين للسحرة - والعياذ بالله -.

ففسّره جابر رضي الله عنه بتفسير عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لكن ذكَر أحوالهم، وأنَّ العرب اتَّخذوا في كلِّ حيٍّ كاهناً؛ يَسألونه؛ جهلاً منهم.

وقد يوجد في بعض البلدان مَن يُتَّخذ؛ ليُسأَل في عِلم الغيب؛ وهو كُفرٌ - والعياذ باللَّه-، ومصادمةٌ ومحادَّةٌ للقرآن العظيم؛ قال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، فحُكمهم الكُفر.

فدلَّ على أنَّه لا يمكن أن يَسحر ساحرٌ إلا بعد أن يَكفر باللَّه؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «مَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ»(١)؛ لأنَّه استعانةٌ بالشيطان.

(١) سبق تخريجه (ص) عند قوله (ومنافٍ للتوحيد بالكلِّية؛ والدليل قول النبي

ثُم قال رحمه الله: (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسِّحْر، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ الغَافِلَاتِ المُؤْمِنَاتِ» أَخْرَجَاهُ).

يَذكر رحمه الله هنا في هذا الحديث أن السِّحْر من الذنوب المهلِكة؛ أي: الخطيرة.

قوله: (السَّبْعَ) الكبائر أكثر من سبْعٍ، فمثلاً هنا لم يَذكر الزنا، ولم يَذكر شُرب الخمر مع أنَّهما من الكبائر، ولكن جمَع هذه هنا في حديثٍ واحدٍ وذكر أنها سبعٌ للذكْر لا للحصر.

(المُوبِقَاتِ) المهلِكات، وهي: أكثر من سبعٍ، وذكَر سبْعاً منها هي أعظمها.

صلى الله عليه وسلم).

(قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّه !وَمَا هُنَّ؟) هذا يدلُّ على أنَّ من وسائل التعليم عدُّ المسائل، مِثل: المسألة الأولى كذا، والمسألة الثانية كذا، والمسألة الثالثة كذا وهكذا.

المهلِك الأوَّل: (الشِّرْكُ بِاللَّه) وهذ أعظم ذنْبٍ مُوبِقٍ الحسنات.

ومُهلِك المرء في الدنيا والآخرة.

ومُحِلّ المصيبات.

وأعظم ذنْبٍ يُعصَى اللَّه به.

ويُحْرَم صاحبه - والعياذ باللَّه - من دخول الجَنَّة، ويُخَلَّدُ في النار.

وتحبط جميع أعماله؛ قال سبحانه: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم لما سأله ابن مسعودٍ رضي الله عنه: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ؟، قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدّاً وَهُوَ خَلَقَكَ»(١).

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب تفسير القرآن، باب قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، رقم (٤٤٧٧)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب، وبيان أعظمها بعده، رقم (٨٦).

والمهلِك الثاني: **(وَالسِّحْر)** - والعياذ باللَّه -، وهو الشاهد، وهو نوعٌ من أنواع الشرك؛ لأنَّه استعانةٌ بالشياطين بأفعالٍ شركيةٍ؛ لتحقيق أغراضٍ دنيويةٍ.

دلَّ هذا على أنَّ السِّحْر من الموبقات المهلكات، ودلَّ على خطره، فواجبٌ على المرء الإعراض عنه، وعن الاستماع إلى العرَّافين، أو الإتيان إليهم مباشرة؛ لأنَّه من الموبِقات.

والمهلِك الثالث: **(وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّه إِلَّا بِالحَقِّ)**، القتل ينقسم إلى قسمين:

القِسم الأوَّل: مأمورٌ به، كالقتل في الجهاد والقصاص، مِثل: عند التحام الصفوف بين المسلمين والكفار؛ أمَر اللَّه بقتل الكفار؛ قال تعالى: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢]، وقال: ﴿فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ﴾ [النساء: ٨٩].

وأمَر اللَّه بقتل مَن قَتَل؛ قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥]، فهذا قتلٌ بحقٍّ.

والقسم الثاني: قتلٌ بغير حقٍّ، وهو قتْل النفس المعصومة؛ أي: قتْل المسلِم المعصوم الدم؛ وأيضاً لا يجوز قتل مَن عُصِم دمه من غير

المسْلِم، مِثل: المعاهَد والمستأمَن والذِّمِّي؛ قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهَداً لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ»(١).

والمهلِك الرابع: قال: (وَأَكْلُ الرِّبَا) وهو أيضاً من الأمور الموبِقة، ومن أنواع الظلم؛ فهو مُهلِكٌ؛ كما قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة: ٢٧٨-٢٧٩].

وكلُّ مَن دخل في الربا، أو كان معيناً له؛ فالبركة في ماله تُمحَق؛ قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

والمهلِك الخامس: (أَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ) والمراد بالأكل هنا وفي الربا: أخْذهما، وذُكِر الأكل؛ لأنَّ المقصود من أخْذ المال من أجْل الأكل، ثم بعد ذلك ما زاد يُتوسَّع فيه؛ لذلك قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الجزية، باب إثم من قتل معاهداً بغير جرمٍ، رقم (٣١٦٦)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾ [النساء: ١٠]؛ لأنَّهم أَكلوا مال اليتيم فعاقبهم اللَّه بنارٍ في بطونهم.

والمهلِك السادس - والعياذ باللَّه -: (التَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ) والمراد بـ(**التَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ**): الهروب من الصف في القتال؛ لأنه يُوهن المقاتلين، وهو ظلمٌ، لأنَّك خَذلتَ أصحابك من المؤمنين، فتتولَّى عن القتال، ويتقوَّى العدو على قتْل إخوانك.

وقد أباح اللَّه الابتعاد عن الصفِّ لأمرين ذَكرهما في قوله: ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ﴾ [الأنفال: ١٦]؛ إلا مَن كان تحيُّزه يقصد به أمرين:

الأمر الأوَّل: تحرُّفاً في القتال؛ أي: لينعطف على العدو؛ ليَخدع العدو.

الأمر الثاني: متحيِّزاً، يَذهب إلى فئةٍ أخرى مسلِمةٍ؛ يَنصرها.

والمهلِك السابع: (وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ) القذف يعني: الرمي بالزنا أو اللواط، والمراد بالمحصنات هنا: الحرَّة العفيفة، وليس هذا مقصوراً على النساء؛ بل حتى على الرجال، فلو قُذف الرجُلُ وهو حرٌّ عفيفٌ؛ فهذا من الذنوب المهلِكة.

وقوله: (الغَافِلَاتِ) هذا وصفٌ أغلبيٌّ؛ لأنَّ الغالب أنَّ العفيف إذا رُمي يكون غافلاً عن هذا الرمي، أو غافلاً عن ذلك المنكَر المتهَم به، كما لمَّا رُمِيت عائشة رضي الله عنها وهي غافلة، لا تَعرف عن ذلك شيئاً.

(المُؤْمِنَاتِ) لأنَّ قذْف الكافر لا يوجب الحد؛ ولكنه يُعزَّر.

قال: (أَخْرَجَاهُ).

وإذا تأملتَ الموبِقات السبعة التي في هذا الحديث؛ تجدها كلها ظُلماً:

فـ (الشِّرْكُ باللَّهِ) ظُلْمٌ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣].

(والسِّحْرُ) ظلمٌ؛ لأنَّه يَظلم غيره، يسحره فيمرضه أو يقتله.

(وَقَتْلُ النَّفْسِ) ظلمٌ؛ لأنَّه أزهق نفساً معصومةً بغير حقٍّ.

(وَأَكْلُ الرِّبَا) ظلمٌ؛ لأنَّه يأخذ مال الضعيف.

(وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيْمِ) ظلمٌ؛ لأنه ضعيفٌ، فيَأكل ماله.

(والتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ) ظلمٌ؛ لأنَّك خذلتَ أصحابك.

(وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ) ظلمٌ.

والشاهد من هذا الحديث: خطورة السِّحْر؛ لأنَّه ذنْبٌ مهلِكٌ - والعياذ باللَّه -؛ لكونه شركاً باللَّه.

وإلى هنا انتهى المصنِّف من حُكم السِّحْر، وخطر السِّحْر، ثُم يَذكر عقوبة السِّحْر، وذَكر حديثاً في الترمذي، وحديثاً في البخاري، وذكَر فعل بعض الصحابة في الساحر.

قال: (وَعَنْ جُنْدُبٍ مَرْفُوعاً: «حَدُّ السَّاحِرِ: ضَرْبُهُ بِالسَّيْفِ») يصحُّ: «ضَرْبُهُ»، ويصحُّ: «ضَرْبَةٌ» يعني: حدُّ الساحر قتْله، وإنْ لم يكن مسلِماً فقتْله مِن باب الحِرَابة.

قال: (رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: «الصَّحِيحُ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ») يعني: على جُندبٍ.

فدلَّ على أن عقوبة الساحر في الدنيا القتل، ولا يُشترط بالسيف فقط، فإن كان بالسيف أو بغيره صحَّ؛ إذ المقصد هو إزهاق روحه؛ لكثرة شرِّه على الناس.

وذَهب بعض أهل العِلم[١] إلى أنه يُقتل ولا يستَتَاب؛ لأنَّ شرَّه متعدٍّ كالصائل.

وذهب بعض أهل العِلم[٢] إلى أنه يستَتَاب؛ لقوله سبحانه: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

ثُم بعد ذلك قال: (**وَفِي «صَحِيحِ البُخَارِيِّ»: عَنْ بَجَالَةَ بِنِ عَبَدَةَ؛ قال: «كَتَبَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه: أَنِ اقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ. قَالَ: فَقَتَلْنَا ثَلَاثَ سَوَاحِرَ»**).

فدلَّ على أن حُكم الصحابة أيضاً القتل للساحر، فنَفَّذوا ذلك.

(**كَتَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه: أَنِ اقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ**) يعني: لعُمَّالِه، فحُكمُه في السَّحَرة القتل، **إلى هنا انتهى نصّ البخاري**.

قال: (**فَقَتَلْنَا ثَلَاثَ سَوَاحِرَ**)، واللفظ الذي ساقه المصنِّف رحمه الله ليس عند البخاري.

---

(١) كأبي حنيفة ومالك رحمهما الله. البحر الرائق لابن نجيم (٥/ ١٣٦)، الكافي لابن عبد البر (٢/ ١٠٩١).

(٢) كالإمام أحمد رحمه الله. المغني لابن قدامة (٩/ ٢٩).

وهذا يدلُّ على كثرة السِّحْر، فإذا كان في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ثلاث سواحر، وعهْده قريب من النبوة، فكيف فيما بعده من العصور البعيدة عن النبوة والهدى، وكثرة انفتاح الناس على الدنيا، وقلَّة الخوف من اللَّه؟ لا شك أنَّه أشدّ.

ودلَّ هذا الأثر على أنَّ السِّحْر موجودٌ حتى في عصر الخلفاء الراشدين؛ بل موجودٌ في عهد النبيِّ صلى الله عليه وسلم، وسُحِرَ النبيُّ عليه الصلاة والسلام.

قال: (وَصَحَّ عَنْ حَفْصَةَ رضي الله عنها: «أَنَّهَا أَمَرَتْ بِقَتْلِ جَارِيَةٍ لَهَا سَحَرَتْهَا؛ فَقُتِلَتْ») فانظر إلى جرأة السَّحَرة في سحْرهم للصالحين؛ بل سَحروا أشْرف الخلْق صلى الله عليه وسلم؛ فدلَّ على حقارة ودناءة أنفسهم، وقلَّة خوفهم من اللَّه، وعدم تعظيمهم لحرمات المسلمين.

فسَحروا النبيَّ صلى الله عليه وسلم، وسَحروا زوجته؛ فدلَّ على أنَّهم لا يتورَّعون عن سحْر غيرهم من المسلِمين.

ودلَّ على أنَّ الصحابة رضي الله عنهم نَفَّذوا حُكم القتل في الساحر.

ويدلُّ على أنَّ من النساء ساحراتٍ أيضاً كالجارية التي سَحرت حفصة رضي الله عنها.

ويدلُّ أيضاً على أنَّ أمَّ المؤمنين حفصة رضي الله عنها سُحرت كما سُحر النبيُّ صلى الله عليه وسلم.

قال: (وَكَذَلِكَ: صَحَّ عَنْ جُنْدُبٍ)، فإذاً: صحَّ عن عمر، وصحَّ عن حفصةٍ، وصحَّ عن جندب رضي الله عنهم، أنَّهم قتلوا سحَرةً.

وسبب كثرة السِّحْر في المدينة في عهد الخلفاء الراشدين؛ لقرْب اليهود لمَّا كانوا في المدينة مِن أهل المدينة قبل أن يُجلِيهم النبيُّ صلى الله عليه وسلم وعمر بن الخطاب، فَقُرْب اليهود من مجتمع المسلمين أَثَّرَ عليهم في السِّحْر، حتى تَعلَّمت الجارية ذلك السِّحْر وسَحرت حفصة، وقد تكون هذه الجارية غير مسلمةٍ والعِلم عند اللَّه.

(قَالَ أَحْمَدُ: «عَنْ ثَلَاثَةٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم»)

فحُكم الساحر عند الصحابة القتل، وقد فعَل ذلك القتل ثلاثة من الصحابة، وهم: عمر، وحفصة، وجندب رضي الله عنهم جميعاً.

فإذا كان السِّحْر في القرون المفضلة موجوداً؛ فمِن باب أَولى كثرته بعد تلك القرون المفضَّلة، فيجب على المسْلِم أن يتحصَّن بالأذكار، وأنْ يلتجئ إلى اللَّه بالدعاء بأنْ يَعصمه من السِّحْر، وأنْ يَبتعد عن أهل الشر.

وقد يُسحَر المرء، لكن بإذن الله يُحفظ من السِّحْر فلا يَضرُّه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

ومِن كمال ملكوت اللَّه على الأرض، وقوته وتدبيره: أنَّه لا يقع شيءٌ في الكون إلا بإرادته، ولو كان كلُّ سحْرٍ يقع ويضر؛ لعَاثَ السَّحَرة في الأرض الفساد.

فتبيَّن ممَّا سبَق: أنّ السِّحْر منافٍ للتوحيد بالكلِّية، وحُكم الساحر الكُفر، وفي الدنيا حُكمه القتل.

***

[٢٥]

بَابُ

بَيَانِ شَيْءٍ مِنْ أَنْوَاعِ السِّحْرِ

قَالَ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جعفرٍ، حَدَّثَنَا عَوْفٌ، عَنْ حَيَّانَ بْنِ العَلَاءِ، حَدَّثَنا قَطَنُ بْنُ قَبِيصَةَ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «إِنَّ العِيَافَةَ، وَالطَّرْقَ، والطِّيَرَةَ؛ مِنَ الجِبْتِ».

قَالَ عَوْفٌ: «العِيَافَةُ: زَجْرُ الطَّيْرِ.

وَالطَّرْقُ: الخَطُّ يُخَطُّ بِالأَرْضِ.

وَالجِبْتُ - قَالَ الحَسَنُ -: إِنَّهُ الشَّيْطَانُ» إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ.

وَلِأَبِي دَاوُدَ، وَالنَّسَائِيِّ، وَابْنِ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ»: المُسْنَدُ مِنْهُ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «مَنِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجُومِ؛ فَقَدِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ، زَادَ مَا زَادَ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

وَلِلنَّسَائِيِّ: مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: «مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا فَقَدْ سَحَرَ، وَمَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئاً وُكِلَ إِلَيْهِ».

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «أَلَا هَلْ أُنَبِّئُكُمْ مَا العَضْهُ؟ هِيَ النَّمِيمَةُ - القَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ-» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَلَهُمَا: عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْراً».

الشرح:

لمَّا ذَكر المصنِّف رحمه الله خطر السِّحْر، وأنَّه كُفرٌ، وذَكر في الباب السابق عقوبته في الدنيا والآخرة، ذَكر هنا ثلاثة أنواعٍ من السِّحْر:

النوع الأوَّل: شركٌ، وهو ثلاثة أنواعٍ:

نوعٌ بالخط، ونوعٌ بالنجوم، ونوعٌ بالنفث في العُقد.

النوع الثاني: ليس بشركٍ، وإنَّما محرَّمٌ، وهو سحْرٌ معنويٌّ، ليس حسِّيّاً، وهو: النميمة.

والنوع الثالث من السِّحْر: سحْرٌ معنويٌّ، وهو حُسْن البيان في الكلام، وهو قِسمان:

إمَّا أن يكون في حقٍ؛ وهذا جائزٌ.

وإما أن يكون في باطلٍ؛ وهذا محرَّمٌ.

وذَكر المصنِّف رحمه الله ثلاثة أحاديث في ثلاثة أمثلةٍ على النوع الأوَّل.

قال رحمه الله: (بَابُ بَيَانِ شَيْءٍ مِنْ أَنْوَاعِ السِّحْرِ)، قوله: (شَيْءٍ) يدلُّ على أنَّ السِّحْر أنواعٌ عديدةٌ، وهذا منها، ومِن أنواعه التي لم يذكرها: الاستغاثة بالجِنِّ، والذبح لغير اللَّه، فكُلُّ مَن سَحَر؛ فقد أَشرك.

قال المصنِّف رحمه الله: (بَيَانِ شَيْءٍ مِنْ أَنْوَاعِ السِّحْرِ)؛ لبيان أنَّ طرُق السَّحَرة الذين هم من الصنف الأوَّل كثيرةٌ:

فمنهم من يستخدم الخط في الأرض.

ومنهم من يستخدم التنجيم.

ومنهم من يستخدم الأبخرة.

ومنهم من يستخدم جماجم الأموات وغير ذلك.

فهي تتعدد بتعدُّد طلبات الشياطين للسحرة، فشيطانٌ يطلب من الساحر أن يَذِلَّ لَهُ بتبخير المكان؛ لإظهار عظمة الشيطان عند هذا الساحر، واحتقار الساحر.

ومنهم مَن يَسجد للشيطان.

ومنهم مَن يَعمل أموراً منكرةً كفريَّةً كإهانة المصحف - والعياذ باللَّه -وغير ذلك؛ لذلك قال رحمه الله: (**بَيَانِ شَيْءٍ مِنْ أَنْوَاعِ السِّحْرِ**) أي: ممَّا جاء به النَّصُّ؛ وإلَّا فهي كثيرةٌ.

(**مِنْ أَنْوَاعِ السِّحْرِ**) أي: أن السِّحْر ينقسم الى عدَّة أقسامٍ، وقصْده بالسِّحْر هنا ليس فقط السِّحْر الذي يَفعله الساحر؛ وإنَّما ما جاء الشرع بتسميته سحْراً.

والمصنِّف رحمه الله ساق عدة نصوصٍ في هذا الباب، والنصوص الأُولى ساقها؛ لبيان شيءٍ من السِّحْر الذي حُكمه الشرك وهو الذي يفعله السَّحَرة.

ومثَّل له بثلاثة نصوص:

النَّصُّ الأوَّل: ذكر فيه المثال الأوَّل، وهو الخط يُخط في الأرض.

والنص الثاني: التنجيم.

والنص الثالث: النَّفثُ في العُقد.

وساق النَّصّ الرابع؛ لبيان السِّحْر المحرَّم، والذي لا يصل إلى الكفر؛ وهو النميمة.

والنص الخامس: سحرٌ لا يصل إلى الكُفر، وهو السجْع في الكلام، وفيه تفصيلٌ؛ فإن كان في حقٍّ فلا محذور فيه، وإن كان في باطلٍ فهو محرَّمٌ؛ لمشابهته سَجْع الكهان.

وبدأ بالأمر الشركيِّ وهو المقصود في هذا الكتاب؛ قال: **(قَالَ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ)** والملقب بـ «غُنْدَر»[1] وهو شيخ الإمام البخاريِّ أيضاً، وشيخ للنسائيِّ.

قال: **(حَدَّثَنَا عَوْفٌ، عَنْ حَيَّانَ بْنِ العَلَاءِ، حَدَّثَنَا قَطَنُ بْنُ قَبِيصَةَ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «إِنَّ الْعِيَافَةَ، وَالطَّرْقَ،**

---

(١) هو: أبو عبد الله محمد بن جعفر الهذليّ مولاهم البصري، توفي سنة (١٩٣هـ). طبقات الحفاظ للذهبي (١/ ٢٢٠).

والطِّيَرَةَ؛ مِنَ الجِبْتِ») هذا اللفظ عند أبي داود[١]، والنسائي[٢]، وابن حبَّان[٣]، إضافةً إلى الإمام أحمد[٤]؛ لأنَّ هذا هو لفظ المسند.

أمَّا التفسير فليس عند ابن حبَّان وليس عند النسائيِّ، وإنَّما تفسير العيافة والطَّرق عند الإمام أحمد وعند أبي داود فقط.

وأمَّا قول الحسن فليس عند أبي داود ولا النسائيِّ ولا ابن حبَّان؛ وإنما هو عند الإمام أحمد فقط.

ولمَّا ذكر رحمه الله هذا الحديث؛ ذَكر تفسيره فقال: **(قَالَ عَوْفٌ)** وهو تلميذ غُندر، شيخٌ لأحمد بن حنبلٍ، والنسائيِّ، متوفى سنة (١٤٦هـ)[٥]، وهو الذي فسَّر الحديث.

---

(١) كتاب الطبّ، باب في الخط وزجر الطير، رقم (٣٩٠٧).

(٢) في السنن الكبرى، كتاب التفسير، سورة النساء، قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالجِبْتِ﴾ [النساء: ٥١]، رقم (١١٠٤٣).

(٣) كتاب النجوم والأنواء، ذكرْ الزجر عن قول المرء بعيافة الطيور واستعمال الطرق، رقم (٦١٣١).

(٤) في المسند، رقم (١٥٩١٥).

(٥) هو: عوف ابن أبي جَميلة الأعرابي العبدي البصري. تقريب التهذيب لابن

(العِيَافَةُ: زَجْرُ الطَّيْرِ) التفاؤل والتشاؤم بالطيور، وهو نوعٌ من أنواع الجبت؛ أي: العيافة هي التشاؤم والتفاؤل بالطير، فكانوا يتشاءمون بالغراب، ويتفاءلون بالطير الأبيض وهكذا؛ حسب التصرفات والطبائع التي يرونها من الطيور.

(**زَجْرُ الطَّيْر**) نوعٌ من أنواع الطيرة، فمن أنواع الطيرة - أي: التشاؤم - بالطيور وهي من عادات الجاهلية، فلو مرَّ طيرٌ أسود كالغراب يتشاءمون، وإذا أَخرج الطير صوتاً - مثلاً - يتشاءمون، وإذا كان أحد جناحيه مكسوراً يتشاءمون وهكذا.

والمصنِّف رحمه الله عَقد لهذا باباً مستقلاً فقال: (**بَابُ مَا جَاءَ فِي الطِّيَرَةِ**) وسيأتي بإذن اللَّه.

قال: (وَالطَّرْقُ: الخَطُّ يُخَطُّ بِالأَرْضِ) أي: الخطُّ الذي يَخطه الساحر في الأرض؛ ليأتي شيطانه ليستعين به على الباطل؛ يعني: أنَّ مِن الكهَّان مَن يخُطُّ في الأرض، ويدَّعي الكهانة والأمور المستقبلية، والعِرافة؛ وهي نوعٌ من الشرك.

حجر (١/ ٤٣٣).

والخطُّ بالخطِّ ينقسم إلى قِسمين:

القِسم الأوَّل: جاء الشرع به؛ ولكنه مندثرٌ؛ قال عليه الصلاة والسلام: «كَانَ نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ يَخُطُّ - يعني: بالأرض - فَمَنْ وَافَقَ خَطَّهُ فَذَاكَ»(١)، لكنَّه اندثر ولا يُعرف خطه؛ يعني: إذا أراد أن يُطلعه اللَّه على شيءٍ من الغيب يَكتب فيخط بالأرض، ولكن لا يُعرف هذا الخط بعد موته، فاندثر هذا الخط بموت ذلك النبي.

يعني: أنَّه لا أحد يستطيع أن يوافق خط ذلك النبي، وذلك النبي خطَّ خطّاً بأمر اللَّه؛ كما قال تعالى: ﴿عَالِمُ الغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً * لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ﴾ [الجن: ٢٦-٢٨]، فهذا بأمر اللَّه، ويُطلِعه اللَّه على شيءٍ من الغيب بأمرٍ من اللَّه، ومَن ادَّعى ذلك؛ فقد وَقع في الشرك.

---

(١) رواه مسلمٌ، كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان، رقم (٥٣٧)، من حديث معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه.

والقِسم الثاني: الذي يَخطه السَّحَرة في الأرض، ومنه: الكتابةُ على الورق - كالشركيات ونحو ذلك - حتى يأتي الشيطان - والعياذ باللَّه - ؛ ليستعين به على الباطل.

(وَالجِبْتُ قَالَ الحَسَنُ: إِنَّهُ الشَّيْطَانُ) يعني: الطيرة - أي: التشاؤم هنا -، والخطُّ الذي يفعله السَّحَرة كلُّه من الشيطان - والعياذ باللَّه -؛ أي: مما يستعين به الإنسان على الباطل.

وفي بعض النُّسخ: «رَنَّةُ الشَّيْطَانِ»؛ أي: كلُّ صوتٍ من أصوات الملاهي، وما يَصرف عن الحقِّ، فهو شيطانٌ، فالحسن رحمه الله فسَّر الجبت بأنه رنة الشيطان؛ يعني: الذي يَصدُّ عن ذِكر اللَّه فهذه رنَّة الشيطان؛ يعني: صوتٌ من الشيطان.

ورفْع المعازف رنَّةٌ من الشيطان.

وإخراس الحق؛ رنَّةٌ من الشيطان.

فكلُّ قولٍ باطلٍ فهو رنَّةٌ من الشيطان، ورفْع صوته فيها.

قال: (إِسْنَادٌ جَيِّدٌ، وَلِأَبِي دَاوُدَ، وَالنَّسَائِيِّ، وَابْنِ حِبَّانَ فِي «صَحَيحِهِ»: المُسْنَدُ مِنْهُ)، كما سبق لكم في التفصيل.

وهذا من بديع تصنيف المؤلِّف رحمه الله؛ أنَّه لم يأتِ بما يَعمله السَّحَرة إلَّا بما جاء به النَّصُّ، فلو أتى بأمورٍ أخرى كإهانة القرآن أو غيره، قد يقال: كيف عَرف أمور السِّحْر، وكيف، وكيف، لكنَّه أتى بالذي جاء فيه النَّص.

قال رحمه الله: (**وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «مَنِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجُومِ، فَقَدِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ، زَادَ مَا زَادَ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ**).

هذا **النوع الثاني** من أنواع السِّحْر: النظر في النجوم ومناجاتها، ثُم ادعاء علم الغيب، وقد يكون فيها استغاثةٌ بغير اللَّه.

وذَكر المصنِّف رحمه اللَّه هذا الحديث؛ لبيان نوعٍ من أنواع السِّحْر، وهو الاعتماد في السِّحْر على النجوم.

والنجوم عَقد المصنِّف رحمه الله لها باباً مستقلاً سيأتي بإذن اللَّه وهو: (**بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّنْجِيمِ**).

وحُكم الانتفاع بالنجوم على نوعين:

النوع الأوَّل: إذا كان الانتفاع بها على أمرٍ مشاهَدٍ، مثلاً: غاب النجم يأتي بعده بإذن اللَّه بردٌ وهكذا؛ فهذا لا بأس به.

والنوع الثاني: استخدام النجوم في الأمور غير المشاهدة، أو المغيَّبة في المستقبل.

فغير المشاهدة مِثل أن يقول: لو غاب هذا النجم فمعنى ذلك أن القرية التي عندنا مات فيها رجُلٌ عظيمٌ.

أو أمرٌ مستقبلٌ مِثل: شخص وُلد في برج الحوت، فيقولون مثلاً: سوف تكون حياته مليئةً بالمصائب.

فاتخاذ الأبراج نوعٌ من أنواع السِّحْر والكهانة؛ لأنَّ الغيب لا يَعلمه إلا اللَّه، قال سبحانه: ﴿عَالِمُ الغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً﴾ [الجن: ٢٦]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣٨]، وقال: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

واستخدامها على أمرٍ مشاهَدٍ للدلالة في الطريق - كالقطب مثلاً - هذا من النوع الأوَّل الذي لا محذور فيه.

واستخدامها لغير ذلك نوعٌ من أنواع الرجْم بالغيب.

قال: (مَنِ اقْتبَسَ) أي: من حصَّل، وتعلَّم (شُعْبَةً مِنَ النُّجُومِ) أي: نوعاً من أنواع النجوم، (فَقَدِ اقْتبَسَ) أي: وقع في (شُعْبَةً) أي: نوعٍ من

أنواع السِّحْر (زَادَ) أي: في السِّحْر، (مَا زَادَ) أي: مِن تعلُّمه للنجوم - والعياذ باللَّه -، زاد من السِّحْر والجبت، بقدْر توغُّله في ذلك الممقوت.

فمن أنواع السِّحْر النظر في النجوم، ومنه: «مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا»(١) هذا من اقتباس النجوم.

وإن قال لك شخصٌ: أنت في أيِّ نجمٍ مولودٌ، أو في أيِّ برجٍ مولودُ، وأنا أعرف ما هو حظك ونصيبك، وكيف تكون حياتك.

نقول: هذه من أنواع السِّحْر؛ لحديث: («**مَنِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجُومِ، فَقَدِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ، زَادَ مَا زَادَ**»).

ويَدخل فيها ما يسمى بأبراج الحظ، والنظر في الكفِّ، وقسمتها، ومناسبتها بما في النجوم وغيره ممَّا يدَّعيه أهْل الخرافة.

قال: (رَوَاهُ أَبُو دَاوُد، بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ).

---

(١) رواه البخاريُّ، أبواب الاستسقاء، باب قول الله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «شُكْرَكُمْ»، رقم (١٠٣٨)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كفر من قال: مُطرنا بالنوء، رقم (٧١)، من حديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه.

ثُم بعد ذلك قال: (**وَلِلنَّسَائِيِّ: مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه:** «**مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا فَقَدْ سَحَرَ، وَمَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئاً وُكِلَ إِلَيْهِ**»).

النوع الثالث من القِسم الأوَّل من السِّحْر: النفث، فالساحر يأتي بخيطٍ، ثم عند العقد، يقول: اسحر فلاناً على طلاق زوجته، ثم بنفثه الخبيث يَنفث بريقه، ثم يعقدها؛ ليكون فيه من الجِنِّ ما يؤيدون سحْره، لذلك قال عز وجل: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤]؛ يعني: يا رب أَعذْني ممَّا قد يقع مِن الساحر بالعقد.

فإذا وَقع الضرر على المسحور؛ فبأمر اللَّه الكوني القدري، وإذا تحصَّن العبد، ولم يرد اللَّه إضرار المسحور، فلا يقع عليه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وساق المصنِّف رحمه الله هذا الحديث؛ لبيان نوعٍ من أنواع السِّحْر وهو: العَقْد؛ أي: أن يؤخذ من المسحور شيءٌ ممَّا لامس جسده؛ كشيءٍ من ملابسه أو من شَعْره، فيُربط ثم يَنفث الساحر فتُربط بقوَّةٍ؛ فهذا نوعٌ من أنواع السِّحْر.

وهذا هو النوع الذي سُحر به النبيُّ صلى الله عليه وسلم؛ فقد أُخذ مِمَّا تساقط من شَعره من المشط ثم أُخذ هذا الشعر فلُفَّ بعضه على بعضٍ ثم نُفث فيه وعُقد.

وحَلُّ سحْر هذا النوع كما سيأتي - في باب النُّشرة بإذن الله - بحلِّ هذه العُقدة؛ أي: بفكِّ هذه العُقدة، فإذا حُلَّت هذه العُقدة باليد مثلاً، أو بحرْقها بالنَّار؛ فإنَّ السِّحْر بإذن اللَّه يزول.

وقوله: (مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً) أي: من شيءٍ لامَسَ من يُراد سِحره، ثم نفث فيها؛ يعني: الساحر يَنفث في هذه العقدة بعد أن يتلفظ بألفاظٍ شركيةٍ، فيأتي شيطانٌ، ويُربَط في هذه العقدة؛ لئلَّا يخرج هذا الشيطان من جسد من أُريد سحْره.

وبهذا فكلُّ مَن هو مسحورٌ فإنَّه مصابٌ بدخول الجِنِّ فيه، وليس مَن دَخل فيه جنٌّ بسبب السِّحْر فمعنى ذلك أنَّه مجنونٌ؛ وإنَّما يَدخل هذا الجني للأمر الذي طُلب منه أن يَفعله، مِثل: لو سُحر شخصٌ أن يَكره لحم الدجاج، فيُكْره هذا الجنيُّ له أكل لحم الدجاج، أمَّا في بقية تصرفاته فتجده سليماً.

قال: (فَقَدْ سَحَرَ) هذه لفظةٌ عظيمةٌ، نحتاج إليها كثيراً.

فإن قال لك شخصٌ: هل الساحر أَشرك؟

تقول: النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**وَمَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ**).

فكلُّ مَن سحر فقد أشرك؛ لأنه يستعين بالجن والشياطين، وقد يَذبح لغير اللَّه، وقد يَنذُر لهم، وقد يُكرمهم بالبخور ونحو ذلك؛ فدلَّ على أنَّ الربط نوعٌ من أنواع السِّحْر - والعياذ باللَّه -.

وما حُكم هذا الساحر الذي ربَط؟

قال: (**وَمَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ**) فهذه اللفظة دلَّت على أنَّ الساحر مشرِكٌ؛ لاستعانته بالجِنِّ، فالساحر لا يستطيع أن يتوصل إلى ما يريد إلا بعد الكُفر باللَّه - والعياذ باللَّه -.

قال: (**وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئاً وُكِلَ إِلَيْهِ**) أي: مَن تَعلَّق قلبه بشيءٍ؛ وهذا تهديدٌ لمن يَذهب إلى السَّحَرة، فإنْ تعلَّق القلب بالسَّحَرة؛ وكَلَ اللَّه المتعلق بهم لهم، وقال اللَّه: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه: ٦٩].

فكل مَن تعلق بالسَّحَرة؛ خُذل؛ لأنَّ اللَّه نفى عنهم الظفر والفلاح والسعادة، كتعلُّق من يأتي إلى الساحر ليَسحر له زيداً ليمرض - مثلاً - فيكله اللَّه إلى هذا الساحر فلا يَنفعه؛ بل يضرُّه.

وكذلك مَن أتى إلى ساحرٍ ليعالجه، فمَن تعلَّق قلبه بالساحر ليَرفع عنه المرض؛ يَكله اللَّه عز وجل إلى ذلك الساحر، والساحر لا يَملك له شيئاً.

وكذلك إذا تَعلق شخصٌ برجُلٍ يعطيه مالاً، ويَخشى من هذا الرجل أن يَقطع عنه رزقه؛ فهذا مِن التعلق بغير اللَّه، ومن تَعلَّق بغير اللَّه هَلك؛ لأن المُتعلَّق به ضعيفٌ.

ومَن تَعلق باللَّه؛ أفلح؛ قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، وقال: ﴿رَبُّ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾ [المزمل: ٩].

فهذا وعيدٌ وتهديدٌ لمن يَذهب إلى السَّحَرة؛ فإنَّ أمره في خسران.

فهذا **النوع الثالث** من السِّحْر، وهو: شركٌ، وهو ثلاثة أنواع:

النوع الأوَّل: الخط.

النوع الثاني: التنجيم.

النوع الثالث: النفث في العقد.

ثُم بعد ذلك قال: (وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «أَلَا هَلْ أُنَبِّئُكُمْ مَا العَضْهُ؟ هِيَ النَّمِيمَةُ -القَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ-» رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

هذا هو **القِسم الثاني** من السِّحْر؛ وهو محرَّمٌ.

ساق المصنِّف رحمه الله هذا الحديث؛ لبيان نوعٍ يؤثر في الآخرين بالضرر كتأثير السِّحْر، أو أسرع، أو أشد؛ وهي النميمة؛ فهي نوعٌ من أنواع السِّحْر في التأثير، وليس في الحُكم؛ لأن السِّحْر شركٌ، وأمَّا النميمة فهي من كبائر الذنوب.

قال: (أَلَا هَلْ أُنَبِّئُكُمْ مَا العَضْهُ؟) أصْل العَضْه: هو الكذب والافتراء، والبهتان، والسِّحْر، ثُمّ فسر النبيُّ صلى الله عليه وسلم هذا العضْه.

وكأنَّ المصنِّف رحمه الله أخذ العَضْه هنا بمعنى السِّحْر؛ يعني: هل أنبئكم بالسِّحْر الخطر عليكم؟ فقال: (هِيَ النَّمِيمَةُ) وهي نقْل الكلام على

سبيل الإفساد[١] مِثل: أن يأتي شخصٌ لآخر، ويقول له: إنَّ فلاناً قال فيك كذا وكذا؛ ليُفسد ما بينهما من المودَّة.

(هِيَ النَّمِيمَةُ - القَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ-) أي: القول الذي يُنقَل بين الناس.

والنميمة سحرٌ؛ قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]؛ أي: الذي ينمُّ ويَلمز ويَهمز، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم يقول: «لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ قَتَّاتٌ»[٢]؛ أيْ: نمَّام؛ قال يحيى بن كثير[٣]: «يُفسد النّمام في ساعةٍ، ما يفسده الساحر في سنَةٍ»[٤]؛ وهذا واقعٌ؛ فكم فرَّقت النميمة بين

---

(١) لسان العرب لابن منظور (١٢/ ٥٩٢).

(٢) رواه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب ما يُكره من النميمة، رقم (٦٥٠٦)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب بيان غلط تحريم النميمة، رقم (١٠٥)، من حديث حذيفة رضي الله عنه.

(٣) هو: أبو نصر يحيى بن صالح بن أبي كثير الطائي مولاهم، اليمامي، توفي سنة (١٢٩هـ). سير أعلام النبلاء للذهبي (٦/ ٢٧).

(٤) تيسير العزيز الحميد للشيخ سليمان بن عبد الوهاب (١/ ٣٤٤).

أحبابٍ، وكم فرَّقت بين زوجين؛ بل كم أَشعلت من فتنٍ، وأضرمت من حروبٍ.

لذلك يجب على الإنسان أنْ يَحفظ لسانه، فاحفظْ لسانك، ولا تَتكلم إلا بحقٍّ، والباطل لا تتكلَّم فيه، ولا تَسمع أيَّ كلامٍ لا يَنفعك، ومَن تحدَّث عندك بباطلٍ أو بمحرَّمٍ؛ فامنعه عن الكلام، أو قم من ذلك المجلس؛ لئلَّا تقع في الإثم، وتدنِّس سمعك بما حرَّمه اللَّه.

ولا شك أنَّ النميمة أعظم من الغيبة؛ لأنَّ التفريق يزيد فيها، والحديث الذي في البخاري[1]: عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: مَرَّ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم بِقَبْرَيْنِ، فَقَالَ: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ؛ أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنَ البَوْلِ، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ»، ثُمَّ أَخَذَ جَرِيدَةً رَطْبَةً، فَشَقَّهَا نِصْفَيْنِ، فَغَرَزَ فِي كُلِّ قَبْرٍ وَاحِدَةً، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لِمَ فَعَلْتَ هَذَا؟ قَالَ: «لَعَلَّهُ يُخَفِّفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسَا».

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الوضوء، باب ما جاء في غسْل البول، رقم (٢١٨)، ومسلمٌ، كتاب الطهارة، باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه، رقم (٢٩٢).

فعلى الإنسان أنْ يَحذر من هذا الذنْب ولا يَتساهل فيه، والذي عدَّه المصنِّف من أنواع السِّحْر.

وليحذر المسْلِم مِن نقْل أيِّ كلامٍ يَسمعه؛ فإنَّه نوعٌ من الكذب؛ لذا قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «كَفَى بِالمَرْءِ كَذِباً أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ»(١)، فكُلّ كلامٍ يَسمعه، يُحدِّث به؛ فهو نوعٌ من أنواع الكذب.

والمرء لا يَتكلم إلا بما يَنفعه، والذي لا يَنفعه لا يَتكلم به؛ قال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

وقال النوويُّ رحمه الله: «الكلام ينقسم إلى أقسامٍ، فإن كان في حقٍّ تتكلم به، وإن كان في باطلٍ لا تتكلم به، وإن كان مباحاً، فالأفضل السكوت عنه، لأنه يجرّ إلى أمرٍ مكروهٍ، أو أمرٍ محرّم»(٢).

ثم قال: (**وَلَهُمَا: عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ:** «**إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْراً**»).

---

(١) رواه مسلمٌ في مقدِّمته، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) شرح النووي على مسلم (١٠/ ٥٨)، (١٨/ ١١٧).

النوع الثالث من أنواع السِّحْر: البيان؛ يعني: حُسن المنطق والبيان، فهو يَأخذ بالألباب، ويَأخذ بالقلوب.

وساق المصنِّف رحمه الله هذا الحديث؛ لبيان نوعٍ من أنواع التأثير، وتأثيره كتأثير السِّحْر في تغيير الرأي ونحو ذلك.

وقوله: (إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْراً) الكلام ينقسم الى قِسمين:

القِسم الأوَّل: بيانٌ في الحق ويؤَثِّر في الناس بالهداية، والاستقامة؛ فهذا محمودٌ، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم أوتي جوامع الكلم وأوتي بياناً؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم عن نفْسه: «أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ»[1]، فهو من البيان العظيم؛ لذلك فَهِم الصحابة عنه كلَّ ما تَكلم به.

والقرآن العظيم بيانٌ؛ قال تعالى: ﴿فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، فهو بيِّنٌ، واضحٌ، وهو من أعظم البيان المحمود في البلاغة والفصاحة والاختصار، وفي جزالته، وقوته.

وسادات الخلْق في هذا الأمر المحمود هم الأنبياء عليهم السلام.

---

(١) رواه مسلمٌ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم (٥٢٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والقِسم الثاني: البيان في نصرة الباطل، ومحاربة الحق؛ إمَّا بمنع حقٍّ، أو إخماده، أو أخْذ حقٍّ بالباطل مِن حقوق الآخرين، أو عدم إقامة شعيرةٍ، أو التهوين من الصالحين ونحو ذلك.

فإذا كان ببلاغةٍ وفصاحةٍ، فنقول: هذا نوعٌ من أنواع السِّحْر المحرَّم.

فتبيَّن مما سبق: أنَّ للسحر أنواعاً عديدةً ذَكر المصنِّف رحمه الله منها ثلاثة أقسامٍ، والقِسم الأوَّل ذَكر له أيضاً ثلاثة أقسامٍ، وأنّ النميمة سحرٌ، وأنّ من البيان سحراً، وينقسم قِسمين كما سَبق ذلك.



[٢٦]

بَابُ

مَا جَاءَ فِي الكُهَّانِ وَنَحْوِهِمْ

رَوَى مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»: عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ أَتَى عَرَّافاً فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ، فَصَدَّقَهُ؛ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْماً».

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «مَنْ أَتَى كَاهِناً فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ؛ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.

وَلِلْأَرْبَعَةِ وَالحَاكِمِ - وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِهِمَا -: عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: «مَنْ أَتَى عَرَّافاً أَوْ كَاهِناً فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ؛ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

وَلِأَبِي يَعْلَى - بِسَنَدٍ جَيِّدٍ - عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه مِثْلُهُ: مَوْقُوفاً.

وَعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رضي الله عنه مَرْفُوعاً: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تُطُيِّرَ لَهُ، أَوْ تَكَهَّنَ أَوْ تُكُهِّنَ لَهُ، أَوْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ، وَمَنْ أَتَى كَاهِناً

فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ؛ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» رَوَاهُ الْبَزَّارُ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ.

وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عِبَّاسٍ رضي الله عنهما: دُوْنَ قَوْلِهِ: «وَمَنْ أَتَى ...» إِلَى آخِرِهِ.

قَالَ الْبَغَوِيُّ: «الْعَرَّافُ: الَّذِي يَدَّعِي مَعْرِفَةَ الأُمُورِ بِمُقَدِّمَاتٍ يَسْتَدِلُّ بِهَا عَلَى الْمَسْرُوقِ، وَمَكَانِ الضَّالَّةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ».

وَقِيلَ: هُوَ الْكَاهِنُ.

وَالْكَاهِنُ: هُوَ الَّذِي يُخْبِرُ عَنِ الْمُغَيَّبَاتِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ.

وَقِيلَ: هُوَ الَّذِي يُخْبِرُ عَمَّا فِي الضَّمِيرِ.

وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ: «الْعَرَّافُ: اسْمٌ لِلْكَاهِنِ، وَالْمُنَجِّمِ، وَالرَّمَّالِ، وَنَحْوِهِمْ، مِمَّنْ يَتَكَلَّمُ فِي مَعْرِفَةِ الأُمُورِ بِهَذِهِ الطُّرُقِ».

وَقَالَ ابْنُ عِبَّاسٍ فِي قَوْمٍ يَكْتُبُونَ «أَبَا جَادٍ»، وَيَنْظُرُونَ فِي النُّجُومِ: «مَا أَرَى مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ خَلَاقٍ».

الشرح:

لا زال المصنِّف رحمه الله يَذكر السَّحَرة، ومن جرى مجراهم، في أربعة أبوابٍ، وهذا هو الباب الثالث.

قال رحمه الله: (بَابُ مَا جَاءَ) من الوعيد (فِي) التحذير مِن (الكُهَّانِ) أو عمل الكهَّان أو مَن أتى إليهم (وَنَحْوِهِمْ) أي: ونحو الكهان.

هذا الباب في الإتيان إلى الكهَّان والعرَّافين، والباب السابق في إتيان السَّحَرة؛ فمن أتى ساحراً وطَلب منه أن يَفعل شيئاً؛ فهو مثْله، أمَّا الإتيان إلى الكهان ونحوهم، ذَكر فيه هذا الوعيد الشديد.

وينقسم الإتيان إليهم إلى أربعة أقسامٍ:

القِسم الأوَّل: أنْ يأتيهم ويَسألهم، ويُصدِّقهم.

فهذا كُفرٌ؛ كما في حديث أبي داود[1] الآتي: (**مَنْ أَتَى كَاهِناً فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ؛ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم**).

القِسم الثاني: أنْ يأتي الشخص إليهم، ولا يُصدِّقهم؛ وإنَّما يسألهم ليَنظر، ويشكِّك في أمرهم في نفسه، هل ما قالوه صحيحٌ أم لا؟

وهذا لا تُقبل صلاته أربعين يوماً – والعياذ باللَّه –.

---

(١) كتاب الطب، باب في الكاهن، رقم (٣٩٠٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

القِسم الثالث: أنْ يأتي إليهم للفُرجة فقط، ويَنظر ماذا يَفعلون، فلا يَسألهم، ولا يُصدِّقهم؛ بل يَعلم كذبهم، كأن ينظر إلى الطائر يَدخل من مكانٍ ويُخرجه من مكانٍ آخر، وكأن يدخل في النار ولا يصيبه شيء.

فحُكمه: التحريم؛ لحديثٍ عن معاوية بن الحكم السُّلَمي(١) أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ، وَقَدْ جَاءَ اللَّهُ بِالإِسْلَامِ، وَإِنَّ مِنَّا رِجَالاً يَأْتُونَ الكُهَّانَ، قَالَ: «فَلَا تَأْتِهِمْ» (٢).

ويَدخل فيه النظر في القنوات التي تُظهِر ذلك الأمر - وهو الكهانة أو العرافة - فلا يجوز النظر إليهم، لا في القنوات، ولا بالاستماع إليهم في المذياع؛ لأنَّه حرامٌ.

القِسم الرابع: أنْ يأتي الشخص إليهم مُنكِراً عليهم، كأهل الحِسبة.

فهذا مشروعٌ في حق مَن يأتي إليهم، ويمنعهم من ذلك الفعل.

---

(١) هو: معاوية بن الحكم بن مالك بن خالد بن صخر بن الشريد، كان ينزل المدينة، ويسكن في بني سليمٍ. الثقات لابن حبان (٣/ ٣٤٧)، الاستيعاب لابن عبد البر (٣/ ١٤١٤).

(٢) رواه مسلمٌ، كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان، رقم (٥٣٧).

والأصناف التي تستعين بغير اللَّه في هذا الباب أقسامٌ:

القِسم الأوَّل: السَّحَرة، وهم الذين يستعينون بالجنِّ للإضرار بالآخرين، بمرضٍ أو نحو ذلك.

والقِسم الثاني: الكهَّان، وهم الذين يدَّعون معرفة ما يَحدث في الزمن المستقبل، مِثل: بعد يومين سيموت فلانٌ - مثلاً -.

والقِسم الثالث: العرَّاف، وهو الذي يدَّعي معرفة مكان الغائب، مِثل أن يقول: سيارة فلانٍ المسروقة الآن في مكة.

والفرْق بينه وبين الكاهن:

أنَّ الكاهن يَدَّعي في الزمن، أمَّا العرَّاف فهو يَدَّعي في المكان.

والجامع بينهما: أنَّ كلّاً منهما يدَّعي معرفة ما هو غائبٌ سواء في الزمن، أو غائبٌ عن بصرك في المكان.

والقِسم الرابع: وهو المشعوِذ أو الدَّجَّال، وهو الذي يَدَّعي أنَّه يَعرف السِّحْر، أو الكهانة، أو العرافة وهو لا يَعرفها؛ وإنما قصْده جمْع المال، أو الجاه.

وحُكم السَّاحر، والكاهن، والعرَّاف سواءٌ وهو الكفر باللَّه كما سيأتي بإذن اللَّه.

وأمَّا الدجَّال والمشعوِذ فحُكمه أنَّه فعَل كبيرةً من كبائر الذنوب، وهي أخْذ أموال الناس بالباطل والكذب.

وأمَّا الرَّمَّال: فهو الذي يَكتب في الرمْل، والذي يَكتب بحروفٍ مقطَّعةٍ في ورقٍ ونحو ذلك، والمُنَجِّم: وهو الذي يَنظر في النجوم، فهذه وسيلةٌ إلى العرافة، أو الكهانة، أو السِّحْر؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ من الساحر، أو الكاهن، أو العرَّاف له طريقةٌ في جلْب الشياطين إليه - والعياذ باللَّه -.

ومنهم مَن يضع بيضاً، أو أدخنةً في مكانٍ مظلمٍ، وتمْتَمَاتٍ ونحو ذلك، فلهم طرقٌ عديدةٌ.

إذاً ممَّا سَبق تفصيله: يتبين لنا أنَّ السَّحَرة ومَن جرى مجراهم ثلاثة: السَّحَرة، والكهَّان، والعرَّافون، ويأتي شخصٌ آخر ليس منهم، وهو المشعوذ؛ فهو يدَّعي، لكنَّه لا يَعرف هذه الأمور.

والمصنِّف رحمه الله ساق في هذا الباب خمسة نصوصٍ:

النَّصُّ الأوَّل - (**«مَنْ أَتَى عَرَّافاً فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ...»**) -؛ لبيان أنَّ من سأل عرَّافاً من غير تصديقٍ له لم تُقبل له صلاةٌ أربعين يوماً.

والنَّصُّ الثاني - (**«مَنْ أَتَى كَاهِناً فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ؛ فَقَدْ كَفَرَ...»**) -.

والنَّصُّ الثالث - (**«مَنْ أَتَى عَرَّافاً أَوْ كَاهِناً فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ؛ فَقَدْ كَفَرَ...»**) -؛ لبيان أنَّ من أتى عرَّافاً أو كاهناً فسأله، وصدَّقه فقد كَفر؛ يعني سواء أتى إلى الكاهن، أو العرَّاف، فحُكمهما سواء.

والنَّصُّ الرابع - (**«لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تُطُيِّرَ لَهُ، أَوْ تَكَهَّنَ أَوْ تُكُهِّنَ لَهُ، أَوْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ...»**) -؛ لبيان الوعيد الشديد لمن ذهب إلى السحرة والكهان؛ فهو متوعَّد بأنه ليس من أتباع النبي صلى الله عليه وسلم.

والنَّصُّ الخامس - **قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ: (فِي قَوْمٍ يَكْتُبُونَ أَبَا جَادٍ... قال: «مَا أَرَى مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ خَلَاقٍ»)** -؛ أي: أن التنجيم، ومنه الكتابة في الكفِّ، أو كتابة الحروف المقطَّعة في الورق ونحوه إذا كان يستعين بها على جلب الشياطين؛ فهو كُفرٌ باللَّه.

لذلك قال: (**رَوَى مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»: عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم**)، وهي حفصة بنت عمر رضي الله عنهما، (**عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ أَتَى عَرَّافاً**)، وهو الذي يدَّعي معرفة مكان الضالَّة، أو المسروق.

يأتي إليه، أو يُرسل له، أو يهاتفه، أو عن طريق القنوات ونحو ذلك.

(فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ)؛ ليَستظهر ماذا عنده من باب الفُرجة - والعياذ بالله -، والمصنِّف أضاف لفظة (فَصَدَّقَهُ)، ولكنها ليست في صحيح مسلمٍ، ولعلَّه وهْمٌ منه رحمه الله بسبقة قلمٍ؛ وإنما اللفظ عند مسلمٍ: «مَنْ أَتَى عَرَّافاً فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً»[1]، فسياقه لهذا الحديث؛ ليبيِّن أنَّ مَن أتى وسأله من غير تصديقٍ، فما هو الحُكم؟

فالحُكم: (لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْماً) أي: لم يُقبل منه ثواب صلاةٍ أربعين يوماً، وهذا ليس معناه أنْ يَترك الصلاة؛ وإنَّما هو وعيدٌ وتهديدٌ له.

ولو فَسَّرنا المعنى - فالأصل أنّ أحاديث الوعيد تُجرَى على ظاهرها -، لكن إذا فُسِّرت؛ فمعناها: لا يُرفع له ثواب صلاةٍ أربعين يوماً - والعياذ بالله -، ولا يَسقط عنه الواجب.

فلو قال لك شخصٌ: أنا أتيت إلى كاهنٍ، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم أخبر أنّ مَن أتى كاهناً لم تُقبل منه صلاةٌ أربعين يوماً؛ فأنا أترك الصلاة.

---

(١) رواه مسلمٌ، كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان، رقم (٢٢٣٠).

تقول: لا، ليس المعنى سقوط الواجب عنك؛ وإنما لا تُثاب على صلواتك؛ لجرْم الفعْل الذي ارتكبته، حتى وإنْ لم تُصدِّقهم.

فهذا هو الحُكم الأوَّل: إتيان الكاهن، وعدم تصديقه.

وأمَّا إذا صدَّقه؛ فساق المصنِّف رحمه الله حديث أبي هريرة فقال:

(وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: مَنْ أَتَى كَاهِناً فَصَدَّقَهُ) في الحديث الأوَّل: عرَّافٌ، وهنا: كاهنٌ.

يعني: لو شخص - مثلاً - ضاع منه ابنه؛ فذهب إلى عرَّافٍ وقال: أين ابني؟ فقال: في الحيِّ الفلانيِّ، فإذا صدَّقه فحُكمه: (كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم).

قال المصنِّف رحمه الله: «ولا يَجتمع تصديق عرَّافٍ مع إيمانٍ بالقرآن»[1]؛ أي: أنَّه قد كَفر بالقرآن، فقوله: (فَقَدْ كَفَرَ): هنا تصريح الحُكم بالكُفر - والعياذ بالله -.

(رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ) بإسناد جيد.

(١) كتاب التوحيد (ص ٣٠١).

ثُم ساق المصنِّف الحديث الثالث؛ لبيان أنَّ العرَّاف، والكاهن إذا صُدِّقوا؛ فالحُكم: أنه يَكفر بما نُزِّل على محمدٍ، فقال: (وَلِلْأَرْبَعَةِ وَالحَاكِمِ - وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِهِمَا -: عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: «مَنْ أَتَى عَرَّافاً أَوْ كَاهِناً فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ؛ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم») في هذا الحديث جَمع بين العرَّاف والكاهن، فسواء سأل الكاهن أو العرَّاف؛ فالحُكم واحدٌ.

فالكُفر ليس حاصلاً بالإتيان إلى الكهَّان وتصديقهم فحسْب؛ بل الكُفر يَسرِي حتى لمن أتى العرَّافين، وصدَّقَهم.

فإنْ قال شخصٌ: لماذا جَعلتَ الكاهن والعراف سواءً؟

نقول: لهذا الحديث.

قال: (وَلِأَبِي يَعْلَى - بِسَنَدٍ جَيِّدٍ - عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه مِثْلُهُ: مَوْقُوفاً)، فحَكم ابن مسعودٍ رضي الله عنه - أيضاً - بأنَّ مَن أتى كاهناً أو عرَّافاً فصدَّقهما؛ فقد كَفر - والعياذ باللَّه -.

فإذا كان مَن يأتي إليهم ويصدِّقهم يَكفر؛ فما ظنك بالساحر نفْسه، وما ظنَّك بالكاهن نفْسه، والعرَّاف نفْسه، فذنْبه أعظم؛ لاستغاثته بغير

الله، ولتضليله للآخرين، ولادعائه شيئاً من الربوبية؛ وهو ادعاؤه عِلم الغيب.

ثُم بعد ذلك ساق قول النبيِّ صلى الله عليه وسلم: (**لَيْسَ مِنَّا**...)، ثُم ذَكر آثاراً؛ لتقوية الحديث.

قال: (**وَعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رضي الله عنه مَرْفُوعاً: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ**) الذي يَفعل التطير، والتطير: هو التشاؤم - سواء بالأصوات، أو بالحيوانات، أو بالأمكنة ونحو ذلك -.

كأن يوجد شخصٌ في بعض القبائل، يقول: أنا أخبرك بفأْلِك المستقبل، عن طريق الطيور، فإذا مرّ غرابٌ أسود؛ قال: سيموت لك قريبٌ، وإذا مرّ طائر؛ قال: سيحدث لك حظٌ سعيدٌ وغير ذلك من الكذب والشعوذة، فعَقد المصنِّف باباً مستقلاً في ذلك وهو: (**بَابُ مَا جَاءَ فِي التَطَيُّرِ**).

(**أَوْ تُطُيِّرَ لَهُ**) أي: مَن أتى إلى مَن يُخبره هل يسافر أم لا مثلاً؟، أو هل أضع زواجي يوم الأربعاء أم لا؟، فيقول: هذا يومٌ مشؤومٌ، أو يومٌ سعيدٌ ونحو ذلك.

ومِثل: مَن أتى إلى شخصٍ يَقرأ بالكفِّ، ويقول: ستتزوج ثم تفارق زوجتك، أو سيأتيك خبرٌ مفزعٌ.

كلُّ هذا من أنواع الطيرة - والعياذ باللَّه -، وهي هنا نوعٌ من أنواع الكهانة.

ويَدخل فيها أيضاً أبراج الحظِّ ونحو ذلك.

فلو قال شخصٌ: أنا وُلدتُ في برج كذا، فما هو حظي في هذه السنة؟

فيُقال: حظك كذا وكذا، فالسائل تُطُيِّر له.

والذي يُخبِر بالمغيَّب في التطيُّر إن ادّعى شيئاً من عِلم الغيب؛ فهو تكهُّنٌ.

وكذا في أبراج الحظ، إنِ اتَّصل شخصٌ بالكهَّان، وقال: أنا وُلدت في شهر كذا الميلادي، ماذا سيحدث لي في هذا العام؟

فحُكم ذلك: كفرٌ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم**).

قال: (**أَوْ تَكَهَّنَ أَوْ تُكُهِّنَ لَهُ**) (**تَكَهَّنَ**) يعني: يقول للناس: بعد أسبوع سيأتيك مالٌ، (**أَوْ تُكُهِّنَ لَهُ**) كأن يأتي رجُلٌ إلى هذا الكاهن، فالذي

يأتي إليه متوعَّدٌ بأنَّه ليس من أتباع النبي صلى الله عليه وسلم، فلا يجوز، لا الإتيان إليهم، ولا سؤالهم.

(أَوْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ) كذلك تهديدٌ ووعيدٌ للساحر ولِمن يأتي للساحر وقال: اسْحر لي فلاناً بأنْ لا يتزوَّج - والعياذ باللَّه -.

فنقول: الساحر يَكفر، والآتي إلى الساحر يَكفر؛ قال تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾، وقال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وقال صلى الله عليه وسلم: (وَمَنْ أَتَى كَاهِناً فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ؛ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم) فهذا هو الحُكم.

وعند الطبرانيِّ: («لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تُطُيِّرَ لَهُ، أَوْ تَكَهَّنَ أَوْ تُكُهِّنَ لَهُ، أَوْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ»).

وهذا يدلّك على عظيم خطر السَّحَرة، والكهَّان، والعرَّافين، ويجب على الشخص أنْ يحذر من التطلُّع إليهم، أو سؤالهم، أو قراءة ما يُكتَب في الحظ، من أبراج الصحف ونحو ذلك.

ويجب على المسْلِم أيضاً أنْ يُحَذِّر غيره، خاصةً النساء؛ لقلَّة عقولهنَّ، ونقْص دينهنَّ - في بعضهن -.

ويجب على المسْلِم أنْ ينبِّه غيره من خطر السِّحْر، والكهانة والعرافة، ففيها شركٌ باللَّه عز وجل.

وفيها عدم إيمانٍ بالقضاء والقدر.

وفيها فعْل شيءٍ ممَّا هو من مقتضيات الربوبية في عِلم الغيب؛ قال تعالى: ﴿عَالِمُ الغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً﴾ [الجن: ٢٦]، وقال: ﴿عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الأنعام: ٧٣]، والكاهن ومَن أتى إليه، يشارك ربَّه في عِلم الغيب.

وهذا يدلُّك أيضاً على أنَّ الإسلام يَسعى إلى المحافظة على المجتمع، بأن لا يقع فيه أيُّ ضررٍ، لا بسحرٍ، ولا بكهانةٍ، ولا بغيرها، من الأمور التي تُسبب تفكيك المجتمع، وتخويف بعضهم مِن بعضٍ، وتُضعِف التوكل على اللَّه؛ لأنَّه لو قال شخصٌ لآخر: سوف أسحرك، يَبدأ الشخص يَخاف من مخلوقٍ ولا يخاف من اللَّه عز وجل.

ثُم ساق المصنِّف بعد ذلك تعريف البغوي، وشيخ الإسلام للعرَّاف، لكنَّا قد ذكَرنا[١] خلاصة الفرْق بين العرَّاف، والكاهن،

---

(١) (ص) عند قوله (والأصناف التي تتعلق بغير الله في هذا الباب أقسامٌ).

والساحر، وقد أدخل شيخ الإسلام رحمه الله الرمَّال فيهم، لكن الرمَّال هو الذي يَعمل في الرمْل؛ يعني: يَخط في الرمْل؛ ليتوصل إلى السِّحْر، أو الكهانة، وليس صنْفاً من الأصناف المستعينين بغير الله في ذلك.

ثُم ذَكر بعد ذلك أثر ابن عباسٍ (فِي قَوْمٍ يَكْتُبُونَ «أَبَا جَادٍ») يعني: الحروف المقطعة يستعينون بها على جلْب الشياطين؛ قال: (مَا أَرَى مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ خَلَاقٍ) يعني: أنَّهم يَفعلون كُفراً فتُحَبط أعمالهم – والعياذ باللَّه –.



[٢٧]

بَابُ
مَا جَاءَ فِي النُّشْرَةِ

عَنْ جَابِرٍ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم سُئِلَ عَنِ النُّشْرَةِ؟ فَقَالَ: «هِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ» رَوَاهُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ، وَأَبُو دَاوُدَ، وَقَالَ: «سُئِلَ أَحْمَدُ عَنْهَا فَقَالَ: ابْنُ مَسْعُودٍ يَكْرَهُ هَذَا كُلَّهُ».

وَفِي «الْبُخَارِيِّ» عَنْ قَتَادَةَ: «قُلْتُ لِابْنِ الْمُسَيَّبِ: رَجُلٌ بِهِ طِبٌّ، أَوْ يُؤَخَّذُ عَنِ امْرَأَتِهِ؛ أَيُحَلُّ عَنْهُ أَوْ يَنَشَّرُ؟ قَالَ: لَا بَأْسَ بِهِ؛ إِنَّمَا يُرِيدُونَ بِهِ الْإِصْلَاحَ، فَأَمَّا مَا يَنْفَعُ فَلَمْ يُنْهَ عَنْهُ» انْتَهَى.

وَرُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ: «لَا يَحُلُّ السِّحْرَ إِلَّا سَاحِرٌ».

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ: «النُّشْرَةُ: حَلُّ السِّحْرِ عَنِ الْمَسْحُورِ، وَهِيَ نَوْعَانِ:

حَلٌّ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ، وَهُوَ الَّذِي مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ، وَعَلَيْهِ يُحْمَلُ قَوْلُ الْحَسَنِ - فَيَتَقَرَّبُ النَّاشِرُ وَالْمُنْتَشِرُ إِلَى الشَّيْطَانِ بِمَا يُحِبُّ، فَيُبْطِلُ عَمَلَهُ عَنِ الْمَسْحُورِ -.

وَالثَّانِي: النُّشْرَةُ بِالرُّقْيَةِ، وَالتَّعَوُّذَاتِ، وَالدَّعَوَاتِ، وَالْأَدْوِيَةِ الْمُبَاحَةِ؛ فَهَذَا جَائِزٌ».

الشرح:

قال رحمه الله: (**بَابُ مَا جَاءَ فِي النُّشْرَةِ**) أي: باب حُكم حلِّ السِّحْر، والنُّشرة نوعٌ من أنواع حلِّ السِّحْر.

النشرة وتعني: الحَلَّ، فعندنا عُقدةٌ، وضد العَقدْ: الحَلُّ.

والمراد بباب النشرة؛ أي: باب حلّ السِّحْر؛ يعني: كيف يُحلُّ السِّحْر عن المسحور؟

والمصنِّف رحمه الله ذَكر شيئاً من أنواع حلِّ السِّحْر ويريد به الكل؛ يعني: كيف يُحل السِّحْر، وليس المقصود حُكم طريقة النشرة.

وساق رحمه الله في هذا الباب ثلاثة نصوصٍ عليها مدار قيام الباب:

النَّصُّ الأوَّل - «**هِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ**» -: أن النُّشْرَة محرَّمةٌ؛ لأنَّها من عمل الشيطان.

والنص الثاني: أن النُّشْرَة مشروعةٌ.

والنص الثالث - قول ابْنِ القَيِّم -؛ لبيان التفصيل في ذلك.

فقال: (**بَابُ مَا جَاءَ فِي النُّشْرَةِ**)، وهي قِسمان:

القِسم الأوَّل: شركيٌّ، قد يَنفع، وقد لا يَنفع، وهو بالذهاب إلى السَّحَرة والكهَّان؛ إمَّا يصنعون له سحْراً يُبطل السِّحْر الذي عُمِل له، أو يُحضر السِّحْر؛ فيُبطلوه.

ولتعلم أنّ السِّحْر هذا إدخال أحد الجانِّ في المسحور، فإذا ذَهب أحد المسحورين إلى السَّحَرة، مِثل: شخصٌ يَكره زوجته بسبب السحر، ذَهب للساحر، وقال: أنا أَكره زوجتي، فيصنع الساحر له سحْراً آخر؛ ليحب زوجته، فيصبح في ذلك الإنسان شيطانان اثنان، واحدٌ من أجْل أنْ يَكره زوجته، والآخر ليحبَّ زوجته، فأيهما يَغلب؟

نقول: يَغلب الأقوى، فإذا كان الذي يُبغض زوجته؛ فيُبغض زوجته أكثر، وإن كان الذي يُحبُّ زوجته؛ فيُحبُّ زوجته أكثر، وإن كان كلاهما؛ فيُحبُّ زوجته ويَكرهها أيضاً.

فيدلُّ على أنّ الذي يَذهب إلى السَّحَرة؛ يَجلب سحراً آخر لنفْسه، ويَطلب من الساحر إدخال الجنِّ في نفْسه، هذا غير ما يَترتب عليه من الإتيان إلى الساحر، وغير ما يَترتب على ما يَطلبه الساحر من المريض؛ من ذبحٍ لغير اللَّه، أو إهانةٍ لكلام اللَّه وغير ذلك من الأمور الشركيَّة؛ كما قال ابن القيم: (**فَيَتَقَرَّبُ النَّاشِرُ وَالمُنْتَشِرُ إِلَى الشَّيْطَانِ بِمَا يُحِبُّ**).

فهذا **القسم الأوَّل**، وهو الذهاب إلى السَّحَرة والكُهَّان، فهذا لا يجوز لا لحلِّ السِّحْر، ولا لصنْع السِّحْر، ولا لسؤالهم عن المغيَّبات، ولا نحو ذلك، فهي فئةٌ مفسدةٌ نهى الإسلام عن القُرب منهم.

القِسم الثاني: حلُّ السِّحْر بالشيء المشروع، بالقرآن والأدعية المباحة.

مِثل: وضْع الملح في البيت، يُبطل السِّحْر إذا كان خفيفاً، ومِثل: اغتسال المريض بالسدر، إذا كان لا يستطيع إتيان امرأته، إذا كان السِّحْر خفيفاً، وهكذا بأشياءٍ مباحةٍ لم يأتِ الشرع بالنهي عنها.

وأنْفع ما يُبطل السِّحْر هو إبطال عين السِّحْر، فإن كان السِّحْر عُقَداً ونحو ذلك، فيؤتى بها، ويقرأ عليها القرآن، وتُحَلُّ، فهذا أنفع ما يكون.

وكذلك لو عُثِر على السِّحْر، سواء في بابٍ، أو كان مرشوشاً، أو كان في الأرض مدفوناً، أو في قبرٍ ونحوه، مِثل ما عُثِر على سحر النبي صلى الله عليه وسلم في البئر، فأُخرِج؛ وحُلَّ، وشُفِيَ النبي صلى الله عليه وسلم(١).

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الأدَب، باب قول اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ، وَإِيتَاءِ ذِي القُرْبَى، وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ وَالبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، رقم (٦٠٦٣).

وكيف نَعرف مكان السِّحْر؟ يَتَأَتَّى بأمرين اثنين:

الأمر الأوَّل: مع قراءة القرآن، قد يَنطق هذا الجِنّي، فيقول أين مكان السِّحْر، في المكان الفلاني، فإذا صَدق، وَوُجد السِّحْر، وحُلَّ؛ فهذا أمرٌ مباحٌ.

الأمر الثاني: قد يُلهِم اللَّه عز وجل هذا المريض برؤيةٍ يراها في المنام، بأنّ السِّحْر في المكان الفلاني، فيَذهب، ويَرى السِّحْر، فيُبطل ذلك السِّحْر.

وضعاف النفوس قد لا يَذهبون إلى الرقاة من أهل الصلاح، أو قد يَذهبون ولا يَنتفعون، فيُسوِّل لهم الشيطان الذهاب إلى السَّحَرة والكهان؛ وهذا أمرٌ خطيرٌ، ولا يجوز، وإذا طَلبوا منه الذبح ونحوه، فهو شركٌ.

فالنشرة قِسمان: قِسمٌ محرَّمٌ، وقِسم غير محرَّمٍ.

والقِسم المحرَّم قِسمان: إمَّا ذهاب إلى سحرةٍ، وإمَّا غير سحرةٍ، يستعينون بالجن في إبطال ذلك السِّحْر ونحو ذلك.

وحَلُّ السِّحْر يكون بعدة أنواع بناءً على نوع السِّحْر:

النوع الأوَّل: من كان سحْره مشروباً.

فحلُّه باستفراغ ذلك المشروب.

وكيفية استفراغ ذلك المشروب: يوجد عند العطارين ورقٌ اسمه: «سنا مكة»، فيؤخذ هذا السنا - وهو ورقٌ مِثل ورق العنَب - يوضع في إبريقٍ كالشاهي، ويضاف إليه كوبان من الماء حتى يَغلي، ثُم إذا ذَهبت حرارتهُ يُشربْ على الريق بعد الفجر، لمدة أسبوعٍ، وبإذن اللَّه يزول هذا السِّحْر المشروب، أو المأكول؛ لأن السِّحْر المشروب أو المأكول يوضع في السِّحْر نفْسه مادةٌ صمغيَّةٌ فيَلتصق السِّحْر في المعدة، فهذا السنا بإذن اللَّه يزيله من المعدة، فيُشفى بإذن اللَّه المسحور.

النوع الثاني: إذا كان السِّحْر بالرش في الأرض.

فحلُّه بالرقية؛ يؤخذ كأسُ ماءٍ ويُقرأ فيه القرآن ويُرشُّ على ذلك المكان فيُحل السِّحْر بإذن اللَّه.

النوع الثالث: إذا كان السِّحْر بالورق وفيها الطلاسم والرموز.

فهذه الورقة تؤخذ وتوضع في الماء حتى تَتحلَّل هذه الكتابة، وكثير منها لا يتحلَّل؛ لقوَّة المادة التي فيها، فتؤخذ تلك الورقة وتُحرق وبإذن اللَّه يزول السِّحْر المكتوب.

النوع الرابع: إذا كان السِّحْر بالعُقَد، كما سُحر النبي صلى الله عليه وسلم.

فعلاجه: أنَّه إذا وُجدت تلك العقد؛ تُحلُّ - يعني: تفك الربطة - وينحل السِّحْر بإذن اللَّه.

ومِن أنواع حل السِّحْر المباح ما ذَكره المصنِّف وهو العلاج بالنُّشْرَة، والمراد بالنُّشْرَة: أن يوضع ماءٌ مغليٌّ، ويقوم شخصٌ فوق هذا الماء المغلي، ويوضع على هذا الماء المغلي شيءٌ من الرصاص فيُخرِج بخاراً شديداً، وهذا البخار إذا كان السِّحْر خفيفاً يَطرد الجِنَّ الذي في الإنسان.

لذلك فإن النُّشْرَة هي نوعٌ من أنواع حل السِّحْر، وليس المراد حلُّ السِّحْر، وإنما هي نوعٌ.

وهناك نوعٌ آخر محرَّمٌ وهو حلُّ السِّحْر عن طريق السَّحَرة، وساق المصنِّف رحمه الله عن هذا النوع بقوله: (عَنْ جَابِرٍ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم سُئِلَ عَنِ النُّشْرَةِ؟) أي: حلُّ السِّحْر عن طريق السَّحَرة، التي هي من أعمال الجاهلية يصنعونها، مِثل: تمتمات الاستغاثة بغير اللَّه، فَقَالَ: (هِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ») يعني: لا تجوز، فهذا هو النوع المحرَّم، الذي فيه الاستغاثة بغير اللَّه، أو بالسَّحَرة؛ بل بعض أنواعه أنَّ

الساحر يُلزم المريض بأن يشرك باللَّه كأن يذبح لغير اللَّه شيئاً، كشاةٍ، أو دجاجةٍ وغير ذلك.

قال: (رَوَاهُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ، وَأَبُو دَاوُدَ، وَقَالَ) أي: أبو داود، (سُئِلَ أَحْمَدُ) أيْ: عن النشرة؛ لأنَّ أبا داود تلميذ الإمام أحمد، (فَقَالَ: ابْنُ مَسْعُودٍ يَكْرَهُ هَذَا كُلَّهُ) والمراد بالكراهة هنا: التحريم؛ يعني: يحرُم الذهاب إلى إخوان الشياطين، من السَّحَرة ونحو ذلك، فكلُّ ذهابٍ إلى الساحر سواء لعمل السِّحْر، أو لحلِّ السِّحْر؛ كلُّه محرَّمٌ؛ لأن اللَّه تعالى يقول: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه: ٦٩]، فكلُّ أعمال الساحر في خسران - والعياذ باللَّه -.

وأشار المصنِّف رحمه الله إلى حلِّ السِّحْر المشروع بقوله: (وَفِي «الْبُخَارِيِّ») تعليقاً، (عَنْ قَتَادَةَ) وُلِد وهو أعمى، وكان من أحفظ الناس، («قُلْتُ لِابْنِ الْمُسَيَّبِ: رَجُلٌ بِهِ طِبٌّ) أي: سحرٌ، (أَوْ يُؤَخَّذُ) أي: يُمنع من إتيان زوجته، (عَنِ امْرَأَتِهِ) أي: عن وطئها، أو محبَّتها؛ يعني: ما حُكم فك السِّحْر بالأمر المشروع؟ (أَيُحَلُّ عَنْهُ أَوْ يُنَشَّرُ؟)، فكأنَّ السائل يقول: هل يجوز أنْ نرقيه بالقرآن، وبالأدعية المباحة؟

فقال سعيد بن المسيب: (لَا بَأْسَ بِهِ) فما كان فيه نفعٌ فلا بأس به؛ (إِنَّمَا يُرِيدُونَ بِهِ الإِصْلَاحَ) إذا كان العلاج بالقرآن، وبالأدعية المباحة، لذلك قال: (فَأَمَّا مَا يَنْفَعُ) من العلاج، (فَلَمْ يُنْهَ عَنْهُ) ممَّا جاء به الشرع، من الرقية بالقرآن، والأدعية، مِثل: اللهم اشف فلاناً وأَبطِل سحْره، أو بالأدوية المباحة، مِثل: الحبة السوداء، ومثل: العسل، ومثل: السنا المكي، ومثل: عجوة العالية، وعجوة المدينة؛ فكلُّها بإذن اللَّه تُبطِل السِّحْر.

ثُم ذَكر بعد ذلك أثر الحسن البصري[1]؛ لبيان النشرة المحرَّمة التي في حديث جابر.

قال: (وَرُوِيَ عَنِ الحَسَنِ: لَا يَحُلُّ السِّحْر إِلَّا سَاحِرٌ) يعني: أنّ الذي يحلُّ السِّحْر بغير القرآن؛ فهو ساحرٌ؛ يستعين بالجنِّ والشياطين، فيَصنعُ للمسحور سحراً، لإبطال السِّحْر الذي هو فيه، فيكون في الشخص

(١) هو: أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار البصري، وُلد لسنتين بقيتا من خلافة عمر رضي الله عنه يعني سنة (٢١هـ)، وتوفي سنة (١١٠هـ). سير أعلام النبلاء للذهبي (٤/ ٥٦٣).

الواحد سحران اثنان، فيكون الشخص - والعياذ باللَّه - في ظُلُمات السِّحْر.

وأمَّا كيفية حل السِّحْر المباح فسبق ذلك[١]، ولهذا قال ابن القيم رحمه الله في الجمْع بين تلك النصوص في بيان نوعيْ النشرة؛ قال: **(النُّشْرَةُ: حَلُّ السِّحْرِ عَنِ المَسْحُورِ)** هذا تعريف النشرة، **(وَهِيَ نَوْعَانِ)**:

النوع الأوَّل: وهو النوع المحرَّم **(حَلُّ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ)** ومعنى هذا: أنه إذا كان الرجل مثلاً يَكره زوجته بسبب السِّحْر، فهذا الساحر يَصنع له سحراً آخر؛ ليحبَّ زوجته، فبدلاً من أن يكون الرجل مسحوراً مرةً واحدةً أصبح مسحوراً مرتين، فأي السِّحْرين كان أقوى غَلب، لذلك قال: **(لَا يَحُلُّ السِّحْرَ إِلَّا سَاحِرٌ)**.

قال: **(حَلُّ بِسِحْرٍ مِثْلِه، وَهُوَ الَّذي مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ، وَعَلَيْهِ يُحْمَلُ قَوْلُ الْحَسَنِ)**، فلا يجوز الذهاب للسحرة من أجْل حلِّ السِّحْر؛ لماذا؟

قال: **(فَيَتَقَرَّبُ النَّاشِرُ وَالْمُنْتَشِرُ إِلَى الشَّيْطَانِ)** والعياذ باللَّه، فإذا كان يَتقرب الساحر، والمسحور إلى الشيطان؛ فهذا كُفرٌ.

---

(١) (ص) عند قوله: (وحلُّ السِّحْر يكون بعدة أنواع بناءً على نوع السِّحْر).

(بِمَا يُحِبُّ) بالذبح للشيطان، أو إهانة القرآن ونحو ذلك، فيُبطل السِّحْر بسبب ذلك الشرك، وقد يكون للشيطان جنودٌ آخرون، فيُبطلون ذلك السِّحْر، وهذا - والعياذ باللَّه - شركٌ.

قال: (وَالثَّانِي) أي: **النوع الثاني** من أنواع النشرة: (النُّشْرَةُ بِالرُّقْيَةِ) والمراد بالنشرة بالرقية: يعني قراءة القرآن على المسحور، فهذا نوعٌ مشروعٌ.

ولا يُشترط في قراءة القرآن على المريض أن تُوضع اليد على الرأس، وكذا لا يجوز أنْ يَضع الراقي يده على المرأة، سواء على رأسها، أو على صدرها، أو على يدها ونحو ذلك؛ وإنَّما يَقرأ القرآن فقط، ويَنفث، بدون لمْسٍ للمريض، سواء كان رجُلاً أو امرأةً.

ولا بأس بأخذ الراقي الأُجرة من المريض بما لا يضُرُّ المريض؛ كما في البخاريِّ[1] عن أبي سعيدٍ رضي الله عنه قال: «انْطَلَقَ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فِي سَفْرَةٍ سَافَرُوهَا، حَتَّى نَزَلُوا عَلَى

---

(١) كتاب الإجارة، باب ما يُعطى في الرقية على أحياء العرب بفاتحة الكتاب، رقم (٢٢٧٦).

حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ العَرَبِ، فَاسْتَضَافُوهُمْ فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمْ، فَلُدِغَ سَيِّدُ ذَلِكَ الحَيِّ، فَسَعَوْا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ لَا يَنْفَعُهُ شَيْءٌ.

فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَوْ أَتَيْتُمْ هَؤُلاَءِ الرَّهْطَ الَّذِينَ نَزَلُوا، لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ عِنْدَ بَعْضِهِمْ شَيْءٌ، فَأَتَوْهُمْ.

فَقَالُوا: يَا أَيُّهَا الرَّهْطُ إِنَّ سَيِّدَنَا لُدِغَ، وَسَعَيْنَا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ لَا يَنْفَعُهُ، فَهَلْ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْكُمْ مِنْ شَيْءٍ؟

فَقَالَ بَعْضُهُمْ: نَعَمْ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْقِي، وَلَكِنْ وَاللَّهِ لَقَدِ اسْتَضَفْنَاكُمْ فَلَمْ تُضَيِّفُونَا، فَمَا أَنَا بِرَاقٍ لَكُمْ حَتَّى تَجْعَلُوا لَنَا جُعْلاً.

فَصَالَحُوهُمْ عَلَى قَطِيعٍ مِنَ الغَنَمِ، فَانْطَلَقَ يَتْفِلُ عَلَيْهِ، وَيَقْرَأُ: الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ، فَكَأَنَّمَا نُشِطَ مِنْ عِقَالٍ، فَانْطَلَقَ يَمْشِي وَمَا بِهِ قَلَبَةٌ.

قَالَ: فَأَوْفَوْهُمْ جُعْلَهُمُ الَّذِي صَالَحُوهُمْ عَلَيْهِ.

فَقَالَ بَعْضُهُمْ: اقْسِمُوا.

فَقَالَ الَّذِي رَقَى: لَا تَفْعَلُوا حَتَّى نَأْتِيَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَنَذْكُرَ لَهُ الَّذِي كَانَ، فَنَنْظُرَ مَا يَأْمُرُنَا.

فَقَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرُوا لَهُ.

فَقَالَ: «وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ»، ثُمَّ قَالَ: «قَدْ أَصَبْتُمْ، اقْسِمُوا، وَاضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ سَهْماً» فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم».

والنوع الثاني: قال: (وَالتَّعَوُّذَاتِ، وَالدَّعَوَاتِ) فيدعو الإنسان أنَّ اللَّه يَشفيه.

والنوع الثالث: (وَالأَدْوِيَةِ المُبَاحَةِ) مِثل ما ذكرناه: «سنا مكة» فهو مباحٌ، فيجوز حل السِّحْر بذلك، وكل ما هو جائز من الأسباب في حل السِّحْر فإنه لا بأس بذلك.

وأمَّا هل يجب على المسحور أن يَحلَّ سحْره؟

فنقول: نعم يجب عليه؛ لأنَّه من أنواع المرض، والنبي صلَّى الله عليه وسلَّم قال: «فَتَدَاوُوا، وَلَا تَتَدَاوَوْا بِحَرَامٍ»(١).

***

(١) رواه أبو داود، كتاب الطب، باب في الأدوية المكروهة، رقم (٣٨٧٤)، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

[٢٨]

بَابُ

مَا جَاءَ فِي التَّطَيُّرِ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ الآيَةَ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «لَا عَدْوَى، وَلاَ طِيَرَةَ، وَلاَ هَامَةَ، وَلاَ صَفَرَ» أَخْرَجَاهُ.

زَادَ مُسْلِمٌ: «وَلَا نَوْءَ، وَلَا غُولَ».

وَلَهُمَا: عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «لَا عَدْوَى، وَلاَ طِيَرَةَ، وَيُعْجِبُنِي الفَأْلُ، قَالُوا: وَمَا الفَأْلُ؟ قَالَ: الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ».

وَلِأَبِي دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ: عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه قَالَ: «ذُكِرَتِ الطِّيَرَةُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فَقَالَ: أَحْسَنُهَا الْفَأْلُ، وَلَا تَرُدُّ مُسْلِماً، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ؛ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ لَا يَأْتِي

بِالحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ».

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه مَرْفُوعاً: «الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، وَمَا مِنَّا إِلَّا، وَلَكِنَّ اللَّهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ، وَبَيَّنَ أَنَّ آخِرَهُ مِنْ قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ.

وَلِأَحْمَدَ: مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما: «مَنْ رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ مِنْ حَاجَتِهِ؛ فَقَدْ أَشْرَكَ، قَالُوا: فَمَا كَفَّارَةُ ذَلِكَ؟

قَالَ: أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ، وَلَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ».

وَلَهُ: مِنْ حَدِيثِ الفَضْلِ بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «إِنَّمَا الطِّيَرَةُ مَا أَمْضَاكَ، أَوْ رَدَّكَ».

الشرح:

قال رحمه الله: (بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّطَيُّرِ) التَّطيُّر معناه: التأثُّر بالأحوال الخارجة، وينقسم إلى قِسمين:

القِسم الأوَّل: تطيُّرٌ مذمومٌ، وهو الذي يُعرف بالطيرة والتشاؤم.

والقِسم الثاني: التفاؤل – الفأل –، وكان يُعجِب النبي صلى الله عليه وسلم، ولما سُئل عنه؛ قال: (**الكَلِمَةُ الطَيِّبَةُ**).

التشاؤم وكذا التفاؤل المذموم يكونان بأحد خمسة أنواعٍ:

النوع الأوَّل: بمسموعاتٍ؛ كسماع صوت رجُلٍ يَبكي فيتشاءم أن لا يسافر مثلاً، أو تفاؤل مِثل: سمع رجُلاً يَضحك فيسافر.

النوع الثاني: تشاؤمٌ أو تفاؤلٌ بالمرئيات؛ مِثل: إذا رأى طائراً أسود كالغراب يتشاءم فلا يتزوج – مثلاً – فلانة، أو يَتفاءل إذا رأى حمامةً بيضاء فيتزوج ويَجعلها علامةً على السلام، وعدم الضرر ونحو ذلك.

والنوع الثالث: تشاؤمٌ بالزمان؛ كشهر صفَرٍ، أو يومٍ بعينه.

والنوع الرابع: بالمفعولات، مِثل: يتشاءم بزوجته؛ فيرى أنَّه لمَّا تزوج زوجته خَسر مالاً ونحو ذلك؛ بسبب زوجته، ومثل: التشاؤم ببعض المأكولات، والمشروبات.

والنوع الخامس: تشاؤمٌ بالأمكنة؛ كأن يرى أنَّه لمَّا سَكن هذا البيت مات بسبب هذا البيت – تشاؤماً – ابنه، أو يَتفاءل أنَّه لما سَكنَ هذا البيت دخل في الجامعة وهكذا.

فلا يخرج التطيُّر عن هذه الأنواع الخمسة.

والتشاؤم لا يجوز؛ لأنَّ فيه اعتماداً على غير اللَّه، وتسليم الأمر للشيطان، لذا كان شركاً أصغر؛ لعدم تعلُّق القلب باللَّه.

والتفاؤل من حُسن الظن باللَّه، مِثل: لو تعيَّن مدير مدرسة اسمه (سهل)، فيقول الطلاب مثلاً: بإذن اللَّه أمور المدرسة مُسهَّلة، فهذا من حُسن الظن باللَّه؛ لكن كلا الأمرين - التشاؤم، والتفاؤل - لا يجوز أن يكون أحدهما سبباً للإحجام عن شيءٍ - كالسفر -، أو الإقدام على شيءٍ كالزواج تفاؤلاً - مثلاً -؛ لأنَّه يجب تعليق الأمر بيد اللَّه وحده سبحانه.

(بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّطَيُّرِ) يعني: باب ما جاء في النهي عنه؛ لأنَّه ينافي التوحيد الواجب، فينافي التوكل على اللَّه.

فقد يُقدم شخصٌ على السفر، ويرى رجلاً أو غراباً، فيتشاءم، ويصد عن السفر، أو يُؤجل رجُلٌ زواجه؛ لتشاؤمه بالزمان، فتشاؤمه يُضعف التوكل على اللَّه.

فلا بد أنْ يَتعلق القلب باللَّه؛ قال تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾ [المزمل: ٩]، وقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

والمصنِّف رحمه الله يدعوك في كتاب التوحيد إلى جميع ما يقوِّي التعلق باللَّه، ويَذكر لك النهي عن جميع ما يُضعِف هذا التوكل.

والمصنِّف رحمه الله ذَكر في هذا الباب النوعين، وذَكر فيه ثمانية نصوصٍ:

النَّصُّ الأوَّل - (﴿**أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ**﴾) -؛ لبيان أنَّ النفع والضر بيد اللَّه وحْده.

والنصُّ الثاني - (﴿**قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ**﴾) -؛ أي: أنَّ سبب ما يقع عليكم من شؤمٍ وشرٍ هو بسبب الكُفر والمعاصي.

النَّصُّ الثالث - (**لَا عَدْوَى وَلاَ طِيَرَةَ**) -؛ لبيان قطْع التعلق بالطيرة؛ لأنَّه لا يوجد أصلاً ما يؤثِّر في التطير.

النَّصُّ الرابع - (**وَيُعْجِبُنِي الفَأْلُ**) -؛ لبيان النوع الثاني من الطيرة؛ وهي التفاؤل.

النَّصُّ الخامس - (**اللَّهُمَّ لَا يَأْتِي بِالحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْتَ...**) -: دعاء من وقع منه شيءٌ من ذلك.

النَّصّ السادس - (**الطِّيَرَةُ شِرْكٌ**) -؛ لبيان حُكم الطيرة وأنَّها شركٌ.

النَّصّ السابع: كفَّارة ذلك؛ (**قَالُوا: فَمَا كَفَّارَةُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ...**).

النَّصّ الثامن: التأكيد على أنَّ الطيرة هي ما أمضاك أو ردَّك، أمَّا إذا وقع شيءٌ في النفس من غير ميلٍ له، ولا تأثير؛ فلا يضر، (**أَمْضَاكَ**) يعني أَقدمتَ للسفر - مثلاً -، (**رَدَّكَ**) يعني: أَحجمت عن السفر.

ولهذا قال المصنِّف رحمه الله: (**بَابُ مَا جَاءَ**) أي: من الوعيد.

(**فِي التَّطَيُّرِ**) أصل التطير مأخوذٌ من عادة الجاهلية بشؤمهم بالطير، ولهذا لا يجوز للرجل أن يقول إذا سمع خبراً: (خير يا طير)؛ فكأنَّه يرى أنَّ هذا الخير أتى بسبب وجود ذلك الطير.

قال: (**وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾**) أي: لمَّا تشاءم فرعون ومن معه، اللَّه قال: (**﴿طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾**) يعني: لو وَقع عليكم شؤمٌ، ومصيبةٌ وعقوبةٌ فهو من اللَّه؛ لأنَّ الذي يَملك النفع والضر هو اللَّه وحده، (**﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾**) أنَّ الأمر كلَّه بيد اللَّه، فدلَّ على وجوب قطْع التعلُّق بالتطير.

ذَكر اللَّه عز وجل الآية في قصة موسى عليه السلام؛ فقال: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].

﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ﴾ من الخصب والرخاء والأمطار، ﴿قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾؛ بسبب ما فعلوه من أمورٍ، ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ من قحطٍ ومرضٍ ونحوه؛ ﴿يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾، يطيروا بموسى وأتباعه؛ يعني: بسبب هذا الدين - والعياذ بالله -، **(أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ)** يعني: ما وَقع هو بأمر الله، ليس بموسى عليه السلام.

والمصيبة والقحط وَقعا بسبب ذنوبهم، لأنّ الكافر شؤمٌ؛ كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ [البلد: ١٩].

وبقدر ما يَبعد المرء عن ربِّه، يكون الضرر لمن حوله، والكافر يوقع الشر في المكان الذي هو فيه، والفاسق بقدر ذنوبه وفسْقه، يقع الشؤم على مَن حوله؛ قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠].

وبقدر ما في المرء من خير، يَنتشر الخير؛ كما قال عيسى عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ [مريم: ٣١].

ثُم قال: **(وَقَوْلُهُ: ﴿قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾)** أي: أنَّ الشؤم الذي حَصل لكم بسببكم؛ لأنَّ الكُفر معكم، وقد أَخبر سبحانه أنَّ الكافر إذا حلَّ ببلدٍ حَلَّ فيها الشؤم؛ قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ

أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ [البلد: ١٩]؛ يعني الشؤم؛ لأنَّ أعظم ذنبٍ هو الكُفر باللَّه عز وجل.

وفي قصة نبيِّ اللَّه صالحٍ عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ * قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [النمل: ٤٥-٤٧].

فقال صالحٌ عليه السلام: ارجعوا إلى الله؛ ليَرجع لكم المطر والخير.

فقالوا: ما حلّ بنا هو بسبب رسالتك.

فردَّ عليهم: ﴿طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾

وفي سورة يس قال تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ [يس: ١٨- ١٩]؛ يعني: ادَّعيتم بأنَّ القحط بسبب الذكرى، ولكنَّه بسبب المعاصي، فلمَّا تطيرتم، حَصل لكم نقيض قصْدكم.

والتطير فيه سوء ظنٍّ باللَّه، والفأل فيه حُسن ظنٍّ باللَّه.

ثُم بعد ذلك قال: (**عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: لَا عَدْوَى..**).

ساق المصنِّف رحمه الله هذا الحديث؛ لبيان قطْع دابر التطير، فلا وجود له، لا بنفعٍ ولا بضرٍّ.

فقوله: (**لَا عَدْوَى**) يَحتمل النهي والنَّفي، فالنهي؛ يعني: إياكم أنْ يَعدي بعضكم بعضاً، والنَّفي يعني: لا يوجد عدوى، ولا يُمكن أنْ يعدي شخصٌ آخر.

العدوى: هي انتقال المرض من مخلوقٍ إلى آخر، سواء من بهيمةٍ إلى بهيمةٍ، أومن بهيمةٍ إلى إنسانٍ، أو من إنسانٍ إلى إنسانٍ.

فقوله: (**لَا عَدْوَى**) هذا قطْع معتقَد من قال إنَّ العدوى هي التي تؤثِّر بنفسها، فالنبي صلى الله عليه وسلم قال: (**لَا عَدْوَى**) لأنَّ الذي يَنفع ويَضر هو الله سبحانه وتعالى.

والجمْع بين هذا الحديث، وحديث: «وفِرَّ مِنَ المَجْذُومِ كَمَا تَفِرُّ مِنَ الأَسَدِ»(١): أنَّه لا عدوى بذاتها؛ إنَّما بوجود أمر الله لها الكوني القدري، فتَنتقل؛ لكن لا تنتقل بذاتها.

(وَلاَ طِيَرَةَ) كذلك تَحتمل إمَّا النَّهي، وإمَّا النَّفي، والنَّفي أبلغ؛ يعني: لا يوجد طيرةٌ، فلا تُهلكوا أنفسكم، وتُتعبوا أذهانكم، فليس هناك ما يؤثِّر في السفر ونحوه؛ بل تَوكَّلوا على اللَّه، وأَحسنوا الظن باللَّه.

فمَن أراد السفر ورأى في سيارته عُطْلاً، ثم أَصلحها، ثم تَعطَّلت، ثم أصلحها، فلا يتشاءم؛ بل يَتوكل على اللَّه ويسافر.

وهذا فيه قطْع دابر الطيرة؛ يعني: سواء تشاءمت بالطير أو لم تتشاءم؛ فهذا ليس له حقيقةٌ؛ لذلك قال عليه الصلاة والسلام: «ذَاكَ شَيْءٌ يَجِدُهُ أَحَدُكُمْ فِي نَفْسِهِ، فَلَا يَصُدَّنَّكُمْ»(٢)؛ لأنَّه ليس له حقيقةٌ.

(وَلاَ هَامَةَ) الهَامَة: هي نوعٌ من أنواع الطيور، وهي البُومَة، فلا تتشاءم بها.

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الطب، باب الجذام، رقم (٥٧٠٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلمٌ، كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان، رقم (٥٣٧).

(وَلاَ صَفَرَ) قيل: هو شهر صفَر المعروف؛ فلا تتشاءموا به، فمثلُه مِثل باقي الشهور، فهي من تدبير اللَّه، لا تَملك نفعاً ولا ضراً، فما حَصل من مصيبةٍ فهو بتقدير اللَّه لها، ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [النمل: ٧٥]، فكلُّ شيءٍ مكتوبٌ قبل أن تُخلَق.

وقيل: داءٌ في البَطن إذا وَقع يَتشاءم به بعض الناس؛ فجاء هذا الحديث لقطْع تلك الأمور الجاهلية.

قال: (أَخْرَجَاهُ. زَادَ مُسْلِمٌ: «وَلَا نَوْءَ») النوء: نوعٌ من أنواع النجوم، كان إذا طلع النجم الفلاني قالوا: ستحلُّ عقوبةٌ، وإذا طَلع النجم الفلاني قالوا: سيَنزل مطرٌ، واللَّه عز وجل يقول: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ [يونس: ٣]، فطلوع النجم أو غفوله لا يُتَعَلَّقُ به، ومِثل قول النبي صلى الله عليه وسلم رِوَايَةً عَنِ اللَّه عز وجل: «وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالكَوْكَبِ»(١).

قال: (وَلَا غُولَ) كانوا يَتوهَّمون أنَّ نوعاً من الشياطين يُسمُّونها «الغُول» تَضرُّهم وتأتي إليهم وتؤذيهم بالأصوات وغير ذلك، والنبي

(١) سبق تخريجه (ص)، عند قوله (فمن أنواع السِّحْر النظر في النجوم).

صلى الله عليه وسلَم قال: (**وَلَا غُولَ**) يعني: لا تَطيَّروا بذلك؛ فلا يوجد شيءٌ من ذلك.

ويدلُّ هذا الحديث على رحمة النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الأمَّة إذ قطَع عنها هذه الأوهام.

ثم قال: (**وَلَهُمَا: عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «لَا عَدْوَى وَلاَ طِيَرَةَ، وَيُعْجِبُنِي الفَأْلُ»**).

ساق المصنِّف رحمه الله هذا الحديث؛ لبيان النوع الثاني من أنواع الطيرة، وهو الفأْل.

فإذا كان الفأْل يُعجب النبي صلى الله عليه وسلم فهو مشروعٌ، ويحبُّه اللَّه، والعبد يَفعل ما يُحِبُّه اللَّه.

(**وَيُعْجِبُنِي الفَأْلُ**) لأنَّ فيه حُسن ظنٍّ باللَّه عز وجل، وحُسن الظنِّ به سبحانه بابٌ عظيمٌ من أبواب العبادات؛ لأنَّه يدلُّ على تعظيمك للَّه بإثبات صفات اللَّه؛ من القدرة والقوة والغنى والحمْد.

قال ابن القيم رحمه الله: «وأكثر الخلق - بل جُلُّهم إلا ما شاء اللَّه - يُسيء الظن باللَّه، ولو فتَّشتَ في نفسك ما فتشتَ، لرأيت ذلك في نفسك كامِناً كُمون النار في الزِّناد»(١)؛ يعني: لَثَار في قلبك.

والمَخرَج من ذلك؛ كثرة الدعاء، بأن تقول: اللهم ارزقني حُسن الظنِّ بك، وصدْق التوكُّل عليك.

والمراد من بعثة الرسل: تعلُّق الإنسان باللَّه وحْده؛ فمَن أحسن ظنَّه باللَّه؛ يَتوكل عليه حق التوكل، فالفأل من التعبُّد.

(وَيُعْجِبُنِي) هذا يدلُّ على أنَّ النَّفْس البشرية ضعيفةٌ، تَفرح بالكلام الطيِّب وتَحزن للكلام المحزِن، ولأنَّ ديننا دين فرحٍ؛ فكان على الإنسان ألَّا يَتكلَّم إلا بما يُفرحه.

فسألوا النبي صلى الله عليه وسلم: **(قَالُوا: وَمَا الفَأْلُ؟)** وهذا يدلُّ على أنّ المستمِع إذا أشكل عليه أمرٌ؛ يَسأل.

(قَالَ: «الكَلِمَة الطَيِّبَةُ») فالكلمة الطيِّبة نوعٌ من أنواع التفاؤل، وهي نوعٌ من أنواع التطير المحمود؛ لكن لا يجوز أن يُتعلَّق بها بإمضاءٍ أو ردٍّ.

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ٢١١).

فمثلاً: لو شخصٌ يذاكر، وتقول له: إن شاء اللَّه ستنجح؛ فهذا فألٌ.

وشخصٌ يَطلب العِلم وتقول له: إن شاء اللَّه ستكون عالِماً؛ فهذا فألٌ محمودٌ.

وكذا لو رأيتَ رجُلاً مريضاً، تقول له: سالمٌ بإذن اللَّه.

وإذا رأيتَ مسافراً، تقول له: تعود وتُقَدِّم خيراً للإسلام والمسلمين.

وإذا رأيتَ رجُلاً ذاهباً إلى الصلاة، تقول له: مغفورٌ ذنبك بإذن اللَّه.

لكن لا يجوز إذا رأيتَ طالب علمٍ مثلاً يقرأ أو يكتب؛ تقول: إذاً أنا سأسافر لمَّا رأيتُ طالب العِلم هذا يكتب؛ لأني سوف أُحَصِّل في سفري خيراً ومالاً؛ بسبب رؤية طالب العلم هذا.

أو شخصٌ يَذهب إلى خِطبة امرأة؛ لأنَّه رأى عالماً، وهكذا؛ فهذا لا يجوز.

قال رحمه الله: **(وَلِأَبِي دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ: عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه)** الصواب: عُروة بن عامرٍ[1]، وليس عقبة بن عامرٍ.

---

(١) هو: عروة بن عامر القرشي، وقيل: الجهنيّ. مختلفٌ في صحبته. الإصابة

قَالَ: (ذُكِرَتِ الطِّيَرَةُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم) أي: التي فيها شؤمٌ – المذمومة – قال: (فَقَالَ صلى الله عليه وسلم: أَحْسَنُهَا الفَأْلُ) ثُم بدأ في تفصيلها.

يعني: لا يَجري خلف الطيرة المشؤومة؛ إلا مَن ليس في قلبه إيمانٌ، والفأل فسَّره النبيُّ صلى الله عليه وسلم بالكلمة الطيِّبةِ[(١)].

قال: (وَلَا تَرُدُّ مُسْلِماً) هذا فيه حثٌّ للمسلِمين بأن يَبقوا على ما هم عليه من التوكل على اللَّه، وعدم تأثير الطيرة المشؤومة عليهم، سواء في الإمضاء أو الرد، وسواء فيما رأى فيه من أمرٍ يَدفعه للذهاب، أو يردُّه عن الذهاب.

أي: أنَّ الفرْق بين الطيرة المشؤومة والفأل: أنَّ الفأل يُسرُّ به الإنسان، لكن لا يمضيه إلى أمره أو يَصده عن أمره.

لابن حجر (٤/ ٤٠٤).

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الطب، باب لا عدوى، رقم (٥٧٧٦)، ومسلمٌ، كتاب السلام، رقم (٢٢٢٤)، من حديث أنسٍ رضي الله عنه، ولفظه: «لَا عَدْوَى، وَلَا طِيَرَةَ، وَيُعْجِبُنِي الْفَأْلُ. قَالَ: قِيلَ: وَمَا الْفَأْلُ؟ قَالَ: الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ».

قال: (وَلَا تَرُدُّ مُسْلِماً) أمَّا غير المسلِم فلعدم توكله على اللَّه عز وجل فإنَّها تردُّه؛ لتعلُّقه بغير اللَّه.

فدلَّ هذا الحديث على أنَّ الطيرة تنقسم إلى: شؤمٍ، وإلى فألٍ.

والفأل: هو الكلمة الطيبة.

ثُم بعد ذلك قال: (فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ) مِثل: لو أراد أن يسافر فرأى غراباً.

(فَلْيَقُلِ: اللَّهُمَّ لَا يَأْتِي بِالحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْتَ) المراد بالحسنات هنا: ما فيه خيرٌ؛ سواء في السفر، أو النعمة، أو الرزق، أو في غير ذلك، (وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ) أي: مِن المصائب، والشرور، ومِن المحن، والفتن، والمصائب ونحو ذلك؛ (إِلَّا أَنْتَ) أي: أنَّ التطير لا ينفع ولا يضر.

(وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ) ولا يُحوِّل من حالٍ سيئةٍ إلى حالٍ حسنةٍ إلا اللَّه؛ بمعنى: أنّ الطيرة لا تنفع شيئاً؛ فلا يَتعلَّق الإنسان بها.

ومَن علّق قلبه باللَّه؛ انحسر عنه ذلك التطير، وحقَّق التَّوكل على ربه.

يعني: كل أمرٍ في هذا الكون فيه تحوُّلٌ من إقامةٍ إلى سفرٍ، أو من عدم زواجٍ إلى إقدامٍ على الزواج، أو مِن دخول الجامعة أو الانصراف إلى

غيرها، فكلُّ تحوُّلٍ، وكل قوةٍ في الإنسان تؤدي به لهذا التحول؛ إنما هو باللَّه سبحانه وتعالى وليست بالطيرة.

فمعنى (**لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ**) أي: لا تحوُّل من حالٍ إلى حالٍ، ولا قوة لنا على هذا التحول إلا بك؛ لذا قال شيخ الإسلام رحمه الله: «إنَّها كلمة استعانة»[1] أي: لا حول ولا قوة إلا باللَّه.

ثُم بعد ذلك ذَكر حُكم الطيرة فقال: (**عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه مَرْفُوعاً: «الطِّيَرَةُ شِرْكٌ»**) لِما فيها من التعلق بغير اللَّه، ولِما في القلب من استسلامه للشيطان ووساوسه، فيزيِّن له أنَّ صوت الحيوان ونحو ذلك يؤثِّر عليه في مسيرِ حياته؛ لذا كانت شركاً أصغر.

فدلّ على أنَّ الشيء إذا عُرض على القلب، ثم دُفِع؛ فلا بأس، وهذا تطيُّرٌ مَثِيل الوسوسة التي يَدفعها المرء؛ فلا يأثم.

فلو سمعتَ مَن تشاءم بالطيور، أو بتأخير النكاح، فقال: أنا رأيتُ سيارةً سوداء، فأريد تأخير النكاح هذا الشهر؛ فتزجره، وتنهاه، وتقول: الطيرة شركٌ.

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٠/ ٦٨٦).

(الطِّيَرَةُ شِرْكٌ) تأكيداً لذلك، وانتهى هنا قول النبي صلى الله عليه وسلم.

ثُم قال ابن مسعودٍ: (وَمَا مِنَّا) أي: إلا ويَقع في قلبه شيءٌ من التطير، ودواؤه قال: (وَلَكِنَّ اللَّهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ) على اللَّه؛ لأنَّ النفع والضر بيده سبحانه وحده.

قال: (رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ، وَبَيَّنَ أَنَّ آخِرَهُ) أي: من قوله: (وَمَا مِنَّا..) (مِنْ قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ) فهو موقوفٌ عليه.

ثُم بعد ذلك ذَكر كفَّارة من وَقع في شِرك الطيرة، فقال: (وَلِأَحْمَدَ: مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما: مَنْ رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ مِنْ حَاجَتِهِ فَقَدْ أَشْرَكَ) فيه أيضاً حُكم الطِّيرة، وأنها شركٌ أصغر.

مِثل: مَن أراد أن يسافر فرأى رجلاً مجنوناً؛ فتَرَك السفر تشاؤماً بهذا المجنون، ولو تَعلَّق القلب بالكُلِّيَّة بذلك؛ فيكون شركاً أكبر.

قال: (قَالُوا: فَمَا كَفَّارَةُ ذَلِكَ؟ قَالَ: أَنْ تَقُولَ: ...) إلى آخره؛ فدلَّ على أنَّها شركٌ وأنَّ لها كفارةً.

وكفَّارتها أن يقول: **(اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ، وَلَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ)** أي: أنَّ الخير كلَّه بيد اللَّه، وأنَّ التطير وما يَتعلقون به ليس حقيقةً؛ وإنَّما الأمور بيد اللَّه.

(وَلَا إِلَه غَيْرُكَ) أي: أنَّنا متوكلون على اللَّه لا على غيره.

فدلَّ على أنّ التوحيد يُكَفِّر الخطايا، ويُكفّر الذنوب، وممَّا يكفِّره التوحيد من الذنوب؛ أنَّه يكفِّر الشرك في هذا الحديث.

ثُم بعد ذلك ذَكر الطيرة التي مَن وَقعت في قلبه وعَمل ذلك أنَّها شركٌ؛ قال: **(إِنَّمَا الطِّيَرَةُ مَا أَمْضَاكَ، أَوْ رَدَّكَ)**.

(مَا أَمْضَاكَ) يعني: جَعلك تُقدِم على الأمر الذي أنت عليه من السفر، أو الزواج أو نحو ذلك.

(أَوْ رَدَّكَ) أي: عن السفر، أو عن التسجيل في هذه المدرسة - مثلاً -، ونحو ذلك.

يعني: لو أراد شخصٌ السفر، ورأى رجُلاً مبتسماً، فإذا سافر لأجل الابتسامة التي رآها، تفاؤلاً بها؛ فهذا نوعٌ من الطيرة المذمومة.

ولو أنَّ شخصاً أراد أنْ يُسافر، فرأى رجُلاً مريضاً، فردَّه ذلك عن السفر؛ فهذه طيرةٌ مشؤومةٌ، منهيٌّ عنها، وهي من أضرُب الشرك.

وأمَّا إنْ عَزم الرجل على السفر، وأتتْه مبشِّراتٌ، كأن يَتَّصل عليه شخصٌ، ويقول: السكن ميسَّرٌ ونحو ذلك؛ فهذه مبشِّراتٌ، وهو عازم على السفر في الأصل، أو أعرض عن السفر بسبب الغبار؛ لأنَّه يَضر، وليس تشاؤماً؛ فهذه ليست طِيَرةً.

فيجب على المسلِم أنْ يَتعلّق قلبه باللَّه جل وعلا، ويَجعل الأسباب في يده، ولا يتعلَّق بها.

***

[٢٩]

بَابُ

مَا جَاءَ فِي التَّنْجِيمِ

قَالَ البُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ»: قَالَ قَتَادَةُ: «خَلَقَ اللَّهُ هَذِهِ النُّجُومَ لِثَلاَثٍ: زِينَةً لِلسَّمَاءِ، وَرُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ، وَعلاَمَاتٍ يُهْتَدَى بِهَا، فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا غَيْرَ ذَلِكَ؛ أَخطَأَ، وَأَضَاعَ نَصِيبَهُ، وَتَكَلَّفَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ» انْتَهَى.

وَكَرِهَ قَتَادَةُ: تَعَلُّمَ مَنَازِلِ القَمَرِ، وَلَمْ يُرَخِّصِ ابْنُ عُيَيْنَةَ فِيهِ. ذَكَرَهُ حَرْبٌ عَنْهُمَا.

وَرَخَّصَ فِي تَعلُّمِ المَنَازِلِ: أَحْمَدُ، وَإِسْحَاقُ.

وعَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ: مُدْمِنُ الخَمْرِ، وَقَاطِعُ الرَّحِمِ، وَمُصَدِّقٌ بِالسِّحْرِ» رَوَاهُ أَحْمَدُ، وابْنُ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ».

الشرح:

قال رحمه اللَّه: (بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّنْجِيمِ) أي: بيان ما يباح في التنجيم، وما لا يباح؛ يعني: بيان ما يجوز منه، وما لا يجوز؛ أيْ: ما يُنهى عنه، وما لا يُنهى عنه، وحُكم تعلَّم النجوم، وأقسامه المتعددة.

وفي أحد أقسامه قال الجمهور: مباحٌ، لذا قال: (**بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّنْجِيمِ**)، ولم يَجزم بالتحريم؛ لأنَّ فيه تفصيلاً.

وأقسامه كالتالي:

القِسم الأوَّل: أنْ يَعتقد الشخص أنَّ النجوم بذاتها تُدبِّر الأمور.

وهذا إلحادٌ، وكُفرٌ أكبر – والعياذ باللَّه –.

القِسم الثاني: أنْ يَعتقد أنَّ النجوم هي السبب في حدوث ذلك الفعل، وأنَّ لها تأثيراً في حياة الشخص، مِثل: أنْ يُقال: متى وُلدت؟ في أيّ نجم؟ ونقول لك: هل أنت سعيد، هل أنت غني، هل أنت فقير؟ وكذا.

أو يعتقد أنَّ لها تأثيراً في المطر والغيث، فيقول: هذا المطر بسبب هذا النجم.

وهذا حُكمه: شركٌ أصغر؛ كقول النبي صلى الله عليه وسلم: «وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ»(١).

---

(١) رواه البخاريُّ، أبواب الاستسقاء، باب قول اللَّه تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «شُكْرَكُمْ»، رقم (١٠٣٨)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كُفر من قال: مُطرنا بالنوء، رقم (٧١)، من

القِسم الثالث: أنْ يَتعلَّم علم النجوم؛ ليَعرف المواقيت، والاتجاهات، وجهة القِبلة.

وهذا ذَهب الجمهور إلى إباحته، رخَّص فيه الإمام أحمد كما سيأتي وإسحاق بن راهويه[1].

وذَهب قتادة[2] وابن عيينة[3] إلى عدم الترخيص فيه؛ سدّاً لباب الذريعة، لئلَّا يُعتَقد أنها سببٌ في حدوث بعض أحوال العبد الدنيوية من سعادةٍ وشقاءٍ.

حديث زيد بن خالد الجهني رضي اللَّه عنه.

(١) هو: أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن مخلد بن راهوية، الحنظلي، المروزي، وُلد سنة (١٦١هـ)، وتوفي سنة (٢٣٨هـ). سير أعلام النبلاء للذهبي (١١/ ٣٥٨).

(٢) هو: أبو الخطاب قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز السدوسي، وُلد سنة (٦٠هـ)، وتوفي سنة (١١٨هـ). سير أعلام النبلاء للذهبي (٥/ ٢٦٩)، تقريب التهذيب لابن حجر (١/ ٤٥٣).

(٣) هو: أبو محمد سفيان ابن عيينة ابن أبي عمران ميمون الهلالي، وُلد سنة ()، وتوفي سنة (١٩٨هـ). سير أعلام النبلاء للذهبي (٢/ ١٧٠)، تقريب التهذيب

وأمَّا إنْ قيل: إنَّ سبب خروج أو ظهور النجم الفلاني، هو بأمر اللَّه، يحدث عادةً فيه الأمطار، أو يأتي الصيف ونحو ذلك، فهذا لا يَدخل في هذه الأمور؛ وإنَّما لأنَّ الغالب في زمن ظهوره أن يَحدث ذلك، ويقول ذلك أهل الخبرة، لدقَّة الكون في الحركة والسكون بتدبيرٍ من اللَّه.

فلو قال شخصٌ: مُطرنا بالنجم الوسمي؛ فهذا شركٌ أصغر.

ولو قال شخصٌ: مُطرنا في النجم الوسمي بأمر اللَّه؛ فلا بأس.

ومِثل قولك: وقع علينا بردٌ في رجبٍ، ومثل: أتى مطرٌ في شعبان.

وكذا التكهنات بالمستقبل في أمور المناخ، توقعاً وليس جزماً، مع اعتقاد أنَّ هذا الأمر قد يَختلف بأمر اللَّه، ويُتوقع أنه قد يأتي بردٌ، وقد لا يَأتي، وهذا من باب التوقُّع، وقد يَتخلَّف؛ فهذه كلُّها لا بأس بها.

والمراد بالتنجيم: أي: الاستعانة، أو الاستفادة من النجوم في الأمر الذي يريده.

وذَكر المصنِّف رحمه اللَّه في هذا الباب أربعة نصوصٍ:

النَّصُّ الأوَّل: الحكمةُ من خلق النجوم.

لابن حجر (١/ ٢٤٥).

والنَّصُّ الثاني: ذَكر رحمه اللَّه الخلاف في تعلُّم النجوم للأمور المباحة، فذَكر تحريم ذلك، كما حرَّمه قتادة وابن عيينة.

والنَّصُّ الثالث: ذَكر فيه أنَّ الراجح في تعلُّم النجوم للأمور المباحة جائزٌ، وهو قول إسحاق وأحمد.

والنَّصُّ الرابع: ذَكر فيه النوع الشركي في الاستعانة بالنجوم، وهو الاستعانة بها على السِّحْر.

قال: **(قَالَ البُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ»: قَالَ قَتَادَةُ: «خَلَقَ اللَّه هَذِهِ النُّجُومَ لِثَلَاثٍ)** أي: لثلاث حِكمٍ، **(قَالَ قَتَادَةُ)** مُعَلَّقاً.

الأُولى: **(زِينَةً لِلسَّمَاءِ)** كما قال سبحانه: ﴿وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الحجر: ١٦]، وهذا من عظمة اللَّه وقوته وجبروته، لمَّا خلق هذا الخلْق العظيم، وهو السماء؛ لم يجعله خلْقاً مجرداً تَملُّه الأبصار؛ بل خَلق خلْقاً عظيماً، وجَعل الأبصار ومن ورائها الأفئدة، تَنظر وتتبصَّر في ذلك الخلق العظيم، فزُيِّنت بالقناديل - وهي النجوم -؛ ما بيْن سائرةٍ، وما بيْن ثابتةٍ، بأمر اللَّه عز وجل، ولا يقدر على ذلك إلا اللَّه، ﴿وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّه رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وجَعل النجوم معلَّقةً بأمر اللَّه، لا يُمسكها أحد، وتُضيء؛ قال تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥-١٦]، فالكُنَّس: الجارية منها، والخُنَّس: الثابتة، فأقسم اللَّه بها، وهو سبحانه لا يُقسم إلا بأمرٍ عظيم.

وزينتُها بإضاءتها وتغيُّر ألوانها.

وزينتُها في عددها، وخفاء بعضها، وظهور بعضها.

وزينتُها في تحرُّك بعضها، وسكون بعضها.

وزينتُها أنَّ إضاءة بعضها لا تضُرُّ أهل الأرض.

وزينتُها في بُعدها وكذا في كبرها مع بُعدها؛ كما قال عز وجل: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

فلو قال لك ساحرٌ: من خلال نظري في النجوم فأنت تولد في شهر كذا، ونصيبك كذا.

فقل: لا، اللَّه خلق النجوم زينةً للسماء.

الثاني: **(وَرُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ)** كما قال سبحانه: ﴿فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً﴾ [الجِنّ: ٩]، فجَعلها رجوماً للشياطين؛ لأنَّ اللَّه قد

أَقْدَر الجنَّ على أمورٍ لا يقدر عليها البشر، بأمر اللَّه، لحكمةٍ عظيمةٍ، فيسيرون بسرعةٍ، ويرتفعون أماكن شاهقةً.

فكانوا – أيْ: الشياطين – يَصعدون إلى السماء؛ لاستراق السمع، ويرون ما تدبير الكون في المستقبل؛ ليعرفوا ما سيقع لهم في المستقبل.

ومِن فضْل اللَّه على هذه الأمَّة المحمدية، لمَّا بعث اللَّه محمداً صلى الله عليه وسلم؛ حُرِسَت السماء بالملائكة، وحُرست بالنجوم؛ لئلَّا يُلتَقط شيءٌ من السماء، فيما يُدَبَّر من أمر الكون، فيما يقضيه اللَّه عز وجل؛ لذلك قال الجنُّ لمَّا بُعث النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾؛ يعني: كعادتنا ﴿فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً﴾؛ يعني: الملائكة، ﴿وَشُهُباً﴾ [الجِنّ: ٨].

واللَّه عز وجل هدَّدهم: ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ [الحجر: ١٨]، فمن استرَق السمع؛ بأمر اللَّه يُحرقه النجم، إلَّا مَن يُبقيه اللَّه من الجِن، يَصعد فيسترق السمع ثم يَنزل؛ لحكمةٍ بالغةٍ، في تصديق الناس للكهان، ونحو ذلك.

(وَرُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ) يعني: أنَّ مِن النجوم ما ليس بثابتٍ مستقرٍ في السماء؛ وإنَّما جُعِلَت من جنود اللَّه، في حفْظ السماء، وهي من الجمادات، كما أنَّ الريح من جنود اللَّه.

ومِن عظمة اللَّه أنْ جعل النجوم من جنوده في حفْظ السماء، فجَعل هذه الزينة حِفظاً لها، وهذا لا شك دليلٌ على تمام الخِلقة؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ * وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ [الحجر: ١٦ - ١٨]، وهذا لا يكاد يوجد مطلقاً في المخلوقات، أنَّ الزينة تُجعَل للحفظ أيضاً.

الثالث: **(وَعَلاَمَاتٍ يُهْتَدَى بِهَا)** أي: يُعرَف بها الهداية للطريق، والجهات، وما يتفرَّع منها، من القبلة ونحو ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ البَرِّ وَالبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧].

ففي الظلام يُهتَدى بالنجم في تحديد الجهة - كالشمال، والجنوب -، وهذا مِن فضْل اللَّه عز وجل، ورحمته بالعباد، فما ظنُّك في ليلٍ بهيمٍ، إذا رَفعتَ بصرك إلى السماء؛ لا تعرف أين أنت، فأعطاك اللَّه في الظلام

مخلوقاتٍ؛ لتَعلم أين أنت، ومع عِظم وعلو وكِبر هذه المخلوقات، إلا أنَّها تدلُّ أين الشمال، وأين الجنوب.

وجَعلها بعيدةً؛ لأنَّها لو كانت قريبةً ما استطعتَ أنْ تُميِّز الجهات، لكن جُعِلت عاليةً، فهذا يبيِّن لك الشمال، وهذا يبيِّن لك الغرب، وهذا يبيِّن لك الجنوب ونحو ذلك.

وكذلك مَن كان في البحر؛ قال تعالى: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].

فاللَّه خَلق هذا الخلْق العظيم، فقط لعبادته وحْده، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣].

فإذا قيل: لماذا خلق اللَّه هذا الكوكب العظيم؟

نقول: من أجْلك أيها الإنسان؛ لتستعين به على طاعة اللَّه وتوحيده فقط، فخَلق اللَّه الرياح والنجوم والأفلاك؛ لتستعين بها على عبادته؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]؛ من أجل أنْ يعبدوه، ويستعينوا بها على طاعته.

فحَصر قتادة خلْق النجوم لهذه الأمور الثلاثة، كما جاء في الكتاب والسنة.

(فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا غَيْرَ ذَلِكَ) يعني: استخدمها لغير ذلك، فقد (أَخْطَأَ) لأنَّ النَّصَّ لم يأتِ بإباحة ذلك، (وَأَضَاعَ نَصِيبَهُ) في الآخرة؛ أي: فاته الأجر، أو وَقع في الإثم، (وَتَكَلَّفَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ) لأنَّه من الرجم بالغيب فلا يستطيع أن يَتوصل إلى حقيقة؛ لأنَّ اللَّه لم يَخلق النجوم لغير هذه الأمور الثلاثة.

فليس في ولادتك في الشهر الفلاني، لا سعادة، ولا شقاء، ولا نحو ذلك.

(انْتَهَى) كلامه.

ثُم بعد ذلك ذَكر فيما لو زاد في الانتفاع بالنجوم على غير ما ذكره قتادة مِثل: الاهتداء بالنجوم في دخول الصيف، والخريف، وأوقات نزول الأمطار المتوقعة وغير ذلك، فقال: (وَكَرِهَ قَتَادَةُ تَعَلُّمَ مَنَازِلِ القَمَرِ)، ويَدخل فيه أيضاً تعلُّم منازل النجوم لغير الحِكَم الثلاث.

ولمَّا قال قتادة أنَّ اللَّه خَلق النجوم لهذه الأمور الثلاثة، كَرِه تعلُّم النجوم؛ لئلَّا يكون وسيلةً إلى الوقوع في الأمر الشركي، بأنَّ ما وقع من الأمور في الكون، هو بسبب تلك النجوم.

ولهذا كان أهل الجاهلية يَعتقدون فيها، وإلى الآن هناك مَن يَعتقد فيها، حتى خسوف القمر، يعتقدون فيه أمراً سيئاً من الوفاة ونحو ذلك، فلمَّا مات إبراهيم ابن رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم، وخَسف القمر؛ قالوا: بِموت عظيمٍ، وهو إبراهيم[(١)].

فالناس والمشعوذون يُلَبِّسون على العامة بالنجوم؛ لأنه أمرٌ مجهولٌ عند العامة، فيضعون فيه الطلاسم، ويضعون فيه الأمور المجهولة؛ زعماً منهم؛ لتصديق الآخرين لهم، لأنَّه يتكلّم بما لا يَعلم المُخاطَب به؛ لذلك كَره قتادة تعلُّم منازل القمر.

(وَلَمْ يُرَخِّصِ ابْنُ عُيَيْنَةَ فِيهِ) لئلَّا يُفتَح ذلك الباب.

---

(١) رواه البخاريُّ، أبواب الكسوف، باب الصلاة في كسوف الشمس، رقم (١٠٤٣)، من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، ومسلمٌ، كتاب الكسوف، باب ما عُرض على النبي صلى الله عليه وسلم في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار، رقم (٩٠٤)، من حديث جابر رضي الله عنه.

(ذَكَرَهُ حَرْبٌ عَنْهُمَا) وهو حرب الحنظلي(١)، تلميذٌ للإمام أحمد.

ثُم بعد ذلك ذَكر أنَّ الراجح أنه يجوز، فقال: **(وَرَخَّصَ فِي تَعَلُّمِ الْمَنَازِلِ: أَحْمَدُ)** في تعلُّم منازل القمر؛ لتُعرف الشهور، ولتُعرف الأيام؛ بشرْط أنْ لا يُزاد فيها، وأنْ لا يُتوغَّل فيها، فيأتي الشيطان، فيوقعه في الأمر الشركي.

(وَإِسْحَاقُ) يعني: إِسْحَاقُ بْنُ رَاهَوَيْهِ.

وإسحاق رحمه الله كان له أتباعٌ، ثم انقرض أتباعه، ومذهبه في الفقه من أقرب المذاهب إلى الإمام أحمد، لكن اندثر أتباعه.

والراجح: التفصيل في ذلك في أنواعٍ:

النوع الأوَّل: وهو أن النجوم إذا كان استخدامها لأمرٍ مُغيَّبٍ، وكون حدوث الأمر المغيَّب بسبب ظهور ذلك النجم.

فهذا لا يجوز؛ لأنَّه من ادعاء عِلم الغيب.

---

(١) هو: أبو محمد حَرْب بن إسماعيل بن خلف الحَنْظَلي، الكرماني، الحنبلي، توفي سنة (٢٨٠هـ). تسهيل السابلة (١/ ٢٢٧).

النوع الثاني: إذا كان استخدامه للنجوم بأنها مُسيِّرة للعالم؛ أي: لو ظَهر برج الحوت فظهوره هو الذي يُسعِد الناس.

وهذا - والعياذ باللَّه - إلحادٌ، فالكواكب لا تُسيِّر ولا تُدبِّر أمر الناس.

النوع الثالث: إذا كان يستخدمها لأمور الطاعة والخير، مِثل: معرفة مغيب الشفق، وطلوع الفجر.

فهذا واجبٌ وإن كان هذا الأمر ليس مرتبطاً بالنجوم؛ ولكن لكونه يَظهر في السماء فيُلحق بها.

النوع الرابع: إذا كان استخدامها في الأمر المباح، مِثل استخدامها في معرفة نزول المطر، ودخول الشتاء، ودخول الصيف.

فهذا مباح.

النوع الخامس: إذا كان يستعين بها الإنسان - من السَّحَرة وغيرهم - للإضرار بالآخرين.

فهذا شرك - والعياذ باللَّه -؛ ولذلك ساق المصنِّف رحمه اللَّه حديث أَبي مُوسَى.

فقال: (ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الجَنَّة) وأهْل السُّنَّة يُجرون مِثل هذه الأحاديث في الترهيب على ظاهرها؛ لتكون أردع، وإنْ كانت تحت المشيئة؛ لقوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء:١١٦]، فشُرب الخمر تحت المشيئة، ليس من الشرك.

ومَن فصّل مِن أهل السُّنَّة فيها قالوا: **(ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الجَنَّة)** يعني: يَتأخر دخولهم للجنة، وليس معناه: حِرمانهم منها؛ لأنه لا يُحرم من دخول الجَنَّة إلا المشرك، أمَّا المؤمن الموحِّد فإنه يَدخل الجَنَّة، حتى لو كان يعمل ذنوباً كبيرةً.

فتُفسَّر مِثل هذه الأحاديث على ظاهرها؛ لأنَّها أبلغ في الزجر والوعظ.

وليس معنى ذلك أنَّ جميع هؤلاء الأصناف الثلاثة لا يدخلون الجَنَّة مطلقاً؛ وإنما فيه تفصيل:

فمَن وَقع في الشرك كالقِسم الثالث في هذا الحديث، واستعان بالنجوم كفراً باللَّه؛ فلا يدخل الجَنَّة.

وإذا كان من أهل المعاصي كما في الصنفين الأوَّلين؛ فهو تحت المشيئة.

لذلك قال: (مُدْمِنُ الخَمْر) يعني: المكثِر من شرْب الخمر، إلَّا إذا تاب، وإذا مات صاحبُ الخمر قبْل أن يتوب فعليه وعيدٌ آخر؛ كما في صحيح مسلم: «مَنْ شَرِبَ الخَمْرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَشْرَبْهَا فِي الآخِرَةِ، إِلَّا أَنْ يَتُوبَ»(١).

قال: (وَقَاطِعُ الرَّحِمِ) كما قال اللَّه عز وجل: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۞ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٢-٢٣]، وقال عليه الصلاة والسلام في الصحيح(٢): «لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ قَاطِعٌ»؛ يعني: قاطع رحمٍ.

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الأشربة، باب، رقم (٥٥٧٥)، ومسلمٌ، كتاب الأشربة، باب بيان أنّ كلَّ مسكرٍ خمرٌ وأنّ كلّ خمرٍ حرامٌ، رقم (٢٠٠٤)، من حديث ابن عمرٍ رضي الله عنهما.

(٢) رواه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب إثم القاطع، رقم (٥٩٨٤)، ومسلمٌ، كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها، رقم (٢٥٥٦)، من حديث جبير بن مطعمٍ رضي الله عنه.

ويُترك هذا الحديث على ظاهره، وبعض أهل العِلم يُفسر ذلك بتأخر دخوله إلى الجَنَّة، ولا شك أنَّ تأخر دخوله إلى الجَنَّة فيه عذابٌ عليه.

والقطيعة من الذنوب التي يُعجّل اللَّه عقوبتها في الدنيا، دون ما يدَّخِره اللَّه في الآخرة؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللَّهُ تَعَالَى لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ»[1]، البغي: الظلم.

وكان أبو هريرة رضي الله عنه يقول: «أحرِّج على كلِّ قاطع رحمٍ لَمَا قام مِن عندنا»[2]؛ لأنَّ اللعنة – والعياذ باللَّهِ – تحيط به، وتدور معه أينما كان؛ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٣].

فيجب على العبد أنْ يكون واصلاً لرحمه، مسانداً لهم، معيناً لهم في الخير، مبيّناً لهم ما يفيدهم في دينهم ودنياهم، ولا يكتفي بالسلام؛ بل

---

(١) رواه أحمد في المسند، رقم (٢٠٣٧٤)، من حديث أبي بكرة رضي اللَّه عنه.

(٢) رواه البخاريُّ في الأدب المفرد، باب برِّ الأقرب فالأقرب، رقم (٦١)، (١/ ٣٥).

يزيد عليه ما ينفعهم في دينهم ودنياهم؛ لقول اللَّه عز وجل: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

قال: **(وَمُصَدِّقٌ بِالسِّحْرِ)** المراد بذلك: التنجيم؛ أي: من صدَّق ساحراً يستعين في سحره بالنجوم؛ لأن استعانة الساحر بالنجوم شركٌ.

يعني: كأنّ المصنِّف رحمه الله يرى أنَّ السَّحَرة يتعاملون بالنجوم، في عمل سحرهم، وما يزعمونه من حدوث أمورٍ.

والمصدّق بالسِّحْر يَكفر، والدليل قول النبي صلى الله عليه وسلم: «مَنْ أَتَى عَرَّافاً أَوْ كَاهِناً فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ؛ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ»(١).

ففي حديث أبي موسى أمران اثنان تحت المشيئة، وأمرٌ ثالثٌ، وهو: التصديق بالسِّحْر - والعياذ باللَّه -، فهو من أنواع الكفر؛ قال عز وجل: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢].

---

(١) رواه أحمد في المسند، رقم (٩٥٣٦)، من حديث أبي هريرة والحسن رضي اللَّه عنهما.

قال: (رَوَاهُ أَحْمَدُ، وابْنُ حِبَّانَ).

فتبيّن ممَّا سبق: أنّ المصنِّف رحمه الله ذَكر حُكم تعلُّم النجوم، وأطلقه لوجود التفصيل فيه.

فمنه ما هو إلحادٌ وكُفرٌ أكبر، ومنه ما هو شركٌ أصغر، ومنه ما يُخشى أنه وسيلةٌ إلى ذلك، فاختلفوا فيه إلى قولين.

فذكر قول قتادة، في الحِكمة من خلْق النجوم، لأمورٍ ثلاثة.

ثُم ذَكر قول العلماء في تعلُّم النجوم المباح، وهو ما يُسمَّى بعلم التسيير.

ثُم بعد ذلك ذَكر الوعيد في حُكم التصديق بالسِّحْر؛ لأنَّ بعض السَّحَرة يلجؤون إلى النجوم.

وسببُ فتنة بعض الناس بالنجوم؛ لدقة ظهورها وأُفُولِهَا، فتَخرج في زمنٍ لا تَتخلف عنه، وأيضاً في مكانٍ لا تتبدل منه، فلذلك فُتن بها بعض الناس، وظن بعضهم أنَّها هي سبب نزول المطر؛ بل قال بعضهم: هي التي تُدبِّر الكون، فجاءت النصوص بأن منها ما هو زينةٌ، ومنها ما هو رجومٌ للشياطين، ومنها ما هو علاماتٌ يُهتدى بها، وليس لها من شأن التدبير شيءٌ.

***

[٣٠]

بَابُ

مَا جَاءَ فِي الِاسْتِسْقَاءِ بِالأَنْواءِ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾.

عَنْ أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكُونَهُنَّ: الفَخْرُ بِالأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الأَنْسَابِ، وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ، وَقَالَ: النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا؛ تُقَامُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ، وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَلَهُمَا: عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ رضي الله عنه قَالَ: «صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالحُدَيْبِيَةِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ؛ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ: هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟! قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

قَالَ: قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ:

فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ؛ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالكَوْكَبِ.

وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا؛ فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالكَوْكَبِ».

وَلَهُمَا: مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: مَعْنَاهُ، وَفِيهِ: «قَالَ بَعْضُهُمْ: لَقَدْ صَدَقَ نَوْءُ كَذَا وَكَذَا؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿تُكَذِّبُونَ﴾.

الشرح:

هذا الباب امتدادٌ للباب السابق، وهذا الباب أخصُّ من السابق، والسابق أعمّ.

بمعنى: أنّ الباب السابق في عموم التنجيم؛ فيشمل مَن يلجأ إلى التنجيم من السَّحَرة والكهان، وكذا مَن ينسب نزول الغيث إلى النجوم، ويشمل كذلك نسبة أفعال أهل الأرض إلى تلك النجوم؛ إذاً فهو عامٌّ في النجوم.

أمَّا هذا الباب فهو خاصٌّ في نسبة نزول المطر إلى النجوم.

فإذا قيل: لماذا أَفرد المصنِّف رحمه الله هذا الباب وخصَّه من بين ما يُستخدم في النجوم لأمور الأرض؟

نقول: لكثرة وقوعه؛ بمعنى: إذا نَزل الغيث؛ فمِن العباد مَن هو مؤمنٌ، ومَن هو كافرٌ.

فكلُّ قطرةٍ من السماء تَنزل، يُصبح العباد فيها فريقين: فريقٌ مؤمنٌ بأنَّ المطر من اللَّه عز وجل، وفريقٌ كافر جاحد، بنسبة هذا المطر إلى غير اللَّه، فلكثرة نسبة المطر إلى النجوم أَفرد المصنِّف رحمه اللَّه هذا الباب خاصَّةً.

قال رحمه اللَّه: (بَابُ مَا جَاءَ) أي: من الوعيد، والتحذير ممَّن يفعَل ذلك، وأنَّه نوعٌ من أنواع الشرك، والكُفر باللَّه.

(فِي الِاسْتِسْقَاءِ) أي: طلبُ السقيا، أو نسبة السقيا إلى الأنواء.

(بِالأَنْواءِ) الأنواء: جمْع نوءٍ، والنوء: هو السقوط، والزوال، وهذا من الإضافة إلى الفعل.

والنوء الأصل فيه الطلوع، ومنه: المغيب.

ونُسِبَ الفِعلُ للنجم؛ يعني: إذا طَلع نجمٌ، يَنسبون الفعل إليه، وإذا غاب نجمٌ، يَنسبون الفعل للنجم؛ فيقولون: (**مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا**) أيْ: بالنجم الفلاني، والنجم الفلاني.

إذاً يكون معنى الباب: باب ما جاء في الاستسقاء بزوال النجم عن الرؤية بسقوطه في المغرب.

وهي - أي: الأنواء -: منازل القمر من النجوم، فالقمر له ثمانيةٌ وعشرون منزلةً، وكلُّ نجمٍ فيها له ثلاثة عشر يوماً.

والفرْق بين هذا الباب والباب السابق (**بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّنْجِيم**):

أنَّ التنجيم: الاستعانة بالنجوم للتوصل إلى السِّحْر، أو الكهانة.

أمَّا هذا الباب: فهو نسبة ما يَحدث في الأرض إلى النجوم مِثل: أتى غبارٌ شديدٌ فيقال: أتى الغبار؛ بسبب أنَّ النوء الفلاني غاب، أو النجم الفلاني - مِثل: سعد بُلَع - مثلاً دخل؛ فهو سبب البرد الشديد وهكذا.

والاستسقاء بالنجوم ينقسم إلى قِسمين:

القِسم الأوَّل: أنْ يعتقد العبد أنّ ذلك النجم الذي خرج - مِثل: الوسمي -، هو الذي أمطر ذلك المطر؛ بمعنى: الذي يُدبِّر أمر ذلك المطر هو: النجم.

وهذا كُفرٌ بالإجماع[1]؛ لأَنَّه ناقضٌ مِن نواقض توحيد الربوبية؛ كما قال عز وجل: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ [يونس: ٣]، فهم باعتقادهم هذا سَلبوا من مقتضيات الربوبية تدبير الأمر من السماء إلى الأرض، وسلبوا شيئاً من أفعال اللَّه عز وجل؛ وهو تدبير الكون.

وهذا يُسمَّى عِلم التأثير؛ يعني: يؤثِّر النجم بما يَحدث في الأرض، وهذا القِسم كُفرٌ أكبر.

القِسم الثاني: أنْ يَجعل نزول ذلك الغيث بسبب ذلك النجم، ولا يَجحد ربوبية اللَّه عز وجل، وإنَّما يَعتقد أنَّه بسبب طلوع ذلك النجم أُمطِروا.

فهذا نوعٌ من أنواع الشرك الأصغر.

فإنْ اعتقد العبد أنَّ الذي يُنزِّل الغيث ذلك النجم، فيتوجَّه إلى القِسم الأوَّل، وهو علم التأثير.

وكان القِسم الثاني من الشرك الأصغر؛ لأَنَّه جحودٌ للنعمة؛ قال سبحانه: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الكَافِرُونَ﴾ [النحل:

---

(١) الاستذكار لابن عبد البر (٢/ ٤٣٧).

٨٣]، فمِنْ كُفران النعمة نسبتها إلى غير موجِدها، فهؤلاء الذين نسبوا نِعمة المطر إلى النجوم، نسبوها إلى غير اللَّه، فمِن هُنا وَقَع الكفرُ.

والمصنِّف رحمه الله ذَكر في هذا الباب أربعة نصوصٍ:

النَّصّ الأوَّل؛ لبيان أن نسبة الرزق إلى النجوم لا تَنفع؛ بل هو كذبٌ؛ فقال: (﴿**وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ**﴾).

والنَّص الثاني؛ لبيان أنَّ الاستسقاء بالنجوم من أعمال الجاهلية.

والنَّص الثالث؛ لبيان أنَّ الاستسقاء بالنجوم نوعٌ من أنواع الكفر؛ فقال: (**وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا؛ فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي**).

والنَّص الرابع: ذكَر حديث ابن عباسٍ؛ لبيان سبب نزول هذه الآية (﴿**وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ**﴾).

قال: (**وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾**) أي: وتَنسبون الرزق الذي يأتيكم إلى النجوم، (**﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾**) أي: أنَّ النجوم لا تَنفع، فلا تَجلب لكم نفعاً، ونسبة النفع أو الضر إلى النجوم كذب.

فدلَّ على أنَّ النجوم مخلوقةٌ مِثلك يُدبِّرها اللَّه ويسيِّرها، فنسبة المطر، وكذا البرد أو الحر إليها هذا كذبٌ.

وإنَّما الذي يجوز: أنْ يقال: في برج الجوزاء - مثلاً - يأتي الحر.

والذي لا يجوز: أن يقال: بسبب طلوع برج الجوزاء؛ أتى الحر، وليت الجوزاء - مثلاً - لم تأتِ، وهذا هو مقصود المؤلِّف رحمه الله هنا.

ومِثل أن تقول: بسبب نجم المربعانية؛ أتى البرْد، فيا ليت النجم ما خَرج، لكن لو قلتَ: في نجم المربعانية يأتي البرد؛ فلا بأس؛ لأنَّ الأوَّل جَعلتَه سبباً، والثاني جَعلته ظرفاً.

ثُم بعد ذلك قال: (عَنْ أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّه صلى الله عليه وسلم قَالَ: أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي) أي: أربع خصالٍ.

وليس المراد بالتحديد والتنصيص على أنَّ ما يخصُّ أمور الجاهلية هذه الأمور الأربعة فقط؛ وإنَّما جاء هذا الحديث في ذِكر أربعةٍ.

وهناك أمورٌ أخرى من أمور الجاهلية؛ كما قال عز وجل: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [الأحزاب: ٣٣]، فعدم تستُّر المرأة؛ من أفعال الجاهلية.

(فِي أُمَّتِي) أي: أنَّها تَبقى فيهم ولا تزول، وإنَّما تَظهر أحياناً، وأحياناً تَختفي، وأحياناً يُظهرها أفراد وهكذا، وليس المراد أنَّ جميع أمَّة محمد تُظهر ذلك؛ بل بعض هذه الأمَّة.

(مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ) المراد بالجاهلية: ما قبْل البعثة؛ نسبة إلى عدم العِلم عندهم وفشوِّ الجهْل فيهم؛ لتقبيح الصفات التي ستأتي.

وقال: (**الجَاهِلِيَّةِ**): إمَّا لعدم عِلمهم وجهْلهم، وإمَّا لعِلمهم لكن لمخالفتهم لذلك الأمر؛ بمعنى: أنَّ مَن يَفعل أحد هذه الأمور، أو جميع تلك الأمور، فهو أحد أمرين: إمَّا أنَّه جاهلٌ بالتحريم، وإمَّا أنَّه عالِمٌ لكن وَقع فيما يَفعله أهْل الجاهلية.

ويدلُّ على أنّ من عَمِل - دون اعتقادٍ - عملاً مِن أعمال الجاهلية؛ فإنه لا يَكفر؛ لهذا الحديث، فذَكر هذه الأمور الأربعة، ولم يذكر أنها كفر.

فمثلاً: حَلْق اللحية؛ قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «خَالِفُوا الْمُشْرِكِينَ: وَفِّرُوا اللِّحَى، وَأَحْفُوا الشَّوَارِبَ»[(١)]، وقال صلى الله عليه وسلم: «أَعْفُوا اللِّحَى، وَخُذُوا الشَّوَارِبَ، وَغَيِّرُوا شَيْبَكُمْ، وَلَا تَشَبَّهُوا بِالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى»[(٢)]؛ فمَن حَلَق اللحية؛ لم يَكفر، وإنَّما وَقع في خَصلةٍ

(١) رواه البخاريُّ، كتاب اللباس، باب تقليم الاظفار، رقم (٥٨٩٢)، ومسلمٌ، كتاب الطهارة، باب خصال الفطرة، رقم (٢٥٩)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) رواه أحمد في المسند، رقم (٨٦٧٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

من خصال ما يَفعله اليهود والنصارى، فإنَّه إنْ عَمِل عملاً من أعمالهم، لا اعتقاداً به؛ فإنَّه لا يَكفر.

والمسلِم مأمورٌ بمخالفة عدّة أمورٍ:

أَمْرٌ بمخالفة إبليس، مِثل: النهي عن الأكل والشرب بالشمال(١)؛ لأنّ الشيطان يَأكل ويَشرب بشماله.

ونهيٌ عن تشبُّه الرجال بالنساء، والنساء بالرجال(٢).

---

(١) كما في الحديث الذي رواه مسلمٌ، كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما، رقم (٢٠٢٠)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، ولفظه: «إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَأْكُلْ بِيَمِينِهِ، وَإِذَا شَرِبَ فَلْيَشْرَبْ بِيَمِينِهِ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ، وَيَشْرَبُ بِشِمَالِهِ».

(٢) كما في الحديث الذي رواه البخاريُّ، كتاب اللباس، باب المتشبهون بالنساء، والمتشبهات بالرجال، رقم (٥٨٨٥)، من حديث ابن عباسٍ رضي الله عنهما، ولفظه: «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم الْمُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ، وَالْمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ».

ونهيٌ عن التشبه بالأعراب؛ يقولون: العشاء العتمة، فنُهي عن ذلك[١].

ونهيٌ أيضاً عمَّا يَفعله أهل الجاهلية، فيجب فيه المخالفة.

ونهيٌ أيضاً عن مشابهة اليهود والنصارى، وأُمِر بالمخالفة لهم.

قال: (لَا يَتْرُكُونَهُنَّ) أي: لا تَتركها بمعنى أنَّه لا يَزول عن جميع أفراد هذه الأمَّة.

الخصلة الأُولى: قال: (الفَخْرُ) أي: التباهي (بِالأَحْسَابِ) يعني: بالجاه، أو بالعمل، وكذا التَّفاخر بجنسية بلدٍ عن بلدٍ، والفخر بالأجداد والآباء، وبأفعالهم ومجدهم ونحو ذلك؛ وهذا من قلَّة العقل أنَّ الإنسان يَفتخر بغيره.

---

(١) كما في الحديث الذي رواه مسلمٌ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب وقت العشاء وتأخيرها، رقم (٦٤٤)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، ولفظه: «لَا تَغْلِبَنَّكُمُ الأَعْرَابُ عَلَى اسْمِ صَلَاتِكُمُ العِشَاءِ، فَإِنَّهَا فِي كِتَابِ اللَّه العِشَاءُ، وَإِنَّهَا تُعْتِمُ بِحِلَابِ الْإِبِلِ».

ودلَّ هذا الحديث أيضاً على أنَّ كلمة الفخر لا تَجوز؛ فلا يجوز أن تقول: أنا أَفتخر بأنِّي طالب عِلمٍ، وإنَّما تقول مثلاً: أَحمد اللَّه على طلب العِلم وهكذا.

قال شيخ الإسلام رحمه اللَّه في الواسطية عن خِصال أهْل السُّنَّة: «وَيَنْهُوْنَ عَنِ الفَخْرِ، وَالخُيَلَاءِ، وَالبَغْيِ، وَالاسْتِطَالَةِ عَلَى الخَلْقِ؛ بِحَقٍّ، أَوْ بِغَيْرِ حَقٍّ»[١]، الفَخْر بحقٍّ؛ مِثل: غنيٌّ يَفتخر بغناه؛ فهذا لا يجوز، أو بغير حقٍّ؛ مِثل: فقيرٌ يَتباهى بأنه غنيٌّ؛ هذا أيضاً لا يجوز.

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه اللَّه: «وإذا كان الفخر بأعمال الآباء لا يجوز، فمن باب أَولى لا يجوز الفخر بأعمال الإنسان نفْسه».

ومِن ضعْف العقل أنْ يَفتخر بنفْسه، فإنْ كان الافتخار بالغير منهيّاً عنه؛ فمِن باب أَولى الافتخار بالنفس؛ قال سبحانه: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢].

---

(١) متون طالب العلم، المستوى الثالث، العقيدة الواسطية (ص١٧٥).

وكلُّ مَن استكبر وتكبَّر؛ بُغِض، وكلُّ مَن استكبر؛ حُقِّر، وكلُّ مَن استكبر؛ عوديَ وأُبغِض، وكلُّ مَن تَواضع؛ أحبَّه اللَّه، ورَفعه؛ كما قال صلى الله عليه وسلم: «مَن تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ»(١).

والكِبْر هو من صفات اليهود؛ قال سبحانه: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]؛ بل إنَّ هذه الخِصلة استَقَوْها من إبليس؛ كما قال عز وجل عنه: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

والمستكبِر يُحَقَّر في الدنيا بالقلب؛ ببغضه وعدم محبته ونحو ذلك، وفي الآخرة يُحَقَّر بالجسد؛ كما قال صلى الله عليه وسلم: «يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُوَرِ الرِّجَالِ يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ»(٢)، وقال: «يَبْعَثُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَاساً فِي صُوَرِ الذَّرِّ، يَطَؤُهُمُ النَّاسُ بِأَقْدَامِهِمْ.

---

(١) رواه مسلمٌ، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع، رقم (٢٥٨٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه الترمذي، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، باب، رقم (٢٤٩٢)، من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه، ورواه أحمد في المسند

فَيُقَالُ: مَا هَؤُلاءِ فِي صُوَرِ الذَّرِّ؟

فَيُقَالُ: هَؤُلاءِ الْمُتَكَبِّرُونَ فِي الدُّنْيَا»[1]؛ جزاءً لهم، فكما استكبروا ورَفعوا رؤوسهم في الدنيا؛ فيوم القيامة يُوطؤون بأخفاف الناس في المحشر كالذرِّ؛ لذلك يجب على الإنسان أن لا يَستكبر.

ومِن أنواع الكِبْر:

بَطَر الحق - أيْ: ردُّ الحقِّ -، إذا نَصحك أحدٌ تُعرِض عنه، ولا تَقبل منه، واحتقار الناس؛ كما قال صلى الله عليه وسلم: «الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ»[2]؛ يعني: احتقارهم وازدراؤهم، والتحقير من شأنِهم.

بنحوه، رقم (٦٦٧٧).

(١) رواه المنذري في الترغيب والترهيب، فصلٌ في الحشر وغيره، رقم (٥٤٢٩)، من حديث عمرو بن شعيبٍ عن أبيه عن جده رضي اللَّه عنه، (٤/ ٢٠٨)، ورواه الهيثمي عن البزار في مجمع الزوائد، كتاب البعث، باب ما جاء في هول المطلع وشدة يوم القيامة، رقم (١٨٣٢٧)، من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، رقم (٩١)، من حديث ابن مسعودٍ رضي اللَّه عنه.

ومِن الكبْر أيضاً: أنَّ الإنسان وإنْ لم يُحقِّر الآخرين، لكنَّه يَستكبر بنفْسه؛ بعدم السلام، وعدم الوقوف، ونحو ذلك؛ لذلك قال اللَّه عز وجل في قصة لقمان: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً﴾ [لقمان: ١٨].

وممَّا يوجب عدم الكبر: إفشاء السلام المأمور به؛ حتى ذَهب بعض العلماء إلى وجوب إفشاء السلام[١]، وجَعله من الحقوق التي أَمر بها النبيُّ صلى الله عليه وسلم.

وإذا أراد الشخص أنْ يَعرف قدْر نفْسه؛ عليه أنْ يقرأ في سير النبلاء العظماء والعلماء والعبَّاد؛ ليَعرف أنَّه لا شيء أمامهم، وأعظم النبلاء والعظماء: الأنبياء والرسل، فيُكثر الشخص من قراءة سيرة النبيِّ صلى الله عليه وسلم، وكيفية معاملته، وعبادته مع اللَّه عز وجل ونحو ذلك، فهذه مما تُخَفِّض من استكبار الشخص.

وقد عُرف أنَّ الذي يتكبَّر هو الناقص؛ لذلك يُشبِّه بعض الحكماء المستكبِر بالسنبلة؛ فإن كانت غير مليئةٍ ترتفع، وإن كانت مليئةً تنحني،

---

(١) فتح الباري لابن حجر (١١/ ١٩).

وتنخفض؛ قال ابن القيم: «ومن قلَّة العَقل أنَّ الشخص إذا زاد جاهه؛ استكبر، وإذا زاد ماله؛ قلَّ عن النفقة ونحو ذلك»(١)، وذَكر كلاماً كثيراً في مِثل هذه الأمور.

والكبْر من صفات اللَّه الخاصَّة به، لا يشركه فيها أحدٌ؛ كما قال صلى الله عليه وسلم رواية عن اللَّه عز وجل: «الكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالعِزَّةُ إِزَارِي، لَا يُنَازِعُنِي فِيهَا أَحَدٌ إِلَّا قَصَمْتُهُ»(٢)، فمَن استكبر؛ قُصِم بالكبر وبالفخر ونحو ذلك؛ لذلك لا يوجد أجمل من التواضع، والتودد، والترحُّم، والانخفاض للناس.

وكان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يتلطَّف مع الصبيان، ويَقضي حاجات الناس، وبابه مفتوحٌ لهم، وقال الذَّهبيُّ عن شيخ الإسلام رحمهما اللَّه: «وله مُحبُّون من العلماء والصُّلَحاء، ومن الجُنْد والأمراء، ومن التُّجَّار والكُبَراء، وسائرُ العامَّة تُحِبُّ ابن تيمية؛ لأنَّه منتصب لنَفْعِهم

---

(١) الفوائد (١/ ١٥٥).

(٢) رواه أحمد في المسند، رقم (٧٣٨٢)، من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه، ولفظه: «الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعِزَّةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِداً مِنْهُمَا، أُلْقِهِ فِي النَّارِ».

ليلاً ونهاراً بلسانه وقلمه»[1]، كما قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ»[2]، وقال: «المُؤْمِنُ لِلمُؤْمِنِ كَالبُنْيَانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ»[3].

فالفخْر بالأحساب من أمور الجاهلية التي لا يتركونها، والنبي صلى الله عليه وسلم في صحيح مسلمٍ[4] قال: «مَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»؛ يعني: إذا لم يَنفعك عملك؛ فنسبك لن ينفعك.

---

(١) العقود الدُّرِّية (ص١٣٤).

(٢) رواه البخاريُّ، كتاب المظالم والغصب، باب لا يظلم المسلِم المسلِم ولا يسلمه، رقم (٢٤٤٢)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، ومسلمٌ، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسْلِم، وخذله، واحتقاره ودمه، وعرضه، وماله، رقم (٢٥٦٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضاً، رقم (٦٠٢٦)، ومسلمٌ، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، رقم (٢٥٨٥)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٤) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، رقم (٢٦٩٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فأبو لهبٍ لم ينفعْه نسبه؛ وهو قرشيٌّ وهاشميٌّ، ولم يَنتفع، وما مِن مسلمٍ إلا ويقرأ وصفَه وهو مِن أصحاب النار، وكذلك أبو جهلٍ؛ قرشيٌّ ولم ينتفع.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧]، فما يَنفعك إلا عملك، أمَّا نسبك، ومالك، وجاهك، لا يَنفعك، وملابسك؛ لا تنفعك، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ، وَلَا إِلَى صُوَرِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ»(١)، فالذي يَنفع هو العمل الصالح، فلا تفخرْ بنفسك.

والخصلة الثانية: قال: (وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ) يعني: احتقار أنساب الآخرين بتنقصها، أو التَّعْيير بها، مِثل قول: فلانٌ لا يَصلح أنْ يكون من هذه القبيلة، أو فلانٌ نسبه ليس جيداً؛ مِن باب الطعن والتحقير منه.

---

(١) رواه مسلمٌ، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسْلِم، وخذله، واحتقاره ودمه، وعرضه، وماله، رقم (٢٥٦٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أمَّا إذا كان من باب ما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣]؛ فلا بأس، كمِثل أن يُقال: هل أنتَ قرشيٌّ من بني هاشم؟ فما نعطيك الزكاة؛ فتسأله من باب الحُكم الشرعي، وهل أنت والدك فلان؟ حتى أعرفك، وعمك فلان؟ حين الزواج ونحو ذلك؛ فيُعرَف؛ فهذا ليس بمذمومٍ.

والمذموم أنْ يكون من باب الاحتقار والتنقُّص، بأنْ تقول: أنا مِن الأُسرة الفلانية، وفلانٌ حقيرٌ لا يَنفع لذلك بشيء.

وقد بيَّن هذا أيضاً قول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الآخر لأبي ذرٍّ لمَّا عيَّر أخاً بأمِّه، فقال: «إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ»(١)؛ يعني: مِن خصال الجاهلية، ومع ذلك لمْ يُكَفِّره.

فدلّ على أنَّ مَن اتَّصف بصفةٍ من صفات أهل الجاهلية عملاً لا اعتقاداً؛ فإنّه لا يَكفر بذلك.

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب ما ينهى من السباب واللعن، (٦٠٥٠)، ومسلمٌ، كتاب الأيمان، باب إطعام المملوك مما يأكل، وإلباسه مما يلبس، ولا يكلفه ما يغلبه، رقم (١٦٦١).

والخصلة الثالثة: قال: (وَالاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ) هذه من أمور الجاهلية التي يفعلونها، وهي: نسبة نزول المطر إلى ظهور النجم الفلاني، أو نسبة الحَرِّ بسبب دخول النجم الفلاني.

ومثل أيضاً: نسبة الحَرِّ للشهور الميلادية - مثلاً -، فيقول شخصٌ: بسبب شهر يناير؛ أتانا البرد، فالشهور ليس فيها بردٌ ولا تأتي بالحَرِّ؛ قال صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي: «يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الأَمْرُ أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ»[1]، فنسبة الطقس للشهور الميلادية نوعٌ من أنواع الاستسقاء بالنجوم، وهو مِن أفعال الجاهلية.

أمَّا الإخبار بنزول المطر؛ مِثل: أنْ يقول الشخص: يَكثر في شهر يناير المطر، أو مُطرنا في شهر يناير؛ فهذا لا بأس به، وأمَّا أنْ يقول: بسبب شهر يناير مُطِرنا؛ هنا المحذور.

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤] الآيَةَ، رقم (٤٨٢٦)، ومسلمٌ، كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب النهي عن سب الدهر، رقم (٢٢٤٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والخصلة الرابعة: قال: **(وَالنِّيَاحَةُ)** والمراد بها: رفْع الصوت عند المصيبة، ولو صاحَب رفْع الصوت مثلاً: لطْم الخدود، أو شقُّ الجيوب؛ فهذا أشدُّ في الوعيد - والعياذ باللَّه -، وهو من أمْر الجاهلية؛ لأنّ الواجب هو الصبر، وعدم التجزُّع والتسخُّط.

ولا محذور في دمْع العينين والحَزن؛ لأنَّ هذا من باب الرحمة والشفقة، والنبي صلى الله عليه وسلم حزِن ودَمعت عينُه[١].

أمَّا مَن كان غليظاً، فلا يَحزن، ولا تَدمع عينه؛ فليس هذا مِن كمال الطبائع البشرية، التي أتى وأمَر بها الإسلام.

---

(١) وذلك عند موت ولده إبراهيم. رواه البخاريُّ، كتاب الجنائز، باب قول النبي صلى اللَّه عليه وسلم «إِنَّا بِكَ لَمَحْزُونُونَ»، رقم (١٣٠٣)، ومسلمٌ، كتاب الفضائل، باب رحمته صلى الله عليه وسلم الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك، رقم (٢٣١٥)، من حديث أنسٍ رضي الله عنه، ولفظه: «فَدَمَعَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فَقَالَ: تَدْمَعُ الْعَيْنُ وَيَحْزَنُ الْقَلْبُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبَّنَا، وَاللَّهِ يَا إِبْرَاهِيمُ إِنَّا بِكَ لَمَحْزُونُونَ».

قال: (وَقَالَ: النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا) فدلَّ على أنَّ اللَّه سبحانه وتعالى يَقبل التوبة من أهل المعاصي، وحتى من أهل الكفر؛ قال سبحانه عنهم: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ [المائدة: ٧٤].

قال: (تُقَامُ يَوْمَ القِيَامَةِ) فيه إثبات الحشر والنشر.

وفيه إثبات العذاب.

وفيه بمفهوم الحديث إثبات النعيم.

(وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ) أي: ثوبٌ، أو قميصٌ، من نحاسٍ - والعياذ باللَّه -، وتُعذب بالنحاس؛ لأنَّه هو المعدن الوحيد الذي يَجذب الحرارة، وهو أيضاً أسرع معدنٍ في الذوبان، فيَذوب - والعياذ باللَّه - على الجلد مع الحرارة فيه؛ فيُجعَل لها ثوبٌ من نحاسٍ.

(وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ) الدِّرع: ما يحاط أيضاً بالجسم فوق هذا السربال - مِثل الذي يتّقي به المحارِب -؛ مِن أجْل زيادة العذاب عليها؛ بسبب أنها شَقَّت ثوبها في الدنيا، فجُوزِيَت بالسِّربال تُكسى به يوم القيامة إلَّا إذا تابت.

(مِنْ جَرَبٍ) أي: فيه مِثل صفة المجروب؛ أي: فيه مِثل الشوك فتحتاج المرأة إلى الحكَّة، فتَتعذَّب مِن هذا الدرع كما يتعذَّب المجروب بكثرة تحريك الجسم - والعياذ باللَّه -.

فدلَّ على أنَّ النياحة من كبائر الذنوب.

ويدلُّ على أنَّ النساء فيهنَّ جزعٌ أشد من الرجال؛ لذا نُهين أَن يَزرْن المقابر.

فهذا حديثٌ من أحاديث الوعيد، وقال عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء:١١٦]؛ بمعنى: إنْ شاء اللَّه عز وجل عذَّبها على قدْر ذنْبها، وإنْ شاء غَفر لها.

وليس هذ الحديث خاصٌّ بالنائحة؛ بل حتى الرجُل إذا ناح، وشقَّ ثيابه، ولطم خدَّه، وحلَق رأسه ونحو ذلك؛ يَدخل في هذا الوعيد، وإنَّما قال: (**النَّائِحَةُ**)؛ لأنَّ الغالب أنّ الذي ينوح هي المرأة.

فهذا الحديث ذَكر فيه المصنِّف رحمه الله أنَّ الاستسقاء بالنجوم عمل من أعمال الجاهلية، يجب الحذر منه، والبُعد عنه.

قال المصنِّف رحمه اللَّه: (**وَلَهُمَا: عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ رضي الله عنه، قَالَ: «صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالحُدَيْبِيَةِ**)

يذكر هنا رحمه اللَّه أنَّ الاستسقاء بالنجوم كُفرٌ، كما سيأتي تفصيله.

قال: (**صَلَّى لَنَا**) أي: صلى بنا، (**رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالحُدَيْبِيَةِ**) والحديبية تقع غرب مكة في مكانٍ يسمَّى الآن «الشَّميسيَّ».

(**عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ**) يعني: بعد أنْ نَزل المطر في الليل، فصلَّى بنا الصبح.

(**فَلَمَّا انْصَرَفَ**) أي: من الصلاة، (**أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ**) أي: التفت إليهم بوجهه.

فيدلُّ على أنَّ الداعية، أو إمام المسجد، إذا حدَث أمرٌ ينبغي له أنْ يُبيِّن الوُجهة الشرعية فيه؛ ليكون إمام المسجد إماماً ناصحاً مؤدِّياً لِما أَمر اللَّه عز وجل له من الأمانة، فمَن رأى مخالفةً من المصلِّين، أو رأى أمراً ينبِّههم عليه؛ لهذا الحديث وغيره.

(**فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟!**) هذا فيه دليلٌ على أنَّ اللَّه سبحانه وتعالى يَتكلم، وأنَّ كلامه متجددٌ.

ويدلُّ على أنَّ مِن صِيَغ التعليم الاستفهام.

(قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ) مِن أدب الصحابة نسبة عِلم ما لا يعلمون إلى اللَّه عز وجل وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم.

ونِسبة العِلم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيما يقوله في حياته جائزٌ؛ لأنَّه يوحَى إليه، وأمَّا بعد موته؛ فلا يجوز أن يقال: اللَّه ورسوله أعلم؛ لأنه قد مات.

(قَالَ) أي: النبي صلى الله عليه وسلم، **(قَالَ)** أي: اللَّه تعالى: **(أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ)** وهذا يدلُّ على أنَّ النعمة النازلة وإن قَلَّتْ قد تُغيِّر في معتقدات الناس؛ من مؤمنٍ إلى كافرٍ، ومن مؤمنٍ إلى ثابت في الإيمان.

فإذا كان بنزول المطر وَقع بعضهم في الكُفر؛ فما ظنُّك في النعم الكثيرة النازلة، والواصلة إلى العباد.

وهذا الحديث يدلُّ على أنَّ كلَّ نعمةٍ تَنزل مِن السماء، أو تَخرج مِن الأرض؛ يَنقسم العباد فيها إلى فريقين: مؤمنٌ شاكرٌ، وكافرٌ جاحدٌ، حتى لو كانت نعمةً قليلةً، فقطراتٌ مِن السماء؛ قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم؛ بل قال اللَّه: **(أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ)**.

ويدلُّ أيضاً على أنَّ الشخص قد يُصبح على إيمانٍ، ويُمسي - والعياذ باللَّه - على كُفرٍ، وقد يُمسي على إيمانٍ، ويُصبح على كُفرٍ، ولا مَرَدَّ من ذلك سوى قول: «اللَّهمَّ يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ وَالأَبْصَارِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»(١).

فهذا دليلٌ على تقلُّب القلوب، وأنَّ الإنسان قد يَخرج مِن الدين، ويَدخل في الكُفر وهو لا يَعلم، والمَخرج من ذلك: كثرة الدعاء بالثبات على هذا الدين؛ فليست الصعوبة في الهداية فقط؛ بل الصعوبة في الثبات على الهداية.

قال: (فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ) أي: نَسبَ المطر إلى اللَّه سبحانه وتعالى، وإلى فضْله ورحمته وكرمهِ.

والفضْل والرحمة صفتان من صفات اللَّه عز وجل.

---

(١) هذا حديثٌ رواه أحمد في المسند، رقم (١٢١٠٧)، من حديث أنسٍ رضي اللَّه عنه، ولفظه: «كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ».

فكلُّ نعمةٍ تَقع فهي مِن فضْل اللَّه، ورحمته، وجوده، وإحسانه لعباده سبحانه وتعالى، فكيف وهو المُتّصف بالكرَم والإنفاق، وهو المتصف بالحِلم، حتى وإنْ عصوه عباده يُعطيهم.

(فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي) ومَن قال مِثل هذا القول؛ فهو مِن أداء شُكر النعمة باللسان؛ قال سبحانه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، فمِن باب شُكر النعمة؛ نِسبتها إلى اللَّه.

فقولك: الحمد للَّه ربي، خَلقنا وأعطانا المال، وعلَّمنا، وعرَّفنا كيف نَكتب؛ هذا من باب شُكر النعمة، وإذا خَرجَتْ نتيجتك من المدرسة أو الجامعة تقول: الحمد للَّه، هذا من فضْل اللَّه وكرمِه، نحن ما عملنا شيء، هذا من فضْل اللَّه، وإذا أتتك نعمةٌ تقول: الحمد للَّه، هذا بفضل اللَّه.

فتَنسب النعمة للَّه؛ وهذا من كمال التوحيد، ولا يُمنع كذلك شُكر مَن تسبب في ذلك، فتنسب النعمة للَّه، وتشكُر مَن فعل ذلك، ونسبة النعمة للَّه مِن شُكرها، والإسلام متوازن، يعطي الخالق حقه العظيم

سبحانه، ومِن شُكر اللَّه؛ شُكر مَن تسبب في هذه النعمة؛ قال صلى الله عليه وسلم: «لَا يَشْكُرُ اللَّهَ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ»[١].

ويدلُّ على أنَّ مِن شُكر النعمة؛ التلفظ باللسان.

ومِن شُكرها أيضاً؛ الإقرار بالقلب بأنَّها من اللَّه؛ قال سبحانه: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

ومِن شُكرها أيضاً؛ استعمالها في طاعة اللَّه.

ويدلُّ أيضاً على أنَّ من السُّنَّة إذا نَزل مطرٌ أن يُقال: (**مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ**)، إضافةً إلى ما ثَبت في صحيح البخاريِّ[٢] أن يقول: «اللَّهمَّ صَيِّباً نَافِعاً»؛ أي: اللَّهم اجعله مطراً نافعاً.

(وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا) أي: مُطرنا بسبب غروب نجمٍ، فنَسب سبب نزول المطر إلى ذلك النجم؛ فهذا شركٌ أصغر لا يخرج من الملة.

---

(١) رواه أحمد في المسند، رقم (٧٩٣٩)، من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه.

(٢) أبواب الاستسقاء، باب ما يقال إذا أمطرت، رقم (١٠٣٢)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

وهكذا إذا نَسب الشخصُ النعمَ إلى غير اللَّه؛ فهذا مِن جحودها - والعياذ باللَّه -، والكُفر بها.

أمَّا إذا كان يعتقد أنَّ الذي يُدبِّر الكون هي النجوم؛ فقال: مُطرنا بها لا بسببها؛ فهذا كفرٌ أكبر - والعياذ باللَّه -.

أمَّا إن قال: مُطرنا في نوء كذا، أو في شهر كذا؛ فهذا جائزٌ.

فلتَجعل قلبك ولسانك معتاداً على نسبة النعم للَّه، فتقول: الحمد للَّه الذي أكرمنا، والحمد للَّه أعطانا، وهذا من كرم اللَّه، والحمد للَّه، اللَّه أحسن إلينا، ونحو ذلك.

وتُقدِّم شُكر اللَّه على شُكر العبد؛ لأنه لم تُصرَف همم البشر، وقلوبهم إليك، لقضاء حاجتك؛ إلا بتدبير اللَّه عز وجل لهم، وتسخيره لهم، فهو القادر على أنْ يُقرِّب قلوبهم إليك، أو يُبعدها.

وقوله: (فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالكَوْكَبِ) لنسبة نزول النعم إلى الخلْق، وإنْ كان الخلْق قد يكونون هم الواسطة - كما بيْن مخلوقٍ ومخلوقٍ في رزقٍ ونحو ذلك -.

فيجب نسبة الرزق إلى اللَّه؛ قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾ [سبأ: ٢٤]، وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ

اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣].

فدلّ على تعدُّد المعبودات من دون اللَّه، هذا مؤمنٌ بالكوكب، وهذا مؤمنٌ بالشيطان، وهذا مؤمنٌ بطاغوت، وهذا مؤمنٌ بالتحاكم إلى غير اللَّه، وهكذا؛ كما قال سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فالكُفر أنواعٌ متعددةٌ؛ منها: الإيمان بالكواكب.

والحديث في البخاريِّ ومسلم(١).

ثُم بعد ذلك قال: (وَلَهُمَا: مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: مَعْنَاهُ) أيْ: في ذِكر هذه القصة، (وَفِيهِ: «قَالَ بَعْضُهُمْ: لَقَدْ صَدَقَ نَوْءُ كَذَا وَكَذَا) نِسبتهم نزول المطر إلى النوء، معناه: (صَدَقَ نَوْءُ كَذَا وَكَذَا)؛ لنزول المطر فيه.

---

(١) سبق تخريجه (ص) عند قوله (وهذا حُكمه: شركٌ أصغر؛ كقول النبي صلى الله عليه وسلم: «وَأَمَّا مَنْ قَالَ).

(فَأَنْزَلَ اللَّه هَذِهِ الآيَةَ: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿تُكَذِّبُونَ﴾) هذه الآية التي ذَكرها المصنِّف رحمه اللَّه في أوَّل الباب.

فقوله: (﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾) قال أهل العِلم: النجوم هي النجوم المعروفة(١).

(﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾) يعني: لمَّا رَزقكم اللَّه النِّعم، تَجعلون شُكركم لها أنَّكم تَنسبونها لغير اللَّه؟

فهذا من باب التوبيخ والاستفهام، فاللَّه يُعطيكم النعم، وتَنسبونها إلى غير اللَّه.

فمثلاً: إذا عندك سائقٌ، وأعطيتَه الراتب، وذَهب إلى بيت الجيران، وقال لهم: شكراً أعطيتني الراتب؛ فهذا من جحود النِّعمة، وهم ينسبون النعمة إلى غير اللَّه، فلا شك أنَّ هذا مِن جحود النعمة، وقلَّة العقل؛ فلذلك قال تعالى في هذه الآية من باب التوبيخ لهم: (﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾)، وشُكركم بما أنعمتُ عليكم؛ (﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾) بنسبتها إلى غيري، وأنا المستحق أن تُنسَبَ إليّ.

---

(١) تفسير الطبري (٢٣/ ١٤٨).

فهذه الآية ذَكرها المصنِّف رحمه اللَّه؛ بمعنى: أنَّ مَنْ جَعَلَ النِّعم لغير اللَّه؛ فقد كَفرها، فهُنا حذَّر المصنِّف بذِكر هذا الباب مِن نسبة النِّعم إلى غير اللَّه؛ ومن ذلك نزول المطر.

فتبيَّن ممَّا سبق: أنَّ الاستسقاء بالنجوم ينقسم إلى قِسمين:

القِسم الأوَّل: وهو نسبة ما يقع مِن نزول المطر إلى هذه النجوم؛ بأنَّها هي الفاعلة، والمؤثرة فيه.

وهذا القِسم شركٌ أكبر.

القِسم الثاني: بأنَّها هي السبب في نزول المطر.

وهذا القِسم شرك أصغر.

وإذا نُسِب المطر إلى الشهر الفلاني، مثلاً: مُطرنا في هذا الشهر، أو بحمد اللَّه مُطرنا في هذا الصباح، أو الحمد للَّه مُطرنا في هذا الأسبوع.

فليس هذا من نسبة النِّعم إلى غير اللَّه، وإنَّما هو من باب تحديد النِّعم في الزمان - زمان النعمة -، مع نسبتها إلى اللَّه؛ فما فيه بأس.

فدلَّ على أنَّه يجب نسبة النِّعم إلى اللَّه، وأنَّ نِسبتها إلى الخلْق في كونهم سبباً لها؛ كُفرٌ أصغر - والعياذ باللَّه -.

***

[٣١]

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾

وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الآيَةَ.

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ، وَوَالِدِهِ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» أَخْرَجَاهُ.

وَلَهُمَا: عَنْهُ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم:

«ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ؛ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ:

أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا.

وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ.

وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ».

وَفِي رِوَايَةٍ: «لَا يَجِدُ أَحَدٌ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ حَتَّى...» إِلَى آخِرِهِ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ فِي اللَّهِ، وَأَبْغَضَ فِي اللَّهِ، وَوَالَى فِي اللَّهِ، وَعَادَى فِي اللَّهِ؛ فَإِنَّمَا تُنَالُ وَلَايَةُ اللَّهِ بِذَلِكَ.

وَلَنْ يَجِدَ عَبْدٌ طَعْمَ الإِيمَانِ - وَإِنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ وَصَوْمُهُ - حَتَّى يَكُونَ كَذَلِكَ.

وَقَدْ صَارَتْ عَامَّةُ مُؤَاخَاةِ النَّاسِ عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا، وَذَلِكَ لَا يُجْدِي عَلَى أَهْلِهِ شَيْئاً» رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: «﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾، قَالَ: المَوَدَّةُ».

الشرح:

قال رحمه اللَّه تعالى: (بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دونِ اللَّهِ أَنداداً يُحِبُّونَهُم كَحُبِّ اللَّهِ﴾).

العبادة ليست خاصَّةً بالجوارح كالصلاة والصدقة والحج.

وأكثر العبادات مدارها على القلب؛ مثل: الخوف والرجاء والتوكُّل، فهنا ذكر المحبَّة، فمن أنواع العبادة: المحبَّة.

والمحبَّة تنقسم إلى قِسمين:

القِسم الأَوَّل: محبةٌ لا يُلام العبد عليها، وهي محبةٌ مشترَكةٌ، وتكون في ثلاثة أمورٍ:

الأمر الأَوَّل: محبةٌ جبلِّيةٌ طبيعيةٌ، مِثل: محبَّة الجائع للطعام، ومحبة الظمآن للماء ونحو ذلك؛ فهذه لا يُلام عليها المرء.

الأمر الثاني: محبَّة تعظيمٍ وإجلالٍ وشفقة، مِثل: محبَّة الأم لولدها، ومحبة الابن لوالده، وهكذا؛ وهذه لا محذور فيها؛ بل أمر الشرع بها؛ قال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ [الإسراء: ٢٣].

الأمر الثالث: محبَّة أُلفٍ وأُنسٍ، مثل: معاشرة الرجُل في السفر، أو في أمور التجارة ونحو ذلك، والسؤال عنها؛ فهذه لا محذور فيها، إذا كان صاحبك مسلِماً، فتعطيه من المحبَّة بقدر ما فيه من الإيمان.

القِسم الثاني: محبةُ عبوديةٍ، وهي التي ذكرها المصنِّف رحمه اللَّه هنا؛ وهي المحبَّة الخاصة التي لا يجب صرْفها إلا للَّه.

وضابطها: مقتضيةٌ للذل، والخضوع، وكمال الطاعة.

فإذا توفرت هذه الأمور الثلاثة، وصُرفت لغير اللَّه؛ كانت محبةً – والعياذ باللَّه – شركيةً.

والمحبَّة هي: ميلُ القلب إلى شيءٍ، والقلب بطبيعته يميل إلى تعظيم وتبجيل مَن يرى أنّه أعظم منه، فالمسلِم يميل إلى اللَّه في التعظيم والمحبَّة والطاعة والذل والخضوع، وغير المسلِم يميل الشيطان بقلبه إلى غير اللَّه، من محبَّة الأَوَّلياء والأوثان والأنداد ونحو ذلك.

فإذا قيل: لا يُتَصوَّر أنّ المشرِك يحب الصنم.

نقول: اللَّه عز وجل أثبت ذلك فقال: (﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دونِ اللَّهِ أَنداداً يُحِبُّونَهُم كَحُبِّ اللَّهِ**﴾)، فمِثلما أنَّك تُحب اللَّه، فأهل الأصنام والأوثان يحبون أندادهم، وأوثانهم، وأصنامهم، كما أنك تحب ربك سبحانه؛ ولذلك قال اللَّه: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا العَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦]، فدلَّ على أنَّ بينهم مودةً ومحبةً وأُلفةً، فالكافر يُحبُّ معبوده، كما أنّك تحبُّ معبودك.

وكلما زادت تلك المحبَّة؛ كلما توغَّل العبد في الشرك، وكلما قلَّ الذلُّ والخضوع وقلَّت الطاعة؛ كلما قلَّ ذلك بحسبه، وإلا فالأصل أنَّ صرف المحبَّة الخاصة لغير اللَّه شركٌ.

فلو أنَّ شخصاً قال: أنا لا أريد أنْ أحج إلى مكة، لكن أريد أنْ أذهب إلى قبر الولي الفلاني، لأني أحبه كثيراً؛ فهُنا قدَّم محبَّة غير اللَّه على محبَّة اللَّه، فأطاع ذلك الصنم أو القبر، وعصى ربه عز وجل.

وأيضاً مثل: إذا أحبَّ رجُلٌ زوجته، وغلا في حُبِّها، وعصى اللَّه من أجل محبته لها؛ فهذه محبةٌ شركيةٌ؛ يعني: لو أنَّ الزوجة قالت لزوجها: احلق لحيتك فأنا أريدك أن تَحلقها، فقال: لأني أحبك؛ سأحلق لحيتي، فحلَق لحيته من أجل ذلك، وإنْ أراد أنْ يصلِّي، وقالت له: لا تصلِّ، فقال: أنا أريد أنْ أصلِّي، لكن من أجل محبتك؛ سأطيعك ولن أصلي؛ فهذه هي: المحبَّة الشركية - والعياذ باللَّه-، وعلى هذا فقِس.

والمصنِّف رحمه اللَّه ذَكر في هذا الباب: آيتين وحديثين وأثراً.

فساق الآيتين؛ ليبيِّن لك المحبَّة الشركية، وساق الحديثين في المحبَّة التي تنافي كمال التوحيد الواجب إذا نَقصت، ثم ذَكر الأثر؛ ليبيِّن ماهي الأسباب الجالبة لمحبة اللَّه عز وجل.

النَّصُّ الأَوَّل: الآية التي بوَّب عليها - (﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دونِ اللَّهِ أَنداداً**﴾) -: لبيان أنَّ صرف المحبَّة المختصَّة باللَّه لغيره؛ شركٌ أكبر.

النَّصُّ الثاني - (﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ﴾) -: لبيان وجوب محبَّة اللَّه، وتقديم محبَّته على محبة غيره.

النَّصُّ الثالث - (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ ...) -: لبيان وجوب محبَّة الرسول صلى الله عليه وسلم أشد من محبَّة الولد والوالد.

النَّصُّ الرابع: لبيان أنَّ حلاوة الإيمان لا تأتي إلا بتحقيق المحبَّة المختصة.

والنَّصُّ الخامس: لبيان أنَّه لن يجد شخصٌ حلاوة الإيمان إلا بتحقيق تلك العبادة.

النَّصّ السادس: لبيان آثار تلك المحبَّة، وهي نوال ولاية اللَّه سبحانه وتعالى.

لذا قال المصنِّف رحمه الله: **(بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى)** بوَّب المصنِّف رحمه اللَّه على هذا الباب بآية كصنيع أعلام الأمَّة كالإمام البخاري، والنسائي، وأئمة الحديث.

وبوَّب على هذا الباب بهذه الآية؛ لبيان أن صرف المحبَّة المختصة لغير اللَّه؛ شرك باللَّه، يجب الحذر منه.

قال: (قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾).

قوله: (﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾) أيْ: من أهل الشرك.

(﴿أَندَاداً﴾) يعني: أمثالاً، ونُظراء، وأولياء، وأوثاناً، وشفعاء من دون اللَّه.

وصفتهم: (﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾) فدلَّ على أنَّ المشركين يُحبُّون اللَّه، لكن وَقعوا في الشرك؛ لأنَّهم صَرفوا هذه المحبَّة لغَيره أيضاً.

فلمَّا جَعل المحبَّة فيها شرك؛ دلَّ على أنَّها عبادةٌ لا تُصرف لغير اللَّه، فالتشريك في المحبَّة المختصة باللَّه؛ شركٌ باللَّه.

مثل: لو قال شخص: أنا أحب النبي صلى الله عليه وسلم - وزاد في حبِّه - وقال: ومن حبِّي له سوف أَذهب عند قبره وأطوف، فنقول: هذه محبَّةٌ مختصَّةٌ باللَّه، ولا تُصرف هذه العبادة إلا للَّه.

فلو أنَّ رجُلاً قال: لن أحجَّ هذا العام؛ سأَذهب إلى القبر الفلاني؛ لأني أحبه، والسَّنة القادمة – أنا أحبُّ اللَّه أيضاً – سأذهب إلى الحج، هنا أَثبت محبَّة الولي، وأَثبت محبَّة اللَّه، فمحبَّته للولي لم تنفعْه؛ لأنَّ المحبَّة المختصَّة عبادةٌ للَّه؛ لا تُصرَف لغير اللَّه.

واللَّه عز وجل في الحديث القدسي[١] يقول: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»[٢]، فإذا أَحببتَ مع اللَّه؛ فقد وقعتَ في شرك المحبَّة التي تقتضي الخضوع والذل وكمال الطاعة.

فإذا ذلَّ الشخص لصاحب القبر، وخَضع له بالذبح والنذر ونحو ذلك، أو خاف منه؛ فهي: محبَّةٌ - والعياذ باللَّه - شركيةٌ.

والمصنِّف رحمه اللَّه يَذكر هنا المحبَّة المنهيَّ عنها، سواء التي تُخرج الشخص من دائرة الإسلام، أو التي تُنقص توحيده الواجب.

فساق المصنِّف رحمه اللَّه هذه الآية؛ ليبيِّن لك أنّ المحبَّة نوعٌ من أنواع العبادة، وأنَّك إذا صَرفتها لغير اللَّه؛ فقد وقعتَ في الشرك.

فدلَّ على أنَّ مَن أحبَّ غير اللَّه؛ فقد وَقع في شرك المحبَّة الخاصة، وهي: العبودية؛ ليست المحبَّة الجبلِّيَّة، وليست محبَّة الإشفاق، وليست

---

(١) الحديث القدسي هو: ما نُقل إلينا آحاداً عنه صلى اللَّه عليه وسلم مع إسناده له عن ربه عز وجل. الفتح المبين لابن حجر(١/ ٤٣٢).

(٢) رواه مسلمٌ، كتاب الزهد والرقائق، باب من أَشرك في عمله غير اللَّه، رقم (٢٩٨٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

محبَّة الأُلفة والعِشرة ونحو ذلك؛ وإنَّما محبَّة العبودية الخاصة المقتضية للذل والخضوع وكمال الطاعة.

فالمشرك يُحب اللَّه، ويحب مع اللَّه غيره، لكن لمَّا صَرف من قلبه محبةً لغير اللَّه؛ صار مشركاً.

ثم قال: (**وَقَوْلُه: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ ...﴾**) إلى آخر الآية.

ساق المصنِّف رحمه اللَّه هذه الآية مع الحديثين الآتيين؛ ليبيِّن لك أنَّ هذه الأمور تنافي كمال التوحيد الواجب، وأنَّ العبد إذا أَوغل في تلك المحبَّة؛ توصله إلى الشرك الأكبر - والعياذ باللَّه -، إذا أخلَّ بشيءٍ من الأمور الثلاثة - من أركان المحبَّة الخاصة السابقة -.

(﴿إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ..﴾) أي: إذا كنتَ تحب والدك أكثر من اللَّه، وتطيعه في معصية اللَّه ونحو ذلك؛ فالتهديد: (﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾)، فدلَّ على أنّ المحبَّة عبادةٌ، ويجب صرْفها للَّه، وأنَّ مَن أحبَّ مع اللَّه غيرَ اللَّه في محبَّة الدنيا؛ يَدخل في سياق الآية.

فنَزلت هذه الآية في المهاجرين؛ قال بعضهم: كيف نترك أولادنا وأموالنا ونهاجر؟ فأَحبوا وركنوا للدنيا، فجاءت آيات التهديد: (**﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾**).

(﴿وَتِجَارَةٌ﴾) فمثلاً لو وَجبت على الشخص زكاةٌ، فيقول: لا، أنا أحب المال، فاللَّه قال: (﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّه بِأَمْرِهِ﴾).

فيجب أنْ تكون محبتك للَّه، وتضحِّي للَّه، بالمال والولد ونحو ذلك، فيما أمَر اللَّه، فاللَّه أمرَ بالهجرة؛ فتضحِّي بأموالك وأولادك وهكذا.

فدل على أنَّ محبَّة اللَّه يجب أن تُقدَّم على جميع المحابِّ؛ أي: أن المحبَّة المستلزِمة للأمور الثلاثة - طاعة، خضوع، ذل - يجب أن يُقدَّم اللَّه عز وجل فيها، مثال ذلك: لو أن شخصاً يحب زوجته، وأراد أن يصلِّي، فقالت له: لا تصلِّي، أطعْني إذا كنت تحبني، فلم يصلِّ مثلاً، أو شَرب الخمر حبّاً لها، وطاعةً لها؛ فهذه - والعياذ باللَّه - هي المحبَّة الشركية.

وقوله: (﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم﴾) دلَّ على أنَّ مَن في قلبه محبَّة اللَّه مع محبَّة غيره - كمحبة المال -؛ فبقدْر توغُّل القلب فيها يقع في المعصية، فإذا توغَّل توغُّلاً كاملاً، في الأركان الثلاثة؛ يقع في الشرك الأكبر، وإذا وَقع فيها؛ فبحسب ما في قلبه منها، يصيبه من الذنوب ما أصابه - والعياذ باللَّه -.

وإذا كَملت المحبَّة في القلب للَّه؛ فإنه ينال محبَّة اللَّه، كما سيأتي.

فيجب تقديم ما يحبه اللَّه على ما يحبه الآباء، والأبناء، والأزواج، والعشيرة، والأموال، وإذا لم يحقق المسْلِم ذلك؛ قال اللَّه: (﴿**فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ**﴾) يعني: بعذابه، (﴿**وَاللَّه لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾).

ثم قال: (**عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ**: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ**).

ساق المصنِّف رحمه اللَّه هذا الحديث؛ ليبيِّن المحبَّة التي إذا صُرفت لغير اللَّه؛ تنافي كمال التوحيد الواجب.

(**لَا يُؤْمِنُ**) يعني: الإيمان الكامل الواجب.

(**حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ، وَوَالِدِهِ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**) عليه الصلاة والسلام، فيجب على كلِّ مسلِمٍ أنْ يحب النبي صلى الله عليه وسلم حُبّاً يفوق حُب ولده، ووالده؛ بل حُبَّ جميع الناس؛ لأنه هو السبب في إنقاذنا من النار بفضل اللَّه، وتَعِبَ، وجَاعَ، وجَاهَدَ؛ كله من أجلنا عليه الصلاة والسلام؛ لذلك لما قال عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي.

فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «لَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ.

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الآنَ، وَاللَّهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي.

فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «الآنَ يَا عُمَرُ» رواه البخاريُّ[1].

ومعنى محبَّة النبي صلى الله عليه وسلم وتقديمها على الولد والوالد: كأن يهاجر الإنسان من مكانٍ في عهد النبي صلى الله عليه وسلم إليه؛ لطلب العلم، والتعلم، حتى ولو كان الولد، أو الوالد يقولان: لا تهاجر.

وكذا الآن تقديم محبَّة النبي صلى الله عليه وسلم في الطاعة على الولد، والوالد.

فلو قالت الزوجة مثلاً: لا تصلِّ في المسجد وصلِّ في البيت، فتقول: لا، أنا أحب النبي صلى الله عليه وسلم وأطيعه وأصلي في المسجد وهكذا.

---

(١) كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي صلى الله عليه وسلم، رقم (٦٦٣٢)، من حديث عبد اللَّه بن هشامٍ رضي الله عنه.

فإذا وجبت الهجرة؛ تترك ولدك وتهاجر، ولن تَكمل محبتك للَّه؛ إلا بهذا، والولد كذلك يهاجر لطلب العلم الواجب، حتى لو ترك والده، فيُقدِّم محبَّة اللَّه على محبَّة والده.

فإذا أَمر النبي صلى الله عليه وسلم بأمرٍ؛ فقدِّمْه حتى لو أَسخطْتَ الناس أجمعين، وحتى لو أسخطتَ زوجتك، فإنْ قالت: احلق لحيتك، تقول: لا، لا يجوز، ولو قالت: اسمع الأغاني أنا أحبها، تقول: لا، لا يجوز، وأُقدِّم محبَّة اللَّه ومحبة نبيه صلى الله عليه وسلم على محبتكِ وهكذا.

يعني: أنَّ المحبَّة في الأصل موجودةٌ، لكن لا تَكمل حتى تُقدِّم محبَّة النبي صلى الله عليه وسلم على محبَّة أقْرب الناس إليك.

فدلّ على وجوب محبَّة القلب للَّه، وصرْفها له بالطاعة، والامتثال إليه، وأنَّ محبَّة النبي صلى الله عليه وسلم؛ تكون بامتثال أمره، والانقياد لطاعته؛ كما قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّه فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّه وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

والمحبَّة هي أصل هذا الدين، فالدين ثلاثة أركانٍ: محبَّة اللَّه، ورجاؤُه، والخوف منه، وشبَّهها العلماء بالطائر؛ فالرأس: المحبَّة، والرجاء والخوف: الجناحان.

فإذا أَحبَّ الإنسان اللَّه عز وجل أطاعه، واللَّه عز وجل أهْلٌ لأن يُحَبَّ، فهو الذي خلقنا، ورزقنا، وأعطانا، ويسَّر أمورنا وغير ذلك؛ لذلك أوَّل آية في القرآن: ﴿الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢].

قال رحمه اللَّه: (وَلَهُمَا) أي: البخاري ومسلم، (عَنْهُ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: ثَلَاثٌ) أي: ثلاث خصالٍ، فلا بد من وجود هذه الأمور الثلاثة متفقةً، فوجود أحدها لا يَكفي.

(مَنْ كُنَّ فِيهِ) أي: مجتمعةً، (وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ) متعته ولذته وطعمه؛ أي: نال حلاوة الإيمان.

ووجودها في قلبه إيجادٌ حسي - أي: يَشعر بذلك -، فيَشعر بطعم الإيمان في القلب أحلى من طعم الحَلَى الذي في الفم.

يعني: هناك محبةٌ، إذا فَعلْتها؛ يَكمل إيمانك، وتجد حلاوة الطعم؛ قال بعض أهل العِلم[١]: «إنَّ تلك الحلاوة محسوسةٌ باللسان، يجدها الإنسان في لسانه، وسرور قلبه، وأعضائه ونحو ذلك، أشد من متعته ولذته بالطعام».

وهذه الثلاث قال:

الخصلة الأُولى: (أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا) أي: يُقدِّم محابَّ اللَّه، ومحابَّ رسوله صلى اللَّه عليه وسلم - أي: ما يحبه اللَّه ورسوله -، على ما تحبه نفْسه، مثل: الصائم يصوم وهو يحب الأكل، لكن يقدم ما يحبه اللَّه وهو أجْر الصوم على ما تحبه نفْسه؛ فهذا من مواطن طعْم الإيمان؛ لذلك يجد الصائم في صيامه لذةً؛ بسبب هذا النوع، وهو أنَّه قدَّم أوامر اللَّه على ما تهواه نفسه.

فكيف يكون اللَّه ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما؟

بتقديم طاعة اللَّه على طاعة غيره؛ يعني: إذا كان عندك طفلٌ صغيرٌ، وأردتَ أنْ تَذهب لتصلِّي، فقال لك الطفل: اجلس عندي يا والدي؛ أنا

(١) كابن القيم رحمه اللَّه. إغاثة اللَّهفان (٢/ ٩٤٧).

أريدك، فتقول: نعم واللَّه أَجلس من أجْلك؛ فهذه محبَّةٌ منهيٌّ عنها؛ لأنَّك قدَّمتَ طاعة غير اللَّه -وهو طفلك- على طاعة اللَّه وهكذا.

فدلَّ على أنَّ من أنواع المحبَّة التي من كمال التوحيد الواجب، هي: أنْ يُقدِّم محبَّة اللَّه ورسوله على محبَّة غيره، حتى يجد حلاوة الإيمان، وأنَّ من الثمرات المعجَّلة لتلك العبادة: وجود ذلك في انشراح الصدر والقلب، وطعْمها في الجوارح؛ يعني: حلاوة الإيمان.

والخصلة الثانية: قال: (وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ) أي: أنَّ محبته للمرء خالصةٌ لوجه اللَّه.

وضابط المحبَّة في اللَّه مع الإخوان: أن لا تزيد مع البِرِّ والمدح، ولا تَنقص مع الجفاء والذمِّ؛ بل إذا أَحسن لك صاحبك تحبه، وإذا أساء لك تحبه، سواء أَحبك أو جفاك، فلا تحبه مِن أجْل ماله، ولا من أجْل صورته، ولا من أجْل جاهه، ولكن تحبه لدينه، ومحبتك له ناشئةٌ من محبَّة اللَّه له، فمِن محبَّة اللَّه: محبَّة أهل طاعته من الصالحين وغيرهم.

وهذه - أي: المحبَّة بين الأخوة - عِبَادةٌ عَظِيمَةٌ سهلةٌ، وثوابها منه ما هو معجَّلٌ، ومنه ما هو مدَّخرٌ في الآخرة.

فممَّا عُجِّل: أنَّه يجد طعم الإيمان في قلبه بسبب هذه العبادة.

وفي الآخرة: يظلهُ اللَّه عز وجل في ظله يوم لا ظل إلا ظله؛ كما قال صلى الله عليه وسلم: «وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ».

وهذه العبادة هي أسهل العبادات المنصوصة في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّه فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ...»[(١)]؛ لأنها عبادةٌ قلبية، فلا يَتكلم بلسانٍ، ولا يَتصدق بمالٍ، ولا تَتحرك جوارحه بالمشي - مثلاً - أو بالزيارة، فمجرَّد محبتك للصالح بقلبك هذه ثوابها عظيمٌ.

فيجب على المسلِم أنْ تكون محبته للمؤمنين للَّه؛ لأن اللَّه عز وجل يُحَبُّ لأنَّه أهلٌ لذلك، ومن لوازم محبَّة اللَّه أنْ تُحب من يطيع اللَّه، وأيضاً من لوازم محبَّة اللَّه أنْ تحب طاعة اللَّه.

والخصلة الثالثة: قال: (وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ) يعني: يَفرح بالإسلام ويحبه حُبّاً جماً، ويَكره أن يكون كافراً،

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الأذان، باب مَن جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد، رقم (٦٦٠)، ومسلمٌ، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، رقم (١٠٣١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ومحبته للإيمان وكُرهه للكُفر مثل كُرهه أن يُقذف في النار، فإذا كان لا يُحب أن يُلقى في النار كذلك فهو لا يحب الكُفر.

فإذا كان الشخص بهذه المثابة؛ يَفرح ويَخاف من سلْب الإيمان منه، كما يَخاف من قذْفه في النار، فإذا كان استواء قلبه مِن دخول النار، مع ترْك الإسلام سواء؛ فهذه من علامات وطعْم كمال الإيمان.

فدلّ الحديث على وجوب المحبَّة التي تُكمل التوحيد الواجب، وأنَّ من أخلَّ بها وَقع في إيمانه خللٌ بقدْر ما أَنقص من المحبَّة التي تقع في قلبه، ودلَّ على أنَّ محبَّة الإيمان والفرح به أجرها عظيمٌ، وثوابها معجَّلٌ أيضاً بوجود حلاوة الايمان.

وحلاوة الإيمان نوعٌ من أنواع النعيم في الدنيا، فالسرور والفرح وشرْح الصدر هذا مما خصَّ اللَّه عز وجل به المؤمنين نعيماً لهم مُعجَّلاً في الدنيا؛ قال سبحانه: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، ولهذا قال اللَّه سبحانه ممتنّاً على النبي صلى الله عليه وسلم بهذه النعمة: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١]، فيجب علينا جميعاً أنْ نَفرح بالهداية، وأن نحب الإسلام؛ لأن اللَّه يحبه ورَضيه لنا.

قال: (وَفِي رِوَايَةٍ: «لَا يَجِدُ أَحَدٌ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ حَتَّى...).

ساقها المصنِّف؛ لبيان أنَّه ليس هناك طريقٌ لنوال هذا النعيم المعجَّل سوى بتحقيق تلك الخِصال الثلاث.

ثُم بعد ذلك ذَكر ثِمار المحبَّة في اللَّه وهي نوال العبد ولاية اللَّه؛ يعني: مَن حَقَّق المحبَّة للَّه يكون بإذن اللَّه وليّاً للَّه سبحانه، وإذا كان وليّاً فاللَّه يقول: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤].

قال: (وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ فِي اللَّهِ، وَأَبْغَضَ فِي اللَّهِ، وَوَالَى فِي اللَّهِ، وَعَادَى فِي اللَّهِ؛ فَإِنَّمَا تُنَالُ وَلَايَةُ اللَّهِ بِذَلِكَ) أي: قوله: (**مَنْ أَحَبَّ فِي اللَّهِ**) هذه هي الخِصلة الأُولى لنوال ولاية اللَّه؛ أي: أن يكون وليّاً للَّه، فهذه الخصلة الأُولى من أربع خصال:

الخصلة الأُولى: (**مَنْ أَحَبَّ فِي اللَّهِ**) مِن عباده المؤمنين.

الخصلة الثانية: (**وَأَبْغَضَ فِي اللَّهِ**) سواء أَبغض المعاصي، أو أَبغض أهل الكُفر وكذلك أَبغض الكفر؛ هذا من أسباب ولاية اللَّه.

الخِصلة الثالثة: (**وَوَالَى فِي اللَّهِ**) المراد بالموالاة هنا؛ أي: النصرة للمؤمنين، والدفاع عنهم؛ فهي من أسباب ولاية اللَّه للعبد.

الخِصلة الرابعة: (وَعَادَى فِي اللَّهِ) أي: تَبرَّأ من المشركين، وآلهتهم؛ كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦]، ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي﴾ [مريم: ٤٨]، فلا تتم المعاداة في اللَّهِ إلا بأمرين: بُغض الآلهة، وبُغض من عَبدها.

قال: **(فَإِنَّمَا تُنَالُ وَلَايَةُ اللَّهِ بِذَلِكَ) (وَلَايَةُ اللَّهِ)** محبَّة اللَّه، وفي وجهٍ: «وِلَايَةُ» بكسر الواو، وبالفتح أصحّ.

فلو قال لك شخصٌ: ما هي الأسباب الجالبة لمحبة اللَّه؟

تقول: طاعته، ومن أمثلة طاعته: الحُبُّ في اللَّه، والبغض في اللَّه، فتحب الشخص لطاعته وإيمانه، وتُبغض آخر لكُفره وفسْقه، وتُوَالِي في اللَّه بالنصرة والتأييد، وتُعَادِي في اللَّه بالبغض لمن أَبغضه اللَّه وعاداه، من الكفار والمنافقين، فتَنال محبَّة اللَّه وولايته ونصْرته بذلك الأمر.

قال: **(وَلَنْ يَجِدَ عَبْدٌ طَعْمَ الإِيمَانِ - وَإِنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ وَصَوْمُهُ -)** إلا بهذه الأمور الثلاثة **(حَتَّى يَكُونَ كَذَلِكَ)** يعني: أنَّ الشخص لن يجد طعْم الإيمان حتى يَفعل هذه الأمور: الحُبُّ في اللَّه، والبغض في اللَّه، والموالاة والمعاداة في اللَّه.

ثم قال: (وَقَدْ صَارَتْ عَامَّةُ مُؤَاخَاةِ النَّاسِ عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا) يعني: ابن عباس رضي اللَّه عنهما يقول: أنَّ في عصْر التابعين أَكثرُ الناس صارت محبتهم للدنيا، فإذا كان هذا في عصْر القرون المفضلة مع أنَّ الدنيا لم تُفتح عليهم؛ فكيف مع انفتاح الناس على الدنيا، وافتتانهم بها، ومحبتهم لها، وشغفهم بها، والسعي والقرب من أصحاب الدنيا ونحو ذلك، فهذا ابن عباس رضي اللَّه عنهما يقول ذلك في القرون المفضلة، فما بعده من القرون لا شك أشدّ بُعداً عن تلك الصفات الثلاث السابقة، لكنَّ المرء يُجاهد نفْسه، ويدافعها؛ لئلا تقع في ذلك.

قال: (وَذَلِكَ لَا يُجْدِي عَلَى أَهْلِهِ شَيْئاً) يَعني: ما ينفع أنَّ الانسان يحب الآخر لأجْل الدنيا فمحبته للدنيا منقطعةٌ كما سيأتي، أمَّا المحبَّة للَّه فهي باقيةٌ كما قال سبحانه: ﴿الأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

ثُم قال: (وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: «﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾؛ قَالَ: المَوَدَّةُ») أي: يوم القيامة كلُّ محبةٍ تَنقطع إلا ما كانت للَّه سبحانه وتعالى.

فدلَّ على أنَّ الكفار يُحبون غير اللَّه، وأنَّ من أنواع المحبَّة التي توقع الكفار في النار المحبَّة الشركية، التي سبقت بأركانها الثلاثة: الذل والخضوع وكمال الطاعة.

***

[٣٢]

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ الآيَةَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ الآيَةَ.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه مَرْفُوعاً: «إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ: أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ، وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَى رِزْقِ اللَّهِ، وَأَنْ تَذُمَّهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ؛ إِنَّ رِزْقَ اللَّهِ لَا يَجُرُّهُ حِرْصُ حَرِيصٍ، وَلَا يَرُدُّهُ كَرَاهِيَةُ كَارِهٍ».

وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «مَنِ الْتَمَسَ رِضَا اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ؛ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَرْضَى عَنْهُ النَّاسَ. وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ؛ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ» رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ».

الشرح:

قال رحمه الله: (بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾) هذه الآية نَزلت بعد المُنصرَف من غزوة أحد، لمَّا انصرف المسلمون؛ بدأوا يخوفونهم، فقال تعالى: (﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾) واصرِفوا هذه العبادة لي، (﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾).

فدلّ على أنَّ الشخص لا يكون مؤمناً؛ إلا إذا صَرف الخوف للَّه وحده.

ويَذكر المصنِّف رحمه الله في هذا الباب أنواع الخوف، والخوف يَنقسم إلى أقسام:

القِسم الأوَّل: الخوف من اللَّه سبحانه وتعالى إنْ فَعل المعاصي، أو قَصَّر في الواجبات؛ وهذا هو المحمود والمُثنى عليه؛ قال سبحانه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

القِسم الثاني: الخوفُ من غير اللَّه، وهو لا يَنفع ولا يَضر؛ كالخوف من الموتى أن يَضروه إذا لم يدْعُهم أو إذا لم يزرهم، أو إذا أتى ذكْرهم

يخاف منهم أنه قد قصر في حقهم بعدم عبادته لهم؛ وهذا يُسمَّى خوف السر؛ يعني: خوف القلب.

وهذا القِسم قد يَخرج به الإنسان من الدين وهو على فراشه، فمجرد الخوف من الموتى ونحوهم أن يضروه، وهم لا يملكون شيئاً؛ يُخرج الإنسان من الدين - كما سيأتي -.

والقِسم الثالث: أنْ يترك طاعةً خوفاً من الناس أن يَضروه؛ يعني: يَخشى وليس حقيقة؛ وهذا نوعٌ من الشرك الأصغر.

والقِسم الرابع: الخوف الطبيعي؛ مثل: أن يخاف الإنسان من النار، أو أن يخاف من الأسد، ونحو ذلك.

والمصنِّف رحمه الله ذَكر خمسة نصوصٍ في هذا الباب:

النَّصُّ الأَوَّل: (﴿**إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾)؛ لبيان أنَّ الخوف من وقوع ضررٍ عليك وكذا الخوف من اللَّه عبادةٌ، وأنَّ صرفها لغير اللَّه كُفرٌ.

والنَّصُّ الثاني: (﴿**إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّه مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ ...**﴾)؛ لبيان أنَّ عُمَّارَ المساجد من المصلِّين وغيرهم لا يخافون إلا اللَّه.

والنَّصُّ الثالث: لذمِّ من خاف من الناس إنْ فعَل واجباً أو تَرك منهياً.

والنَّصُّ الرابع: لبيان أنَّ من ضعْف اليقين أن تُرضي الناس بسخط اللَّه.

والنَّصُّ الخامس: لبيان ثمرة من أَرضى اللَّه ولو سَخط عليه الناس؛ وهي أنَّ اللَّه يَرضى عنه ويُرضي عنه الناس.

لذلك قال المصنِّف: (**بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾**) أي: يخوفكم بجنوده من أن يضروكم إذا لم تعبدوهم، (**﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾**) وهو من الخوف الملقب بـ«خوف السر»، (**﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾**).

فدلَّ على أنَّ الخوف من غير اللَّه أنْ يَضرك وهو لا يقدر؛ هذا - والعياذ باللَّه - يُخرج الإنسان من الإيمان، ومَن خاف مِن اللَّه؛ فاللَّه سبحانه وَعده بجنات النعيم.

ثُم قال: (**وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾**) والمراد بالعمارة هنا: ليست عمارة البُنيان فحسْب، وإنَّما عمارتها بالطاعة من الصلوات، وتلاوة المصحف، أو نشْر العِلم وهكذا.

(﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾) فالذين يَعمرون مساجد اللَّه؛ هم مَن يؤمنون باللَّه واليوم الآخر، ويقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ولا يخشون إلا اللَّه، (﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾) وهذا هو الشاهد؛ يعني: مَن صفته كذلك.

والمصنِّف رحمه الله استدلَّ على الخوف بالخشية.

والفرق بين الخوف والخشية:

أن الخشية منزلةٌ أعلى من الخوف، ولا تكون الخشية إلا عن عِلمٍ، أمَّا الخوف فهو الهربُ إلى مَن يخافه، أو الهرب عمَّن يَخافه.

والفرْق بين النوعين يَتضح بالمثال: مثلاً: لو رأى رجُلٌ أسداً فهَرب منه، هربه هذا؛ من أجْل الخوف، فما كان فيه هربٌ فهو خوفٌ، قال سبحانه: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾؛ يعني: خافوا من اللَّه وتوجهوا إليه، ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠].

أمَّا الخشية فهي خوفٌ مع عِلمٍ، مثل: لو هناك أسدٌ وشخصٌ يَعلم أن هناك أسداً فلم يَخرج مِن بيته؛ فهنا الخشية فيها عِلمٌ بوجود الأسد،

ولم يَخرج وإنَّما مَكث في بيته، أمَّا الخائف فخَرج ولم يَعلم أن هناك أسداً فهَرب.

وكذا الخشية من اللَّه أنَّ الإنسان يَعلم أنَّ اللَّه شديد العقاب؛ فلا يَخرج إلى المعاصي وإنَّما يَبقى في بيت الطاعة.

والخشية أخصُّ من الخوف، وهي خاصَّةٌ بالعلماء؛ يعني: لا يصل إلى هذه المرتبة إلا العلماء، لذلك قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

فإذا قيل: لماذا غير العلماء لا يصِلون إلى هذه المرتبة؟

نقول: لأنَّ العلماء هم أشد الناس معرفةً باللَّه عز وجل، فيُعظِّمون اللَّه حقَّ تعظيمه، فيَحصل في قلوبهم من الخشية للَّه ما لا يَحصل لغيرهم.

قال: (﴿فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾) يعني: يا أيها الناس كونوا مع أولئك المُثنى عليهم، واجْعلوا خوفكم للَّه وحده.

ثُم بعد ذلك قال المصنِّف: (وَقَوْلُهُ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّه﴾) يعني: ممَّن لم يقرَّ الإيمان في قلوبهم.

(﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾) حَصلت له فتنةٌ، أو محنةٌ؛ يعني: عُذِّب - مثلاً - أو خاف من شيءٍ؛ (﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾) أي: جَعل ما حَصل له من ابتلاء الناس له - مِثل: مَن ذمَّه أو قدَح فيه -، يترك الطاعة خوفاً من أولئك الذين ذمُّوه، أو أَوقعوا له مصيبةً، فيفرُّ من أذى الناس كما يفر الطائع من عذاب اللَّه، لكن شتان بينهما: الطائع يقع في أذية الناس السهلة خوفاً من عذابٍ شديدٍ، وهذا يقع في العذاب الشديد خوفاً مِن أذية الناس له.

فمعنى الآية: أنَّ بعض الناس يَترك ما أمرَ اللَّه به؛ لأنَّه أُوذي، فيَترك الطاعة ويَفر إلى المعصية، كما يفر الطائع من المعصية إلى الطاعة خوفاً من اللَّه عز وجل.

فالشاهد من الآية: أنَّ اللَّه ذمَّ مَن يترك ما أمره اللَّه عز وجل به خوفاً من الناس، فهو مُتوعَّدٌ عليه بل اعتبره أهل العِلم من أنواع الشرك الأصغر.

مثال ذلك: لو أنَّ شخصاً أراد أن يصلِّي ويخاف أنَّه لو صلَّى عاقبوه، وليس شيءٌ متحققٌ وإنما يخاف؛ فخوفه هذا من الناس مذمومٌ عليه.

ثُم بعد ذلك قال: (عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه مَرْفُوعاً) يَذكر المصنِّف هنا أنَّ مِن ضعْف الإيمان الخوف من الناس من أجْل أنْ يَفعل طاعة، أو يَترك معصية.

(قَالَ: «إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ) يعني: ضعف الإيمان، (أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ) يعني: خوفاً من الناس يَفعل المعصية، أو يدَع واجباً مِن أجْل الناس؛ فهذا - والعياذ باللَّه - مِن ضعْف الإيمان، واللَّه عز وجل لا يحب ذلك.

مثل: لو أنَّ رجُلاً جلس في مجلسٍ فيه معازف، ويقول: أريد أنْ أَجلس معهم؛ ليقولوا أنَّه متسامحٌ في الدين، وليحبوا الدعوة، وليحبوا الصالحين؛ فقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن هذا من ضعْف الإيمان؛ لأنك تفعل شيئاً لترضي الناس وهو يُسخط اللَّه، والدين لا مداهنة فيه؛ قال سبحانه: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩].

(وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَى رِزْقِ اللَّهِ) أي: ومِن ضعْف اليقين أن تَحمد الناس بتعلق قلبك بهم؛ بسبب ما جَلبوه لك من مالٍ؛ لأنَّ الرزق مِن اللَّه؛ كما قال سبحانه: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

وشكْر الناس أنَّهم كانوا واسطةً في إيصال الرزق لك - كقبولك في دراسةٍ، أو في عملٍ -؛ هذا يُشكرون عليه، لكن لا يكون قلبك متعلقاً بهم، وأنَّ الرزق كان بسببهم؛ وإنَّما هو من اللَّه، واللَّه جَعلهم واسطةً في إيصال الرزق إليك.

(وَأَنْ تَذُمَّهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ) أي: مِن ضعْف اليقين أيضاً أن تذمَّ من أَبعدك من الدراسة – مثلاً – أو من الوظيفة؛ لأنَّ الأمر بيد اللَّه؛ كما قال سبحانه: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ [الرعد: ٢]، واللَّه جعل ذلك الرجُل واسطة في إبعادك فلا تذمَّه، فذمُّك له مِن ضعْف الإيمان.

فهذه الثلاث مِن أسباب ضعْف الإيمان.

ثُم بيَّن النبي صلى الله عليه وسلم أمراً عظيماً، فقال: (إِنَّ رِزْقَ اللَّهِ لَا يَجُرُّهُ حِرْصُ حَرِيصٍ) فلا تَتعلق بالبشر، ولا تَمدحهم مِن أجْل رزْقٍ من الدنيا، ولا تذمَّهم مِن أجْل الدنيا؛ لأنَّ رزق اللَّه محفوظٌ لك، فهم وسيلةٌ فقط يوصلونه إليك، فاللَّه عز وجل قسمَ، وكتبَ، ويُوصل الرزق

إليك، وقال صلى الله عليه وسلم: «وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ»(١).

فقد ذَكر اللَّه سبحانه وتعالى أنَّ آدم عليه السلام حَرص ألا يَخرج من الجَنَّة، فحرْصه لم يَنفعه؛ بل خَرج من الجَنَّة وأُهبط إلى الأرض؛ قال سبحانه: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: ٢١-٢٢]، فلمَّا أَكلا من الشجرة حرصاً منهما، كما وَسوس إليه الشيطان أنه إنْ أَكل من الشجرة لن يَخرج من الجَنَّة، فعصى اللَّه بحرْصه؛ فأُخرج من الجَنَّة.

(وَلَا يَرُدُّهُ كَرَاهِيَةُ كَارِهٍ) فوَجب التوكُّل على اللَّه وتفويض الأمور إليه؛ يعني: لو أنَّ شخصاً كَره أنْ يأتيك رزْق اللَّه عز وجل؛ فكراهيته، وبذله لأسباب المنع عنك، إنْ كتب اللَّه وصولها لك؛ تصلك، فاللَّه يقول: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر:٢].

(١) رواه أحمد في المسند، رقم (٢٦٦٩)، من حديث ابن عباسٍ رضي الله عنهما.

فلو كَره أحدٌ أنْ تَطلب العِلم، أو أنَّ اللَّه يسوق لك مالاً؛ فإنَّه لن يستطيع أن يردَّه عنك؛ كما قال عليه الصلاة والسلام: «اللَّهمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ»(١).

فإذا فَتح اللَّه لك باب رزقٍ، لا يستطيع أحد أنْ يمنعه عنك، فلا أحد يَملك أنْ يَمنع عنك ما كَتبه اللَّه لك من الرزق.

ورزقك مضمونٌ، وليس عليك في هذه الدنيا سوى عبادة اللَّه وحده، فلا تُشغل نفسك بالرزق، فاللَّه عز وجل يَرزق الجنين في بطن أمِّه، ويَرزق الحيتان في قاع البحار، ويَرزق النمل في ظلماء الجحور، ويرزق الطير في الفضاء، فرزقه سبحانه واسعٌ، وهو الذي تَكفَّل به، وهو الغني الكريم؛ قال سبحانه: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]؛ بل حتى أنَّ الكافر ضَمن اللَّه عز وجل له رزقه، وهو على الكُفر.

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الأذان، باب الذكر بعد الصلاة، رقم (٨٤٤)، ومسلمٌ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، رقم (٥٩٣).

ثُم بعد ذلك قال: (وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ) هنا يَذكر عقوبة مَن أَرضى الناس بمعصية اللَّه.

قال: (مَنِ الْتَمَسَ رِضَا اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ؛ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَرْضَى عَنْهُ النَّاسَ) يعني: إن فعلتَ طاعةً ولو سَخط عليها الناس؛ فاللَّه عز وجل سيَجعل العاقبة بأن اللَّه يَرضى عنك، ويَرضى عنك الناس أيضاً؛ لأنَّك فعلتَ الطاعة.

وإذا فعلتَ الطاعة، فبيد اللَّه قلوب البشر، فيَقلب قلوب البشر من بغضهم لك إلى محبتهم لك؛ قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً﴾ [مريم: ٩٦]؛ يعني: محبةً.

فمَن يَعمل صالحاً؛ يُحبه الناس، حتى صاحب المعصية يَقذف اللَّه في قلبه حبَّ ذلك الرجل الصالح.

(وَمَنِ الْتَمَسَ) وهو الشاهد، (رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ) يعني: إن فعلتَ معصيةً مِن أجْل أن يرضى عنك الناس؛ (سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ) فاللَّه يسخط عليك، ويُسخِط عليك الناس.

مثال ذلك: لو أنَّ شخصاً يُسبل ثوبه ويقول: لكي يرضى عني الناس؛ فأَخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنَّه يَسخط اللَّه عليه، والناس يَسخطون عليه أيضاً؛ لأن الناس بفطرتهم يحبون الطائع.

وهنا عقوبة مَن أَسخط اللَّه عز وجل مِن أجْل أن يُرضي الناس، أو مِن أجل أنْ يَمدحوا عقله، بأن لا يحبَّ أنْ يثير أمراً بين الناس ونحو ذلك؛ فعقوبته المعجَّلة في الدنيا أنْ يَسخط اللَّه عليه، ويُسخط عليه الناس.

ومَن لم يقم بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، يستخفُّ الناس به؛ لأنَّه فرَّط في طاعة اللَّه، وإقامة هذه الشريعة، ومَن أطاع اللَّه عز وجل في إقامة هذه الشريعة؛ يحبه الناس، ويحبه قبل ذلك رب العالمين.

فدلَّ على أنَّه لا يجوز أن تَفعل معصيةً خوفاً مِن سخطِ الناس، وكذا لا يجوز أنْ تَترك واجباً خشْية أن يَسخط عليك الناس؛ حتى لو سَخروا منك أو استهزأوا بك، فالمؤمن لا يَضره شيءٌ من ذلك.

فتبيَّن مما سبق: أنّ الخوف يُصرَف لله وحده، وأنَّه عبادةٌ، وأنَّ مَن صرف شيئاً منها لغير اللَّه – من الخوف القلبي من غيره جل وعلا –؛ فهو الشرك الأكبر.

ولو اعتقد أنَّهم سببٌ في نفْعه أو ضره، واعتمد على ذلك السبب؛ فهو شركٌ أصغر.

وأنَّ مِن ضعْف الإيمان أنْ تدعَ ما أمرك اللَّه به، خوفاً من الناس، ثم ذَكَرَ رحمه الله عقوبة ذلك.

***

[٣٣]

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ عز وجل: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الآيَةَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ﴾؛ قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ صلى الله عليه وسلم حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم حِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً﴾ الآيَةَ» رَوَاهُ البُخَارِيُّ.

الشرح:

قال رحمه الله تعالى: (بَابُ قَوْلِ اللَّهِ عز وجل: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾).

يَذكر المصنِّف رحمه الله هنا في هذا الباب التوكُّل، والتوكُّل ما تَحقَّق فيه أمران:

الأمر الأَوَّل: الاعتماد؛ أي: طمأنينة القلب لذلك المتوَكَّلِ عليه.

والأمر الثاني: التفويض؛ يعني: تَكِل الأمر إليه، وإذا اختل أحد هذين الأمرين فقد اختلَّ التوكُّل، فإذا كنت تَعتمد على شخصٍ لكنَّك لم تفوِّضه؛ فلا يكون توكُّلاً، وكذا لو فوَّض شخصٌ أمره إلى اللَّه، لكنَّه لم يَعتمد عليه؛ أي: لم يُحسن الظَّنَّ فيه بأنَّ اللَّه عز وجل سيُحقِّق له ما تَوكَّل فيه؛ فلا يكون توكُّلاً.

والتوكُّل مِن أهمِّ العبادات في الإسلام؛ بل هو نصْف العبادات؛ قال سبحانه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]؛ فنصفٌ استعانةٌ ويَدخل فيها التوكُّل، والنِّصف الآخر بقية العبادات.

والتوكُّل قُوَّته وضعْفه بناءً على ضعْف الإيمان أو قوَّته في القلب، وبتحقيقه تَطمئنُّ النفس، وتتيسَّر الأمور، وينال العبد الأجر العظيم من اللَّه.

والتوكُّل ينقسم إلى أربعة أقسامٍ:

القِسم الأَوَّل: التوكُّل على اللَّه مع فعل الأسباب؛ فهذا توحيدٌ، مِثل: أن يَتوكل الإنسان على اللَّه في الزواج، ويَسعى للزواج.

فيتوكل الشخص على اللَّه عز وجل، ويفوِّض أموره إليه، ويَفعل السبب المباح، لكنَّه لا يَعتمد على ذلك السبب، وهذا هو الواجب.

ويدلُّك لذلك؛ أنَّ السبب قد يَنفع، وقد يتخلَّف، فمثلاً: تجد مريضين بمرضٍ واحدٍ، هذا يُشفَى بالسبب - بهذا الدواء -، وبنفس الدواء لا يُشفى المريض الآخر؛ بل قد يموت.

فالإنسان لا يَعتمد على السبب، وإنَّما يتوكل على اللَّه وحده.

فإذا قال شخصٌ: أنا أتوكل على اللَّه عز وجل، وأدَع الأسباب.

نقول: هذا مِن نقْص العقل، فلا بد من فعل السبب، لكن لا تَركن إليه.

ولو قال شخصٌ: أنا أريد أولاداً لكن لن أتزوَّج.

فنقول: هذا مِن نقْص العقل، وهكذا.

فالواجب أنْ يُفوِّض الأمر للَّه عز وجل، ويَفعل السبب المباح.

فإذا ثَبت ما تقدَّم مِن أنَّ التوكُّل عبادةٌ؛ فيجب صرفه للَّه عز وجل، ولا يتعلق قلب العبد بغير اللَّه، فإذا كانت عبادةً؛ فلا تُصرف هذه العبادة إلا للَّه.

فإذا تَحققنا بأنَّها عبادةٌ، فلفظ التوكُّل لا يُطلَق على البشر؛ يعني: لا يقول شخص: توكلتُ على اللَّه ثُم عليك؛ لأنَّ التوكُّل نوعٌ من أنواع

اللفظ الذي لا يُصرف إلا للَّه؛ قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا﴾ [المائدة: ٢٣].

وأمَّا الاستعانة، فيجوز أنْ يقول الشخص: أنا استعنتُ باللَّه ثم بك؛ لأنه وَرد بالنص؛ قال سبحانه: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢].

والاستعانة هي: طلبُ العون والنفع من الآخرين، أمَّا التوكُّل فهو عبادةٌ قلبيةٌ، فلا يُصرَف هذا اللفظ إلا للَّه عز وجل.

وحقيقة التوكُّل: أنْ يتعلق القلب باللَّه، مع فعْل السبب دون التعلُّق به؛ لأنَّ السبب قد يَتخلَّف، وممَّا يدلُّ على تخلُّف السبب، ما ذكره اللَّه في قصة السِّحر، فقال سبحانه: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فهذا سِحْرٌ فُعِل ليُضَرَّ به الشخص، ومع ذلك تَخلَّف، ولم يَضر ذلك العبد، لذا يجب التعلُّق باللَّه وحده.

القِسم الثاني: أنْ يَتوكل على غير اللَّه ويُفوِّض أموره إليه، كالأموات ونحو ذلك؛ فهذا - والعياذ باللَّه - شركٌ أكبر.

مِثل: لو أنَّ شخصاً يقول: توكَّل على اللَّه، وادعُ اللَّه أنْ يُفرِّج كربتك، فتقول: لا، أنا ذهبتُ إلى القبر الفلاني، ويَقضي حاجتي؛ فهذا -والعياذ باللَّه- شركٌ أكبر.

والقِسم الثالث: أنْ يَتوكل على اللَّه، لكن لا يَفعل الأسباب؛ وهذا نقصٌ في العقل، مثل: أن يَطلب الولد وهو لم يَتزوج.

القِسم الرابع: أنْ يتوكَّل الشخص على اللَّه، لكن يَركن إلى الأسباب في أنَّها سببٌ كبيرٌ في جلْب النفع والضر؛ فهذا شركٌ أصغر.

مثال ذلك: لو أنَّ شخصاً طلب من إنسانٍ أمراً دنيوياً كوظيفةٍ، ثُم ذَهب إلى مَن بيده الوظيفة، ويقول له: أنا أريد وظيفةً، فيقول: سوف أحققها لك، فيَعتمد بقلبه على ذلك الشخص في تحقيق ذلك، والأصل تفويض الأمر للَّه، وهذا الشخص سببٌ قد يَنفعك وقد يَضرّك.

والمصنِّف رحمه الله ذَكر في هذا الباب خمسة نصوصٍ:

النَّصُّ الأوَّل - (﴿**وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾ -؛ لبيان وجوب التوكُّل على اللَّه، وأنَّه عبادةٌ ومِن شرْط الإيمان.

النَّصُّ الثاني - (﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ**﴾) -؛ لبيان أنَّ التوكُّل مِن أعمال أهل الإيمان.

النَّصُّ الثالث – (﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾) –؛ لبيان أن اللَّه هو الكافي لعبده وحده، فوجب أن لا يُتَوَكَّل إلا عليه.

النَّصُّ الرابع – (﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾) –؛ لبيان ثمرة التوكُّل وأنَّ اللَّه عز وجل يَكفيه أمره.

النَّصُّ الخامس: لبيان كلمة التفويض والاعتماد على اللَّه وهي: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾.

والمصنِّف في هذه الآيات ذَكر أنَّ التوكُّل على غير اللَّه، فيما لا يقدر عليه إلا اللَّه؛ شركٌ، ثُم ذَكر وجوب التعلق باللَّه وحده حتى مع فعْل السبب، ثُم ذكر ثماراً مِن ثمار التوكُّل.

لذلك قال: (**بَابُ قَوْلِ اللَّهِ عز وجل: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا﴾**) أي: فوِّضوا أموركم إليه، واعتمدوا عليه، والْجأوا إليه، وهذا مِن شرْط الإيمان؛ لذلك قال: (**﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾**) فمَن لم يَتوكل على اللَّه فليس بمؤمنٍ، ومَن أَيقن بأنَّ اللَّه هو الخالق القدير المدبِّر؛ تَعلَّق به سبحانه.

وأمَّا التعلُّق بالبشر: فهم ضعفاء، ومن كان منهم قادراً قد يَخذلك؛ لذلك قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وَما رَجا أَحَدٌ مخْلُوقاً أَوْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ إِلَّا خاب ظَنُّهُ فِيهِ»(١).

فإذا انتفى التوكُّل؛ انتفى الإيمان، وإذا ضعف التوكُّل مع وجود الإيمان، فإنه يكون لقلبه من النقص للإيمان؛ بقدر ما يكون في قلبه من ضعف التوكل.

والنفس لا تَكمل إلا بالتوكُّل على اللَّه عز وجل؛ قال ابن القيِّم: «التوكُّل نصف الدين، فنصفه توكّلٌ، ونصفه إنابةٌ»(٢)، وقد ذَكر اللَّه ذلك في سورة الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، فالتوكُّل وسيلةٌ إلى العبادة، وهي الإنابة؛ فأصبح الدين ينقسم إلى شطرين: توكُّلٌ وإنابةٌ، استعانةٌ وعبادةٌ.

ثم قال: (وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾) فذَكر أنَّ من

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٠/ ٢٥٧).

(٢) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ١١٣).

صفات المؤمنين أنَّ قلوبهم يَدخلها الوَجَل والخوف من اللَّه عز وجل، وأنَّ إيمانهم يزيد بتلاوة كتاب اللَّه، وأنَّهم متوكلون على اللَّه، والمسلمُ يتصف بصفات أهل الإيمان؛ ليلحق بهم، فمن صفات أهل الإيمان أنهم متوكلون؛ فيجب أن نتوكل على اللَّه؛ لأنَّ اللَّه أثنى على المتوكلين عليه سبحانه.

فدلَّ على أنَّ التوكُّل عبادةٌ، وإذا كان عبادةً، ويزيد الإيمان؛ دلَّ على أنَّ صرْفه لغير اللَّه لا يجوز، فإذا صُرِف لغير اللَّه، فيما لا يقدر عليه إلا اللَّه؛ فهو الشرك الأكبر.

وإذا صُرف فيما يَقدر عليه البشر، لكن تَعلَّق القلب بتلك الأسباب؛ فهذا نوعٌ من أنواع الشرك الأصغر.

ثُم قال: (﴿وَقَوْلُهُ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾) أي: أنَّ اللَّه كافٍ النبي صلى الله عليه وسلم مِن شر الأشرار، وكذلك يَكفي المؤمنين شر الأشرار، ويُحقِّق لهم أيضاً مبتغاهم، فإذا كان التوكُّل بهذه المثابة وهو أن اللَّه سبحانه وتعالى يحقق لك ما تتمناه؛ فهذه ثمرةٌ عظيمةٌ للتوكل.

ثُم قال: (وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾) أي: كافيه ومحقق أموره بإذن اللَّه إذا أراد اللَّه.

هذا من ثمار التوكُّل أنَّ اللَّه عز وجل إذا توكّل العبد عليه؛ فيَكفي عبده بالأمر الذي توكل عليه، وهذه لا شك فضيلةٌ عظيمةٌ، ومنقبةٌ عاليةٌ.

فإذا قال لك شخصٌ: أنا أَضمن لك ما طلبت، لكن أَعطني أوراقك، وأنا أقبل ما تريد؛ فهذه منقبةٌ، واللَّه عز وجل يقول: مَن توكل عليَّ فأنا أعطيه سؤله، لذلك قال ابن القيِّم: «ومن توكل على اللَّه في شيء فقد ناله»(١).

ولم يَذكر الرب عز وجل في أيِّ أمرٍ من أنواع العبادات بأنه كافٍ عبده، ومتولي أمره؛ إلا في التوكُّل، فإذا كان اللَّه عز وجل هو حسْب المتوكل عليه، فوَجب على العبد أنْ يطرق باب تلك العبادة العظيمة، التي هي نصف الدين.

ومن أسباب قوة التوكُّل على اللَّه:

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ١١٤).

أوَّلاً: كثرة الدعاء؛ لأنَّ التوكُّل نوعٌ من أنواع الهداية، فلا تُستجلب إلا بطلبها من اللَّه عز وجل.

الأمر الثاني: كثرة الطاعة، والبعد عن المعاصي، فهي تقوِّي التوكُّل، فبقدر ما في القلب من إيمانٍ، وهدايةٍ، وصلاحٍ، ونورٍ، فالتوكُّل يَزيد ويَضعف على قدر قوة الإيمان وضعْفه.

ثم قال: (عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ﴾؛ قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ صلى الله عليه وسلم حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم حِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً﴾ الآيَةَ»).

فلمَّا توكلوا عليه سبحانه، ونَطقوا بألسنتهم بتلك العبادة؛ حقَّق اللَّه عز وجل سُؤْلَهما، فكما قال ذلك أنبياءٌ، وحَققوا توكلهم بألسنتهم وقلوبهم؛ فكونوا مثلهم بقول تلك الكلمة، وتعليق القلب باللَّه سبحانه.

(﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾) قالها الخليلان؛ أي: اللَّه كافينا وهو نِعْم من توكلنا عليه، فهي اعتمادٌ وثناءٌ على اللَّه سبحانه وتعالى.

وبهذه الكلمة العظيمة - وهي كلمة التفويض - تَخلَّفت أسباب الشر عن أولياء اللَّه ورسله، وإذا كفى اللَّه العبد؛ فهو نعْم المولى ونعْم النصير، فهو سبحانه متولي أمرك في كل شيء.

فتقول: يا رب أنت كافيني كلّ أمري، ومتولِّيه، وفوضتُ إليك أمري، وأنت تدفع عني شر الأشرار، وأنت يا رب نعْم الرب المعبود، الموكل إليه ذلك الأمر، والمفوَّض إليه، وأنت نعْم المعبود الذي يَتحمَّل ما فوضته إليه.

قال: (قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ صلى الله عليه وسلم حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ) كما في صحيح البخاريِّ[1] فقال: (﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾)، فلمَّا وَقع الكرب الشديد بإبراهيم، وأَضرموا النار، وألقوه بالمنجنيق؛ قال: (﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾).

فلمَّا توكل بالقلب، ونَطق هذه العبادة باللسان؛ أنجاه اللَّه من الأعداء، فهنا أسباب الاحتراق متوفرةٌ: نار مُضْرَمَةٌ وإبراهيم ملقى في

---

(١) كتاب تفسير القرآن، باب ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ الآيَةَ [آل عمران: ١٧٣]، رقم (٤٥٦٣).

النار، ومع ذلك قال اللَّه: ﴿كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]؛ بسبب توكله على اللَّه.

ولا يُنجي العبد من الكروب إلا التوكُّل على اللَّه، ويونس عليه السلام تَوكَّل على اللَّه، فقال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، لا أحد ينجيني إلا أنت؛ فنجاه اللَّه – سبحانه – من الكرب، وكذلك أيوب عليه السلام لم يُنجِه إلا التوكُّل على اللَّه، فكشف اللَّه عنه ضره.

وهكذا من التجأ إلى اللَّه، فبقدر الالتجاء؛ يكون العون؛ قال ابن القيِّم رحمه الله: «إذا انكسر العبد؛ فبقدر انكساره للَّه، يكون قوامه بعدها»[١]؛ يعني: إذا انكسر العبد للَّه، بالذل والخضوع للَّه، فارتفاعه يكون بقدر انخفاضه، والتجائه للَّه.

قال: (**وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم حِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً﴾**) أي: بعد غزوة أحد فلمَّا انصرفت قريشٌ من غزوة أحد، وانصرف النبي صلى الله عليه وسلم، ومن تبعه من

(١) الطب النبوي (١/ ٧٠).

الصحابة، قرَّر الكفار الرجوع مرة أخرى؛ لمَّا عَلموا بقوة انكسار المسلمين بعد غزوة أحد، فأرسل أبو سفيان إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وقال: بلغوا عنا محمداً وصحبه أنَّا عائدون إليهم، نستأصلهم.

فلمَّا رأوا كثرة الجرحى، وما حدث بعد أن غادروا، وصلهم الخبر، وهمُّوا بالرجوع؛ ليَدخلوا المدينة ويقتلوا النبي صلى الله عليه وسلم ومَن معه من الصحابة، وكان النبي صلى الله عليه وسلم خارج المدينة، في حمراء الأسد – قرابة ثلاثين كيلو –.

والنبي صلى الله عليه وسلم في شدة هذا الكرب، والعدو سيرجع إليهم، وقُتِل مَن قُتِل من صحابته رضي الله عنهم، ومَن بقي من الأحياء ما بيْن جرحى أو مرضى، أو نساء، والعدو عازمٌ على العودة إليهم؛ قال: (﴿**حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**﴾).

فقال اللَّه: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ [آل عمران: ١٧٤]، فما ضرَّهم شيءٌ، وما رجَع الأعداء، وبعد ذلك انهزموا في فتْح مكة، وقبل ذلك في صلح الحديبية؛ كلُّ ذلك بسبب التوكُّل.

ومن توكَّل على اللَّه وفوَّض أمره إليه؛ فقد حقق عبادة عظيمة، واللَّه سبحانه تَكفَّل بأنَّه يكفيه ذلك الأمر الذي تَوكل به عليه.

ويجب على المسْلِم أنْ يفوِّض أموره إلى اللَّه؛ ليس في المصائب فقط؛ بل يُفَوِّض جميع أموره، ويكثر العبد من قول: (**حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ**)؛ فهي باب العبادة، وهي تَطرق باب عبادة التوكُّل، وممَّا يقوِّي عبادة التوكُّل.

وكذا كلمة الاستعانة: «لا حول ولا قوة إلا باللَّه»، وكلمة التوحيد: «لا إله إلا اللَّه»، فيجب على المسْلِم أن يَجعل هذه الكلمات على لسانه.

فكلمة التوحيد تُدخِل الجَنَّة(١).

وكلمة الاستعانة كنزٌ من كنوز الجَنَّة(٢).

---

(١) كما في حديث رواه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب من مات لا يشرك باللَّه شيئاً دَخل الجَنَّة، ومن مات مشرِكاً دَخل النار، رقم (١٥٤)، من حديث أبي ذرٍّ رضي اللَّه عنه، ولفظه: «مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه، ثُمَّ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ».

(٢) كما في حديثٍ رواه البخاريُّ، كتاب الدعوات، باب الدعاء إذا علا عقبةً، رقم (٦٣٨٤)، ومسلمٌ، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، رقم (٢٧٠٤)، من حديث أبي موسى الأشعري رضي اللَّه عنه، ولفظه: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ، فَقُلْتُ: بَلَى، يَا رَسُولَ اللَّه،

وكلمة التفويض تَكفُّ عنك الشر.

فتبيَّن ممَّا سبق: أنَّ التوكُّل فيه شركٌ أكبر، وشركٌ أصغر، وأنَّ الواجب التوكُّل على اللَّه، والأسباب تُجعَل في اليد لا في القلب.

وتَبيَّن أنَّ مِن صفات المؤمنين التوكُّل على اللَّه عز وجل.

وذَكر المصنِّف رحمه الله ثماراً من ثمار التوكُّل، فمِن ثماره أنَّ اللَّه يكفي العبد في كل شيء.

ثُم ساق رحمه الله أثراً يبيِّن أنَّ نبيَّيْن اثنين توكَّلا على اللَّه عز وجل، فكفاهما اللَّه عز وجل شرَّ ذلك، فكأنه يقول: أنَّه مَن توكل على اللَّه؛ فاللَّه يكفيه، وأبيِّن لك قصة محمد صلى الله عليه وسلم، وقصة إبراهيم عليه السلام.



قَالَ: قُلْ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّه».

[٣٤]

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:
﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾

وَقَوْلُهُ: ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم سُئِلَ عَنِ الكَبَائِرِ؟

فَقَالَ: الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَاليَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ، وَالأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ».

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: «أَكْبَرُ الكَبَائِرِ: الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَالأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ، وَالقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَاليَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ» رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ.

الشرح:

قال رحمه الله: (بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾).

ذَكر المصنِّف رحمه الله في هذا الباب صفتين رئيسيتين متضادتين هما: الأمن مِن مكْر اللَّه، واليأس من رَوْح اللَّه.

والقنوط هو: شدة اليأس - كما سيأتي أيضاً -.

وإذا عَلم العبد أنَّ اللَّه عز وجل متصفٌ بالمغفرة، والرحمة، والستر، واللطف، وهو سبحانه الودود، والمتَّصف بأنَّه هو التواب الرحيم؛ يجب عليه أن يأتي بمقتضيات هذه الصفات للَّه عز وجل.

بمعنى: أنَّه إذا عَلم أنَّ له ربّاً غفوراً؛ يجب عليه أن يتلمَّس مغفرته، وإذا عَلم أنَّ له ربّاً ودوداً؛ يجب عليه أنْ يلتمس ودَّ اللَّه سبحانه، وإذا علم أنَّ له ربّاً رحيماً؛ وَجب عليه أن يتلمَّس رحمة اللَّه.

وكذلك عذابه عز وجل عذابٌ أليمٌ؛ قال سبحانه: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ العَذَابُ الأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٥٠]، وقال: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢].

ويجب على العبد أنْ يسير في هذه الحياة بين الرجاء والخوف، فالرجاء مقتضى الصفات المتقدِّمة من الرحمة والمغفرة ونحو ذلك، والخوف من مقتضيات سخطِ اللَّه، وعقابه، وأليم عذابه.

والخوف والرجاء ركنا العبادة، يسير بهما العبد حتى الممات، وشبَّههما العلماء بجناحي الطائر، متساويةً، ليس أحد الجناحين منعطفاً على الآخر، أو زائداً عليه، والمحبَّة رأس الطير، يقوده إلى الجَنَّة.

فإذا أخلَّ العبد بأحد هذين الركنين: الرجاء أو الخوف؛ وقع في المحذور، ونافى التوحيد، وبقدْر ما يكون في قلبه من نقْص هذين الركنين الذيْن هما من مقتضيات صفات اللَّه من الرحمة وشدة العذاب؛ بقدْر ما يكون في قلبه منافاةٌ للتوحيد.

لذلك ساق المصنِّف رحمه الله هذا الباب؛ لأنَّ هاتين الصفتين - اليأس من روح اللَّه، والأمن من مكر اللَّه - منافيتان للتوحيد.

مِثل: إذا عطَّل القلب الرحمة والمغفرة ونفاهما، فيكون نافياً التوحيد بالكلِّيَّة.

وإذا كان غير منافٍ للكلية، وإنَّما فيه ضعفٌ، وليس شكٌّ؛ فيكون فيه ضعفٌ في التوحيد الواجب.

وإذا كان فيه شكٌّ - وهو عدم اليقين -؛ فيكون كُفْراً برب العالمين.

ويجب على العبد أنْ يعتقد أنَّ اللَّه سبحانه له الأسماء الحسنى، متصفٌ بالصفات العلى، وأنَّه هو القهار، القادر، العظيم، الغني، الكريم، الغفور، الودود، يسأله ما شاء، وهو سبحانه يَبسط يده للعبد، فحينئذٍ يرجو اللَّه سبحانه.

ويَعلم بأنَّ بطشه شديدٌ، وهو سبحانه قويٌّ، وسميعٌ، وبصيرٌ، وبالمرصاد، ويَعلم حركات العباد، ولا يعزُب عنه شيءٌ من حركاتهم في الأرض ولا في السماء؛ فحينئذٍ يَخاف من عقاب اللَّه سبحانه.

فمَن أخلَّ بهذين الأمرين؛ اختلَّ توحيده بقدْر خَللِه فيهما.

ويَذكر رحمه الله في هذا الباب ثلاثة أمورٍ مِن كبائر الذنوب:

الأمر الأوَّل: الأمن مِن مكْر اللَّه، والمراد به: أنَّ الإنسان يَفعل المعصية ويعطيه اللَّه عز وجل من النِّعم؛ فيَستمر في المعصية آمناً مِن مكْر اللَّه.

والأمر الثاني: اليأس مِن رحمة اللَّه، والمراد باليأس: استبعاد وقوع الأمر.

مثال ذلك: لو قال شخصٌ: احتمال نجاحي في الدراسة ضعيفٌ جدّاً، فلا أظنُّ أني أَنجح.

ومِثل ذلك في العبادات: أنَّ الإنسان يَفعل معصيةً، ثم يريد أن يتوب، ويَستبعد أنَّ اللَّه يَغفر له.

والأمر الثالث: القنوط مِن رحمة اللَّه، والمراد بالقنوط: هو أشدُّ اليأس، وهو أنْ يَعتقد أن ذلك الأمر لن يَحصل أصلاً.

مثال ذلك: لو أنَّ شخصاً تقدَّم لخطبة امرأةٍ، فيقول: أنا أَعرف أنَّهم لن يوافقوا عليَّ أصلاً؛ فهذا قنوطٌ.

ومِثله في العبادات: لو أنَّ شخصاً فعَل المعصية ثم يقول: لن يتوب اللَّه عليَّ أصلاً.

فالفرق بين اليأس والقنوط: أنَّ اليأس فيه أملٌ ولكنَّه ضعيفٌ، أمَّا القنوط فليس فيه أملٌ مطلقاً.

والمصنِّف رحمه الله ذَكر في هذا الباب أربعة نصوصٍ:

النَّصُّ الأَوَّل - (﴿**أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ...**﴾) -؛ لبيان أنَّ الآمن من مكْر اللَّه خاسرٌ.

النَّصُّ الثاني - (﴿**قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ ...**﴾) -؛ لبيان أنَّ القنوط من صفات أهل الضلال.

والنَّصُّ الثالث؛ لبيان أنَّ اليأس والأمن من الكبائر.

والنَّصُّ الرابع؛ لبيان أنَّ اليأس والقنوط والأمن أكبر الكبائر.

لذلك قال رحمه الله: (**بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾**)

أي: أهْل العصيان، وذلك بإغداق النِّعم عليهم مع فعْلهم للمعاصي، ذَكر

اللَّه عز وجل هذه الآية على سبيل الذمِّ للمعذَّبين الذين لم يوحِّدوا اللَّه، فأمِنوا مكر اللَّه.

والأمن من مكر اللَّه؛ يعني: فعْل الذنْب مع نزول النعمة، يظن أنَّ اللَّه قد رضي عن الفعْل، أو لم يطَّلع عليه؛ هذا هو الأمن من مكْر اللَّه؛ يعني: فعل الذنب مع نزول النعمة.

فاللَّه يعطيك المال، والغنى، والقوة في الجسم، لكنَّك تَفعل الذنْب، وتقول: اللَّه غير مطَّلِعٍ عليَّ، أو تقول: إنِّي أَفعل حسناتٍ كثيرةً، واللَّه يَغفر ذنوبي؛ بما فعلتُ من حسناتٍ وهكذا.

فهذا هو الأمن مِن مكْر اللَّه، فما تَعلم متى تصاب بالذنْب؛ قال ابن القيم رحمه الله: «الذنوب جراحات، ورُب جرح وقع في مقتل»[(١)].

وإذا كان ذنْباً صغيراً قد يُهلكه إمَّا بالفضيحة، وإمَّا بغضب اللَّه عليه؛ قال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦]؛ يعني: هل اغتررت أنَّ اللَّه أَنعم عليك، ولم يعجِّل لك العقوبة، فلا تغتر بأنَّ اللَّه حليمٌ، وقال سبحانه أيضاً: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾

---

(١) الفوائد (ص٤١).

[الأعراف: ١٨٣]، وقال: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢].

فإذا فَعل الإنسان معصيةً؛ فليحذر عقوبة اللَّه، قال سبحانه: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَذَرُوا﴾ أي: اتركوا، ﴿ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٠].

وقوله: (﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾) لأنَّ الآمن مِن مكْر اللَّه ستحل به العقوبة، قال سبحانه: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَاناً كَبِيراً﴾ [الإسراء: ٦٠]، فيجبُ على المسْلِم إذا فعَل معصية ورأى نعمةً من اللَّه إليه؛ أن يحذر، فقد يكون هذا استدراجاً له؛ ليؤاخذه بالعقوبة - والعياذ باللَّه -.

وقال صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّه لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ»(١)، واللَّه يقول: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]، رقم (٤٦٨٦)، ومسلمٌ، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨٣)، من

[إبراهيم: ٤٢]، وقال سبحانه: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً﴾ [مريم: ٨٤]، ويقول سبحانه: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ العَذَابُ﴾ [العنكبوت: ٥٣].

فلا يدعوك استبطاء العذاب - على العموم، أو على فردك - إلى الأمن من مكر اللَّه، ومن عذابه، فاللَّه وَصف مكْره بأنَّه سريعٌ: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً﴾ [يونس: ٢١].

ووَصف مكْره سبحانه بأنَّه خير الماكرين: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

ووَصف مكْره سبحانه بأنَّ العبد لا يَشعر به: ﴿وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠]؛ لاتِّصاف اللَّه سبحانه بالقوة والجبروت.

لذلك مَن خادع اللَّه يظن أنَّه خادعه؛ فإنه يخدع نفسه؛ قال تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩]، من غير شعورٍ من أنفسهم؛ بسبب الذنْب الذي تلاطم عليهم.

حديث أبي موسى رضي الله عنه.

واللَّه يقول: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]، فكلُّ معصيةٍ تَفعلها؛ تُجازى بها، ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٨]، وقال: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣١]، فما تُصاب به؛ فبذنوبك، لهذا إذا فعلت ذنباً؛ فانتظر عقوبته؛ إلا أنْ يرحمك اللَّه بعفوه، ولطفه، ورحمته.

وإذا صُفِّيَ القلب من الذنوب؛ تَرَقَّبَ العقوبة مِن كلِّ ذنْبٍ يَفعله ولو صغيراً، يقول الفضيل بن عياض: «إنِّي لأَفعل الذنب، وأجد شؤمه على دابتي وامرأتي»[١]؛ يعني: يَتغيَّر خُلُق الزوجة، ويَتغيَّر فعْل الدابة - من عدم الانقياد له ونحو ذلك -.

ولا شك أنَّ كلَّ ذنْبٍ يُحاسَب العبدُ عليه، ويُعاقَب؛ إلَّا أنْ يَغفره اللَّه عز وجل بلطفٍ منه ورحمةٍ وعفوٍ؛ فلذلك يجب على المسلِم أنْ

---

(١) نسبها له ابن كثير في البداية بلفظ: «إني لأعصي اللَّه فأعرف ذلك في خلق حماري وخادمي». البداية والنهاية لابن كثير (١٣/ ٦٦٢).

يتجنَّب جميع الذنوب صغيرها، وكبيرها، دِقَّها، وجلَّها، ويدعو اللَّه أنْ يجنِّبه تلك المعاصي، ومن دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: «اللَّهمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ دِقَّهُ، وَجِلَّهُ، وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ وَعَلَانِيَتَهُ وَسِرَّهُ»(١)، فاحذر الذنب؛ فإنَّه هو الذي يُردِيك في المهالك.

وممَّا يمحو الذنوب كثرة الاستغفار باللسان، والعودة إلى اللَّه؛ لهذا أثنى اللَّه عز وجل على مَن أناب إليه، فأَثنى على الأنبياء بالرجوع إليه سبحانه بالتوبة؛ قال - جل وعلا -: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥]؛ أيْ: رجَّاعٌ إلى اللَّه، ومنيبٌ إليه، وقال سبحانه: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنعام: ٤٣]، وقال سبحانه: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

وقال: (﴿**أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ**﴾) يعني: هل تأمنون مكر اللَّه؟ وقال: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى

---

(١) رواه مسلمٌ، كتاب الصلاة، باب م يقال في الركوع والسجود، رقم (٤٨٣)، من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه.

أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحىً وَهُمْ يَلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧-٩٩].

فمَن كُتِبَ عليه التَّباب والخسران؛ هو الذي يأمن مكر اللَّه، ومَنْ نوَّر اللَّه قلبه بالطاعة، هو الذي يَخاف من عقاب اللَّه، وأليم سخَطه؛ لذلك هودٌ عليه السلام يقول: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٢٥]، وقال شعيبٌ عليه السلام: ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ [هود: ٨٤]، فلا تحتقر أيَّ سيئةٍ تَعملها.

وجَعل اللَّه مع كلِّ إنسانٍ ملكين اثنين يَكتبان حسناته وسيئاته؛ قال تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٠- ١١].

ويوم القيامة: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ [الإسراء: ١٤]، فيدوِّن عليك الفعْل؛ بل وتَنطق الجوارح بما فعلتَه، فيكون عليك رقيبٌ وشهيدٌ من غيرك، وشهيدٌ مِن نفْسك على فعْلك، واللَّه يقول: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴾ [النساء: ٧٩].

يقول أبو حازم رحمه الله: «إذا رأيتَ النِّعم تتوارد عليك، وأنت على ذنْبٍ، فارتقب المصيبة»[١]، فإذا كنت تفعل الذنْب وأنت في عافيةٍ، وتَفعل الذنْب ويأتيك مالٌ، وتَفعل الذنْب وتتزوج، وتقول: اللَّه يَغفر ذنوبي، أو تقول: هذا الذنب هيّنٌ، ولا تتوب؛ فهذا هو الأمن مِن مكْر اللَّه.

والمتيقِّظ يَخشى العقوبة من اللَّه صباحاً ومساءً، والنبي صلى الله عليه وسلم يَخشى حتى الريح مِن أنَّها عقوبةٌ من اللَّه، فيدعو اللَّه عز وجل: «اللَّهمَّ اجْعَلْهَا رِيَاحاً وَلَا تَجْعَلْهَا رِيحاً»[٢]، فانظر إلى تلك الرياح التي تراها، ولا تراها بعينها؛ فالقلب المتيقِّظ يَخشى حتى منها.

والقلب النائم لا يَعتبر بالعواقب ولا بالنُّذُر؛ قال سبحانه: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: ١٦]، ومع ذلك لا يَعتبرون، وقال سبحانه: ﴿وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، وقال:

---

(١) شعب الإيمان (٦/ ٢٩٨).

(٢) رواه الطبراني في الكبير، رقم (١١٥٣)، من حديث ابن عباسٍ رضي الله عنهما. (١١/ ٢١٣).

﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَاناً كَبِيراً﴾ [الإسراء: ٦٠]، فكلُّ ذنبٍ تَفعله؛ تنتظر عقوبته، إلا أنْ يتداركك اللَّه برحمته.

ثم بعد ذلك قال: (وَقَوْلُهُ: ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾) وهذا في المحاورة بين إبراهيم عليه السلام مع الملائكة لمَّا بشَّروه بالغلام، وامرأته كبيرةٌ في السنِّ، وتعجَّبت من ذلك: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود: ٧٢].

وفي سورة الحِجر: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ * قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ * قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ * قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ * قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥١-٥٦].

فإبراهيم عليه السلام لقوة إيمانه وتوحيده؛ قال: (﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾)، وعَجِبتْ زوجته لا قنوطاً؛ وإنَّما عَجبتْ مِن شدة الفرح بما بُشّرَت به مِن الولد، بعد كبر سنٍّ، وشيْبةٍ من زوجها.

والقنوط من رحمة اللَّه في أمرين:

الأمر الأَوَّل: القنوط من عدم قبول التوبة من الذنْب، بأن يفعل المرء ذنوباً كثيرةً، ويقول: لن يَغفر اللَّه لي؛ لأني فعلت ذنوباً كثيرةً؛ هذا هو اليأس من روح اللَّه، والقنوط من رحمة اللَّه.

الأمر الثاني: يقول إنَّ نفْسه لا تطاوعه على التوبة؛ بل هو مغلوبٌ معها، والشيطان قد استحوذ عليه فهو يَيأس من توبة نفسه - وإن كان يَعلم أنه إذا تاب غَفر اللَّه له - وهذا يعترِي كثيراً من الناس.

واللَّه عز وجل يقول: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ [الزمر: ٥٣]، ﴿جميعاً﴾: تأكيد، وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧]، وقال: ﴿وَهُوَ الغَفُورُ الوَدُودُ﴾ [البروج: ١٤]، وقال: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩].

ومَن فَعَل الذنْب، ثُم تاب منه، بالإقلاع عن الذنب، والإكثار من العمل الصالح؛ قال سبحانه: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]، فنقول: اقلع عن الذنْب، واعمل صالحاً؛ لعل اللَّه أنْ يَقبل توبتك.

واللَّه قال: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، واليأس: استبعاد الفرَج، واستبعاد انتهاء الكرب، والقنوط أشدُّ منه.

مثلاً: يئِس شخصٌ من الزواج، ويقول: أنا أتمنى أن أتزوج؛ لكن لا أجد امرأةً، وأما القانط يقول: لا يوجد امرأةٌ في الأصل؛ كي أتزوَّج.

والقنوط أشد من اليأس، وكلاهما مذمومٌ؛ لأنه من إساءة الظنِّ باللَّه، ونقصٌ في التوكُّل، واللَّه عز وجل يقول في الحديث القدسيِّ: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، فَلْيَظُنَّ بِي مَا شَاءَ» رواه أحمد(١).

وهكذا يجب على العبد أنْ يَظنَّ الظن الحَسن باللَّه؛ لهذا ذمَّ اللَّه مَن ظَنَّ به ظنَّ السَّوء؛ مِن عدم قدرته على تفريج الكرب، وبعدم رزْقه بزوجةٍ، أو عدم نجاح الطالب في الجامعة ونحو ذلك.

فمَن ظنَّ باللَّه ظنَّ السَّوء؛ فقد واكب فئتين مذمومتين في المجتمع وهما: الجاهلية؛ كما قال تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، والمنافقين؛ ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ [الفتح: ٦]، فالمشرِك والمنافق يَظنَّان باللَّه ظنَّ السَّوء.

---

(١) في المسند، رقم (١٦٠١٦)، من حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه.

والمسلِم يَظن باللَّه الظنَّ الحسن، ويتوكل عليه، ويفوِّض أموره إليه، ويَفعل الأسباب المباحة التي أمَر اللَّه بفعلها، وبهذا يكون قد حقَّق عبادتين: عبادة الرجاء، وعبادة الخوف، وما يترتب عليهما من حُسن الظن باللَّه، والتوكُّل عليه سبحانه، ومحبته جل وعلا، ومِمَّا في القلب من الاعتقاد بصفات اللَّه الكاملة مِن القدرة، والكرم، والمجد ونحو ذلك.

(﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ﴾) وذلك بيقينه بأنَّ رحمة اللَّه لن تناله، (﴿إِلَّا الضَّالُّونَ﴾) فهذا هو دأبهم في القنوط من رحمة اللَّه، وأمَّا المؤمن فهو يسير بين الرجاء والخوف، يَرجو ما عند اللَّه؛ إذا فعَل الطاعات، ويخاف عقوبة اللَّه؛ إذا فعَل المعاصي، ويقوده إلى ذلك محبَّة اللَّه سبحانه وتعالى.

ثم قال: (عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم سُئِلَ عَنِ الكَبَائِرِ؟ فَقَالَ: الشِّرْكُ بِاللَّهِ) هذا هو أعظم ذنْبٍ وَقع في الأرض؛ قال سبحانه: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، فكانت صالحةً إلى أنْ وَقع الشرك، فلمَّا وَقع الشرك أَفسد الأرض.

والشركُ يُفسد حتى الثمار؛ قال عليه الصلاة والسلام: «وَالعَبْدُ الفَاجِرُ - إذا مات - يَسْتَرِيحُ مِنْهُ العِبَادُ وَالبِلَادُ، وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ»[(١)].

وأوَّل ذنْبٍ نهى اللَّه عز وجل عنه في القرآن هو الشرك؛ قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢]، ولمَّا سُئل النبي صلى الله عليه وسلم: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّه؟ قال: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدّاً، وَهُوَ خَلَقَكَ»، لحديث ابن مسعودٍ في البخاريِّ ومسلمٍ[(٢)].

فالشرك أعظم من القتل، وأعظم من الزنا، وأعظم من شرْب الخمر، وهو: أعظم ذنْبٍ يعصي به المخلوق؛ ولذلك حتى البهائم موحِّدةٌ؛ قال سبحانه: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤]، وقال: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الرقاق، باب سكرات الموت، رقم (٦٥١٢)، ومسلمٌ، كتاب الجنائز، باب ما جاء في مستريحٍ ومستراحٌ منه، رقم (٩٥٠)، من حديث أبي قتادة رضي اللَّه عنه.

(٢) رواه البخاريُّ، كتاب تفسير القرآن، باب قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، رقم (٤٤٧٧)،ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب، وبيان أعظمها بعده، رقم (٨٦).

وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [الإسراء:٤٤]، وقال: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١].

لكن المخلوق الضعيف، العبد الفقير؛ يأتي ويُشرك مع اللَّه غيره؛ لذلك وَصف اللَّه مَن فَعل الشرك بالجنون، فقال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٧]؛ أيْ: جُننتم فلا تَعقلون أنَّكم على باطلٍ، وقال: ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [يونس: ٣٤]، فكيف تنصرفون من هذا الواضح الحق البيِّن، وهو التوحيد، وتتَّجهون إلى الباطل.

ثُم قال: (وَاليَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّه) أي: مِن رحمة اللَّه، وفضله، وكرمه؛ فهذا مِن أعظم الذنوب عند اللَّه؛ لأنَّك إذا يئست من رحمة اللَّه، فمعناه: ضعف المعتقد في قلبك.

ومن مقتضيات الإيمان بقدرة اللَّه، وأنَّه الوهاب، والرزاق، والإيمان بأسمائه وصفاته؛ عدم اليأس من رحمة اللَّه.

ولـمَّا ضعُف في القلب الإيمان باللَّه وصفاته؛ وَقع في اليأس مِن روح اللَّه بقدر عدم معرفة القلب باللَّه، وبأسمائه وصفاته.

وكلَّما تعرَّف العبد على أسماء اللَّه وصفاته؛ ارتفع اليأس وقويَ الرجاء به سبحانه.

والمؤمن مهما فَعل من الذنوب؛ يجب عليه أن لا ييأس من اللَّه؛ قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، وقال سبحانه: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقال عليه الصلاة والسلام كما في الحديث القدسي: «إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي»(١)؛ بل مكتوبٌ على العرش: «إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي»(٢).

فمَن فَعل الذنب؛ فليعُد إلى اللَّه، فموسى عليه السلام قال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾؛ قال اللَّه: ﴿فَغَفَرَ لَهُ﴾ [القصص: ١٦]، وآدم وحواء قالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، فقال اللَّه: ﴿اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ

---

(١) رواه مسلمٌ، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة اللَّه تعالى وأنَّها سَبقت غضبه، رقم (٢٧٥١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاريُّ، كتاب التوحيد، بَابُ ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ﴾ [هود: ٧]، ﴿وَهُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩]، رقم (٧٤٢٢)، ومسلمٌ، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة اللَّه تعالى وأنها سَبقت غضبه، رقم (٢٧٥١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [الأعراف: ٢٤]، واللَّه عز وجل في الحديث القدسي يقول: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي»[1].

فاللَّه سبحانه وتعالى مهما عَظُمَ الذنب؛ فهو يغفره؛ قال سبحانه عن اليهود والنصارى: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، وهذا مِن فضْل اللَّه وكرِمه.

قال: (وَالأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّه) وهذا من الكبائر أنَّ الإنسان يَأمن عذاب اللَّه؛ لأنَّه يَغيب عنه من صفات اللَّه ما غاب في قلبه.

فيغيب عنه اطلاع اللَّه عليه.

ويَغيب عنه صفة السمع والبصر، وصفة القوة للَّه عز وجل.

ويَغيب عنه بطشه الشديد.

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب التوحيد، باب قول اللَّه تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨]، رقم (٧٤٠٥)، ومسلمٌ، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذِكر اللَّه تعالى، رقم (٢٦٧٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ويَغيب عنه مكره السريع جل وعلا؛ قال سبحانه: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحىً وَهُمْ يَلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧-٩٩].

وهو سبحانه شديد المِحال، وقال جل وعلا عن نفسه: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨]؛ أي: يُخوفكم مِن عذابه سبحانه وتعالى.

فيجب على الإنسان أن لا يَغترَّ بالنعم التي تؤتى إليه، والكافر إذا أتته النعم مع معاصيه؛ قال سبحانه عنهم: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً﴾ [مريم: ٨٤]، وقال سبحانه: ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ [آل عمران: ١٩٧]، - والعياذ باللَّه -.

ثُم بعد ذلك قال: (وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: «أَكْبَرُ الكَبَائِرِ: الإِشْرَاكُ بِاللَّه) وهو دعوة غير اللَّه معه؛ لأنَّ فيه هضم الربوبية وتنقّصاً للألوهية، وسوء ظنٍّ برب العالمين.

قال: (وَالأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّه) وهذا أيضاً من أكبر الكبائر وسبق.

قال: **﴿وَالقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّه﴾** فاستبعاد أنَّ اللَّه يَغفر الذنب؛ هذا فيه تكذيبٌ للنصوص، ففي الصحيحين[١] الرجُل الذي قَتَلَ تِسْعاً وَتِسْعِيَن نفساً ثُم كمَّلها المِئَة، فَغَفَرَ اللَّهُ لَه.

قال: **﴿وَاليَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّه﴾** كذلك من كبائر الذنوب وسبق ذلك.

فالشرك هو الذي يقود للجحيم، ويُضعِف الوصول للجِنان، ويقرِّب من النيران، والرجاء إذا ضعُف، واليأس إذا قوي؛ كلاهما مذمومان.

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، رقم (٣٤٧٠) ومسلمٌ، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كَثر قتْله، رقم (٢٧٦٦)، من حديث أبي سعيدٍ رضي اللَّه عنه، ولفظه: «كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ إِنْسَاناً، ثُمَّ خَرَجَ يَسْأَلُ، فَأَتَى رَاهِباً فَسَأَلَهُ فَقَالَ لَهُ: هَلْ مِنْ تَوْبَةٍ؟ قَالَ: لَا، فَقَتَلَهُ، فَجعَلَ يَسْأَلُ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: ائْتِ قَرْيَةَ كَذَا وَكَذَا، فَأَدْرَكَهُ المَوْتُ، فَنَاءَ بِصَدْرِهِ نَحْوَهَا، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ العَذَابِ، فَأَوْحَى اللَّه إِلَى هَذِهِ أَنْ تَقَرَّبِي، وَأَوْحَى اللَّه إِلَى هَذِهِ أَنْ تَبَاعَدِي، وَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَهُمَا، فَوُجِدَ إِلَى هَذِهِ أَقْرَبَ بِشِبْرٍ، فَغُفِرَ لَهُ».

والمسلِم لا يَنظر إلى اليأس؛ بل يُحسن الظنّ باللَّه عز وجل، وبِما اتَّصف به من صفاتٍ عاليةٍ سبحانه وتعالى، ويَنطرح عند اللَّه، ويَنكسر للَّه تعالى بالرجاء؛ مِن دعاءٍ، وفعل طاعات، ونحو ذلك؛ ليحقق بذلك العبادات التي أمَر اللَّه بها.

فتبيَّن ممَّا سبق: أنَّ ممَّا ينافي التوحيد أمران: الأمن من مكر اللَّه، واليأس من روح اللَّه.

والقنوط هو شدة اليأس، والعبد يجب عليه أنْ لا ييأس من روح اللَّه، ولا يأمن مكر اللَّه؛ بَل يَرجوه ويحذره.

لهذا يعقوب عليه السلام أَحسن الظنِّ بربه، وأَمر أولاده بأنْ يَتحسسوا ويبحثوا عن يوسف، فأحسنوا الظن باللَّه، وكان أولاده يائسين منه؛ لأنه غاب عنهم فترةً طويلةً، وقال: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾، ثم ذمَّهم ونهاهم عن اليأس في عدم وجوده عليه السلام، وقال: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

فاليأس من روح اللَّه إذا كَمُل؛ فهو كُفرٌ، وبقدر ما في القلب من يأس؛ قدر ما يكون فيه من تلك المعصية.

فيجب على المسْلِم أن يُحقق الرجاء، وأن يحقق الخوف، وأن يحقق محبَّة اللَّه عز وجل، وإذا تَحققت هذه الأمور الثلاثة في الإنسان؛ كان من عباد اللَّه المؤمنين.

***

[٣٥]

بَابٌ

مِنَ الإِيمَانِ بِاللَّهِ الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾.

قَالَ عَلْقَمَةُ: «هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ المُصِيبَةُ، فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؛ فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ».

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى المَيِّتِ».

وَلَهُمَا: عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه مَرْفُوعاً: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الخُدُودَ، وَشَقَّ الجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ».

وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الخَيْرَ؛ عَجَّلَ لَهُ العُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا.

وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ؛ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ، حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ».

وَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلاَءِ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْماً ابْتَلاَهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ» حَسَّنَهُ التِّرْمِذِيُّ.

الشرح:

قال رحمه الله: **(بَابٌ مِنَ الإِيمَانِ بِاللَّهِ الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ)** **(بَابٌ مِنَ الإِيمَانِ)** أي: لا يكون العبد كامل الإيمان؛ حتى يَصبر على أقدار اللَّه، والمراد بأقدار اللَّه؛ أي: أقدار اللَّه المؤلمة.

والدنيا هي دار المصائب؛ قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢]، وقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١]، وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ [التوبة: ١٦]، ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤]، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ

تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

فالدنيا دار مصائبٍ، والإنسان من طبيعته الهَلَع والجزع؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً﴾ [المعارج: ١٩]، ومِن طبْع الإنسان كُفران النعمة؛ قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وإنْ عُلِم أنَّ المصيبة نازلةٌ على كلِّ عبدٍ، لكن الناس يَختلفون فيها، ما بين مُقلٍّ وما بين مستكثرٍ، وعُلِم أنَّ النفس توافق هواها في الجزع والمصيبة؛ ساق المصنِّف رحمه الله هذا الباب؛ ليبيِّن أنّ الصبر على أقدار اللَّه من الإيمان باللَّه عز وجل، وأنَّ مَن لم يَصبر على المصيبة؛ فإنَّ ذلك مما ينافي التوحيد، وإنْ كان تجزُّعاً وتسخُّطاً على الأقدار؛ فإنه ينافي التوحيد الواجب.

وتنقسم أحوال الناس في المصيبة إلى ثلاث مراتبٍ:

المَرتبة الأُولى: الصبر؛ وهو واجب على الجميع؛ قال تعالى: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

المرتبة الثانية: الرضا بالمكتوب؛ وهي مرتبةٌ أعلى من الصبر، وهي مستحبةٌ، وهذا الموطن مما يُفَضَّل فيه المستحب على الواجب؛ لأنَّ الأصل أنَّ الواجب أَفضل مِن المستحب، لقول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي: «وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ»(١).

المرتبة الثالثة: الشكر على هذه المصيبة، لأَنَّهم يَعلمون بأَنَّها رفعةٌ لهم في درجاتهم، وأَنَّها مِن رضوان اللَّه عليهم.

واللَّه عز وجل لم يَذكر للصبر ثواباً محدداً؛ بل جَعل أجره بغير حسابٍ؛ قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، فليس للصبر ثواب محدود.

وما ظنك بالكريم الغني سبحانه، فإِنَّه يعطي عبده من الأجور المتتابعة؛ بسبب صبره، ويَكفيك أنَّ اللَّه يحب الصابر، وأنَّ اللَّه مع

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم (٦٥٠٢)، من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه.

الصابر؛ قال سبحانه: ﴿وَاللَّه يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

وكلَّما ضعُف العبد في الدنيا، من مرضٍ، ومصيبةٍ ونحو ذلك؛ تقرَّب اللَّه عز وجل منه؛ قال صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي: «أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَاناً مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟» صحيح مسلمٍ(١).

قال ابن القيِّم عن هذا الحديث: «واللَّه سبحانه عند المنكسرة قلوبهم»(٢).

والمصاب في الدنيا نَنظر إليه أوَّلاً بنظرة الرحمة له؛ بما نَزل به من مصيبةٍ، ونَنظر إليه بنظر الإكبار والإعظام والإجلال؛ لأنَّه في عبادةٍ للَّه عز وجل يُحبها، وقريبٌ ممَّن يَفعلها، وناهيك أنَّ اللَّه معه، ومَن كان اللَّه معه؛ فلن يَضره أحد.

والمصنِّف رحمه الله في هذا الباب ساق عدَّة أمورٍ:

---

(١) كتاب البر والصلة والآداب، رقم (٢٥٦٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) شفاء العليل لابن القيم (١/ ٢٥٥).

الأمر الأَوَّل: وجوب الصبر على المصيبة، وأنَّ كلَّ عبدٍ يُبتَلى.

الأمر الثاني: التحذير من الجزع.

الأمر الثالث: ثواب مَن صبر على المصيبة.

قال: (**بَابٌ مِنَ الإِيمَانِ بِاللَّهِ الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ**) أيْ: الإيمان الواجب، فمَن لم يَفعل ذلك؛ فإنَّه ينافي التوحيد الواجب.

والقَدَر لا يُنسَب إليه شيءٌ من ذلك؛ وإنَّما القدَر مخلوقٌ، فلا يقول المريض: أصابني القدر بكذا وكذا، وإنَّما يقال: قُدِّر لي كذا وكذا، أو قدَّر اللَّه عليَّ كذا وكذا؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ»(١).

وأقدار اللَّه تنقسم إلى قِسمين:

إما فيها خيرٌ، وإما فيها شرٌّ، كما في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه في صحيح مسلمٍ(٢): «وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»، ففي القدَر ما ظاهره الشرُّ، مِن المرض والسقم ونحو ذلك.

---

(١) رواه مسلمٌ، كتاب القدَر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة باللَّه وتفويض المقادير للَّه، رقم (٢٦٦٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلمٌ، كتاب القدَر، باب كل شيءٍ بقدر، رقم (٨).

والصبر على أقدار اللَّه يكون بثلاثة أمورٍ:

الأمر الأَوَّل: حبْس اللسان عن التجزع، والشكوى.

أَمَّا من باب الإخبار، ورفع الشكوى إلى اللَّه؛ فلا بأس.

من باب الإخبار: عند مَن ينفعك بالإخبار به، مثل: قول المريض للطبيب: هذا يؤلمني، وأنا أتألَّم من كذا، ورفْع شكوى لمسؤولٍ ونحو ذلك.

ورفْع الشكوى للَّه: لا بأس بها؛ كما قال يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦].

والأمر الثاني: حبْس القلب عن الجزع؛ أي: حث النفس على الطمأنينة بالمكتوب؛ بمعنى: أن لا تدع قلبك يَتجزَّع من هذه المصيبة وتَتذمَّر منها.

والأمر الثالث: حفْظُ الجوارح عمَّا يُظهِر فيها عدم الصبر، مثل: لطم الخدودِ، وشق الجيوب ونحو ذلك، وليس المراد بالخدِّ؛ بل حتى ضرب الجسم، أو رمْي العمامة، أو الغُترَة ونحو ذلك؛ لأنَّ القلب لم يَطمئنَّ.

فتبيَّن أنَّ البكاء لا ينافي الصبر، وكذلك دمْع العين لا ينافي الصبر.

وإذا أردت أن تعرف قوة إيمان الإنسان؛ فانظره حين المصيبة؛ فمَن كان مطمئناً فهذا دلالةٌ على قوة إيمانه باللَّه، ومن كان غير ذلك؛ فهو دليل على ضعف إيمانه.

وذكر المصنِّف رحمه الله في هذا الباب خمسة نصوصٍ:

النَّصُّ الأَوَّل – (﴿**وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ**﴾) –؛ لبيان أنَّ الصبر على المصائب مِن الإيمان.

والنَّصُّ الثاني – (**اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ** ...) –؛ لبيان أنَّ الجزع من أقدار اللَّه نوعٌ من أنواع الكُفر.

والنَّصُّ الثالث – (**لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الخُدُودَ، وَشَقَّ الجُيُوبَ** ...) – إلى آخره؛ لبيان أنَّ مَن جَزع؛ فليس من المسلمين.

والنَّصُّ الرابع – (**إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الخَيْرَ؛ عَجَّلَ لَهُ العُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا** ...) –؛ لبيان أنَّ المصيبة على العبد المسلِم خيرٌ له وهو لا يَعلم.

والنَّصُّ الخامس – (... **فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا** ...) –؛ لبيان ثمرة الإيمان والصبر على أقدار اللَّه وهي أن اللَّه يرضى عنك.

قال: (**وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّه يَهْدِ قَلْبَهُ﴾**) (﴿**وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّه**﴾)، ويُصدِّق به سبحانه، ويَعلم أنَّ ما أصابه هو بقضاء اللَّه وقدَره،

وأنَّه ابتلاء له، ورفعةٌ؛ (﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾) أي: يوفقه للصبر والاحتساب، وطلبِ العون من اللَّه عز وجل.

وتدلُّ الآية على أنَّ مِن طبيعة غير المؤمنين؛ عدم الهداية لأمور الصبر عند المصيبة، وتجد في أهل الكُفر النياحة، والجزع، واللطم، والبكاء الشديد حتى يصل للمنهيِّ عنه، ونحو ذلك.

وكذلك تجد كلَّما قلَّ دين العبد؛ تَعظم في قلبه المصيبة، وتَظهر على جوارحه.

أمَّا المؤمن تراه يَدمع العين، ويَحزن القلب، ولا يقع عند المصيبة في المحاذير ممَّا نهى اللَّه عز وجل عنه.

وممَّا يُهدى إليه في الصبر عند المصيبة: الدعاء والاسترجاع؛ قال صلى الله عليه وسلم: «مَا مِنْ عَبْدٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ، فَيَقُولُ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، اللَّهمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي خَيْراً مِنْهَا، إِلَّا أَجَرَهُ اللَّهُ فِي مُصِيبَتِهِ، وَأَخْلَفَ لَهُ خَيْراً مِنْهَا» رواه مسلم(١)، وقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ

---

(١) كتاب الجنائز، باب ما يقال عند المصائب، رقم (٩١٨)، من حديث أمّ سلمة رضي اللَّه عنها.

الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

وإذا أصيب العبد بمصيبةٍ؛ إمَّا أنْ تكون تكفيراً لسيئاته؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم للمريض: «لَا بَأْسَ، طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ»(١)، وإمَّا أنْ تكون رفعةً لدرجاته؛ كما قال سبحانه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

ويُراجع العبد نفْسه في المصيبة، فقد يكون فعَل ذنباً؛ فتكون كفارةً له - كما سيأتي -.

والعبد لا يثاب على المصيبة نفْسها؛ وإنَّما يُثاب على الصبر، فلا يتمنَّى العبد وقوع المصيبة، ولا يطلب ذلك، وإنَّما إذا وَقعت عليه المصيبة؛ يَرض ويصبر، والدليل قول النبي صلى الله عليه وسلم: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ العَدُوِّ، وَسَلُوا اللَّهَ العَافِيَةَ»(٢).

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب المرضى، باب ما يقال للمريض وما يجيب، رقم (٥٦٦٢)، من حديث ابن عباسٍ رضي الله عنهما.

(٢) رواه البخاريُّ، كتاب التمني، باب كراهية تمني لقاء العدو، رقم (٧٢٣٧)،

فليس في طلب المصيبة أجرٌ، وليس في ذات المصيبة أجرٌ؛ وإنَّما فيما يَترتب عليها من الاحتساب، والدعاء، وعمل الصالحات كالنفقة، وقراءة القرآن، والاستغفار، ونحو ذلك.

ثُم ذَكر رحمه الله قول عَلْقَمَةُ[1] - وهو من كبار التابعين - في تفسير الآية؛ قال: (هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ المُصِيبَةُ، فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) أي: أنَّ اللَّه كَتبها وشاءها وأوجدها وعَلمها سبحانه وتعالى؛ (فَيَرْضَى) بذلك المكتوب، (وَيُسَلِّمُ) أي: لا يَجزع.

وممَّا يُعِين على عدم الجزع: كثرة العبادة؛ قال سبحانه قبل ابتلاء مريم: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣]، وقال اللَّه: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [آل عمران: ٤١]، فليس لنا سوى التسليم والصبر.

والصبر ثلاثة:

ومسلمٌ، كتاب الجهاد والسير، باب كراهة تمني لقاء العدو، والأمر بالصبر عند اللقاء، رقم (١٧٤٢)، من حديث عبد اللَّه بن أبي أوفى رضي الله عنه.

(١) هو: أبو شبل علقمة بن قيس بن عبد اللَّه بن مالك بن علقمة النخعي، توفي سنة (٦٢هـ)، وقيل (٦٥هـ). سير أعلام النبلاء للذهبي (٤/ ٥٣).

إمَّا صبرٌ على المصائب.

وإمَّا صبرٌ على طاعة اللَّه.

وإمَّا صبرٌ عن معاصي اللَّه.

والصبر على المصيبة لا مناص للعبد منه، فجزعه لا يَرفع المصيبة.

والصبر الاختياري: مثل: الصبر عن فعْل المعصية، كما صَبر يوسف عليه السلام عن فعْل المعصية: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣]؛ قال أهل العِلم: «والصبر عن المعصية أفضل من الصبر على المصيبة»(١).

وإذا وَقعت المصيبة على العبد؛ فليس له سوى الصبر، وقد ترتفع عنه، وقد لا ترتفع، لكن الصبر عن المعصية قد يَتحلَّل العبد منه؛ فيقع في المعصية، فحبْس نفْسه عن المعصية أشدُّ صبراً؛ لئلا يقع فيما حرَّم اللَّه عز وجل عليه.

(**فَيَرْضَى**) بالمكتوب.

(**وَيُسَلِّمُ**) بما قدَّر اللَّه له، ويقول: قدر اللَّه وما شاء اللَّه فعل.

---

(١) نقله ابن القيم في كتابه طريق الهجرتين (١/ ٢٧٥).

وليزددْ إيمانه بالاسترجاع والاستغفار؛ لأنَّ المصيبة بسبب الذنْب؛ قال سبحانه: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

ثُم قال: (وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّه صلى الله عليه وسلم قَالَ: «اثْنَتَانِ) أي: خصلتان اثنتان.

حدَّد في هذا الحديث اثنتان، لكن الخصال التي يقع الشخص بها في الكُفر الذي لا يُخرج من الملة؛ أكثر من هذه، مثل: قول النبي صلى الله عليه وسلم: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّه فَقَدْ كَفَرَ أَو أَشْرَكَ»(١)، ومثل: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ»(٢).

(فِي النَّاسِ) أي: مِن طبْع الناس وليس في جميع الناس؛ لأنَّ اللَّه عز وجل يصطفي بعض عباده فيَنزع عنهم تلك الخصلة، (هُمَا بِهِمْ) بالناس.

(كُفْرٌ)، وكلمة (كُفْرٌ) إذا أتت مُنكَّرَةً دون الألف واللام؛ فمعناها الكفر الأصغر، أمَّا إذا كانت معرَّفةً بالألف واللام؛ فهو الكفر الأكبر، كما

---

(١) رواه أحمد في المسند، رقم (٥٣٧٥)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) رواه أحمد في المسند، رقم (١٧٤٢٢)، من حديث عقبة بن عامرٍ رضي الله عنه.

في أحاديث كثيرةٍ؛ مثل: «إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالكُفْرِ تَرْكَ الصَّلَاةِ» رواه مسلم(١)، فهذا كفرٌ أكبر؛ لوجود الألف واللام فيه.

ويدلُّ أيضاً هذا الحديث على أنَّه إذا وُجد في المسلِم خصلةٌ من خصال الكُفر الأصغر؛ فإنَّ هذا لا يُخرجه من الملَّة؛ كما أنَّ وجود خصلةٍ من خِصال الإيمان في الكافر لا تَجعله مؤمناً؛ لفقده أصل الإيمان، مثل: الشجاعة والكرَم لو كانت في الكافر فلا يكون مسلماً بها ما لم يحقق أصل الإيمان.

قال: (الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ) أي: تنقُّصُ الناس في النسب وذمُّهم على دناءة نسبهم مثلاً، أو عدم إثبات نسب فلانٍ إلى القبيلة الفلانية، أو الطعن في أنَّ أباه هو فلانٌ.

وأمَّا مِن بيان المعرفة بالنسب، كالنكاح، ومعرفة صلة الرحم ونحو ذلك؛ فلا بأس فيه؛ قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣].

---

(١) كتاب الإيمان، باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة، رقم (٨٢)، من حديث جابرٍ رضي اللَّه عنه.

(وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ) كرفع الصوت مثلاً؛ تسخُّطاً على القضاء والقدر.

وقال: (وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ) ذَكر مصيبة الموت؛ لأنَّ اللَّه ذَكر أنَّ الموت مصيبةٌ قال سبحانه: ﴿فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ [المائدة: ١٠٦]، فقال: ﴿مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾؛ لأنَّ كلَّ مصيبةٍ قد تَكبر إلا مصيبة الموت فهي تَصغر، فيَحزن الانسان بالموت ثم يزول شيئاً فشيئاً.

ثُم بعد ذلك قال: (**وَلَهُمَا: عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه مَرْفُوعاً: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الخُدُودَ، وَشَقَّ الجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ»**).

قوله: (لَيْسَ مِنَّا) أي: ليس من طريقتنا أو ليس مِن نهْج المسلمين عند من فسَّرها، وهذا من ألفاظ الوعيد، وكان السلف يُجْرونها على ظاهرها؛ لتكون أبلغ في الزجر والتخويف.

(مَنْ ضَرَبَ الخُدُودَ) أي: جزعاً على المصيبة؛ لأنَّ القلب إذا كان خالياً من الإيمان، أو ناقص الايمان؛ فالجوارح لا تهدأ، أمَّا الإيمان فإنه يُسكِّنُها.

فالجوارح تعتدي على البدن.

(وَشَقَّ الجُيُوبَ) أيضاً الجوارح قد تعتدي على الثياب.

فدل على أهمية الايمان لكل إنسان؛ لأنه سبب سعادته وطمأنينته.

(وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ) يعني: يُنَادِي بخصال الجاهلية، مثل: التعصب سواء كان تعصُّباً لمذهبٍ، أو تعصُّباً لنسبٍ، أو تعصُّباً لبلدةٍ، أو تعصُّباً لقبيلةٍ ونحو ذلك، أو الدعوة إلى عدم ستر النساء والحجاب؛ كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [الأحزاب: ٣٣]، ونحو ذلك.

فجاء الوعيد من النبي صلى الله عليه وسلم لِمن يدعو بدعوى الجاهلية، وأتى النهي عن ذلك.

والنبي صلى الله عليه وسلم قال: «المُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالبُنْيَانِ»(١)، فلا عصبية، ولا تفاخر، ولا استنكار، ولا علو لبعض الخلق على بعضٍ؛ بل يفتقرون للَّه عز وجل.

ثُم بعد ذلك قال: **(وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الخَيْرَ؛ عَجَّلَ لَهُ العُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا)**

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضاً، رقم (٦٠٢٦)، ومسلمٌ، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، رقم (٢٥٨٥)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

لتكفِّر عنه السيئات ليَلقى اللَّه وليس عليه ذنْبٌ؛ أي: - وهو الشاهد - فلا يَجزع الإنسان على ما يصاب به مِن أقدار اللَّه المؤلمة فقد تكون سبباً في سعادته في الآخرة، ورفْعة درجاته عند اللَّه؛ قال عليه الصلاة والسلام: «مَا يُصِيبُ المُسْلِمَ، مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ، وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ» (١).

وتعجيل العقوبة قد يكون بالهمِّ والحزَن، كما في تفسير قوله تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣] (٢)، وقد يكون بالتعزير، وقد يكون بإقامة الحدِّ عليه.

وليس معنى ذلك أنَّ العبد إذا فَعل ذنْباً أنْ يَفضح نفْسه، ويُشهرها عند الناس، ويذهب للوالي أو القاضي ويقول: أَقِمْ عليَّ الحد، لا؛

(١) رواه البخاريُّ، كتاب المرضى، باب ما جاء في كفارة المرض، رقم (٥٦٤١)، ومسلمٌ، كتاب البرِ والصلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض، أو حزن، أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها، رقم (٢٥٧٣)، من حديث أبي هريرة وأبي سعيدٍ رضي الله عنهما، واللفظ للبخاري.

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٤١٧).

فالأصل الستر على النفْس، لكن مَن وقع في ذنْبٍ، ثم جُوزِيَ به بمصيبةٍ ونحو ذلك؛ فذلك مِن تعجيل الخير له.

وكذلك ما يَسمعه من كلام الناس من الذمِّ فيه ونحو ذلك، من تعجيل العقوبة؛ بسبب الذنب الذي ارتكبه.

قال: (وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ) أي: عدم إرادة الخير له؛ (أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ) أي: لم يعاقبه بذنْبه في الدنيا، (حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ) أي: حتى تكون العقوبة كاملةً له يوم القيامة - والعياذ باللَّه -؛ لذا إذا أصيب المؤمن بمصيبةٍ فهو خيرٌ له، لذلك قال عليه الصلاة والسلام: «عَجَباً لِأَمْرِ المُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلمُؤْمِنِ»(١).

فقد يَفعل الشخص الذنْب؛ فيَستره اللَّه عليه في الدنيا، وفي الآخرة قد يَغفره اللَّه له، ويَستره عليه، ويُدخله الجَنَّة، وقد يُوافى بذنبه في الدنيا، وفي الآخرة يكون قد طُهِّر، وقد لا يُعاقَب في الدنيا، وفي الآخرة يُعاقب عليه؛ وكلُّ هذا مردُّه لحكمة اللَّه تعالى.

---

(١) رواه مسلمٌ، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كلُّه خيرٌ، رقم (٢٩٩٩)، من حديث صهيبٍ رضي الله عنه.

ثُم بعد ذلك قال: (وَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلاَءِ) أي: أنَّ الثواب العظيم من أسبابه عِظم البلاء؛ أي: أنَّ الابتلاء يأتي بالحسنات كما أنه يكفِّر السيئات.

فدلَّ على أنَّ المسلِم إذا أصيب بمصيبةٍ يَحتسب الأجر فيها عند اللَّه.

(وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْماً ابْتَلاَهُمْ) فدلَّ على أنَّ الابتلاء للمؤمن علامةٌ من علامات محبَّة اللَّه للعبد.

يدلُّ على أنَّ مِن صفات اللَّه عز وجل المحبَّة؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وقال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦]، وقال: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]، وقال: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

(قَوْماً) من المؤمنين، أمَّا الكفار يُبتَلون ليس عن محبةٍ؛ وإنَّما مِن تعجيل العقوبة لهم؛ قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ العَذَابِ الأَدْنَى دُونَ العَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١].

وأمَّا المؤمن إنْ وَقعت عليه المصيبة، فهي من حبِّ اللَّه له؛ قال صلى الله عليه وسلم: «أَشَدُّ النَّاسِ بَلاَءً الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ، فَيُبْتَلَى

الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْباً اشْتَدَّ بَلاَؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ البَلاَءُ بِالعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ» رواه الترمذي(١).

والأنبياء تَعرضوا للابتلاء؛ قالت عائشة للنبي صلى الله عليه وسلم: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ، قَالَ: «لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ» رواه البخاريُّ(٢)، وفي الآية: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الخَوْفِ وَالجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة: ١٥٥]، وهذه كلُّها أصيب بها النبي صلى الله عليه وسلم.

وهكذا أحبُّ الخلْق إلى اللَّه أتاهم مِن المصائب ما أتاهم، فإبراهيم عليه السلام يُلقَى في النار، ويوسف عليه السلام يُسجَن، ويعقوب عليه السلام يَفقد ابنه، ونوحٌ عليه السلام يرجو النجاة لابنه، ثُم يَهلك مع الكافرين، وهكذا ما مِن نبيٍّ إلا وابتُلي.

(١) أبواب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، رقم (٢٣٩٨)، من حديث مصعب بن سعدٍ عن أبيه رضي الله عنه.

(٢) كتاب بدء الخلْق، باب إذا قال أحدكم: آمين، والملائكة في السماء، آمين، فوافقت إحداهما الأخرى، غُفر له ما تقدم من ذنْبه، رقم (٣٢٣١).

(فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا) أي: مَن رَضي بما كَتبه اللَّه عز وجل له؛ فالثواب رضا اللَّه عليه، أو فمَن رَضي بذلك المكتوب؛ فسيأتيه الرضا والطمأنينة والسكينة.

(وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ) أي: مَن لم يرضَ بالمكتوب؛ سَخط اللَّه عليه؛ لأنَّه لم يحقِّق الصبر.

والرضا منزلةٌ أعلى من الصبر؛ وهي مستحبَّةٌ، والواجب الصبر.

وقد ذَكر بعض أهْل العِلم بأنَّ هذه المسألة الوحيدة التي العلوُّ فيها مستحبٌّ والأدنى واجبٌ، فالصبر واجبٌ، والرضا - وهو أعظم أجراً - مستحبٌّ.

فيجب على المسْلِم أن يَصبر على ما كَتبه اللَّه؛ بل يَرضى بذلك المكتوب.

واللَّه عز وجل أَرحم بعبده وأرأفُ به؛ فعلى الإنسان أنْ يُفوِّض الأمر إلى اللَّه وما يَكتبه اللَّه له فهو خيرٌ.

يعني أنَّ المصاب بالمصيبة ليس له سوى الصبر، فمَن جزع مِن المصيبة؛ لم يحصِّل ثواباً، ولم يحصِّل سوى جزعهِ من المصيبة.

وسخطُك على المصيبة؛ قد يدعو إلى سخطِ اللَّه عليك، بسبب تجزُّعك على القضاء والقدر.

فتبيَّن ممَّا سَبق:

أنّ ممَّا ينافي التوحيد الواجب عدم الصبر على المصائب، وأنَّ الصبر على المصائب من الإيمان باللَّه عز وجل.

وأنَّه ما مِن أحدٍ إلا ويُبتَلى.

وذَكر المصنِّف رحمه الله أدلةً في الوعيد لِمن لم يَصبر على المصائب.

ثُم المصنِّف رحمه الله يُسلِّي صاحب المصيبة، فكأنَّه يقول: هذا من تعجيل العقوبة، وإذا أراد اللَّه بالعبد الخير؛ عجَّل له العقوبة، وأنَّ اللَّه عز وجل ما ابتلاك إلا لأنه يحبُّك؛ لتثبيت صاحب المصيبة، على ما أصيب من تلك المصيبة.

***

[٣٦]

بَابُ

مَا جَاءَ فِي الرِّيَاءِ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ الآيَةَ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي؛ تَرَكْتُهُ وَشِركَهُ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه مَرْفُوعاً: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ المَسِيحِ الدَّجَّالِ؟ قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: الشِّرْكُ الْخَفِيُّ - يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلاتَهُ؛ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ -» رَوَاهُ أَحْمَدُ.

الشرح:

قال رحمه الله: (بَابُ مَا جَاءَ فِي الرِّيَاءِ) أي: باب ما جاء في الوعيد والتهديد والتحذير مِن أنْ يقع في قلب المؤمن شيءٌ من الرياء، وبيان أنَّه شركٌ أصغر.

والشرك في أصله ينقسم إلى قِسمين:

القِسم الأَوَّل: الشرك الأكبر، وهذا يكون في أقوالٍ، أو أفعالٍ، أو نيَّاتٍ.

القِسم الثاني: الشرك الأصغر، وينقسم إلى قِسمين:

الأَوَّل: شركٌ أصغر ظاهرٌ؛ يعني: يَظهر شركه.

وهذا يكون في الأقوال، مثل: الحلف بغير اللَّه، كقول الشخص: والنبي، والكعبة.

وقد يكون في الأفعال، كتعليق التميمة.

الثاني: شركٌ أصغر خفيٌّ، كطلب رياءٍ أو سُمعةٍ، والرياء فسَّره النبي صلى الله عليه وسلم بتزيين العبادة لأجل الناس.

والرياء ينقسم إلى ثلاثة أقسامٍ:

القِسم الأَوَّل: إمَّا أن يؤدى العمل ابتداءً مِن أجْل الخلق؛ فهذا -والعياذ باللَّه -أَدخل الشرك في أصل العمل؛ فهو شركٌ أكبر محبطٌ له -والعياذ باللَّه-.

ولهذا القِسم ساق المصنِّف رحمه الله حديث أبي هريرة.

مِثل: لو قال: أنا أريد أنْ أصلِّي هذه الصلاة؛ ليراني الناس فهو لم ينوِ الصلاة، لكن صلَّى من أجل الناس.

القِسم الثاني: صلَّى للَّه في ابتداء العبادة، ولكنَّه بدأ يحسِّنها مِن أجْل الناس؛ فهذا هو الشرك الأصغر.

مثال ذلك: شخصٌ يَقرأ القرآن، ثُم أَقبل عليه رجُلٌ، فقام يُزيِّن تلاوته؛ من أجل السُّمعة؛ فهذا من أنواع الشرك الأصغر، يُحبِط العمل الذي قارَنه.

ولهذا القِسم ساق المصنِّف رحمه الله حديث أبي سعيدٍ رضي الله عنه.

القِسم الثالث: طرأَ على العمل طرءاً يسيراً، ثم دافعه مباشرة؛ فهذا من وساوس الشيطان، لا يُبطل العمل، ولا يُحبطه.

أو أنْ يَعمل الإنسان عملاً خالصاً للَّه لا يريد بذلك سُمعةً ولا رياءً، ثم أُثنِي عليه خيراً، وهو لم يَطلب الثناء، لكنه سَمع عن عبادته، وما يقدِّمه من عملٍ صالحٍ ثناءً، فهذا لا يُعتبر من الرياء؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم: «تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ»(١).

---

(١) رواه مسلمٌ، كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أثني على الصالح فهي بشرى ولا تضره، رقم (٢٦٤٢)، من حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه.

وأمَّا تزيين الصوت في قراءة القرآن؛ فإذا كان يزين صوته من أجْل أن يتدبر الناس القرآن، ويفهموه؛ فليس هذا من الرياء؛ لقول أبي موسى الأشعري رضي الله عنه لمَّا أخبره النبيُّ صلى الله عليه وسلم بأنه كان يستمع لقراءته الليلة؛ قال: «لَوْ عَلِمْتُ بِمَكَانِكَ لَحَبَّرْتُ لَكَ تَحْبِيراً»(١)؛ لأَنَّه لا يَقصد بذلك الرياء والسمعة، ولكن يَقصد تحبيره؛ ليكون أدعى للتدبر، والفهم، وحسن التلاوة ونحو ذلك.

والرياء لا يَدخل إلا على العبادات، فلا يَدخل إلا على الصالحين.

أمَّا أهل التجارة وأهل الغناء والمعازف فأعمالهم لا يكون فيها رياء؛ لأَنَّها ليست عبادةً، وإنَّما يدخلها العُجب، والفَخر، والكِبر، وغيرها من المعاصي؛ لذلك يجب على المسلِم أنْ يَحذر من الرياء؛ لأَنَّه يدخل في عباداته.

والرياء يكون في عبادات الجوارح، مثل: الصلاة، والصدقة، أو في النفع المتعدِّي، مثل: تعليم العِلم، وبذْل المال، ونحو ذلك.

---

(١) رواه النسائي في الكبرى، كتاب فضائل القرآن، تحبير القرآن، رقم (٨٠٠٤).

أمَّا أعمال القلوب فلا يَدخلها الرياء، مثل الرهبة من اللَّه والخشية والإنابة؛ لأنَّها قلبيةٌ فلا يراها الناس.

والفرْق بين الرياء والسمعة:

أنّ الرياء في النظر، فهو يرائي ليروه الناس، فهو في الأعمال المرئية، مثل: الصدقة، والزكاة، والصلاة.

والسُّمعة في الأعمال التي تُسمَع، مثل: تلاوة القرآن، والذكر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من باب التسميع.

وعقوبتها: كما قال صلى الله عليه وسلم: «مَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللَّهُ بِهِ مَنْ يُسَمِّعْ يُسَمِّعِ اللَّهُ بِهِ»[(١)]؛ يعني: في المحشر، يفضحه اللَّه على رؤوس الخلائق؛ لأنَّه لم يُرد بذلك وجه اللَّه جل وعلا.

وضابط الإخلاص: أنْ يكون حمْد الناس وذمُّهم لك سواءً، فلا تَعمل صالحاً من أجل حمْد الناس، ولا تَتوانى عن طاعة اللَّه مِن أجْل

---

(١) رواه مسلمٌ، كتاب الزهد والرقائق، باب من أَشرك في عمله غير اللَّه، رقم (٢٩٨٧)، من حديث جندب العلقي رضي الله عنه.

الناس؛ بل تُقدِم على طاعة اللَّه مِن أجْل اللَّه؛ سواء حَمدوك الناس أو ذمُّوك، أَحبُّوك أو أَبغضوك.

والمصنِّف رحمه الله ذكر ثلاثة نصوصٍ:

النَّصُّ الأَوَّل؛ لبيان أنَّ الرياء شركٌ؛ لذلك في آخر الآية قال: (﴿**وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً**﴾).

والنَّصُّ الثاني؛ لبيان سبب عدم قبول عمل المرائي؛ لأنَّ اللَّه أغنى الشركاء.

والنَّصُّ الثالث؛ لبيان أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم خاف على الصحابة من الرياء؛ لخطورته.

قال: (**وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾**) أي: مَن كان يَأمل ويَتيقَّن بأنه سيعود إلى ربه ويحاسبه، أو مَن كان يرجو معاينة اللَّه سبحانه وتعالى، ويَدخل فيه رؤية اللَّه سبحانه وتعالى، أو من كان يرجو لقاء اللَّه.

وكل المعاني هذه صحيحةٌ، فمن كان يرجو ذلك:

(﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً﴾) وهذا هو **الشرط الأَوَّل** لقبول العمل، وهو المتابعة للنبي صلى الله عليه وسلم بأن يكون العمل صالحاً؛ أي: موافقاً لما جاء به الشرع؛ يعني: أنْ تكون على وِفق ما جاء به الإسلام.

فلا يَعمل العبد عملاً مبتدَعاً من عنده، ويرجو قبوله، مِثل: أنْ يُصلِّي العصر خمس ركعاتٍ، أو أن يصوم رمضان واحداً وثلاثين يوماً ونحو ذلك؛ وإنَّما يكون على وفق الهدْي.

والشرط الثاني: (﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾) أي: لا يَصرف هذه العبادة لغير اللَّه؛ ويُخلِص العبادة له وحده.

فدلَّ على أنَّ المرائي لم يُخلص عَمله للَّه؛ فوَقع في الشرك؛ ولذلك رُدَّت أعمال المشركين، بسبب عدم إخلاصهم للَّه؛ قال جل وعلا: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٥٤]، فلم يُخلصوا أعمالهم للَّه؛ بل صَرفوها لغيره.

فإذا تَوفَّر في العمل هذان الشرطان: الإخلاص والمتابعة؛ بإذن اللَّه يكون العمل صالحاً متقبَّلاً؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

(﴿قُلْ﴾) يا محمد لهم: (﴿إِنَّمَا أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾) فلا أَملك شيئاً من الربوبية، ولا أَملك نفعاً ولا ضراً، إنما خصَّني اللَّه بميزةٍ واحدةٍ، وهي الرسالة، (﴿يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾)، وهذه دعوة جميع الرسل، بتوحيد اللَّه عز وجل.

(﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾)؛ فلا يرائي، ولا يُسَمِّع، ولا يَعملْ لأجل قبرٍ، أو وليٍّ ونحو ذلك.

والناس لا ينفعونك ولا يضرونك؛ إنما النافع الضار هو اللَّه سبحانه؛ كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٧]، وكما قال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٠-٨٢].

فالأعمال هي للَّه سبحانه؛ كما قال: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، فتَجعل أعمالك كلها للَّه، لا تصرف منها شيئاً للخلْق، فهم لا يَملكون جنَّةً ولا ناراً؛ بل إنَّ الذي يُحبط عملك إذا فعلتَه لغير اللَّه؛ هم البشر، واللَّه سبحانه يقول:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ﴾ [النحل: ٩٢].

فالعبرة ليست في فعل عملٍ صالحٍ؛ وإنَّما المقصود أنَّ اللَّه يَقبله، فالكفار يتصدقون، لكن لا يُقبَل منهم؛ كما قال سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [التوبة: ١٧]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٦]، فهم يَعملون أعمالاً صالحة، لكن حَبط العمل من دون الإخلاص.

ومما يُحبط العمل الصالح: الرياء والعُجب.

ومن أسباب إفلاس العمل أيضاً: عملُ السيئات بعده؛ قال سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثاً﴾ [النحل: ٩٢].

ومن أسباب حبوط العمل أيضاً: رفْع الصوت عند النبي صلى الله عليه وسلم؛ كما قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الأحقاف: ٢].

وكذلك مما يُحبط العمل: التَّأَلِّي على اللَّه، مِثل ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم: «أَنَّ رَجُلاً قَالَ: وَاللَّه لَا يَغْفِرُ اللَّه لِفُلَانٍ، وَإِنَّ اللَّه تَعَالَى قَالَ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ، فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلَانٍ، وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ» رواه مسلمٌ(١).

(﴿**فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً**﴾)؛ ليُقبل.

(﴿**وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً**﴾) وهذا هو الشاهد، فالرياء نوعٌ من أنواع الشرك، فإذا دَخل على العمل؛ أَفسده وأَبطله، فلم يُحرَم صاحبه الخير والحسنات فقط؛ بل يأثم؛ لأنه فرَّط في واجبٍ، وهو عدم صرْف العمل خالصاً للَّه، فعوقب بعقوبتين: حبوط العمل، وعقوبة صرْف العمل لغير اللَّه.

ثُم قال: (**عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ**: «**قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ**).

---

(١) كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن تقنيط الإنسان من رحمة اللَّه تعالى، رقم (٢٦٢١)، من حديث جندبٍ رضي الله عنه.

(أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ) أي: لو أنَّ رجُلاً عَمل عملاً صالحاً، كطلب العِلم من أجل أن يرائي به عند زيدٍ؛ فاللَّه غنيٌ وكريمٌ وحميدٌ، يدع هذا العمل لزيدٍ ولا يَقبله اللَّه.

ومثال ذلك عند المخلوقين: لو أنَّ اثنين من الرجال فقراء جداً، ويَتقاسمون قطعةً مِن الخبز، فلو رآهم غنيٌّ وقال رجُلٌ آخر: يا غنيُّ كلْ مع هؤلاء الفقراء، فيقول: لا؛ أنا غنيٌّ، عندي غيرها فلا حاجة لي بهذا الخبز المكسر مثلاً.

فكذلك اللَّه عز وجل غنيٌّ، وكبيرٌّ؛ لا يَدخل في هذا العمل المصروف لغيره معه؛ بل يَجعله لمن صُرف له، ومن صُرِفَ له لا يَملك جنَّةً ولا ناراً؛ لذلك قال: (مَنْ عَمِلَ عَمَلاً) (**عَمَلاً**) نكرةٌ؛ يعني: أيَّ عملٍ.

(أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي) أَدخل معي في قصْده غيري، مِن النَّاس، أو الصالحين، أو المدير، أو المعلِّم ونحو ذلك.

(تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ)، وفي لفظ: «وَشَرِيكَهُ»[(١)] أي: تركتُ ذلك الرجُل الذي أَشرك بهذا العمل، وتركتُ أيضاً العمل؛ لأني غنيٌّ، فتركتُ العامل فلم أُثبْه على عملهِ، وتركتُ ذلك العمل للمُشْرَك به.

فدلَّ على أنَّ الإخلاص عزيزٌ، وأنَّ اللَّه عز وجل لا يَتقبَّل العمل إلَّا إذا كان صاحبه مخلِصاً إخلاصاً تامّاً للَّه وحده.

قال: (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

فدلَّ على حبوط العمل، فلا يُثاب عليه.

ويدل على غنى اللَّه سبحانه وتعالى، فهو سبحانه غنيٌّ عن أعمال العباد، إذا لم تُصرَف له، وكأنَّه يقول: اذهب إلى مَن عملتَ العمل لأجْله؛ ليثيبك عليه، والبشر لا يَملكون ثواباً، ولا يَملكون دفْع عقابٍ؛ لذلك قال: (أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ)، فاللَّه سبحانه لا يَرضى أنْ يُجعَل

---

(١) قال النووي رحمه الله: «هَكَذَا وَقَعَ فِي بَعْضِ الْأُصُولِ وَشِرْكَهُ، وَفِي بَعْضِهَا وَشَرِيكَهُ، وَفِي بَعْضِهَا وَشَرِكَتَهُ» شرح النووي على مسلم (١٨/ ١١٥).

وقال السيوطي رحمه الله: «تركته وشركه، فِي نُسْخَة وشريكه، وَفِي نُسْخَة وشركته» شرح السيوطي على مسلم (٦/ ٢٩٢).

معه أحدٌ في العبادة؛ لأنَّه هو المتكبر الحميد، وهو المستحقُّ للعبادة، وغيره لا يَستحقُّها.

فإذا صُرِف مع اللَّه أحدٌ في النية؛ تَرك اللَّه هذه النية لذلك المصروف، وهذا من كمال غناه وحمده.

وهذا الحديث يدلُّ على القسم الأَوَّل، أنَّ الرياء إذا دَخل في أصل العمل؛ أبطله – والعياذ باللَّه –.

ثُم بعد ذلك قال: (**وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه مَرْفُوعاً: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟**).

أَخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنّ فتنة هَذهِ الأمَّة المَالُ[1]، وما من نبيٍّ إلا وحَذَّر أمَّته من المسيح الدجال؛ كما قال صلى الله عليه وسلم: «مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ أَنْذَرَ أُمَّتَهُ مِنَ الدَّجَّالِ»[2]، مع هذا خاف النبي صلى الله عليه وسلم على الصالحين من أمَّته الرياء.

---

(١) رواه أحمد في المسند، رقم (١٧٤٧١)، من حديث كعب بن عياض رضي الله، ولفظه: «إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً، وَإِنَّ فِتْنَةَ أُمَّتِي الْمَالُ».

(٢) رواه البخاريُّ، كتاب الفتن، باب ذكْر الدجال، رقم (٧١٣١)، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكْر الدجال وصفته وما معه، رقم (٢٩٣٣)، من حديث

قال المصنِّف رحمه الله[١]، وقال الشيخ سليمان بن عبد اللَّه بن عبد الوهاب في تيسير العزيز الحميد[٢]: «فيه دليل على أنَّ الرياء أخوف على الصالحين من المسيح الدجال»، وهذا مِن مضمون هذا الحديث.

فالرجُل الصالح يَدخل عليه الشيطان، ليس من المال؛ فقد يكون زاهداً، وليس من فتنة النساء؛ فقد يكون معرِضاً عنهن، فيَدخل عليه من بابٍ خفيٍّ كما وَصفه النبي صلى الله عليه وسلم.

فقوله: (أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ) أي: لا شيء أشد عند النبي صلى الله عليه وسلم على صحابته من الشرك الخفيِّ؛ لشدة خطورته، باتِّباع النفس والهوى له إلَّا من وفَّقه اللَّه، فخافه النبي صلى الله عليه وسلم عليهم أشد مِن خوفِه عليهم من المسيح الدجال.

(قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: الشِّرْكُ الخَفِيُّ)، وفي صحيح ابن خزيمة سمَّاه النبي صلى الله عليه وسلم: «شِرْكَ السَّرَائِرِ»؛ يعني: الشرك الذي في السر

أنسٍ رضي الله عنه، ومسلمٌ، ولفظه: «مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ أَنْذَرَ أُمَّتَهُ الْأَعْوَرَ الْكَذَّابَ».

(١) كتاب التوحيد (ص١٩٤).

(٢) (ص٤٦١).

فلا يَعلمه إلا اللَّه، لكنَّ النية تزيغ فيه؛ لذلك قال عليه الصلاة والسلام: «إِيَّاكُمْ وَشِرْكَ السَّرَائِرِ، يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ جَاهِداً لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ النَّاسِ إِلَيْهِ» رواه ابن خزيمة(١).

وهنا قال: (**الشِّرْكُ الخَفِيُّ**) بابٌ خفيٌّ دقيق، وهو شرك الرياء، ولذلك فليَحذر الصالح من الولوج في هذه المعصية الصغيرة، مِن الإعجاب بِعمله، ومراءاة الناس له بالمدْح والثناء، وكان أكثر دعاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «اللَّهم اجعل عملي كلَّه صالحاً، واجعله لوجهك خالصاً، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً»(٢).

والتفاوت في الثواب يكون بالنيَّات؛ قال سبحانه: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّه قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]، قال ابن كثيرٍ: «بحسب النية، كلَّما عظُمت النية للَّه وخلُصت؛ ازداد الثواب»(٣).

---

(١) كتاب الصلاة، باب التغليظ في المُراءاة بتزيين الصلاة وتحسينها، رقم (٩٣٧)، من حديث محمود بن لبيدٍ رضي الله عنه.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١/ ٣٣٤).

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٦٩٣).

وكذلك المصلُّون، يُحَصِّل بعضهم سدْس صلاته، وبعضهم ثلثها؛ بحسب النية، وإنْ كانت الأفعال واحدةً من ركوعٍ وسجودٍ، لكن الأجر يزيد ويَنقص؛ بحسب النية.

ولا مَخرج من ذلك إلا بالدعاء، فيَدعو الإنسان كثيراً بالإخلاص، والنظر في عظمة اللَّه سبحانه، والنظر في ضعْف المخلوقين بأَنَّهم لا يَملكون شيئاً.

(**الشِّرْكُ الخَفِيُّ**) أخفى مِن دبيب النملة، على الصفاة السوداء، في الليلة الظلماء، فسمَّاه خفيّاً؛ لأَنَّه يَدخل في النيات، ولا يَعلمه إلا اللَّه، فقد يَظن العبد نفْسه مخلصاً، لكن في خفاء نفْسه؛ ليس كذلك - والعياذ باللَّه -.

ثُم فسَّر النبي صلى الله عليه وسلم هذا الشرك الخفيَّ بقوله: (**يَقُومَ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي**) أي: يصلِّي للَّه، ثُم يَطرأ عليه هذ الشرك، وهو تزيين العبادة، (**فيزيِّن صَلَاتَهُ**) تزييناً فقط، فهنا فقط تزيينٌ وتحسينٌ للعمل، مثل: لو كان في الركوع يقول ثلاث تسبيحاتٍ، فمِن تزيين الصلاة للناس يزيد خمس تسبيحاتٍ وهكذا.

(لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ) أي: مرائياً بذلك؛ مِن أجل أنَّ الرجُل نَظر إليه، فقام يُزيِّن صلاته، فهذا هو الشرك الخفيُّ الذي يُحبط العمل - والعياذ باللَّه -.

ووصَفه النبي صلى الله عليه وسلم بالخفيِّ، وخافه على الصالحين من أمَّته أكثر من المسيح الدجال.

فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم قد خافه على صحابته مع شدَّة إخلاصهم؛ فمَن بعدهم مِن باب أَولى.

والمَخرج بإذن اللَّه من الرياء؛ هو الدعاء بالإخلاص، مثل: يقول: (اللَّهم اجعل عملي خالصاً لوجهك الكريم)، أو: (اللَّهم إني أسألك الإخلاص في القول والعمل)، أو: (اللَّهم إني أسألك الإخلاص).

وبهذا يجب على المسْلِم أن يُمحِّص نفْسه، ويَعلم أنَّ للشيطان وساوس، وأبواباً خفيَّةً، فقد يَنقطع العبد عن الدنيا، ويَعمل صالحاً، ويُضيِّع مَن يعيل في نظره؛ لكثرة العبادة، ثُم يأتيه الشيطان فيُحبط عمله، فلا يُحصِّل لا دنيا ولا آخرة.

قال في تيسير العزيز الحميد[١]: «وطالب الدنيا أعقل من المرائي؛ لأنَّ طالب الدنيا يَطلب الدنيا بعمله، فقد يُحصِّل دنيا، أمَّا المرائي لم يُحصِّل دنيا، ولم يُحصِّل آخرة».

فيجب على المسْلِم أنْ يتفقَّد قلْبه كثيراً؛ بكثرة الدعاء بأنْ يجعل اللَّه عمله خالصاً لوجهه الكريم، وليحذر من الرياء، ويَعلمَ أنَّه بابٌ خفيٌّ من أبواب الشيطان، يَطرقه على العبد الصالح.

والرياء إمَّا أن يكون في أصل العمل؛ فيُحبط جميع العمل.

وإمَّا أنْ يَطرأ على العمل، ثم يدافعه الشخص؛ فهذا من وساوس الشيطان؛ ولا يبطل العمل.

وفيه ما يزيِّن الشخص فيه العمل للناس، لكن أصل العمل للَّه؛ فهذا شركٌ خفيٌّ يُحبط العمل الذي قارنه.

***

---

(١) (١/ ٦٤١).

[٣٧]

بَابٌ

مِنَ الشِّرْكِ إِرَادَةُ الإِنْسَانِ بِعَمَلِهِ الدُّنْيَا

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ الآيَتَيْنِ.

فِي الصَّحِيحِ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيصَةِ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيلَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ.

تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ.

طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ».

الشرح:

قال رحمه الله: (بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ إِرَادَةُ الإِنْسَانِ بِعَمَلِهِ الدُّنْيَا).

الفرْق بين هذا الباب، والباب السابق (بَابُ مَا جَاءَ فِي الرِّيَاءِ)، أنَّ بينهما عمومٌ وخصوصٌ مطلقٌ.

فالمرائي يرائي مِن أجْل الحصول على الدنيا، والذي يريد بعمله الدنيا؛ يَعمل لها، فبينهما عمومٌ وخصوصٌ مطلقٌ، فمَن عَمِل من أجل الدنيا؛ فقد راءى، ومن عَمل الرياء؛ فقد أراد حظوظ الدنيا، من السُّمعة والحمد والثناء عند الناس.

وهذا الباب يَدخل فيه شرك النيات.

وسبق قول النبي صلى الله عليه وسلم في شرح الباب السابق: «إِيَّاكُمْ وَشِرْكَ السَّرَائِرِ، يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ جَاهِداً لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ النَّاسِ إِلَيْهِ»، والحديث عند ابن خزيمة(١)، غير الحديث الذي ساقه المصنِّف في الباب.

فيَدخل في النية؛ بمعنى: أنَّ العمل في ظاهره صلاحٌ - مِن أداء الصلاة والصيام والصدقة ونحو ذلك -؛ لكن النية فاسدةٌ.

فمَن أراد بعمله الصالح حظّاً من حظوظ الدنيا؛ حَبط عملُه - والعياذ باللَّه -، وهذا بابٌ خفيٌّ خطيرٌ، لا سيما على الصالحين، فالشيطان يوقع الصالح فيه، ويُثبِّطه عن الطاعة.

---

(١) سبق تخريجه (ص) عند قوله (إِيَّاكُمْ وَشِرْكَ السَّرَائِرِ).

والواجب إخلاص العمل للَّه، لا يَطلب الدنيا، ولا يَنظر إليها، وما أتاه مع إخلاصه للعمل فهو ثمرةٌ من الثمرات؛ بمعنى: أنَّ الإنسان يَنظر في عمله إلى الأصل، لا إلى الثمرة.

مثال ذلك: لو أنَّ شخصاً لديه مريضٌ، فيقول: أَتصدَّق مِن أجْل أنْ يُشفى المريض، فصدقته هنا ليست مِن أجْل تلك العبادة، ولا طلباً لرضى اللَّه، فهنا عَمل لأجل الدنيا؛ فيُحبط عمله.

لكن لو قال: أتصدق من أجل سيئاتي فقد أكون أذنبتُ ذنْباً، وقد يكون من ثمراته شفاء المريض؛ فلا بأس؛ قال سبحانه: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ [الأنعام: ٤٣].

والنبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»(١)، فأنت تؤدي هذه العبادة – صلة الرحم –؛ خالصةً للَّه، وما أتى مِن ثمرةٍ تبعٌ لها، ففي إخلاص النية، تَنظر للأصل، وهو ابتغاء مرضاة اللَّه وثوابه، لذلك قال البخاري: «باب من

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب من بُسط له في الرزق بصلة الرحم، رقم (٥٩٨٦)، ومسلمٌ، كتاب البِر والصلة والآداب، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها، رقم (٢٥٥٧)، من حديث أنس بن مالك رضي اللَّه عنه.

بُسط له في الرزق بصلة الرحم»[١]، فتأتي الثمرة، لكن الأصل ابتغاء وجْه اللَّه تعالى.

فلا تزكِّ مالك مِن أجْل أن يَزيد؛ بل ترجو ما عند اللَّه من الثواب؛ ليرضى عنك، ثم تأتي الثمرات؛ مِن تزكية المال وطهارته، وقد يكون صلاح الذرية، وما فيه مِن دفْع الكروب والمصائب ونحو ذلك، فتنظر إلى الأصل لا إلى الثمرة.

أمَّا إذا ابتُغِيَ غير وجه اللَّه في شفاء المريض فقط، أو نماء المال وزيادته فقط، والتصدق - مثلاً - من أجل صلاح الأَولاد فقط؛ فهذا يَدخل في هذا الباب.

ولذا لو أنَّ طالب العِلم يَطلب العِلم؛ مِن أجْل أنْ يَحصل على وظيفةٍ فقط، وليمدحه الناس عليه ونحو ذلك؛ فيدخل - والعياذ اللَّه - في هذا الباب، وفي صحيح مسلمٍ[٢]: «أَوَّلُ ثَلَاثَةٍ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ: قَارِئُ

---

(١) صحيح البخاري (٨/ ٥).

(٢) كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحقَّ النار، رقم (١٩٠٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ

القُرآنِ، وَالمُجَاهِدُ، وَالمُتصدِّقُ بِمَالِه»؛ الذين فعلوا ذلك ليقال فلان قارئ، فلان شجاع، فلان متصدق، ولم تكن أعمالهم خالصةً للَّه.

فكلُّها أعمالٌ صالحةٌ، لكن لفساد نياتهم؛ كان عقابهم - والعياذ باللَّه - أوَّل مَن تُسعَّر بهم النار، ولم تَشفع لهم تلك الأعمال الصالحة.

فواجبٌ على العبد أنْ يُجَرِّد نيته للَّه، وهذه دعوة اللَّه للخلْق؛ قال سبحانه: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، فقط يَعبدون اللَّه مخلِصين له الدين وحْده، وهذا لأهل الكتاب، ولجميع

فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ؛ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ؛ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ؛ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّه عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ؛ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ».

الناس، وقال اللَّه للنبي صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ١١]، فجاءت الرسل بإخلاص العبادة، وبه أمَر اللَّه جميع الخَلْق.

فلا تَجعل النية لغير اللَّه، لا لدنيا، ولا لأجْل الناس بسُمعةٍ أو رياء، والعبد يجاهد نفْسه وقلبه؛ ليدرأ ما يلقيه الشيطان على الأعمال الصالحة.

قال: (مِنَ الشِّرْكِ إِرَادَةُ الْإِنْسَانِ بِعَمَلِهِ الدُّنْيَا) أي: يَقصد بعمله الصالح مآرب الدنيا، من وظيفةٍ، وعملٍ، أو مالٍ، أو جاهٍ ونحو ذلك؛ فهذا نوع مِن أنواع الشرك - والعياذ باللَّه -، ويُحبِط العمل.

(بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ) أي: من أنواع الشرك الأصغر المنافي لكمال التوحيد الواجب.

(إِرَادَةُ الْإِنْسَانِ بِعَمَلِهِ الدُّنْيَا) أي: يَقصد من عمله الصالح الدنيا.

والذي يَعمل صالحاً لأجْل الدنيا على أقسامٍ:

القِسم الأوَّل: أن يَعمل عملاً صالحاً يريد به وجْه اللَّه؛ ولكن يقصد من ذلك أمراً دنيوياً، مِثل: أن يتصدَّق لحفْظ ماله، أو أن يغزو لمغنمٍ.

فهذا لا يجوز، وينافي كمال التوحيد.

والقِسم الثاني: أن يَعمل عملاً صالحاً؛ لا يريد به وجْه اللّه؛ وإنما الدنيا فقط، مِثل: مَن يَتصدق ليس لوجه اللّه، وإنما يريد جاهاً، أو يَطلب العِلم ولا يريد به وجه اللّه، وإنما يريد به المكانة مثلاً.

فهذا نوعٌ من أنواع الشرك الأصغر، وعليه بوَّب المصنِّف رحمه الله.

والقِسم الثالث: أن يَعمل عملاً صالحاً ولا يقصد به شيئاً من الدنيا، ويأتيه أثر ذلك العمل الصالح؛ فهذا جائز.

مثل: من وصَل رحِمه لوجْه اللّه، لا يريد به طول عُمُرٍ، أو زيادة مالٍ؛ فهذا هو المطلوب.

فإذا قيل: قول النبي صلى الله عليه وسلم: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ» (١)، فهنا قَصْد دنيوي وهو طول العمر، والبسط في المال.

فالجواب: أنَّ هذه من آثار تلك العبادة، فالإنسان يَقصد تلك العبادة ولا يَلتفت إلى حصول الأثر، ومِثل ذلك أيضاً: يَتصدق الإنسان

---

(١) سبق تخريجه (ص). عند قوله والنبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ».

لوجه اللَّه، ولا يَنظر إلى حفْظ المال، أو إلى زيادته؛ وإنَّما الصدقة الخالصة للَّه من آثارها: حفظ المال، وكثرته، والبركة فيه ونحو ذلك.

والمصنِّف رحمه الله ذَكر نصَّين في هذا الباب:

النَّصُّ الأَوَّل؛ لبيان أنَّ من أراد الدنيا بأعماله الصالحة؛ فأعماله في الآخرة حابطةٌ.

والنَّصُّ الثاني؛ لبيان أنَّ من أراد بعمله الدنيا فلن يفلح في الدنيا؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (تَعِسَ).

لذلك قال رحمه الله: (وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾) بما فيها من مالٍ، وجاهٍ، ونحو ذلك، فهو يريد الدنيا وزينتها، ولم يردْ وجه اللَّه، ففَعل مِن أجل الثمرة فقط، كأنْ ينفق مِن أجل أنَّ ماله يزيد، لا مِن أجْل ابتغاء وجه اللَّه، وكمَن يُنفق مِن أجْل أنْ يُشفى المريض، لا مِن أجل ابتغاء وجه اللَّه.

(﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾) أي: نعطيهم ما يريدون كاملاً؛ إذا شئنا ذلك، نعطيهم ما قصدوه وما نوَوه.

وهذه الآية عامَّةٌ؛ أيْ: مَن يتصدق مِن أجْل أنْ يُكثر ماله، أو أنْ يُشفى مريضه؛ نُعطه منها، لكن هناك آية قيَّدتها، فليس كل مَن طلب

الدنيا، وسعى إليها، وفَسدت نيته، يُعطى سُؤلَه؛ قال سبحانه: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨]، فمَن أراد اللَّه أنْ يعطيه، تعجيلاً لما طَلبه، وإحباطاً لعمله في الآخرة؛ يُعجِّل له، وإذا شاء اللَّه أنْ لا يُعطيه شيئاً في الدنيا، فلا يُعطى.

إذاً: لا يُفهم من هذه الآية أنَّ كلَّ مَن عمل لأجل الدنيا؛ تتحقق أمنياته، لا؛ وإنما هذه الآية كما قلنا مُقيدة بالأخرى، فإنْ شاء اللَّه أعطاه لفساد نيته، ويعاقب يوم القيامة على شِركه، وإن شاء اللَّه عز وجل مَنعه عن ذلك.

وأمَّا في الآخرة: قال اللَّه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٦]، فمَن أراد بأعماله الصالحة الدنيا؛ لم يحصِّل شيئاً، ويَدخل النار؛ لأنه ليس عنده عملٌ صالحٌ.

فإذا قارن العمل الصالح طلب الدنيا وما فيها؛ فهو مُتَوعَّدٌ بهذه الآية، مِثل: مَن طلبَ العِلم؛ لينال المنصب، أو يقول: أَحفظ القرآن؛ لأَحصل على وظيفة إمامٍ ونحو ذلك.

فيدلُّ على أنَّ مَن أراد الدنيا؛ يُحبَط عمله؛ لأنَّه لم يَقصد به وجه اللَّه.

واللَّه تعالى كريمٌ؛ لا يَرضى أنْ تَصرف العبادة معه لغيره، فيتركك مع عملك وشركك.

أمَّا مَن ابتغى وجْه اللَّه؛ فاللَّه عز وجل يُثيبه؛ قال سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ [الليل: ٥-٧]، فكلُّ أمره ميسَّرٌ بالتقوى والبذل، وقال في الآيات الأخرى: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلعُسْرَى﴾ [الليل: ٨-١٠]، ولمَّا سمع معاوية بن أبي سفيان(١) هذه الآية العظيمة؛ بكى.

فمَن زاغ قلبه لأجْل الدنيا؛ فهو متوعَّدٌ بالنار، فليحذر المسلِم أن تزيغ نيته مِن أجْل الدنيا، أو طلبِها، أو زُخرفها، واللَّه يقول: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧]، وقال: ﴿وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ [الرعد: ٢٦]، وقال: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١]، وقال: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ

---

(١) هو: أبو عبد الرحمن معاوية بن أبي سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، توفي سنة (٦٠هـ). الاستيعاب لابن عبد البر (٣/ ١٤١٦).

وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال: ﴿فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨].

أمَّا الدنيا فقال اللَّه: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلَادِ﴾ [الحديد: ٢٠]، وقال: ﴿وَمَا هَذِهِ الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، وقال: ﴿وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [الأنعام: ٣٢]، فالدنيا قصيرةٌ؛ فلا تنظر إلى متاعها، وزهرتها؛ وإنَّما اجعل قلبك معلَّقاً بجنَّات النعيم.

فالشاهد: أنَّ مَن أراد بعمله الدنيا؛ يُحبط عمله، لأنَّه مِن الشرك.

ثمَّ بعد ذلك قال: (فِي الصَّحِيحِ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ) (**تَعِسَ**) شَقِيَ، أو هَلك، أو سَقط على وجهه، وهذا دعاء النبي صلى الله عليه وسلم، فمَن عبَد الدرهم والمادة؛ دعا النبي صلى الله عليه وسلم عليه بأنْ يَتعس ويَهلك.

(**الدِّينَارِ**) مثقال من ذهب، (**الدِّرْهَمِ**) الفضة؛ يعني: تَعس مَن يَجري خلف الدنيا؛ لتحصيل الذهب والفضة فيها، والمراد: من سعى لتحصيل المال بعمله الصالح فهو خاسرٌ.

فالذي يَجري خَلف ملذَّات الدنيا من الذهب والفضة؛ بمعنى: الذي لا يُحب إلا فيها، ولا يُبغض إلا فيها، ولا تكون إلا همَّه، ويُصبح ويُمسي عليها، فالنبي صلى الله عليه وسلم دعا على مَن كانت تلك صفاته، بالهلاك والثُّبور والتعاسة.

وقوله: (تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيصَةِ) الخميصة: الكساء، سواء كان من صوفٍ، أو كان ذو أعلام - خطوطٍ -، أو كان ثوباً.

وقوله: (تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيلَةِ) الخميلة: الثوب، أو ما يُغَطَّى به الرأس إذا كان له أهدابٌ.

والمراد: أنَّ مَن يَجري خلْف الأعراض - العَرَض يعني - فهو خاسرٌ، ومِثله أيضاً: تَعس عبد السيارة الذي يَجري خلْف السيارات، وتَعلَّق قلبه بها بالبيع والشراء ونحو ذلك، أو بالمرْكَب.

فهذه الأربعة في الحديث: الدينار، الدرهم، الخميصة، والخميلة.

وقال اللَّه عز وجل في الآية الأخرى على سبيل العموم: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ [الفرقان: ٤٣]، فاللَّه عز وجل وَصف مَن اتَّبع هواه، بأنَّه اتخذه إلهاً، فجَعل اللَّه عز وجل الهوى مألوهاً من دون اللَّه.

وقال سبحانه: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالبَنِينَ وَالقَنَاطِيرِ المُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ وَالخَيْلِ المُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالحَرْثِ﴾ [آل عمران: ١٤]، وهذه الآية كذلك على العموم.

(إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ) إن أُعطي من المال رضي عن الذي يُعطيه، (وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ) وإذا لم يُعط من هذا المال؛ سَخط على صاحبه؛ لأن همَّه فقط هو المال، والسعي والركض خلْف الدنيا، فمَن كانت تلك أفعاله؛ دُعِي عليه بالهلاك، فالنبي صلى الله عليه وسلم دعا بصيغة الخبر بأنَّ من يَجري خلْف الدنيا بأنَّه لا يُفلح؛ بل يَشقى.

ثُم قال: (تَعِسَ) قيل: هَلك وشَقي، وقيل: سَقط على وجهه، (انْتَكَسَ) أي: إذا رَفع من سقوطه هذا وارتفع؛ سَقط على رأسه من الخلْف.

وهذا دعاءٌ عليه أيضاً بأن لا يكون موفَّقاً في حياته؛ لأنه نوى بعمله الصالح الدنيا - والعياذ باللَّه -.

(وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ) يعني: إذا دَخلت في قدمه شوكةٌ، وطَلب من يزيلها عنه بالمِنقاش؛ لم يجد أحداً؛ أي: يدعو عليه النبي صلى الله عليه وسلم بأنَّه لا يجد أحداً يُخرجها من قدمه.

وهذا جزاء عمله للدنيا لم ينفعه أهل الدنيا حتى ولو بإزالة شوكةٍ في قدمه، وهو محتاجٌ لهم - أي: لأهل الدنيا -.

فدلَّ على أنَّه يجب أن يَتعلق القلب باللَّه سبحانه وتعالى، وأن لا يُراد بالعمل الصالح شيءٌ من الدنيا.

وهذا دعاء النبي صلى الله عليه وسلم بأن يُجعل أمره كلُّه متعسِّراً عليه، حتى الشوكة لا يجد مَن يُخرجها من جسده، أو لا يستطيع هو إخراجها من جسده.

فالشاهد أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم وَصف مَن أراد بعمله الدنيا - من المال والشهوات -، دون ابتغاء وجه اللَّه، بأنَّه عبدٌ لها من دون اللَّه - والعياذ باللَّه -.

ولمَّا ذكر النبي صلى الله عليه وسلم حال عُبَّاد الدنيا؛ ذَكر بعد ذلك من يريد وجه اللَّه فذكر صلى الله عليه وسلم صنفاً آخر مِن أهل الآخرة. فقال:

(طُوبَى) قيل: هو اسم شجرةٍ يسير فيها الراكب مئة عامٍ لا يَقطعها في الجَنَّة، وقيل طوبى: اسمٌ من أسماء الجَنَّة، فكأنه يقول: الجَنَّة لعبدٍ، أو هنيئاً لعبدٍ.

(طُوبَى لِعَبْدٍ) يعمل للَّه، وأوصافه:

الصفة الأُولى: (آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ) عنان الفرس: يعني: خطام الفرس، يأخذ به، (فِي سَبِيلِ اللَّه) يعني: مجاهدٌ.

والصفة الثانية: (أَشْعَثَ رَأْسُهُ) أي: رأسه ليس متنعماً؛ وإنَّما فيه الغبار في سبيل اللَّه؛ أي: لم يَتعلق بالدنيا، ولم تلهِهِ.

والصفة الثالثة: (مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ)؛ لسيره في الجهاد في سبيل اللَّه، فاغبرَّت قدماه مِن أثر التراب الذي يسير فيه، ابتغاءً لوجه اللَّه، ولم يَلتفت إلى زينة الحياة، ومع هذه الأعمال العظيمة قلبه خاضعٌ للَّه لا ينظر للدنيا.

الصفة الرابعة: (إِنْ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ) أي: إذا كُلِّف بحراسة الجيش يقوم بها؛ أي: لا يتطلع أن يكون قائداً للجيش، فالدنيا لا ينظر إليها؛ بمعنى: أنه متواضعٌ ومطيعٌ فيما يأمر به قائد المسلمين؛ مِن أجْل طاعة اللَّه، إذا جُعل في الحراسة لا يَتكبر، ويَتواضع.

والصفة الخامسة: (وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ) أي: إذا كان في آخر الجيش جَلس في آخر الجيش، وليس من قادة الجيش.

فإن كان في مكانٍ خطيرٍ في خلْف الجيش، يكون في السَّاقة؛ لأنَّه من الخلف قد يُداهمهم العدو، فلا أحد يقاتل دونهم، ويدافع عنهم، فإن قيل

له: اجلس في ذلك المكان المخوف، يَمتثل ويَجلس؛ لذلك أثنى النبي صلى الله عليه وسلم عليه بتلك الصفات.

الصفة السادسة: (إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤذَنْ لَهْ) أي: إذا استأذن عند الأمراء والوجهاء والكبراء وأهل المال؛ لم يؤذن له، بالدخول عليهم، والجلوس معهم؛ لأنهم لا يعرفونه، لأنه عبدٌ تقيٌّ خفيٌّ، لا يُظهِر نفسه.

وهذا فيه شاهدٌ بمفهوم الحديث بأنَّه لا يريد بعمله الدنيا.

الصفة السابعة: وإذا طَلب نفعاً للآخرين؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم: (وَإِنْ شَفَعَ) للآخرين (لَمْ يُشَفَّعْ) أي: لم تُقبل شفاعته؛ لعدم معرفتهم به، لأنه ليس من أهل الدنيا ولا يَتطلَّع لها، وما يَعلمون أنَّه من أولياء اللَّه.

ولأنه ابتغى وجه اللَّه، بجهاده في سبيل اللَّه؛ رَفع اللَّه درجته وأدخله الجَنَّة، فقال: (**طُوبَى لِعَبْدٍ**)؛ لأَنَّه أراد بعمله الآخرة.

أمَّا الصنف الأَوَّل أراد بعمله الدنيا، وأَشرك مع اللَّه، وحَبط عمله، وتُوعِّد – والعياذ باللَّه – بالنار.

فليحرص المسْلِم بأن يكون قريباً من اللَّه عز وجل، لا يَطلب الدنيا بعمله، لا لشهرةٍ، ولا مالٍ، ولا مادَّةٍ؛ فكلها تَفنى؛ قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ

عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلَالِ وَالإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧]، ولا يَبقى إلا ما ابتُغِي به وجه اللَّه.

واحْذر زيغ القلب من أجل الدنيا، ومِن أجل الناس.

فدلَّ على أنَّ الإنسان يجب عليه أن يَعمل العمل الصالح خالصاً لوجه اللَّه، لا يريد بذلك شيئاً؛ كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً﴾ [الإنسان: ٩]، ﴿جَزَاءً﴾ بالمال، ﴿وَلَا شُكُوراً﴾ باللسان، وهذه هي حقيقة المخلِص لا يريد شيئاً من الدنيا.

***

[٣٨]

بَابُ

مَنْ أَطَاعَ العُلَمَاءَ وَالأُمَرَاءَ فِي تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ، وَتَحْلِيلِ مَا حَرَّمَهُ؛ فَقَدِ اتَّخَذَهُمْ أَرْبَاباً

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «يُوشِكُ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، أَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم.

وَتَقُولُونَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ!».

وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: «عَجِبْتُ لِقَوْمٍ عَرَفُوا الإِسْنَادَ وَصِحَّتَهُ يَذْهَبُونَ إِلَى رَأْيِ سُفْيَانَ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ الآيَةَ، أَتَدْرِي مَا الفِتْنَةُ؟

الفِتْنَةُ: الشِّرْكُ؛ لَعَلَّهُ إِذَا رَدَّ بَعْضَ قَوْلِهِ أَنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ شَيءٌ مِنَ الزَّيْغِ؛ فَيَهْلِكَ».

عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رضي الله عنه: «أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَقْرَأُ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الآيَةَ.

فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ.

قَالَ: أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَتُحِلُّونَهُ؟

فَقُلْتُ: بَلَى، قَالَ: فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ» رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ.

الشرح:

قال رحمه الله: (بَابُ مَنْ أَطَاعَ العُلَمَاءَ وَالأُمَرَاءَ فِي تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ، وَتَحْلِيلِ مَا حَرَّمَهُ؛ فَقَدِ اتَّخَذَهُمْ أَرْبَاباً).

المراد بالطاعة هنا: الطاعة في التشريع لا في اتباع الهوى؛ أي: إذا أطاع الإنسان عالِماً في تشريعٍ اتخذه مِن تلقاء نفْسه، واتَّبع ذلك العالِم وهو عارفٌ أن هذا ليس شرع اللَّه؛ فهذا والعياذ باللَّه شركٌ، ويسمى «شرك الطاعة»؛ ولهذا بوَّب المصنِّف هذا الباب.

مثل: لو اجتمع أهْل الحلِّ والعَقد وأباحوا شرْب الخمر، أو أباحوا المتعة، فمَن يَفعل ذلك اتِّباعاً لهم وهو عارفٌ بخطئهم؛ فهذا شركٌ.

وطاعة العلماء والأمراء تنقسم إلى ثلاثة أقسامٍ:

القسم الأول: إمَّا أنْ يعتقد أنَّه مُصِيبٌ فيما يتَّبِعُه فيه؛ فيُطيعه على وجه التَّديُّن، فهذا رِدَّة.

فالذي يتَّبع الرِّجال ويُقَلِّد العلماء هو عابدٌ لهم شاء أم أبى، لكن إنْ زعم أنَّ ذلك سائغٌ له فهذا من الشِّرك الأكبر النَّاقل عن المِلَّة؛ لإثبات مُحَلِّل ومُحَرِّم ومُشَرِّع مع ربِّ العالمين، فينقل عن المِلَّة.

القسم الثَّاني: أنْ يعلم أنَّه مُخالِف للشَّرع، وإنَّما غَلَبته نفسُه فآثرها؛ فهذا عظيم، وهو شِرْك أصغر.

فمن اتَّبع المُقَلَّد في تحليل الحرام - وعكسه - وهو عالم أنَّه حرام، لكن اعترف على نفسه أنَّه عاصٍ ومُخطِئٌ وليس له ذلك، ولكن الشَّهوة حَمَلَتْه، فهذا معصية عظمى، وله حكم أمثاله من العُصَاة، وله نصيبٌ من الشِّرك الأصغر في الطَّاعة.

القسم الثَّالث: أنْ يَتَّبع المُحلِّل وهو جاهل، لا يدري ما الحلال والحرام؛ فهذا على قسمين:

- مَنْ لا يُمكِنه أن يبحث ويستفتي أو يسأل أهل العلم، لأجل جهله؛ فهذا معذور.

- أمَّا الذي يُمكِنه ذلك ويُفرِّط؛ فهذا مَلُومٌ، ولا عنده اهتمامٌ من دِينه، فهذا له نصيب من هذا الذَّمِّ الذي في قوله تعالى: (﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ**

وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾)، فإن اللَّه قد أوجب على مَن لم يعلم أن يسأل، ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

والمصنِّف رحمه الله ذَكر في هذا الباب القِسمين الأَوَّلين، وهو: التشريع فيما يُشرِّعه العلماء والأمراء، وطاعتك لهم، إمَّا اعتقاداً بأنَّ ما شَرعوه هو الحقُّ، وهذا - والعياذ باللَّه - شِركٌ أكبر.

وإمَّا أنَّك تَعلم أنَّ ما شَرعوه ليس بحقٍّ، وإنَّما تَتبعهم من باب اتَّباع الهوى؛ فهذا من باب المعصية.

والشخص إنْ كان طالب عِلمٍ أو عاميّاً، لا قدرة له على استنباط النصوص، فقلَّد أحدَ علماء البلد، عِلماً وورعاً؛ فهذا لا يَدخل في هذا الباب، وإنما يتابعهم في ذلك الأمر؛ في ظنه لعلهم هم المستمسِكون بالكِتاب والسُّنَّة، وأنَّه يُثاب على طاعتهم، وهم يقودونه إلى الجَنَّة؛ فهذا لا بأس فيه.

وإذا عُرِف عن أحد أهْل العِلم بأنَّه مِن أئمَّة الكُفر ونحو ذلك، كأنْ يدعو الناس إلى عبادة القبور، ودعاء غير اللَّه؛ يجب على العاميِّ أنْ يَحذره، ويَبتعد عنه.

ويجب على المسلِم إذا أَشكل عليه شيءٌ؛ أنْ يسأل العلماء الربانيِّين، المعروفين بالعِلم، والورَع، وخوفهم من اللَّه عز وجل، ونُصْحهم للأمَّة، وشفقتِهم عليهم؛ كما قال عز وجل: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

لذلك قال المصنِّف: (بَابُ مَنْ أَطَاعَ العُلَمَاءَ وَالأُمَرَاءَ) وكذا ما في حُكمهم من مجالس التشريع ونحو ذلك، أطاعهم (فِي تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ) مثل: لو حرَّموا إعفاء اللحية؛ إذا أطاعهم معتقِداً أنهم مشرِّعون وأنَّ فعْلهم صوابٌ؛ فهذا شركٌ، وإذا أطاعهم اتِّباعاً لهواه؛ فهذا معصيةٌ.

(وَتَحْلِيلِ مَا حَرَّمَهُ) مثل: لو أَحلُّوا شرْب الخمر، أو زواج المِثلَيْن مثلاً ونحو ذلك، الحُكم: (فَقَدِ اتَّخَذُهُمْ) أي: أنَّ هذا شركٌ - والعياذ باللَّه -.

مثل: إن قال عالمٌ: الخمر حلالٌ، فاتَّبعتَه على ذلك؛ فقد اتخذته مربوباً من دون اللَّه، (أَرْبَاباً) جمع ربٍّ؛ يعني: اتخذتهم آلهةً من دون اللَّه - والعياذ باللَّه -.

لأنَّ الواجب على الشخص الانقياد للكِتاب والسُّنَّة؛ قال سبحانه: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾، وقال سبحانه: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ

تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤]، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]؛ يَدخل فيها العلماء والأمراء، كمَا ذَكر ذلك أهْل التفسير، والبعض[١] قال: هم العلماء؛ لأنَّ الأمراء يُنفِّذون شرْع اللَّه، والعالم يقول: هذا يجوز، وهذا لا يجوز، والوالي يأمر الناس بما أمَر به العالم، وغيرها من الآيات.

والمصنِّف رحمه الله ذكر ثلاثة نصوصٍ:

النَّصُّ الأَوَّل – (**يُوشِكُ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ**)؛ لبيان التغليظ على مَن قدَّم قول أحدٍ على قول النبيِّ صلى الله عليه وسلم.

والنَّصُّ الثاني – (**وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: «عَجِبْتُ لِقَوْمٍ عَرَفُوا الإِسْنَادَ**) –؛ لبيان عقوبة مَن فَعل ذلك في الدنيا؛ وهو طمْس القلب – والعياذ باللَّه –.

والنَّصُّ الثالث – «**فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ**» –؛ لبيان أنَّ ذلك شركٌ.

---

(١) كابن عباسٍ وجابر رضي الله عنهما وغيرهما، نسبه لهم البغويُّ رحمه الله. تفسير البغوي (١/ ٦٥٠).

لذا قال في النَّصِّ الأَوَّل: (وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: يُوشِكُ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ) أي: عقوبةً لكم؛ لأنه كان يَرى وجوب التمتع مع الحجِّ، وكان أبو بكرٍ وعمر يريان أنَّ الإفراد أفضل، فكان ابن عباس يُحَاجُّ مَن يخالفه بما فَعله النبي صلى الله عليه وسلم مِن العمرة مع الحج، فكانوا يقولون: إنَّ أبا بكرٍ وعمر يريان الإفراد أفضل، فقال: (يُوشِكُ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، أَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، وَتَقُولُونَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ!).

فإذا كان الأخذ بقول أبي بكرٍ وعمر رضي الله عنهما وتقديمه على قول النبي صلى الله عليه وسلم موجبٌ للعقوبة؛ فتقديم قول غيرهما أحقُّ بالعقوبة؛ لأن الواجب هو اتباع النبي صلى الله عليه وسلم؛ قال سبحانه: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُم تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢]، فمن أسباب الرحمة: طاعة النبي صلى الله عليه وسلم، ومفهوم الآية: مِن أسباب عدم الرحمة عدمُ طاعة النبي صلى الله عليه وسلم.

وإذا كان العالِم أَشكل عليه شيءٌ من الأمور، فيَكِل عِلم ذلك إلى اللَّه سبحانه، وإن اجتهد على استنباط النصوص؛ فإنه مأجورٌ، إمَّا أجرٌ،

وإمَّا أجْرَان، إِذَا اجْتَهَدَ وَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَان، وإن اجتهد فأخطأ فله أجرٌ واحد[١]، مع وجوب تحرِّيه الدليل.

وإذا ظَهر للعالم النَّصُّ؛ فيجب عليه الانقياد له؛ قال شيخ الإسلام: «ولا يوجد عالِمٌ يتعمَّد مخالفة النَّصِّ»[٢]، فجميع العلماء الربانيُّون يَستنبطون ويَجتهدون، فمِنهم مَن يُوَفَّق للحقِّ، ومنهم من لا يُوفَّق للحقِّ؛ كما قال الإمام مالك: «كلٌّ يؤخذ مِن قوله ويُرَدُّ إلا صاحب هذا القبر عليه الصلاة السلام»[٣].

فإذا استبان النَّصُّ لطالب العِلم، حتى ولو قال الفقهاء قولاً، فإن ظَهر الدليل لطالب العِلم مع خفائه على الفقهاء؛ فيجب عليه أنْ يتَّبع

(١) كما في الحديث «إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ، فَاجْتَهَدَ، فَأَصَابَ، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ، فَاجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ، فَلَهُ أَجْرٌ». رواه أحمد في المسند، رقم (١٧٧٧٤)، من حديث عمرو بن العاصي رضي الله عنه.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٠/ ٢٣٢).

(٣) عزاه له السخاوي رحمه الله. المقاصد الحسنة للسخاوي (١/ ٥١٣).

الدليل، ويَترك قول أهل العِلم؛ قال الحَكَميُّ[(١)]: «وقدم النَّصَّ والآراء فاتَّهم»[(٢)].

ثُم قال: (وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: «عَجِبْتُ لِقَوْمٍ عَرَفُوا الإِسْنَادَ وَصِحَّتَهُ يَذْهَبُونَ إِلَى رَأْيِ سُفْيَانَ) سفيان هو: سفيان الثوري، إمامٌ جليلٌ، قرينٌ للإمام أحمد، مِن كبار أهل العِلم؛ بل كان له مذهبٌ وأتباعٌ في عصْره رحمه الله، واندَثر.

ومع ذلك يَستنكر الإمام أحمد مَن يتَّبع ذلك الإمام العظيم مع ترْكه الكِتاب والسُّنَّة؛ بل جميع أقوال الأئمَّة الأربعة متفقةٌ على أنَّكم إذا وجدتُم النَّصَّ، فاتَّبعوه واتركوا أقوالنا؛ بل لا يوجد أحدٌ من الأئمَّة يقول: اتبع أقوالي واترك الكِتاب والسُّنَّة؛ بل إنَّهم يَتَّبعون النصوص.

فالإمام مالكٌ رحمه الله أَلَّف الموطَّأ؛ لاتِّباع السُّنَّة.

وكذلك الإمام الشافعي أَلَّف كِتابه الأمَّ؛ لاتِّباعه السُّنَّة.

والإمام أحمد أَلّف كِتاب السُّنن؛ لاتِّباع السُّنَّة.

---

(١) هو: حافظ بن أحمد بن علي الحكمي، الحنبلي، وُلد سنة (١٣٤٢هـ)، وتوفي سنة (١٣٧٧هـ). الأعلام للزركلي (٢/ ١٥٩).

(٢) المنظومة الميميَّة في الوصايا والآداب العلمية للحَكمي (ص٢٤).

فجميعهم رحمهم اللَّه يَتَّبعون السُّنَّة.

وكذلك وَهب اللَّه الإمام أبي حنيفة الفقه؛ لذلك قال الشافعي: «الناس عيالٌ في الفقه على أبي حنيفة»(١)، فاللَّه عز وجل رَزقه حُسن الاستنباط، وقوة الاجتهاد، رحمهم اللَّه جميعاً.

فكلُّنا نُجلُّهم ونحترمهم ونعظِّمهم رحمهم اللَّه، فهم أوتوا العِلم والعبادة، والنُّصح للأمَّة، وكلٌّ منهم يَتَّبع النَّصَّ، لكن قد يوفَّق الشخص للحقِّ باجتهاده، وله أجْران، وقد يكون له أجْر الاجتهاد فقط.

ولهذا يجب علينا احترام جميع العلماء، وتبجيلهم، وتعظيمهم، والترحُّم عليهم، ونَأخذ بأقوالهم الموافِقة للكِتاب والسُّنَّة، وإذا خالفوا شيئاً من ذلك؛ فيكون موقفنا موقف الأبناء مع آبائهم باحترامهم وتقديرهم، فإذا وافق الدليلَ غيرُهم؛ يكون ردُّ الأقوال والاستنباطات باحترامٍ وتقديرٍ.

ومِن أمْر اللَّه لأمَّته: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٩]؛ يعني: لتعظِّموا النبي صلى الله عليه وسلم، وكذا يجب علينا

---

(١) تهذيب التهذيب لابن حجر (١٠/ ٤٥٠).

توقير ورثته، وهم العلماء، واحترامهم، فلا نَرفع الصوت عندهم، ولا يُنبَذ القول، ولا يُذهَب بأقوالٍ نابيةٍ عليهم ونحو ذلك؛ بل هم أئمةٌ أجِلَّاء عُظَماء.

وإذا رأيتَ الذهبي وهو يُترجم للأئمَّة الأربعة جميعاً تجده معظِّماً لهم، وغيره من العلماء كذلك، فمثلاً: ابن حجرٍ[١] وهو شافعيٌّ، لمَّا تَرجم للإمام مالك في تقريب التهذيب[٢]؛ قال: «رأس المتقنين وكبير المتثبِّتين».

ولمَّا تُرجِم للإمام أبي حنيفة؛ قالوا: «فقيه عصره لا شك»[٣].

وهكذا قالوا في الإمام أحمد: «إمام أهل السُّنَّة»[٤].

---

(١) هو: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن حجر الكناني، العسقلاني، الشافعي. وُلد سنة (٧٧٣هـ)، وتوفي سنة (٨٥٢هـ). نظم العقيان في أعيان الأعيان للسيوطي (١/ ٤٥).

(٢) (١/ ٥١٦).

(٣) قال عبد اللَّه بن المبارك رحمه الله: «وأما أفقه الناس: فأبو حنيفة»، ثم قال: «ما رأيت في الفقه مثله» تاريخ بغداد (١٥/ ٤٦٩).

(٤) نقل أبي يعلى عن الربعي، قَالَ: «قَالَ لي أَحْمَد بن حنبل إمام أهل السُّنَّة

وكذلك لمَّا ذَكروا في ترجمة الشافعي: «أنه مِن أذكى أهل العِلم»[(١)]، فقد وَهبه اللَّه ذكاءً وحفظاً، وأعطاه من المواهب ما لم يُعطِ غيره.

فجميعنا نَحترم العلماء من الأئمَّة الأربعة وغيرهم.

ولو اشتغلنا جميعاً بعلوم الدنيا، من علوم الزراعة ونحو ذلك؛ لمَا وصلنا للعِلم، فلم يصل العِلم إلَّا مِن طريق هؤلاء، والنبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ العُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَاراً وَلَا دِرْهَماً، وَإِنَّمَا وَرِثُوا العِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ، أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ»[(٢)]، فهم الذين حَملوا لنا العِلم، فيجب علينا أنْ نحترمهم، ونعظِّمهم، ونقدِّرهم.

فمثلاً: لو أنَّ رجُلاً كان زميلاً لوالدك، وكلُّ يومٍ يعطيك أخبار والدك الميت، فيقول: كان في حياته يَفعل كذا، ويَفعل كذا، ويَذهب بنا، ويَذكر محامده، ومحاسنه؛ فلا شك أنَّك تحبه وتعظِّمه، فما ظنُّك بالذي

والصابر تحت المحنة». طبقات الحنابلة لأبي يعلى (١/ ١٣٠).

(١) قال يحيى بن أكثم: «ما رأيت أحدًا أعقل من الشافعي» تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٦١).

(٢) رواه أحمد في المسند، رقم (٢١٧١٥)، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

يَحمل الدين؛ ليقودك إلى طريق الجَنَّة، لذا واجبٌ علينا تقديرهم وتعظيمهم واحترامهم، وعدم القدْح فيهم؛ بل هم أجلَّة هذه الأمَّة بعد صحابتها رضي اللَّه عنهم جميعاً.

فنحبُّ الأنبياء؛ لأنَّهم بَلَّغوا رسالة اللَّه، ونحبُّ الصحابة؛ لأنَّهم نَقلوا لنا هذا العِلم، ونُحبُّ أهل العلم؛ لأنَّهم نَقلوا العلم، وأَوصلوه لنا، وهكذا تابعاً عن تابعٍ مِن أهْل العِلم.

(وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾) أيْ: بالإعراض.

(﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾) الفتنة فسَّرها الإمام أحمد هنا بالشرك، فكيف يكون بالشرك؟ فقد يكون يَسخر بالنص، أو يَردَّ النَّصَّ، مثل أنْ يقول: ما هذا الحديث؟ أو ما هذه الآية؟؛ مِن أجْل أنْ يُقدِّم قول البشر.

فهنا الفتنة الشرك؛ يعني: أنْ يَزِلَّ لسانه بأمورٍ من الشرك أو الكُفر.

(﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾) في الآخرة.

(أَتَدْرِي مَا الفِتْنَةُ؟ الفِتْنَةُ: الشِّرْكُ) والمراد: شرك الطاعة، فمَن تَرك قول اللَّه عز وجل، وقول نبيه صلى الله عليه وسلم إلى قول غيره مقدِّماً له على قولهما؛ فقد وقع في الشرك؛ لذلك قال: (الفِتْنَةُ: الشِّرْكُ؛ لَعَلَّهُ إِذَا رَدَّ

بَعْضَ قَوْلِهِ) بأنَّ ما جاء به خيرٌ من النصوص - والعياذ باللَّه -، وأنَّه أهدى سبيلاً، **(أَنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ شَيءٌ مِنَ الزَّيْغِ؛ فَيَهْلِكَ»)** فيَهلك؛ بسبب اعتقاده ذلك الاعتقاد الكُفري.

فيجب على الشخص اتباع النَّصِّ أينما كان؛ لأنَّه هو النور والضياء، لأن اللَّه يقول: ﴿فَلَمَّا زَاغُواْ﴾؛ أي: عن الطاعة؛ ﴿أَزَاغَ اللَّهُ قُلوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، فلم يَهدهم إلى الصراط المستقيم.

فمِن أسباب الهداية: تقديم قول اللَّه، وقول رسوله صلى الله عليه وسلم على قول كلِّ أحدٍ؛ قال سبحانه: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾ [النور: ٥٤].

ومِن أسباب الغواية - والعياذ باللَّه -: عدم تقديم قول اللَّه سبحانه وتعالى، وقول النبي صلى الله عليه وسلم في الأحكام وغيرها.

فدلَّ على أنَّ عقوبة من يَفعل ذلك؛ هو طمْس القلب، وطمْس القلب هو مِن أشد العقوبات؛ لأنه لا يُبصِر، لذلك قال اللَّه سبحانه عن المنافقين: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨].

ثُم قال: (عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رضي الله عنه) عدي بن حاتم[1] والده هو: المشهور بالكرَم.

(«أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَقْرَأُ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الآيَةَ)، الأحبار: هم العلماء، والرهبان: العُبَّاد.

(فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ) فهو ظَنَّ أنَّ قوله: (﴿أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾)؛ أي: أنَّهم يَركعون ويَسجدون لهم، وإنَّما هو كما فسَّره النبي صلى الله عليه وسلم بقوله.

(قَالَ: أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فَتُحَرِّمُونَهُ) وهذا مِن طبْع اليهود والنصارى يَتخذون شرعاً لهم نابذين كِتاب اللَّه؛ كما قال سبحانه: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١].

---

(١) هو: أبو طريف عدي بن حاتم بن عبد اللَّه بن سعد الطائيّ، قَدِم على النبي صلى اللَّه عليه وسلم في شعبان من سنة (٧هـ)، وتوفي سنة (٦٧هـ) وقيل (٦٨هـ). الاستيعاب لابن عبد البر (٣/ ١٠٥٧).

(وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَتُحِلُّونَهُ؟ فَقُلْتُ: بَلَى، قَالَ: فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ»)

فدلَّ على أنَّ طاعة غير اللَّه في التشريع؛ شركٌ - والعياذ باللَّه -؛ لأنَّه جَعله مشارِكاً للَّه في تشريعه، واللَّه يقول: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الحَاكِمِينَ﴾ [التين: ٨]، وقال سبحانه: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

ومعنى المسلِم: أنَّه مستسلِمٌ لنصوص الشرع بالإذعان والطاعة والعمل، فيجب نزْع أهواء القلب، وإذا أتى النَّصُّ يقف معه كما هو فعْل الخلفاء الراشدين رضي اللَّه عنهم.

فبيَّن النبي صلى الله عليه وسلم بأنَّ مِن أنواع العبادة طاعة العلماء في تحليل ما حَرَّم اللَّه، أو تحريم ما أَحلَّ اللَّه عز وجل، واللَّه تعالى يقول: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ١١٦-١١٧].

ويجب على العالِم أيضاً أنْ يَحترس في أقواله، مِن تحريم ما أَحلَّ اللَّه، أو تحليل ما حَرَّم اللَّه، وعدم التسرُّع في تحريم ما أَحلَّ اللَّه للناس،

والعكس كذلك، فالواجب عليه التثبُّت واليقين، وليشاور أهْل العِلم؛ قال سبحانه: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

***

[٣٩]

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ الآيَاتِ

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَفَحُكْمَ الجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعاً لِمَا جِئْتُ بِهِ» قَالَ النَّوَوِيُّ: «حَدِيثٌ صَحِيحٌ، رُوِّينَاهُ فِي كِتَابِ الحُجَّةِ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ».

وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: «كَانَ بَيْنَ رَجُلٍ مِنَ المُنَافِقِينَ وَرَجُلٍ مِنَ اليَهُودِ خُصُومَةٌ، فَقَالَ اليَهُودِيُّ: نَتَحَاكَمُ إِلَى مُحَمَّدٍ - عَرَفَ أَنَّهُ لَا يَأْخُذُ الرِّشْوَةَ -

.

وَقَالَ المُنَافِقُ: نَتَحَاكَمُ إِلَى اليَهُودِ - لِعِلْمِهِ أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ الرِّشْوَةَ -

.

فَاتَّفَقَا عَلَى أَنْ يَأْتِيَا كَاهِناً فِي جُهَيْنَةَ؛ فَيَتَحَاكَمَا إِلَيْهِ؛ فَنَزَلَتْ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ الآيَةَ».

وَقِيلَ: «نَزَلَتْ فِي رَجُلَيْنِ اخْتَصَمَا، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: نَتَرَافَعُ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، وَقَالَ الآخَرُ: إِلَى كَعْبِ بْنِ الأَشْرَفِ.

ثُمَّ تَرَافَعَا إِلَى عُمَرَ رضي الله عنه، فَذَكَرَ لَهُ أَحَدُهُمَا القِصَّةَ، فَقَالَ لِلَّذِي لَمْ يَرْضَ بِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: أَكَذَلِكَ؟! قَالَ: نَعَم، فَضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ؛ فَقَتَلَهُ».

الشرح:

قال رحمه الله تعالى: (بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ الآيَاتِ).

ذَكر المصنِّف رحمه الله هذا الباب؛ لبيان وجوب التحاكم إلى شرع اللَّه عز وجل، وكتابه، وسُنَّة نبيه صلى الله عليه وسلم؛ في كلِّ شيءٍ، ليس

فقط في أمور التقاضي والخصومات؛ بل حتى في أمور العبادات، وفي أمور الحياة، وفي كلِّ ما تُنُوزِع فيه، أو لم يُتنازع فيه.

فكلُّ أمرٍ يجب أنْ يُردَّ إلى الكِتاب والسُّنَّة؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، وقال: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ﴾ [النساء: ٥٩]، فلا إيمان باللَّه إلا بردِّ كلِّ تنازعٍ إلى القرآن والسُّنَّة؛ قال سبحانه: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]، وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧]، وقال: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، ثُم ﴿الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]، ثُم ﴿الفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧]، وقال سبحانه: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الحَاكِمِينَ﴾ [التين: ٨].

فكلُّ أمرٍ يجب أنْ يُردَّ إلى حُكمه سبحانه وتعالى، في الكِتاب، وما جاء في سنَّته صلى الله عليه وسلم.

ومَن اتَّخذ غير شرع اللَّه حَكَماً في التحاكم، اعتقاداً منه أنَّ غير هَدي النبي صلى الله عليه وسلم أَكْمل مِن هدْيه، أو أنَّ حُكم غيره أَحْسن من حُكمه؛ فقد ذَكر المصنِّف رحمه الله[1] بأنَّ ذلك مِن نواقض الإسلام.

فمَن اعتقد أنَّ تشريعات غير اللَّه أَفْضل وأَكْمل وأَرأف بالخلق؛ فهذا – والعياذ باللَّه- هو الشرك الأكبر، مِثل ما قال المصنِّف رحمه الله: «كَالذين يُفضِّلون حُكم الطواغيت على حُكمه؛ فهو كافرٌ»[2] .

واللَّه عز وجل هو الذي خَلق العباد، ولأنَّه خَلقهم؛ فهو أعْلم ببواطنهم، وبنفوسهم، وبأهوائهم، وهو أعْلم أيضاً بجِماح نفوسهم، فوَضع أحكاماً وتشريعاتٍ تليق بهم، لذلك قال: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، خلْقٌ وأمْرٌ، خلْقٌ وتدبيرٌ، ومِن الأمْر والتدبير؛ التحاكم بشرع اللَّه.

ومِن رحمة اللَّه، أنَّه قال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً﴾ [المؤمنون: ١١٥]، فاللَّه لم يَخلقنا عبثاً؛ بل جَعل لنا ما نتحاكم إليه، وما نرجع إليه من

---

(١) متون طالب العلم، المستوى الأوَّل، نواقض الإسلام (ص ٢٦).

(٢) متون طالب العلم، المستوى الأوَّل، نواقض الإسلام (ص ٢٦).

كِتابٍ وسُنَّة، وجَعل مِن رحمته أنّ ما نَتحاكم إليه؛ نورٌ، وضياءٌ، وقوةٌ، وحزمٌ، ورأفةٌ، ورحمةٌ، ولا تَجتمع هذه الأمور إلَّا في كِتاب اللَّه، وسُنَّة نبيِّه صلى الله عليه وسلم.

فمثلاً: الحدُّ في القطْع رأفةٌ بالسارق؛ لئلا يقتله المسروق منه، فإذا عَلم المسروق منه أنَّ هناك حدّاً يحدُّه عن السرقة؛ لا يتجرَّأ على قَتله، فيَكتفي بالشرع، ومِن رحمة اللَّه أيضاً بهذا السارق؛ ليكون تطهيراً لذنبه، وردْعاً له عن مراودة ذلك الذنْب، وأيضاً رحمةً لجميع المجتمع غير السارق، وغير المسروق منه؛ أنَّهم إذا رَأوا السارق قد قُطعت يده؛ حافظ كلُّ شخصٍ على مال غيره، فلم يعتدِ عليه.

فجاءت جميع هذه الأمور ملائمةً لجميع الأطراف.

أمَّا قوانين البشر، وأحكامهم، وموادُّهم ونحو ذلك، فقد قال اللَّه عز وجل عنها: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً﴾ [النساء: ٨٢]، ففيها اختلافاتٌ كثيرةٌ ومضطربةٌ ومتضادَّةٌ، فلا تَنفع الشعوب، لا في أمْنهم، ولا في تعاملاتهم.

فلا يَنفع الخلائق إلا ما شَرعه اللَّه؛ فهو الذي خلَق العباد، وهو أعلم بما يُريدون، وهو أعْلم بمقاصدهم، وهو أعْلم بأهوائهم ونفوسهم، وهو أعْلم بما يَجلب لهم السعادة.

فمثلاً: إنْ صنع شخصٌ طائرةً، فأَعْلمُ الناس بهذه الطائرة لا شكَّ؛ الذي صنعها، فيَرجع إليه مَن أراد قيادتها، وصيانتها ونحو ذلك.

واللَّه عز وجل هو الذي خلَق الخَلْق، وهو أعْلم بهم وأرْأف بهم، وأمْلك لهم سبحانه، وأحْفظ لممتلكاتهم، ﴿فَاللَّه خَيْرٌ حَافِظًا﴾ [يوسف: ٦٤]؛ فيجب التحاكم إليه في كلِّ أمرٍ، صغيرٍ وكبيرٍ، حتى في بيتك لو تنازع أولادك، تَحكم بينهم بالعدل، وفي أقوالك تَعدل بينهم، وكذلك مَن كان عنده أكثر من زوجةٍ، يَعدل بينهنَّ في النفقة والكسوة والمبيت والقَسْم ونحو ذلك.

فليس التحاكم خاصّاً بالمرافعات القضائية؛ بل في كلِّ أمرٍ يُتَحاكم فيه إلى شرع اللَّه؛ فهو العدْل، وهو الكامل.

ومِن دَيْدَن أهل النفاق: الإعراض عن التحاكم إلى شرْع اللَّه، وذكر المصنِّف رحمه الله آياتٍ تُحذِّر المسلِم مِن أنْ يَسلك سبيلهم؛ لئلا يَغوي كما غووا.

فيَذكر في هذا الباب رحمه الله حُكم التحاكم إلى غير الكِتاب والسُّنَّة.

والفرْق بين هذا الباب والباب السابق:

أنَّ الباب الأَوَّل هو في شرك الطاعة بتحريم ما أَحلَّ اللَّه أو تحليل ما حَرَّم اللَّه.

أمَّا هذا الباب فهو في التحاكم؛ أي: في القضاء.

وساق المصنِّف رحمه الله في هذا الباب ستة نصوصٍ:

النَّصُّ الأَوَّل؛ لبيان أنَّ التحاكم إلى غير اللَّه؛ مِن التحاكم إلى الطاغوت، لقوله: (﴿**يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ**﴾).

والنَّصُّ الثاني - (﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ**﴾) -؛ لبيان أنَّ مِن أعمال المنافقين التحاكم إلى غير شرع اللَّه.

والنَّصُّ الثالث - (﴿**وَلَا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا**﴾) -؛ لبيان أنَّ الحُكم بغير شرع اللَّه؛ فسادٌ للأرض.

والنَّصُّ الرابع - (﴿**أَفَحُكْمَ الجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ**﴾) -؛ لبيان أنَّ الحُكم بغير ما أَنزل اللَّه؛ من أعمال الجاهلية.

والنَّصُّ الخامس - «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ**» -؛ لبيان أنَّ الإيمان لا يكون إلا بمخالفة الهوى، وذلك باتِّباع حُكم اللَّه ولو خالف الهوى.

والنَّصُّ السادس - (**وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: «كَانَ بَيْنَ رَجُلٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ**) -؛ لبيان حُكم مَن أراد ترْك التحاكم إلى شرع اللَّه، وتحاكم إلى غير شرع اللَّه؛ وهو القتل.

ولأهمية هذا الباب ساق المصنِّف رحمه الله عدة نصوص فيه؛ لذا قال في الآية الأُولى التي بوَّب عليها: (﴿أَلَمْ تَرَ﴾) يا محمد، الاستفهام هنا: استفهام توبيخ وإنكار، (﴿إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾) كذباً، (﴿أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾) زعْماً بأنهم آمنوا، وليس هناك إيمانٌ، (﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾) مِن الكُتب، لكنَّهم (﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾) وهو الرجوع إلى غير شرع اللَّه في أحكام العباد، فيَزعمون أنَّهم مؤمنون؛ وإيمانهم غير صحيحٍ، فهم يريدون أنْ يَتحاكموا إلى الطاغوت، وإلى غير ما أنزل اللَّه.

والطاغوت: كلُّ ما تجاوز به العبد حدَّه من معبودٍ أو متبوعٍ أو مطاعٍ، فمَن وضع شرائع فمعناه أنَّه تَجاوز، وتحاكم إلى الطاغوت.

(﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾) أي: بالطاغوت، وعدم الإيمان بغير اللَّه؛ كما قال عز وجل: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالعُرْوَةِ الوُثْقَى﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وهذا هو الشاهد من الآية.

فدلَّ على أنَّ الإيمان بالطاغوت، والتحاكم إليه؛ مُخرِجٌ – والعياذ باللَّه – من الملة، إذا اعتقدتَ أنَّ ذلك التشريع أحْسن وأكْمل من حُكم اللَّه وشرْعه.

(﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالاً بَعِيداً﴾) بالتحاكم إلى غير شرْع اللَّه.

فدل على أنَّ مِن الإيمان باللَّه؛ الكُفر بالطاغوت، ومِن الكُفر بالطاغوت؛ عدم التحاكم إلَّا إلى شرْع اللَّه سبحانه وتعالى.

ودلَّ على أنَّ التحاكم إلى غير شرْع اللَّه، هو الضلال البعيد والمُبين، وهو الظُّلم؛ قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ [الأنعام: ٢١]، فالذي يُشرِّع غير شرْع اللَّه؛ هو مِن أكبر الظالمين – والعياذ باللَّه –، لأنه يريد أنْ يتَّصف بشيءٍ من مقتضيات الربوبية، وهو التدبير في خلْق اللَّه.

ثُم قال: (وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ﴾) أيْ: ارجعوا إلى كِتاب اللَّه، واحتكموا به، ولا ترجعوا إلى أهوائكم، والإضرار بخلْق اللَّه.

(﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾) أيْ: ما وَضعناه وشرَّعناه؛ إنما هو مِن سبيل الإصلاح، وعدم الإفساد.

قال اللَّه رادّاً عليهم: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٦]، ففسادهم مِن أجْل اعتقادهم أنَّ شرْع اللَّه لا يُوَاكِب المجتمع.

فمِن أعمال المنافقين: عدم إرادة العدل، وعدم إرادة الطمأنينة للمجتمع؛ قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً﴾ [النساء: ٢٧]، فمِن أعمال المنافقين؛ - لئلَّا يَهدأ سبيل المسلمين - عدم التحاكم إلى شرْع اللَّه؛ لأنَّ شرْع اللَّه فيه الطمأنينة، والراحة، والاستقرار، والأمن، والرخاء، وفيه أيضاً الرضا بالأحكام إذا حَكم به القاضي.

وكذا مَن قال: إنَّ شرْع اللَّه – والعياذ باللَّه - لا يواكب الحضارة، وليس لهذا الزمن، ولم يَعلموا أنَّ الرب واحدٌ، والخلْق واحدٌ، والكِتاب

واحدٌ، والسُّنَّة واحدةٌ، ولم يَختلف شيءٌ؛ بل حتى الليل والنهار لم يَختلفا، وإنَّما جيلٌ يَفنى، وجيلٌ يَأتي، فلم يَختلف شيءٌ، فالحُكم حُكم اللَّه، والخلْق خلْق اللَّه، والملائكة الملائكة، والكِتاب هو الكِتاب، والسُّنَّة هي السُّنَّة، واللَّه يقول: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢].

فدلَّت هذه الآية على أنَّ مَن زَعم أنَّ وضْع القوانين فيها صلاحٌ للبشر؛ ردَّ اللَّه عليهم، بأنَّ هذا فسادٌ للبشر، وعدم صلاحٍ لهم؛ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١]، فصلاح الأعمال بتقوى اللَّه.

وأعظم التقوى: هو الاعتقاد الجازم بأنَّ اللَّه هو مالك المُلك، وهو المُشرِّع سبحانه؛ قال عز وجل: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٠]، و ﴿شَيْءٍ﴾: نكرةٌ في سياق النفي، فأيُّ شيءٍ حتى لو كان دقيقاً، صغيراً؛ فحُكمه إلى اللَّه، ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي﴾: ربوبيَّةٌ، فالتحاكم إلى اللَّه ربوبيَّةٌ، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾، كلُّها ربوبيَّةٌ للَّه سبحانه.

ثُم بعد ذلك قال: **(وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾)**.

فمِن الفساد في الأرض – وأعظمه: الشرك –، ومنه تشريكُ الخلْق مع اللَّه سبحانه وتعالى في التحاكم؛ لقوله سبحانه: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الحَاكِمِينَ﴾ [التين: ٨]، وقال تعالى: ﴿إِنِ الحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]، فتَفسد الأرض إذا جُعل حُكمٌ بجوار حُكم اللَّه.

فكانت الأرض صالحةً، لم يَدخلها شركٌ، والمراد بالفساد هنا فساد الشرك، ومن أنواع الشرك: شرك الطاعة؛ وهو التحاكم إلى غير اللَّه عز وجل.

فدلَّ على أنَّ التحاكم إلى غير شرْع اللَّه عز وجل؛ ليس صلاحاً؛ بل هو عين الإفساد والضلال والظُّلم وعدم العدل بين الناس، وأخْذ حقوق بعضهم من بعضٍ.

وهذه الآية في ذمِّ المنافقين، فمَن يُظهِر حبَّ التحاكم إلى شرْع اللَّه، لكنَّه يريد التحاكم إلى غير شرْع اللَّه؛ فقد اتَّصف بصفات المنافقين، مِن صفاتٍ مذمومةٍ، مِن الإفساد والفساد في الأرض.

ثُم بعد ذلك قال: (وَقَوْلُهُ: ﴿أَفَحُكْمَ الجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾) يعني: من لم يُرِدْ حُكم اللَّه؛ فقد سَلك طريق أهل الجاهلية.

وذمَّ اللَّه سبحانه وتعالى هذا الفعل بوصْف حالهم؛ وهو الجهل؛ أي: أن الحُكم بغير حكم اللَّه جهلٌ.

وإذا كان جهلاً فيَنعدم فيه العدل، فلا يَعدل إلا العالِم، فمثلاً: الحكم بيْن الخلْق في الميراث لا يكون فيه عدلٌ إلا إذا كان التشريع مِن عالِمٍ، واللَّه سبحانه وتعالى لا أعْلم منه، فمَن طَرق غير سبيل اللَّه في ذلك؛ لم يُحقَّق له مُناه، ولم يُحَصِّل سوى الجهل.

ثُم بعد ذلك قال: (عَنْ عَبْدِ اللَّه بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ).

نفيُ الإيمان أحياناً يكون لنفي الإيمان بالكلية؛ إذا كان الهوى مثلاً متَّجِهاً إلى الشرك؛ فهذا نفيٌ للإيمان.

وإذا كان الهوى في خطايا وذنوبٍ دون الشرك؛ فهو نفْيٌ للإيمان الواجب.

(حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ) الهوى: هو ميل النفس إلى ما تشتهي[1].

والميل قد يكون إلى الشرك، وقد يكون إلى ما هو دون ذلك.

---

(١) التعريفات للجرجاني (ص ٢٥٧).

وإذا مالت النفس إلى التحاكم إلى غير اللَّه؛ فقد نفى النبي صلى الله عليه وسلم الإيمان عن صاحبه.

ومفهوم هذا الحديث: أنَّ من طَلب ورضيَ ولم يكن في نفْسه حرجٌ من التحاكم إلى شرع اللَّه؛ فهو المؤمن.

ولذلك نفى اللَّه سبحانه وتعالى الإيمان عن الناس إلا بثلاثة شروطٍ:

قال سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ هذا **الشرط الأَوَّل**.

ولا يَكفي التحكيم بل شرطٌ آخر، وهو **الشرط الثاني**؛ قال: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ﴾؛ يعني: لا تَأنف النفس من الحُكم، مطمئنٌّ بأنَّ شرع اللَّه هو العادل، فلا تتوارده الشبهات، ولا الشكوك.

مثل: قطْع يد السارق، يُترَافَع إلى القاضي في حُكم قطع يد السارق، فنعتقد يقيناً بأنّ شرع اللَّه هو العدل سبحانه.

ولا يَكفي هذا؛ بل **شرطٌ ثالث**؛ قال: ﴿وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً﴾ [النساء: ٦٥]؛ أي: نُسلِّم لحُكم اللَّه، ونُنفِّذ ذلك في عباد اللَّه.

فمثلاً: رجْم الزاني لا يؤمن المرء إلا إذا اعتقد بأنَّ هذا حُكم اللَّه، ولا يجد في نفْسه حرجاً من هذا الحُكم، فلا يقل مثلاً: هذه وحشيَّةٌ؛ بل يرضى؛ بل يجب أن يسلِّم لهذا الحُكم ويَتَّهِم عقله في ردِّ هذا الحد - وهو حد الزاني المحصن -، وكذا حد السرقة مثلاً، وجلْد شارب الخمر، فالإنسان يؤمن به ويُحكِّم شرْع اللَّه في ذلك ولا يجد في نفسه حرجاً من هذا الحُكم ويُسلِّم له.

وقيل (هَوَاهُ) في الحديث؛ لأنَّه عند الترافع، أو قبْل الترافع، قد يَدخل الهوى والشيطان في عدم اليقين بشرْع اللَّه، أو عدْله، أو عدم التسليم له، أو الإذعان له، فالهوى يَدخل فيه مدخلاً كبيراً.

(تَبَعاً لِمَا جِئْتُ بِه) يعني: يَتبع ويُذعن ويُسلِّم ويُنَفِّذ ما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم.

فمعلومٌ أنَّ المسلِم لو تَحاكم إلى شرع اللَّه، لا يعني هذا أنَّه قد أتى بالإيمان؛ بل لا بد من قرائن لذلك في النفْس، بأنه هو العدْل، ثُم أمرٌ آخر وهو أنَّه لا بدَّ من التسليم والإذعان لحُكم اللَّه.

فمثلاً لو قال شخصٌ: أنا تحاكمتُ لشرْع اللَّه، وأسلِّم وأنقاد للحكم، لكن في قلبي لستُ موقناً بأنّ شرع اللَّه، وما أَتت به المحاكم الشرعية عدلٌ؛ فهذا – والعياذ باللَّه – كُفرٌ.

(قَالَ النَّوَوِيُّ: «حَدِيثٌ صَحِيحٌ، رُوِّينَاهُ) يعني: رواه لنا علماؤنا كابرٌ عن كابرٍ.

(فِي كِتَابِ الحُجَّةِ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ») كِتابٌ اسمه (الحجَّة على تارك المحجَّة)، لأبي الفتح المقدسي(١).

ثُم ذَكر المصنِّف رحمه الله سببين من أسباب نزول آيةٍ واحدة، فقال:

(وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: «كَانَ بَيْنَ رَجُلٍ مِنَ المُنَافِقِينَ وَرَجُلٍ مِنَ اليَهُودِ: خُصُومَةٌ) يَذكر رحمه الله في هذا الأثر، والذي يليه؛ أنَّ التحاكم إلى غير اللَّه بالرضا كفرٌ، لقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]؛ لذلك قال: (**وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: «كَانَ بَيْنَ رَجُلٍ مِنَ المُنَافِقِينَ وَرَجُلٍ مِنَ اليَهُودِ: خُصُومَةٌ**) أي: مسألةٌ تحتاج إلى تحاكم.

---

(١) هو: أبو الفتح نصر بن إبراهيم بن نصر بن إبراهيم بن داود المقدسي، الشافعي، وُلد سنة (٣٧٧هـ)، وتوفي سنة (٤٩٠هـ). طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٥/ ٣٥٣)، الأعلام للزركلي (٨/ ٢٠).

(فَقَالَ اليَهُودِيُّ: نَتَحَاكَمُ إِلَى مُحَمَّدٍ - عَرَفَ أَنَّهُ لَا يَأْخُذُ الرِّشْوَةَ -) وهذا يدلُّ على أنَّ اليهود يَعرفون صدْق النبي صلى الله عليه وسلم، وأمانته، وأنَّه رسولُ حقٍّ، ولكن مَنعهم الكِبر؛ كما قال عليه الصلاة والسلام في صحيح البخاريِّ(١): «لَوْ آمَنَ بِي عَشَرَةٌ مِنَ اليَهُودِ، لآمَنَ بِي اليَهُودُ».

فهذا اليهودي طَلب الترافع إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

(وَقَالَ المُنَافِقُ: نَتَحَاكَمُ إِلَى اليَهُودِ - لِعِلْمِهِ أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ الرِّشْوَةَ -) وهذا يدلُّ على أنَّ مِن أعمال المنافقين؛ كرْه الكتاب والسنة، وكرْه التحاكم إليهما؛ لأنَّ باطنهم عدم الإيمان، ولكنهم يُظهرون الإيمان خوفاً مِن المؤمنين.

قال: (فَاتَّفَقَا عَلَى أَنْ يَأْتِيَا كَاهِناً فِي جُهَيْنَةَ؛ فَيَتَحَاكَمَا إِلَيْهِ؛ فَنَزَلَتْ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾) فدلَّ على أنَّ التحاكم إلى الطاغوت - وهو غير شرع اللَّه -؛ كُفرٌ.

---

(١) كتاب مناقب الانصار، باب إتيان اليهود النبي صلى الله عليه وسلم حين قَدم المدينة، رقم (٣٩٤١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أمَّا إذا كان الإنسان لا يستطيع أنْ يَأخذ حقَّه إلا بالترافع إلى غير شرع اللَّه؛ فله ذلك.

فبيَّن اللَّه عز وجل أنَّهم لم يَكفروا بالطاغوت، ولم يُحقِّقوا الإيمان في قلوبهم.

وبيَّن المصنِّف رحمه الله في هذا الأثر حُكم الترافع إلى الطاغوت.

ثُم ذَكر في الأثر الثاني الآتي عقوبته في الدنيا؛ وهي القتل، فقال: (وَقِيلَ: «نَزَلَتْ فِي رَجُلَيْنِ اخْتَصَمَا)، ثُم اختلفا عند مَن يتحاكما، (فَقَالَ أَحَدُهُمَا: نَتَرَافَعُ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، وَقَالَ الآخَرُ: إِلَى كَعْبِ بْنِ الأَشْرَفِ) وهو يهوديٌّ، وكان من سادات قريظة، (ثُمَّ تَرَافَعَا إِلَى عُمَرَ رضي الله عنه، فَذَكَرَ لَهُ أَحَدُهُمَا القِصَّةَ، فَقَالَ لِلَّذِي لَمْ يَرْضَ بِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: أَكَذَلِكَ؟! قَالَ: نَعَمْ، فَضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ؛ فَقَتَلَهُ») (أَكَذَلِكَ؟!) يعني: أصحيحٌ ما قيل مِن عدم محبتك، وترافعك إلى شرع اللَّه؟

فدلَّ على أنَّ من استبدل حُكم غير الشرع؛ رغبةً منه؛ فهو كُفرٌ - والعياذ باللَّه -؛ أي: لو كانت هناك محْكمتان، مَحكمةٌ تَحكم بشرع اللَّه، ومَحكمةٌ تَحكم بغير شرع اللَّه، وله الخيار في ذلك: فمَن ذَهب إلى شرْع

اللَّه واستسلم له؛ فهو المؤمن، ومَن ذَهب بطَوْعه إلى غير شرع اللَّه يقيناً منه بعدم العدل في الشرع؛ فهذا كُفرٌ - والعياذ باللَّه -.

فيجب التسليم لأحكام اللَّه في الترافع وغيره.

ودلّ على أنّ التحاكم إلى غير شرع اللَّه - والعياذ باللَّه - منافٍ للإيمان، فيجب على كلِّ شخصٍ أنْ يُذعن إلى كلِّ أمرٍ في الشرع.

فمثلاً: لو أنَّ شخصاً افترى عليك، وقال أحدٌ لك: احلم عنه، واكظم الغيظ، فاللَّه أمرك بذلك؛ فتُذعِن وتُسلِّم، وتَعمل بهذه الآية.

وكذلك: لو أنَّ شخصاً أخذ شيئاً مِن مالك، وقيل لك: اعفُ عنه واصفح، فتُذعِن وتُسلِّم لِمَا أَمَر اللَّه به، وهكذا.

فلو قيل: اللَّه يقول: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠].

نقول: نعم أيضاً هذا ترافعٌ إلى شرْع اللَّه؛ فلك ذلك، لكنَّ الأفضل العفو والصفح.

وكذلك لو حَصل مِن أحد زلةً، أو هفْوةً، وقال لك شخصٌ: استر عليه؛ نقول: نعم، هذا شرْع اللَّه، ونَستر عليه؛ إذا لم يكُن معروفاً بالفسق وهكذا.

فكلُّ أمرٍ في الشرع، وكلُّ حديثٍ، وكلُّ نصٍّ؛ نتحاكم إليه، سواء مع غيرك، أو بينك وبين نفسك.

***

[٤٠]

بَابُ

مَنْ جَحَدَ شَيْئاً مِنَ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ

وَقَوْلُ اللَّهِ عز وجل: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ الآيَةَ.

فِي «صَحِيحِ البُخَارِيِّ»: عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ؟!».

وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ: عَنْ مَعْمَرٍ، عَنِ ابْنِ طَاوُوسٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً انْتَفَضَ لَمَّا سَمِعَ حَدِيثاً عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فِي الصِّفَاتِ؛ اسْتِنْكَاراً لِذَلِكَ، فَقَالَ: مَا فَرَقُ هَؤُلَاءِ؟ يَجِدُونَ رِقَّةً عِنْدَ مُحْكَمِهِ، وَيَهْلِكُونَ عِندَ مُتَشَابِهِهِ» انْتَهَى.

وَلَمَّا سَمِعَتْ قُرَيْشٌ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ؛ أَنْكَرُوا ذَلِكَ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾.

الشرح:

قال رحمه الله: (بَابُ مَنْ جَحَدَ شَيْئاً مِنَ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ) أي: باب بيان حُكم مَن جَحد شيئاً من الأسماء والصفات.

وقوله: (**جَحَدَ**) أي: أَنكر، (**شَيْئاً مِنَ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ**) أي: ولو اسماً واحداً؛ أو صفةً من صفات اللَّه سبحانه.

أمَّا حُكمه: فكما قال تعالى: (﴿**وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ**﴾)، فمَن جَحد شيئاً من أسماء اللَّه وصفاته؛ فهو - والعياذ باللَّه - كافرٌ، وبقدْر ما يكون في قلبه من الجحود والنفور؛ بقدْر ما يكون له مِن وبال الكُفر.

فالمشبِّه ملحِدٌ في آيات اللَّه.

والمعطِّل مُلحِدٌ في آيات اللَّه.

والمؤوِّل مُلحِدٌ في آيات اللَّه.

والمكيِّف مُلحِدٌ في آيات اللَّه.

والمحرِّف مُلحِدٌ في آيات اللَّه.

فلم يبقَ سوى طريق أهل السنة والجماعة، وهي: إثبات ما أثبته اللَّه لنفسه في كتابه، وما أثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم، من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ومن غير تكييفٍ ولا تمثيلٍ، فمذهب أهْل السُّنَّة والجماعة؛ في آيةٍ قصيرة مُحكَمةٍ عظيمةٍ، وهي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

واللَّه عز وجل تَوعَّد مَن لم يؤمن بأسمائه، فقال: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]؛ أيْ: لهم العذاب الشديد لِمَا نَفوا عني من أسماءٍ، وكذلك من صفاتٍ.

ومِن أعظم الإيمان باللَّه عز وجل الإيمان بصفاته؛ لأنَّ تعظيم الرب لا يُمكن إلا بقدْر ما في القلب من إيمانٍ بصفات اللَّه عز وجل وبأسمائه، فالذي لا يَعلم مِن أسماء اللَّه شيئاً، ولا من صفاته شيئاً، أو يَجهل شيئاً مِن أسماء اللَّه وصفاته؛ تجد خَوفه من اللَّه قليلاً، فلا ترى أثر صفة السمع والبصر والعِلم للَّه عز وجل له في قلبه شيئاً؛ لعدم معرفته ذلك.

والمصنِّف رحمه الله ذَكر أربعة نصوصٍ فيمن جَحد شيئاً من الأسماء والصفات:

النَّصُّ الأَوَّل؛ لبيان أنَّ ذلك كُفرٌ، (**﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾**).

النَّصُّ الثاني؛ لبيان أنَّه تكذيبٌ لله ورسوله، (**أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ؟!**).

النَّصُّ الثالث؛ لبيان أنَّ مَن جَحد شيئاً من ذلك؛ فهو هالكٌ، لقوله: (**وَيَهْلِكُونَ عِندَ مُتَشَابِهِهِ**).

النَّصُّ الرابع؛ لبيان أنَّ ذلك مِن خِصال الجاهلية، (**وَلَمَّا سَمِعَتْ قُرَيْشٌ**).

فقوله: (**بَابُ مَنْ جَحَدَ شَيْئاً مِنَ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ**) أي: حُكم من جَحد شيئاً من ذلك، وهذا فيه تفصيلٌ، فله أقسامٌ:

القِسم الأَوَّل: إذا كان ما يَصدر منه تكذيباً لأيِّ اسمٍ من أسماء اللَّه أو صفةٍ من صفاته.

فهذا كُفرٌ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

والقِسم الثاني: إذا أَوَّل شيئاً مِن أسماء اللَّه وصفاته ممَّا لا يُقبَل فيه التأويل في اللغة العربية، فلو أَوَّل السمع والبصر بغير ما يدلَّان عليهما مِن السمع والبصر.

فهذا كُفرٌ - والعياذ باللَّه -؛ لأنَّ اللغة العربية بيَّنت أنَّ السمع هو السمع المعلوم، والبصر هو البصر المعلوم.

القِسم الثالث: إذا كان تأويله لصفةٍ من صفات اللَّه ممَّا له معنىً من معان اللغة، مثل: لو أوَّل اليد بالنعمة مثلاً، أو أوَّل الهرْوَلة بصبِّ الخير صبّاً ونحو ذلك.

فهذا لا يَكفُر لا سِيَّمَا إذا كان جاهلاً بذلك؛ لأنَّ له تأويلاً في اللغة العربية، وليس معنى ذلك أنَّه يجوز له ذلك؛ بل إن ذلك محرَّمٌ ومنكَرٌ عظيمٌ، فيجب إثبات أسماء اللَّه وصفاته على وفْق ما جاء به الكِتاب والسُّنَّة.

قال: (وَقَوْلُ اللَّهِ عز وجل: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾) ساق المصنِّف رحمه الله هذه الآية، في مطلع هذا الباب؛ لبيان حُكم مَن يَجحد شيئاً مِن أسماء اللَّه.

فدلَّ على أن مَن أَنكر اسماً من أسماء اللَّه - كالرحمن - ؛ فإنَّه يَكفُر، ومَن أَنكر أكثر مِن اسمٍ، أو جميع الأسماء والصفات كالجهمية؛ فكُفره أَولى؛ بل ساق بعض أهل العِلم(١) الإجماع على كُفر من جَحد شيئاً من أسماء اللَّه أو صفاته كغلاة الجهمية.

---

(١) بيان تلبيس الجهمية (١/ ٩-١٠).

وكفَّار قريشٍ لمَّا كَتب النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» فِي صُلحِ الحُدَيبِيَةِ(١)، قَالوْا: نَعْرِفُ اللَّهَ، وَلَا نَعْرِفُ الرَّحمَنَ، وكانوا يكتبون: باسمك اللَّهم، ولا يثبتون شيئاً غير هذا من الأسماء؛ فأنزل اللَّه عز وجل هذه الآية: (﴿**وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ**﴾)، وأَنزل قوله عز وجل أيضاً الآية الأخرى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠].

وكلَّما كثُرت الأسماء على الذات؛ دلَّ ذلك على تعظيم تلك الذات، فللَّه عز وجل أسماءٌ عَلمناها، وأسماءٌ لم نَعلمها، كما في حديث عبد اللَّه بن مسعودٍ رضي الله عنه؛ قال رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم: «أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ»، رواه أحمد(٢).

وإن قيل للمخلوق: هذا أحمد، وقيل له: هذا التاجر، وقيل له: هذا العاقل، وقيل له: هذا الأمير، وقيل له: هذا الحكيم، وقيل له: هذا العزيز، لا شك أنَّ هذا تعظيماً لذاته، وليس هناك أعظم ذاتاً من ذات اللَّه سبحانه

---

(١) رواه مسلمٌ، كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية، رقم (١٧٨٤)، من حديث أنسٍ رضي الله عنه.

(٢) في المسند، رقم (٣٧١٢)، من حديث ابن مسعودٍ رضي الله عنه.

وتعالى، فله الأسماء الحسنى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّه أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠]؛ أيْ: البالغة في الحُسن والكمال والتمام.

فليحذر المسلِم من تأويل أيِّ صفةٍ من صفات اللَّه، أو تحريفها، أو تعطيلها، أو تمثيلها بصفات المخلوقين؛ وإنما يُثبِت ما أَثبته اللَّه سبحانه، وما أَثبته رسوله صلى الله عليه وسلم.

ثُم قال: (فِي «صَحِيحِ البُخَارِيِّ»: عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ) أي: لا تَسكتوا عن بيان أسماء اللَّه وصفاته عند العامَّة، ثم إذا ذُكِرَت وهم يجهلونها بسبب سكوتكم عن بيانها في التعليم؛ فقد يحصل منهم تكذيبٌ للَّه ورسوله؛ بمعنى: علِّموا العامة أسماء اللَّه وصفاته.

والدليل على أنَّ العامة والصِّغار يُعلَّمون أمور العقيدة: ما جاء في صحيح مسلمٍ[1] «أنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم لَمَّا سَأَلَ الجَارِيَةَ: أَيْنَ

---

(١) كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، ونسخ ما كان من إباحته، رقم (٥٣٧)، من حديث معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه.

اللَّهُ؟ قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ»، فهي جاريةٌ صغيرةٌ عَرفت صفةً عظيمةً من صفات اللَّه وهي العلو.

وكذلك ما جاء في الترمذي(١) عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: «احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ»، فهذا حديثٌ في العقيدة وعلَّمه النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباسٍ رضي الله عنهما، وهو غلامٌ.

فقوله: (**حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ**) يعني: لا تأتوهم بشيءٍ أكبر من معلومهم؛ وإنَّما ابدؤوا بالتدرُّج بهم بالأسماء، شيئاً فشيئاً، حتى يكونوا عالمين بها.

وليس المراد من ذلك نفْي تعليم العامَّة شيئاً من أسمائه وصفاته؛ بل أمَر اللَّه عز وجل بمعرفة دينه، ومعرفته سبحانه؛ بل هي أوَّل ما يجب على العبد معرفته.

---

(١) أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، باب، رقم (٢٥١٦).

لذلك قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في أوَّل الأصول الثلاثة[١]: «اعلم رحمك اللَّه، أنَّه يجب علينا تعلُّم أربع مسائل: الأُولى: العِلم، وهو: معرفة اللَّه، ومعرفة نبيِّه، ومعرفة دين الإسلام بالأدلَّة»، فيرى الشيخ رحمه الله بأنَّ كلَّ معرفةٍ بأسماء اللَّه وصفاته، يجب على العاميِّ وغير العاميِّ معرفتها.

(أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّه وَرَسُولُهُ؟!) يعني: ما يَلتبس على العامَّة، وكانوا جاهلين به؛ فلا يُحدَّث به على إطلاقه، وإنَّما يُبدأ بهم على التدرُّج.

وليس معنى ذلك: أن لا نَذكر أسماء اللَّه ولا صفاته عند العامَّة؛ بل إنَّ معرفة أسماء اللَّه وصفاته واجبةٌ عند العامَّة، وعند غير العامة؛ لأن أسماء اللَّه وصفاته مِن أعظم الدين.

ومِن أعظم ما أمَرَ اللَّه به المكلَّفين؛ هو معرفة اللَّه سبحانه وتعالى، وأسماؤه وصفاته أوّل ما يَدخل في ذلك.

---

(١) متون طالب العلم، المستوى الأول، الأصول الثلاثة (ص ٤٣).

(أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ؟!) وهذه عاقبة من لم يبيِّن العقيدة للناس، فينشأ منها التكذيب للَّه ورسوله إذا ذُكرت صفةٌ من صفات اللَّه عندهم.

والقرآن مملوءٌ بأسماء اللَّه وصفاته، ويَقرأه عامَّة الناس وعلماؤهم، فيجب تعليم العقيدة مِن الأسماء والصفات وغيرها لجميع الناس.

ومَن جَحد شيئاً من أسماء اللَّه وصفاته؛ فهو مكذِّبٌ للَّه ورسوله، وهذا الشاهد.

ثُم بعد ذلك قال: (وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ) بن همام الصنعاني[١] وهو شيخ الإمام أحمد رحمه الله ومِن علماء اليمن.

(عَنْ مَعْمَرٍ، عَنِ ابْنِ طَاوُوسٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً انْتَفَضَ) أي: ارتعد واضطرب وخشي.

---

(١)هو: أبو بكر عبد الرزاق ابن همام ابن نافع الحميري مولاهم الصنعاني، توفي سنة (٢١١هـ). تقريب التهذيب لابن حجر (١/ ٣٥٤).

(لَمَّا سَمِعَ حَدِيثاً عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فِي الصِّفَاتِ) يعني: من صفات اللَّه، (اسْتِنْكَاراً لِذَلِكَ) يعني: استغرب واستنكر أنَّ هذه صفةٌ من صفات اللَّه؛ فارتعد وتخوَّف، والسبب: عدم بثِّ أسماء اللَّه وصفاته عند الناس.

(فَقَالَ: مَا فَرَقُ هَؤُلَاءِ؟) قالها ابن عباس رضي الله عنهما منكِراً فعْل الرجُل؛ يعني: ما بال هؤلاء، أو ما فرَّق هؤلاء بين الحق والباطل؛ بل ابتعدوا عن الحق، ولم يَعرفوه.

وفيه دليلٌ على تحريم تفويض صفات اللَّه؛ يعني: لا يقول العبد، أنا أُثبت للَّه كما يريد، ولا أَعرف أسمائه ولا صفاته، وكلُّ ما يريده اللَّه؛ أنا أُثبته، حتى يرضى اللَّه عني.

نقول: هذا خطأٌ؛ بل إنَّ مِن أسماء اللَّه ما يدل على صفاتها، مثل: سميعٌ؛ يعني: السمع معلومٌ، فنُثبت صفة السمع، وبصيرٌ: البصر معلوم؛ فنُثبت تلك الصفة.

وهكذا في بقية صفات اللَّه، نقول: الأسماء معلومة؛ فنُثبتها اسماً، ونُثبتها أيضاً معنىً، ونَأخذ منها صفاتٍ.

ويجب على العبد أنْ يرتِّب آثاره على تلك الصفات، مثال ذلك: اللَّه عز وجل قويٌّ؛ فيكون العبد قوياً لا يَضعف في الحق ونحو ذلك، فنضع آثاراً لتلك الأسماء.

(يَجِدُونَ رِقَّةً عِنْدَ مُحْكَمِهِ) (يَجِدُونَ رِقَّةً) أي: ليناً وقبولاً، يؤمنون بالمُحكَم، مثل قوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، فالمُحكمة؛ أيْ: الأمور التي لم تُنسخ.

(وَيَهْلِكُونَ عِندَ مُتَشَابِهِهِ) قيل: المنسوخة، وقيل: التي لا يُعلَم معناها؛ مثل: الحروف المقطَّعة في أوائل السور: ﴿الم﴾ [البقرة: ١]، ﴿ص﴾ [ص: ١]، ومِثل: معرفة كنْه صفات اللَّه؛ يعني: كيف يَسمع؟ نقول: اللَّه أعلم، هذه من المتشابه.

لكن نقول: النزول معلومٌ، والسمع معلومٌ، والبصر معلومٌ؛ فاللَّه سبحانه أَخبرنا بأنَّه يَسمع، ولم يُخبرنا كيف يَسمع، وأَخبرنا أنَّه يُبصر، ولم يُخبرنا كيف يُبصر، فلم يُكلِّفنا اللَّه بمعرفة الكيفيَّة؛ وإنَّما كلَّفنا بأنْ نُثبت أسماء اللَّه، وصفاته، والمعاني لها.

فهذا فيه إنكارٌ على عدم تعليم العامَّة أسماء اللَّه وصفاته، فيجب أنْ يُعَلَّموا، لكن يُتَدرَّج بهم في معرفة أسماء اللَّه وصفاته؛ ليعبدوا اللَّه عز وجل على حقٍّ وعِلمٍ وبصيرةٍ، ليَخشوه في الغيب والشهادة.

والمُحكم إذا أُطلق وحْده دون المتشابِه؛ فالمراد به: المُتْقَن؛ قال سبحانه: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ [هود: ١].

والمتشابِه إذا أُطلق وحْده دون المُحكَم؛ فالمراد به: تصديق بعْضه بعضاً؛ قال سبحانه: ﴿كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر: ٢٣].

وإذا اجتَمع المُحكَم والمتشابِه كما في هذا الأثر؛ فالمحكَم يراد به: ما اتَّضح معناه، والمتشابِه: ما لم يتَّضح معناه عند بعض الناس، كما في سورة آل عمران: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ [آل عمران: ٧].

والمراد هنا: أنَّه إذا كان واضح المعنى؛ آمنَ به، وإذا لم يتَّضح معناه؛ ينتفض ويَرتعد؛ بسبب جهْله في الأسماء والصفات، فيجب تعلُّم الأسماء والصفات؛ لئلَّا يَهلك.

ثُم بعد ذلك قال: (وَلَمَّا سَمِعَتْ قُرَيْشٌ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ) كما في صُلح الحديبية؛ (أَنْكَرُوا ذَلِكَ) لأنَّه لما قال: «اكْتُبْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»[1] قالوا: ما الرحمن؛ (فَأَنْزَلَ اللَّه فِيهِمْ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾) فهم كَفروا بالرحمن.

فدلَّ على أنَّ إنكار شيءٍ من أسماء اللَّه أو صفاته؛ مِن خِصال الجاهلية كما فَعلوه مع النبي صلى الله عليه وسلم.

وللَّه سبحانه وتعالى أسماء كثيرةٌ، وهي لذاتٍ واحدةٍ، وليست مترادفةً؛ بل لكلِّ اسمٍ معنى، مثلاً: الودود له معنى، واللطيف له معنى، والرحمن له معنى، وليست العزة كالحِكمة، وليست الحِكمة كالخِبرة وهكذا.

فنثبِت كل اسمٍ، ونثبِت معناه، ونُثبت الآثار المترتِّبة على ذلك، في قلوبنا، وعلى جوارحنا.

---

(١) سبق تخريجه (ص)، عند قوله (وكفَّار قريشٍ لمَّا كَتب النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم).

فتبيَّن مما سَبق: أنَّ مَن جحد شيئاً من أسماء اللَّه، أو صفاته؛ فإنه – والعياذ باللَّه – يكفُر؛ بنصِّ الآية: (﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾) يعني: باسم الرحمن، ولا يثبتون ذلك الاسم، فاللَّه حَكم عليهم بالكُفر.

وتبيَّن أيضاً: أنَّ العامة لا يُحدَّثون بما قد يُشكل عليهم، بما هو فوق عقولهم، وإنَّما يُتدرَّج بهم حتى يصل في قلوبهم معرفة اللَّه، ومعرفة نبيهم.

ويجب علينا أنْ نُثبِت الأسماء حقيقةً، وأن لا ننكر شيئاً منها، فابن عباسٍ رضي اللَّه عنهما أَنكر فعْل ذلك الرجُل؛ الذي انتَفض لِمَا أَنكر مِن صفات اللَّه عز وجل.

***

[٤١]

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ عز وجل:

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾

قَالَ مُجَاهِدٌ مَا مَعْنَاهُ: «هُوَ قَوْلُ الرَّجُلِ: هَذَا مَالِي، وَرِثْتُهُ عَنْ آبَائِي».

وَقَالَ عَوْنُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: «يَقُولُونَ: لَوْلَا فُلَانٌ؛ لَمْ يَكُنْ كَذَا».

وَقَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: «يَقُولُونَ: هَذَا بِشَفَاعَةِ آلِهَتِنَا».

وَقَالَ أَبُو العَبَّاسِ - بَعْدَ حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ رضي الله عنه الَّذِي فِيهِ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ ...» الحَدِيثَ، وَقَدْ تَقَدَّمَ -: «وَهَذَا كَثِيرٌ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، يَذُمُّ سُبْحَانَهُ مَنْ يُضِيفُ إِنْعَامَهُ إِلَى غَيْرِهِ وَيُشْرِكُ بِهِ. قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: هُوَ كَقَوْلِهِمْ: كَانَتِ الرِّيحُ طَيِّبَةً، وَالمَلَّاحُ حَاذِقاً».

وَنَحْوُ هَذَا مِمَّا هُوَ جَارٍ عَلَى أَلْسِنَةِ كَثِيرٍ.

الشرح:

كتاب التوحيد للإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، ذكر أقسام التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، توحيد الألوهية، توحيد الأسماء والصفات.

وأَكثرَ من توحيد الألوهية؛ لكثرة ما يقع فيه الناس.

وفي هذا الباب ذكر توحيد الربوبية.

وفي الباب السابق ذَكر توحيد الأسماء والصفات.

وبهذا يكون متْن كتاب التوحيد، قد شَمل فيه المصنِّف أنواع التوحيد الثلاثة.

وساق المصنِّف رحمه الله هذا الباب في كتاب التوحيد؛ لبيان وجوب نِسبة النِّعم إلى اللَّه، وأنَّ نسْبتها إلى غير اللَّه من الشرك الخفيِّ، فتأدُّباً لجَناب الربوبية تُنسب النِّعم إلى اللَّه عز وجل؛ لأنَّ المخلوق سببٌ فيها بتَسبِيب اللَّه عز وجل له.

قال رحمه الله: (بَابُ قَوْلِ اللَّهِ عز وجل: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾).

ما مِن نعمةٍ تَنزل إلا والعباد فيها ما بين شاكرٍ أو كافرٍ، سواء قلَّت النِّعمة، كما في الحديث: عن زيد بن خالدٍ الجهني رضي الله عنه قال: صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالحُدَيْبِيَةِ فِي إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ.

فَلَمَّا انْصَرَفَ؛ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟».

قَالُوا: اللَّه وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

قَالَ: «قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ:

فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ؛ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالكَوْكَبِ.

وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا؛ فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالكَوْكَبِ» رواه البخاريُّ ومسلمٌ(١).

فانقَسم الخلْق بقطراتٍ تَنزل من السماء، إلى مؤمنٍ وكافرٍ، فمَن أضافها إلى اللَّه عز وجل فذلك مؤمنٌ، ومَن أضافها إلى الكواكب والنجوم ونحو ذلك: «فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ».

وهذا يدلُّ على أنَّ الإنسان قد يَخرج من الدين وهو لا يَشعر.

---

(١) رواه البخاريُّ، أبواب الاستسقاء، باب قول الله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «شُكْرَكُمْ»، رقم (١٠٣٨)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب بيان كُفر من قال: مُطرنا بالنوء، رقم (٧١).

ويدلُّ أيضاً على أنَّ النِّعم تَفتن العبد، وهو لا يَشعر، فيجب على العبد أنْ يَستحضر عقيدته في كلِّ موطنٍ مِن مواطن أموره وحياته، فلا يُخلُّ بها سواء في النِّعم، أو في العبادات ونحو ذلك.

وإضافة النِّعم تنقسم إلى ثلاثة أقسامٍ:

القِسم الأوَّل: أنْ يضيفها إلى اللَّه سبحانه وحْده، ولا يَمنع ذلك من ذكْر السبب؛ قال سبحانه: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وقال: ﴿قُلْ إِنَّ الفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [آل عمران:٧٣]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقال: ﴿وَهُوَ القَوِيُّ العَزِيزُ﴾ [الشورى: ١٩]، فهو سبحانه الذي يوصل إليك الرزق، ويوصل إليك النِّعمة، ومن تمام شُكرها: إسداؤها إلى اللَّه عز وجل.

فمثلاً: لو أعطيت رجُلاً مالاً، وذَهب يَشكر الرجُل الذي بجانبك، لا شكَّ أنَّ هذا قدْحٌ في ذاتك، وفي عطائك، لكن إنْ أعطيته ثُم شَكرك؛ فهذا دليلٌ على أنَّه أسدى النِّعمة إليك بالسبب.

ولا يمنع شُكر مَن كان سبباً فيها، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «لَا يَشْكُرُ اللَّهَ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ» رواه أحمد(١). وقال صلى الله عليه وسلم: «مَنْ صَنَعَ إِلَيكُمْ مَعْرُوفاً فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُوهُ، فَادْعُوا لَهُ، حَتَّى تَرَوا أَنَّكم قَدْ كَافَأْتُمُوهُ»(٢).

ولا يَمنع أنْ تقول: هذا بفضْل اللَّه، ثُم بفعْل فلان، بعد ذِكر حرْف العطف: (ثم)، أمَّا ذِكْر حرْف العطْف: (و)؛ فهذا تشريكٌ للنِّعمة.

القِسم الثاني: أنْ تُنسَب النِّعمة إلى غير اللَّه؛ بمعنى: جحود ربوبية اللَّه عز وجل، مِثل قَول مجاهدٍ كما سيأتي؛ وهذا كُفرٌ أكبر؛ لأنَّه أسدى النِّعمة إلى غير اللَّه عز وجل.

القِسم الثالث: أنْ تعتقد أنَّ النِّعمة من اللَّه، لكن تُسدِي الفعْل إلى السبب بالقول؛ وهذا لفظٌ من ألفاظ الشرك الخفيِّ.

والمصنِّف رحمه الله بوَّب هذا الباب لكلا النوعين.

فذَكر قول مجاهد رحمه الله في القِسم الثاني.

---

(١) في المسند، رقم (٧٩٣٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه أحمد في المسند، رقم (٥٣٦٥)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وذَكر صفة الألفاظ في القِسم الثالث.

والآية عامَّةٌ للنوعين الثاني والثالث؛ بحسب ما يُضمر العبد في قلبه من إسداء النِّعمة إلى غير اللَّه.

ومن تعظيم اللَّه سبحانه وتعالى: أنْ تُسدى النِّعم إليه؛ لذلك أوَّل آية في كتاب اللَّه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «وَالحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ»(١).

فمِن أفْضل الذِّكر، ومِن أفْضل الثناء، هو إسداء النِّعمة للَّه؛ لهذا أوَّل لفظةٍ يَذكرها أهْل الجَنَّة، عند دخولهم للجَنَّة: ﴿الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، فكمال الإيمان، وكمال التوحيد، وكمال العقْل؛ أنْ تُسدَى النِّعمة إلى مُسدِيها، وهو اللَّه؛ كما قال سبحانه: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

---

(١) رواه مسلمٌ، كتاب الطهارة، باب فضْل الوضوء، رقم (٢٢٣)، من حديث أبي مالكٍ الأشعريّ رضي الله عنه.

وإذا شُرِّك في نسبة النِّعمة إلى غير اللَّه؛ يَرجع إلى القِسم الثاني أو الثالث، إنْ اعتقد أنه ورب العالمين سواء؛ فهذا شركٌ أكبر - والعياذ باللَّه-.

ومَن اعتقد أنَّه سببٌ لكن أخلَّ في اللفظ بالواو؛ فهذا نوعٌ من ألفاظ الشرك الأصغر.

والمصنِّف رحمه الله ذكر في هذا الباب خمسة نصوصٍ:

النَّصُّ الأوَّل - (﴿**يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا**﴾) -: ترجم المصنف بهذه الآية حضّاً على التأدب مع جناب الربوبية عن الألفاظ الشركية الخفية، كنسبة النعم إلى غير الله.

النَّصُّ الثاني - (**هُوَ قَوْلُ الرَّجُلِ: هَذَا مَالِي، وَرِثْتُهُ عَنْ آبَائِي**) -؛ لبيان تحريم نسبة النِّعم إلى الآباء.

النَّصُّ الثالث - (**لَوْلَا فُلَانٌ؛ لَمْ يَكُنْ كَذَا**) -؛ تحريم نسبة النِّعم إلى الأشخاص غير الآباء.

النَّصُّ الرابع - (**يَقُولُونَ: هَذَا بِشَفَاعَةِ آلِهَتِنَا**) -؛ لبيان تحريم نسبة النِّعم إلى المعبودات من دون اللَّه.

النَّصُّ الخامس - وهو قول شيخ الإسلام رحمه الله -؛ لبيان تحريم نسبة النِّعم إلى المخلوقات غير الآلهة؛ فهو أعمُّ، يَذمُّ سبحانه مَن يضيف إنعامه إلى غير اللَّه.

فقوله رحمه الله: **(بَابُ قَوْلِ اللَّهِ عز وجل: ﴿يَعْرِفُونَ﴾)** أي: الكفار مِن قريشٍ وغيرهم، يعرفون نعمة اللَّه، ولكنهم لا يُسدون هذه النِّعمة إلى اللَّه، ولا يَصرفون هذه النِّعمة في أفعالهم إليه سبحانه.

(﴿نِعْمَتَ اللَّهِ﴾) النِّعمة المفردة إذا أُضيفت؛ فالمراد بها العموم؛ أي: يَعرفون نِعَم اللَّه؛ كما قال سبحانه: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨].

(﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ﴾) لمشاهدتهم لها، أو لسماعهم عنها، أو لاستمتاعهم بها - بالجلوس ونحو ذلك -.

(﴿ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾) بِنِسبتها إلى غير اللَّه سبحانه وتعالى، وعدم شُكرهم له جل وعلا.

فدلَّ على أنَّ مَن أَسْدَى النِّعمة إلى غير اللَّه؛ فحُكمه - والعياذ باللَّه - الكُفر، لكن قد يكون كفراً أكبر كما في القِسم الثاني، وقد يكون كفراً أصغر كما في القِسم الثالث.

ولهذا بعد أنْ عدَّد تعالى النِّعم على المشركين في سورة النحل، فقال: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١]، فهم يَعرفون أنّ الذي أعطاهم هذه النِّعم هو اللَّه، ومع ذلك ينكرونها، وهم كافرون، فمَن فعل ذلك؛ فقد وقع في الكُفر - والعياذ باللَّه -.

لذلك يجب على الشخص أنْ يُهذِّب لسانَه، فلو قال: أنا أعتقد بأنَّ النِّعم من اللَّه، لكن قلتُ السبب أنَّ النِّعمة من ذلك الرجُل، مع اعتقادي بأنه سببٌ.

نقول: لا، حتى ولو كنتَ تعتقد بأنَّه سببٌ، فلا بد مِن إسداء النِّعمة لله مع ذكْر المسبِّب، فاللَّه عز وجل هو الذي جَعل ذلك الرجُل سبباً إليك.

فمثلاً: لو أنَّ رجلاً أَرسل إليك ورقةً وبها خمسة آلاف ريالٍ مع طفلٍ صغيرٍ، فمَن أحقُّ بالشكر؟ الطفل الذي جاء بها، أم صاحب المبلغ الذي أعطاك إياه؟

لا شك أَنَّه صاحب المَبلغ، فإذاً اللَّه هو الذي أعطاك النِّعمة، وجَعل البشر سبباً في إيصالها إليك، فهنا مثلاً قد لا يعطيك إياها الطفل، وقد يضيِّعها، فهو سببٌ قد يُوصل إليك، وقد لا يوصل.

وكذلك أفعال البشر معك: هي سببٌ قد تَنفع، وقد لا تنفع؛ بل البشر قد يَفعلون السبب، وفي ظنِّك أَنَّه خيرٌ لك، وفي حقيقته هو شرٌّ لك، وإنْ كان ظاهره يسعى إلى النفع، فالأمور كلها للَّه؛ قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

ولـمَّا ساق المصنِّف رحمه الله هذه الآية، بدأ في ذكْر أقوال السلف في أنَّ هذه الآية تنطبق على الشرك الأكبر؛ إذا اعتقد الشخص أنّ هذه النِّعم مِن غير اللَّه كما في قول ابن قتيبة(١).

وذَكر إنْ كان يَعتقد أَنَّه سببٌ، فبعض السلف فسَّرها بذلك كما في قول عونٍ.

(١) هو: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، توفي سنة (٢٦٧هـ). سير أعلام النبلاء للذهبي (١٣/ ٢٩٦)

قال رحمه الله: (قَالَ مُجَاهِدٌ) أي: في معنى الآية التي بوَّب عليها المصنِّف: (مَا مَعْنَاهُ) أي: أنَّه ذَكر قول مجاهدٍ بالمعنى؛ لأنَّ قول مجاهدٍ فيه طولٌ فذَكر خلاصته، فنصُّ قول مجاهدٍ: «آباؤنا ورَّثونا إياه»[١] بعد أن ذَكر النِّعم من المساكن والأنعام.

(هُوَ قَوْلُ الرَّجُلِ: هَذَا مَالِي، وَرِثْتُهُ عَنْ آبَائِي) فهو نَسبَ هذا المال إلى آبائه، ولم يقل: أنَّه من اللَّه، فقد يموت والدك، وهو يَملك مالاً، فتُحرَم منه، فيُجحَد مال أبيك، أو يأتي عليه الدين ونحو ذلك.

فلذلك ذمَّ اللَّه مَن نَسب المال، أو غير المال من النعم إلى غير اللَّه سبحانه - وإنْ كان السبب ظاهراً -؛ لذلك قال اللَّه: ﴿فَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا﴾ - أَعطيناه نعمةً - ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ﴾؛ بسببي، كأن يقول: أنا أَعرف كيف أَجمع المال، وأنا حاذقٌ في التجارة، وأنا ذكيٌّ في التصرف بالمال؛ قال تعالى: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾؛

(١) تفسير الطبري (١٤/ ٣٢٥).

يعني: بلاء[١]، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٩-٥٠].

فدلَّ على أنَّ نِسْبة النِّعم إلى غير اللَّه، ولو كنت تعتقد بأنَّ هذا سبباً؛ لا يجوز.

ونِسبة المال إلى الشخص ينقسم إلى قِسمين:

القِسم الأوَّل: إذا كان خبراً، مثل لو قال شخصٌ: مِن أين لك هذا المال -؛ يعني: هل أنت سرقتَه؟ أم هو هبة، أم إرث -؟

فتقول: هذا مالي ورثته من آبائي؛ فهذا لا محظور فيه.

القِسم الثاني: أنْ يَنسب هذا الفضل الذي هو فيه من المال ونحوه من المساكن إلى الآباء بالقول دون الاعتقاد.

وهذا من ألفاظ الشرك الخفيِّ؛ قال سبحانه: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، فاللَّه عز وجل هو الذي سخَّر آباءك لجمْع المال، وهو الذي سخَّر آباءك لأن يَحفظوا المال حتى ترثه منهم، فهم مَخلوقون.

---

(١) تفسير الطبري (٢١/ ٣٠٤).

فيجب على المسْلِم أن يقول: هذا المال مِن اللَّه.

ولا بأس بل يُشرع أيضاً شُكْر الوالدين على هذا المال، مثل: وجزاه اللَّه خيراً والدي، تَعب في جمْع هذا المال ونحو ذلك؛ حتى وَصل إلينا بفضْل اللَّه.

ثُم بعد ذلك قال: (وَقَالَ عَوْنُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ) هو عون بن عبد اللَّه بن عتبة بن مسعود[١].

(يَقُولُونَ: لَوْلَا فُلَانٌ؛ لَمْ يَكُنْ كَذَا) وهذه اللفظة لا تجوز؛ وإنما يُنسب للَّه، مِثل: لو قال شخصٌ: لولا مدير المدرسة؛ لم أَدخل في المدرسة.

هذا لا يجوز؛ وإنما يُقال: لولا اللَّه لم أَدخل هذه المدرسة، أو: لولا اللَّه ثم إعانة هذا المدير لم أَدخل المدرسة، أمَّا أنْ يُنسى الربُّ في ذكْر هذه النِّعم؛ فهذا الذي لا يجوز.

---

(١) هو: أبو عبد اللَّه عون بن عبد اللَّه بن عتبة بن مسعود الهذلي، توفي سنة مئة وبضع عشرة. سير أعلام النبلاء للذهبي (٥/ ١٠٣).

ومَن أتى بواو التشريك، بين اللَّه والسبب؛ فهذا يَدخل في القِسم الثاني والثالث:

فإن اعتقد بأنَّه سببٌ؛ فهو شركٌ أصغر.

وإن اعتقد بأنَّه هو وربَّ العالمين شركاء في الربوبية، يدبرون الأمر والكون؛ فهذا – والعياذ باللَّه – شركٌ أكبر.

ثُم ذَكر ما هو من القِسم الثاني وهو: إذا نسبتَ النِّعم إلى المعبودات مِن دون اللَّه؛ وهو الشرك الأكبر، وهو قول ابن قتيبة، فقال:

(وَقَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: يَقُولُونَ: هَذَا) أي: المال، أو ما حَصَّلناه من الدنيا، (بِشَفَاعَةِ آلِهَتِنَا) أي: لمَّا دعوناها مِن دون اللَّه – والعياذ باللَّه –؛ وهذا شركٌ أكبر؛ يعني: لم يَعتقد بأنَّها سبب في ذلك؛ بل جَعل الآلهة هي التي أَنعمتْ عليه – والعياذ باللَّه – بتلك النِّعم.

ثُم بعد ذلك ذَكر قول أبي العباس – وهو: ابن تيمية، شيخ الإسلام رحمه الله – (بَعْدَ حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ رضي الله عنه الَّذِي فِيهِ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ . . .» الحَدِيثَ، وَقَدْ تَقَدَّمَ –: وَهَذَا كَثِيرٌ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ) أي: أنَّ البشر لا يُسندون النِّعمة إلى اللَّه؛ كما قال سبحانه: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة:٨٢].

(يَذُمُّ سُبْحَانَهُ مَنْ يُضِيفُ إِنْعَامَهُ إِلَى غَيْرِهِ وَيُشْرِكُ بِهِ) فتأدُّباً مع اللَّه عز وجل، وشُكراً للنعمة؛ تُنسب للَّه؛ قال سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾ [سبأ:٢٤]، ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر:٢].

فيدلُّ على أنَّ إضافة النِّعمة إلى غير اللَّه؛ شركٌ باللَّه، لكنَّه إمَّا أنْ يكون شركاً أكبر، أو شركاً أصغر.

ثُم بعد ذلك ذكر شيخ الإسلام رحمه الله مثالاً على ذلك، فقال: (قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: هُوَ كَقَوْلِهِمْ: كَانَتِ الرِّيحُ طَيِّبَةً) تُقال إذا رَكب الناس في البحر فوَصلوا سالمين، فنسبوا ذلك إلى الريح فقالوا: لم تُحرِّكنا في البحر، فتتلاطم علينا الأمواج، ونسوا أنَّ اللَّه هو الحافظ.

لذلك قال القرطبي: «مَن أراد أنْ يوقن بأنَّ اللَّه هو الواحد، فليرْكب البحر»(١)؛ لأنه لا يَملك السفينة حين تلاطم الأمواج في ظلمة الليل؛ إلا اللَّه عز وجل؛ لذلك حتى المشرك يُسلِم مِن شدة الخوف؛ قال سبحانه: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

(١) تفسير القرطبي (٧/ ٣٤١).

فنسبة نعمة السلامة إلى الريح؛ مِن الشرك الخفي.

ومِثل ذلك قول بعض الناس إذا كان في سفرٍ: بسبب أنَّ نوع السيارة جيّدٌ وَصلْنا سريعاً، أو: لم نَتعب، ولم يَنسب ذلك للَّه.

(وَالمَلَّاحُ) (**المَلَّاحُ**) هو قائد السفينة؛ نسبةً إلى الملح الذي في البحر، (حَاذِقاً) يعني: جيِّداً؛ يعني يقول: وَصلْنا سالمين؛ لأن رُبَّان السفينة حاذق، فنَسي نعْمة اللَّه.

وكذلك مِثله لو قال شخصٌ: أَوشكنا على حادثٍ لكن قائد السيارة جيِّدٌ؛ فهذا من ألفاظ الشرك الخفي، وكذلك قول: قائد الطائرة جيِّدٌ فلم نسقط.

فكل هذا لا يجوز، وإنما تُنسب هذه النِّعم للَّه سبحانه وتعالى.

ومثله: نسْبة سلامة الوصول في السفر إلى السيارة، يقول: إطارات السيارة كانت جيدةً، والسيارةُ قويةٌ، ونوعها جيِّدٌ، وتَصلح للسفر ونحو ذلك، وما علمَ أنَّه كم مِن سيارةٍ غالية الثمن يَهلك أصحابها، وكم مِن سيارةٍ رخيصة الثمن يصل أصحابها بالسلامة، فالأمر بيد اللَّه؛ فيجب نسبة النِّعمة للَّه.

وكذلك أيضاً: نسبة العافية بعد العمليات ونحو ذلك، إلى الأطباء، كقول الناس: هذا الطبيب جيدٌ، فهذا - والعياذ باللَّه - من ألفاظ الشرك الخفيِّ.

فيقول الشخص: بفضل اللَّه، ثم وُفِّقنا إلى طبيبٍ ماهرٍ ونحو ذلك، فيَنسب إلى اللَّه، ولا يُمنع مِن ذِكر السبب مِن المخلوق ونحوه.

وهكذا مثل: استخدام الأدوية، وإنقاذك مِن كرباتٍ، ونجاحك في الامتحانات، فلو قال لك شخصٌ: كيف أخذتَ الأوَّل؟ فتقول: ذاكرتُ جيِّداً، وأنا ذكيٌّ.

نقول: لا؛ بل قُل: بفضْل اللَّه، ثم أخذتُ بالسبب من المذاكرة؛ فوفَّقني اللَّه.

فتبيَّن ممَّا سَبق: أنّ النِّعم يجب إسداؤها إلى رب العالمين، فهو المعطي والمنعِم.

ومَن أسدى النِّعم إلى غير اللَّه، فالناس تنقسم فيه إلى قِسمين:

إنْ كان يَعتقد أنَّها سببٌ؛ فهذا شرك أصغر.

وإنْ كان يَعتقد أنَّها هي المدبِّرة والفاعلة؛ فهذا - والعياذ باللَّه - شركٌ أكبر.

***

[٤٢]

بَابُ

قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما فِي الآيَةِ: «الأَنْدَادُ: هُوَ الشِّرْكُ، أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ عَلَى صَفَاةٍ سَوْدَاءَ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ، وَهُوَ أَنْ تَقُولَ: وَاللَّهِ وَحَيَاتِكِ يَا فُلَانَةُ وَحَيَاتِي.

وَتَقُولَ: لَوْلَا كَلْبُهُ هَذَا لَأَتَانَا اللُّصُوصُ، وَلَوْلَا البَطُّ فِي الدَّارِ لَأَتَى اللُّصُوصُ.

وَقَوْلُ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ.

وَقَوْلُ الرَّجُلِ: لَوْلَا اللَّهُ وَفُلَانٌ، لَا تَجْعَلْ فِيهَا فُلَانٌ.

هَذَا كُلُّهُ بِهِ شِرْكٌ» رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ؛ فَقَدْ كَفَرَ، أَوْ أَشْرَكَ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ، وَصَحَّحَهُ الحَاكِمُ.

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «لَأَنْ أَحْلِفَ بِاللَّهِ كَاذِباً؛ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ بِغَيْرِهِ صَادِقاً».

وَعَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «لَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ فُلَانٌ، وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

وَعَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ: «أَنَّهُ يَكْرَهُ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ وَبِكَ.

وَيُجَوِّزُ أَنْ يَقُولَ: بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ.

وَيَقُولُ: لَوْلَا اللَّهُ ثُمَّ فُلَانٌ.

وَلَا تَقُولُوا: لَوْلَا اللَّهُ وَفُلَانٌ».

الشرح:

قال رحمه الله: (بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾) ساق المصنِّف رحمه الله هذا الباب في كتاب التوحيد؛ لبيان التحذير من ألفاظٍ شركيَّةٍ قد تَخفى على بعض الناس وإن لم يكن يَقصد ذلك اللفظ.

ويَذكر المصنِّف رحمه الله في هذا الباب بعض الألفاظ في الشرك الأصغر، وما يَلحق بها من ألفاظٍ تُجعَل في حُكم الشرك الأصغر.

والفرْق بين هذا الباب والباب السابق: (بَابُ قَوْلِ اللَّهِ عز وجل: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾).

أنّ الباب السابق في نِسبة النِّعم فقط إلى غير اللَّه.

أمَّا هنا فهو أعمُّ، مثل: الحلِف بغير اللَّه، ومثل: مساواة مشيئة العبد بمشيئة اللَّه، كما سيأتي، فهناك فقط في نسبة النِّعم، أمَّا هذا الباب فأعمُّ.

والمصنِّف رحمه الله ذَكر في هذا الباب ستة نصوصٍ:

النَّصُّ الأول - قوله تعالى: (﴿**فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً**﴾) -؛ لبيان تحريم جعْل الندِّ مع اللَّه سبحانه، ويَدخل في ذلك الألفاظ.

النَّصُّ الثاني - تفسير ابن عباسٍ رضي الله عنهما -؛ لبيان ألفاظٍ من الشرك.

النَّصُّ الثالث - حديث عمر رضي الله عنه-؛ لبيان أنَّ الحلِف بغير اللَّه؛ مِن ألفاظ الشرك.

النَّصُّ الرابع - قول ابن مسعودٍ رضي الله عنه -؛ لبيان خطورة ذلك الأمر، وأنَّه أعظم مِن كبائر الذنوب.

النَّصُّ الخامس - حديث حذيفة رضي الله عنه -؛ لبيان اللفظ الصحيح في التشريك في المشيئة، بأن يقول: ما شاء اللَّه ثُم شاء فلان.

النَّصُّ السادس – قول إبراهيم النخعي رحمه الله –؛ لبيان أنَّ سَلفَ الأمَّة قاسوا على النَّصِّ السابق تصحيح الألفاظ في التشريك في الاستعاذة: (أعوذ باللَّه ثم بك)، و(لولا اللَّه ثُم فلان).

قال: (بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾).

هذه مِن طريقة المصنِّف رحمه الله:

فأحياناً يَذكر الحُكم، مِثل: (**بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ لُبْسُ الحَلْقَةِ وَالخَيْطِ وَنَحْوِهِمَا لِرَفْعِ البَلَاءِ أَوْ دَفْعِهِ**).

وأحياناً يَذكر على إطلاقه، مثل: (**بَابُ مَا جَاءَ فِي السِّحْرِ**).

وأحياناً يُبوِّب بآيةٍ؛ كهذا الباب.

وهذه الآية نَزلت في الشرك الأكبر، لكن باتِّفاق أهْل العِلم أنَّ ما نَزل في الشرك الأكبر؛ يَصلح أنْ يُستدلَّ به على تحريم الشرك الأصغر.

وأوَّل هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ

أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢]؛ يعني: فمَن كان متَّصفاً بهذه الصفات:

﴿جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً﴾: ممهَّدةً ومذلَّلةً كما يذلَّل البعير للقائد.

﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾: قبَّةً مضروبةً فوق الخلْق، مزيَّنةً بالقناديل والكواكب والنجوم، منْها ما هو سائرٌ، ومنها ما هو ثابتٌ على بديعٍ لم يُخلق مِثله؛ قال سبحانه: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٧]، وخَلقها مِن غير مثالٍ سابقٍ؛ كما قال: ﴿الحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [فاطر:١]؛ بل اللَّه حَمد نفْسه ومَجَّدها حين ذَكر خلْقه لها: ﴿الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ مِن العُلو، وهذا مِن عِظم آيات اللَّه، بأنَّ ماءً كثيفاً يسير فوقك، ولا يَسقط منه قطرةٌ؛ إلا بأمر اللَّه؛ قال سبحانه: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ المُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً﴾ [النبأ: ١٤]، فكأنَّ السحاب يتعصَّر؛ فيَخرج منه الماء، وهذ كلُّه بأمر اللَّه، وعِلمه، وحِكمته، وعظمته سبحانه.

﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ﴾ مِن جميع الثمرات، مِنها ما هو حلوٌ، ومِنها مرٌّ، ومِنها ما هو غذاءٌ، ومِنها ما هو سمومٌ؛ كما قال عز وجل: ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

فمَن عقَل مِثل هذه الآيات؛ آمن باللَّه وحده، ولذلك قال: (**﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾**) وأنتم مُقرُّون بهذه النِّعمة، وتَعلمون بأنّ الإله الواحد الحقَّ المستحقَّ لأنْ تُصرف له أنواع العبادة؛ هو اللَّه، فإذاً لا تَصرفوا لغيره شيئاً مِن أنواع العبادة.

وفسَّر المصنِّف رحمه الله هذه الآية بقول ابن عباسٍ رضي الله عنهما؛ قال: (**قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما فِي الآيَةِ: «الأَنْدَادُ: هُوَ الشِّرْكُ**) الأنداد: الشركاء والنظراء، ومن يُجعلون مِثل اللَّه عز وجل، سواء في العبادة، أو في التعظيم، وسواء في التعظيم القلبيِّ، أو القوليِّ، أو الفعليِّ، مثل: الطواف والنَّذْر ونحو ذلك.

وهذه الآية وإنْ كانت في الشرك الأكبر؛ إلا أنَّ الشرك الأصغر يَندرج فيها أيضاً، مثل: لو قال شخصٌ: لا تَعتدي على فلان؛ فيَدخل فيه

القتل، ويَدخل فيه أيضاً الضرب؛ لأنَّه نهى عن جميع الاعتداء، وكذا اتِّخاذ النِّدِّ مع اللَّه منهيٌّ عنه سواء كان في الشرك الأكبر أو الأصغر.

ولخفاء ألفاظه ونحوها على كثير من الناس: (قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما فِي الآيَةِ: «الأَنْدَادُ: هُوَ الشِّرْكُ، أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ) هنا يُفسِّر خطَرَ الشرك، وخفاءه على كثيرٍ من النَّاس.

ووصَف هذا الشرك بخفائه بثلاثة أمورٍ:

الوصف الأوَّل: نملة سوداء صغيرة.

والوصف الثاني: (عَلَى صَفَاةٍ سَوْدَاءَ) يعني: حجرٍ أملس أسود يَصعب تمييز النَّمل مِن الصَّفَاة.

والوصف الثالث: في السواد والظلمة (فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ)، فيها ظلماتٌ ثلاثٌ يصعب معرفة ذلك الكائن الصغير الذي على الصخرة.

فالشرك الخفيُّ أشدُّ مِن هذا المِثال؛ فهو شركٌ خفيٌّ عن القلوب، والأبصار، والبصائر، فيجب على العبد أنْ يتنبَّه له، والنبي صلى الله عليه وسلم خَشِيَه على صحابته، أشد من مخافته عليهم من المسيح الدجال، فقال: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ المَسِيحِ الدَّجَّالِ؟ قُلْنَا: بَلَى.

قَالَ: «الشِّرْكُ الخَفِيُّ»(١).

فخَشِيَه النبي صلى الله عليه وسلم؛ لحبِّ القلوب له، مِن حبِّ إظهار الأعمال الصالحة؛ كما قال ابن الجوزي: «النفوس مجبولةٌ على حبِّ إظهار أعمالها الصالحة»، فالنفس تحبُّ أنْ تُظهِر الصلاح، وتحبُّ عاجل الثواب.

ولكنَّ النفوس المطمئنة تَطلب ما عند اللَّه ولو تأَخَّر ثوابها في الآخرة بالجَنَّة، فتَصبر وتَحتسب، مع ما تُعطى إياه من النِّعم في الدنيا من الطُّمأنينة، وما يُثمر ذلك العمل الصالح من ثمارٍ؛ كما قال سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، فتكون حياته في الدنيا سعيدةً، وأيضاً في الآخرة كذلك.

وبعض الناس يَعْجَل ثواب الدنيا مِن محبَّة الثناء عليه، ومحبَّة أنْ يُتكلَّم فيه، وأن يُنظر إلى عملِهِ الصالح، والواجب إخفاء ما يُمكن مِن عملٍ صالحٍ، والخوف من اللَّه، وأنْ يكون القصد للَّه وحْده جل وعلا؛

(١) رواه أحمد في المسند، رقم (١١٢٥٢)، من حديث أبي سعيدٍ رضي الله عنه.

قال سبحانه: ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي﴾ [الزمر: ١٤]، ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة:٥].

ولهذا فإنَّ مقصد الشريعة من إرسال الرسل: أنْ يُجعل القلب متوجِّهاً للَّه في جميع الأعمال مِن صلاةٍ، وصيامٍ، وبرٍّ للوالدين، وصحبةٍ صالحةٍ، وتلاوة القرآن، والذِّكر، واستخدام السواك ونحو ذلك، لا يُقصَد بذلك لا رياء، ولا سُمعة، ولا مقصد دنيوي؛ بل يكون المقصد كلُّه للَّه.

فالشرك الخفي من الأعمال السيئة التي تخفى، فقد يَعمل الشخص أعمالاً ولا يَظهر له أنَّ هذا مِن الشرك - والعياذ باللَّه -؛ لذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «اللَّهمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أنْ أُشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمُ»[1]، فقد يقع المرء في الشرك باللفظ وهو لا يَشعر.

---

(١) رواه البخاريُّ في الأدب المفرد، باب فضْل الدعاء، رقم (٧١٦)، من حديث معقل بن يسارٍ رضي الله عنه. (١/ ٢٥٠).

ثُم مثَّل ابن عباسٍ رضي الله عنهما بما يقع فيه الناس مِن الشرك الأصغر بأربعة أمثلة:

فقال في المثال الأوَّل: (وَهُوَ أَنْ تَقُولَ: وَاللَّهِ وَحَيَاتِكِ يَا فُلَانَةُ وَحَيَاتِي) يعني: حلَف بغير اللَّه، فإذا قال: **(وَحَيَاتِكِ يَا فُلَانَةُ وَحَيَاتِي)**؛ فهذا من ألفاظ الشرك، حتى ولو لم يَقصد الإنسان ذلك اللفظ؛ لأَنَّه لفظ تعظيمٍ لمخلوقٍ، وهو من خصائص اللَّه في ذلك.

ومِثل قول: وحياة أمك، وحياة والدك، والنِّعمة التي بيدي هذه، أو: والكعبة، والنبيِّ، ومِثل: أنْ يَحلف الشخص بالأمانة، فيقول مثلاً: بأمانتك، أو: وأمانتك.

أمَّا لفظ: في أمانتك؛ فهذا ليس يميناً، فألفاظ القَسَم: الباء والتاء والواو، فأيُّ قَسَمٍ بهذه الحروف الثلاثة بغير اللَّه؛ - والعياذ باللَّه - مِن الشرك الأصغر.

وأمَّا إنْ حَدَّثك شخصٌ بحديثٍ، وقال: حَصل كذا وكذا، فقلتَ له: في أمانتك أنَّ هذا صدقٌ، ومؤتمنٌ عليه، وحدثتني به؛ فهذا لا بأس فيه، لكن إنْ حدَّثَك وقلتَ: بأمانتك، تريده أنْ يحلف؛ فهذا مِن ألفاظ الشرك الأصغر.

ولا يجوز الحلِف إلا بأمرين اثنين:

الأمر الأوَّل: باسمٍ من أسماء اللَّه سبحانه وتعالى، مثل: واللَّه، والعزيز، والحكيم، والكريم، وهكذا.

الأمر الثاني: بصفةٍ من صفاته عز وجل، مِثل: وعزَّة اللَّه، كما حَلَف إبليس وقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢]، فأَقسَم بصفةٍ من صفات اللَّه، وكذا لو حلَف شخصٌ وقال: ووجْه اللَّه، أو وقدمِ اللَّه، أو وعظمة اللَّه، أو وكرمِ اللَّه، أو وسمعِ اللَّه، أو وبصرِ اللَّه.

أمَّا إنْ كان الحلِف بغير اسمٍ أو صفةٍ للَّه عز وجل؛ فلا يجوز الحلِف به، وهذا من أنواع الشرك الأصغر الذي عرَّفه ابن عباس رضي اللَّه عنهما: بأنَّه مِثل خفاء النملة السوداء في ظلام الليل، على صفاةٍ سوداء ومَلْسَاء.

وإذا نظرتَ إلى قول ابن عباسٍ رضي اللَّه عنهما لوجدتَه صحيحاً؛ لأنه مخفيٌّ على كثيرٍ مِن الناس، فتجدهم يَحلفون بغير اللَّه عز وجل.

حتى ولو قال الشخص: أنا لم أَقصد الحلِف بغير اللَّه.

نقول: حتى ولو لم تقصده، فمجرَّد الحلِف بغير اللَّه، هذا تعظيمٌ لغير اللَّه، والحلِف بغير اللَّه؛ شركٌ؛ لأنَّ الحلِف نوعٌ من أنواع العبادة، فما حصلتْ إلا لأمرٍ معظَّمٍ في قلبك، ولا أعظم من اللَّه عز وجل.

والمثال الثاني قال: (وَتَقُولُ: لَوْلَا كَلْبُهُ هَذَا)، وفِي نسخةٍ: (**كُلَيْبَةُ**)، وفي نسخةٍ: (**كَلبَةُ فُلَانٍ**)، الكُلَيْبَةُ: تصغير كلبٍ، فكان العرب سابقاً - ولا زال بعض الناس - يَتَّخذون الكلب للحراسة - سواء للديار أو الماشية -، أو للصيد، واتَّخاذ الكلاب لغير هذين الأمرين؛ محرَّمٌ؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم في البخاري ومسلمٍ[1]: «مَنِ اتَّخَذَ كَلْباً، إِلَّا كَلْبَ زَرْعٍ، أَوْ غَنَمٍ، أَوْ صَيْدٍ، يَنْقُصُ مِنْ أَجْرِهِ كُلَّ يَوْمٍ قِيرَاطٌ».

فلغير الحرث والماشية في الحراسة، أو الصيد؛ لا يجوز اتِّخاذ الكلاب، مثل: الزينة في البيت، أو التجمُّل بها في المسير في الطرقات، أو في السيارة.

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الذبائح والصيد، باب من اقتنى كلباً ليس بكلب صيدٍ أو ماشيةٍ، رقم (٥٤٨١)، ومسلمٌ، كتاب المساقاة، باب الأمر بقتل الكلاب، وبيان نسخه، وبيان تحريم اقتنائها؛ إلا لصيدٍ، أو زرعٍ، أو ماشيةٍ ونحو ذلك، رقم (١٥٧٤)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(لَأَتَانَا اللِّصُوصُ) هذا نسْبة الحفْظ من السُّرَّاق واللصوص والقُطَّاع ونحو ذلك إلى غير اللَّه، وهم الكلاب، والواجب أنْ يقال: لولا فضْل اللَّه، ثم كذا؛ لحصل كذا.

فالإتيان بـ (ثُمَّ): تفيد الترتيب مع التراخي، فاللَّه عز وجل أولاً، ثم بعد ذلك السبب، وهذا السبب قد يَتخلَّف، وقد لا يَتخلَّف.

وكم مِن رجُلٍ عنده كلابٌ، وأدواتٌ للحراسة؛ وتقع عليه السرقة، فالأمر للَّه، وكم مِن شخصٍ ليس لديه كلْب حراسةٍ، ولا أدوات حفظٍ من اللصوص، ولم يُسرق منه شيءٌ، فهي أسبابٌ قد توجد وقد تَتخلَّف، فالأمر كلُّه للَّه.

والمقصود: نسْبة دفْع الشر عن الإنسان بآخر سواء كان بهيمةً أو غير بهيمةٍ كالجدار ونحو ذلك، مِثل قول: لولا الجدار؛ لأتانا الريح فمتنا؛ هذا لا يصحُّ، وإنما تقول: لولا اللَّه ثُم الجدار، وهكذا.

والمثال الثالث قال: (وَلَوْلَا البَطُّ فِي الدَّارِ لَأَتَى اللُّصُوصُ) يعني: بسبب صوت البط؛ يَهرب اللصوص لظنِّهم أنَّ أهْل الدار قيامٌ وليسوا نياماً.

وكان العرب يَتَّخذون البط للحراسة، فالبطُّ إنْ رأى شخصاً غريباً أخرج صوتاً، فيَعلم صاحب الدار أنَّ هناك غرباء دخلوا عنده، فيتنبَّه للحفظ.

فلا يجوز نسْبة دفْع الشر للبط؛ فاللَّه عز وجل هو الذي سخَّر البط، ولو أراد اللَّه شرّاً بأهل الدار؛ إمَّا أن يُموِّت البطُّ أو يَصرف اللَّه عز وجل البطَّ عن اللصوص ونحوهم.

ومِثل ذلك قول: لولا تصوير البيت بالكاميرا ونحوها؛ لأتى اللصوص وهكذا.

وإنَّما الصواب قول: لولا اللَّه ثُمَّ كذا أو كذا.

فنسبة الحفْظ للكلاب أو البط أو الحيوانات، أو البشر، أو لغيرهم من المخلوقين؛ هو من الشرك الأصغر.

والأفضل أنْ يقول الشخص: بفضل اللَّه، ثم بالأدوات المعلَّقة؛ لم يأتنا سارقٌ وهكذا.

فتُنسب النِّعمة للَّه؛ قال سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ [الأنبياء: ٤٢]، فالجواب: لا أحد، فهو سبحانه الحافظ للبشر: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾ [يوسف: ٦٤]، وقال: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ

يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

والمثال الرابع قال: (وَقَوْلُ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ: لَوْلَا اللَّهُ وَفُلَانٌ) يعني: التشريك في المشيئة، فجَعلتَ مشيئة العبد الضعيف كمشيئةِ اللَّه القوي العظيم سبحانه وتعالى؛ يعني كأنَّك تقول: شئتُ أنا واللَّه سواء فتَحقَّق لي - مثلاً - النجاح في الدراسة؛ وهذا لا يجوز، ومن الشرك.

فاللَّه هو الذي شاء حدوث الأشياء، ثُم أنت جُعِلتَ سبباً في ذلك؛ قال عز وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [هود:١٠٧]، ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، فاللَّه عز وجل إذا شاء شيئاً؛ حَدث ذلك الأمر، ولو شئتَ أمراً ولم يَشأْه اللَّه؛ لم يَقع؛ قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢]، فما مِن أحدٍ يستطيع.

والنبي صلى الله عليه وسلم بعد كل صلاة يدعو: «اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلاَ مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ»[١]، فإذا فَتح اللَّه باب رزقٍ؛ لم يَمنعه أحدٌ، وكذلك إذا مَنع رزقاً؛ لم يَفتحه أحدٌ.

وقولك: ما شاء اللَّه وشئتَ؛ يعني: أنَّك جَعلتَ المخلوق مساوياً لربِّ العالمين؛ وهذا من ألفاظ الشرك الأصغر - والعياذ باللَّه -.

قال ابن عباسٍ: **(لَا تَجْعَلْ فِيهَا فُلَانٌ)**، أصل الكلمة: لا تَجعل فيها فلاناً؛ لأنَّه مفعولٌ ثاني لجَعل، لكن هكذا كَتبها المصنِّف رحمه الله.

مثل قول: لولا اللَّه وفلان؛ لم أَدخل الجامعة، ولولا اللَّه وفلان؛ لم يُشف مريضي، ولولا اللَّه وفلان؛ لم يقع الحادث.

فهذه كلُّها من ألفاظ الشرك الأصغر.

وإذا كان في القلب تعلُّقٌ بأنَّ المراد: مساواة المخلوق برب العالمين؛ فهو شركٌ أكبر.

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الأذان، باب الذكر بعد الصلاة، رقم (٨٤٤)، ومسلمٌ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذِّكر بعد الصلاة وبيان صفته، رقم (٥٩٣).

فالأفعال تُنسب إلى اللَّه تعالى في الفضْل؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾ [آل عمران:٧٣]، وقال: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

وإنَّما الصواب أن يقال مثلاً: لولا اللَّه ثُم الطبيب، فالطبيب ليس بيده شيءٌ؛ سوى ما أَقدره اللَّه عليه من أقدارٍ، والأمر كلُّه بيد اللَّه.

ثُم ذَكر أن ما تَقدَّم: (هَذَا كُلُّهُ بِهِ شِرْكٌ» رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ) يعني: روى ذلك ابن أبي حاتم.

ثُم بعد ذلك بيَّن أنَّ الحلِف بغير اللَّه من الألفاظ المنهيِّ عنها، ولو لم يَقصد الشخص، فلو قال شخصٌ - مثلاً -: والنِّعمة التي بيدي، أو وشرفِ أبي، أو والنبي ونحو ذلك، حتى لو لم يَقصد؛ بل إنَّ النطق بذلك الحلِف ولو لم يَقصد أعْظم مِن لو كان يَقصد.

والسبب في ذلك: أنَّ تعظيمه للعبد المخلوق الضعيف؛ جَعله يَذكره من غير قصد، والأصل أن اللَّه عز وجل هو الذي يُذكر دائماً.

قال: (وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ؛ فَقَدْ كَفَرَ، أَوْ أَشْرَكَ») الصواب أنَّه عن ابن عمر رضي الله عنهما.

ساق المصنِّف رحمه الله هذا الحديث؛ ليبيِّن أنَّ الحلِف بغير اللَّه شركٌ.

فلو سمعتَ شخصاً يقول: والنبي كذا، فقلت له: لا يجوز، فقال: ما الدليل؟

تقول: (**مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ؛ فَقَدْ كَفَرَ، أَوْ أَشْرَكَ**).

في لفظٍ: (**فَقَدْ كَفَرَ**)، وفي لفظٍ: (**فَقَدْ أَشْرَكَ**)، والحلِف بغير اللَّه؛ من ألفاظ الشرك الأصغر.

فإنْ قال لك شخصٌ: أنا اعتدتُ على هذه الكلمة من الصغر، ولا أقصد أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم له شيءٌ من الأمر، وإنَّه قد مات.

تقول: حتى ولو لم تَعتقد ذلك؛ فهي من ألفاظ الشرك الأصغر، فاللَّه قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾ [البقرة: ١٠٤]، وإنْ كان المعنى في الظاهر واحداً، ولكن لتهذيب وتصحيح الألفاظ، وإعطاء المعاني حقائقها؛ فلا يجوز، حتى ولو لم تَعتقد ذلك.

وهذا الحديث لم يُبيِّن أنَّ المنهيَّ عنه هو القصْد، فكلُّ حلِفٍ ولو لم يكن فيه قصْدٌ؛ فهو شركٌ - والعياذ باللَّه -، ويُستبدل ذلك عند الحاجة بالحلِف باللَّه وحْده.

قال: (رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ، وَصَحَّحَهُ الحَاكِمُ).

قال رحمه الله: (وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: لَأَنْ أَحْلِفَ بِاللَّهِ كَاذِباً، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ بِغَيْرِهِ صَادِقاً) ساق المصنِّف رحمه الله هذا الحديث في الباب؛ لبيان خطورة الألفاظ الشركيَّة الخفيَّة.

والمراد بالشرك الخفي: اللفظ الذي يَخفى على بعض الناس؛ لقلَّة مَن يَتفطَّن إليه، أو لقلَّة من يَعلم أنَّه محرَّمٌ.

فإذا كانت الألفاظ الشركية التي تَخفى على بعض الناس أشد من المعاصي؛ بل هي مِن أكبر الكبائر؛ دلَّ على خطورة تلك الألفاظ، ومن ذلك: الحلِف بغير اللَّه؛ كالحلِف بالنِّعمة، أو بالأمانة، أو بالكعبة، أو بالنبي، أو بالأولياء ونحو ذلك؛ فهذا شركٌ أصغر.

اللفظ الأول قال: (لَأَنْ أَحْلِفَ بِاللَّهِ كَاذِباً) هذا توحيدٌ؛ لكن طَرأ عليه معصية الكذب.

واللفظ الثاني: (أَحْلِفَ بِغَيْرِهِ صَادِقاً) وهذا شركٌ؛ لكنَّه جُعِل معه طاعة.

فسيئة التوحيد أخفُّ مِن حسنة الشرك، فكأنه يقول: إنَّ الشرك الأصغر أعظم من الكبائر.

فالحلِف بغير اللَّه أعْظم من شرْب الخمر، والحلِف بغير اللَّه أعظم من السرقة، وأعظم من قطع الطريق، فتلك المعاصي مفسِّقةٌ.

ثُم بعد ذلك قال: (وَعَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «لَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ فُلَانٌ، وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ») وهذا أيضاً؛ لبيان لفظ من الألفاظ الشركيَّة التي قد تَخفى على كثيرٍ من الناس، وهو مساواة مشيئة المخلوق بمشيئة الخالق.

فاللَّه عز وجل مشيئته نافذةٌ لا تساوي مشيئة المخلوقين، فلا يجوز مساواتها بمشيئة المخلوق.

فلا يجوز أنْ تُجعَل مشيئة العبد كمشيئة اللَّه، فللعبد مشيئةٌ تليق به، وللَّه عز وجل مشيئةٌ نافذةٌ تليق بجلاله وعظمته، فالعبد عنده مشيئةٌ؛ لكنها لا تقع كما يريد العبد، وإنَّما ما شاءه اللَّه هو الذي يقع، وإنْ لم يَشأْه العبد.

فلو أنَّ شخصاً يريد أنْ يتزوَّج بامرأةٍ اسمها فاطمة، فهو يريدها، لكن شاء اللَّه أنَّه لا يَأخذ فاطمة، ويَأخذ زينب، فالعبد شاء هذا، لكن مشيئة اللَّه أقوى وأقهر من مشيئة العبد.

ولو أراد شخصٌ أنْ يَتزوج امرأةً اسمها عائشة؛ فتَزَوَّجها بمشيئة اللَّه، فاللَّه شاء ذلك، وغيره يَتمنَّى أنْ يتزوَّج فاطمة، ويبذل الأسباب، ويسعى إليها؛ بل قد تكون قريبةً له، وجارةً له، ثُم يأتي شخصٌ بعيدٌ ويَتزوجها، فاللَّه شاء لذلك البعيد أن يَتزوجها، والقريب ما شاء له؛ قال سبحانه: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠].

لهذا إنْ قيل لك: العبد مخيَّرٌ أم مسيَّرٌ.

تقول: مسيَّرٌ ومخيَّرٌ، فمخيَّرٌ؛ لأنَّ للَّه مشيئةٌ تليق بجلاله، ومسيَّرٌ؛ لأنَّه تحت مشيئة اللَّه، فليس مُسيَّراً على إطلاقه، وليس مخيَّراً على إطلاقه، ولكن على التفصيل السابق.

ثُم بعد ذلك ذَكر أنَّ التشريك في الاستعاذة مِن الألفاظ الخفيَّة، فقال:

(وَعَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ: «أَنَّهُ يَكْرَهُ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ وَبِكَ) إبراهيم النخعيُّ من التابعين(١).

---

(١) هو: أبو عمران إبراهيم ابن يزيد ابن قيس ابن الأسود النخعي، الكوفي، وتوفي سنة (٩٦هـ). سير أعلام النبلاء للذهبي (٤/ ٥٢٠)، تقريب التهذيب لابن حجرٍ (١/ ٩٥).

والمراد عند السلف بـ (يَكْرَهُ)؛ أي: كراهة التحريم؛ كما قال سبحانه: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً﴾ [الإسراء: ٣٨].

ومِثل الاستعاذة لو قال شخصٌ: أنا أتوكَّل على اللَّه وعليك، وهكذا.

فالمعنى: لا يجوز أنْ يُجعَل غير اللَّه في الاستعاذة كرَبِّ العالمين، فاللَّه هو الذي يعيذك، والبشر لا قدرة لهم على إعاذتك؛ إلا فيما يقدرون عليه.

مثلاً: إن كان أمام شخصٍ رجُلٌ يَحمل سلاحاً، فقال لآخر غير مسلَّحٍ: أعذْني من هذا الرجُل، فلا يستطيع؛ لأنَّه لا قُدرة له.

ومِثل: لو أنَّ شخصاً آذاه طفلٌ، وعنده والده، فقال لوالده: أعذْني من أذى طفْلك، فالأب له قدرةٌ على الطفل؛ فهذه لا محذور فيها.

ولا يُقال: أعوذ باللَّه وبك مِن شرِّ الشيطان، وإنَّما يقال: أعوذ باللَّه من الشيطان الرجيم؛ قال تعالى: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، فتستعيذ باللَّه وحْده.

ويجوز أنْ يُستعاذ بالمخلوق فيما يقدر عليه، ويُعلم أنَّه سببٌ.

أمَّا أن يقول: أعوذ باللَّه وبك أن تَدفع عني شرَّك؛ فهذا لا يجوز، وإنَّما يقال: أعوذ باللَّه وحْده أنْ يَدفع عني شرَّك، أو أعوذ بالله ثم بك، فلا يُشرَّك المخلوق بالخالق في اللفظ.

فالمحذور في حرْف (الواو)؛ لأنَّه يفيد المساواة، والتشريك.

قال: **(وَيُجَوِّزُ أَنْ يَقُولَ: بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ)** فإذا أتى بـ(ثُمَّ) -التي تفيد الترتيب والتراخي -؛ فيجوز، مِثل: أتى زيدٌ ثُم أتى خالدٌ، وأتى شهْر رمضان ثُم أتى شهْر الحج، فليس معناه أنَّهما متقارنان؛ بل بينهما فترةٌ زمنيةٌ طويلةٌ.

ويقول: أكلتُ الخبز والإدام، فالخبز والإدام متساويان في الأكل، فَـ(الواو) تفيد التشريك.

فقول إبراهيم النخعي رحمه الله موافقاً للنصوص.

ولو أتى بالفاء، مثل: أعوذ باللَّه فبك؛ لا يجوز أيضاً؛ لأنها لا تدلُّ على التراخي وإنَّما التعقيب.

قال: **(وَيَقُولُ: لَوْلَا اللَّهُ ثُمَّ فُلَانٌ، وَلَا تَقُولُوا: لَوْلَا اللَّهُ وَفُلَانٌ)** مثل: لولا زيدٌ؛ لم أَدخل الجامعة، لولا المدرس شرح لنا؛ لم أَنجح، وهكذا؛ فهذه من الألفاظ الخفية، وهي من ألفاظ الشرك.

فيجب على المسلِم أن يَحذرها، وأن يَنسب كلَّ شيءٍ للَّه، فاللَّه عز وجل يقول: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

فقوله: **(وَيَقُولُ: لَولَا اللَّهُ ثُمَّ فُلَانٌ، وَلَا تَقُولُوا: لَوْلَا اللَّهُ وَفُلَانٌ)** يعني: ألَّا يُشرَّك المخلوق بأفعال اللَّه عز وجل.

وهذا فيه من التعظيم لرب العالمين، فهو الخالق والمدبِّر لهذا الكون، وحُقّ على العبد أنْ يُفرد اللَّه عز وجل بجميع أفعاله، وأن لا يَجعل للمخلوق منها شيئاً، ولا يَمنع من ذلك شُكر البشر؛ كما قال صلى الله عليه وسلم: «لَا يَشْكُرُ اللَّهَ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ»(١).

فتبيَّن ممَّا سَبق: أنَّ أدلَّة الشرك الأكبر يَصحُّ الاستدلال بها في الشرك الأصغر، والدليل: استدلال ابن عباسٍ رضي الله عنهما على ألفاظٍ مِن الشرك الأصغر بدليلٍ من الشرك الأكبر.

وتبيَّن: أنَّه تأدُّباً مع جَناب الربوبية؛ لا يُجعَل في أفعال اللَّه من البشر معه أحد، فلو أنَّ عندك سائقاً تعطيه مُرتَّباً، ثم يقول لك: جزاك اللَّه خيراً، لولا جارنا لمَا أعطيتني المبلغ؛ فهذا تنقُّصٌ في حقِّك، لكن لو قال: جزاك

---

(١) سبق تخريجه (ص) عند قوله (ولا يمنع شُكر مَن كان سبباً فيها، لقول).

اللَّه خيراً، بفضل اللَّه ثُم بفضلك أعطيتني الراتب، وأشكرك على تعاملك؛ فهذا شُكرٌ في حقك.

وتبيَّن: أنَّ على المرء أنْ يَحفظ لسانه، ولو لم يكن قلْبه يَقصد شيئاً من المخالفة في أنواع الشرك، ويَتخيَّر اللفظ.

والمُخلِّص من ذلك: كثرة الدعاء، فيدعو: اللَّهم اجْعلني من عبادك المخلصين، اللَّهمَّ إنِّي أَسألك تحقيق التوحيد، اللَّهمَّ أحيني مسلماً وأمتني مسلِماً وألحقني بالصالحين.

فيدعو الإنسان ربَّه كثيراً بحُسن المعتقَد، وقوَّته، ونقائه، وبُعده عن الشبهات، والشهوات ونحو ذلك.

***

[٤٣]

بَابُ
مَا جَاءَ فِيمَنْ لَمْ يَقْنَعْ بِالحَلِفِ بِاللَّهِ

عَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، مَنْ حَلَفَ بِاللَّهِ فَلْيَصْدُقْ، وَمَنْ حُلِفَ لَهُ بِاللَّهِ فَلْيَرْضَ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ» رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ بِسَنَدٍ حَسَنٍ.

الشرح:

قال رحمه الله: (بَابُ مَا جَاءَ فِيمَنْ لَمْ يَقْنَعْ بِالحَلِفِ بِاللَّهِ) أيْ: في الوعيد الشديد فيمَن حُلِف له باللَّه؛ فلم يقنع به سبحانه؛ لأنَّ مِن واجب تعظيمك للَّه؛ تعظيم الحلِف به سبحانه، ولأنَّ اللَّه عظيمٌ؛ فواجب عليك أنْ تُصدِّق ما حُلِف عليه باللَّه.

فإذا حَلف رجُلٌ باللَّه، فتعظيماً للَّه؛ نصدِّقه، حتى ولو كنَّا نَعلم في الباطن أنَّه يَكذب، لكن من إجلالنا للَّه نُصدِّقه على كلامه، في صحيح البخاريِّ(١): «رَأَى عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَجُلاً يَسْرِقُ، فَقَالَ لَهُ: أَسَرَقْتَ؟

(١) كتاب أحاديث الأنبياء، بَاب قَول اللَّه: ﴿وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ

قَالَ: كَلَّا وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

فَقَالَ عِيسَى: آمَنْتُ بِاللَّهِ، وَكَذَّبْتُ عَيْنِي»، فإجلالاً للَّه صدَّق ذلك السارق حتى مع أنَّه رآه؛ لأنه حلف باللَّه، فكذَّب عيسى عليه السلام بَصره، وآمن باللَّه؛ لأنَّ الرجل حَلف باللَّه.

فمِن تعظيم الربِّ في القلب؛ أنْ تُصدِّق ما حُلِف عليه باللَّه سبحانه.

لذا قال المصنَّف: (عَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ) لأنه شركٌ، وهذا ليس خاصّاً بالحلِف بالآباء، ففي الحديث الآخَر: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ - أَوْ أَشْرَكَ -»[(١)] سواء حلَف بالآباء، أو غير الآباء، كالأمانة، والكعبة، والنبيِّ ونحو ذلك.

وسواء كان قاصداً، أو غير قاصدٍ، مِثل لو قال شخصٌ: وحياة أبيك، أو: وشرفك؛ فهذه من الألفاظ الشركيَّة.

مِنْ أَهْلِهَا﴾ [مريم: ١٦]، رقم (٣٤٤٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) رواه أحمد في المسند، رقم (٥٣٧٥)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، واللفظ للترمذي، أَبْوَابُ النُّذُورِ وَالأَيْمَانِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي كَرَاهِيَةِ الحَلِفِ بِغَيْرِ اللَّهِ، رقم (١٥٣٥).

ثُم قال: (مَنْ حَلَفَ بِاللَّهِ فَلْيَصْدُقْ) وهذا أمرٌ عظيم، بأن يَصدق في حلِفه تعظيماً للَّه، ولو كَذب؛ فهذه اليمين الغموس التي تَغمس صاحبها في النار؛ لأنَّه لم يُعظِّم اللَّه في ذلك الكلام لمَّا حَلف به كاذباً.

والحلِف باللَّه يَنقسم إلى أقسام:

القِسم الأوَّل: أنْ يَحلف الرجُل صادقاً في أمور الدين؛ فهذا لا بأس به، والنبي صلى الله عليه وسلم حَلف في أمور الدين.

القِسم الثاني: أنْ يَحلف الرجل باللَّه، وهو كاذبٌ؛ وهذا – والعياذ باللَّه – عليه وعيد اليمين الغموس.

واليمين الغموس: أنْ تَحلف على أمرٍ ماضٍ، متعمِّداً ذاكراً لذلك، وسُمِّيت بذلك؛ لأنَّها تَغمس صاحبها في النار.

مثل: لو كلمتَ زيداً، فسألك شخصٌ، هل كلمتَ زيداً؟ وأنت متذكِّرٌ أنَّك كلمتَه، ثُم تَحلف وتقول: واللَّه ما كلمتُ زيداً؛ فهذه – والعياذ باللَّه – اليمين الغموس.

أمَّا اليمين على أمرٍ مقدَّمٍ، فتسمى يميناً مكفَّرةً، كأن يقول شخص: واللَّه لا أذهب للمدرسة غداً، فرأى أنْ يَذهب؛ فإنه يكفِّر كفارة يمينٍ،

وهو مخيَّر بين أنْ يخرجها قبل أنْ يَحنث في يمينه، وله أنْ يَحنث في يمينه ثُم بعد ذلك يُكفِّرها.

القِسم الثالث: أنْ يَحلف الشخص باللَّه، ولو صادقاً، في أمور الدنيا؛ فهذا منهيٌّ عنه؛ قال سبحانه: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩]، حتى ولو كان صادقاً في يمينه، كقوله: واللَّه ما فعلتُ، واللَّه سافرتُ، وهكذا، ففي أمور الدنيا لا يَحلف.

فمِن باب تعظيم اللَّه عز وجل؛ لا يُجعل لفْظ اللَّه سبحانه على لسان المرء، يَحلف به في كلِّ أمرٍ؛ فهذا مِن هضْم جَناب الربوبية.

القِسم الرابع: أنْ يَحلف الرجُل بغير اللَّه، وهذه يمينٌ غير مكَفَّرةٍ، ونهى عنها النبي صلى الله عليه وسلم(١)؛ بل هي نوعٌ من أنواع الشرك - والعياذ باللَّه -.

(١) لحديث: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ؛ فَقَدْ كَفَرَ، أَوْ أَشْرَكَ». رواه أحمد في المسند، رقم (٥٣٧٥)، من حديث ابن عمر رضي اللَّه عنهما.

وواجبٌ على مَن حَلف باللَّه أنْ يَصدُق في يمينه، ولا يَكذِب؛ لأنَّه لو كذِب فهو متوعَّدٌ بوعيد اليمين الغموس؛ لذلك قال صلى الله عليه وسلم: («مَنْ حَلَفَ بِاللَّهِ فَلْيَصْدُقْ»).

قال: (وَمَنْ حُلِفَ لَهُ بِاللَّهِ فَلْيَرْضَ) يعني: لو حَلف لك شخصٌ باللَّه عن شيءٍ كنتَ تعلم كذِبه فيه؛ فإنك تصدِّقه في الظاهر؛ إيماناً باللَّه؛ لأنه حلف به سبحانه، وهذا من تعظيم اللَّه في قلبك، وأنت مأجورٌ عليه، ولا تجاريه في كلامه؛ بمعنى: أنْ تَتحقَّق مِن كذبِه ونحو ذلك.

وبعض أهل العِلم[1] يَحمل هذه اليمين على اليمين التي عند القاضي: «البَيِّنَةَ عَلَى الْمُدَّعِي وَالْيَمِينَ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ»[2].

(وَمَنْ لَمْ يَرْضَ) وهذا هو الشاهد؛ (فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ).

---

(١) كالشيخ عبد الرحمن بن حسن، والشيخ محمد بن إبراهيم. فتح المجيد (١/ ٤١٨)، شرح كتاب التوحيد (ص٦٨٣).

(٢) رواه البيهقي في الكبرى، كتاب الدعوى والبينات، باب: البينة على المدعي واليمين على المدعى عليه، رقم (٢١٢٠١)، من حديث ابن عباسٍ رضي اللَّه عنهما.

هذا وعيدٌ بأن مَن لم يرضَ بالحالِف الذي أمامه؛ فليس من اللَّه، ومِثل هذه اللَّفظة تُترك على ظاهرها؛ لتكون أبلغ في الزجْر والردع؛ أَولى مِن أن تُفسَّر: بأنَّه ليس على نهْج اللَّه، وما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، أو ليس في زمْرة المسْلِمين ونحو ذلك؛ وإنَّما تَبقى على ظاهرها أبْلغ.

وهذا الحلِف سواء كان في مجْلس التقاضي: فإذا حَلف الخصْم؛ فعلى خصْمه الآخر أن يَرضى بتلك اليمين، ومن لم يرضَ؛ فليس من اللَّه، أو في غير التقاضي، مثل: لو أنَّ شخصاً قال: واللَّه ما ذهبتُ لزيدٍ، فتقول: آمنتُ باللَّه، فتصدِّقه على ذلك حتى لو كنتَ تَعلم كذب ذلك في الباطن.

والواجب أن يكون الشخص صادقاً في أقواله، وفي أفعاله، واللَّه عز وجل يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، وأصل النفاق هو الكذب، فما أَردى المنافقين فيما أرداهم فيه؛ إلا بسبب عدم صدْقهم في الإيمان.

واللَّه عز وجل أمَر نبيَّه حين يَدخل المدينة بأنْ يقول: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً﴾ [الإسراء: ٨٠].

واللَّه عز وجل أَثنى على الصادقين بقوله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ إلى أنْ قال: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وبيَّن النبي صلى الله عليه وسلم أنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفُجُورِ – والعياذ باللَّه –، وَالفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ(١)؛ فالكذب يدلُّك إلى النار، والصدق بإذن اللَّه يدلُّك إلى جَنَّات النعيم؛ ولهذا مِن أخصِّ صفات المرسلين: عدم الكذب، ولو كان في الكذب خيراً؛ لأمَر اللَّه به الرسل، وحاشاهم ذلك؛ لكن لأنَّه خصلةٌ ذميمةٌ، تُنقِص مِن عقْل وصفات الرجولة، فنُزِّه الرسل عليهم السلام عن أنْ يُخبِروا بغير حقٍّ.

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب قول اللَّه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، وما يُنهى عن الكذب، رقم (٦٠٩٤)، ومسلمٌ، كتاب البرِّ والصلة والآداب، باب قبْح الكذب وحُسن الصدق وفضْله، رقم (٢٦٠٧)، من حديث عبد اللَّه ابن مسعودٍ رضي الله عنه.

وسمِّي الصِّدِّيق صِدِّيقاً؛ لصدْقه، ولا يَبلغ الرجُل مرتبة الإحسان وهو كذَّابٌ، فلا يَصلها إلا الصادق، فيجب على الشخص أنْ يكون دائماً ذا صدْقٍ، ولا يَجعل للكذب عليه طريقاً.

وإنْ كان الصدق شاقّاً على النفس؛ فيجب على العبد أنْ يَستحضر نيَّة العبادة في جميع أحواله، فلا يَكذب في حديثٍ، ولا يَكذب في فعلٍ؛ بل يكون صادقاً أميناً فيما يقول، وأميناً فيما يَفعل، ومَن كان كذلك؛ فهو مرجوٌّ بدخول الجنَّات؛ قال تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

فتبيَّن ممَّا سَبق: أنَّ مَن حُلِف له باللَّه فلم يرضَ؛ فذلك هضمٌ لجَناب الربوبية؛ لذلك بوَّب المصنِّف عليه: (**بَابُ مَا جَاءَ فِيمَنْ لَمْ يَقْنَعْ بِالحَلِفِ بِاللَّهِ**).

فمن مقتضى إيمانك باللَّه أن تصدقه ولو كان كاذباً؛ لأنه حلف بمعظَّم، ولمَّا حَلف بمعظَّمٍ عندك؛ وَجب عليك أنْ تصدِّقه في ذلك الأمر، ولا أعظم من اللَّه عز وجل.

قال: (رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ بِسَنَدٍ حَسَنٍ).

***

[٤٤]

بَابُ
قَوْلِ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ

عَنْ قُتَيْلَةَ رضي الله عنها: «أَنَّ يَهُودِيّاً أَتَى النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم، فَقَالَ: إِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ؛ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ، وَتَقُولُونَ: وَالكَعْبَةِ. فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا: وَرَبِّ الكَعْبَةِ، وَأَنْ يَقُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شِئْتَ» رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَصَحَّحَهُ.

وَلَهُ أيضاً: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «أَنَّ رَجُلاً قَالَ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ، فَقَالَ: أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ نِدّاً؟ !قُلْ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ».

وَلِابْنِ مَاجَهْ: عَنِ الطُّفَيْلِ رضي الله عنه - أَخِي عَائِشَةَ رضي الله عنها لِأُمِّهَا - قَالَ: «رَأَيْتُ كَأَنِّي أَتَيْتُ عَلَى نَفَرٍ مِنَ اليَهُودِ، فقُلْتُ: إِنَّكُمْ أَنْتُمُ القَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ.

قَالُوا: وَأَنْتُمُ القَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ.

ثُمَّ مَرَرْتُ بِنَفَرٍ مِنَ النَّصَارَى، فَقُلْتُ: إِنَّكُمْ أَنْتُمُ القَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: المَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ.

قَالُوا: وَأَنْتُمُ القَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ.

فَلَمَّا أَصْبَحْتُ؛ أَخْبَرْتُ بِهَا مَنْ أَخْبَرْتُ، ثُمَّ أَتَيْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم، فَأَخْبَرْتُهُ؛ فَقَالَ: «هَلْ أَخْبَرْتَ بِهَا أَحداً؟ قُلْتُ: نَعَمْ.

قَالَ: فَحَمِدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ طُفَيْلاً رَأَى رُؤْيَا أَخْبَرَ بِهَا مَنْ أَخْبَرَ مِنْكُمْ، وَإِنَّكُمْ قُلْتُمْ كَلِمَةً كَانَ يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا أَنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْهَا؛ فَلَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ».

الشرح:

قال رحمه الله: (بَابُ قَوْلِ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ) أي: بيان حُكم قول: ما شاء اللَّه وشئت، وأنَّه نوعٌ من أنواع الشرك الأصغر؛ لأنَّ فيه تشريك مشيئة العبد بمشيئة اللَّه، واللَّه عز وجل جَعل مشيئة العبد تحت مشيئته؛ فهو الخالق؛ قال سبحانه: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠].

ولِلَّه سبحانه مشيئةٌ، وللعبد مشيئةٌ؛ ولكنَّ مشيئة اللَّه قاهرةٌ على مشيئة العبد، فما شاء اللَّه كان؛ وإنْ لم يَشأْه العبد، وما لم يشأْه اللَّه لم يكن، وإنْ شاءه العبد.

فلا يقع في هذا الكون شيءٌ؛ إلا بإرادة اللَّه ومشيئته، حتى وإنْ أراد ذلك جميع البشر: قويُّهم، وغنيُّهم، وعظيمهم، لكن لم يشأْه اللَّه؛ لم يكن؛ قال سبحانه: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤].

فالمقاتلون والمجاهدون بشجاعتهم وبَسَالتهم؛ أرادوا النَّصْر، لكن لم يُرِد اللَّه لهم ذلك، فلا يحدث أمرٌ شاءه العبد؛ إلا إذا شاءه اللَّه وقدَّره؛ لهذا قال سبحانه: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠].

فللعبد مشيئةٌ تليق بحاله، ولِلَّه عز وجل مشيئةٌ تليق بجلاله وعظمته؛ فلا يجوز أنْ يقال: ما شاء اللَّه وشئت؛ لأن معناها: أنت ورب العالمين أردتما شفاء المريض؛ فشُفي، وأنت ورب العالمين شئتما أن ينتصر المسْلِم على الكافر؛ وحصل هذا.

فهذا شركٌ عظيمٌ، وتنقُّصٌ لجناب الربوبية، حيث جَعل مشيئة المخلوق وإرادته مساويةً لِلَّه، واللَّه عز وجل صفاته وأفعاله لا تُساوَى

بالمخلوقين، ولا يُساوَى اللَّه بخلْقه، وإنَّما مشيئة العبد قاصرةٌ، ولا يكون في الكون إلا ما شاءه اللَّه عز وجل وقدَّره؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩].

وكم مِن أمرٍ أراده النبي صلى الله عليه وسلم وما حَدث، فشاء وأراد هداية عمِّه أبي طالبٍ، واللَّه عز وجل ما أراد ذلك، وكذلك سَعى لأنْ يُهدَى قومه، فما هُدُوا إلا مَن هداه اللَّه.

وبذَل النبي صلى الله عليه وسلم سبباً لهلاك سُهيلٍ ومَن معه، فدعا عليهم في صلاته بعد الرفع من الركوع، ومع ذلك ما استجاب اللَّه له، وقال: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨] (١)، وقال: ﴿قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب المغازي، باب ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، رقم (٤٠٦٩)، ومسلمٌ، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة أحدٍ، رقم (١٧٩١)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

فاللَّه جعل للبشر إرادةً ومشيئةً؛ لكنها تحت إرادة اللَّه ومشيئته، فمثلاً: أنت تريد الزواج مِن فلانة، لكن اللَّه لا يريد أنْ تتزوَّجها؛ فلن تتزوَّجها حتى وإن بَذلتَ جميع الأسباب مِن مالٍ وثناءٍ وشفاعاتٍ ونحو ذلك، فإن لم يرد اللَّه وقوع ذلك الأمر؛ لم يقع، وكذلك قد تَتزوج فلانة، وأنت لا تريدها، لكنَّ اللَّه شاء ذلك، وقدَّره.

والمصنِّف رحمه الله ذَكر ثلاثة نصوصٍ في هذا الباب:

النَّصُّ الأوَّل: حديث قُتَيْلة؛ لبيان أنَّ هذا اللَّفظ من أنواع الشرك، (**إِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ؛ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ**).

النَّصُّ الثاني: لبيان السبب في أنَّه شركٌ، وهو (**أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ نِدّاً؟!**).

النَّصُّ الثالث: ساقه رحمه الله؛ لبيان اللَّفظ الأَوْلى والأَكمل في ذلك وهو: (**مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ**).

فالنَّصُّ الأوَّل قال رحمه الله: **(عَنْ قُتَيْلَةَ رضي الله عنها)** وهي صحابيةٌ جليلةٌ قيل: أنَّها من جُهَيْنَة، وقيل: أنَّها أنصارية[١].

(١) هي: قتيلة بنت صيفي الجهنية، ويقال: الأنصارية. وكانت من المهاجرات الأُول. أسد الغابة لابن الأثير (٦/ ٢٣٩)، الإصابة لابن حجر (٨/ ٢٨٤).

(أَنَّ يَهُودِيّاً أَتَى النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم، فَقَالَ: إِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ؛ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ، وَتَقُولُونَ: وَالكَعْبَةِ) فيه دليلٌ على أنَّ اليهود أصحاب عِلمٍ؛ فهم يَعرفون حتى الشرك الأصغر، فهذا أمرٌ قد خَفي على بعض الصحابة، فأتى اليهودي إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وبَيَّن له ما يقع فيه بعض الصحابة.

واليهود ذَكر اللَّه عنهم أنَّهم أصحاب عِلمٍ، فقال: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ العِلْمُ﴾ [يونس: ٩٣]، وفي الآية الأخرى: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ العِلْمُ﴾ [الجاثية: ١٧].

فهم أصحاب عِلمٍ، ولكنهم ليسوا أصحاب عملٍ، والنَّصارى ضدُّ ذلك: أصحاب عملٍ، لكنهم ليسوا أصحاب عِلمٍ، فالصِّنف الأوَّل علماء، لكن لا يَعملون؛ لذلك كان عقاب اليهود أشد من عقاب النَّصارى؛ فوصَف اللَّه اليهود بالعقوبة: المغضوب عليهم، فعقوبتهم: الغضب: ﴿غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، ووصَف النَّصارى بالحال: بأنَّهم ضالُّون، وهم أصحاب ضَلالٍ: يَعملون؛ لكن عن جهلٍ.

فقوله: (إِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ) دلَّ على خَفاء الشرك، حيث خَفي على بعض الصحابة مع امتداد الرسالة.

فهذا اليهودي قال تلك الكلمة وهم في المدينة، والرسالة انطَلقت من مكة منذ زمنٍ طويل؛ ومع ذلك خَفي الأمر على بعض الصحابة.

ودلَّ أيضاً على أنَّ قول ما شاء اللَّه وشئت؛ شركٌ؛ لأنَّ النبي صلى الله عليه وسلم أَقرَّه على ما قال.

ودلَّ أيضاً على أنَّ اليهود يَعلمون أنَّ للَّه مشيئةٌ، وأنَّ للخلْق مشيئةٌ، ويُنكِرون أنْ تكون مشيئة المخلوق مساويةً لمشيئة اللَّه؛ فدلَّ على أنَّ الفطرة معظِّمةٌ للباري، مع ما أوتوه من عِلمٍ يبيِّن ذلك.

ويدلُّ على أنَّ اليهود يَعرفون الحقَّ؛ لذلك قال سبحانه عنهم: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]؛ أي: يَعرفون الحق كمعرفتهم بأبنائهم.

ويدلُّ أيضاً على أنَّ العِلم لا يكفي في الدخول في الإيمان؛ بل لا بد مِن سلامة المعتقد وعملِ الجوارح.

ويدلُّ أيضاً على أنَّ الشرك الأصغر قد خَفي على بعض الصحابة، وعَلِمه غيرهم.

ويدلُّ أيضاً على أنَّ اليهود يَستمعون ويَنظرون إلى أحوال المسلمين.

ويدلُّ على أنَّ اليهود يَعلمون أنَّ دين الإسلام هو دينٌ كاملٌ؛ لذلك استنكر فيه هذه الكلمة.

ويدلُّ على عِلم اليهود بالتوحيد، وهذا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم؛ وما بعده فعِلمهم يَقل في ملَّتهم.

(تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ) فاستَنكر هذا اليهودي تشريك مشيئة النبي صلى الله عليه وسلم مع مشيئة اللَّه؛ يعني: أنَّ أيَّ مخلوقٍ لا يستطيع عملَ أيِّ عملٍ؛ إلا إذا شاءه الرسول صلى الله عليه وسلم مع مشيئة اللَّه؛ وهذا شركٌ – والعياذ باللَّه –.

ويدلُّ على أنَّ اليهود يَعلمون ألفاظ الشرك.

قال: (وَتَقُولُونَ: وَالكَعْبَةِ) فدلَّ على أنَّ اليهود يعلمون أن الحلِف بالمخلوق نوعٌ من أنواع الشرك، فعلى المسلمين أن يكونوا أنْبه في شريعتهم مِن معرفة اليهود بدين الإسلام.

فلو قال رجُلٌ: إنَّ الحلِف بالنبي، أو بالكعبة ليس بشركٍ.

نقول: اليهودي قال بأنَّ هذا شركٌ، ووَافقه النبي صلى الله عليه وسلم على أنَّه شرك.

فدلّ على أنَّه لا يجوز الحلِف بأيِّ مخلوقٍ وإنْ عَظُم.

فالكعبة عظيمةٌ، ويُحَجُّ إليها كلَّ عامٍ، ويُتوجَّه إليها فرضاً في كلِّ يومٍ خمس مراتٍ؛ ومع ذلك نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الحلِف بها.

قالت: (**فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا: وَرَبِّ الكَعْبَةِ**) لأنَّ الحلِف بالمخلوق لا يجوز؛ لضعْفه وعدم دوامه وبقائه.

ولا يُحلف إلا بالمعظَّم الدائم وهو اللَّه سبحانه وتعالى، فالكعبة تزول؛ فالحلِف بها ليس فيه تعظيماً للحلِف؛ لأنها تزول.

وكذلك الحلِف بالنبي صلى اللَّه عليه وسلم، فالحلِف به ليس فيه تعظيمٌ لليمين؛ لموت النبي صلى اللَّه عليه وسلم، وعدم دوامه.

(**وَأَنْ يَقُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شِئْتَ**) أي: يَجعلوا مشيئة العبد تقع؛ إذا أراد اللَّه عز وجل وقوعها؛ كما قال سبحانه: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠].

وإذا أردتَ أن تَعلم عجْز مشيئة العبد، وأن اللَّه عز وجل فوق مشيئته؛ فمثلاً قد يَرغب إنسانٌ في الدخول إلى مكانٍ للدراسة؛ فلا يَتحقَّق له ذلك مع أنَّه يشاء ذلك، وقد يريد أن يَتزوَّج فلانة، لكن لا يستطيع؛ لأن مشيئة اللَّه حالت دون ذلك فلم يشأ اللَّه وقوع ذلك.

فدلَّ على أنَّ مشيئة العبد تابعةٌ لمشيئة اللَّه لا مشاركةً لها.

فأرشدهم النبي صلى الله عليه وسلم للقول الصحيح - كما في الحديث الآتي -: (**مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ**) وهذه هي **المرتبة الأُولى**؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤].

والمرتبة الثانية أنْ يقول: ما شاء اللَّه ثُم شاء فلان؛ لأنَّ مشيئة اللَّه لا تساوي مشيئة المخلوق.

ولا يقال للنبي صلى الله عليه وسلم وهو ميت: (ما شاء اللَّه ثم شاء محمد)؛ بل يقال: (ما شاء اللَّه)، ثُم تُجعَل المشيئة للحيِّ القادر الذي فَعل ذلك الأمر.

فلا يجوز أنْ يقال بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم: (ما شاء اللَّه ثم شاء محمد)؛ لأنَّه مات عليه الصلاة والسلام؛ كما قال عز وجل:

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣٠-٣١].

قال: (رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَصَحَّحَهُ) في كتاب اليوم والليلة(١).

ثُم قال: (وَلَهُ أيضاً: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «أَنَّ رَجُلاً قَالَ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ) فاستَنكر النبي صلى الله عليه وسلم عليه هذه اللَّفظة، (فَقَالَ: أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ نِدّاً؟!).

فدلَّ على أنَّ مساواة المخلوق بالخالق في المشيئة من اتخاذ الأنداد؛ - أي: الشركاء -، وهذه هي العلَّة في التحريم؛ لأنَّك تَجعل المخلوق كالخالق -والعياذ باللَّه-.

(قُلْ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ») لأنَّ اللَّه سبحانه وتعالى هو مدبِّر الكون؛ كما قال سبحانه: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ [يونس: ٣]، وقال: ﴿أَلَا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فهو الذي يَخلق، وهو الذي يُدبِّر.

وهذا الحديث يدلُّ على أنَّ مشيئة اللَّه لا تُساوى بمشيئة المخلوق، فمشيئة اللَّه قاهرةٌ فوق مشيئة المخلوق، وأَنكر النبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) النَّهْي أَن يُقَال مَا شَاءَ اللَّه وَشاء فلَان، رقم (٩٨٦). (١/ ٥٤٥).

على الرجُل الذي ساوى مشيئة النبي صلى الله عليه وسلم بمشيئة اللَّه؛ فقال له: (**قُلْ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ**).

وهذه الدرجة الأَولى أنْ يُقال للشخص إذا أسدى إليك شيئاً: (**مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ**)، وهذا الأكمل والأفضل.

قال رحمه الله: (**وَلِابْنِ مَاجَهْ: عَنِ الطُّفَيْلِ رضي الله عنه - أَخِي عَائِشَةَ رضي الله عنها لِأُمِّهَا - قَالَ: «رَأَيْتُ كَأَنِّي أَتَيْتُ**) (**رَأَيْتُ**) أي: رؤيا في المنام؛ كما في مسند الإمام أحمد[1].

يدلُّ على أنَّ الرؤيا حقٌّ، وإذا أقرَّها النبي صلى الله عليه وسلم كانت أَثبَت في ذلك.

وتنقسم الرؤيا إلى ثلاثة أقسامٍ:

القِسم الأوَّل: الذي يُسمَّى أضغاث أحلام؛ يعني: يُحدِّث المرء نفْسه بأمرٍ، ثُم يراه في المنام، كأنْ يُحدِّث نفْسه بأنْ يشتري سيارةً، ثم ينام ويَرى أنه اشترى سيارة؛ فهذه أضغاث أحلامٍ؛ لا يُنظر إليها.

القِسم الثاني: الرؤى المفزعة المُخيفة؛ وهي من الشيطان.

---

(١) رقم (٢٣٣٣٩).

والوارد في ذلك: يَنقلبُ النَّائم عَن جنْبِهِ إِلَى الجَنْبِ الآخَرِ، ويَنفُثُ عَن يَسَارِهِ ثَلاَثاً، وَلَا يُحَدِّثْ بِهَا أَحَداً، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم قال: «فَإِنَّهَا لَا تَضُرُّهُ»[(١)]؛ إذا لم يُحدِّث بها أحداً.

القِسم الثالث: إذا رأى رؤيا ليست أضغاث أحلامٍ، وليست من الشيطان؛ بل رأى رؤيا؛ فهذه قال عنها النبي صلى الله عليه وسلم: «فَلْيُحَدِّثْ بِهَا مَنْ يُحِبُّ»[(٢)]؛ ولا بأس بتأويلها، وقد تكون مبشِّرةً، وقد تكون منذِرةً.

فلا إفراط في تأويل كلِّ رؤيا؛ فأضغاث الأحلام؛ لا يؤخذ بها، وإن كانت رؤيا حقٍّ؛ فإنه يُنتفع بها، وإن كانت من الشيطان؛ تُترك، فلا نردُّ الرؤى كلها، ولا نَأخذها كلها.

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب التعبير، باب إذا رأى ما يكره فلا يُخبر بها ولا يَذكرها، رقم (٧٠٤٤)، ومسلمٌ، كتاب الرؤيا، رقم (٢٢٦١)، من حديث أبي قتادة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاريُّ، كتاب التعبير، باب إذا رأى ما يكره فلا يُخبر بها ولا يَذكرها، رقم (٧٠٤٤)، ومسلمٌ، كتاب الرؤيا، رقم (٢٢٦١)، من حديث أبي قتادة رضي الله عنه.

وفي الأحكام والتشريع لا يؤخذ بالرؤى؛ إلا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم بإقرار النبي صلى الله عليه وسلم، مثل: رؤيا الأذان، ومثل: هذه الرؤيا.

أمَّا بعد عهد النبي صلى الله عليه وسلم لا يؤخذ بها، مِثل: أنْ يرى شخصٌ في المنام أنَّ شخصاً يقول له: لا تصلِّ العصر، وسَقطتْ عنك صلاة العصر؛ فهذه لا يؤخذ بها.

والرؤيا ليست مقصورةً على رؤى اللَّيل؛ بل لو رأى رؤيا في الفجر، أو بعد الظهر؛ لا بأس.

وممَّا يقوِّي صدق الرؤى: صدْق الرجل في الحديث في اليقظة، لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أَصْدَقُكُمْ رَؤْيَا أَصْدَقُكُمْ حَدِيثاً»(١).

وإذا قرُب الزمن من النهاية؛ تَصدق رؤيا المؤمن(٢).

---

(١) رواه مسلمٌ، كتاب الرؤيا، رقم (٢٢٦٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) يشير إلى حديثٍ رواه مسلمٌ، كتاب الرؤيا، رقم (٢٢٦٣)، من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه، ولفظه: «إِذَا اقْتَرَبَ الزَّمَانُ لَمْ تَكَدْ رُؤْيَا الْمُسْلِمِ تَكْذِبُ».

قال: (كَأَنِّي أَتَيْتُ عَلَى نَفَرٍ) النفر: جماعةٌ من الثلاثة إلى العشرة، (مِنَ الْيَهُودِ، فقُلْتُ: إِنَّكُمْ أَنْتُمُ القَوْمُ) أي: نِعم القوم، (لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ) عزيرٌ يَعتقد اليهود بأنَّه ابنٌ للَّه؛ لأنَّه حَفظ التوراة، والتوراة لم يكن يَحفظها أحدٌ، ففضَّل اللَّه عز وجل هذه الأمَّة بأن يَحفظ هذا القرآن الصبيان الصغار.

وقوله: (لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ)؛ دل على أنَّ المعصية تُنقِص قدْر الأقوام، وتُهينُهم، ففي هذا الحديث أنَّ الذي صغَّر مِن مكانتهم، وسَلب منهم المدح؛ هو الشرك باللَّه؛ قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ [المجادلة: ٢٠]، وقال سبحانه: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ العِزَّةَ فَلِلَّهِ العِزَّةُ جَمِيعاً﴾ [فاطر: ١٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا العِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الأعراف: ١٥٢].

(قَالُوا) أي: اليهود: (وَأَنْتُمُ القَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ) يعني: أنَّهم يشركون مشيئة النبي مع مشيئة اللَّه؛ أي: أنَّكم تقعون في الشرك الأصغر، فدلَّ على أنَّ اليهود في عصْر النبي صلى الله عليه وسلم عندهم علمٌ قد يَخفى على بعض الصحابة.

قال: (ثُمَّ مَرَرْتُ بِنَفَرٍ مِنَ النَّصَارَى، فَقُلْتُ: إِنَّكُمْ أَنْتُمُ القَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: المَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ) وكذلك النَّصارى اعتقدت في عيسى عليه السلام؛ لأنَّه خُلق من غير أبٍ، فقالوا: إنَّه ولدٌ للَّه؛ **وهذه طائفة من النَّصارى.**

وطائفةٌ أخرى قالوا: إنَّ عيسى هو الإله، فهو الذي يدبِّر الكون - والعياذ باللَّه -.

وطائفةٌ ثالثةٌ قالوا: إنَّ عيسى ابن اللَّه وأنَّ أمَّه زوجة للَّه - تعالى اللَّه عن ذلك -، ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]، واللَّه عز وجل قال عن هذه الطائفة: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، وهم الذين يقولون بالتَّثْلِيث: يعني: الرب، وعيسى، وأُمه.

فأَنكروا آيات اللَّه وقدرته عز وجل، فهو سبحانه يُخرج مَن شاء بلا أمٍّ، ويُخرج من شاء بلا أبٍ، ويُخرج مَن شاء بلا أمٍّ وأبٍ، ويُخرج مَن شاء بأمٍّ وأبٍ.

(قَالُوا) أي: النَّصارى، (وَأَنْتُمُ القَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ) فدلَّ أيضاً على أن النَّصارى يَعلمون الشرك.

ودلَّ على أنَّ هذه الكلمة من الشرك الأصغر؛ لأنَّ النبي صلى الله عليه وسلم لم يؤمر بأن ينهاهم عنها.

قال: (فَلَمَّا أَصْبَحْتُ) أي: استيقظت من المنام، ثُم طَلع الصبح، (أَخْبَرْتُ بِهَا مَنْ أَخْبَرْتُ) وهذه السُّنَّة: أنَّ الإنسان يُخبر بالرؤيا الصالحة مَن يحبُّ، (مَنْ أَخْبَرْتُ) أي: من الصحابة رضي اللَّه عنهم، وفي البخاري(١) أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا صَلَّى الصبح قال: «هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ رُؤْيَا»، ويُفسِّرها لهم؛ لأنَّ الرؤيا جزءٌ من الوحي، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يَستبشر بما يراه الصحابة.

لهذا مِن أعظم الكذب أنْ يُرِي الشخص نفْسه ما لم ترَ، حتى لو أراد أنْ يُفزِع شخصاً، ويبعده عن المعصية؛ فهو مِن أكبر الكبائر، أنْ يقول الشخص: رأيت كذا وكذا، وهو كاذبٌ؛ لأنَّه لا يَعلم صدْقه وكذِبه إلا رب العالمين؛ لذلك عَظُمَت العقوبة عليه.

---

(١) كتاب التعبير، باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح، رقم (٧٠٤٧)، من حديث سمرة بن جندبٍ رضي اللَّه عنه.

(ثُمَّ أَتَيْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم، فَأَخْبَرْتُهُ؛ فَقَالَ: «هَلْ أَخْبَرْتَ بِهَا أحَداً؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَحَمِدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ) فدلَّ على أن النبي صلى الله عليه وسلم يَستفتح خطبه بحمد اللَّه والثناء عليه.

فمثلاً لو قال: ﴿الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٢-٤]؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم: «فَإِذَا قَالَ العَبْدُ: ﴿الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي» (١) فهذه الكلمات الثلاث أعظم ثناءٍ وحمْدٍ وتمجيدٍ للَّه.

قال: (ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ طُفَيْلاً رَأَى رُؤيَا) وهذا يدلُّ على أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم كان يَهتمُّ برؤى الصحابة، وسَبق أنَّ في صحيح

---

(١) رواه مسلمٌ، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كلّ ركعةٍ، وإنه إذا لم يحسن الفاتحة، ولا أَمكنه تعلّمها قرأ ما تَيسّر له من غيرها، رقم (٣٩٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

البخاريِّ كان النبي صلى الله عليه وسلم كثيراً إذا صلَّى الصبح يقول: «هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ رُؤْيَا»(١).

والرؤى سَبق(٢) أَنَّها تَنقسم إلى ثلاثة أقسامٍ: رؤيا صالحةٌ، ورؤيا من الشيطان، ورؤيا أضغاث أحلامٍ.

والرؤى إذا كان فيها تشريعاً؛ يعني: زيادةً في الدين؛ فلا يُلتفت إليها إذا لم يُقرُّها النبي صلى الله عليه وسلم، سواء في حياته أو بعد مماته، وإذا أقرَّها النبي صلى الله عليه وسلم كالأذان(٣)، وكهذا الحديث؛ فهو نوعٌ من أنواع السُّنَّة، وهو الإقرار.

---

(١) سبق تخريجه (ص) عند قوله (قال: «هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ رُؤْيَا»، ويُفسِّرها لهم).

(٢) (ص) عند قوله (وتنقسم الرؤيا إلى ثلاثة أقسامٍ).

(٣) رواه أحمد في المسند، رقم (١٦٤٧٧)، من حديث عبد اللَّه بن زيدٍ رضي الله عنه، ولفظه: «لَمَّا أَجْمَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَضْرِبَ بِالنَّاقُوسِ يَجْمَعُ لِلصَّلَاةِ النَّاسَ، وَهُوَ لَهُ كَارِهٌ لِمُوَافَقَتِهِ النَّصَارَى، طَافَ بِي مِنَ اللَّيْلِ طَائِفٌ وَأَنَا نَائِمٌ، رَجُلٌ عَلَيْهِ ثَوْبَانِ أَخْضَرَانِ وَفِي يَدِهِ نَاقُوسٌ يَحْمِلُهُ، قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ أَتَبِيعُ النَّاقُوسَ، قَالَ: وَمَا تَصْنَعُ بِهِ؟ قُلْتُ: نَدْعُو بِهِ إِلَى الصَّلَاةِ، قَالَ: أَفَلَا

قال: (أَخْبَرَ بِهَا مَنْ أَخْبَرَ مِنْكُمْ، وَإِنَّكُمْ قُلْتُمْ كَلِمَةً كَانَ يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا)، وفي رواية: «كَانَ يَمْنَعُنِي الحَيَاءُ»[١]؛ أي: الحياء من اللَّه؛ لأنِّي لم أؤمر بتبليغ ذلك لكم.

(أَنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْهَا) أيْ: كان يمنعني أنْ أنهاكم عن ذلك - مع عِلمي بتحريم ذلك -؛ أنَّه لم يَنزل عليَّ وحيٌ في ذلك.

أَدُلُّكَ عَلَى خَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ؟ قَالَ: فَقُلْتُ: بَلَى، قَالَ: تَقُولُ اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ، أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ، حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ، حَيَّ عَلَى الفَلَاحِ، اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، قَالَ: ثُمَّ اسْتَأْخَرَ غَيْرَ بَعِيدٍ، قَالَ: ثُمَّ تَقُولُ: إِذَا أَقَمْتَ الصَّلَاةَ، اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ، حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ، قَدْ قَامَتِ الصَّلَاةُ، قَدْ قَامَتِ الصَّلَاةُ، اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، قَالَ: فَلَمَّا أَصْبَحْتُ أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا رَأَيْتُ قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ هَذِهِ لَرُؤْيَا حَقٌّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَمَرَ بِالتَّأْذِينِ».

(١) رواه أحمد في المسند، رقم (٢٠٦٩٤).

فحياءً من اللَّه عز وجل امتنع أنْ يقول النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً لأمَّته؛ لم يَأمره اللَّه به.

وهذا ممَّا يدلُّ على أنَّ هذه الكلمة من الشرك الأصغر، فلو كانت من الأكبر؛ لبلَّغها النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنَّه مأمورٌ بالإنذار عن الشرك.

(فَلَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ) فإذا كان تشريك مشيئة خيْر الخلْق مع الخالق مِن الشرك؛ فما الظنُّ بتشريك مشيئة غير النبي صلى الله عليه وسلم مع اللَّه سبحانه وتعالى.

(وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ) وهذا هو الشاهد على أنَّ الأكمل في ذكْر المشيئة أن تُنسب للَّه وحْده، ولو قال شخص: ما شاء اللَّه ثُم شاء زيدٌ؛ فيجوز، والشرك قول: ما شاء اللَّه وزيدٌ.

فتبيَّن ممَّا سبق: أنَّ من أنواع الشرك أنْ تُجعل مشيئة المخلوق مساويةً لمشيئة اللَّه سبحانه.

وكذلك من أنواع الشرك: الحلِف بغير اللَّه، كالكعبة.

وتبيَّن أنَّ أكْمل الألفاظ أنْ يقال: ما شاء اللَّه وحْده، ثُم لا بأس أنْ يقال: ما شاء اللَّه ثُم شاء فلان؛ ممَّن له مشيئةٌ وهو حيٌّ.

ومن أنواع الشرك: أنْ تُجعَل مشيئة النبي صلى الله عليه وسلم مِثل مشيئة اللَّه.



[٤٥]

بَابُ

مَنْ سَبَّ الدَّهْرَ؛ فَقَدْ آذَى اللَّهَ

وَقَوْلُ اللَّهِ: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ الآيَةَ.

فِي الصَّحِيحِ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ؛ أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ».

وَفِي رِوَايَةٍ: «لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ».

الشرح:

قال رحمه الله: (بَابُ مَنْ سَبَّ الدَّهْرَ) المراد بالدهر: الزمان، ويقاس عليه غيره، مثل لو قال: هذا يومٌ أسودٌ؛ لذمِّ الدهر.

(فَقَدْ آذَى اللَّهَ) الخلْق لن يستطيعوا أن يَضرُّوا اللَّه؛ قال سبحانه: ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً﴾ [آل عمران: ١٧٦]، وقد يُؤذِي الخلْقُ الربَّ وهم لا

يَقدرون على ضرِّه؛ وإنما سبُّ مخلوقات اللَّه أذيّةٌ للَّه، وكذلك صرْف العبادة لغير اللَّه أذيَّةٌ للَّه.

قال عليه الصلاة والسلام: (قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ...)، وفي الحديث الآخر: «لَيْسَ أَحَدٌ، أَوْ: لَيْسَ شَيْءٌ أَصْبَرَ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنَ اللَّهِ، إِنَّهُمْ لَيَدْعُونَ لَهُ وَلَداً، وَإِنَّهُ لَيُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ»[(١)].

حديث المرء عن الدهر قِسمان:

القِسم الأوَّل: وصْف الدهر، إمَّا بمدحٍ أو بذمٍّ.

فوصْفه بمدحٍ مثل: هذا يومٌ سعيدٌ، وهذا يومٌ مباركٌ، وهذه ساعةٌ مبارَكةٌ ونحو ذلك؛ وهذا جائزٌ.

ووصْفه بذمٍّ مثل: هذا يوم مصيبةٍ، وهذا يومٌ أسود، وهذا يوم بؤسٍ ونحو ذلك؛ فهذا جائزٌ أيضاً؛ قال سبحانه: ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ﴾ [القمر: ١٩]، فوصف اللَّه عز وجل ذلك اليوم بأنَّه نحسٌ، وقال سبحانه: ﴿فِي أَيَّامٍ

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الأدَب، باب الصبر على الأذى، رقم (٦٠٩٩)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

نَحِسَاتٍ﴾ [فصلت: ١٦]، فوصَف الأيام بأنَّها نحساتٌ، وقال: ﴿سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ [يوسف: ٤٨]، فوصَف سبع السنوات بأنَّهنَّ شدادٌ.

ومِثل لو قال شخصٌ: هذا ليلٌ طويلٌ، أو: ليلٌ قصيرٌ، أو قال - إخباراً -: هذا يومٌ حارٌّ، أو: هذا يومٌ عصيبٌ، أو شديدٌ وهكذا.

والقِسم الثاني: أنْ يسبَّ الدهر، مثل أن يقول: يا خيبة الدهر، أو: الزمن الذي عشنا فيه لم نجد فيه خيراً، أو: يا نهار أسود؛ تشكِّياً من النهار.

وما في حُكم الزمن؛ حُكمه مِثله، كسبِّ الطبيعة، مِثل: لو قال شخص: هذه طبيعةٌ جافَّةٌ، وهكذا.

وهذه الألفاظ قائلُها ينقسم إلى قِسمين:

القِسم الأوَّل: إن كان يَعتقد أنَّ الدهر، أو الطبيعة تدبِّر الكون؛ فهذا كُفرٌ - والعياذ باللَّه -، فكأنَّ السابَّ له يقول: بسببك يا دهرُ؛ وقعتْ بنا هذه المصيبة؛ وهذا لا يجوز، لأنَّ الدهر مخلوقٌ.

القِسم الثاني: إذا كان يَعتقد أن الذي يدبر الكون هو اللَّه، ولكنه سبَّ ذلك الدهر وما فيه؛ فهذا مسبةٌ للَّه عز وجل؛ قال ابن القيِّم رحمه الله[1]: «وهو متضمِّنٌ للشرك؛ لأنَّ سبَّه للدهر يَترتَّب عليه مفاسد عديدةٍ:

المفسدة الأُولى: تضمينه للشرك، فكأنه يعتقد أنَّ اللَّه عز وجل والدهر اشتركا في أذيتنا.

والمفسدة الثانية: أن سبَّ الدهر تعدٍّ على الدهر؛ لأنه مخلوقٌ ولم يَصنع شيئاً فهو مثلك.

والمفسدة الثالثة: أنَّ الذي يدبر الكون هو اللَّه».

فعلى كلا الحالين: لا يجوز، إمَّا شركاً في الاعتقاد، وإمَّا باعتقاده أنَّ اللَّه هو مدبِّر الكون؛ لكن سبَّه لأجْل ما وَقع فيه من مصائب ونحو ذلك.

ولمَّا كان سبُّ الدهر نوعاً من الشرك؛ إنْ اعتقد بأنَّه المدبِّر للكون، أو لأنَّ فيه نقصٌ لكمال التوحيد الواجب؛ ساق المصنِّف رحمه الله هذا الباب في كتاب التوحيد.

---

(١) زاد المعاد (٢/ ٣٢٣).

وهذه الترجمة أَخذها المصنِّف من حديث أبي هريرة رضي الله عنه الآتي: (**يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ**..)، ولا يَلزم من الأذية الضرر، فهذه اللَّفظة فيها أذىً، لكن يَستحيل أنْ يكون الخالق سبحانه يُضَرُّ من المخلوق؛ بل هو القويُّ المتين العظيم الكبير المتعال؛ لا يضرُّه أحد؛ بل مستغنٍ عن جميع عباده.

والمصنِّف أيضاً ذَكر ثلاثة نصوصٍ:

النَّصُّ الأوَّل؛ لبيان أنَّ سبَّ الدهر من عادة الكفار، (﴿**وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ**﴾).

النَّصُّ الثاني؛ لبيان أنَّ سبَّ الدهر يؤذي اللَّه.

النَّصُّ الثالث؛ لبيان العلة في أذية ذلك للَّه؛ لأنَّ اللَّه هو الدهر؛ أي: مدبِّر الدهر.

والمصنِّف رحمه الله ساق هذا الباب في كتاب التوحيد؛ لأنَّ القائل إمَّا ملحِدٌ - والعياذ باللَّه -، أو يَسُبُّ الدهر؛ ففيه نقصٌ للتوحيد.

قال: (**وَقَوْلُ اللَّهِ: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾**).

ذَكر اللَّه هذه الآية؛ من باب الذم لاعتقاد ومقولة مشركي قريش، وهذا الاعتقاد هو إنكار البعث والنشور.

وليس اعتقاد جميع كفار قريشٍ جحْد الربوبية؛ بل بعضهم، فمنهم مَن ينكر البعث، ومنهم مَن يُثبت البعث، ومنهم مَن يُثبت وجود اللَّه ويُنكر الألوهية، ومنهم مَن يَجحد ذلك كله، كالدهريِّين الذين ذَكر اللَّه صفتهم في هذا الآية.

(﴿وَقَالُواْ﴾) أيْ: المشركون.

(﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾) أي: لا يَفعل بنا هذه الأفاعيل من النفع والضر، والإماتة والإحياء؛ إلا الدهر.

فهذه أذيَّةٌ للَّه جل وعلا؛ لأن الفعل نُسب إلى غير الله، وهذا قدْحٌ في التوحيد، فنَسبوا الفعل للدهر، بما فيه من مَسَبَّةٍ، وبما فيه من مَلامةٍ.

هذا يموت وهذا يحيا، والذي يَفعل بنا ذلك هو الدهر.

فدلَّ على أنَّ الكفار يَتشاءمون من الدنيا، ويَنسبون ذلك الشؤم إلى الدهر - وهو الزمن -، مثل لو قال شخصٌ: لم نَستفد من هذه الدنيا إلَّا النكد، أو: أتى لنا هذا الزمن بالفتن والنَّكَد ونحو ذلك - سبّاً له -.

وساق المصنِّف رحمه الله هذه الآية في هذا الباب؛ ليبيِّن أنَّ الدهر لا يُنسب إليه شيءٌ من ذلك؛ لأنَّ الدهر مخلوقٌ مُسَيَّرٌ بأمر اللَّه.

قال سبحانه: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾ [الإنسان: ١]، فهو مثلك، فاللَّه أوجد الزمن، وأَوجدك، لهذا لا يُسَبُّ؛ لأنَّه مخلوقٌ.

قال: (فِي الصَّحِيحِ) أي: صحيح البخاريِّ[١].

(عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى) فيه إثبات القول للَّه سبحانه، وأنَّ اللَّه يَتكلم بما شاء، كيف شاء، إذا شاء، متى شاء سبحانه.

(يُؤْذِينِي) يدلُّ على أن اللَّه عز وجل يتأذى من ذلك الفعل القبيح.

(ابْنُ آدَمَ) وكذا بقية المكلَّفين كالجِنِّ، ممَّن قال مثل تلك المقالة؛ فقد وَقع في النهي الذي نُهِيَ عنه.

---

(١) كتاب تفسير القرآن، بَابُ ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤] الآيَةَ، رقم (٤٨٢٦).

قوله: (**ابْنُ آدَمَ**) سواء كان مسلِماً، أو كافراً، فالكافر مِثل ما ذَكر اللَّه عز وجل في الآية: (﴿**وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ**﴾).

وإنْ كان رجُلاً مسلماً، لكنه يَسب الدهر، كقول: يا ويْح الدهر، لماذا تَفعل بنا هذا يا دهر؟ ونحو ذلك من الأقاويل المنهي عنها.

(**يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأنَا الدَّهْرُ**) يعني: أنا خالق الدهر.

فإذا قيل: لماذا أوَّلتم تلك الصفة إلى خالق الدهر؟

نقول: لأنَّ الدهر مخلوقٌ، فلا يمكن أن يكون المخلوق هو الخالق، ويُفسِّرها قوله: (**أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**)، فاللَّه هو الذي يُقلِّب اللَّيل والنهار؛ كما قال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً﴾ [الفرقان: ٤٢].

فهو الذي يُقلِّب اللَّيل والنهار، ويَفعل ما يشاء؛ بل: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وهذا مِن تمام المُلك له سبحانه، ومِن تمام القوَّة، فلا يؤذن لأحدٍ أنْ يسأل، وإنْ سأل ما سأل؛ لن يُجاب عليه؛ قال سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [هود:١٠٧]، وقال: ﴿هَذَا خَلْقُ

اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [لقمان: ١١]، ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢].

وقال: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً﴾ [الكهف:٥١]، فلم يُشهدهم لِما خلق السموات والأرض، ولم يُشهدهم لِما خلَقهم، ولم يَتَّخذهم أنصاراً له، فلِمَ يسألونه عن أفعاله؟ فهم ضعافٌ، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ [يس:٧٧]، يخاصم ربَّه: لِمَ فعلتَ كذا وكذا، والأصل هو التسليم لنصوص الشرع، والإيمان بها واعتقادها.

(أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)، وفي لفظٍ: «بِيَدِيَ الأَمْر أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ»(١)، إمَّا أنْ يكون نفعاً للعباد، وإما أنْ يكون عقوبةً لهم، كما في إرساله الريح عذاباً.

---

(١) كتاب تفسير القرآن، بَابُ ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤] الآيَةَ، رقم (٤٨٢٦).

لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إِذَا رَأَيْتُم الرِّيْحَ فَقُولُوا: اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا رِيَاحاً وَلَا تَجْعَلْهَا رِيحاً»[1]؛ لذلك لا يُعلم هل هي عذابٌ أم هي منَّةٌ من اللَّه؟

والمسلِم لا يَسعى إلى أذيَّة الخالق سبحانه، وإنَّما يَتقرَّب إليه بالطاعات، واللَّه عز وجل غنيٌّ عن عباده.

قال: (وَفِي رِوَايَةٍ) أي: في رواية مسلِمٍ[2].

(لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ) أي: فإنَّ اللَّه هو مدبِّر الدهر؛ يعني: إنَّ اللَّه هو خالق الدهر، فلا تسبُّوه؛ لأنَّ الدهر مخلوقٌ مِثلك، ولا يُلحَق به الذمُّ.

وعليه: فإنَّ الدهر لا يَثبت اسماً من أسمائه تعالى، فلا يقال: إنَّ الدهر مِن أسمائه؛ فلو أنَّه من أسماء اللَّه لكانت مقالة الكفار - (﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾) - صحيحةً؛ أي: سيكون معنى قولهم: وما يهلكنا

---

(١) رواه الطبراني في الكبير، رقم (١١٥٣)، من حديث ابن عباسٍ رضي الله عنهما. (١١/ ٢١٣).

(٢) كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب النهي عن سبِّ الدهر، رقم (٢٢٤٦).

إلا اللَّه، فالدهر ليس من أسماء اللَّه؛ وإنَّما المراد أنَّ اللَّه هو الذي يقلِّب الدهر من فتنٍ، وسعادةٍ، وشقاءٍ، وحرٍّ، وشتاءٍ وهكذا.

فلا يجوز أنْ يُسمَّى رجُل: عبد الدهر، ولا يجوز للشخص أنْ يدعو فيقول: يا دهر أعطني؛ لأنَّ الدهر من مخلوقات اللَّه.

فتبيَّن ممَّا سَبق: أنَّ حديث الناس عن الدهر قِسمان:

القِسم الأوَّل: إمَّا مِن باب السبِّ له والانتقاص والملامة؛ فهذا لا يجوز.

وهذا لا يخلو: إما أنْ يكون شركاً - والعياذ باللَّه -؛ إنْ كان في اعتقاد القائل أنَّه السبب فيما حَصل، وإنْ كان اعتقاده بأنَّ اللَّه هو مُصرِّف الدهر، لكنَّه يسبُّ الدهر هكذا؛ فهو من مسبَّة اللَّه تعالى، وهو منقِصٌ للتوحيد.

القِسم الثاني: وصْف الدهر بمدحٍ أو ذمٍّ؛ فهذا لا بأس فيه.

والمدح كقول: يومٌ مبارَكٌ، يومٌ سعيدٌ، يومٌ وضيءٌ، ليلةٌ مبارَكةٌ، أمسيةٌ مناسبةٌ وهكذا.

أو وصْفه بغير ذلك، مِن وصفه بالحُزن، والكآبة، وهذا يومٌ حزينٌ، هكذا؛ فلا بأس.

❊❊❊

[٤٦]

بَابُ

التَّسَمِّي بِقَاضِي القُضَاةِ وَنَحْوِهِ

فِي الصَّحِيحِ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ اللَّهِ: رَجُلٌ يُسَمَّى مَلِكَ الأَمْلَاكِ؛ لَا مَالِكَ إِلَّا اللَّهُ».

قَالَ سُفْيَانُ: «مِثْلُ: شَاهَانْ شَاهْ».

وَفِي رِوَايَةٍ: «أَغْيَظُ رَجُلٍ عَلَى اللَّهِ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَأَخْبَثُهُ».

قَوْلُهُ: «أَخْنَعَ» يَعْنِي: أَوْضَعَ.

الشرح:

قال رحمه الله: (بَابُ التَّسَمِّي بِقَاضِي القُضَاةِ وَنَحْوِهِ) أيْ: التحريم في ذلك؛ لِما فيه من التطاول على جَناب الربوبية ممَّا يتصف به الربُّ وحْده ولا يجوز أنْ يُطلقه البشر بعضهم على بعضٍ، مثل: الرحمن، ومثل: الخالق، ومثل: الرازق، وهذا مما يُسمَّى به الرب وحْده عز وجل.

والواجب على المسلِم أنْ يكون مُعظِّماً للَّه عز وجل في أعماله، وأفعاله، وبقلبه، وأقواله، فلا يُقدَح في جانب الربوبية بشيءٍ من ذلك، وكذا جانب الألوهية.

والمسلم مُعطٍ لربه ما يَستحِقُّ من الأسماء، ويُثبت له من الصفات ما يدلُّ على ذلك، ولا يجوز أنْ يَتسمَّى المخلوق بشيءٍ هو مِن أوصاف الرب عز وجل وحْده.

ومِن ذلك ما ذَكره المصنِّف رحمه الله من بعض الألفاظ - كما سيأتي -، ومِن العقوبة المعجَّلة في الدنيا وفي الآخرة كذلك؛ أنَّ مَن تَسمَّى بما يُعظِّم نفْسه مما لم يشرِّعه الشارع؛ عُومِل بنقيض قصده من الإهانة، والعقوبة، والذلَّة، والاحتقار.

ولم يَمنَع الشرع تبجِيل الناس بعضهم بعضاً بما لا يصل إلى حدِّ الغلو والإطراء، فأَذِن الشارع بوضْع بعض الألقاب لبعض الناس، مثل: كلمة المَلِكْ؛ فلا بأس بإطلاقها؛ لأنَّه يوجد عند المخلوقين لبعضهم مَن هو مَلِكٌ لهم، ورئيسٌ عليهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ﴾ [يوسف:٥٠]، وقال: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ﴾ [يوسف: ٥٤]،

وفي الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ [يوسف: ٥٤].

ومِثل أيضاً: يجوز أنْ يلقِّب الخلْق بعضهم بعضاً بلقب العزيز؛ كما قال تعالى: ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ﴾ [يوسف: ٥٠].

وكذلك لقب: الوزير؛ قال سبحانه: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي﴾ [طه: ٢٩].

وكذلك لقب: الأمير؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إِذَا خَرَجَ ثَلَاثَةٌ فِي سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ»[(١)]، وقال صلى الله عليه وسلم: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالأَمِيرُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ عَلَيْهِمْ»[(٢)]، وغير ذلك مِن الألقاب التي أَذِن الشارع أنْ يلقِّب بعض الخلق بعضهم بها.

لكن هناك ألقاباً خاصَّة باللَّه عز وجل، ومَن تطاول مِن الخلْق وتَسمَّى بها؛ حَرَّم الشارع ذلك اللَّفظ، وعاقبه بنقيض قصْده، ومِن ذلك

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الجهاد، باب في القوم يسافرون يؤمرون أحدهم، رقم (٢٦٠٨)، من حديث أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه.

(٢) رواه أحمد في المسند، رقم (٥١٦٧)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

ما ذَكره المصنِّف رحمه الله بقوله: **(بَابُ التَّسَمِّي بِقَاضِي القُضَاةِ وَنَحْوِهِ)** يعني: باب النهي عن التسمِّي بقاضي القضاة.

قال رحمه الله: **(بَابُ التَّسَمِّي)** أي: بنوعٍ من أنواع الألقاب.

(بِقَاضِي القُضَاةِ) يعني: القضاة: قاضٍ، وقاضٍ، وقاضٍ، فهذا يُسمَّى قاضيَ القضاة كلِّهم، فكأنَّ الأمر لذلك المتَسمِّي بقاضي القضاة، واللَّه يقول: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، لكن لا بأس بتسمية: رئيس القضاة، أو مدير القضاة ونحو ذلك، لكن قاضي القضاة هو ربُّ العالمين سبحانه؛ لأن اللَّه عز وجل هو مَن يَفصل يوم القيامة بين الناس، وهو قاضي القضاة، فهو وصْفٌ للَّه سبحانه.

(وَنَحْوِهِ) مِثل: ربِّ الأرباب، سلطان السلاطين، ملك الملوك، ومثل: حاكم الحكماء؛ لا يجوز، فالحُكم للَّه؛ قال تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]، فللإنسان أنْ يَحكم على فئةٍ من الناس؛ لا بأس، لكن أنْ يكون هو أحكم الحاكمين جميعهم؛ فلا يجوز.

ومثل: سيِّد السادات؛ لا يصحُّ؛ فهؤلاء السادات سيدهم ربُّ العالمين.

وسواء كان التسمِّي بلغةٍ عربيةٍ، أو بلغةٍ غير عربيةٍ من اللُّغات الأعجمية؛ فهذا اللَّقب لا يجوز إطلاقه لا بالعربيَّة ولا بغيرها.

والمصنِّف رحمه الله ذَكر هذا الباب؛ لحماية جَناب التوحيد في الألقاب؛ لأنَّ الباب الآتي في الأسماء، ولأنَّ التسمِّي بمثل هذه الألقاب ينافي كمال التوحيد، فتعظيماً للَّه لا يَتسمَّى الإنسان بوصفٍ من أوصاف اللَّه سبحانه وتعالى.

والمصنِّف رحمه الله ذَكر ثلاثة نصوصٍ:

النَّصُّ الأوَّل؛ لبيان حال مَن تَسمَّى بذلك في الدنيا، وأنَّه وضيعٌ عند اللَّه؛ يعني: حقيرٌ.

النَّصُّ الثاني؛ لبيان أنَّ النهي عن الألقاب يشمل أيضاً الألقاب الأعجميَّة، (**مِثْلُ: شَاهَانْ شَاهْ**) أي: قاضي القضاة باللُّغة الفارسية.

النَّصُّ الثالث؛ لبيان حال مَن تَسمَّى بذلك عند اللَّه يوم القيامة.

لذلك قال: (**فِي الصَّحِيحِ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ اللَّهِ**) فسَّر المصنِّف رحمه الله (**أَخْنَعَ**) أي: أوضع؛ أي: أحقر، وأذلُّ وأحْقر مُسمّىً: الذي يَتَسمَّى بذلك الاسم؛ لأنَّه تطاول على جَناب الربوبية.

ويوم القيامة يُحشر المتكبرون كأمثال الذرِّ تُصغَّر أجسادهم، ويطؤُهم الناس كأمثال الذرِّ[(١)]؛ لأنَّهم تَكبَّروا في الدنيا، فأُهينوا في الآخرة، وكذلك مَن تسمَّى بشيء لا يُطلَق إلا على اللَّه عز وجل؛ يُعامل بالإهانة في الدنيا، وفي الآخرة يُحَقَّر.

(رَجُلٌ يُسَمَّى مَلِكَ الأَمْلَاكِ) يعني: الأملاك: مَلِكٌ، ومِلكٌ، ومِلكٌ، ومَلِكُ الجميع هو ربُّ العالمين؛ قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١]، فالمُلك المطلَق للَّه، فلا يُجعَل لأحدٍ من البشر الملك المطلَق الكامل؛ لأنَّ اللَّه عز وجل هو المَلك، وهو مالك الملوك سبحانه وتعالى.

---

(١) يشير إلى حديثٍ لفظه: «يَبْعَثُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَاساً فِي صُوَرِ الذَّرِّ، يَطَؤُهُمُ النَّاسُ بِأَقْدَامِهِمْ، فَيُقَالُ: مَا هَؤُلاءِ فِي صُوَرِ الذَّرِّ؟ فَيُقَالُ: هَؤُلاءِ الْمُتَكَبِّرُونَ فِي الدُّنْيَا». رواه المنذري في الترغيب والترهيب، فصلٌ في الحشر وغيره، رقم (٥٤٢٩)، من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي اللَّه عنه، (٤/ ٢٠٨)، ورواه الهيثمي عن البزار في مجمع الزوائد، كتاب البعث، باب ما جاء في هول المطلع وشدة يوم القيامة، رقم (١٨٣٢٧)، من حديث جابر رضي اللَّه عنه.

ولكن يجوز أن يُسمَّى الإنسان: المَلِك، ويجوز أن يسمَّى: رئيس القضاة، ويجوز أن يُسمَّى: رئيس السلاطين ونحو ذلك، لكن سيِّد السلاطين؛ لا يجوز، أما رئيس السلاطين أو رئيس القضاة؛ لا بأس.

العلَّه من ذلك: قال: (لَا مَالِكَ إِلَّا اللَّهُ) يعني: أنَّ الإنسان كاذبٌ في ذلك التسمِّي، ولذا يُعامل بالاحتقار؛ لأنَّ اللَّه عز وجل له المُلك التام كما قال سبحانه: ﴿لَهُ المُلْكُ﴾ [فاطر: ١٣]، وقال جل وعلا: ﴿لِمَنِ المُلْكُ اليَوْمَ﴾ [غافر: ١٦].

مِثل: لو أنَّ الإنسان في الدنيا تَسمَّى باسم رجُلٍ عظيمٍ في الدنيا كما لو أنَّه لقَّب نفْسه بالملك فلان، وهو ليس بملِكٍ؛ ففي ذلك مزاحمةٌ لصاحب ذلك اللَّقب، كذلك الرب عز وجل لا يجوز أن يُسمَّى أحدٌ بشيءٍ مما اختصَّ به سبحانه وتعالى من الألقاب.

قال: (قَالَ سُفْيَانُ) أي: ابن عُيينة مفسِّراً لهذا الحديث، (مِثْلُ: شَاهَانْ شَاهْ) قاضي القضاة في اللغة الفارسية، وغير ذلك من الألقاب الأعجميَّة.

وقال: (وَفِي رِوَايَةٍ: أَغْيَظُ رَجُلٍ عَلَى اللَّهِ يَوْمَ القِيَامَةِ) (أَغْيَظُ) أَبْغض، والغَيْظ مِثل الغضب والسخط، فاللَّه عز وجل يَغضب يوم

القيامة، فيغيظ اللَّه عز وجل يوم القيامة على مَن تَسمَّى بمثل هذه الألقاب.

(وأَخْبَثُه) يعني: أخْبث رجُلٍ يوم القيامة مَن تسمَّى بذلك؛ أي: أنَّ مَن تسمَّى بشيءٍ ممَّا هو من خصائص الربِّ عز وجل؛ يُعامل بنقيض قصْده، ففي الدنيا عند اللَّه حقيرٌ وذليلٌ، وفي الآخرة لقبُه مِن أغيظ الألقاب عند اللَّه يوم القيامة، وهو أخبث الناس عند اللَّه يوم القيامة – والعياذ باللَّه –؛ لأن ذلك نوع من أنواع الكبر، والكبر خاص باللَّه؛ قال اللَّه عز وجل في الحديث القدسي: «الكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالعِزَّةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِداً مِنْهُمَا أُلْقِهِ فِي النَّارِ»[١]، فدلَّ على تحريم مِثل تلك الألفاظ.

ثُم قال رحمه الله: (قَوْلُهُ: «أَخْنَعَ» يَعْنِي: أَوْضَعَ) يعني: أوضع اسمٍ، وأحقره، وأذلُّه، وأدناه، وأسفله، وأخسُّه؛ هو التسمِّي بمثل هذه الألفاظ التي لا تنبغي إلا للَّه عز وجل، مِثل: شخصٌ يسمِّي نفسه المتكبِّر؛ فهذا لا يجوز لأنَّه مِن أوصاف اللَّه وحْده وهكذا.

(١)رواه أحمد في المسند، رقم (٧٣٨٢)، من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه.

وصنيع المصنِّف رحمه اللَّه في وضْع غريب الكلام في آخر الباب؛ هذه طريقةٌ مِن طرق العلماء السالفين، وممَّن سار على ذلك: النوويُّ رحمه الله في الأربعين النووية ذَكر الغريب فيها في آخر كتابه[1].

فتبيَّن ممَّا سَبق: أنَّ المسْلِم معظِّمٌ لربه حتى في الألفاظ والألقاب، فيصون لسانه أنْ يسمِّي غير الربِّ بما يستحقُّه الرب، ومن ذلك: قاضي القضاة، وسلطان السلاطين، وحاكم الحكماء، وسيِّد السادات، وهكذا، مع إعطاء البشر احترامهم، وتقديرهم، بما جاء به الشارع، مِثل: لما كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل؛ قال: «مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ»[2]، فلأنَّه معظَّمٌ عندهم؛ قال: أنت عظيمهم فاقرأ رسالتي.

وهكذا مِثل أنْ يُكتَب: مِن فلانٍ إلى حاكم كذا؛ فلا بأس.

***

(١) متون طالب العِلم، النسخة الكبيرة مع الحواشي، متن الأربعين النووية (ص١٠١).

(٢) رواه البخاريُّ، كتاب الاستئذان، باب: كيف يُكتب الكِتاب إلى أهل الكِتاب، رقم (٦٢٦٠)، من حديث أبي سفيان رضي الله عنه.

[٤٧]

بَابُ

احْتِرَامِ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَغْيِيرِ الاِسْمِ لِأَجْلِ ذَلِكَ

عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ رضي الله عنه: أَنَّهُ كَانَ يُكْنَى أَبَا الحَكَمِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الحَكَمُ، وَإِلَيْهِ الحُكْمُ، فَقَالَ: إِنَّ قَوْمِي إِذا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَتَوْنِي، فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ، فَرَضِيَ كِلَا الفَرِيقَيْنِ، فَقَالَ: مَا أَحْسَنَ هَذَا! فَمَا لَكَ مِنَ الوَلَدِ؟ قُلْتُ: شُرَيْحٌ، وَمُسْلِمٌ، وَعَبْدُ اللَّهِ، قَالَ: فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ؟ قُلْتُ: شُرَيْحٌ، قَالَ: فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَغَيْرُهُ.

الشرح:

قال رحمه الله: (بَابُ احْتِرَامِ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَغْيِيرِ الاِسْمِ لِأَجْلِ ذَلِكَ).

الفرْق بين هذا الباب، والباب السابق - (بَابُ التَّسَمِّي بِقَاضِي القُضَاةِ وَنَحْوِهِ) -:

أنَّ **هذا الباب** في النهي عن التسمِّي باسمٍ من أسماء اللَّه.

والباب السابق في النهي عن أنْ يتَّصف الإنسان بأوصاف وألقاب هي من خصائص اللَّه.

مثلاً: هنا ذَكر اسماً، وهو الحَكَم، وهناك ذكَر ألقاباً، مثل: قاضي القضاة، ومثل: سلطان السلاطين ونحو ذلك، فهناك بالأوصاف، وهنا بالأسماء.

وهذه الترجمة تدلُّ على أمرين اثنين:

الأمر الأوَّل: وجوب احترام أسماء اللَّه تعالى، فلا تُطلق على المخلوق فيما هو خاصٌّ به سبحانه، والنهي عن التسمي بأسماءٍ هي مِن خصائص اللَّه عز وجل، مِثل: الحَكَم، ومِثل: الرازق، أو الخالق، أو الرزاق، أو الرحمن؛ فحُكمه: لا يجوز.

الأمر الثاني: تغيير الاسم لأجل ذلك؛ يعني: ليس منهياً عنه فقط، وإنما يجب تغيير ذلك الاسم؛ لأنه مختصٌّ به سبحانه.

فإذا قيل: لماذا وَضَع المصنِّف رحمه الله هذا الباب في كتاب التوحيد؟

نقول: لأنَّ التسمي باسمٍ من أسماء اللَّه فيه هضمٌ لجَناب الربوبية، فيجب أنْ يُصان ويُحمَى، ولا يُسمَّى بأيِّ اسمٍ من أسمائه جل وعلا، ولا يطلَق على البشر، فما كان خاصّاً باللَّه؛ لا يجوز إطلاقه على البشر.

وإنْ كانا يشتركان في اللَّفظ دون المعْنى، مثلاً: العين؛ فلَكَ عينٌ، وللحيوانات عينٌ، فالاسم واحدٌ، واللَّفظ واحدٌ، لكنَّ عين الإنسان غير عين النملة، وعين النملة غير عين الفيل، وهكذا؛ فلا بأس.

فإذا قلنا مثلاً: هذا رجلٌ سميعٌ، ونقول: اللَّه عز وجل سميعٌ؛ فهنا اتفقا في اللَّفظ، لكن المعنى يَختلف، فسمْع اللَّه يليق بجلاله، وعظمته، وهو لا يُشبه ولا يماثل سمْع المخلوقين.

وساق المصنِّف رحمه الله هذا الباب في كتاب التوحيد؛ لبيان أنَّ مِن إجلال اللَّه واحترامه، وتعظيمه: أن لا يُسمَّى المخلوق باسمٍ من أسماءه الخاصَّة به سبحانه.

وأسماء اللَّه عز وجل تنقسم إلى أقسام:

القِسم الأوَّل: أسماءٌ للَّه لا يَشركه فيها أحدٌ، مثل: الرحمن، ومِثل: الربِّ – من غير إضافةٍ –، أمَّا إذا أضيف، مثل: ربِّ الدار، وربِّ المال؛ فيجوز.

القِسم الثاني: ما يَشترك فيه المخلوق مع الخالق، ولكن احتراماً لأسماء اللَّه؛ لا يُسمى به إلا اللَّه، مثل: الحَكَم.

القِسم الثالث: اسمٌ يُسمَّى به اللَّه عز وجل، ويُسمى به المخلوق.

مثل: العزيز؛ قال سبحانه: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ [النساء: ١٥٨]، وقال تعالى في حق المخلوق: ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ العَزِيزِ﴾ [يوسف:٥٠]، فاللَّه عز وجل له عزَّةٌ تليق بجلاله، والمخلوق له عزَّةٌ تليق بحاله.

ومِثل: الكريم؛ قال سبحانه: ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠]، وقال في حقِّ المخلوق: ﴿مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «الكَرِيمُ ابْنُ الكَرِيمِ ابْنِ الكَرِيمِ ابْنِ الكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ»(١).

والمصنِّف رحمه الله ذَكر دليلاً؛ لبيان القِسم الثاني لكثرة وقوعه في الألقاب.

قال: **(عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ رضي الله عنه: أَنَّهُ كَانَ يُكْنَى أَبَا الحَكَمِ)** كما قال تعالى عن نفْسه: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الحَاكِمِينَ﴾ [التين: ٨]، وقال: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]،

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول اللَّه تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾ [يوسف: ٧]، رقم (٣٣٩٠)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

فاللَّه هو الذي يُشرِّع، وهو الذي يَحكم؛ قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠].

ففيه دليلٌ على أنَّه يُشرع أنْ يُكْنَى الإنسان بكُنية، أو ينادى بالكُنية، فكان هذا الصحابي رضي الله عنه يُنادى بكُنيته.

والنبي صلى الله عليه وسلم في حياته؛ لا يجوز أنْ ينادَى بكنيته، فلا يقال له: يا أبا القاسم في حياته، ولا يجوز أنْ يُكنَى غيرُه بنفْس كُنيته؛ فلا يُكْنَى أحدٌ من الصحابة بأبي القاسم، وبعد وفاته؛ يجوز أنْ يُكنَى الرجل بأبي القاسم.

(فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الحَكَمُ) هذا فيه إثباتٌ لاسمٍ من أسماء اللَّه؛ وهو الحَكَم.

وفيه إثبات الصفة المأخوذة من هذا الاسم؛ وهي الحُكم؛ قال سبحانه: ﴿أَلَا لَهُ الحُكْمُ﴾ [الأنعام: ٦٢]، وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧]، وقال: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الحَاكِمِينَ﴾ [التين: ٨]، فاللَّه الحَكَم، وإليه الحُكْم سبحانه.

فلا يجوز أنْ يُسمِّي المخلوق نفْسه: الحَكَم، ولا يجوز أنْ يُكنى كذلك: بأبي الحَكَم، ولا يجوز أنْ يلقَّب رجُلٌ: بحاكم الأرض ونحو ذلك.

(وَإِلَيْهِ الحُكْمُ) يُرجَع إليه؛ أي: الخصومة تُرجع إليه؛ كما قال سبحانه: ﴿لَهُ الحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨]، بمعنَى: أنَّه يجب الترافع إلى حُكْم اللَّه سبحانه؛ كما قال: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ﴾ [النساء: ٥٩]، وقال: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠].

فيجب أنْ يُرجَع إلى ما شَرعه اللَّه عز وجل، ويُرضى به، ويُسلَّم.

والفرْق بين الجملة الأولى والثانية:

أنَّ الجملة الأُولى - (هُوَ الحَكَمُ) -: حُكمه لا يُرد ولا يُنقض؛ كما قال سبحانه: ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ [الرعد: ٤١].

والجملة الثانية - (وَإِلَيْهِ الحُكْمُ) -: أنَّ جميع الأحكام مردُّها إلى اللَّه، وهو الذي يَحكم بين العباد، ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [آل عمران: ٥٥] سبحانه وتعالى.

(فَقَالَ: إِنَّ قَوْمِي إِذا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَتَوْنِي) يدلُّ على أنَّ له مكانةً في قومه، فيأتونه؛ ليُصلح بينهم، لا لِأَنْ يُشرِّع قوانين مِن تلقاء نفْسه، أو مِن قوانين الجاهلية.

(فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ) يعني: صُلحاً، (فَرَضِيَ كِلَا الفَرِيقَيْنِ) بذلك الصُّلح.

(فَقَالَ: مَا أَحْسَنَ هَذَا!) أي: ما أَحسن أنَّك تَحكم بين الناس فيَرضون، وما أحسن هذا الفعل؛ بأنْ يَخرج من عندك الطرفان، وهما متَّفقان.

واللَّه عز وجل يقول: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨]، وقال سبحانه: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ القَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ﴾ [النساء: ١٤٨]، وقال: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤].

قال: (فَمَا لَكَ مِنَ الوَلَدِ؟ قُلْتُ: شُرَيْحٌ، وَمُسْلِمٌ، وَعَبْدُ اللَّهِ) وهذا يدلُّ على أنَّ الواو تفيد التشريك؛ لذلك لو قال: ما شاء اللَّه وشئت؛ لا يجوز؛ لأنَّها تفيد التشريك بدليل هذا الحديث، إذ أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ؟)، لأنها لا تفيد الترتيب - أي: الواو -.

ويدلُّ على أنَّه يجوز للشخص أنْ يُسمِّيَ مُسْلِماً، ولا تزكية فيه.

أمَّا أنْ يُسمِّيَ بأعلى من ذلك؛ فلا، مِثل: أنْ تُسمَّى المرأة: إيمانٌ، أو أبرار، فيُكرَه؛ لأنَّ فيه تزكيةٌ للنفس.

والنبي صلى الله عليه وسلم لمَّا أتتْه امرأةٌ اسمها: برَّةٌ؛ غيَّر اسمها إلى جويرية؛ لأنَّ فيه تزكيةٌ للنفس، والحديث هو: «كَانَتْ جُوَيْرِيَةُ اسْمُهَا بَرَّةُ فَحَوَّلَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم اسْمَهَا جُوَيْرِيَةَ، وَكَانَ يَكْرَهُ أَنْ يُقَالَ: خَرَجَ مِنْ عِنْدَ بَرَّةَ» أخرجه مسلمٌ[١] وغيره[٢].

قال: (فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ؟) هذا يدلُّ على أنَّ السُّنَّة أنَّ الرجُل يُكْنَى بأكبر أبنائه؛ هذا إذا كان له أبناء، وإذا لم يكن له إلا بناتٌ فقط؛ فلا بأس بأنْ يُكنَى باسم البنات.

---

(١) كتاب الآداب، باب استحباب تغيير الاسم القبيح إلى حسن، وتغيير اسم برة إلى زينب وجويرية ونحوهما، رقم (٢١٤٠)، من حديث ابن عباسٍ رضي الله عنهما.

(٢) رواه أحمد في المسند، رقم (٣٠٠٥)، من حديث ابن عباسٍ رضي الله عنهما.

وإذا كان الشخص لم يتزوَّج؛ فلا بأس بأنْ يُكنِّي نفْسه بكُنيةٍ، مثلما كانت عائشة رضي الله عنها تُكَنِّي نفْسها بأم عبد اللَّه، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يُقرُّها على ذلك، ولم يكن لعائشة رضي الله عنها أولاد.

(قُلْتُ: شُرَيْحٌ، قَالَ: فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ) فكنَّاه بأكبر أولاده، وهو شريحٌ.

فدلَّ هذا الحديث على أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم أَنكر عليه الكُنية - وهي أبو الحَكم -، وأن النبي صلى الله عليه وسلم غيَّر ذلك الاسم احتراماً للَّه سبحانه وتعالى؛ فيجوز أن يُسمَّى الحاكم، ولا يجوز أن يُسمَّى أبا الحَكم؛ يعني: كأنَّ الأحكام ترجع إليه إذا قلنا أبو الحَكم.

ومن حُسن أدَبِهِ وأخلاقه صلى الله عليه وسلم؛ قال: (**مَا أَحْسَنَ هَذَا!**)، ولم يَنهه عن فِعله الحَسَن، وهو الصلح بين الطرفين، وهذا يدلُّ على كمال خُلُق النبي صلى الله عليه وسلم.

وأيضاً لمَّا نهاه النبي صلى الله عليه وسلم عن تلك الكُنيَة، وهي أبا الحَكَم؛ غيَّر النبي صلى الله عليه وسلم كُنيَتَه بكنيةٍ أخرى، وهي أبو شريحٍ، فدلَّ على أنّ الشخص إذا رأى اسماً مُنكَراً؛ يُغيِّره إلى آخر مشروعٍ.

وكذلك كلُّ اسمٍ مختصٍّ به سبحانه؛ لا يجوز إشراك الخلْق به معه، وما يجوز اشتراك الخلق معه في اللَّفظ؛ فلا بأس، مثل: العزيز، ومثل: المَلِك، ومثل: السيِّد وهكذا.

قال: (رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَغَيْرُهُ) وإسناده صحيح.

***

[٤٨]

بَابُ

مَنْ هَزَلَ بِشَيْءٍ فِيهِ ذِكْرُ اللَّهِ أَوِ القُرْآنِ، أَوِ الرَّسُولِ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾.

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ، وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، وَقَتَادَةَ -دَخَلَ حَدِيثُ بَعْضِهِمْ فِي بَعْضٍ-: «أَنَّهُ قَالَ رَجُلٌ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ: مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قُرَّائِنَا هَؤُلَاءِ؛ أَرْغَبَ بُطُوناً، وَلَا أَكْذَبَ أَلْسُناً، وَلَا أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ -يَعْنِي: رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَأَصْحَابَهُ القُرَّاءَ-.

فَقَالَ لَهُ عَوْفُ بْنُ مَالِكٍ: كَذَبْتَ؛ وَلَكِنَّكَ مُنَافِقٌ، لَأُخْبِرَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم.

فَذَهَبَ عَوْفٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لِيُخْبِرَهُ، فَوَجَدَ القُرْآنَ قَدْ سَبَقَهُ.

فَجَاءَ ذَلِكَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَقَدِ ارْتَحَلَ وَرَكِبَ نَاقَتَهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ وَنَتَحَدَّثُ حَدِيثَ الرَّكْبِ، نَقْطَعُ بِهِ عَنَّا الطَّرِيقَ.

قَالَ ابْنُ عُمَرَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ؛ مُتَعَلِّقاً بِنِسْعَةِ نَاقَةِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، وَإِنَّ الحِجَارَةَ تَنْكُبُ رِجْلَيْهِ، وَهُوَ يَقُولُ: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾.

فَيَقُولُ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾؛ مَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ، وَمَا يَزِيدُهُ عَلَيْهِ».

الشرح:

قال رحمه الله: (بَابُ مَنْ هَزَلَ بِشَيْءٍ فِيهِ ذِكْرُ اللَّهِ أَوِ القُرْآنِ، أَوِ الرَّسُولِ) صلى الله عليه وسلم؛ أيْ: فقد كَفر، وأنَّ ذلك كُفرٌ أكبر مخرِجٌ من الملَّة - والعياذ باللَّه -، فهو نوعٌ من أنواع الردَّة.

والدين دين اللَّه؛ قال سبحانه: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، واللَّه عز وجل أتمَّه وحَفظه؛ قال عز وجل: ﴿اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً﴾ [المائدة:

٣]، وتكفَّل اللَّه عز وجل بحمايته؛ كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وأَخبر اللَّه عز وجل البشر بأنَّه لا يَرضى لهم إلَّا الدين الذي اختاره لهم، ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾؛ يعني: الزموا دين اللَّه، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨].

وأبى اللَّه لهذا الدين إلا أنْ يُتمَّه، ويَنشره في الآفاق، ولو أبى مَن أبى؛ قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢]، وقال: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

فأَخرج هذا الدين مِن بين الجبال؛ حتى وَصل إلى قلوب جميع البشر في الشرق والغرب، وهذا يدلُّ على قوَّته، وأنَّه منصورٌ؛ قال سبحانه: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: ٥١]، ويَنصر اللَّه مَن قام بالدين؛ لأنه هو مَن نصر الدين؛ قال سبحانه: ﴿وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

فاللَّه عز وجل هو مَن جَعل لهذا الدين الرفعة والمكانة، ومِن قوَّته وعظمتِهِ - يعني: الدين - مَن مدَحه وأَثنى عليه؛ يعلو؛ قال سبحانه: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ العِزَّةَ فَلِلَّهِ العِزَّةُ جَمِيعاً﴾ [فاطر: ١٠].

ومَن قَدح في هذا الدين، أو في رسوله، أو في القرآن؛ لقوَّة هذا الدين؛ يَكفر، يَلفَظُه هذا الدين، ويُبعده عنه، ويُخرجه منه؛ بسبب ما يَحدث في قلبه مِن خللٍ.

لهذا يجب على المسْلِم أنْ يَحذر كثيراً مِن أنْ يَقدح في شيءٍ من هذا الدين، أو بشعائر هذا الدين، أو برسول هذا الدين، أو بقرآن هذا الدين، وليكن ممجِّداً له، معظِّماً له؛ لأنَّ أعظم البهتان هو: البهتان في دينه سبحانه، والبهتان في رسله.

لهذا كان عقاب مَن سبَّ الدين، أو استَهزأ به، أو سَخر به، أو برسوله، أو بالقرآن؛ هو الكفر، وهذا بالإجماع[١] - والعياذ باللَّه -.

والسخرية تكون باللِّسان، أو بالفعل؛ وعلى كلا الحالَيْن يَكفُر.

(١) الإجماع لابن المنذر (١/ ١٢٨).

فباللِّسان - يعني: بالقول -، فمَن تلفَّظ في ذمِّ هذا الدين بالقول؛ يَكفُر - والعياذ باللَّه -.

وكذلك مَن سَخر بهذا الدين، ولو بالفعل، مِثل: الغمز، أو اللَّمز، أو إخراج اللِّسان بالشفتين يريد به السخرية، أو حركة يدٍ يريد بها أنْ يذلَّ هذا الدين ونحو ذلك؛ فهو أيضاً مِن أنواع الكُفر والردَّة عن هذا الدين.

قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾؛ يَغمز بعضهم بعضاً، ﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ [المطففين: ٢٩-٣٢]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٤-١٥].

ففي كلا الحالتين من السخرية بالدين، مَن سَخِر به؛ يُخرَج منه، حتى ولو بطأطأة رأسه يريد بذلك أنَّه لا يريد الدين، أو السخرية بأهل الدين، أو أنه ناصرٌ لأعداء الدين على أهل الدين؛ لأنَّ هذا الدين قوي، وبقوَّته مَن قَرُب منه ليعاديه؛ لفَظَه.

ومَن دَخل في هذا الدين؛ أعزَّه، وكلُّ ذلك؛ لأنَّ اللَّه عزيزٌ، قويٌّ، فلْيَستَظِل المرء في ظلِّ عزة اللَّه، وقوَّته، وفي ظلِّ جبروته عز وجل، فلا أقوى ولا أكبر منه، ولا أعظم منه، ولا أجلَّ منه، كيف وهو الدين الصحيح، وهو الدين الذي يُدخل الجَنَّة، ويُزحزح العبد عن النَّار.

فلهذا يجب على الشخص أنْ يَمدح ويثني على هذا الدين؛ لأنَّه سوف يؤدي به إلى السعادة، كما أنَّ صاحِبه في الدنيا سعيدٌ، وأيضاً يَسعَد به في الآخرة؛ بدخول جنات النعيم، ورؤية ربِّ العالمين.

ولهذا يجب على الشخص أن يَفتخر بهذا الدين، وأنْ يُعظِّمه في قلبه، وأنْ يُظهِر حبَّه له بلسانه، وأنْ يُمجِّد ربَّ العالمين فهو الذي اختار له هذا الدين.

قال صلى الله عليه وسلم في الصحيح(١): «لَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ المَدْحُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ»، وأوَّل آيةٍ في كِتاب اللَّه: ﴿الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] تمجيدٌ لربِّ العالمين.

---

(١) البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨]، رقم (٧٤٠٣)، ومسلمٌ، كتاب التوبة، باب غيرة اللَّه وتحريم الفواحش، رقم (٢٧٦٠)، من حديث عبد اللَّه بن مسعودٍ رضي الله عنه، واللفظ

وأوَّل ما يقول أهْل الجَنَّة إذا دَخلوا الجَنَّة؛ تمجيدهم لرب العالمين: ﴿الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وإذا فُرِغَ من حساب الخلْق؛ مَجَّد اللَّه نفْسه، فقال: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالحَقِّ وَقِيلَ الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥]، ولمَّا خَلق اللَّه السماوات والأرض؛ حَمد نفسه، فقال: ﴿الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١].

وعلى العبد أنْ يُكثِر مِن حمْد اللَّه عز وجل، ومِن تمجيده، وإظهار محاسن وفضائل هذا الدين.

قال رحمه الله: (**بَابُ مَنْ هَزَلَ بشَيْءٍ فِيهِ ذِكْرُ اللَّهِ، أَوِ القُرْآنِ، أَوِ الرَّسُولِ**).

قوله: (**بَابُ**) أي: باب الوعيد في (**مَنْ هَزَلَ**) أو سَخِر، أو استهزأ، أو نَصر أحداً على هذا الدين.

لمسلم.

(بِشَيْءٍ فِيهِ ذِكْرُ اللَّهِ)، ولو شيئاً يسيراً، مثل: الصلاة، والأذان؛ إن سَخر به أحدٌ - والعياذ باللَّه -، أو بالقرآن؛ كالسخرية بما فيه، أو إهانته بالوطء عليه ونحو ذلك.

(أَوِ الْقُرْآنِ) كذلك مَن يَستهزئ بالقرآن؛ سواء بالقول؛ بأنْ يَذمَّ القرآن، أو بالفعل؛ كما يَفعله السحرة به من أمورٍ قبيحةٍ؛ ليَحصلوا على أمورٍ مُنُّوا بها من قِبَل الشياطين.

(أَوِ الرَّسُولِ) صلى الله عليه وسلم، مثل: الاستهزاء بنبوته - والعياذ باللَّه -، أو الاستهزاء بشرْعه، أو بما جاء به من أحكامٍ.

فمَن هزل بذلك؛ كَفَر بالإجماع؛ للآية التي ساقها المصنِّف رحمه الله، ولِمَا هو معلومٌ مِن هدْي النبي صلى الله عليه وسلم مِن أحاديث الردَّة، لذلك قال صلى الله عليه وسلم: «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ»(١).

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب حُكم المرتد والمرتدة واستتابتهم، رقم (٦٩٢٢)، من حديث ابن عباسٍ رضي الله عنهما.

ومِن أنواع الردة هذه الأمور؛ لذلك الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله لمَّا ذَكَرَ نواقض الإسلام؛ قال[١]: «السَّادِسُ: مَنِ اسْتَهْزَأَ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِ اللَّهِ، أَوْ ثَوَابِهِ، أَوْ عِقَابِهِ؛ كَفَرَ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِؤُون * لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾»، وهذا الباب ذَكر فيه رحمه الله ما معناه أيضاً مِن نواقض الإسلام.

والاستهزاء - والعياذ باللَّه - ينقسم إلى أقسام:

القِسم الأوَّل: الاستهزاء باللَّه سبحانه وتعالى؛ سواء بذاته، أو بأفعاله، أو بصفاته، أو بتشريعاته سبحانه.

وهذا كُفرٌ للآية: (**﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾**)، وهذا يستتاب، فإن تاب وإلا قُتل.

والقِسم الثاني: الاستهزاء بشيءٍ فيه ذكْر اللَّه، كالصلاة ونحو ذلك.

وهذا فيه تفصيلٌ: إن كان يستهزئ بحركة ذلك المصلِّي؛ لسرعة صلاته - مثلاً - ونحو ذلك؛ فهذا كبيرةٌ؛ لسخريته بالمسلِم، وإن كانت

(١) متون طالب العلم، المستوى الأوَّل، نواقض الإسلام (ص٢٦).

سخريته بذات الصلاة في تشريعها، أو أفعالها وحركاتها؛ فهو - والعياذ باللَّه - كُفرٌ.

القِسم الثالث: الاستهزاء بالقرآن.

وحُكمه: كالقِسم الثاني: إن كان يستهزئ - مثلاً - بصوت القارئ؛ فهذا كبيرةٌ من الكبائر، وإن كان يستهزئ بذات القرآن أو بما فيه؛ فهو كُفرٌ - والعياذ باللَّه -.

القِسم الرابع: الاستهزاء بالنبي صلى الله عليه وسلم؛ سواء في شرْعه أو في ذاته صلى الله عليه وسلم.

فهذا كُفرٌ، ولا يستتاب صاحبه عند الجمهور؛ لأنَّه حقٌّ من حقوق المخلوقين، والنبي صلى الله عليه وسلم مات؛ فيبقى حقُّه بقتْل من استَهزأ به.

والقِسم الخامس: الاستهزاء بشيءٍ من شعائر الدين، مِثل: اللِّحية أو الحجاب.

فهذا استهزاءٌ بشيءٍ من أحكام الدين وشعائره؛ فإذا كان استهزاؤه بأصل التشريع؛ فهذا كُفرٌ - والعياذ باللَّه -، وإن كانت سخريته بلحية

ذلك الرجل كأن يكون فيها طولٌ مثلاً، أو جهةٌ دون جهةٍ؛ فهذا كبيرة من كبائر الذنوب.

وكذلك الحجاب على التفصيل السابق.

وكذلك تقصير الثوب نفْس الحُكم.

والقِسم السادس: السخرية بالمؤمنين.

فإن كانت سخريته بالمؤمنين لأجل دين الإسلام - والعياذ باللَّه - ؛ فهو ردَّةٌ، وإن كانت سخريته بذوات وأشخاص المسلمين كمشيته ونحو ذلك؛ فهذا من كبائر الذنوب؛ لقول اللَّه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ﴾ [الحجرات: ١١].

والمصنِّف رحمه الله وَضع في هذا الباب آيةً وأثراً:

فالنَّصُّ الأوَّل - الآية -؛ لبيان أنَّ الاستهزاء باللَّه أو بالرسول صلى الله عليه وسلم أو بالقرآن؛ كُفرٌ.

والنَّصُّ الثاني: ساقه؛ لبيان بعض ألفاظ الردَّة التي يَكفر بها الإنسان، ووقَعت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم من المنافقين.

فقال في **النص الأوَّل**: (وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾).

لمَّا سَخِر مَن سَخِر من المنافقين بالنبي صلى الله عليه وسلم، وبأصحابه رضي الله عنهم؛ أَنزل اللَّه هذه الآية، فقال اللَّه له: (﴿**قُلْ**﴾) يا محمد: (﴿**أَبِاللَّهِ**﴾) يعني: هل تَسخرون باللَّه، (﴿**وَآيَاتِهِ**﴾) أيْ: بالقرآن، (﴿**وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ**﴾).

ويَكفر الإنسان إذا استهزأ بالدين، ولو لم يَقصد حقيقة الاستهزاء.

فمَن استَهزأ بالدين؛ ليُضحك الآخرين - والعياذ باللَّه -؛ يَكفر، حتى ولو كان يَعتقد خطأ ذلك.

ومَن استَهزأ بالدين؛ لأجْل منصبٍ ونحوه، أو ليلفت الأنظار إليه، حتى ولو كان يعتقد كذِب ذلك، فمجرد الاستهزاء ولو لم يقصد حقيقة ذلك؛ كُفرٌ - والعياذ باللَّه -.

والاستهزاء ضد الجدِّ، وهو السخرية والتحقير لذلك الأمر، وقد ذَكر أهْل العلم[١] أنَّ سبَّ العلماء من الكبائر، وأنه فسق؛ لأنَّه كُرهٌ للدين فهُم حَملتُه.

---

(١) متون طالب العلم، المستوى الرابع، العقيدة الطحاوية (ص٧٢٦)، الزواجر عن اقتراف الكبائر (٢/ ٢٠).

(﴿**لَا تَعْتَذِرُوا**﴾) هذا توبيخٌ لهم بنفي الاعتذار.

(﴿**قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ**﴾) فدلَّ على أنَّهم كانوا على الإيمان لكن كَفروا - والعياذ باللَّه - بالاستهزاء.

فإذا قيل: إنَّهم كانوا منافقين أصلاً.

نقول: لا؛ بل فيهم إيمانٌ، لكن الإيمان لم يَقِرَّ في قلوبهم، وكَفَّرهم اللَّه عز وجل بعد أنْ كانوا مؤمنين.

فدلَّ على أنَّ مَن تَلفَّظ بمثل هذه الألفاظ؛ يَكفر بعد إيمانه، وليس معناه: أنَّهم كانوا منافقين ثُم لمَّا تَلفَّظوا بهذه الألفاظ؛ أَظهر اللَّه حقيقة إيمانهم؛ لأنَّ الآيات خلاف ذلك؛ قال اللَّه: (﴿**لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ**﴾).

وهذا رأْي شيخ الإسلام[١] بأنَّ الكُفر كان لهم بعد أنْ كانوا مؤمنين، فليس معناه أنهم كانوا خارجين، لكن اللَّه فَضحهم، وأَخرج نفاقهم؛ بل كانوا على الإسلام، وذَهبوا مقاتلين مع النبي صلى الله عليه

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٧/ ٢٧٢).

وسلم في غزوة تبوك، فلمَّا تلفَّظوا بتلك الألفاظ القبيحة – كما سيأتي –؛ خَرجوا من الدين، بسبب تلك الألفاظ التي تَلفَّظوا بها.

﴿إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة: ٦٦]؛ يعني: لا بدَّ، ولا محالة سنعذِّب طائفةً من هؤلاء الذين قالوا تلك المقالة الخبيثة، وبعفْونا وبفضلنا؛ مَن تاب وعاد إلى هذا الدين؛ فسوف نعفُوا عنه.

فيجب على المسْلِم أن يَحفظ لسانه، وأن لا يَتعرَّض لهذا الدين؛ لأنَّ اللَّه عز وجل هو ناصر هذا الدين؛ قال صلى الله عليه وسلم: «وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ»(١) ومِن غَلبتهِ: مَن أَنكر حرفاً واحداً من القرآن؛ يَخرج من الإسلام – والعياذ باللَّه –.

وتعظيم شعائر اللَّه؛ دليلٌ على التقوى في القلب؛ قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

(١)رواه البخاريُّ، كتاب الإيمان، باب الدين يُسر، رقم (٣٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ثُم ذَكر المصنِّف رحمه الله القصَّة فيما حَدث عند نزول هذه الآية، وما حَدث بعدها، فقال في **النَّصِّ الثاني**: (عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ، وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، وَقَتَادَةَ - دَخَلَ حَدِيثُ بَعْضِهِمْ فِي بَعْضٍ -) يعني: معاني أقوالهم متقاربةٌ؛ فساقها المصنِّف في جمْع أقوالهم في بيان المراد، فمُجمل ما قالوه ما ذَكره المصنِّف رحمه الله، كالملخِّص لتلك الأقوال.

(أَنَّهُ قَالَ رَجُلٌ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ: مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قُرَّائِنَا هَؤُلَاءِ؛ أَرْغَبَ بُطُوناً) المراد بالقرَّاء: النبي صلى الله عليه وسلم، وصحابته رضي الله عنهم؛ فقد رَزقهم اللَّه قراءة القرآن وفهْمه والعمل به.

ولم يَقصدوا بذلك حقيقة الاستهزاء؛ وإنَّما ليقطعوا به الطريق من عناء السفر، وليؤنس بعضهم بعضاً، وليَقطعوا به ما يَحدث لهم من مشقَّةٍ، وما يَحصل من تبسُّطٍ في أمور السفر من الأقوال والأفعال ونحو ذلك؛ لكن مجرد هذا اللَّفظ أَخرجهم من الدين.

(أَرْغَبَ بُطُوناً) يعني: أكبر بطوناً، يُحبُّون الأكل، ولا شكَّ هم كاذبون في ذلك، فالصحابة رضي الله عنهم جاعوا كثيراً، وأكْلهم قليلٌ، ولاقوا من المشاقِّ ما لاقوا؛ لكن هذا المنافق يَسخر بأهل الإسلام؛

لذلك عوف بن مالك رضي الله عنه قال: (**كَذَبْتَ؛ وَلَكِنَّكَ مُنَافِقٌ**)؛ لأَنَّه ذَكر صفاتٍ يَتصف بها المنافقون، فهذه الصفات الثلاثة التي وَضعها للنبي صلى الله عليه وسلم وصحابته رضي الله عنهم؛ ليست لهم، وإنَّما للمنافقين.

فالمنافقون هم أرغب بطوناً، والنبي صلى الله عليه وسلم في البخاري(١) أَخبر أنَّ «الْمُؤْمِنَ يَأْكُلُ فِي مِعىً وَاحِدٍ، والكَافِرُ يَأْكُلُ فِي سَبعَةِ أَمعَاءٍ»؛ وهذا حقيقةٌ، لذلك ترى الكافر على مائدة الطعام؛ يَأكل أكثر مِن أَكْل المؤمن، فدلَّ على أنَّ الكفار والمنافقين يَأكلون أكثر من المؤمنين.

وقد قيل: «إنَّا قومٌ لا نَأكل حتى نجوع - لأنَّ ليس لهم همَّة على الأكل -، وإذا أَكلنا لا نَشبع»؛ يعني: إذا أَكلْنا لا نُشبع بطوننا؛ وإنَّما يَأكلون ما يَسدُّون به جوعتهم.

---

(١) كتاب الأطعمة، باب: المؤمن يأكل في معىً واحدٍ فيه أبو هريرة، عن النبي صلى اللَّه عليه وسلم، رقم (٥٣٩٣)، من حديث ابن عمر رضي اللَّه عنهما.

وإلا فالنبي صلى الله عليه وسلم خَرج من بيته مِن شدَّة الجوع، ورَبَط الحجر على بطْنه، وفي غزوة الأحزاب رَبط الحجر على بطْنه مِن شدَّة الجوع.

وأبو هريرة رضي الله عنه كان يَسقط في الطرقات؛ مِن شدة الجوع، ويأتي الرجُل ويطأ على بطنه؛ قال: «ويظنُّ أنِّي مجنونٌ، وليس بي جنونٌ؛ وإنَّما هو الجوع»(١).

وكذا أبو بكرٍ وعمر رضي الله عنهما كما في مسلم(٢): خَرج عُمر بن الخطاب رضي الله عنه من الجوع، فرأى أبا بكرٍ رضي الله عنه خارجاً؛ قال: ما الذي أَخرجك؟

قال: الجوع.

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الاعتصام بالكِتاب والسُّنَّة، باب ما ذَكر النبي صلى اللَّه عليه وسلم وحَضّ على اتفاق أهل العِلم، وما أجمع عليه الحرمان مكة، والمدينة...الخ، رقم (٧٣٢٤).

(٢) كتاب الأشربة، باب جواز استتباعه غيره إلى دار مَن يثق برضاه بذلك، وبتحققه تحققاً تامّاً، واستحباب الاجتماع على الطعام، رقم (٢٠٣٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فرَأوا النبي صلى الله عليه وسلم خارجاً، فقالوا: ما الذي أخرجك يا رسول اللَّه؟

فقال: «أَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا»؛ يعني: الجوع.

فمِن شدة الجوع يَخرج خارج المنزل؛ يريد طعاماً، ولا يوجد.

وجَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فَقَالَ: إِنِّي مَجْهُودٌ، فَأَرْسَلَ إِلَى بَعْضِ نِسَائِهِ، فَقَالَتْ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ، مَا عِنْدِي إِلَّا مَاءٌ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى أُخْرَى، فَقَالَتْ مِثْلَ ذَلِكَ، حَتَّى قُلْنَ كُلُّهُنَّ مِثْلَ ذَلِكَ: لَا، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، مَا عِنْدِي إِلَّا مَاءٌ[(١)].

فهذا بيت النُّبوَّة، وبيت الرسالة، وأكثر من بيتٍ؛ ليس فيه سوى الماء، فأين أصحاب الجوع؟ وأين أصحاب الأكل؟ هل هم المنافقون؟ أم النبي صلى الله عليه وسلم؟ الذي يُخيَّر بين المُلك والرسالة، أو العبودية والرسالة؛ فيختار العبودية على المُلك.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الأشربة، باب إكرام الضيف وفضل إيثاره، رقم (٢٠٥٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وهو الذي قال اللَّه له: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً﴾ [الفرقان: ١٠]، ومع ذلك لم يُرِدْ ذلك، وأراد ما عند اللَّه؛ قال اللَّه له: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى﴾ [الضحى: ٤]، وقال له: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥]، فيُعطيه من الرفعة والعزة والمكانة يوم القيامة من جنات النعيم.

بل إنَّ اللَّه عز وجل نهى النبي صلى الله عليه وسلم أنْ يَتطلَّع إلى أمور الدنيا؛ قال سبحانه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾، فحتى الدنيا لا تَتطلَّع إلى ما فيها، وحتى بصرك لا تَرفعه إلى المساكن وغيرها، ثم قال اللَّه له - لمَّا قال له لا تَرفع بصرك -: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٣١]: ما ادَّخره اللَّه لك في الآخرة؛ خيرٌ من الدنيا ومتاعها.

فأين الآكلون؟ وأين الجائعون؟ وأين الذين صَرفوا عقولهم وقلوبهم للآخرة، وأين الذين يَتعلَّقون بالدنيا ويَتشبَّثون بها؟ بل الذين باعوا دينهم من أَجْل الدنيا؛ إذا ذَهبوا إلى الكفار؛ قالوا: إنَّا معكم، وإذا رأوا الذين آمنوا؛ قالوا: إنا معكم، يريدون الدنيا، ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا

قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

فدلَّ على كذبِ مقالة هذا المنافق، والحقيقة تُخالف ذلك.

والصحابي مُصعب بن عُميرٍ رضي الله عنه[١] مات ولم يجدوا قميصاً يُغطِّي جسده، إذا غَطُّوا وجْهه؛ خَرَجَت قدماه، وإذا غَطُّوا قدميه؛ خَرج وجهه، فَأَمَرَهُمُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم أَنْ يُغَطُّوا وَجْهَهُ؛ فَخَرَجَتْ قَدَمَاهُ[٢]، فهل هؤلاء أصحاب الدنيا؟ أم الذين زَهدوا في الدنيا؟

(وَلَا أَكْذَبَ أَلْسُناً) يعني: يَبهَت هذا المنافق - والعياذ باللَّه - صحابة النبي صلى الله عليه وسلم بالكذب، وهو من صفات المنافقين حقيقةً، فاللَّه قال عن المنافقين: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ

---

(١) هو: أبو عبد اللَّه مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي القرشي العبدري، أسلم ورسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ فِي دار الأرقم، استشهد يوم أحدٍ وعمره (٤٠) سنة. الاستيعاب لابن عبد البر (٤/ ١٤٧٣).

(٢) رواه الترمذي، أبواب المناقب، باب مناقب مصعب بن عميرٍ رضي الله عنه، رقم (٣٨٥٣)، من حديث خبَّابٍ رضي الله عنه.

لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]، واللَّه عز وجل قال عن المنافقين: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨].

وقال اللَّه عن الصحابة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، فالصحابة هم الصادقون؛ بل إنَّ قائد الصحابة بعد رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم، هو الملقَّب بتلك الصفة العظيمة: الصِّدِّيق؛ بل إنَّ امرأة الإسلام العظيمة ملقَّبةٌ بذلك اللَّقب: الصِّدِّيقة عائشة بنت الصِّديق رضي الله عنهما، فالمنافقون هم الكاذبون.

قال: (وَلَا أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ) يعني: أنَّ الصحابة جبناء رضي الله عنهم، وقد أَخبر اللَّه بأنَّ المنافقين هم الجبناء، ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ [الحشر: ١٤]، ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ العَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤]: إذا أتى عدوٌّ؛ ظنوا أنه سيَقتلهم، فيخافون.

(- يَعْنِي: رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَأَصْحَابَهُ القُرَّاءَ -)، يَسخر بالنبي صلى الله عليه وسلم، ويَسخر بالصحابة؛ فبهذه الألفاظ نَزل

القرآن بردِّته، فما الظنُّ بمن يَطعن في أصل التشريع من القرآن العظيم؛ بل وبالاستهزاء برب العالمين.

فلمَّا سَمع عوفٌ هذه المقالة العظيمة الأفَّاكة التي هم متَّصفون بها، ويَبهتون بها الصحابة رضي الله عنهم، والنبي صلى الله عليه وسلم؛ قال عوفٌ: (**لَأُخْبِرَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم**)؛ لأنَّه أمرٌ عظيمٌ، فقد بَهَت أفضل الصحابة؛ بأقبح البهتان.

قال: (**فَقَالَ لَهُ عَوْفُ بْنُ مَالِكٍ: كَذَبْتَ؛ وَلَكِنَّكَ مُنَافِقٌ لَأُخْبِرَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم**) (**مُنَافِقٌ**)؛ لأنَّه أظهر الإسلام، وذَهب مع النبي صلى الله عليه وسلم يجاهد في غزوة عَسِيرَة - غزوة تبوك - لكن في هذا السفر أَظهر اللَّه مُخبَّئات قلوبهم.

قال: (**فَذَهَبَ عَوْفٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لِيُخْبِرَهُ، فَوَجَدَ الْقُرْآنَ قَدْ سَبَقَهُ**) يعني: صَدَّقه وأَخبرَه قبل أنْ يأتي للنبي صلى الله عليه وسلم، وأَنزل اللَّه عز وجل تلك الآيات؛ إخباراً بتلك المقالة الخبيثة التي قالها وديعةُ بن ثابتٍ.

(**فَجَاءَ ذَلِكَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَقَدِ ارْتَحَلَ وَرَكِبَ نَاقَتَهُ، فَقَالَ**) أيْ: وَضَع رحله على بعيره، ورَكب على بعيره صلى

الله عليه وسلم، وهذا المنافق يَعتذر ويقول له: (يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ وَنَتَحَدَّثُ حَدِيثَ الرَّكْبِ) يعني: لا نَقصد بهذا الكلام شيئاً؛ وإنَّما من باب تبادل الأحاديث، (نَقْطَعُ بِهِ عَنَّا الطَّرِيقَ) طريق السفر؛ يعني: ليخفِّف عنَّا هذه المشقة بتبادل الأحاديث.

فدلَّ على أنَّ التلفظ بكلمة الاستهزاء، ولو كانت سخريةً ولو لم يَتعمَّد في إظهارها بما يقصدها؛ فهي ردَّةٌ - والعياذ باللَّه -.

فيَحكون ويَتحدَّثُون؛ يَقصدون به اللَّعب والمسامَرَة ونحو ذلك، لكنَّ الدين ليس فيه لعبٌ، وليس فيه مسامرةٌ، ليس فيه إلا الذلُّ والإخضاع لرب العالمين.

(قَالَ ابْنُ عُمَرَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ؛ مُتَعَلِّقاً بِنِسْعَةِ نَاقَةِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم) النِّسعة: الحبل الذي يكون على الرحْل، أو الخطام يُربَط به المتاع(١).

(وَإِنَّ الحِجَارَةَ تَنْكُبُ رِجْلَيْهِ وَهُوَ يَقُولُ) يعني: تَضرب قدميه، وهو متعلِّقٌ بالناقة، ويقول: يا رسول اللَّه (﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾)؛ ليبيِّن

(١) لسان العرب لابن منظور (٨/ ٣٥٢).

للنبي صلى الله عليه وسلم أنَّ فعْلهم هذا غير مقصودٍ، وإنَّما للتسلية فقط، والنبي صلى الله عليه وسلم عظيمٌ، ولا يحب هذه المقالة لصحابته رضي الله عنهم، ولا يرضى أنْ يَقدح أحدٌ في صحابته؛ فهم أهْل الصدق، وهم أهْل الإيمان، وهم الذين دافعوا وكافحوا لنصرة هذا الدين، ووقَفوا معه.

قال: (**فَيَقُولُ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾، مَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ، وَمَا يَزِيدُهُ عَلَيْهِ**) يعني: على قراءة هذه الآية عليه، فيزيد عليه ذلك الرجل يَعتذر، والنبي صلى الله عليه وسلم لا يزيد عن ذلك الكلام الذي نَزل مِن رب العالمين، ولا يَلتفت إليه؛ احتقاراً لشأنه، فقد قَدح في أفضل رجالٍ بعد الأنبياء، وذمَّ أعظم خلْق بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

فدلَّ على أنَّ المرء في جِدِّه ومِزاحه وحديث التسلية فيما هو ردَّة؛ ردّة - والعياذ باللَّه -؛ لذلك قال المؤلِّف رحمه الله(١): «وَلَا فَرْقَ فِي جَمِيعِ هَذِهِ النَّوَاقِضِ بَيْنَ الهَازِلِ وَالجَادِّ وَالخَائِفِ، إِلَّا المُكْرَهِ»، فيجب على الإنسان أن يَحفظ لسانه، وإذا أراد أن يَتكلَّم، ولا يريد أن يَذكر اللَّه؛

(١) متون طالب العلم، المستوى الأوَّل، نواقض الإسلام (ص٢٨).

فليتكلم في أمور الدنيا، كأن يقول: هذا شارعُ طويلٌ أو قصيرٌ، وعمودٌ طويلٌ وقصيرٌ، لكن لا يَتعرَّض للدين.

فتبيَّن ممَّا سبق: أنَّ مَن استَهزأ بالدين، أو استَهزأ بالنبي صلى الله عليه وسلم، أو بالقرآن؛ فإنه يَكفُر، حتى وإنْ لم يقصد ذلك الاستهزاء، حتى وإنْ قال: أَخشى أنْ أَفقد عملي، ورسمتُ هذه الرسمة – مثلاً – مِن أجْل الوظيفة؛ نقول: حتى ولو لم تقصد حقيقة الاستهزاء، فإنَّ مجرد الاستهزاء، والتلفُّظ به، أو إظهار بعض الأفعال في السخرية بالدين؛ يُخرج الشخص مِن الملَّة.

فواجبٌ على كلِّ عبدٍ أنْ يَحفظ لسانه عن هذا الدين؛ بل يجب عليه مع ذلك أن يُعظِّم هذا الدين، وأنْ يَنشر هذا الدين، وأنْ يحافظ على دينه، فلا يعلم الشخص أنَّه بكلمةٍ واحدةٍ؛ قد يَمرُق من هذا الدين – والعياذ باللَّه –، وهو لا يَشعر.

***

[٤٩]

بَابُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ الآيَةَ

قَالَ مُجَاهِدٌ: «هَذَا بِعَمَلِي، وَأَنَا مَحْقُوقٌ بِهِ».

وَقَالَ ابْنُ عَبّاسٍ: «يُرِيدُ: مِنْ عِنْدِي».

وَقَوْلُهُ: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ﴾

قَالَ قَتَادَةُ: «عَلَى عِلْمٍ مِنِّي بِوُجُوهِ المَكَاسِبِ».

وَقَالَ آخَرُونَ: «عَلَى عِلْمٍ مِنَ اللَّهِ أَنِّي لَهُ أَهْلٌ».

وَهَذَا مَعْنَى قَولِ مُجَاهِدٍ: «أُوتِيتُهُ عَلَى شَرَفٍ».

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «إِنَّ ثَلَاثَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ: أَبْرَصَ، وَأَقْرَعَ، وَأَعْمَى، فَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكاً.

فَأَتَى الْأَبْرَصَ، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: لَوْنٌ حَسَنٌ، وَجِلْدٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ.

قَالَ: فَمَسَحَهُ، فَذَهَبَ عَنْهُ قَذَرُهُ، وَأُعْطِيَ لَوْناً حَسَناً، وَجِلْداً حَسَناً.

قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟

قَالَ: الْإِبِلُ أَوِ الْبَقَرُ -شَكَّ إِسْحَاقُ-. فَأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ، وَقَالَ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا.

قَالَ: فَأَتَى الْأَقْرَعَ، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟

قَالَ: شَعْرٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ.

قَالَ: فَمَسَحَهُ، فَذَهَبَ عَنْهُ، وَأُعْطِيَ شَعْراً حَسَناً.

قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟

قَالَ: الْبَقَرُ أَوِ الإِبِلُ. فَأُعْطِيَ بَقَرَةً حَامِلاً، وَقَالَ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا.

قَالَ: فَأَتَى الْأَعْمَى، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟

قَالَ: أَنْ يَرُدَّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصَرِي، فَأُبْصِرَ بِهِ النَّاسَ.

قَالَ: فَمَسَحَهُ فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ.

قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟

قَالَ: الْغَنَمُ. فَأُعْطِيَ شَاةً وَالِداً.

فَأُنْتِجَ هَذَانِ، وَوَلَّدَ هَذَا؛ فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنَ الْإِبِلِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْبَقَرِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْغَنَمِ.

قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الْأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ قَدِ انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي؛ فَلَا بَلَاغَ لِيَ الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ

بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الحَسَنَ، وَالجِلْدَ الحَسَنَ، وَالمَالَ، بَعِيراً أَتبَلَّغُ بِهِ فِي سَفَرِي.

فَقَالَ: الحُقُوقُ كَثِيرَةٌ.

فَقَالَ لَهُ: كَأَنِّي أَعْرِفُكَ !أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ؛ فَقِيراً فَأَعْطَاكَ اللَّهُ؟!

فَقَالَ: إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا المَالَ كَابِراً عَنْ كَابِرٍ.

فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِباً؛ فَصَيَّرَكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ.

قَالَ: وَأَتَى الأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا.

وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَيْهِ هَذَا.

فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِباً؛ فَصَيَّرَكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ.

قَالَ: وَأَتَى الأَعْمَى فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ، انْقَطَعَتْ بِيَ الحِبَالُ فِي سَفَرِي؛ فَلَا بَلَاغَ لِيَ اليَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ، شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي.

فَقَالَ: قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصَرِي، فَخُذْ مَا شِئْتَ، وَدَعْ مَا شِئْتَ، فَوَ اللَّهِ لَا أَجْهَدُكَ اليَوْمَ بِشَيءٍ أَخَذْتَهُ لِلَّهِ.

فَقَالَ: أَمْسِكْ مَالَكَ؛ فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ؛ فَقَدْ رُضِيَ عَنْكَ، وَسُخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ» أَخْرَجَاهُ.

الشرح:

قال رحمه الله: (**بَابُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ الآيَةَ**).

الفرْق بين هذا الباب و (**بَابُ قَوْلِ اللَّهِ عز وجل: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾**):

المراد بهذا الباب أن يَنسب النِّعم إلى نفْسه، أمَّا ذاك الباب (**﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾**) لا يَنسب النِّعم إلى اللَّه، ولا إلى نفْسه، ولكن لغيرِه، مثل قوله: كان الملَّاح حاذقاً والريح طيِّبةً، ومثل: هذا مالي وَرثْتُه عن آبائي؛ يعني: الذي ورَّثني إياه هم آبائي، أمَّا هذا الباب فلا يَنسب النِّعم إلى اللَّه؛ وإنَّما يَنسبها إلى نفْسه.

وتفسير هاتين الآيتين الكريمتين يَرجع معناهما إلى أمرين:

الأمر الأوَّل معناه: أنِّي حاذقٌ في التجارة فأَصبح لي مالٌ كثيرٌ فنَسب الفعْل إلى نفْسه.

والأمر الثاني: لمَّا عَلم اللَّه بأنِّي أهلٌ لهذا المال؛ لأنَّ لي مكانةً وشرفاً، أعطاني اللَّه عز وجل هذا المال.

هذا معنى هاتين الآيتين.

ومِثل قوله عز وجل: ﴿فَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [الزمر:٤٨-٥١].

فكلُّ هذه الثلاث الآيات تَرجع إلى المعنيين: إمَّا لأنِّي ذكيٌّ وحاذقٌ في التجارة كَسبتُ هذا المال، فلم يَنسب النِّعمة إلى اللَّه عز وجل، أو: لأنَّ لي مكانةً وشرفاً أعطاني اللَّه عز وجل هذا المال؛ لشرفي ومكانتي ونَسَبي ومنْصبي ونحو ذلك -والعياذ باللَّه-، فلم يَنسب النِّعمة إلى اللَّه؛ لذلك قال: (بَابُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى) يعني: من التحذير مِن فِعْل ما حُذِّر به في هذه الآية، فلا تقع فيما حُذِّر به غيرك.

وساق المصنِّف رحمه الله هذا الباب في كتاب التوحيد؛ لبيان أنَّ نِسبة النِّعم إلى كسْب الإنسان وعملِه نوعٌ من الإشراك في الربوبية،

وكذلك نسْبة النِّعم إلى اللَّه لكن لأنَّ فلاناً أهْلٌ لهذه النِّعمة، ومستحقٌّ لها؛ أيضاً فيه إشراكٌ بالربوبية وتعَلِّي على اللَّه.

والمصنِّف رحمه الله ذَكر ثلاثة نصوصٍ:

النَّصُّ الأوَّل؛ لبيان أنَّ نسْبة النِّعم إلى عملِ الإنسان وجهْده نوعٌ من الإشراك باللَّه؛ لذلك قال سبحانه في آخر الآية: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فصلت: ٥٠].

والنَّصُّ الثاني: - (﴿**قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ**﴾) -: ساقها؛ لبيان أنَّ نسْبة النِّعم إلى اللَّه، ولكن سبب هذه النِّعمة من اللَّه للإنسان أنَّه مستحقٌّ لها؛ نوعٌ من الكُفر - والعياذ باللَّه -؛ ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾؛ أي: ابتلاءٌ وامتحانٌ، وظلْمٌ، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٤٩]، كما قال سبحانه: ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الزمر: ٥٠].

والنَّصُّ الثالث - وهو الحديث -؛ لبيان أنَّ نسْبة النِّعم لغير اللَّه مما يُسخِط اللَّه؛ لذلك في آخر الحديث: (**فَقَدْ رُضِيَ عَنْكَ**) أي: الأعمى، (**وَسُخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ**) أي: الأقرع والأبرص.

قال: (﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ﴾) أي: الإنسان، المراد: جنْس الإنسان، والمراد: أنَّ جنْس الإنسان في طبْعه إنكار النِّعم، ونِسبتها إلى نفْسه، والفخر بها، والاعتزاز بها دون نِسْبتها إلى مُسدِيها وهو اللَّه؛ كما قال سبحانه: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، ولكن الإيمان يُهذِّب تلك الصفات القبيحة.

(﴿رَحْمَةً مِنَّا﴾) يعني: مالاً ورخاءً وصحةً وعافيةً.

(﴿مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾) كالفقر والمرض والمصائب.

(﴿لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾) يعني: يَنسى ما أعطاه اللَّه عز وجل من النِّعمة التي كان محروماً منها؛ (﴿لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾).

(قَالَ مُجَاهِدٌ: «هَذَا بِعَمَلِي) مثل: لو أنَّ شخصاً كَسَب مالاً، وقال: نعم؛ هذا بسبب أنِّي أعمل وأجتهد، (وَأَنَا مَحْقُوقٌ بِهِ») أي: وأنا أَستحقُّ هذا الأمر، فأنا كَسبتُ هذا المال بعملي، وهو حقٌّ من حقوقي، فجَمعتُه بجهدٍ مني وذكاءٍ وحذقٍ في البيع والتجارة، وما عَلم هذا المسكين أنَّ هناك مَن هو أذكى منه لكنَّه فقيرٌ، وكم ممَّن هو أغبى منه وأغنى منه، فالمال في جمْعه ليس مردُّه إلى العقل، ولا مردُّه إلى بسْطة الجسم، فكم مِن

مُقعَدٍ أو كم من حملٍ وهو حملٌ في بطن أمِّه؛ يَرث مالاً فيكون أغنى من الذي عمره بلغ ستين عاماً.

فليست العبرة بالجسم، وليست العبرة بالذكاء؛ وإنَّما هذا رزقٌ يهبه اللَّه عز وجل مَن يشاء؛ قال سبحانه: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الشورى:١٩]، فالرزق راجعٌ إلى مشيئة اللَّه سبحانه، وإلى علْمه وإلى حكْمته؛ فهو يُعطي من يشاء ويَحرِم مَن يشاء، فيعطي مَن يشاء؛ بفضله وكرمِه، ويَمنع مَن يشاء بعدْله وحكْمته ورحمته أيضاً؛ لأنَّ العبد لا يَعلم فيما هو الخير له، فقد لو أُعطي مالاً يَطغى، لأن الأصل أنَّ المال يُطغِي، فحِرمان العبد من كثرة المال أو اقتصاره على العفاف؛ قد يكون خيراً له وهو لا يَعلم، واللَّه يقول:﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦].

فلا يجوز هذا الفعل؛ فهو إشراكٌ في الربوبية؛ لأنَّ اللَّه عز وجل هو المُنعِم عليك، فهو القادر على أن يَسلب هذه النِّعمة منك؛ كالحفظ والعقل ونحو ذلك، وكذلك قول بعض الناس: ذاكرتُ حتى نجحت، فنجحتُ بسبب كثرة المراجعة والمذاكرة؛ فهذا لا يجوز، وإنَّما يقول: بفضل اللَّه؛ قال سبحانه: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

قال: (وَقَالَ ابْنُ عَبّاسٍ: «يُرِيدُ: مِنْ عِنْدِي») يعني: هذا مِن عندي وبكسبي وبعملي؛ أي: أن هذه النِّعمة مِن عندي أنا وليست من عند اللَّه، فأنا الذي ذاكرتُ، وأنا الذي سهرتُ؛ وهذا لا يجوز - والعياذ باللَّه -؛ فاللَّه هو الذي أَسبغ عليكم النِّعمة.

وقال في الآية الثانية: (وَقَوْلُهُ: ﴿قَالَ﴾) أي: قارون: (﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ﴾).

هذا في قصَّة قارون لمَّا قال مِثل هذه المقالة، وافتَخر وتَكبَّر وتَجبَّر على اللَّه؛ خَسف اللَّه به وبداره الأرض؛ كما قال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ [القصص:٨١]؛ بل من شاهد أحواله في عصره؛ خَشي من تلك المعصية؛ بل فَرِحَ أنَّه لم يُعطَ مالاً؛ لشدَّة ما رآه من العقوبة؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [القصص:٨٢]، فقالوا: الحمد للَّه ما عِندنا مالٌ؛ وإلا لفُعل بنا مِثلما فُعل بقارون؛ فقارون أُعطي مالاً كثيراً.

قال سبحانه في وصْف كثرة ماله: ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ [القصص:٧٦]، فمعنى الآية: لكثرة كنوز ماله يَضعه في غُرَفٍ، وهذه الغرفة كبيرةٌ، وأبوابها كبيرة، المفاتيح يَصعب على الرجال الأقوياء حمْلها، لا يَحملونها إلا بشدة، فإذا كان الوصف هنا للمفتاح فما ظنُّك بالغرف، وما ظنُّك بما هو داخل الغرف من الكنوز: ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ [القصص:٧٦]؛ لكثْرة ماله فهذا المفتاح يَحمله الرجُل ويَتثاقل حمْله؛ لكِبَر هذا المفتاح.

ومع كلِّ هذا لم يَشكر نعمة اللَّه عليه؛ بل نَسب هذه النِّعمة إلى نفْسه: (﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ﴾).

(قَالَ قَتَادَةُ: «عَلَى عِلْمٍ مِنِّي بِوُجُوهِ المَكَاسِبِ») يعني: لأنِّي حاذقٌ وأَعرف أَكسب المال؛ جمعتُ هذا المال، وليس من اللَّه، وهذا المعنى الأول من معاني الآيات، إمَّا أن ينسب النِّعمة لنفسه، أو قال لعِلمه أنَّي محقوقٌ بهذا المال، وهذا معنى آخر، مثل قول مجاهد الآتي.

(عَلَى عِلْمٍ مِنِّي بِوُجُوهِ المَكَاسِبِ) أي: أعطاني اللَّه هذا المال؛ لأنَّه يَعلم كيف أَتصرَّف فيه وأنمِّيه؛ وهذا لا يجوز، فاللَّه عز وجل يُعطي

ويَمنع كما يشاء، وليس من أجْل صفات الإنسان؛ قال سبحانه: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

فهنا نسَب النِّعمة للَّه، فقال: اللَّه أعطاني لكن لأنَّ عندي ذاكرةً قويةً في الحفظ وجَّهني للعِلم؛ وهذا لا يجوز، وإنَّما يقول الشخص: طلبتُ العِلم بفضل اللَّه وحْده، ورَزقني قوة الحفظ بفضل اللَّه وحده.

وكذلك البعض إذا أتاه مالٌ، أو شيءٌ يُفرِح يُقال له: تستاهل هذا الأمر؛ يعني: أنت حقيقٌ به، ومنه أيضاً عكس ذلك: لو أنَّ شخصاً مَرض أو أتاه حادثٌ يقول بعض الناس: حرامٌ يَحصل له هذا؛ وهذا من الاعتراض على أفعال اللَّه وإشراكٌ في الربوبية.

قال: (وَقَالَ آخَرُونَ: «عَلَى عِلْمٍ مِنَ اللَّهِ أَنِّي لَهُ أَهْلٌ») يعني: أَستحقُّ هذا المال؛ لذلك اللَّه عز وجل أعطاني هذا المال، وسواء في المال، أو في العِلم، أو في الزوجة؛ فمثلاً: لو تزوج شخصٌ امرأةً صالحةً عاقلةً فيقول: نعم أنا أستاهل هذه المرأة؛ لأني رجُلٌ عاقلٌ، وطالب عِلمٍ؛ فهذا لا يجوز، وإنما هذه هبةٌ من اللَّه، فاللَّه أعطاك إيَّاها.

قال: (وَهَذَا مَعْنَى قَولِ مُجَاهِدٍ: «أُوتِيتُهُ عَلَى شَرَفٍ») يعني: لشَرَفي ومكانتي؛ اللَّه أعطاني هذه النِّعمة، أو لنَسَبي وجَاهِي وهكذا، يَعني: لمَّا

عَلم اللَّه أني ذو مكانةٍ في قومي أعطاني هذا المال، فكأنَّه هو أَكره اللَّه عز وجل على إعطائه هذا المال، ولم يَحمد النِّعم التي أعطاها إياه.

(**وَهَذَا مَعْنَى قَولِ مُجَاهِدٍ: «أُوتِيتُهُ عَلَى شَرَفٍ»**) يعني: على مكانةٍ وعزَّةٍ ونحو ذلك.

والواجب نسبة النِّعم إلى اللَّه وحده؛ قال جل وعلا: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾ [سبأ: ٢٤]، وقال سبحانه: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]، ﴿بَاطِنَةً﴾ يعني: ممَّا في القلوب من الإيمان والتقوى والصلاح والتوكُّل والخوف من اللَّه وهكذا.

فتبين ممَّا سبق: أنَّ الواجب على العبد أن يُسدِي النِّعمة إلى اللَّه عز وجل بنسبتها له؛ كما قال عز وجل: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وقال سبحانه ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران:٧٣]، وقال: ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ﴾ [الحديد:٢٩]، فهو المعطي يُعز من يشاء ويُذل من يشاء، وقال سبحانه: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢]، وقال:

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾ [سبأ:٢٤]، فالرزق بيده سبحانه.

فواجبٌ على العبد أن ينسب النِّعمة إليه سبحانه، ومع نسْبة النِّعمة إلى اللَّه يجب على العبد أيضاً أن يَشكر هذه النِّعمة، ومن شُكرها استخدامها في طاعة اللَّه جل وعلا، ولا تُستخدم في معصيةٍ؛ قال سبحانه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم:٧]، وكذلك إقرار القلب بأنَّها من اللَّه، فعملُ الجوارح ونطْقُ اللَّسان واعتقادُ القلب بأنَّها من اللَّه.

قال رحمه الله: (وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «إِنَّ ثَلَاثَةً) أي: ثلاثة رجالٍ، (مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ) وبنو إسرائيل هم: مَن كان مِن نسلِ يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام.

وقد كان النَّبي صلى الله عليه وسلم يُكثر من قصصهم؛ لقُرب زمانهم منَّا، ولأنَّ بني إسرائيل أُعطوا نعماً كثيرةً فكَفروا إلا قليلاً منهم، ولأنَّ اللَّه عز وجل رَحِمهم بالأنبياء، ومع ذلك اللَّه يقول: ﴿وَيَقْتُلُونَ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ١١٢]، ولأنَّهم عُرفوا بجحد النِّعم؛ ولذلك

قَصَّ اللَّه عز وجل علينا من قَصَصِهم في القرآن كثيراً، مثل قوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] وهكذا.

ومِن رحمة اللَّه عز وجل أن ضَرب لنا أمثال غيرِنا ولم تُضرَب أمثالنا لغيرنا؛ لأنَّ أمَّتنا هي خير الأمم، فضَرَب مَثَلَ الهالكين من الأمم السالفة لنا؛ لنَعتبر ونَتَّعظ، وهذا يدلُّ على شرَف هذه الأمة؛ فلم يجعلنا نحن المعتبَر بنا، فيجب على الشخص أن يُنبِّه نفسه؛ لئلَّا يكون هو من الموعِظات.

وهذا الحديث حديثٌ عظيمٌ كثير الفوائد عظيم العِظات والمواعظ.

وفيه تذكير باللَّه سبحانه وسرعة تغيُّر وتقلُّب الأحوال، وهذه القصة في ثلاثةٍ من بني إسرائيل، وهي قصةٌ أراد اللَّه عز وجل أن يبتليهم بها، وله سبحانه أن يَفعل ما يشاء، فصَوَّر الملَك في صورة أبرصٍ، ثُمَّ صوَّره في صورة أقرعٍ، ثم صَوَّر الملَك في صورة أعمى ورجلٍ فقيرٍ، فلله عز وجل أن يَفعل ما يشاء، وله أيضاً - أي: للملَك - أن يقول ما أمَره اللَّه عز وجل به، فتَمثَّل ذلك الملَك بأنَّه رجُلٌ فقيرٌ ،كما تَمثَّل أيضاً - في

قصة لوطٍ - الملائكة على أنهم ضيوف له، فلله عز وجل أن يُهيئ صورة الملائكة في أيِّ صورةٍ شاء.

ولا يُحتجُّ بمثل هذا على جواز الكذب ونحو ذلك، فإذا قيل لك: ما وجه الاستدلال؟

تقول: لأن اللَّه عز وجل هنا هو الذي أَذن وأَمر الملَكين بأن يفعلا ما أمرهم اللَّه عز وجل به، أمَّا البشر فمنهيُّون أن يَفعلوا الكذب مثلاً، أو يُمثلوا صورةً غير صورةٍ حقيقيةٍ.

وهذا يدلُّ أيضاً على عظمة اللَّه عز وجل، فله أن يُغيِّر أشكال خلْقه بما شاء؛ أبرصٌ يَبرأ، وأقرعٌ يُنبَت له، وأعمى يُبصر، وإعادة أحوالهما سليمة، ثم إعادة حالين منهما - وهما الأبرص والأقرع - إلى الحالة التي كانت من قبل، وأيضاً تشكيل الملَك في الصورة التي أرادها اللَّه عز وجل.

وهذا يدلُّ على أنَّ اللَّه هو الخالق، فالذي غيَّر هذه الأشكال وبسرعةٍ وقوَّةٍ، ولا يَظهر للرائي تغيُّر الحال؛ هذا يدلُّ على أنه عز وجل هو الواحد الخالق وحْده سبحانه؛ لذلك من تعظيم الربوبية: الإقرار بأنَّ اللَّه هو الخالق الرازق المدبِّر.

والمصنِّف ساق هذا الحديث؛ لِلَفظة: (**إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا المَالَ كَابِراً عَنْ كَابِرٍ**)، فهذه هي اللَّفظة التي قالها الأبرص، واللَّفظة التي قالها الأقرع.

وهذه القصة التي ابتلى اللَّه عز وجل بها ثلاثة رجالٍ من بني إسرائيل، هلك اثنان ونجا واحدٌ؛ نجا الأعمى، ولعلَّ الأعمى فيه قربٌ وخوفٌ من اللَّه عز وجل؛ لعِظَم النعمة التي فَقدها وهي عدم الإبصار فشَكر تلك النِّعمة.

ويدلُّ أيضاً على كثرة الهالكين؛ فهم ثلاثةٌ هلك اثنان ولم ينجُ سوى واحد.

والإنسان لا يَعلم كيف تقلُّب أحواله، فهم لمَّا كانوا على تلك الحال وهي حال المرض بأنواعه الثلاثة؛ كانوا شاكرين لم يعتَرِهم شيءٌ، فلمَّا أتت النِّعمة غيَّرت مِن حالِ مَن غيَّرت منهم، فيدلُّ على أن الشخص تُغيِّره النِّعمة؛ إلا من ثبَّته اللَّه، واللَّه يقول: ﴿كَلَّا إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق:٦-٧].

وهذا الحديث ينبغي أن يقصَّه الأب أو الأخ أو الزوج على أهله وزوجته؛ لأنَّ فيه عبرةً وعظةً وذكرى وخوفاً من اللَّه عز وجل في سرعة

تبدُّل النِّعم، وسرعة تبدُّل الحال، وسرعة العذاب أيضاً؛ فهو أعطي مالاً ثُم نُزِعَه، وشُفي من البرص والمرض ثم عاد إليه المرض وهكذا.

ويدلُّ هذا الحديث أيضاً على أنَّ حال المرء لا تَثبت على حالٍ؛ فمِن مرضٍ إلى عافيةٍ إلى مرضٍ، أو من مرضٍ إلى عافيةٍ إلى دوام العافية، ومِن فقرٍ إلى غنىً إلى فقرٍ، وأيضاً بالنسبة للأعمى مِن فقرٍ إلى غنىً وشُكر نعمة اللَّه.

ويدلُّك أيضاً على قلَّة الشاكرين لنِعَم اللَّه؛ فلم يَشكرها سوى واحدٍ، وكفَرها اثنان، وهذا كما قال سبحانه: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣]، وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [النمل:٧٣]، فالقلَّة من العباد هم الشاكرون، والكثرة هم الجاحدون لنعمة اللَّه؛ كما قال اللَّه: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الكَافِرُونَ﴾ [النحل: ٨٣].

فهنا قال: (أَبْرَص) البرَص: تغيُّر لون الجلد إلى البياض، (وَأَقْرَع) القرَع: هو تساقط الشعر وزواله من الرأس، (وَأَعْمَى) العمى: ذهاب ضوء العينين، ولا يكون العمى إلا بالعينين جميعاً؛ أمَّا إذا ذَهب بعض العين وبقي الآخر لا يُسمى عمىً؛ وإنما يُسمَّى عَمَشاً.

(فَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ) أي: يَختبرهم، وهذه نعمٌ متنوعةٌ بعضها أخفُّ من بعضٍ، (فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكاً) أي: متمثِّلاً بصورة إنسانٍ.

وهذا يدلُّ على كمال قدرة اللَّه في ذلك وفي غيره.

(فَأَتَى الْأَبْرَصَ) أي: الملَك وهو في صورة بشَرٍ.

(فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟) أي شيء تريد؟ فالنفس دائما تَبحث عن نقْص نفْسها، فذكرتْ ما يُحدِّث به الناس عنه، وهذه طبيعة البشر وهو الجزع مما يصاب به، فينظر النِّعمة التي انتُقصها ولا يَنظر إلى النِّعم التي أُعطِي إياها.

(فَقَالَ) فقال هذا الأبرص: (لَوْنٌ حَسَنٌ، وَجِلْدٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ) يعني: قد كَرهوا مجالستي أو كَرهوا النظر إليَّ؛ بسبب هذا البرص؛ يعني: يَذهب عني هذا اللَّون حتى أعيش مع الناس فلا يسخرون بي ولا يستهزءون.

وهذا يدلُّك أيضاً على أنَّ المعافى يَسخر من غيْره، فحتى المعافى لا يَشكر النِّعمة؛ بل يَطعن في غيره؛ لقلَّة شُكر نعمة اللَّه عز وجل عليه فيَتطاول على غيره.

(فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ قَذَرُهُ، وَأُعْطِيَ لَوْناً حَسَناً، وَجِلْداً حَسَناً)

فمَسح الملَك عليه فبَرأ، وهذه آية من آيات اللَّه؛ بمسحةٍ واحدةٍ تَغيَّر اللَّون.

وهذا يدلُّك على أنَّ اللَّه هو الخالق المدبِّر؛ فهو الذي دبَّر هذا الأمر سبحانه؛ قال اللَّه: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ [يونس: ٣]، فمسح فبرأ بإذن اللَّه.

وهذا فيه آيةٌ من آيات اللَّه في تغيُّر الحال؛ قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

وهذا يدلُّ على قُدرة اللَّه سبحانه؛ لأنَّ البرص في غالب الأحيان لا يَبرأ.

ثُم بعد ذلك لمَّا أُعطي نعمة البدن التي كان يرى أنه ناقصٌ بسببها؛ (قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟) وهذا يدلُّ على كثرة نِعم اللَّه على عباده.

ويدلُّ على كرمِ اللَّه عز وجل؛ فيُعطي صحة البَدَن، ويُعطي أيضاً من المال ما شاء، وهو الفتَّاح العليم سبحانه.

ويدلُّ على أن النِّعم إذا لم يتقِّ المرء ربَّه فيها؛ قد تزول، فمِثل هذا الأبرص كَفر هذه النِّعمة؛ فسَخط اللَّه عليه - كما سيأتي بإذن اللَّه -،

وكذلك الإنسان قد يَضلُّ بسبب فتنة نزول الماء؛ قال عليه الصلاة والسلام في الحديث القدسي: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ»(١).

(قَالَ: الإِبِلُ أَوِ البَقَرُ) يَطمع البشر ويريد زيادةً أيضاً، مِثلما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لَابْتَغَى ثَالِثاً، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ»(٢)، والحديث كان آيةً ثم نُسخ لفظاً(٣).

---

(١) رواه البخاريُّ، أبواب الاستسقاء، باب قول اللَّه تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «شُكْرَكُمْ»، رقم (١٠٣٨)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب بيان كُفر من قال: مُطرنا بالنوء، رقم (٧١).

(٢) رواه البخاريُّ، كتاب الرقاق، باب ما يُتَّقى من فتنة المال، رقم (٦٤٣٦)، من حديث ابن عباسٍ رضي اللَّه عنهما، ومسلمٌ، كتاب الزكاة، باب لو أن لابن آدم واديين لابتغى ثالثاً، رقم (١٠٤٨)، من حديث أنس ين مالكٍ رضي اللَّه عنه.

(٣) قال أبيٌّ رضي اللَّه عنه: «كُنَّا نَرَى هَذَا مِنَ القُرْآنِ، حَتَّى نَزَلَتْ: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾». رواه البخاريُّ، كتاب الرقاق، باب ما يُتَّقى من فتنة المال، رقم (٦٤٤٠).

وقال أبو موسى الأشعري رضي اللَّه عنه: «وإنا كنا نقرأ سورةً، كنا نُشبِّهها في

فطَلَبَ هذا الرجُل المريض زيادة مالٍ، وطلبُ الزيادة والمزيد من اللَّه عز وجل؛ مطلوبٌ؛ لأنَّ اللَّه عز وجل هو الذي أمرنا أن نسأله المزيد؛ قال سبحانه: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء:٣٢].

وموسى عليه السلام قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص:٢٤]؛ أي: كلُّ ما تعطيني إيَّاه من عطاءٍ فأنا فقيرٌ إليك أريد زيادة.

وأيوب عليه السلام في صحيح البخاريِّ(١) لَمَّا نَزَلَ عَلَيْهِ رِجْلُ جَرَادٍ مِنْ ذَهَبٍ، جَعَلَ يَحْثِي فِي ثَوْبِهِ، فَقِيلَ لَهُ أَنتَ يَا أَيُّوبُ؟! قَالَ: لَا غِنَى بِي عَنْ بَرَكَتِكَ.

الطول والشدة ببراءة، فأنسيتها، غير أني قد حفظت منها: لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ، لَابْتَغَى وَادِياً ثَالِثاً، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ». رواه مسلمٌ، كتاب الزكاة، باب لو أن لابن آدم واديين لابتغى ثالثاً، رقم (١٠٥٠).

(١) كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، رقم (٣٣٩١)، من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه، ولفظه: «بَيْنَمَا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ عُرْيَاناً، خَرَّ عَلَيْهِ رِجْلُ جَرَادٍ مِنْ ذَهَبٍ، فَجَعَلَ يَحْثِي فِي ثَوْبِهِ، فَنَادَاهُ رَبُّهُ: يَا أَيُّوبُ أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتُكَ عَمَّا تَرَى؟، قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ؛ وَلَكِنْ لَا غِنَى لِي عَنْ بَرَكَتِكَ».

فالشخص طلب من اللَّه المزيد؛ كما قال اللَّه: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء:٣٢]، ﴿وَاللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ﴾ [البقرة:١٠٥].

فسَأل هذا ماذا تريد من المال؟ لتكتمل له النِّعمتان: نِعمة البدن، ونِعمة المال، فلا يَتشكى مِن شيءٍ؛ فقال: **(الإِبِلُ أَوِ البَقَرُ)**.

(-شَكَّ إِسْحَاقُ -) يعني: شكَّ إسحاق راوي الحديث: هل قال الإبل أم البقر، ويَظهر من السياق أنَّه إبلٌ لذلك قال: **(فَأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ)** أي: حاملاً، وهذا من فضل اللَّه عز وجل عليه؛ ليَكثر نسْل تلك الناقة سريعاً فأعطي عشراء لقُرب ولادة أخرى معها.

(وَقَالَ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا) دعا الملَك له بالبركة، وهكذا يُشرع لمَن أَعطَى مالاً كان هو السبب فيه؛ بالدعاء بمثل ذلك: بارك اللَّه لك فيه.

ثُم بعد ذلك هذا الملَك **(أَتَى الأَقْرَعَ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟)** أي شيءٍ تريد، فذَكر له الأمر الذي يَتأذَّى منه.

(قَالَ: شَعْرٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ) يعني: يريد أن يَنبت شَعره، فلم يَنظر إلَّا إلى النِّعمة التي يرى أنها ناقصةٌ فيه مثل الأبرص.

وهو – أي الأقرع – مِن أقلِّ أصحابه الاثنين ابتلاءً؛ لأن القرع لا يَتأذى منه ولا يَتضرر كالعمى مثلاً.

(قَالَ: شَعْرٌ حَسَنٌ) وهذا يدلُّ على أن الذي يجمِّل الإنسان هو الشعر الحَسن.

(قَالَ: فَمَسَحَهُ، فَذَهَبَ عَنْهُ، وَأُعْطِيَ شَعْراً حَسَناً) فمسحه، فبإذن اللَّه أُعطي شَعراً حسناً.

وهذا يدلُّ – كما سَبق – على أن اللَّه عز وجل على كلِّ شيءٍ قديرٍ، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر:٥٠].

ثُم بعد ذلك خُيِّر أيضاً مِن أيِّ المال أَحبَّ، وهذا من فضْل اللَّه يُعطي من غير حسابٍ.

(قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: البَقَرُ أَوِ الإِبِلُ) وهذا يدلُّ على طمعِ الإنسان وحُبِّه للدنيا، فيذهب عنه المرض ويَطلب أيضاً نعيماً، **(فَأُعْطِيَ بَقَرَةً حَامِلاً)** لقرب زمن الولادة لكثرة النسل، وهذا مِن فضْل اللَّه لكي يَتنعم بسرعة نتاجها، **(وَقَالَ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا)**.

(قَالَ: فَأَتَى الأَعْمَى) وهو الذي قد أَفلح في هذا الابتلاء – كما سيأتي –؛ **(فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: أَنْ يَرُدَّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصَرِي،**

﴿فَأُبْصِرَ بِهِ النَّاسَ، قَالَ: فَمَسَحَهُ فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ﴾ بأمر اللَّه، وهذا يدلُّ على وجوب تعلُّق القلب باللَّه، وسؤاله كلَّ شيءٍ؛ لأنه على كلِّ شيءٍ قديرٍ؛ فأَبرأ الأبرص وشفى الأقرع ورَدَّ بصر الأعمى، وهو المتصرِّف كما يشاء سبحانه.

فرَدَّ عليه، فقال للأعمى: ﴿فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الغَنَمُ، فَأُعْطِيَ شَاةً وَالِداً﴾ فطَلَبَ مِن أصغر البهائم - الغَنَم -؛ لتواضعه، ممَّا يدلُّ على سلامة قلبه في أصله لا يريد الجَشع ونحو ذلك؛ وإنَّما يريد الكفاف بهذا المال - الغَنَم -.

والنبي صلى الله عليه وسلم قال: «فِي أَهْلِ الغَنَمِ السَّكِينَةُ وَالتَّوَاضُعُ»، والحديث في البخاري[١].

ثم بعد ذلك أراد اللَّه عز وجل أن يَنظر إلى هذا الابتلاء، ﴿فَأُنْتِجَ هَذَانِ﴾ يعني: من الإبل والبقر، ﴿وَوَلَّدَ هَذَا﴾ من الغنم بإذن اللَّه لـمَّا أُعطي الغَنَم تَناسل الغنم.

---

(١) كتاب بدء الخلق، باب: خيْر مال المسْلِم غنمٌ يتبع بها شعف الجبال، رقم (٣٣٠١)، من حديث أبي هريرة رضيي اللَّه عنه، ولفظه: «وَالسَّكِينَةُ فِي أَهْلِ الغَنَمِ».

وهذه القصَّة عظيمةٌ، وأَخبر اللَّه عز وجل أنَّ في قَصَصِ الأمم السابقة عبرةً فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾ [يوسف: ١١١]؛ لذلك قال المصنِّف رحمه الله: «وفي هذه القصة عبرةٌ عظيمةٌ»(١).

(فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنَ الإِبِلِ) يعني: للأبرص.

(وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ البَقَرِ) يعني: للأقرع.

(وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الغَنَمِ) يعني: للأعمى.

وهذا يدلُّ على أنَّ اللَّه هو الرزاق، كانوا فقراءً فأصبحوا يَملكون أموالاً بالأودية لكثرتها، وهذا يدلُّ على فضْل اللَّه الواسع، ويضاعف سبحانه في الرزق لمَن يشاء في الدنيا وفي الآخرة فلمَّا أُعطي هؤلاء؛ بعد فترةٍ أتى الملَك وتَصوَّر بصورهم السابقة التي كانوا عليها؛ ابتلاءً لهم ليُنظَر من الشاكر منهم، فأتى أوَّل ما أتى إلى الرجل الذي أتاه أوَّلاً وهو الأبرص.

(قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى) أي: الملَك، (الأَبْرَصَ) أي: أتى إلى الأبرص، (فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ) يعني: أنَّ اللَّه قد صوَّر هذا الملَك كأنَّ به بَرَصٌ،

(١) كتاب التوحيد (ص٣٧٥).

واللَّه عز وجل قادرٌ على كلِّ شيءٍ؛ يعني: أتى الملَك في صورة ذلك الرجل الذي فيه البَرَص.

(فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ قَدِ انْقَطَعَتْ بِيَ الحِبَالُ فِي سَفَرِي) يعني: أنا رجُلٌ مسكينٌ وعابر سبيلٍ قد انقَطعتْ بي الحبال والوسائل في سفري ولا بلاغ لي إلا باللَّه.

فإذا قيل: هل الملائكة تَكذب؟

نقول: لا؛ وإنَّما هذا ابتلاءٌ للإنسان، واللَّه عز وجل هو الذي أَمرهم بذلك.

(فَلَا بَلَاغَ لِيَ اليَوْمَ) يعني: في الوصول إلى أهلي بعد انقطاعي في سفري هذا، (إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ) يعني: ممَّا تعطيني إياه من الإعانة.

وهذا يدلُّ على أنه يجوز للشخص أن يقول: ليس لي بلاغٌ إلا باللَّه ثم بك؛ يعني: ليس لي عونٌ إلا باللَّه ثم بك، فيدلُّ على صحة تلك اللَّفظة.

(أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الحَسَنَ)؛ لأنَّ هذا الأبرص زال عنه البرص، (وَالجِلْدَ الحَسَنَ) أي: أن الجِلْد عاد كأن لم يكن فيه برصٌ مِن قبْل؛ يعني: اللَّون ذَهبَ، وأتى لونٌ مناسبٌ، والجِلْد عاد إليه كأنَّه ليس هناك فيه بَرَصٌ مِن قبْل، (وَالمَالَ) لأنَّه رأى إبل ذلك الرجُل كثيرةً كما في

الحديث، فذَكَّره بالنِّعم السابقة وذَكر حاله - يعني: حال هذا المنقطِع - ، فقال: أنا رجُلٌ ابن سبيلٍ وفقيرٌ ومنقطعٌ ما عندي شيءٌ؛ ليحنِّن قلبه عليه، وسَأله فقال: إنِّي ليس لي وسيلةٌ للوصول إلى بلدي إلا باللَّه عز وجل ثم بك.

(بَعِيراً أَتَبَلَّغُ بِهِ فِي سَفَرِي) محتاجٌ أعطني، ساعدْني، (فَقَالَ) - متنكِّراً لذلك السائل وجاحداً لنعَم اللَّه عليه -: (الحُقُوقُ كَثِيرَةٌ) يعني: عليَّ حقوقٌ كثيرةٌ من الديون ونحو ذلك؛ فلا أستطيع أن أعطيك شيئاً؛ يعني ما معناه: أنا مُطالَبٌ بأموالٍ كثيرةٍ، أو: أنا أعطي ناساً كثر ولم يبقَ من المال الذي أَتصدَّق به شيءٌ؛ وهو في ذلك كاذبٌ غير صادقٍ.

فبَخل بما أعطاه اللَّه من المال بعد أن كان رجُلاً فقيراً مريضاً بالبرص.

(فَقَالَ لَهُ: كَأَنِّي أَعْرِفُكَ) هنا قال: كأنِّي أَعرفك، والملَك لا شكَّ يعرفه؛ وإنَّما من باب الإيهام له والابتلاء.

(أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ؛ فَقِيراً فَأَعْطَاكَ اللَّهُ؟!) يعني: ألم تكن أبرص فصيَّرك اللَّه إلى هذا اللَّون والجِلْد الحَسن، فجَحد نعْمة اللَّه عز وجل عليه.

(فَقَالَ: إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا المَالَ كَابِراً عَنْ كَابِرٍ) فهو جَحد هاتين الصفتين اللَّتَين كانتا فيه، وهذا الشاهد.

والمصنِّف رحمه الله ساق هذا الحديث الطويل؛ من أجل هذه الكلمة؛ يعني: (**إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا المَالَ كَابِراً عَنْ كَابِرٍ**)؛ يعني: أنا ورثتُه من أبي، ووالدي وَرثه عن أبيه، وهكذا، فلم يَنسب تلك النِّعمة إلى اللَّه عز وجل؛ بل كَذب في ذلك.

وهذا مِن وصْف التجَّار الذي يَغلب عليهم؛ وهو الكذب؛ لذلك النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ التُّجَّارَ هُمُ الفُجَّارُ»[1]، فوصَفهم بالفجور؛ لأنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال «وَالكَذِبُ يَهْدِي إِلَى الفُجُورِ»[2].

---

(١) رواه أحمد في المسند، رقم (١٥٥٣٠)، من حديث عبد الرحمن بن شبل رضي اللَّه عنه.

(٢) رواه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب قول اللَّه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، وما يُنهى عن الكذب، رقم (٦٠٩٤)، ومسلمٌ، كتاب البرِّ والصلة والآداب، باب قبْح الكذب وحُسن الصدق وفضْله، رقم (٢٦٠٧)، من حديث عبد اللَّه ابن مسعودٍ رضي اللَّه عنه.

والنبي صلى الله عليه وسلم يُحذِّر من تلك الخَلَّة للمتبايِعَيْن؛ لكثرة ما هو غالبٌ فيهم، لذلك قال عليه الصلاة والسلام: «فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا»(١)، فالغالب عليهما الكذب؛ لذلك النبي صلى الله عليه وسلم دائما يُحذِّر الباعَة من الكذب، ويُحذِّر في الحديث الآخر مُنفِقٌ سِلْعَتَهُ بِاليَمِيْنِ الكَاذِبَةِ(٢)، فهنا

(١) كتاب البيوع، باب إذا بيَّن البيعان ولم يكتما ونَصحا، رقم (٢٠٧٩)، ومسلمٌ، كتاب البيوع، باب الصدق في البيع والبيان، رقم (١٥٣٢)، من حديث حكيم بن حزامٍ رضي اللَّه عنه.

(٢) يشير إلى حديثٍ رواه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار، والمنّ بالعطية، وتنفيق السلعة بالحلف، وبيان الثلاثة الذين لا يُكلّمهم اللَّه يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، رقم (١٠٦)، من حديث أبي ذرٍّ رضي اللَّه عنه، ولفظه: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، قَالَ: فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثَ مِرَاراً، قَالَ أَبُو ذَرٍّ: خَابُوا وَخَسِرُوا، مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الْمُسْبِلُ، وَالْمَنَّانُ، وَالْمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ».

هذا الأبرص جَحد نعْمة اللَّه، وكذب؛ وهذه طبيعة التجار: الكذب؛ إلَّا من رحمه اللَّه عز وجل.

قال: (**إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا المَالَ كَابِراً عَنْ كَابِرٍ**) فلم يَنسب النِّعمة لنفسه؛ كما قال قارون: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص:٧٨].

فطبْع الإنسان: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ [فصلت:٥٠]؛ يعني: هذا بكسبي وأنا محقوق به ونحو ذلك.

(**فَقَالَ**) الملَك: (**إِنْ كُنْتَ كَاذِباً؛ فَصَيَّرَكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ**) ذَكر هذه الصيغة بالماضي؛ من باب تحقيق الوقوع؛ لأن الملَك دعا عليه ودعوته مستجابةٌ؛ يعني: اللَّهم صيِّره إلى ما كان مِن قبل، والذي كان فيه من قبل أمران: **الأمر الأوَّل**: البرص، **والأمر الثاني**: الفقر، ولا شك أنَّه عاد إلى تلك الحال؛ بسبب تلك الدعوة.

وهذا يدلُّ على أنَّ جحود النِّعمة؛ يُزيل النِّعمة؛ قال سبحانه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم:٧]، فجَحَد هذا النِّعمة؛ فزالت تلك النِّعمة.

وفي هذا دليلٌ على وجوب شُكر نِعَم اللَّه، والتحذير مِن جحودها، ومِن جحودها: نسْبتها إلى نفسك أو نسبتها إلى غيرك من غير اللَّه، فالواجب أن تنسب النِّعم إلى اللَّه.

وهذا يدلُّ على جواز التعليق في الدعاء، مثل أن يقول شخصٌ: اللَّهمَّ إن كان دخولي في الجامعة الفلانية خيراً لي فوفقني لذلك – في دعائه في غير دعاء الاستخارة – فيجوز.

(قَالَ: وَأَتَى الأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا، وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَيْهِ هَذَا، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِباً؛ فَصَيَّرَكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ).

ثُم بعد ذلك أتى ذلك الذي نجَّاه اللَّه من الابتلاء وهو الأعمى؛

(قَالَ: وَأَتَى الأَعْمَى فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ، انْقَطَعَتْ بِيَ الحِبَالُ فِي سَفَرِي؛ فَلَا بَلَاغَ لِيَ اليَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ، شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي، فَقَالَ: قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصَرِي) فتَذكَّر ما كان فيه، وشَكر النِّعمة التي هو فيها.

(فَخُذْ مَا شِئْتَ) يعني: من الغَنَم، (وَدَعْ مَا شِئْتَ) وهذا من باب شُكر النِّعمة؛ إذ لم يرُدَّ السائل الفقير.

(فَوَاللَّهِ لَا أَجْهَدُكَ اليَوْمَ بِشَيءٍ) يعني: لا أسألك عن شيءٍ، (أَخَذْتَهُ لِلَّهِ) يعني: مِن أجْل فقْرك ومسكَنَتِك، فأيُّ شيءٍ تأخذه للَّه أنا لا أقول لك ردَّهُ، فمتى ما شئت خُذ، ومتى ما شئت ردَّ ما أخذتَ من غَنمٍ، وإن شئتَ لا تردَّه.

وهذا طبْع الشاكر لنعم اللَّه؛ لا يَمنع المساكين حقَّهم، ومَن أعطى المساكين ودنا منهم؛ رَفعه اللَّه عز وجل وأغناه؛ قال سبحانه: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ:٣٩]، فكلُّ ما يُعطِيه التاجر الغنيُّ؛ وَعَد اللَّه بالخلَف؛ بل والمزيد، كما قال سبحانه: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وقال صلى الله عليه وسلم: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ»(١).

ثُم بعد ذلك قال له هذا الملَك لمَّا ظَهرت هذه الحقيقة: (فَقَالَ: أَمْسِكْ مَالَكَ؛ فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ؛ فَقَدْ رُضِيَ عَنْكَ) يدلُّ على أنَّ اللَّه يَرضى عن عبده الشاكر، ففيه إثبات صفة الرضا.

---

(١) رواه مسلمٌ، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع، رقم (٢٥٨٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(وَسُخِطَ عَلَى صَاحِبَيْك)، فيه إثبات السخط للَّه عز وجل.

قال: (عَلَى صَاحِبَيْك)، نَسَب الصحبة إليهما، وإلَّا لم يكونا صاحبين له؛ وإنَّما للوصف الذي اتَّصفا به وهو العاهَة والفقر، وكذلك الأعمى فيه العاهة وفيه الفقر، فكأنَّه كان صاحباً، وهذا يدلُّ على أنَّ كلَّ مَن أصيب بأمرٍ أو عاهةٍ أو صفةٍ، ثُم أصيب شخصٌ بمثل عاهته؛ يُسمى صاحباً له.

وهذا يدلُّ أيضاً على رحمة اللَّه عز وجل؛ أنْ جَعل النُّذُر لعباده؛ ليعتبر من يَتوقَّظ قلبه للعبَر والنُّذُر.

فدلَّ هذا الحديث على المسائل السابقة العظيمة، وعلى وجوب نسبة النِّعم إلى اللَّه عز وجل؛ وهو الشاهد من هذا الحديث في الباب، وأنَّ العبد يجب عليه أن يَنسب النِّعمة إلى اللَّه جل وعلا، وإن نَسَبْتَ النِّعمة إليه؛ هذا فيه رفعةٌ وعلوٌّ لك؛ لأنَّك نَسبتَ هذه النِّعمة إلى عزيزٍ وعظيمٍ.

وكلَّما تَكلَّمْت بلسانك عن عظيم وقويٍّ أنَّه هو الذي أعطاك المال؛ تقول: اللَّه أعطاني، القوي أعطاني، الرزاق أعطاني؛ هذا شرفٌ لك أنْ تتكلَّم عمَّا أعطاك به القوي العظيم الرب سبحانه؛ ففي هذا فخرٌ لك بأن تسدي النِّعمة إليه سبحانه، لاسيما وهو المستحقُّ لها؛ بل هو

المعطي لك ولو أنَّ اللَّه عز وجل لا يعطيك لافتقرتَ، فهو الذي أعطاك ومنَع غيرك من الخلْق.

وهذا هو الشاهد من هذا الحديث؛ وهو أن الأعمى قال كلاماً في عدة مواضع فيه شُكرٌ للنعمة ونسْبتها للَّه:

الموضع الأوَّل: لما سأله الملَك: ماذا تريد قال: (**أَنْ يَرُدَّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصَرِي**)، أما الأبرص قال: (**لَوْنٌ حَسَنٌ وَجِلْدٌ حَسَنٌ**) أما هذا فنسب الشفاء إلى اللَّه بِرَدِّ البصر إليه، وهو الأعمى.

والموضع الثاني: أن الأعمى تذكر ما كان فيه، (**قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصَرِي**).

والموضع الثالث: أنه لم يمنعه شيئاً مما طلبه فقال له: (**فَخُذْ مَا شِئْتَ وَدَعْ مَا شِئْتَ**).

لأن الأعمى في الغالب يغلب عليه السكينة واللَّجوء إلى اللَّه؛ لأنه فقد شيئاً عظيماً، لذا يقِلُّ أنْ تجد أعمى متكبراً، سواء على الخلق، أو على الخالق، إذا كان مسلماً.

***

[٥٠]

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلَا لَهُ شُرَكَآءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ الآيَةَ

قَالَ ابْنُ حَزْمٍ: «اتَّفَقُوا عَلَى تَحْرِيمِ كُلِّ اسْمٍ مُعَبَّدٍ لِغَيْرِ اللَّهِ؛ كَعَبْدِ عَمْرٍو، وَعَبْدِ الكَعْبَةِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، حَاشَا عَبْدِ المُطَّلِبِ».

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما فِي الآيَةِ؛ قَالَ: «لَمَّا تَغَشَّاهَا آدَمُ؛ حَمَلَتْ، فَأَتَاهُمَا إِبْلِيسُ، فَقَالَ: إِنِّي صَاحِبُكُمَا الَّذِي أَخْرَجْتُكُمَا مِنَ الجَنَّةِ، لَتُطِيعَنِّي أَوْ لَأَجْعَلَنَّ لَهُ قَرْنَيْ أَيِّلٍ، فَيَخْرُجُ مِنْ بَطْنِكِ، فَيَشُقُّهُ، وَلَأَفْعَلَنَّ، وَلَأَفْعَلَنَّ - يُخَوِّفُهُمَا -، سَمِّيَاهُ عَبْدَ الحَارِثِ، فَأَبَيَا أَنْ يُطِيعَاهُ؛ فَخَرَجَ مَيْتاً.

ثُمَّ حَمَلَتْ، فَأَتَاهُمَا فَقَالَ مِثْلَ قَوْلِهِ، فَأَبَيَا أَنْ يُطِيعَاهُ؛ فَخَرَجَ مَيْتاً.

ثُمَّ حَمَلَتْ، فَأَتَاهُمَا فَذَكَرَ لَهُمَا، فَأَدْرَكَهُمَا حُبُّ الوَلَدِ، فَسَمَّيَاهُ عَبْدَ الحَارِثِ؛ فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَآءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾» رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ: عَنْ قَتَادَةَ؛ قَالَ: «شُرَكَاءَ فِي طَاعَتِهِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي عِبَادَتِهِ».

وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ: عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ: «﴿لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً﴾؛ قَالَ: أَشْفَقَا أَلَّا يَكُونَ إِنْسَاناً».

وَذُكِرَ مَعْنَاهُ: عَنِ الحَسَنِ، وَسَعِيدٍ، وَغَيْرِهِمَا.

الشرح:

قال رحمه الله: (**بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ الآيَةَ**).

وساق المصنِّف رحمه الله هذا الباب في كتاب التوحيد؛ لبيان أنَّ مِن أنواع الشرك: شرك الطاعة، ومن أنواع شرك الطاعة: التعبيد بغير اسمٍ من أسماء اللَّه.

فلمَّا ساق المصنِّف رحمه الله باباً سابقاً وهو: (**بَابُ قَوْلِ اللَّهِ عز وجل: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾**)؛ أي: من يُعطى نعمةً ثم يَنسب تلك النِّعمة إلى غير اللَّه بنسْبتها إلى أحد من المخلوقين؛ فهذا نوعٌ من الشرك؛ مثلما سَبق: كان الملاح حاذقاً، والريح طيبةً، ولولا البطُّ لأتانا اللَّصوص وهكذا.

ثُم بعد ذلك ذَكر في الباب الذي قبْل هذا نسْبة العبد النِّعم لنفْسه؛ مثل قوله: هذا بعملي وأنا محقوق به.

وهذا الباب يَذكر فيه أنَّ اللَّه أعطى العبد نعمةً؛ فيجعل هذه النِّعمة منسوبةً إلى غير اللَّه بالتسمية، فيسمِّيه مثلاً عبد الكعبة، عبد النبي، عبد الحارث وغير ذلك من الأسماء؛ وهو الذي يسمى شرك الطاعة.

وهذا الباب في التسمية بالعبوديَّة لغير اللَّه يَدخل فيه شرك الربوبيَّةِ، ويَدخل فيه شرك الألوهيَّةِ؛ فيَدخل فيه شرك الربوبيَّةِ؛ لأنَّ المُلك للَّه وحْده، والعبيد له سبحانه وحْده؛ قال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً﴾ [مريم: ٩٣]، ويَدخل فيه شرك الألوهيَّةِ؛ لأنَّه جَعل وصْفه بأنَّ العبادة يَصرفها لغير اللَّه؛ بأن يَصرفها - مثلاً - للكعبة، أو للنبيِّ أو غير ذلك؛ فالتسمية لغير اللَّه يتجاذَبُهَا نوعا الشرك: الربوبيَّة والألوهيَّة.

فدلَّ على أنَّ التسمية بالعبودية لغير اللَّه قدحٌ في التوحيد، وأنَّها نوعٌ من أنواع الشرك؛ لذلك قال اللَّه لمَّا سُمِّي المولود بعبوديَّةٍ غير عبوديَّة اللَّه: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٠]؛ فدلَّ على أنَّه شركٌ.

قال: (**بَابُ قَولِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾**) أي: تحريم مِثل ذلك الفعل بأن يُرزق نعمة الولد ثُم بعْد ذلك

يُسمى بعبوديةٍ غير عبودية اللَّه سبحانه؛ كعبد الوارث، عبد الكعبة، عبد الحارث، عبد النبي، عبد عمر وغير ذلك.

والمصنِّف رحمه الله ذَكر خمسة نصوصٍ:

الآية الأُولى؛ لبيان أنَّ هذا شركٌ.

وقول ابن حزمٍ؛ لبيان أنَّه متفقٌ على تحريمه.

وتفسير ابن عباسٍ في الآية؛ لبيان أنَّ هذا الشرك هو بسبب حبِّ الولد.

وقول قتادة؛ لبيان أنَّه لم يكن شركاً في العبادة؛ وإنَّما بسبب شركهم في الطاعة وقعا في المحذور.

وقول مجاهدٍ؛ لبيان أنَّ من أسباب شرك الطاعة هو الخوف والإشفاق من عدم اكتمال صورة هذا الحمل؛ أي: أنَّ مِن أسباب شرك الطاعة؛ إمَّا أن يكون حبّاً، وإمَّا أن يكون خوفاً؛ فحبّاً كما في قول ابن عباسٍ رضي الله عنهما، وخوفاً كما في قول مجاهدٍ رحمه الله.

قال: (﴿**فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا**﴾).

ذَكر رحمه الله بأنَّ شرك الطاعة المراد به أن يقع الإنسان في أمرٍ شركيٍّ من أجْل طاعة غيره؛ مثل: التعبيد لغير اللَّه، ومثل: لو أنَّ إنسانا

قال لآخر: اذبح لهذا الصنم؛ ولو لم تَذبح له قد يضرك؛ فذَبح له - طاعةً لهذا القائل -؛ فهذا شركٌ في الطاعة - والعياذ باللَّه -.

قال المصنِّف رحمه الله بعد أن بوَّب: (قَالَ ابْنُ حَزْمٍ) ابن حزم: هو أبو محمد علي ابن حزم الأندلسي - المعروف -، المتوفَّى سنة (٤٥٦هـ)[١].

(«اتَّفَقُوا) أي: أهْل العِلم[٢].

(عَلَى تَحْرِيمِ كُلِّ اسْمٍ مُعَبَّدٍ لِغَيْرِ اللَّهِ) يعني: مبدوءٍ بعبد؛ ولا يجوز أن يُعَبَّد إلا بأسماء اللَّه، وكذلك لا يجوز أن يُدعى إلا بأسماء اللَّه، وأمَّا في صفاته في الدعاء فهي من باب التوسل - مثل: أعوذ برضاك من سخطك -.

فيجوز أن يقال: عبد العزيز، ولا يجوز أن يُقال: عبد العزة؛ لأن العزة صفةٌ، فاسم اللَّه يُعَبَّد به ويُدعى دون الصفة.

١() سير أعلام النبلاء للذهبي (١٨/ ١٨٤).

(٢)مراتب الإجماع (١/ ١٥٤).

قال: (كَعَبْدِ عَمْرٍو، وَعَبْدِ الكَعْبَةِ) مثل لو سمي شخصٌ بعبد عمر؛ فجَعل العبودية ليست للَّه، وإنما لذلك البشر وهو عمر، وكذلك عبد عمرٍو، وكذلك عبد مناف، وكذلك عبد فلانٍ، عبد الكعبة، عبد النبيِّ، عبد الصحابيِّ، عبد الحسين، عبد الحسن، وكذلك كعبد شمس ونحو ذلك؛ كل هذه من التسميات الشركيَّة؛ لذلك قال: (وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ) مثل: عبد الرسول، عبد النبي؛ هذا من أنواع الشرك في الطاعة حتى ولو لم يَقصد الإنسان ذلك.

قال: (حَاشَا عَبْدِ المُطَّلِبِ) يعني: إلا اسم عبد المطَّلب - الذي هو جدُّ النبيِّ صلى الله عليه وسلم - قال: فليس هذا نوعاً من الشرك؛ فيجوز أن يُقال: محمد بن عبد اللَّه بن عبد المطَّلب؛ لأنَّ العبودية هنا عبودية الرقِّ، وسبب هذا الاسم أنَّ المطَّلب سافر مع ابن أخيه شَيْبَة، وفي الطريق ومشقته؛ تغير لونه - الذي هو شيبةٌ -؛ فلمَّا قدم شيبة مع عمه - وهو المطَّلب - ظنُّوا أنَّ هذا الشاب رقيقٌ يَخدم المطَّلب؛ فقالوا عبد المطَّلِب؛ أي: عبدٌ للمطَّلب ومملوكٌ للمطَّلب؛ وليس المراد العبودية - الخضوع والذل ونحو ذلك -.

وذَكر ابن حزمٍ هذا؛ لأنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ المُطَّلِبْ»(١)؛ فليس المراد هنا العبودية لغير اللَّه؛ وإنَّما عبودية الرقِّ؛ وليس هذا نوعاً من الشرك؛ لأنَّه إخبارٌ، فعبد المطلب اسمه أصلاً شيبة، فكأنَّه يقول لك: هذا مولى للمطَّلب، أو: هذا رقيق المطَّلب؛ فهو خبرٌ لا بمعنى الطلب؛ يعني: إخبارٌ بأنَّ هذا رقيقٌ للمطَّلب، وليس المقصود: يا فلان - اعبد المطَّلب -، لا.

فدلَّ على تحريم التسمي بالعبودية لغير اسمٍ من أسماء اللَّه.

وابن حزمٍ رحمه الله ساق الاتفاق على تحريم ذلك، وكأنه يشير أيضاً بأنَّ عبد المطَّلب - جد النبي صلى الله عليه وسلم - إخبارٌ؛ فمن بعده أيضاً لا يُسمى بهذا الاسم؛ لأنَّ عبد المطَّلب فقط هو الذي جاز من ذلك، أمَّا بعده فلا يُسمِّي شخصٌ مولوده عبد المطَّلب، وكذلك لا يسمِّيه عبد المطلوب مثلاً.

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الجهاد والسير، باب من قاد دابة غيره في الحرب، رقم (٢٨٦٤)، ومسلمٌ، كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين، رقم (١٧٧٦)، من حديث البراء رضي الله عنه.

ثُم بعد ذلك ذَكر المصنِّف تفسير الآية التي فيها نِسبة النِّعم لغير اللَّه بالتسمية؛ وهي قوله: (﴿**فَلَمَّآ آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾)؛ هذه في آخر سورة الأعراف، وقبلها: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فلمَّا تغشَّاها حَمَلَتْ حَمْلاً خِفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٨٩].

﴿خَلَقَكُمْ مِّنْ نفْسٍ واحِدةٍ﴾: آدم وحواء.

﴿فلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾؛ أي: الذرية ذرية آدم، وليس المراد آدم وحواء؛ يعني: أنَّ القصة ليست في آدم وحواء؛ وإنَّما القصة في ذرِّيَّتهما، فحَدث هذا الأمر في بعض أولاد آدم عليه السلام.

فذَكر أثر ابن عباسٍ رضي الله عنهما في تفسير الآية؛ فقال: (**وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما فِي الآيَةِ لَمَّا تَغَشَّاهَا آدَمُ**) أي: لمَّا تغشى آدم حواء؛ بمعنى: وطأها، والمراد به جنس الآدميين وليس المراد آدم مع حواء؛ (**حَمَلَتْ**) حملاً خفيفاً؛ يعني: لم يكبر بطنها ما زال في أوائل الحمل؛ نطفةً علقةً مضغةً.

(فَأَتَاهُمَا إِبْلِيسُ فقَالَ: إِنِّي صَاحِبُكُمَا الَّذِي أَخْرَجْتُكُمَا مِنَ الجَنَّةِ) ولا يلزم أن يكون هو آدم؛ فإبليس إلى الآن يتوعَّد ذريته بأنَّه أَخرجنا من الجَنَّة.

(لَتُطِيعَنِّي) يعني: في الأمر الذي سأطلبه منكم؛ (أَوْ لَأَجْعَلَنَّ لَهُ) أي: لهذا الحمل، (قَرْنَيْ) والمراد بالقرنين: ما يَخرج من البهيمة مِن مقدمة رأسها كقرني الكبش والغزال ونحو ذلك؛ (قَرْنَيْ أَيِّلٍ) الأيِّل: ذكَر الوُعُول؛ نوعٌ من الحيوانات يشبه الماعز، وهو أكبر منه يسيراً.

(فَيَخْرُجُ) أي: هذا الحمل، (مِنْ بَطْنِكِ؛ فَيَشُقُّهُ، وَلَأَفْعَلَنَّ، وَلَأَفْعَلَنَّ - يُخَوِّفُهُمَا -) يعني: يَجعل له قرنين كبيرين؛ فيَخرج مِن بطنك فيشقُّ البطن، وإبليس لا قدْرة له على ذلك؛ لأنَّ جعْل القرنين للمخلوق؛ هذا من اختصاص الربوبية ومن اختصاص الربِّ؛ قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فالخلْق من اختصاص اللّه ليس من إبليس، فإبليس يسير في أوهامٍ، ويوهم ذرِّيته بمثل ذلك الفعل؛ ليضلَّ مَن هو قليل العقل والإيمان، وإلا فلا قدْرة لإبليس على ذلك الفعل؛ بل هو مخلوقٌ.

فلمَّا خوَّفهما طَلب منهما المَقصد الذي سعى إليه في المقدِّمة؛ **(لَتُطِيعَنِّي أَوْ لأَجْعَلَنَّ لَهُ قَرْنَيْ أَيِّلٍ، فَيَخْرُجُ مِنْ بَطْنِكِ، فَيَشُقُّهُ)**؛ فطَلب منهما أنْ يسمياه عبد الحارث؛ فقال: **(سَمِّيَاهُ عَبْدَ الحَارِثِ)**، لماذا قال سمياه عبد الحارث؟ لأنَّ الحارث قيل أنَّه من أسماء إبليس؛ فكأنَّه قال: سمِّياه أنَّه عبدٌ لي وليس للَّه؛ وهذا من أنواع الشرك.

فقال: **(سَمِّيَاهُ عَبْدَ الحَارِثِ)** فهذه التسمية شركٌ في الطاعة، ولو لم يكن في العبودية؛ يعني: ولو لم يكن يَسجد له أو يَركع.

(فَأَبَيَا أَنْ يُطِيعَاهُ، فَخَرَجَ مَيْتاً) فخَرج بأمر اللَّه ميتاً؛ وهذا ابتلاءٌ وامتحانٌ.

وقد ذَكر ابن كثيرٍ[١] رحمه الله أنَّ المقصود ليس هو آدم وحواء، وإنَّما أحد ذريِّته، وقال: «هذا هو القول الصحيح».

(ثُمَّ حَمَلَتْ) مرةً أخرى، **(فَأَتَاهُمَا)** أي: إبليس، **(فَقَالَ مِثْلَ قَوْلِهِ)** يعني: مثل قوله الأوَّل: **(لَتُطِيعَنِّي أَوْ لَأَجْعَلَنَّ لَهُ قَرْنَيْ أَيِّلٍ، فَيَخْرُجُ مِنْ**

١() تفسير ابن كثير (٣/ ٥٢٧).

بَطْنِكِ، فَيَشُقُّهُ)؛ **(فَأَبَيَا أَنْ يُطِيعَاهُ، فَخَرَجَ مَيْتاً)** هذا الحمل، فلم يطيعاه في المرة الثانية.

(ثُمَّ حَمَلَتْ، فَأَتَاهُمَا) وهذا يدلُّ على أنَّ إبليس لا ييْأَس من إغواء بني آدم؛ مرةً ثم مرةً ثم مرةً حتى إن استطاع أنْ يوقعه أَوقعه؛ لذلك يقول سبحانه: ﴿لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [النور: ٢١]، فهو خطوةٌ وخطوةٌ وهكذا.

(فَذَكَرَ لَهُمَا) فلمَّا حَملت في المرة الثالثة قال لهما ذلك، وخشيا أنْ يَحدث مثلما حَدث في المرة الأُولى والثانية؛ المرة الأُولى خَرج ميتاً، والمرة الثانية خَرج ميتاً؛ فدَخل في قلوبهما شيءٌ من الريب؛ بأنَّه بعدم تسميتهما وطاعتهما لإبليس، فالمرة الثالثة أَدركهما حبُّ الولد؛ تمنِّياً أن يأتي الولد؛ فوَقعا في الأمر الذي طَلبه إبليس وقصَده.

(فَأَدْرَكَهُمَا حُبُّ الوَلَدِ) يعني: أنه ليس حبّاً لإبليس في عبادته؛ وإنَّما يريدان ولداً، وكذا من يذهبا - مثلاً - إلى بعض السحرة حبّاً في العلاج؛ فيقول لهما: اذبحا شيئاً لغير اللَّه - مثلاً -؛ فهذا شركٌ في الطاعة - والعياذ باللَّه -.

قال: (فَسَمَّيَاهُ عَبْدَ الحَارِثِ) يعني: وَقعا في الشرك؛ (فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَآءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾») فهنا تفسير الآية.

﴿فلمَّا تغشَّاها حَمَلَتْ حَمْلاً خفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٨٩]، فلمَّا آتاهما صالحاً، ما شكرا النِّعمة؛ بل (﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾) هذا هو الشاهد من الحديث في ترجمة الباب: (﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً﴾) - هذه النِّعمة - ما سَمَّوْه باسمٍ معبَّدٍ للَّه، فسمياه عبد الحارث، (﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَآءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾)، فلم يَحمدا اللَّه على تلك النِّعمة؛ فهذا الشاهد مِن الحديث في الباب.

(رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ).

ثُم قال: (وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ: عَنْ قَتَادَةَ؛ قَالَ: «شُرَكَاءَ فِي طَاعَتِهِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي عِبَادَتِهِ») يعني: أنه لم يَسجد له، ولم يَركع له، ولم يَذبح له.

ثُم بعد ذلك ذَكر قول مجاهدٍ: (وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ: عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ: «﴿لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً﴾؛ قَالَ: أَشْفَقَا أَلَّا يَكُونَ إِنْسَاناً») يعني: ليس حبّاً في إبليس، ولا حبّاً في الولد؛ وإنَّما خافا أن لا يَخرج إنساناً سويّاً؛ فوَقعا في ذلك الشرك.

(﴿لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً﴾) وليس المراد بصالحٍ؛ يعني: ولداً صالحاً مِن الهداية والاستقامة؛ وإنَّما المراد أنَّه إنسانٌ وليس بهيمةً، ولم يَخرج أيِّلاً كما ذَكر إبليس وتَوعَّدهما، ولم يَخرج ذئباً أو شاةً؛ فهذا معنى قول مجاهدٍ؛ يعني: إنساناً كاملاً.

(﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً﴾) فلَم يَشكرا هذه النِّعمة فأَشركا باللَّه عز وجل في شرك الطاعة، وسمَّياه باسمٍ معبدٍ لغير اللَّه؛ ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٠].

قال: (وَذُكِرَ مَعْنَاهُ: عَنِ الحَسَنِ، وَسَعِيدٍ، وَغَيْرِهِمَا) يعني: في تفسير الآية (﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً﴾)؛ وكذا ذُكر معناه عن الحسن وسعيدٍ؛ يعني: الحسن البصري؛ وهو الذي ذَكر بأنَّ ذلك مِن ذرِّية آدم، وليس آدم وحواء[١].

فتبيَّن ممَّا سَبق: أنَّ مِن شُكر نعمة اللَّه عز وجل أن يُسمي الإنسان مولوده باسمٍ معبِّدٍ للَّه عز وجل؛ والنبيُّ عليه الصلاة والسلام يقول: «إنَّ

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٢٧).

أَحَبَّ أَسْمَائِكُمْ إِلَى اللَّهِ عَبْدُ اللَّهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ»[١]؛ أمَّا حديث: «خَيْرُ الأَسْمَاءِ مَا عُبِّدَ وَحُمِّدَ»؛ فهو ضعيفٌ[٢].

وأنَّ الشخص يجب عليه أن يوحِّد اللَّه ويُفرده بالطاعة، فمَن أطاع إبليس في مِثل تلك الأمور بالتسمية وغيرها؛ فإنَّه يقع في نوعٍ من أنواع الشرك، وهو شرك الطاعة.

فهذا الباب يتجاذَبُه أمران: التسمية بالعبودية لغير اللَّه، والذي أَوقعه في تلك المعصية معصيةٌ أخرى سَبقتها وهي الطاعة - طاعةٌ لإبليس -؛ فوَقع في شرك الطاعة بالتسمية بالعبودية لغير اللَّه.



---

(١) رواه مسلمٌ، كتاب الآداب، باب النهي عن التكني بأبي القاسم وبيان ما يستحب من الأسماء، رقم (٢١٣٢)، من حديث عبيد اللَّه وعبد اللَّه ابنا عمر رضي الله عنهم.

(٢) المقاصد الحسنة للسخاوي (ص٨٧).

[٥١]

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:
﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ الآيَةَ

ذَكَرَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «﴿يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾: يُشْرِكُونَ».

وَعَنْهُ: «سَمَّوُا اللَّاتَ مِنَ الإِلَهِ، وَالعُزَّى مِنَ العَزِيزِ».

وَعَنِ الأَعْمَشِ: «يُدْخِلُونَ فِيهَا مَا لَيْسَ مِنْهَا».

الشرح:

قال رحمه الله: (بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ الآيَةَ).

ذَكر المصنِّف رحمه الله هذا الباب في كتاب التوحيد؛ لبيان وجوب الإيمان بأسماء اللَّه ودعائه بها، وليُثبِت أنَّ العبد لا يدعو إلا اللَّه وحده؛ بأسمائه، أو يتوسَّل إليه بصفاته، فلا يدعو الأموات، ولا يتوسَّل بهم، ولا يطلب شفاعتهم ونحو ذلك؛ إنَّما الدعاء لا يكون إلا للَّه عز وجل بأسمائه، أو التوسُّل بصفاته.

بأسماء اللَّه، مثل: يا رحمن، يا رحيم، يا عفوٌّ، يا غفور، يا ودود، يا لطيف.

والتوسُّل بصفاته مثل: أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، ومثل: أعوذ برضاك من سخطك، ومثل: وبعفوك من عقوبتك.

فدعاء الصفة: لا، فلا يقول شخص - مثلاً -: يا عزَّة اللَّه أعزِّيني، ولا يقول: يا رحمةَ اللَّه - والعياذ باللَّه - ارحميني؛ وإنَّما يقال: يا رحيم ارحمني، ويا غفور اغفر لي؛ فيُدعَى باسم اللَّهِ وحْده.

ويَتوسَّل بالصفة؛ مثل: أَسألك يا ربِّ برحمتك أنْ تُدخلني في رحمتك، وكقوله صلى الله عليه وسلم: «يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيْثُ»(١)؛ يعني: أتوَسُّل برحمتك.

والفرْق بين هذا الباب وبين بابٍ سابقٍ وهو: (**بَابُ مَنْ جَحَدَ شَيْئاً مِنَ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ**)؛ أنَّ الباب السابق؛ لبيان التحذير من الكُفر

---

(١) رواه الترمذيُّ، أبواب الدعوات، بابٌ، رقم (٣٥٢٤)، من حديث أنس بن مالكٍ رضي الله عنه.

بأسماء اللَّه وصفاته، وأمَّا هنا فهو وجوب الإيمان بها كما جاءت ودعائه بها والتحذير من الإلحاد فيها.

والمصنِّف رحمه الله ذكر أربعة نصوصٍ:

النَّصُّ الأوَّل – (﴿**وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا**﴾) –؛ لبيان وجوب دعاء اللَّه بأسمائه الحسنى سبحانه.

النَّصُّ الثاني – تفسير ابن عباسٍ: (**يُشْرِكُونَ**») –؛ لبيان أنَّ من الإلحاد فيها الإشراك فيها بدعوة غير اللَّه معه – كما سيأتي –.

النَّصُّ الثالث – (**وَعَنْهُ**: «**سَمَّوُا اللَّاتَ مِنَ الإِلَهِ**) –؛ لبيان أنَّ من أنواع الإلحاد تسمية الآلهة بأسماء اللَّه.

النَّصُّ الرابع – (**وَعَنِ الأَعْمَشِ**: «**يُدْخِلُونَ فِيهَا مَا لَيْسَ مِنْهَا**») –؛ لبيان أنَّ من أنواع الإلحاد إدخال في أسماء اللَّه ما ليس منها.

لذا قال رحمه الله: (﴿**وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى**﴾) يعني: له سبحانه الأسماء البالغة في الحُسن؛ فلا أحْسن منها في الأسماء، وله الصفات العُلى؛ فلا أعلى منها في الصفات.

فليس هناك صفةٌ يتَّصف بها الرب سبحانه، وأحد الخلق متَّصفٌ بأحسن منها، وليس هناك اسمٌ للَّه، وللمخلوق اسمٌ أحسن منه؛ بل اللَّه عز وجل له الأسماء الحُسنى، والصفات العُلى.

وأسماء اللَّه عز وجل ليست محصورةً بعددٍ؛ لكثرة أسمائه سبحانه وتعالى؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ»(١)؛ أمَّا قوله: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْماً، مِئَةً إِلَّا وَاحِداً، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّة»(٢)؛ أي: أنَّ أسماء اللَّه كثيرةٌ، ومَن أحصى منها تسعةً وتسعين اسماً؛ دَخل الجَنَّة، وذلك بحفظها وفهْم معانيها والعمل بما دلَّت عليه.

(﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾) والتَجئوا إليه سبحانه بها، فادعوه بكل اسمٍ سمَّى به نفْسه في كِتابه، أو صَحَّ عن النبي صلى الله عليه وسلم في سُنَّته إذ لا

---

(١) رواه أحمد في المسند رقم (٣٧١٢)، من حديث عبد اللَّه ابن مسعودٍ رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاريُّ، كتاب التوحيد، باب: إن لله مئة اسمٍ إلا واحداً، رقم (٧٣٩٢)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب في أسماء اللَّه تعالى وفضْل من أحصاها، رقم (٢٦٧٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

يجوز دعاء اللَّه إلا بأسمائه دون صفاته؛ فتقول: يا رحيم ولا تقول: يا رحمة اللَّه، وتقول: يا عزيز ولا تقول: يا وجْه اللَّه وهكذا.

(﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾) أي: أنَّ مَن لم يؤمن بها فقد ألحد، (﴿يُلْحِدُونَ﴾) يعني: يُحرِّفونها، ويَلْوُونها عن معانيها وحقائقها.

﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]؛ هذا تهديدٌ ووعيدٌ لهم، مثل: لو قال الأب لابنه: لو فعلتَ كذا؛ سوف أفعل بك أمراً عظيماً، ولا يَذْكُرُه؛ بمعنى: أنَّ إخفاء العقوبة في الزجر يكون أحياناً أبلغ من إظهار العقوبة.

فلو قال الأب لابنه: لو فعلتَ ذلك؛ سوف أضربك ضربتين، أو قال: لو فعلتَ ذلك؛ سوف أجازيك جزاءً عظيماً، ويتخيَّل الفاعل أعظم الجزاء في ذهْنه، فلا يَعلمه.

وهنا: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]؛ أُخفِيَ ذِكْر العقوبة؛ ليكون أردع وأزجر في النفس.

ثُم بعد ذلك ذَكَرَ المصنِّف رحمه الله أقوال السلف في تفسير هذه الآية؛ فذَكر أنواع الإلحاد فيها فقال: (ذَكَرَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «﴿يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾: يُشْرِكُونَ»)، وهو قولٌ لقتادة.

وأنواع الإلحاد:

النوع الأول: (يُشْرِكُونَ) يَدعون مع اللَّه غيره؛ فمثلاً: اللَّه عز وجل من أسمائه القدير، فلو ذَهب شخصٌ إلى ضريحٍ، وقال: يا قدير اشفني؛ فهنا أشرك مع أسماء اللَّه غيره، فجَعل صاحب القبر أيضاً قادراً على كشْف الضرِّ وهكذا.

النوع الثاني: (وَعَنْهُ: «سَمَّوُا اللَّاتَ مِنَ الإِلَهِ، وَالعُزَّى مِنَ الْعَزِيزِ») هذا من الإلحاد في أسمائه بأنْ تُسمَّى الأصنام بأسمائه عز وجل؛ ليقرِّبوا النفوس إليها؛ فيقولون: هي مِثل اللَّه، ويعطونها أسماءً كأسماء اللَّه - والعياذ باللَّه -، وهي لا تَستحق أصلاً شيئاً من ذلك؛ فهي أصنامٌ، ومثل: لو أن شخصاً وَضع ضريحاً، وسمَّاه الرحمة؛ مشتقّاً من الرحيم وهكذا.

فيَجعلون لها أسماءً مثل: اللَّات من الإله، والعزَّى من العزيز، أو يَجعلون لها أسماءً كما أنَّ للَّه أسماء؛ فمثلاً: لا يسمُّون هذا المعبود صنماً؛ وإنما يسمونه: مناة، أو هذا الصنم يسمونه باسم: العظيم، أو هذا الصنم اسمه: بوذا، وهذا باسمٍ آخر وهكذا.

فكونه يسمِّى هذا المعبود باسمٍ؛ فهذا من مضاهاة اللَّه بأسمائه؛ لأن هذا شيءٌ حقيرٌ لا يستحقُّ أنْ يُصرف له أيُّ اسمٍ.

والنوع الثالث: (وَعَنِ الأَعْمَشِ: «يُدْخِلُونَ فِيهَا مَا لَيْسَ مِنْهَا»)

فإدخال فيها ما ليس منها بأنْ يُسمَّى اللَّه بما لم يُسمِّ به نفْسَه، مثل: أنْ يُسمَّى اللَّه: الأب؛ مضاهاةً للنصارى.

وكذلك لا يجوز قول: فلانٌ هو الربُّ الروحيُّ لنا؛ هذا فيه مشابهةٌ لألفاظ النَّصارى، فعندنا في الإسلام: أب، عم، أخ وهكذا؛ أمَّا: أبٌ روحيٌّ فهي من اصطلاح النَّصارى؛ فلا يجوز إطلاق مثل هذه اللَّفظة.

فيجب أنْ يتوجَّه القلب بكلِّيَّته للَّه، ويدعوه بأسمائه كما دعا الأنبياء كنوحٍ وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم ممَّا وَرد في القرآن.

والنوع الرابع: تعطيل أسماء اللَّه، مثل: لو تلا شخص: ﴿وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢]؛ فيقول: هذه أسماء، لكنْ ليس لها معانٍ؛ فيُعطِّلها كالجهمية.

أو يُشبِّه تلك الأسماء والصفات بصفات غيره؛ فيقول مثلاً: يدُ اللَّه كيد المخلوقين، ووجه اللَّه كوجه المخلوقين وهكذا.

والنوع الخامس: أنْ يوصَف اللَّه عز وجل بشيءٍ من الصفات التي لا تليق به جل وعلا؛ مِثل قول اليهود: ﴿وَقَالَتِ اليَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤].

فإذا كانت المعبودات مِن دون اللَّه لا تَستحقُّ أنْ يُصرَف لها أيُّ اسمٍ من الأسماء؛ فدلَّ على أنَّ كونها تُهجر، وأن لا يُتوجَّه لها بالقلب في أيِّ أمرٍ من الأمور مِن باب أَوْلَى وأعظم.

لهذا ساق المصنِّف رحمه الله هذا الباب في كتاب التوحيد؛ ليدلُّك على أنَّ أيَّ سؤالٍ لغير اللَّه عز وجل؛ لا يجوز فيما لا يَقدر عليه إلا اللَّه.

فتبيَّن ممَّا سبق: أنَّ للَّه أسماء، وواجبٌ على العبد أنْ يتوجَّه إليه سبحانه بالدعاء والتضرع، والاستغاثة له وحْده دون مَن سواه، وأنَّ مَن أخلَّ بشيءٍ من ذلك؛ من الإلحاد، بأيِّ نوع من الإلحاد الخمسة السابقة:

إمَّا أنْ تُسمَّى الأصنام بأسماء اللَّه عز وجل، أو أنْ يُسمَّى اللَّه باسمٍ من أسماء تلك الأصنام، أو أنْ يوصَف اللَّه عز وجل بما لا يليق به جل وعلا، أو بتعطيل صفاته، أو بتشبيه صفاته بصفات مخلوقاته؛ هذه الأنواع الخمسة من أنواع الإلحاد فيها.

***

[٥٢]

بَابٌ
لَا يُقَالُ: السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ

فِي الصَّحِيحِ: عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: «كُنَّا إِذَا كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فِي الصَّلَاةِ؛ قُلْنَا: السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ مِنْ عِبَادِهِ، السَّلَامُ عَلَى فُلَانٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: لَا تَقُولُوا: السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّلَامُ».

الشرح:

قال رحمه الله: (**بَابٌ لَا يُقَالُ: السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ**) (**بَابٌ**) أي: في النهي والتحذير عن أن يقال: (**السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ**)، لها معنيان:

المعنى الأوَّل: (**السَّلَامُ**) على أنَّه اسمٌ من أسماء اللَّه، فإذا قلت للشخص: السلام عليكم، كقولك: اللَّه عليكم؛ أي: بركة اللَّه عليكم؛ كما قال عز وجل: ﴿رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [هود: ٧٣] في قصة إبراهيم عليه السلام.

والمعنى الثاني: الدعاء للمسلَّم عليه بالسلامة من الآفات والشرور والمكارِه ونحو ذلك، فإذا قلتَ للشخص: السلام عليكم؛ فمعناه أمَّنته

وقلت له: لن يصلك مني أيُّ شرٍّ أو أذى؛ ولأجْل ذلك: هذه الكلمة العظيمة لا تقال إلا للمسلمين - في السلام -.

وهذه الكلمة حُكم قولها يَنقسم إلى ثلاثة أقسامٍ:

القِسم الأوَّل: إذا كان المسلَّم عليه هو رب العالمين؛ فهذا لا يجوز، ومن أجله عَقد المصنِّف هذا الباب، فإذا قلت: السلام على اللَّه، كأنك تقول: يا رب لن يصلك مني أيُّ ضرر؛ وهذا لا يجوز؛ لأنَّ اللَّه هو الكبير وأنت الضعيف.

والقِسم الثاني: إذا كان المسلَّم عليه غير مسلمٍ؛ فهذا لا يجوز أن يلقى عليه السلام؛ كما قال عليه الصلاة والسلام «لَا تَبْدَؤُوا اليَهُودَ، وَلَا النَّصَارَى بِالسَّلَامِ»(١).

والقِسم الثالث: إذا كان المسلَّم عليه صالحاً سواء من البشر أو من الملائكة؛ فهذا يجوز؛ ففي التشهد: «السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ

---

(١) رواه مسلمٌ، كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم، رقم (٢١٦٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الصَّالِحِينَ»؛ قال عليه الصلاة والسلام : «فَإِنَّكُمْ إِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ فَقَدْ سَلَّمْتُمْ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ لِلَّهِ صَالِحٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»(١)

ولأنَّ القسم الأوَّل ينافي جَناب التوحيد؛ يعني: ينافي عظمته سبحانه وتعالى، فليس من تعظيم اللَّه قول هذه الكلمة.

فمعنى السلام عليكم؛ إمَّا أن يكون خبراً، أو يكون إنشاءً - أي: دعاءً -.

فتخبر إذا دخلتَ على مجلسٍ أو قومٍ، وقلتَ السلام عليكم؛ يعني: برَكة اللَّه نَزلت عليكم، أنا أخبر بهذا.

وهو متضمِّنٌ للدعاء؛ يعني: يا ربِّ أَنزل البرَكة عليهم، وسلِّمهم من الآفات والشرور.

---

(١) رواه البخاريُّ، أبواب العمل في الصلاة، باب من سمى قوماً، أو سلَّم في الصلاة على غيره مواجهة، وهو لا يَعلم، رقم (١٢٠٢)، من حديث ابن مسعودٍ رضي اللَّه عنه.

فإذا قلنا السلام عليكم؛ أي: برَكة؛ لأنَّ السلام من أسماء اللَّه؛ أي: كأنك تقول: بركة اللَّه نزلت عليكم، وهو أيضاً سبحانه من أسمائه السلام.

فإذا قيل: لماذا اختير اسم السلام الذي هو من أسماء اللَّه في إلقاء التحية؟

نقول: للمناسبة؛ فهو سبحانه السلام مثلما قال عن نفْسه: ﴿السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ﴾ [الحشر:٢٣]، السلام؛ يعني: السالم عبادهُ مِن إنزال الشرور والآفات عليهم إذا عَملوا الصالحات؛ فاختير هذا الاسم للمناسبة، فأنت تدعو لهم بالسلامة، فاختير اسم السلام، مثل تقول: اللَّهم اغفر لي يا غفور، وتقول: اللَّهم ارحمني يا رحيم، وهنا تقول: يا رب سلِّم هذا المجلس من الآفات فأنت السلام.

ولمَّا كان اللَّه عز وجل هو الذي يُطلب منه دفْع الشرور والآفات والضرِّ، وإلقاء المصائب والمعائب على الآخرين، ودفعها عنهم؛ إذاً لا يُلقى السلام إليه؛ لأنه هو الغنيُّ ولا أحد يضرُّه سبحانه؛ مثلما قال عن نفْسه: «يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي،

فَتَنْفَعُونِي»[١] فلو اجتَمع الخلْق جميعاً على الإضرار باللَّه لا يستطيعون الإضرار به، وإنَّما نَطلب من اللَّه أنْ يسلِّم عباده من الآفات والشرور.

لذلك قال: (بَابُ: لَا يُقَالُ: السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ)؛ لأنَّ اللَّه هو الذي له الكمال المطلَق؛ بل يُطلب منه هو سبحانه أن يسلِّم عباده من الآفات والشرور؛ لهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم صحابته أن يلقوا السلام منهم إلى اللَّه كما في حديث ابن مسعودٍ رضي الله عنه.

وساق المصنِّف هذا الباب؛ لِمَا فيه من عدم تعظيم الرب سبحانه إذا أَلقينا السلام عليه؛ لأنَّ اللَّه هو الغنيُّ، فكيف نقول: أنت يا ربنا سالمٌ من آفاتنا وشرورنا؛ لا - والعياذ باللَّه -؛ بل نحن الذين نَطلب من اللَّه عز وجل أن يسلِّمنا ويسلِّم المَجلس الذي نسلِّم عليه، أو الفرد من الآفات والشرور.

وهو سبحانه المطلوب منه لا المطلوب له، وهو المدعو لا المدعو له.

---

(١) رواه مسلمٌ، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧)، من حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه.

لذلك قال: (فِي الصَّحِيحِ) اصطلاح المصنِّف رحمه الله في كتابه هذا إذا قال (فِي الصَّحِيحِ): إمَّا أن يكون الحديث في الصحيحينِ كهذا الحديث، وإمَّا أن يكون في صحيح البخاريِّ، أو في مسلمٍ، أو في غيرهما وهو حديثٌ صحيحٌ.

(عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: «كُنَّا إِذَا كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فِي الصَّلَاةِ) يعني: قبل أن يُنسخ السلام على اللَّه؛ (قُلْنَا: السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ مِنْ عِبَادِهِ) يعني: في التشهد، وهذه هي الكلمة التي لا تجوز؛ فالعبد ضعيف واللَّه عز وجل لن يناله ضرر مِن خلْقه.

ومعنى هذه اللَّفظة: يا رب لا تَخَفْ فأنت سالمٌ من آفاتنا وشرورنا، فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن تلك اللَّفظة؛ فهم يقولون السلام على اللَّه من عباده؛ قال سبحانه: ﴿لَن يَضُرُّواْ اللَّهَ شَيْئاً﴾ [آل عمران: ١٧٦] (السَّلَامُ عَلَى فُلَانٍ)، وفي روايةٍ: «فَنَعُدُّ مِنَ المَلَائِكَةِ مَا شَاءَ اللَّهُ»(١)، وفي رواية «السَّلَامُ عَلَى جِبْرِيلَ، السَّلَامُ عَلَى مِيكَائِيلَ»(٢)،

(١) فتح الباري لابن حجر (٢/ ٣١٢).

(٢) رواه البخاريُّ، كتاب الاستئذان، باب: السلام اسمٌ من أسماء اللَّه تعالى، رقم (٦٢٣٠).

«السَّلَامُ عَلَى إِسْرَافِيلَ»[١]، وهذه الكلمة لا بأس بها؛ فيجوز أن يسلِّم المسْلِم على الملائكة فتقول: جبريل عليه السلام ، ملك الموت عليه السلام وهكذا ؛ لأنهم صالحون؛ بل أنت في كل تشهُّدٍ تسلِّم عليهم، وعلى الصالحين من الناس.

(فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: لَا تَقُولُوا) وهذا النهي للتحريم، **(السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ)**.

والعلة في ذلك: **(فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّلَامُ)** على القولين السابقين، فإن اللَّه **(هُوَ السَّلَامُ)**؛ أي: هو الربُّ، أو: **(فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّلَامُ)** أي: يأتي منه سبحانه وتعالى كلُّ خيرٍ وبركةٍ، ولا يُنسب إلى اللَّه شرٌّ؛ كما قال عليه الصلاة والسلام: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»[٢].

فهو الذي يُطلب منه السلام، وهو الذي نتبرَّك باسمه في المجالس والأحوال والأقوال؛ لذلك ساق المصنِّف رحمه الله هذا الباب في كتاب

---

(١) رواه الدارميِّ، كتاب الصلاة، باب في التشهد، رقم (١٣٧٩).

(٢) رواه مسلمٌ، كتاب صلاة المسافرين وقصْرها، باب الدعاء في صلاة اللَّيل وقيامه، رقم (٧٧١)، من حديث عليّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه.

التوحيد لِمَا فيه مِن تنقُّص جَناب الربوبية للَّه عز وجل، وفيه قدحٌ فيه جل وعلا إذا أطلقنا السلام من العباد إليه سبحانه؛ فكأنَّ العباد هم الأقوياء واللَّه هو الضعيف؛ واللَّه عز وجل يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥].

فتبيَّن ممَّا سَبق: أنَّ معْنى السلام أمران اثنان: يكون خبراً، ويكون إنشاءً.

تخبر أنَّ بركة اللَّه نازلةٌ على هذا المجلس، أو السلامة من الآفات نازلةٌ، لماذا تقول هذا الخبر؟ لأنك أنت ألقيت، قلت: السلام عليكم.

وأيضاً معناها: اللَّهم سلِّم هذا المجتمع أو هذا الفرد الذي سلمتُ عليه؛ يعني كأنك تقول له: لا تخفْ فلن ينالك منِّي أذىً أو شرٌّ، فأنت سالمٌ من أيِّ أذيَّةٍ تَصدر منِّي عليك، هذا معنى السلام؛ يعني: السلام عليك لن تجد منِّي إلَّا كلَّ سلامٍ وخيرٍ، لن تجد منِّي أيَّ شرٍّ.

لهذا شُرع السلام وإطلاق السلام عند التقاء المسْلِم مع أخيه المسْلِم(١)، وشُرع السلام - أيضاً - عند دخول المنزل؛ قال تعالى:

(١) يشير إلى حديثٍ رواه مسلمٌ، كتاب السلام، باب مِن حق المسْلِم للمسْلِم رد

﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ [النور:٦١]؛ لأنَّ معناها عظيمٌ، فمعناه إذا دَخل الزوج بيته وقال: السلام عليكم؛ يعني: اطمئنوا فلن يأتيكم منِّي أيُّ شرٍّ، فالمستمع يَطمئنُّ قلبه؛ لأنَّ الداخل إليهم قد أعطاهم الأمان بعدم نزول أيِّ شرٍّ منه عليهم.

وهذه اللَّفظة ممَّا تَجلب المودة بين المؤمنين؛ لأنك تقول لكلِّ مسلِمٍ: أنت آمنٌ منِّي، ويقول: أنت آمنٌ منِّي وهكذا؛ فتَحصل الألفة والمودة؛ لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»(١)، فكلُّ مَن لَقِيَ أخاه المسْلِم يقول له: لن يأتيك منِّي أذى، وهو يقول: لن ينالك منِّي أذى، وهذا يقول للآخر نفْس الكلمة، وهذا يدعو لأخيه المسْلِم أن لا يَنزل

السلام، رقم (٢١٦٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه: «حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ، قِيلَ: مَا هُنَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟، قَالَ: إِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ...» الحديث.

(١) رواه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يَدخل الجَنَّة إلا المؤمنون، وأنَّ محبَّة المؤمنين من الإيمان، وأنَّ إفشاء السلام سبباً لحصولها، رقم (٥٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

عليه شرٌّ لا منِّي ولا مِن غيري وهكذا؛ فيصبح المجتمع هنا متآلفاً متعاوناً بسبب إطلاق هذه الكلمة.

ولهذا من أسباب دخول الجَنَّة: إفشاء السلام؛ مثل: لمَّا أَخبر النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصِلُوا الأَرْحَامَ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ، وَالنَّاسُ نِيَامٌ؛ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ بِسَلَامٍ»[١]؛ بسبب هذه الكلمة العظيمة، إضافةً لِمَا فيها من الثواب العظيم؛ فإذا قال: «السلام عليكم»؛ كُتبتْ له عَشر حسناتٍ، «ورحمة اللَّه»؛ فيها عشرون حسنةً، «وبركاته»؛ فيها ثلاثون حسنةً[٢]، واللَّه عز وجل يضاعف لمن يشاء من الأعمال الصالحة.

---

(١) رواه ابن ماجه، كتاب الأطعمة، باب إطعام الطعام، رقم (٣٢٥١)، من حديث عبد اللَّه بن سلامٍ رضي الله عنه.

(٢) كما في الحديث: أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَرَدَّ عَلَيْهِ ثُمَّ جلَسَ فقَالَ: «عَشْرٌ»، ثُمَّ جَاءَ آخَرُ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فَرَدَّ عَلَيْهِ ثُمَّ جَلَسَ فَقَالَ: «عِشْرُونَ»، ثُمَّ جَاءَ آخَرُ فقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ فَرَدَّ عَلَيْهِ، ثُمَّ جَلَسَ فَقَالَ: «ثَلَاثُونَ». رواه أحمد في المسند رقم (١٩٩٤٨)، من حديث عمران بن حصين رضي الله عنهما.

فهذا الباب ساقه المصنِّف؛ لوجوب التأدُّب مع جَناب اللَّه عز وجل في الألفاظ.

***

[٥٣]

بَابُ

قَوْلِ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ

فِي الصَّحِيحِ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ، لِيَعْزِمِ المَسْأَلَةَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا مُكْرِهَ لَهُ».

وَلِمُسْلِمٍ: «وَلْيُعَظِّمِ الرَّغْبَةَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ».

الشرح:

قال رحمه الله: (بَابُ قَوْلِ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ) أي: من النهي والتحذير عن الإتيان بمثل هذه الكلمة في الدعاء، وهذه الكلمة هي تعليق الدعاء بالمشيئة.

والسبب في النهي عن مثل هذه الكلمة: لأنَّ فيها تنقُّصٌ مِن جَناب الربوبية للَّه عز وجل، فكأنَّ مَن يستثني في الدعاء يقول: أخشى يا ربِّ أنَّك لا تستطيع أن تَغفر لي وأنا أجبرك على هذا الدعاء؛ فإن شئتَ اغفر لي إن كنت تستطيع ذلك، وإن كنت لا تستطيع فلا تَغفر لي، هذا معنى هذه الكلمة.

وبيَّن النبيُّ صلى الله عليه وسلم العلَّة في ذلك؛ (**فَإِنَّ اللَّهَ لَا مُكْرِهَ لَهُ**) كما سيأتي، فاللَّه عز وجل هو الغنيُّ، الحميد، الجبار، القويُّ، (**لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ**)، ولا أحد من خلقه يُكرهه على ما سيعطيه للآخر؛ فهو بيده مقاليد السموات والأرض فعطاؤه عظيم؛ كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

فإذا قال العبد في الدعاء «اللَّهم»؛ فليجزم فيها ولا يتردد، ولا يقل: أجرِّب هل الدعوة تستجاب أم لا، ولا يعلِّق الدعوة بالمشيئة.

وقول المصنِّف: (**بَابُ قَوْلِ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ**) أي: وما مَاثَلَها – أيضاً – من الأدعية مثل: اللَّه يهدينا إن شاء اللَّه، أو: اللَّه يهديك إن شاء اللَّه، أو: اللَّه يغفِر لك إن شاء اللَّه ونحو ذلك من الكلمات الدارجة على ألْسنة الكثير.

فواجبٌ على العبد أن يَجزم في الدعاء، ولا يقل إن شاء اللَّه في الدعاء؛ بل يَجزم جزماً قويّاً متفائلاً عازماً على المسألة؛ لعلَّ اللَّه أن يجيب دعوته.

والأصل في طلبِ المخلوق من المخلوق أنه يَخافه أو يرجوه أو يَطلب حاجة عنده، فيقول له: إذا لم يكن عليك مشقةٌ تعطيني قرضاً مئة

ريالٍ، إذا لم يكن عليك مشقَّةٌ تعطيني الكتاب؛ لأنَّ له حاجةً عند العبد إن تتيسر له أعطاه ويخشى أن لا تتيسر؛ فقاس المخلوق في دعوته على دعوته للخالق؛ فكأنه يقول: يا رب إذا كنت تستطيع أن تَغفر لي اغفر لي؛ أنا لا أُلزِمُك، أخشى أنك لا تستطيع ذلك؛ فهذا معنى تعليق الدعاء بالمشيئة - والعياذ باللَّه -؛ لذلك نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم.

فاللَّه عز وجل غنيٌّ قديرٌ كريمٌ، والعبد ضعيفٌ فقيرٌ يَلجأ إلى اللَّه عز وجل وهو بكامل ذلِّه وافتقاره إليه سبحانه.

وتعليق دعاءه بالمشيئة أحد أمرين:

الأمر الأوَّل: أنَّ الداعي لا يُظهر الفقر للَّه سبحانه، وتحقيق حاجته؛ وهذا مضادٌّ للتوحيد، ولا يحقِّق العبد فيه معنى الاستسلام للَّه، مثال ذلك: لو قال شخصٌ: اللَّه يهديك إن شاء اللَّه؛ فعلى المعنى هذا: يا رب إن شئت أن تهديه، وإن شئت لا تهده، فليس بحاجةٍ للهداية؛ هذا المَعنى الأوَّل لتعليق المشيئة.

والأمر الثاني: عدم الرغبة مِن أجْل خوف المشقة والعسر والعطاء على اللَّه؛ وهذا يضادُّ جَناب التوحيد، مثال ذلك: لو قال شخصٌ: يا رب ارزقني مالاً كثيراً إن شئت، فمعنى المشيئة هنا - على هذا المعنى -: يا

ربِّ أنا أريد مالاً كثيراً، لكن أخشى أن يشقَّ عليك ذلك، وفيه عسرٌ عليك يا رب أن تعطيني المال الكثير.

وكلا المعنيين محرَّمان.

لذلك ساق المصنِّف رحمه الله **الحديث الأوَّل**؛ لبيان العلَّة في النهي عن تعليق الدعاء بالمشيئة؛ وهو عدم الجزم في الدعاء والحاجة إليه.

وساق المصنِّف **النَّصّ الثاني**؛ لبيان العلَّة في التعليق بالمشيئة؛ وهو عدم تعظيم الرغبة خشية العسر على اللَّه في العطاء - تعالى اللَّه عن ذلك -.

ومثال آخر: لو أنَّ شخصاً - مثلاً - دَخل على مدير المدرسة، وهو لم يُقبَل في جميع المدارس، وأتى لهذا المدير وقال له: إن شئتَ اقبَلني، وإن شئتَ لا تَقبلني فلست محتاجاً لذلك؛ فالمدير سيقول: لستَ محتاجاً؛ اذهب إذاً، فلن نحقِّق مسألتك، ولو أتى شخصٌ آخر إلى المدير وألحَّ عليه بالقبول؛ فهو أرجى من الأوَّل؛ لاستغناء الأوَّل عن تحقيق طلبهِ.

لذلك قال المصنِّف رحمه الله: (فِي الصَّحِيحِ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ

اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ) (لَا يَقُولَنَّ) للنهي عن ذلك؛ لأنَّ فيه تنقُّصٌ من جناب الربوبية، وسوء ظنٍّ باللَّه، حيث يتبادر إلى القلب والذهن في معنى هذه الكلمة أنَّ اللَّه قد لا يستطيع تحقيق سُؤلَك.

فقال: (**لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ**)، وكذا دعاء الوالد لولده: اللَّه يهديه إن شاء اللَّه، ودعاء الأم لولدها: اللَّه يصلحك يا ولدي إن شاء اللَّه؛ كلُّها لا تجوز، فالإتيان بكلمة «إن شاء اللَّه» بعد أيِّ دعاءٍ يجب التحذير منه في عدم جوازه.

وكذا تعليق الدعاء بالمشيئة؛ مثل: جزاك اللَّه خيراً إن شاء اللَّه، أو: اللَّه يُدخلك الجَنَّة إن شاء اللَّه، أو: اللَّه ينجحك إن شاء اللَّه وهكذا؛ فالمشيئة في الدعاء لا تجوز، وأمَّا قول النبي صلى الله عليه وسلم للمريض: «لَا بَأْسَ، طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ»[1]؛ فهذا من باب الإخبار وهو إن شاء اللَّه أنَّه طهورٌ، وليس من باب الدعاء.

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب المرضى، باب ما يقال للمريض، وما يجيب، رقم (٣٦١٦)، من حديث ابن عباسٍ رضي الله عنهما.

(اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ) مثل: اللَّهم اغفر لي، اللَّهم ارحمني، اللَّهم اهدني اللَّهم يسر لي؛ لا يقول بعدها إن شئتَ.

(لِيَعْزِمِ المَسْأَلَةَ) يعني: ليُقبل على اللَّه وهو مفتقرٌ إليه لا يتردَّد؛ يعني لا يَخطر في بالك أنْ تقول: اللَّهم نَجِّحني إن شئت؛ أخشى أنَّك ما تستطيع أنْ تنجحني.

(فَإِنَّ اللَّهَ لَا مُكْرِهَ لَهُ) أي: لا أحد من الخلْق يُجبِره على ذلك الفعل؛ فله الغنى التامُّ والكمال المطلَق، فاطلب منه ما شئتَ، لا أحد من الخلْق يردُّ رزق اللَّه عز وجل عنك، فأنت اطلبْ وأنت عازمٌ وجازمٌ على المسألة وغير متردِّدٍ فيها؛ لهذا من أسباب إجابة الدعوة: يقين القلب بأنَّ اللَّه يجيب دعوتك لا تكن متردِّداً ولا شاكّاً.

فاللَّه سبحانه وتعالى لا يَكره دعاء العبد؛ بل يحبُّه ويعطيه سؤله؛ فلا تقل: إن شاء اللَّه.

ولا تقل: أدعو لعلَّ اللَّه يجيب دعوتي؛ نقول لا؛ بل ندعوا ونحن موقنون بالإجابة بأنَّ اللَّه يجيب دعوتنا، لماذا؟ لأنَّ اللَّه هو الذي وعَدنا بالإجابة؛ فقال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]؛ لهذا

قال بعض أهْل العِلم: «مَن فَتحَ اللَّه له باب مسألةٍ؛ فَتحَ اللَّه له باب الإجابة»، فاللَّه عز وجل أراد به الخير.

(وَلِمُسْلِمٍ: وَلْيُعَظِّمِ الرَّغْبَةَ) أي: أكثِر من السؤال بالعطاء بالشيء الكثير؛ فمثلاً: لا تقل: يا رب ارزقني ثلاثة أولادٍ، ولكن قل: يا رب ارزقني أولاداً كُثُر؛ قال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤]؛ يعني: كلَّما تعطيني يا رب شيئاً فأنا فقيرٌ أريد أكثر، وفي صحيح البخاريِّ[١]: «بَيْنَمَا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ عُرْيَاناً، خَرَّ عَلَيْهِ رِجْلُ جَرَادٍ مِنْ ذَهَبٍ، فَجَعَلَ يَحْثِي فِي ثَوْبِهِ، فَنَادَاهُ رَبُّهُ : يَا أَيُّوبُ، أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتُكَ عَمَّا تَرَى؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، وَلَكِنْ لَا غِنَى لِي عَنْ بَرَكَتِكَ»، واللَّه يحب الذي يطلبه، وهكذا تقول: اللَّهم ارزقني علماً نافعاً كثيراً وهكذا.

وهذا أيضاً أدبٌ آخر في الدعاء وهو تعظيم الدعاء والإكثار ممَّا تَطلب؛ يعني: لا يقل شخصٌ مثلاً: اللَّهم ارزقني ولو ولدين اثنين؛ نقول:

---

(١) كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، رقم (٣٣٩١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قل خمسةً؛ فيقول: لا، خمسةٌ كثيرٌ أخشى أن أشقَّ على اللَّه عز وجل لو قلتُ خمسة؛ لا، لو اثنين.

نقول: لا (**وَلْيُعَظِّمْ الرَّغْبَةَ**) فتقول مثلاً: اللَّهم ارزقني ذريةً صالحةً، ولا تقل: أعطني يا رب، وارزقني كلَّ شهرٍ ألْف ريالٍ؛ وإنَّما قل: اللَّهم ارزقني رزقاً مالاً حلالاً واسعاً.

وهذا هو نهْج الأنبياء عليهم السلام؛ فسليمان عليه السلام لمَّا فُتن قال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾، وعظَّم المسألة فقال: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥]؛ فعظَّم الرغبة، وعظَّم المسألة، وهكذا دعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١] ، ونوحٌ عليه السلام قال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [نوح: ٢٨]؛ فليس فقط أنا ولمن دَخل بيتي؛ بل كلُّ مؤمنٍ إلى يوم القيامة.

فالشخص مِن حُسن ظنِّه باللَّه يعظِّم الرغبة والمسألة، فمثلاً لا يقل شخص: يا ربِّ نجحني في الجامعة، لا؛ يقول مثلاً: يا ربِّ أُصبح من الطلاب المتفوقين؛ إنَّ اللَّه على كل شيء قدير.

ولا يقل شخصٌ: يا ربِّ أعطني لو امرأة صالحة؛ وإنما يقول: يا ربِّ أعطني امرأةً صالحةً قانتةً عابدةً.

وهكذا نعظِّم الرغبة؛ لماذا؟

قال: (فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ) يعني: ليس عسيرٌ عليه أن يعطيك الشيء الكثير؛ فخزائنه ملأى، وهو غنيٌّ سبحانه وتعالى وكريمٌ، فأنت اسأل اللَّه من غير أن تقول: أخشى أنَّ اللَّه لا يعطيني جميع سُؤلِي، أو أستحي من ربي.

فمثلاً لا تقل: اللَّهم إني أسألك الجَنَّة؛ بل قل: أسألك الفردوس الأعلى من الجَنَّة، ولا تقل: اللَّهم اجعلني مِن حفظة القرآن؛ بل قل: اللَّهم اجعلني من الماهرين بالقرآن، وهذا هو هَدْي الأنبياء، كما سبق.

(فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ) كلُّ ما يعطيك فهو يسيرٌ عليه؛ قال سبحانه ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، فأنت أكثِر من المسألة والرغبة، وتوكَّل عليه عز وجل، وأيقِن بأنَّ اللَّه يجيب دعاءك، فالمهم اليقين بأنَّ اللَّه يجيب الدعاء؛ فتقول: يا رب اهدني، وتتيقن بأنك دعوتَ اللَّه وطرقتَ باب السماء، وأنَّ اللَّه سيجيب دعوتك، ولا تتردَّد، وكذا تقول: اللَّهم اشفني، ولا تقل بقلبك أخشى أنَّ

اللَّه ما يشفيني، لا ؛ بل قل: يا رب اشفني، وأنا موقنٌ أن اللَّه سيشفيني؛ لأني دعوت اللَّه، ولأن اللَّه وَعد بالإجابة وهكذا.

لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: (**فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ**) فمثلاً شخص يقول: اللَّهم ارزقني ذريةً طيبةً مباركةً إلى يوم القيامة إنَّ اللَّه على كل شيءٍ قديرٍ، وهكذا من الأدعية العامة، فلا يتعاظم منها شيءٌ في نفْسك، فاطلب واللَّه كريم، واطلب واللَّه الغنيُّ واللَّه القدير، واطلب واللَّه الحميد، فاسأل ما شئتَ من المسائل المباحة أو الأمور الشرعية من الهداية والتوفيق والسداد.

وهكذا مِثل: اللَّهم افتح لي من أبواب العِلم الواسع الذي ترضى به عنِّي؛ لأنَّ اللَّه قال: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء:٣٢]، فمِن فضْل اللَّه العطاء؛ فاسأل.

واللَّه عز وجل يحبُّ الذي يسأله ويتوجَّه إليه، يحبُّه؛ لأنه يؤدي عبادةً عظيمةً وهي الدعاء، ويحبُّه؛ لأنَّه أيقن بأنَّه هو العبد الفقير، وأنَّه هو المحتاج إلى اللَّه، فاللَّه عز وجل يعطيه سُؤلَه.

فتبيَّن ممَّا سبق: أنَّه لا يجوز تعليق المشيئة في الدعاء، لا بالمغفرة ولا بالرحمة ولا بالهداية ولا غيرها من الأمور؛ وإنما الشخص يجزم بلا

تعليق الدعاء بمشيئةٍ، فلا يقل: اللَّهم اغفر لي إن شئت؛ والعلة في ذلك: لأن اللَّه لا يُكرهه أحدٌ على عطائه، فإذا قلت: إن شئت؛ معناه مترددٌ في الدعوة، فيا ربِّ أخشى أنك لا تستطيع تحقيق أمنيتي، فإنْ شئتَ أعطني إياها، وإنْ شئتَ لا تعطِني إياها؛ وهذا فيه تنقُّصٌ لجناب الربوبية.

ثُم بعْد ذلك بيَّن المصنِّف أنَّ الشخص إذا دعا لا يُصغِّر المسألة؛ بل يعظِّمها، وهكذا كان الأنبياء يعظِّمون المسألة، فزكريا قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾، ليس ولداً واحداً، ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: ٣٨]، ثُم توالى عليه الرزق وهكذا.



[٥٤]

بَابُ
لَا يَقُولُ: عَبْدِي وَأَمَتِي

فِي الصَّحِيحِ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: أَطْعِمْ رَبَّكَ، وَضِّئْ رَبَّكَ، وَلْيَقُلْ: سَيِّدِي وَمَوْلَايَ.

وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي وَأَمَتِي، وَلْيَقُلْ: فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغُلَامِي».

الشرح:

قال رحمه الله: (بَابٌ لَا يَقُولُ: عَبْدِي وَأَمَتِي) أي: باب ما جاء من النهي عن أن يقول الرجُل الذي عنده عبيد من الذكور أو الإناث؛ لا يقول: عبدي للذكَر، ولا يقول: أمتي للأمَة المملوكة؛ حمايةً لجناب التوحيد؛ لحفظه من توهُّم التشريك في الربوبية، ولئلا تَدخل السيد العظمة بأنَّ له عبيداً كما أنَّ الربَّ سبحانه وتعالى خلْقُه عبيدٌ له.

وجاء النهي عن مِثل هذين اللَّفظين؛ لِما فيهما من إيهام التشريك في العبودية بين الخالق والمخلوق، وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم كما في الحديث الذي ساقه المصنِّف.

وكذلك نهى النبي صلى الله عليه وسلم السيِّد أن يقول بعض الألفاظ لعبده أو أَمَتِه، وإنْ كان اللَّفظ جائزاً من ناحية اللَّغة؛ لكنْ سدّاً لذرائع الشرك الموصلة إليه؛ فقد جاء النهي عن مِثل ذلك؛ لأنَّ المُلك كلَّه للَّه وحْده.

قال: (فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ) أي: في الحديث الصحيح، وهذا الحديث في الصحيحين[١].

قال: (لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: أَطْعِمْ رَبَّكَ) أي: لا يقل رجُلٌ لعبدِ غيْره: (أَطْعِمْ) يعني: أيها العبد، (رَبَّكَ) يعني: أعطه الطعام - أي: السيد -.

(وَضِّئْ رَبَّكَ) أي: لا يقل أيضاً رجُلٌ لعبدٍ: (وَضِّئْ رَبَّكَ) يعني: قرِّب له الوَضُوء.

---

(١) رواه البخاري، كتاب العتق، باب كراهية التطاول على الرقيق، وقوله: عبدي أو أمتي، رقم (٢٥٥٢)، ومسلمٌ، كتاب الألفاظ من الأدَب وغيرها، باب حكم إطلاق لفظة العبد، والأمة، والمولى، والسيد، رقم (٢٢٤٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والمراد هنا بالربِّ: السيد؛ أي: مالك الرقبة، والألِف واللَّام في الربِّ لا يجوز إطلاقها إلا على اللَّه عز وجل، فلا يقال الربُّ إلا عليه سبحانه، وإذا أضيف فإنه يجوز؛ كما في قول يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف:٢٣]، فقال يوسف عليه السلام عن السيد: ﴿إِنَّهُ رَبِّي﴾.

أمَّا إن كان معرَّفاً بالألِف واللَّام؛ فلا يجوز إطلاقها إلا عليه جل وعلا.

ونُهيت هذه الأمَّة - وإن كان قالها يوسف عليه السلام -؛ لبيان الفضْل الأعظم في الألفاظ وغيرها لهذه الأمَّة لتكون هذه الأمَّة أفضل الأمم في مثل ذلك.

(وَلْيَقُلْ: سَيِّدِي) يعني: سواء تقول له أَطعمْ سيِّدك، أو وضِّئْ سيدك، أو العبد يقول لمالكه: يا سيِّد، (وَمَوْلَايَ) أي: له الخيار إمَّا أن يقول سيدي؛ لأنَّ السيادة اسمٌ ليس خاصّاً باللَّه؛ بل يُطلق أيضاً على البشر؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا﴾ [الأحزاب:٦٧]، (وَمَوْلَايَ)؛ لأنَّ هذا الاسم - وهو المولى - يطلق أيضاً على الناظر على الشيء، ومتولِّي الأمر وهكذا، فليس خاصّاً بالربِّ سبحانه.

فمعنى ذلك: إذا أراد المملوك أن يخاطب مالكه فلا يقل له: يا ربِّ؛ وإنَّما يقل له: يا سيدي، وهذا اللَّفظ بيَّن فيه النبي صلى الله عليه وسلم هنا للعبد يخاطب مالكه بأن يقول يا سيدي ، ولمَّا قيل للنبي صلى الله عليه وسلم هذا اللَّفظ: أنت سيِّدنا وابن سيِّدنا وخيرُنا وابن خيرِنا، قال: «لا يَستَجْرِينَّكُمُ الشَّيْطَانُ قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ؛ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُ اللَّهِ، فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ»[١].

فجاز إطلاق لفظ: (**سَيِّدِي**) بين العبد ومالكه، وبين الأحرار تُترك هذه الكلمة من باب الكَمال، وإن كان يجوز إطلاقها لكن الأفضل تَرْكها.

وكذلك (**مَوْلَايَ**) أَرشد النبي صلى الله عليه وسلم فقال : (**وَمَوْلَايَ**)، وفي لفظٍ في صحيح مسلمٍ[٢] «وَلَا مَولَايَ فَإِنَّ مَوْلَاكُمُ اللَّهُ

(١)رواه أحمد في المسند، رقم (١٢٥٥١)، من حديث أنس رضي الله عنه، ولفظه: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيْكُمْ بِتَقْوَاكُمْ، لَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَاللَّهِ مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللَّهُ».

(٢) كتاب الألفاظ من الأدَب وغيرها، باب حُكم إطلاق لفظة العبد، والأمة، والمولى، والسيد، رقم (٢٢٤٩).

عز وجل»، قال ابن النحاس[١]: «لا يَختلف أهل العِلم في أنَّه لا تنبغي مِثل هذه الكلمة»[٢]؛ أي: مولاي.

فالخلاصة يجوز أن يطلق العبد كلمة يا سيدي على مالكه، ويجوز أن يطلق الأحرار بعضهم على بعض هذه الكلمة بشرط أن لا يَظهر منه شيءٌ من علامات النفاق أو الكُفر؛ قال عليه الصلاة والسلام: «لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ لِلمُنَافِقِ سَيِّداً فَإِنَّكُم إنْ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ أَغْضَبْتُمْ رَبَّكُم»[٣]، ثُم بعد ذلك أَرشد النبي صلى الله عليه وسلم المالك ما هي الألفاظ التي ينادي بها مملوكه.

فهذا الشطر من الحديث في تأدُّب العبد مع مالكه بأن يقول: سيدي ومولاي، والشطر الثاني في تأدُّب السيد مع عبيده؛ لذلك قال: (وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي) بالنسبة للذكَر، (وَأَمَتِي) بالنسبة للأنثى؛ وإنَّما استُبدل

---

(١) هو: أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل المصري النحوي، توفي سنة (٨٣٨هـ). سير أعلام النبلاء للذهبي (١٥/ ٤٠٢).

(٢) نقله عنه النووي في كتاب الأذكار. (١/ ٣٦٣).

(٣) رواه أحمد في المسند، رقم (٢٢٩٣٩)، من حديث بريدة رضي اللَّه عنه، ولفظه: «لَا تَقُولُوا لِلْمُنَافِقِ سَيِّدَنَا؛ فَإِنَّهُ إنْ يَكُ سَيِّدَكُمْ فَقَدْ أَسْخَطْتُمْ رَبَّكُمْ».

بلفظٍ يَبعُد عن التشريك في الربوبية؛ (وَلْيَقُلْ: فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغُلَامِي) وهذا أسْلم في جناب التوحيد وحمايةٌ له، وهذا من باب الأدَب في القول.

هنا قال لا يقل: (عَبْدِي)؛ لأنَّ الجميع هم عباد اللَّه، فلو قال شخصٌ: هذا عبدي؛ كأنَّ فيه مشاركةٌ في الربوبية، فهو عبدٌ للَّه، وعبدٌ أيضاً لهذا الشخص، وإنْ كان من ناحية اللَّغة صحيحاً؛ لكن الأكمل أن يُترك؛ قال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً﴾ [مريم: ٩٣]، فكلُّ مَن في الأرض مِن أحرارٍ وعبيدٍ فهم عبيدٌ للَّه عز وجل، فتُترك مثل هذه الكلمة وإنْ كانت جائزةً من ناحية اللَّغة، ولا يقل: (وَأَمَتِي) كذلك للأَمَة؛ وفي الحديث: «اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ»(١)، فالنساء إماءٌ للَّه عز وجل، فإذا قال أمَتي فيه إيهام التشريك، وليس التشريك؛ بل إيهام التشريك بين الخالق والمخلوق؛ فتُستبدل بألفاظٍ بعيدةٍ عن مِثل هذه المعاني، وهي: (فَتَايَ) يعني المملوك يُقال له: هذا فتاي، و المملوكة يقال لها هذه (فَتَاتِي)،

---

(١) رواه أحمد في المسند رقم (٣٧١٢)، من حديث عبد اللَّه ابن مسعودٍ رضي الله عنه.

ويقال أيضاً للذكَر هذا (**غُلَامِي**) عِوضاً عن أمثال تلك الكلمات وهي عبدي وأمَتي، يُقال: هذا فتىً لي، مَن هذا؟ فتىً لي، من هذه؟ هذه فتاةٌ لي، وهم في حقيقتهم عبيدٌ.

فتبيَّن ممَّا سَبق: أنَّه سدّاً لذرائع الشرك، ولكمال التوحيد، وصيانةً للألفاظ وحفظاً لجَناب الربوبية؛ نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن أيِّ لفظٍ فيه إيهام التشريك بين الخالق والمخلوق من الألفاظ، ومِن ذلك ما يطلقه المولى على عبيده، وما يطلقه العبيد على أسيادهم.

***

[٥٥]

بَابٌ

لَا يُرَدُّ مَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «مَنِ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ فَأَعِيذُوهُ، وَمَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ فَأَعْطُوهُ، وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ، وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفاً فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُوهُ؛ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ» رَوَاهُ أَبُو دَاوِدَ، وَالنَّسَائِيُّ، بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

الشرح:

قال رحمه الله: (بَابٌ لَا يُرَدُّ مَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ) أي: بابٌ في النهي عن ردِّ من سَأل باللَّه؛ وذلك إجلالاً للَّه عز وجل، وتعظيماً لجَنابه، فإذا قال رجُلٌ لآخر: أسألك باللَّه أن تعطيني هذا الكتاب؛ فحُكم ذلك أنَّه يُعطى ما سأله بشرطٍ: أن لا يكون هناك ضررٌ على المسؤول، مثل: ليس عنده سوى هذا الكتاب، ولا يستطيع أن يشتري عوضاً عنه، أو يسأله شيئاً محتاجاً إليه، أو يسأله شيئاً يُعجِزُه.

والمصنِّف رحمه الله ذَكر حديث ابن عمر وهو مشتملٌ على أربعة آدابٍ عظيمةٍ فيها تعظيم الخالق سبحانه، وفيها احترام المخلوق:

الأدَب الأوَّل: قال: (عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «مَنِ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ فَأَعِيذُوهُ») يعني: لو قال شخصٌ لآخر: أعوذ باللَّه مِن شرِّك، أو ألتجئ إلى اللَّه أن تكفَّ شرَّك عني وهكذا.

والدليل على ذلك: أنَّ ابْنَةَ الجَوْنِ استعاذتْ باللَّه لمَّا رأت النبيَّ صلى الله عليه وسلم، فقال لها النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «لَقَدْ عُذْتِ بِمَعَاذٍ»[1]، وذلك أن نسوةً مِن باب الكيد لها قلن لها: إذا أردتِ أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يحبُّك فقولي له إذا رأيتِه: أعوذ باللَّه منك، فلمَّا استعاذتْ باللَّه سرَّحَها النبي صلى الله عليه وسلم.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الطلاق، باب مَن طلَّق، وهل يواجه الرجل امرأته بالطلاق، رقم (٥٢٥٥)، من حديث أبي أُسَيدٍ رضي الله عنه.

ولهذا مريم عليها السلام لمَّا رأت جبريل في صورة رجُلٍ قالت: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ [مريم: ١٨-١٩]؛ إعظاماً للَّه أخبرها بأنَّه رسول اللَّه إليها.

والأدَب الثاني: (وَمَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ فَأَعْطُوهُ) إجلالاً للَّه، وتعظيماً له، وإكباراً له في النفْس سبحانه وتعالى؛ إلَّا إذا سأل سائلٌ بإثمٍ أو قطيعة رحمٍ أو بأمر محرَّمٍ أو بما فيه ضررٌ؛ فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ»[(١)].

والأدَب الثالث : (وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ) إلى وليمةٍ ومناسبةٍ ونحو ذلك، والدعوة: هي الوليمة إلى عرسٍ أو غيره، وهي مِن حقِّ المسْلِم على المسْلِم؛ قال صلى الله عليه وسلم: «وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ»[(٢)]؛ ويتأكَّد ذلك في وليمة العُرس، والنبي صلى الله عليه وسلم قال عن الدعوة: «وَمَنْ تَرَكَ الدَّعْوَةَ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ» متفقٌ عليه[(٣)]؛ إلَّا إذا كان هناك ضررٌ

---

(١) رواه أحمد في المسند، رقم (٢٨٦٥)، من حديث ابن عباسٍ رضي الله عنهما.

(٢) رواه مسلمٌ، كتاب السلام، باب مِن حق المسْلِم للمسْلِم رد السلام، رقم (٢١٦٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاريُّ، كتاب النكاح، باب مَن تَرك الدعوة فقد عصى اللَّه ورسوله،

على الذاهب، أو وجود منكرٍ ونحو ذلك؛ فلا يَلزمه الحضور، وفيه منكَرٌ لا يستطيع إزالته.

والأدَب الرابع قال: **(وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفاً فَكَافِئُوهُ)** المعروف: هو كلُ ما تَنتفع به.

(فَكَافِئُوهُ) يعني: مَن صنع إليك معروفاً؛ فكافِئه على تلك الفعلة؛ قال شيخ الإسلام: «لئلا يكون في قلبك تألُّه - يعني: ميلٌ - لصانع المعروف، فإذا كافأته بقي قلبك معلَّقاً باللَّه»[١]، ولقوله سبحانه: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلَّا الإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

(فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئوهُ) من هبة، أو مال، أو لصنيعٍ كبيرٍ ليس في قدْرتك أن تكافئه كما أحسن إليك ونحو ذلك.

لأنَّ مِن هَدْيِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم يَقْبَلُ الهَدِيَّةَ وَيُكَافِئُ عَلَيْهَا [٢].

رقم (٥١٧٧)، ورواه مسلمٌ، كتاب النكاح، باب الأمر بإجابة الداعي إلى دعوةٍ، رقم (١٤٣٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١/ ٩٢).

(٢) رواه البخاري، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب المكافأة في الهبة،

(فَادْعُوا لَهُ) أي: أَكثروا من الدعاء له، وأفضل الدعاء لمَن صنع إليك معروفاَ قول: جزاك اللَّه خيراً؛ قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ صُنِعَ إِلَيْهِ مَعْرُوفٌ، فَقَالَ لِفَاعِلِهِ: جَزَاكَ اللَّهُ خَيْراً؛ فَقَدْ أَبْلَغَ فِي الثَّنَاءِ»(١)؛ لأنَّ الخير كلمةٌ عامةٌ تَشمل حتى دخول الفردوس الأعلى في الجَنَّة، ولا يقيَّد هذا الخير بعدد، كأن يقول بعض الناس: جزاك اللَّه ألْف خيرٍ؛ فهذا من تحجير الواسع؛ لأنَّ اللَّه عز وجل قد يعطيك أكثر من ألْف خيرٍ فلا تحجِّر الخير بعدد الألْف.

(حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ) يعني: تظنُّوا؛ أي: يُدعى له حتى يظنَّ المعطِي أنَّه قد كافأه على عطيَّته تلك؛ لأنَّه لم يستطع مجازاته بأمرٍ دنيويٍّ من عطاء كما أعطاه؛ والنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم كَانَ يَقْبَلُ الهَدِيَّةَ وَيُكَافِئُ عَلَيْهَا.

رقم (٢٥٨٥)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(١) رواه الترمذي، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في المتشبع بما لم يعطه، رقم (٢٠٣٥)، من حديث أسامة بن زيدٍ رضي الله عنهما.

والمكافأة بالدعاء على قدْر صنيع ذلك المعروف؛ فمَن أعطاك مالاً كثيراً، أو أَحسن إليك في علاجٍ ونحوه؛ ليس كمَن أَحسن إليك إحساناً يسيراً.

وبهذه الخصلة يكون المجتمع متحابّاً متآلفاً، وهذا مِن مقاصد الشريعة؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقال عليه الصلاة والسلام: «لَا يَشْكُرُ اللَّهَ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ»(١).

وهذا الحديث فيه جملةٌ كبيرةٌ مِن الأمور العظيمة، من عقيدةٍ ومن آدابٍ؛ فمن العقيدة: (**مَنِ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ فَأَعِيذُوهُ، وَمَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ فَأَعْطُوهُ**)، ومن الآداب: (**وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ، وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفاً فَكَافِئُوهُ**).

وساق المصنِّف رحمه الله هذا الباب في كتاب التوحيد؛ لبيان أنَّ مَن سألك باللَّه، فأعطه إجلالاً للَّه؛ لأنَّ عدم إجلال اللَّه قدحٌ في التوحيد.

فتبيَّن ممَّا سَبق: أنَّ مَن سَألك باللَّه، وليس هناك ضررٌ في إجابة سؤاله؛ فإنَّه يجاب إلى ما سألك؛ إجلالاً للَّه عز وجل، وتعظيماً لجنابه سبحانه.

---

(١) رواه أحمد في المسند، رقم (٧٩٣٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال: (رَوَاهُ أَبُو دَاودَ، وَالنَّسَائِيُّ، بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ)، ورواه أيضاً الإمام أحمد[١]، وصححه النووي وغيره.

***

(١) في المسند، رقم (٥٣٦٥)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

[٥٦]

بَابٌ

لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللَّهِ إِلَّا الجَنَّةُ

عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللَّهِ إِلَّا الجَنَّةُ» رَوَاهُ أَبُو دَاودَ.

الشرح:

قال رحمه الله: (بَابٌ) أي: في النهي، (لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللَّهِ إِلَّا الجَنَّةُ).

اللَّه عز وجل عظيمٌ، ووجهه كريمٌ سبحانه وتعالى، وغاية أمنية كلِّ إنسانٍ دخول الجَنَّة، ولا يُسأل بوجه اللَّه الكريم إلا الغاية العُظمى وهي دخول الجَنَّة.

فلا يقول الشخص مثلاً: أسألك يا اللَّه بوجهك الكريم أنْ أَدخل المدرسة؛ وإنَّما يقول - إذا أراد أن يَسأل بوجه اللَّه -: أسألك بوجهك الكريم أنْ أَدخل الجَنَّة، فتعظيماً لجناب اللَّه عز وجل، وإجلالاً لوجه اللَّه سبحانه وتعالى؛ لا يُسأل به إلا أعظم مرغوبٍ؛ لذلك قال: (عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «لَا يُسْأَلُ) وهذا نفيٌ، والمراد به النهي، (بِوَجْهِ اللَّهِ إِلَّا الجَنَّةُ).

والفرْق بين هذا الباب وبين الباب السابق - (**بَابٌ: لَا يُرَدُّ مَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ**) -: هناك السؤال باللَّه، وهنا: تخصيص السؤال بوجْه اللَّه.

وساق المصنِّف رحمه الله هذا الباب في كتاب التوحيد؛ لبيان وجوب التأدُّب مع اللَّه عز وجل إجلالاً وإعظاماً له سبحانه وتعالى، واحتراماً لجناب التوحيد، فلا يُسأل بوجْهه إلا الجَنَّة تعظيماً له جل وعلا، وإجلالاً لوجهه عز وجل.

***

[٥٧]

بَابُ

مَا جَاءَ فِي اللَّو

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ الآيَةَ.

فِي الصَّحِيحِ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَلَا تَعْجِزْ. وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ؛ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ».

الشرح:

قال رحمه الله: (بَابُ مَا جَاءَ فِي اللَّو) أي: من الوعيد والتحذير من كلمة «لو» فيما سيَذكره المصنِّف من أقسامٍ أشار إليها في النُّصوص.

وكلمة «لو» تنقسم إلى أقسامٍ:

القِسم الأوَّل: إمَّا أن تكون إخباراً؛ وهذه جائزة، مثل قوله عز وجل: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ المَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ [النساء:٧٨]،

ومثل قوله عز وجل: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران:١٥٤]، فإذا كانت إخباراً؛ فلا بأس بها، مثل قوله عز وجل أيضاً: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الزمر:٤٧].

القِسم الثاني: أن تقال اعتراضاً وتجزُّعاً وسخطاً على القضاء والقدَر؛ وهذا هو المنهيُّ عنه، مثل: لو أنَّ شخصاً أتاه حادثٌ فيقول: لو ما أسرعتُ لَمَا انقلبتُ، ولَمَا مات معي فلانٌ وفلانٌ، لو ما خرجتُ في الصباح لَمَا حَصل الحادث، فيتحسَّر ويَندم ويتجزَّع؛ وهذا منهيٌّ عنه.

وليس المراد في النهي عن كلمة «لو» هو اللَّفظ فقط؛ وإنَّما ما ينبعث في القلب من الجَزَع والسخط وعدم الرضا بالمقدور.

وحُكمه: ينافي كمال التوحيد، فإذا كان قدَح في أصل القدَر فهو كُفرٌ؛ ولهذا ساق المصنِّف رحمه الله هذا الباب.

والواجب أنَّ الشخص يُسلِّم أمره إلى اللَّه عز وجل في المصائب، ويلتجئ إليه سبحانه، ويدعوه كثيراً، ويستعيذ باللَّه عز وجل مِن شرِّ المعاصي ونحو ذلك، أمَّا الجزع والسخط والركون إلى اللَّوم والعجز وعدم العمل؛ فهذا الذي نُهي عنه.

وإنَّما الواجب أنَّ الإنسان يُسلِّم بالمصيبة، وَيعمل ما يدعو إلى دفْعها عنه، أو دفْع ضررها عنه مِن أمرٍ دينيٍّ، مثل: لو وَقع للشخص مصيبةٌ يُكثر من الاسترجاع، ويدعو اللَّه عز وجل أيضاً أن يعوِّضه خيراً، فلا يقف عند هذه المصيبة بالجزع والندم؛ اللَّه عز وجل يقول: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن:١١]؛ قَالَ عَلْقَمَةُ: «هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ، فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؛ فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ»(١).

والقِسم الثالث: إذا قِيلَت اعتراضاً على الشرع، مثل قول: لو فرَض اللَّه أربع صلواتٍ لكان أَولى.

والقِسم الرابع: إذا كان تحسُّراً على فوات أمرٍ من الدنيا، مثل: لو ذاكرتُ لأَخَذْتُ درجةً كاملةً ودخلتُ الجامعة.

والقِسم الخامس: إذا كانت في المستقبل لتمنِّي الخير، مثل: لو كنت حافظاً للقرآن لقرأتُ منه كلَّ يومٍ أجزاءً كثيرةً؛ وهذا لا بأس به، بل يؤجر الشخص على ذلك، والدليل على ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: «رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً وَعِلْماً، فَهُوَ يَعْمَلُ بِهِ فِي مَالِهِ يُنْفِقُهُ فِي حَقِّهِ،

---

(١) تفسير الطبري (٢٣/ ١٢).

وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ عِلْماً وَلَمْ يُؤْتِهِ مالاً، فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ كَانَ لِي مِثْلُ هَذَا - يعني من المال - عَمِلْتُ فِيهِ مِثْلَ الَّذِي يَعْمَلُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «فَهُمَا فِي الأَجْرِ سَوَاءٌ»(١).

ومثل أيضاً: لو شخصٌ يقول: لو طال عمري لاستمرَّيتُ في طلب العِلم وهكذا؛ فهذا في المستقبل وفي خيرٍ.

والقِسم السادس: إذا كانت في المستقبَل لتمنِّي الشرِّ، مثل لو كنتُ قويّاً لسرقتُ؛ وهذا لا يجوز لقول النبي صلى الله عليه وسلم في قول الرجُل: «وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً وَلَمْ يُؤْتِهِ عِلْماً، فَهُوَ يَخْبِطُ فِيهِ يُنْفِقُهُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ، وَرَجُلٌ لَمْ يُؤْتِهِ اللَّهُ مَالاً وَلَا عِلْماً، فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ كَانَ لِي مَالٌ مِثْلُ هَذَا، عَمِلْتُ فِيهِ مِثْلَ الَّذِي يَعْمَلُ، فقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «فَهُمَا فِي الوِزْرِ سَوَاءٌ»(٢).

---

(١) رواه أحمد في المسند، رقم (١٨٠٢٤)، من حديث أبي كبشة الأنماري رضي اللَّه عنه.

(٢) هذا تتمَّةٌ لحديثٍ سبق تخريجه (ص)، عند قوله (رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً وَعِلْماً، فَهُوَ يَعْمَلُ بِهِ فِي مَالِهِ يُنْفِقُهُ).

فإذا كان في مستقبلٍ لكن في شرٍّ؛ هذا يأثم عليه الشخص، مثل لو قال شخص: لو طال عمري لَمَا صليتُ، ولَمَا صمتُ وهكذا؛ فهذا شيءٌ في المستقبل لكنَّه في شرٍّ.

والمصنِّف رحمه الله أشار إلى ثلاثة أقسام في النُّصوص، ولأنَّ التمني في الخير ليس بمحرَّمٍ؛ لذا لم يجزم رحمه الله في الحُكم بالتحريم؛ لكونه فيه أقساماً.

والمصنِّف رحمه الله ذكر ثلاثة نصوصٍ:

النَّصُّ الأوَّل - (﴿**يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ**﴾) -؛ لبيان تحريم الاعتراض على القدَر.

والنَّصُّ الثاني؛ لتحريم الاعتراض على الشرع، (﴿**لَوْ أَطَاعُونَا**﴾) فهو اعتراضٌ على الطاعة.

والنَّصُّ الثالث - (**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ**) -؛ لبيان دخول «لو» متحسِّراً على أمرٍ من الدنيا.

لذا قال في **الآية الأُولى**: (**وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَقُولُونَ﴾**) أي: المنافقون في غزوة أحدٍ: (**﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾**) وهذا اعتراضٌ على القدَر، فلماذا شاء اللَّه ذلك؟

(﴿مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾) أي: ما قُتل بعضنا في تلك الغزوة.

فلمَّا رأوا الموت، ورأوا العدو؛ قالوا: (﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾)، فتَجزَّعوا على خروجهم من المدينة إلى أُحدٍ، تجزَّعوا على القضاء والقدَر، وتمنَّوا عدم الخروج؛ فنَدموا على ما قضاه اللَّه عز وجل وقدَّره، فلَامَهم اللَّه عز وجل بذلك؛ فقال: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران:١٥٤]؛ يعني: لا تظنُّوا أنَّ الخروج هو سبب القتل؛ بل إنَّ القاعدين يموتون في أماكنهم؛ فدلَّ على التحذير مِن تلك الكلمة، فهذه المقالة لا يقولها إلا مَن ضعُف إيمانه؛ لأنَّ الإتيان بهذه الكلمة ينافي كمال التوحيد الواجب.

والآية الثانية قال: (وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾) وهم المنافقون، ونُسبت هذه المقالة لعبد اللَّه بن أُبَيٍّ بن سلولٍ، (﴿لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا﴾) أي: تخلَّفوا عن غزوة أُحدٍ، (﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾) فهنا فيه طاعةٌ، فالطاعة شرعٌ، مثل: لو أطاعني لَمَا ذَهب إلى الحجِّ ومات، ومِثل: لو أطاعني ولم يسافر لطلب العِلم لَمَا مات وهكذا.

فلمَّا حدث عليهم القتل في غزوة أُحدٍ؛ نَدم وتَحسَّر المنافقون على ما وقَع لهم، فقالوا تلك الكلمة؛ فنهاهم اللَّه عز وجل عن تلك اللَّفظة.

وقال في **الحديث**: (فِي الصَّحِيحِ) أي: صحيح مسلمٍ[١]، (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ) والحرص: هو بذْل الجهد لنوال الخير.

وأوَّل الحديث: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ»[٢].

المؤمن القويُّ متصفٌ بصفتين: الخَيْرِيَّة، ومحبة اللَّه له، والقوة سواء في قوة القلب؛ وهو المطلوب - الأساس -، وما يتبعه من قوة البدن، وقوة اللِّسان، وكلَّما كان الشخص قويّاً؛ كان محبوباً للَّه، وكانت الخيريَّة فيه أشدُّ.

فليحرص المسْلِم على مجاهدة خَوَر وضعْف وجبْن النفْس؛ لهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم من دعائه: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الهَمِّ

(١) كتاب القدَر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة باللَّه وتفويض المقادير للَّه، رقم (٢٦٦٤).

(٢) رواه مسلم، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير للَّه، رقم (٢٦٦٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وَالحَزَنِ، وَالعَجْزِ وَالكَسَلِ، وَالجُبْنِ وَالبُخْلِ»[١]، فممَّا يُقعِد الشخص عن العمل وأدائه؛ الخَوَر والضعْف، وأمَّا القوة والشجاعة فهي محمودةٌ؛ لذلك كان الأنبياء عليهم السلام هم أشجع الناس.

«المُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ المُؤْمِنِ الضَّعِيفِ»؛ القويُّ في الحق، القويُّ في الصبر على المصائب، القويُّ في إنكار المنكرات بحكمةٍ.

قال: «وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ»؛ الخيرية هنا جاءت للصِّنفين؛ بسبب الإيمان - لإيمان الجميع - وزاد المؤمن القويُّ بمحبَّة اللَّه عز وجل له.

ثُم بعد ذلك قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: (**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ**) هذه كلمةٌ عظيمةٌ جامعةٌ لقواعد الدين والدنيا يَحتاج إليها كلُّ مسْلمٍ.

في هذا الحديث القواعد الكبيرة: (**المُؤْمِنُ القَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ المُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ**) وهذه كلمة جامعة فريدة، يحتاج إليها المسْلِم بل كلُّ عبدٍ، ولو تمسَّك بها

(١) رواه أحمد في المسند، رقم (١٢٦١٦)، من حديث أنسٍ رضي الله عنه.

الكافر لأسلم؛ وهي: (**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ**)، أيُّ شيءٍ يَنفعك في آخرتك احرص عليه، والذي لا ينفعك ابتعد عنه، ولو نفَّذ المسلمون هذه الكلمة لَمَا وُجِدَت معصيةٌ على وجه الأرض.

(وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ) فحرصٌ بدون استعانةٍ؛ لا تُوفَّق ولا تُعان، فإذا جَمع المسْلِم بيْن بذْل الجُهد والاستعانة باللَّه والتوكُّل عليه؛ يُوفَّق بإذن اللَّه، فمع الحرص والعمل؛ الاستعانة باللَّه، فحِرصك وعملُك بدون استعانةٍ؛ عملٌ هباءٌ لا يَنفعك ولا تُجعل فيه بركةٌ؛ بل لا تُسدَّد فيه، لذلك من الآيات العظيمة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]؛ نعبد عبادة عملٍ، ومع العبادة والعمل؛ استعانةٌ باللَّه.

فلا يتمُّ أيُّ عملٍ على وجه الأرض إلا بإعانة اللَّه عز وجل للعبد، ولو تَخلَّى اللَّه سبحانه عن إعانة العبد؛ لهَلك.

(وَلَا تَعْجِزْ) أي: لا تَركن إلى اللَّوم والعجز؛ وهو الخمول وعدم العمل، مِن طلبِ العِلم ونحو ذلك؛ بل اعملْ واجتهدْ واستعنْ باللَّه عز وجل فيما يَنفعك في آخرتك.

(وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ) يعني: لو حرصتَ، واستعنتَ باللَّه، وعملتَ، ولم توفَّق للصواب، أو عملتَ وحدَثَت لك مصيبة؛ قال النبي صلى الله

عليه وسلم: (وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ)، أو: لو أني لم أفعلْ؛ (كَانَ كَذَا وَكَذَا) مِثل: لو أنِّي ذهبتُ مع هذا الطريق لَمَا حصل حادثٌ.

فهذا الحديث يقول: اعمل ولو حَدثتْ مصيبةٌ لا تتوقف، اعمل ولو حدثت مصيبةٌ اعمل ولا تَتوقَّف عن العمل؛ لهذا مِن صفات المؤمنين العمل، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة:٢٧٧]؛ فلا يتوقف الإنسان عن العمل بسبب مصيبةٍ؛ بل حتى لو حدثتْ له مصيبةٌ يستمر ويستمر وهكذا.

والنبيُّ صلى الله عليه وسلم ابتُلي بابتلاءاتٍ عظيمةٍ وما توقَّف؛ فتوفِّي له ستةٌ من الولد؛ ومع ذلك ما توقَّف عن الدعوة، أتاه الجوع؛ وما توقَّف عن الدعوة، أتاه الخوف؛ وما توقَّف عن الدعوة؛ بل استمر على الدعوة، حدثتْ في بيته مصيبة الإفك؛ وما توقَّف عن الدعوة، خرَج المنافقون؛ وما تَّوقف عن الدعوة وهكذا؛ لذلك الشخص إذا أصابته مصيبةٌ لا يَتوقف، ولا يَعجز، ولا يَندم؛ بل يَعمل.

(وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللَّهُ)، ويصحُّ: (قَدَرُ اللَّه)؛ أي: هذا الذي أصابني قَدَرُ اللَّه، (وَمَا شَاءَ فَعَلَ)، فاللَّه قدَّره؛ يعني: هذا الأمر اللَّه قدَّره وما شاء

فَعل، فاللَّه قدَّر هذا الفعل، وتُظهِر التوحيد بقولك، فتقول: (**وَمَا شَاءَ فَعَلَ**)؛ لأنَّ اللَّه يقول: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [هود:١٠٧]، وقال: ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [البروج:١٦]، فتُظهر فعل اللَّه عز وجل في جميع الأمور.

(**قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ**) ما شاءه يَفعله، ولا رادَّ لحُكمه جل وعلا، ولا رادَّ لقضائه، فإذا حدثت مصيبةٌ استمر، وقل: هذا اللَّه عز وجل شاءه.

فلو قيل: لماذا ما نقول «لو»؟ ما العلة في ذلك؟

نقول: لأنَّ هذا بابٌ كبيرٌ من أبواب الشيطان يَدخل فيه على المصاب؛ ليُقعِدَه عن العمل؛ لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: (**فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**) تفتح عملَ الشيطان من ناحية عدم الإيمان بالقضاء والقدَر، وتَفتح عمل الشيطان من ناحية عدم العمل؛ فتفتحه في إضعاف المعتَقد، وتفتحه في الإقعاد عن العمل.

والواجب: الإيمان بالقضاء والقدَر، والعمل، والاستمرار فيه حتى لو حدثت لك مصيبةٌ؛ لهذا أوَّل الحديث بيَّن لك: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ»، لماذا «خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ»؟

فكأنه في الحديث يقول: انتظر ستأتيك، سوف أقول لك أنه ستكون مصائب؛ فالمؤمن يقول: (**قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ**)؛ لذلك قلتُ لك:

«الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ»، فلا تَركن إلى الضعْف، والعجز، ولا إلى كلمة «لو»، وعدم التسليم بما كَتبه اللَّه عز وجل لك.

فإذا فتحتَ للشيطان عملاً؛ أهلكَكَ بالحزن والقدْح في أقدار اللَّه، وعدم الرضا بالمكتوب؛ فأرشد النبي صلى اللَّه عليه وسلم إلى أنَّه يقول: (**قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ**)، ونهاه عن الندم والتحسُّر.

فتبيَّن ممَّا سبق: أنَّ «لو» تنقسم إلى أقسامٍ:

قِسمٌ وهو الإخبار؛ وهو جائز.

وقسمٌ وهو المستقبل؛ بأن تُجعَلَ بالمستقبل، وهذا ينقسم **إلى قِسمين**: خيرٌ وشرٌّ؛ فإن كانت خيراً؛ فلا بأس بها، وإن كانت شرّاً؛ فلا تجوز؛ لأنك تُبَيِّت نيةً للشرِّ.

وقِسمٌ إذا أُتي بها في موطن التجزع على القضاء والقدَر في أمر ماضٍ؛ فهذا القِسم هو الذي عَقد عليه المصنِّف رحمه الله هذا الباب.

والواجب على المسْلِم هو التسليم لأمر اللَّه وعدم الجزع والتسخُّط؛ وإنَّما الواجب الدعاء، والابتهال، والتضرع إليه سبحانه في كلِّ مصيبةٍ تقع؛ اللَّه عز وجل يقول: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل:٦٢]؛ بل إذا علمتَ أنَّ اللَّه يجيب دعوة المشرك المضطرِّ، كما قال

سبحانه: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]؛ فأنت أعظم من ذلك المشْرِك الذي أجاب اللَّه دعاءه.

بل إذا علمتَ أنَّ اللَّه أجاب دعوة إبليس بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ* قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ [الحجر: ٣٦-٣٧]؛ فإذا أجاب اللَّه دعوة إبليس؛ فلا تحتقر نفْسك في الدعاء، فقل: يا رب أنا خيرٌ من إبليس؛ فأجب دعائي، يا رب أنت الكريم، أنت العظيم، أنت الواحد، أنت المعطي، أنت الوهاب وهكذا؛ فتلتجئ إليه سبحانه بأسمائه وصفاته، وتتوسلُ إليه جل وعلا بصفاته سبحانه.

***

[٥٨]

بَابُ
النَّهْيِ عَنْ سَبِّ الرِّيحِ

عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «لَا تَسُبُّوا الرِّيحَ؛ فَإِذَا رَأَيْتُمْ مَا تَكْرَهُونَ؛ فَقُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الرِّيحِ، وَخَيْرِ مَا فِيهَا، وَخَيْرِ مَا أُمِرَتْ بِهِ.
وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ، وَشَرِّ مَا فِيهَا، وَشَرِّ مَا أُمِرَتْ بِهِ» صَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ.

الشرح:

قال رحمه الله: (بَابُ النَّهْيِ عَنْ سَبِّ الرِّيحِ) (بَابُ النَّهْيِ) والمراد به: نهي التحريم، (عَنْ سَبِّ الرِّيحِ) وهي: الهواء.

وساق المصنِّف رحمه الله هذا الباب في كتاب التوحيد؛ لبيان أنَّ الريح خلْقٌ مِن خلْق اللَّه، وسبُّها قدحٌ في خالقها، وذلك قادحٌ في التوحيد؛ لأنَّ الريح مِن أفعال اللَّه فأنت تسُبُّ فعْلاً من أفعال اللَّه، فالريح مخلوقةٌ وهي من جند اللَّه، فلا تسب الريح كما لا تسب أيضاً الدهر؛

فلا تسب شيئاً مِن مخلوقات اللَّه؛ لأنَّ التعدي على مخلوقات اللَّه تعدٍّ عليه سبحانه.

قال: (عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «لَا تَسُبُّوا الرِّيحَ) هذا الشاهد، (لَا تَسُبُّوا الرِّيحَ) فلا يجوز للشخص أنْ يسُبَّ الريح سواءً بالذمِّ أو الشتم بالألفاظ، أو باللَّعن ونحو ذلك؛ وهذا نهيٌ ويراد به التحريم، ولا يجوز سبُّ الريح؛ لأنَّها جندٌ من جنود اللَّهِ، اللَّهُ يسوقُها للخير، ويسوقُها عز وجل لمَن أراد به شرّاً.

(فَإِذَا رَأَيْتُمْ مَا تَكْرَهُونَ) أي: من الريح سواءً من البرودة، أو من الحرارة، أو سمومها، أو ما فيها من الغبار والأتربة ونحو ذلك؛ أَرشد النبي عليه الصلاة والسلام إلى التوحيد وهو الدعاء.

(فَقُولُوا) أي: الجأوا إلى اللَّه ووَحِّدوه وعَظِّموه، ولا يجوز سبُّها، مثل: لو أنَّ إنساناً كَتَب خطّاً وجمَّله فلمَّا رآه أحد الناس سبَّ هذا الخط؛ فهذا قدحٌ في مَنْ كَتَب هذا الخطَّ، وكذلك الريح خَلْقٌ من خلقِ اللَّه، وسبُّها قدحٌ فيه سبحانه، فأرشدنا النبي صلى الله عليه وسلم عوضاً عن سبِّها؛ لأنَّها مخلوقةٌ بأن نَتوجَّه إلى اللَّه بأن تكون خيراً؛ لئلا يطعن العبد

في شيءٍ من مخلوقات اللَّه؛ فتقول: (اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الرِّيحِ).

فدلَّ على أنَّ هذه الريح فيها خيرٌ؛ مِنْ سَوْقِ السحاب، وهزيمة الأعداء، ونقْل الأتربة من مكانٍ إلى آخر؛ لئلا يؤذيَ الناس، وكذلك نقْل الأوبئة من مكانٍ إلى مكانٍ آخر؛ لئلا يتضرر الناس بذلك الوباء، فنسألك من خيرها؛ يعني: يا ربِّ أصبْنا مِن خَيرها.

(وَخَيْرِ مَا فِيها) ففيها المطر والغيث، وفيها ما يشاؤه اللَّه عز وجل ممَّا فيه نفْع الخلائق ممَّا قد تقاصرت أبصارهم وأفهامهم إليه؛ من التلقيح للزروع ونحو ذلك ممَّا حمَلَه اللَّه عز وجل فيها من السحاب، وأيضاً ممَّا فيها ممَّا اختَرعه الناس في هذا العصر من التقنيات؛ من الاتصال ونحو ذلك؛ فكلُّها عن طريق الريح.

(وَخَيْرِ مَا أُمِرَتْ بِهِ) من الأمطار والنفع للمسلمين، وإزالة ما يتأذَّون به من الروائح وتجدُّد الهواء، ومِنْ أن يُصَابَ خيرُها للأرض الفلانية، أو للشخص الفلاني بإنقاذه من إطفاء الحريق وغير ذلك؛ خلْقٌ عظيمٌ لا يَعلمه إلا هو سبحانه.

(وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ) أي: فكَما أنَّ فيها خيراً ففيها أيضاً شرٌّ على المرسَل إليه؛ مِنْ قلْع المنازل، والأشجار ونحو ذلك.

(وَشَرِّ مَا فِيهَا) من الأتربة والعذاب - والعياذ باللَّه - كما حدَث لقوم شعيبٍ وغيرهم.

(وَشَرِّ مَا أُمِرَتْ بِهِ) مِن هلاك بعض الناس بها.

ففي بعض الريح العذاب، وفيها من الأمراض ونحو ذلك، وفيها أيضاً ما يؤذي وما يتضرَّر منه الناس في ممتلكاتهم وغير ذلك، فإذا رأى المسْلِم شيئاً ممَّا يَكره من الريح؛ فليتوجَّه إليه سبحانه بالدعاء.

فدلَّ على أنَّها مأمورةٌ كما أنت أيضاً مأمور؛ فلا يجوز سبُّها ولا ذمُّها، وإنَّما يُلجأ إلى اللَّه بالدعاء السابق الذي فيه الإقرار بتوحيد الربوبية بأنَّ اللَّه مُرسِلها.

فتبيَّن ممَّا سَبق: أنَّه لا يجوز بحالٍ أن تسبَّ الريح؛ لأنَّها مخلوقةٌ من مخلوقات اللَّه، ففيه طعنٌ في جناب الربوبية، وقدحٌ في كمال التوحيد الواجب.

قال: **(صَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ)**.

***

[٥٩]

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الحَقِّ ظَنَّ الجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَنَا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ الآيَةَ

وَقَوْلُهُ: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ الآيَةَ.

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ - فِي الآيَةِ الأُولَى -: «فُسِّرَ هَذَا الظَّنُّ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يَنْصُرُ رَسُولَهُ، وَأَنَّ أَمْرَهُ سَيَضْمَحِلُّ، وَفُسِّرَ بِظَنِّهِمْ أَنَّ مَا أَصَابَهُمْ لَمْ يَكُنْ بِقَدَرِ اللَّهِ وَحِكْمَتِهِ.

فَفُسِّرَ بِإِنْكَارِ الحِكْمَةِ، وَإِنكَارِ القَدَرِ، وَإِنْكَارِ أَنْ يُتِمَّ أَمْرَ رَسُولِهِ، وَأَنْ يُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، وَهَذَا هُوَ ظَنُّ السَّوْءِ الَّذِي ظَنَّهُ المُنَافِقُونَ وَالمُشْرِكُونَ فِي سُورَةِ الفَتْحِ.

وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا ظَنَّ السَّوْءِ؛ لِأَنَّهُ ظَنُّ غَيْرِ مَا يَلِيقُ بِهِ سُبْحَانَهُ، وَمَا يَلِيقُ بِحِكْمَتِهِ وَحَمْدِهِ، وَوَعْدِهِ الصَّادِقِ.

فَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يُدِيلُ البَاطِلَ عَلَى الحَقِّ إِدَالَةً مُسْتَقِرَّةً يَضْمَحِلُّ مَعَهَا الحَقُّ، أَوْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ مَا جَرَى بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، أَوْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ قَدَرُهُ لِحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ يَسْتَحِقُّ عَلَيْهَا الحَمْدَ؛ بَلْ زَعَمَ أَنَّ ذَلِكَ لِمَشِيئَةٍ مُجَرَّدَةٍ.

فـ ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾.

وَأَكْثَرُ النَّاسِ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ فِيمَا يَخْتَصُّ بِهِمْ، وَفِيمَا يَفْعَلُهُ بِغَيْرِهِمْ.

وَلَا يَسْلَمُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ عَرَفَ اللَّهَ وَأَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ، وَمُوجَبَ حِكْمَتِهِ وَحَمْدِهِ.

فَلْيَعْتَنِ اللَّبِيبُ النَّاصِحُ لِنَفْسِهِ بِهَذَا، وَلْيَتُبْ إِلَى اللَّهِ، وَيَسْتَغْفِرْهُ مِنْ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ ظَنَّ السَّوْءِ.

وَلَوْ فَتَّشْتَ مَنْ فَتَّشْتَ؛ لَرَأَيْتَ عِنْدَهُ تَعَنُّتاً عَلَى القَدَرِ وَمَلَامَةً لَهُ، وَأَنَّهُ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ كَذَا وَكَذَا؛ فَمُسْتَقِلٌّ وَمُسْتَكْثِرٌ، وَفَتِّشْ نَفْسَكَ هَلْ أَنْتَ سَالِمٌ؟

فَإِنْ تَنْجُ مِنْهَا تَنْجُ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ

وَإِلَّا فَإِنِّي لَا إِخَالُكَ نَاجِيًا».

الشَّرح:

قال رحمه الله تعالى: (بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾).

ساق المصنِّف رحمه الله هذا الباب في كتاب التوحيد؛ لبيان أنَّ سوء الظنِّ باللَّه مِن قوادح التوحيد، فبوَّب عليه؛ لأنَّ سوء الظنِّ باللَّه مُنقِصٌ لكمال التوحيد الواجب، وهو نقصان للتوحيد في القلب.

وسوء الظنِّ باللَّه: هو عدم اليقين بقدرة اللَّه ووفائه بوعده سبحانه، وعدم اليقين بقوَّته جل وعلا، وعدم كرَمه وإنكار غير ذلك مِن صفاته؛ وقد بيَّن النبيُّ صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي»(١)، فإذا ظَنَّ - مثلاً - العبد بربِّه أنه سيرزقه مالاً؛ بإذن اللَّه يرزقه مالاً، وإنْ ظنَّ بربه أنَّه لن يعطيه إلا شيئاً يسيراً من المال؛ كان كذلك، فالواجب هو إحسان الظنِّ باللَّه، ومن ذلك: أنَّ كلَّ دعوةٍ تدعو بها تُحسن الظنَّ بأنَّ اللَّه سيجيبها وهكذا.

والمصنِّف رحمه الله ساق ثلاثةَ نصوصٍ:

(١) رواه البخاريُّ، كتاب التوحيد، باب قول اللَّه تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨]، رقم (٧٤٠٥)، ومسلمٌ، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر اللَّه تعالى، رقم (٢٦٧٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

النَّصُّ الأوَّل – (﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الحَقِّ ظَنَّ الجَاهِلِيَّةِ﴾) –؛ لبيان أنَّ ظنَّ السَّوْء مِن خِصال الجاهلية؛ فهو مبنيٌّ على جهلٍ باللَّه.

والنَّصُّ الثاني – (﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾) –؛ لبيان وعيد مَن ظنَّ باللَّه ظن السَّوْء؛ بما ذَكره اللَّه تعالى في الآية: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ [الفتح: ٦] – والعياذ باللَّه –.

والنَّصُّ الثالث – في قول ابن القيم –؛ لبيان أمثلةٍ لظنِّ السَّوء باللَّه.

لذا قال رحمه الله: (بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الحَقِّ﴾ الآيَةَ) أي: باب ما جاء في النهي عَن ظنِّ السوء باللَّه عز وجل لأمرين:

الأمر الأوَّل: لمنافاته حُسن الظنِّ باللَّه به سبحانه.

ومعنى سوء الظن باللَّه عز وجل؛ أي: أنَّ اللَّه لا يفي بوعده فيما وعد به من النُّصُوص، وهذا سواء كان في الأمور الدنيويَّة، أو في الأمور الدينيَّة.

وظنُّ السوء فيه إنكار حكمة اللَّه عز وجل بأنَّ ما كان لم يكن بحكمة منه جل وعلا؛ أي: أنَّ ما صار ليس فيه حكمةٌ بالغةٌ منه سبحانه؛ بل الحكمة فيه ناقصةٌ.

والأمر الثاني: لأنَّ فيه إنكارٌ للقدر؛ فيُنكِر أنَّ ما حَدث هو بتدبير اللَّه وقضائه، وإنَّما حَدث هكذا؛ لأنَّ تدبير اللَّه في الكون ناقصٌ.

وجميع أسباب سوء الظنِّ تعود إلى إنكار حكمة اللَّه في حصول هذا الأمر؛ أي: أنَّ ما حَصل لم يكن عن حكمةٍ منه جل وعلا، وعِلمٍ بأن ذلك هو المستحقُّ لِمَا أُعطي، أو أنَّ الذي حُرِم؛ حُرِم لأمرٍ لا حكمة فيه فأُعطِي مَن لا يستحقُّ، وحُرِم مَن يستحقُّ؛ هذا ظنُّ السوء.

سواء في الأمور الدينيَّة، مِثل: ظنُّ السوء بأنَّ اللَّه لن يَنصر رسوله، ولا ينصر نبيه وأوليائه، أو أنَّ اللَّه لا يجب دعوة الداعي، أو أنَّ اللَّه لا يفرِج كروب المكروبين، أو أنَّ اللَّه عز وجل لا يُجيب استغاثة المستغيثين ونحو ذلك من الأمور الدنيوية، أو أنَّ اللَّه لن يُظهر دينه أو شعائره، أو أنَّ اللَّه لن يَنصر مَن نصَر هذا الدين أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ هذا مِن ظنِّ السوء.

وظنُّ السوء في الأمور الدنيويَّة، مِثل: أن ترى رجُلاً فقيراً؛ وتقول: لِماذا حرَم اللَّه هذا الفقير؟ وتقول: حُرِم لأنَّ اللَّه لا يَعلم بحاله، ولا حكمة منه جل وعلا في ذلك، وكذا مِثل: أن ترى رجُلاً غنياً فاسقاً؛ فتقول: كيف يُعطى هذا الرجُل الفاسق المال وهو لا يستحقُّ ذلك،

وغيره صالحٌ وعابدٌ وعاقلٌ ما أُعطي ذلك المال؟ هنا - والعياذ باللَّه - ظنُّ السوء.

لماذا ظنُّ السوء؟ لأنَّ اللَّه يقول: ﴿وَهُوَ العَلِيمُ الحَكِيمُ﴾ [التحريم:٢]، وقال: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى:٢٧]، وقال: ﴿أَلَا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤].

فخلَق اللَّه عز وجل الخلْق وهو الذي أدار ويدير أمورهم، وقال سبحانه: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وقال جل وعلا: ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [البروج:١٦]، وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [هود:١٠٧]، وقال: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، وقال: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الزمر:٦٣]، وقال: ﴿وَهُوَ الوَلِيُّ الحَمِيدُ﴾ [الشورى:٢٨]؛ له الحمد في تصرفاته جميعاً، وقال في أول آيةٍ: ﴿الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]؛ أي: أنَّ كلَّ تصرُّفٍ منه محمودٌ سبحانه؛ فلا يجوز أنْ يُطعَن في أيِّ أمرٍ؛ بل كلُّ ما يَحدث في هذا الكون تَرضى بحكمته، وتؤمن بقضائه جل وعلا، فمن فَعل ذلك فهو بإذن اللَّه الذي ظَنَّ به سبحانه الظنَّ الحَسن وهو المأمور به.

وإنَّما كان ظنَّ السوء؛ لمنافاته للحكمة والقدَر، وسبب ذلك أيضاً: ضعْف التوكُّل عليه سبحانه، فليس هناك إيمانٌ كاملٌ بالنُّصوص، فمثلاً: لا يؤمن إيماناً كاملاً من دعا ربه، ويقول: نعم أنا لن يستجيب اللَّه دعائي؛ لأني دعوتُ كثيراً في غير هذا الموضع، ولم يستجب ربي دعائي؛ هنا ظنَّ السوء بسبب ضعْف التوكل عليه سبحانه، وضعْف اليقين في القلب.

وإذا كان القلب ممتلئاً بالإيمان؛ فإنه يظنُّ به سبحانه ظنَّ الحَسن؛ لأنَّ ذلك هو الموافق لتعظيم جَناب الربوبية، ولكمال توحيد الألوهية في النفْس؛ فتَعتقد أنَّ جميع أفعال اللَّه كلُّها صادرةٌ عن حكمةٍ وقوةٍ وخبرةٍ منه جل وعلا؛ كما قال عن نفسه: ﴿وَهُوَ الحَكِيمُ الخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٨]؛ فهو حكيمٌ، وهو خبيرٌ عليمٌ، والخبرة أخصُّ من الحكمة؛ فهو عز وجل يضع الأمور في مواضعها بحكمةٍ وعلمٍ وخبرةٍ سبحانه، فالخبرة أخصُّ من العِلم.

لهذا كلُّ ما يقع في الكون على نفْسك أو على غيرك؛ واجبٌ على كلِّ عبدٍ الرضا والتسليم والإيمان به، واعتقاد أنَّ ما حَدث هو مقتضى كمال الحكمة للَّه عز وجل، وأنَّه لو كان ذلك الفعل من مخلوق؛ لكان ذلك الفعل عوجاً؛ كما قال سبحانه: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي

إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ وَكَانَ الإِنْسَانُ قَتُوراً﴾ [الإسراء:١٠٠]، لكن لأنَّ تصرفات خزائن السماوات والأرض بيد اللَّه فأغنى مَن شاء بحكمته، وبفضْله سبحانه، وأفقَر مَن شاء بعدله جل وعلا.

ولا كلُّ مَن يُعطى المال مرضيٌّ عنه، ولا كلُّ مَن يُحرم المال فهو مسخوطٌ عليه؛ وإنَّما هذه وسائل في الحياة يُبتلى الغنيُّ بالشكر، ويُبتلى الفقير بالصبر، واللَّه قال عن الجميع: ﴿الَّذِي خَلَقَ المَوْتَ وَالحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ العَزِيزُ الغَفُورُ﴾ [الملك:٢]، وقال: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ﴾؛ أي: بالفقر والأمراض ونحو ذلك، ﴿وَالخَيْرِ﴾؛ أي: بالغنى والصحة ونحو ذلك؛ ﴿فِتْنَةً﴾؛ يعني: ابتلاءً وامتحاناً للطرفين، ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء:٣٥].

يعني: أنَّ جميع الخلْق على تنوُّع أصنافهم وأحوالهم - مِن غنىً وفقرٍ وصحةٍ ومرضٍ وغُربةٍ وإقامةٍ وصغرٍ وكبرٍ ونحو ذلك -؛ كله من الابتلاء؛ قال سبحانه: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢]، لا، لا يمكن؛ إذاً فالجميع مُبتلىً بما يَفعله اللَّه عز وجل في كلِّ شخصٍ.

فواجبٌ على المسْلِم التسليم، والرضا، والإيمان بما قدَّره اللَّه عز وجل، وحُسن الظنِّ فيما كَتبه اللَّه عليك، وفيما كتبه على غيرك فيما تشاهده؛ فترى - مثلاً - الرجُل الأحمق ذا النسب الوضيع، تراه غنيّاً ذا أولادٍ وزوجاتٍ حسانٍ وسعادةٍ ظاهرةٍ في الدنيا ونحو ذلك؛ فتُحسِن الظنَّ باللَّه، وتقول: ما أعطاه اللَّه إلا لحكمةٍ بالغةٍ عظيمةٍ، وترى الرجُل العالِم ذا النسب العالي، تراه رجُلاً فقيراً ومصاباً ببعض الأمراض، والغُربَة ونحو ذلك؛ فتقول: ما أصابه لحكمةٍ بالغةٍ من اللَّه عز وجل، فنرضى ونسلِّم، ونقول هذا من حُسن ظننا باللَّه، فابتلَى هذا؛ ليَرفع درجاته، وابتلَى ذاك؛ ليَنظر إلى شُكره جل وعلا.

فالواجب عليك التسليم بما كَتبه اللَّه على نفْسك وعلى غيرك؛ على نفْسك من الشرور، ولنفْسك من الخيرات، وكذا للآخرين مِن شرورٍ وفقرٍ ومصائب، وكذلك من خيراتٍ من غنىً وعافيةٍ ومالٍ وغير ذلك من الأمور.

فإحسان الظنِّ باللَّه أنَّ ما وَعد اللَّه به في كِتابه، وما أَخبرنا به نبيُّنا صلى الله عليه وسلم؛ نَعتقد صحته، إيماناً كاملاً جازماً لا مرية فيه.

مثل أنَّ اللَّه عز وجل وعد أنَّ مَن آمن وعَمل صالحاً فله الحياة الطيبة في الدنيا والآخرة؛ كما قال سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧]؛ في الآخرة، وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

ونَعتقد أيضاً أنَّ مَن أَكثر مِن ذكْر اللَّه؛ يطمئن قلبه، وينشرح صدره؛ كما في قوله: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨]، ونَعتقد أنَّ كلَّ دعاءٍ رَفعناه إلى اللَّه عز وجل في غير قطيعةٍ وإثمٍ؛ فإن اللَّه يجيب الدعاء - سواء قلَّ المَطلب، أم زاد -؛ لقوله سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠]، وقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦].

ونَعتقد بأنَّ اللَّه عز وجل يحبُّ أولياءه الصالحين، وأنَّه سبحانه يَنصرهم ويُعلي درجاتهم في الدنيا، ويُعلِيهم في الآخرة.

وهكذا كلُّ نصٍّ أتى في كِتاب اللَّه أو سنَّة نبيِّه عليه الصلاة والسلام؛ نَعتقده بالرضا والتسليم وحُسن الظنِّ، ونَعتقد بأنَّ ما وَعد به سبحانه

واقعٌ لا محالة، فإذا تَخلَّف شيءٌ من ذلك؛ فراجعْ نفْسك بالتوبة الصادقة مِن ظنِّ السوء باللَّه عز وجل، وبالإكثار من العمل الصالح، والاستغفار؛ فهو مُجلِبٌ كلَّ خيرٍ؛ قال ابن القيم: «ويَغلَق باب الشرور؛ بالتوبة والاستغفار»(١)، وطريق السعادة هو الاستغفار.

لذلك الشخص إذا تخلَّف عنه ما وُعِد به في النصوص؛ من تأخير الدعوة ونحو ذلك؛ فالسبب: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى:٣٠]، وليس السبب هو طعنٌ أو نقصٌ في حكمة اللَّه عز وجل؛ لهذا اجعل قلبك ممتلئاً إيماناً بحكمة اللَّه عز وجل، وبأنَّ ما قدَّره من مصائب عليك وعلى غيرك، وأحزانٍ، وهمومٍ، وغمومٍ ونحو ذلك؛ هو لحكمةٍ بالغةٍ لم تَطَّلِع عليها أنت، ولم تَعلم لعلَّ اللَّه قد ادَّخر لك شيئاً كثيراً عنده في الآخرة أو في مستقبل الحياة فيما غُيِّب عنك؛ لذا وَجب الرضا، والتسليم، وحُسن الظن به سبحانه في كلِّ الأمور حتى لو حَدث لك ما حَدث.

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٤/ ١٨٦).

(﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ﴾) أي: المنافقون في غزوة أحدٍ، (﴿غَيْرَ الحَقِّ ظَنَّ الجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾) هذه مِن مقالات المنافقين.

وحال المنافقين وحال المشْرِكين كما وَصَفهم اللَّه في الآية الثانية التي ذَكرها المصنِّف؛ هي سوء الظنِّ باللَّه إذا تخلَّف شيءٌ ممَّا يرونه، أو حَدثتْ مصيبةٌ؛ قال: نعم اللَّه ما صَدق في نصْرة نبيِّه، اللَّه ما صَدق في نصرة المؤمنين وإعلاء الدين وهكذا؛ لهذا ذَكر المنافقون هذه المقالة، ولا يزال بعض الناس يَذكرونها؛ مِن عدمِ نصرة اللَّه لعباده الصالحين، فلو حدثتْ مصيبةٌ أو فتنةٌ في الدين؛ منهم من يَتخَلْخَل ويَفتَتِن ويعود؛ كما قال سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ﴾ [الحج:١١].

فلَمَّا رأى المنافقون علامات الهزيمة في أحدٍ؛ قالوا: السبب أنَّ اللَّه لا يَنصر أولياءه، ولا يَنصر نبيَّه، ولا يَنصر دينه؛ فأَنزل اللَّه هذه الآية عتاباً عليهم وفي ذمِّهم، فظنُّهم هنا بإنكار القدَر، فقالوا: ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٥٦].

واللَّه قال: (﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾) أي: اللَّه عز وجل هو مدبِّر الكون بحكمته، وينْفُذ ما قدَّره اللَّه عز وجل على عباده؛ لأنَّ المنافقين هؤلاء قالوا: نحن نريد أن لا يقع قدَر اللَّه بقتلهم، لو جَلسوا، فظنهم السَّوء بأنهم لمَّا خَرجوا إلى المعركة قُتل من قُتل؛ ظنّاً منهم بأن ليس في ذلك خيرٌ للمؤمنين، ولم يَعلموا أنهم نالوا الشهادة ونَصروا الدين.

فظنُّ السوء مِن عدم نصرة اللَّه للنبيِّ؛ قالوا: لو كان اللَّه صادقاً في وعْده - والعياذ باللَّه - لنصر النبيَّ صلى الله عليه وسلم وما انهزم، وما عَلموا أنَّ اللَّه قال لهم: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران:١٦٥].

والنبيُّ صلى الله عليه وسلم قال: اثبتوا فوق جبل الرماة، لا تعصوني؛ فنَزل مِن الصحابة مَن نزل، وحَصلتْ تلك الهزيمة بسبب هذه المعصية.

وبسبب هذه الهزيمة تَخلْخَل المنافقون، وأَظهروا نفاقهم وعدم إيمانهم بهذا الدين؛ فطَعنوا في ربِّ هذا الدين، وطَعنوا في ربِّ هذا القرآن، وفي ربِّ النبيِّ عليه الصلاة والسلام، لماذا؟ لأنَّ قلبهم منزوعٌ عنه الإيمان به سبحانه، فلم يرضوا بحُكمه، ولا بقضائه، ولا بقدَره، ولم

يُحسِنوا الظن به، ولم يُعظِّموا جناب اللَّه عز وجل، ولم يُصدِّقوه في موعوده في قوله: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: ٥١]، وفي قوله: ﴿وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨].

فعاتَبهم اللَّه، قال إنَّ من أقوالهم ذلك: (**﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾**)، وظنُّ الجاهلية وصْف ذمٍّ؛ يعني: يا أيها المؤمنون مَن ظنَّ باللَّه غير الحق؛ فقد جارَى الجاهلية في وصْفهم ذلك؛ بعدم تصديقهم بنصوصه عز وجل؛ لتأنَفَ[1] النفوس من الظنِّ باللَّه غير الحقِّ.

قال: (**﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾**) يعني: أمرٌ جاهليٌّ ابتَعدوا عن ذلك الظنِّ، وظُنُّوا به الظنَّ الإيماني الصادق الصحيح، وأنَّ ما ذَكره اللَّه سبحانه في كِتابه فهو حقٌّ على حقيقته؛ قال سبحانه: ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً﴾ [النساء:١٢٢]، وقال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً﴾ [النساء:٨٧]، وقال: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ [آل عمران:٩٥].

---

(١) أي: تكره. تاج العروس (٢٣/ ٤٧).

قال: (وَقَوْلُهُ: ﴿الظَّآنِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾) يعني: من المنافقين والمشركين، في أوَّلها قال: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ [الفتح: ٦]، فمِن أسباب تعذيبهم: (﴿الظَّآنِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾)، جزاؤهم: (﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾) ما ظنُّوه يقع عليهم من العذاب، ظنُّوا بأنَّ العذاب سيَنزل على النبيِّ صلى الله عليه وسلم، وأنَّ اللَّه لن يَنصره، ولن يَنصر هذا الدين، ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾ [الفتح:٦]؛ بسبب كُفرهم ونفاقهم، وظنِّهم به سبحانه ظنَّ السوء.

فتوعَّدهم اللَّه عز وجل هنا بأربعة أنواعٍ من الوعيد - والعياذ باللَّه -.

الوعيد الأوَّل: (﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾) أي: كلُّ شرٍ وبلاء سيَنزل بهم، وهذا الشرُّ محيطٌ بهم مِن كلِّ جانبٍ.

الوعيد الثاني: (﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾) فدلَّ على أنَّ سوء الظنِّ كبيرةٌ، وفيه إثبات صفة الغضب للَّه؛ لأنَّ ظنَّ السَّوء فيه تنَقُّصٌ من صفات اللَّه عز وجل؛ كعدم قدْرته على نصْر المؤمنين، وعدم قدْرته تعالى

على إظهار الدين وغير ذلك من أقاويل المنافقين والمشركين كما ذَكر اللَّه.

الوعيد الثالث: (﴿**وَلَعَنَهُمْ**﴾) دلَّ أيضاً على أنَّه من الكبائر - أي: ظنُّ السَّوء -، ودلَّ على إثبات صفة اللَّعن للَّه، وممَّن لعَنهم اللَّه: مَن يظنُّ باللَّه ظَنَّ السَّوء.

والوعيد الرابع: (﴿**وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ**﴾) - والعياذ باللَّه -؛ لأنَّهم ظَنُّوا غيرَ ما يليق به سبحانه وبكمال صفاته.

لكن مَن ظنَّ باللَّه سبحانه الظنَّ الحَسن، وتوكَّل عليه، وأَيقن بأنَّ ما ذَكره سبحانه لعباده بأنَّه حقٌّ، وأنَّه يجب علينا أن نَتمسك بهذا الدين، والإيمان الكامل الراسخ بما أَخبره اللَّه سبحانه، وما وَعده لعباده في كِتابه، وبما أَخبر به النبي عليه الصلاة والسلام، وامتلأ القلب بذلك، فالشخص لا يَنظر إلى شيءٍ من ذلك؛ فهو المؤمن الحقُّ؛ لذلك قال اللَّه: ﴿رَبُّ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾ [المزّمّل:٩]، وقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، فما قلناه حقٌّ؛ فآمِنوا بالنُّصُوص، وسيروا على ما أمركم اللَّه عز وجل به؛ فهو الحقُّ وهو الصدق، ولن يتخلَّف شيءٌ من ذلك.

ومِثل أيضاً: لو قرأ شخصٌ أوراد الصباح والمساء، وقال: أعوذ بكلمات اللَّه التامَّات مِن شرِّ ما خَلق؛ يقول: أنا التجأتُ - في نفْسه - ويقينٌ به؛ التجأتُ إلى اللَّه بأنَّ اللَّه يعيذني مِن شرِّ كلِّ مخلوقٍ؛ فلن يصيبني أحدٌ بسبب هذه الكلمة - إيمانٌ راسخٌ -.

ومثل: الاستشفاء بالقران العظيم، فمثلاً: شخصٌ مريضٌ يقول: أقرأ القرآن لإيماني بأنَّ اللَّه ذَكر أنَّ القرآن شفاءٌ؛ فأقرأه لأنَّه شفاءٌ، وأنا متوكِّلٌ على اللَّه، وأنَّ اللَّه سيشفيني وهكذا.

لذلك قال ابن القيِّم: «وكثير من الناس؛ بل كلُّهم إلا من شاء اللَّه يَظنُ باللَّه ظنَّ السوء»(١)، ويظنُّ باللَّه ظنَّ السوء بأنَّ ما أعطاه أقلُّ ممَّا يستحقُّ؛ فهو يرى في نفْسه بأنَّه رجُلٌ يصلِّي الصلوات الخمْس، ويَذكر اللَّه، ومع ذلك ما أُعطي إلا مالاً قليلاً، وأولاداً قِلَّةً ونحو ذلك، وأنَّه يستحقُّ أكثر من ذلك؛ فهذا من سوء الظنِّ باللَّه، وإنَّما تَطلب اللَّه عز وجل ما شئت ممَّا هو مشروعٌ، وتُحسن الظنَّ به، وأنَّ ما أعطاك هو عيْن

---

(١) زاد المعاد ي هدي خير العباد (٣/ ٢١١).

الحِكمة وعين العِلم وعين الخبرة منه سبحانه، وتؤمن بالقضاء والقدَر في جميع الأمور.

فكلَّما جاءك نصٌّ تؤمن به، وتَعمل به بيقينٍ جازمٍ لا مِرْيَة فيه بحالٍ من الأحوال؛ فإن فعلتَ ذلك حقَّقْتَ أوَّلاً مطلوبك بإذن اللَّه، وأدَّيتَ عبادةً عظيمةً وهي التوكل عليه، وأدَّيتَ أيضاً عبادةً فاضلةً وهي حُسن الظنِّ باللَّه، واللَّه يَرفعك درجاتٍ بتلك العبادات المتفاوتة العظيمة التي يَتخلَّف عنها كثيرٌ من الناس.

ثُم قال المصنِّف: (قَالَ ابْنُ القَيِّمِ فِي الآيَةِ الأُولَى) يعني: في أمثلة ذلك، (فُسِّر هَذَا الظَّنُّ) السَّوء بثلاثة أمورٍ:

الأمر الأوَّل: (بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يَنْصُرُ رَسُولَهُ) وكذا لن يَنصر المؤمنين، واللَّه عز وجل وعَد بأنه سينصرهم؛ قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١]، ﴿وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

والأمر الثاني: (وَأَنَّ أَمْرَهُ سَيَضْمَحِلُّ) يعني: بأنَّ رسالته وما أتى بها ستزول، فأَنكروا بأنَّ اللَّه حيٌّ وحافظٌ رسالةَ النبي صلى الله عليه وسلم،

ووعَد بنصر أهلها؛ قال صلى الله عليه وسلم: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الحَقِّ مَنْصُورَةٌ»(١).

والأمر الثالث: (وَفُسِّرَ بِظَنِّهِمْ أَنَّ مَا أَصَابَهُمْ) يعني: من القتل في غزوة أحدٍ؛ (لَمْ يَكُنْ بِقَدَرِ اللَّهِ وَحِكْمَتِهِ)، وإنَّما هو بسبب عصيانهم؛ أي: أنَّ المؤمنين عصوا المنافقين فلم يَرجعوا، فلمَّا لم يَرجعوا - أي: المؤمنون - قُتلوا، فأَنكَروا - أي: المنافقون - أنَّ قدَر اللَّه نافذٌ في خروجهم، وأَنكَروا حكمة اللَّه في الخروج بنوال مَن نال الشهادة، ورفْعة الدين وتمحيصُ المؤمنين، وإظهار نفاق المنافقين.

ثم فسَّر ابن القيِّم رحمه الله هذه الأمور الثلاثة السابقة؛ فقال: (فَفُسِّرَ) كأنه يقول: أفصِّل لك: (فَفُسِّرَ بِإِنْكَارِ الحِكْمَةِ) يعني: مِن أفعال اللَّه، فهم لم يَعلموا أنَّ كلَّ ما أراده اللَّه فهو بحكمةٍ، ومِن ذلك - على الأفراد -: لو أنَّ شخصاً مرِضَ فهو بحكمة اللَّه، ولا يظنُّ باللَّه ظنَّ السَّوء؛ بأنَّ اللَّه فعَل به ذلك؛ ليُتعِبَه ونحو ذلك.

(١) رواه ابن حبان، كتاب التاريخ، باب إخباره صلى اللَّه عليه وسلم عمَّا يكون في أمته من الفتن والحوادث، رقم (٦٧١٤)، من حديث ثَوْبَان رضي الله عنه. (٥/ ٥١).

(وَإِنْكَارِ الْقَدَرِ) أي: كذلك بإنكار القدر، مثل: لو شخصٌ يقول: لو لم أَذهب مع هذا الطريق لَمَا حصل لي هذا الحادث؛ وهذا سوء ظن باللَّه، فاللَّه عز وجل هو الذي قدر ذلك.

وفُسِّر أيضاً بـ (وَإِنْكَارِ أَنْ يُتِمَّ أَمْرَ رَسُولِهِ)؛ واللَّه وعَد بنصره.

(وَأَنْ يُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ) يعني: بأنَّه لن يُظهره على الدين، وقد أَخبر النبيُّ صلى الله عليه وسلم بأنَّ الإِسْلَامَ سيَدخُلُ كلَّ بَيتِ مَدَرٍ وَوَبرٍ[1]؛ يعني: من بيوت الأعراب وأهل المدينة مِن أهْل الخيام والمباني، وهكذا الإسلام يُعرف الآن في جميع الأرض - اسم الإسلام -؛ هَدى مَن هدى اللَّهُ إليه، وأَعرض مَن أَعرض عنه.

قال: (وَهَذَا هُوَ ظَنُّ السَّوْءِ الَّذِي ظَنَّهُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُشْرِكُونَ فِي سُورَةِ الفَتْحِ) فهم في غزوة أحدٍ ظَنُّوا أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم سيُقتل ويزول هذا الدين؛ لكن اللَّه عز وجل أَبطل ذلك الظَّنَّ وبقيَ لنا هذا الدين كأنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم لم يَمُت.

---

(١) رواه أحمد في المسند، رقم (١٦٩٥٧)، من حديث تميمٍ الداري رضي الله عنه، ولفظه: «لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ هَذَا الدِّينَ، بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ».

ثُم بيَّن رحمه الله العِلَّة في تحريم ظن السَّوء باللَّه فقال: (وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا ظَنَّ السَّوْءِ؛ لِأَنَّهُ ظَنُّ غَيْرِ مَا يَلِيقُ بِهِ سُبْحَانَهُ) من قوَّة اللَّه، وعزَّته، وسمْعه، وبصرِه، وكرمِه ونحو ذلك، فاللَّه عز وجل قادرٌ على تغيير الحال ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

وأيضاً: (وَمَا يَلِيقُ) أي: لا يليق، (بِحِكْمَتِهِ) سبحانه في تدبير الأمور، (وَحَمْدِهِ) لأنَّه سبحانه محمودٌ، ومُثنىً عليه، وله الصفات الكاملة، فإذا قدح الظَّان السَّوء باللَّه شيئاً؛ يُخالف ذلك، (وَوَعْدِهِ الصَّادِقِ) بأنَّ اللَّه سيُكرم المؤمنين بالجَنَّة، وأنَّ مَن اعتزَّ باللَّه عزَّه سبحانه وتعالى، ومِن ذلك مَنْ طلب العلم رفَعه اللَّه، ولا يقل – مثلاً – شخص: طلبتُ العِلم وما حصَّلتُ مالاً كثيراً؛ فهذا سوء ظنٍ باللَّه، فاللَّه أعطاك ما هو أعزُّ وأغلى مِن متاع الدنيا.

ثُم شرَع ابن القيِّم رحمه الله في ذكْر حُكم مَن ظنَّ باللَّه سَوْءاً، فإنَّه في صدْر الكلام ذَكر ثلاثة أمورٍ مِن ظنِّ السَّوء، ويَذكر هنا حُكم ذلك.

فقال في **الأمر الأوَّل**: (فَمَنْ ظَنَّ) أي: أيُّ أحدٍ يظنُّ، (أَنَّهُ يُدِيلُ) أي: أنَّ اللَّه يُديل؛ أي: يُميل ويَهزم، (يُدِيلُ البَاطِلَ عَلَى الحَقِّ إِدَالَةً) يعني: ميلاً وهزيمةً، (إِدَالَةً مُسْتَقِرَّةً) يعني: طَمْساً للإسلام بالكلِّيَّة، بحيث لا

يوجد في الأرض، وينقطع؛ هذا - والعياذ باللَّه - كافرٌ؛ لأنَّ اللَّه عز وجل وَعد بنصر المؤمنين؛ كما قال: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [غافر: ٥١]، ووعَد اللَّه بحفظ هذا الدين؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

(يَضْمَحِلُّ) أي: يزول (مَعَهَا الحَقُّ).

وأَخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأنَّه مهما كانت الحروب والفتن؛ فيبقى طائفةٌ على الحقِّ تَنقله إلى مَن بعدها؛ فقال: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ مَنْصُورَةٌ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ»(١).

والأمر الثاني قال: (أَوْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ مَا جَرَى بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ) فإذا قال: إنَّ ما يَحدث هذا في الكون ليس بقضاء اللَّه ولا قدَره؛ وإنَّما مِن أجْل أنَّ أولئك الطائفة خَرجت فقُتل فيها مَن قُتل، ولو لم تَخرج لم تُقتل؛ كما قال المنافقون في غزوة أحدٍ: ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٥٦].

---

(١) سبق تخريجه (ص) عند قوله (ووعَد بنصر أهلها؛ قال صلَّى اللَّه عليه وسلَّم).

والأمر الثالث: يُثبتون القضاء والقدَر، ولكن قالوا: إنَّ هذا القضاء والقدَر ليس لحكمةٍ، وإنَّما يَحدث هكذا فيكون فيه عبثٌ في الكون؛ وهذا - والعياذ باللَّه - ظنُّ كُفرٍ.

لذلك قال: (أَوْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ قَدَرُهُ لِحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ) فلا بد من أمرين: بأنَّه لحكمةٍ، وهذه الحكمة المُنتَهَى في الحكمة، (يَسْتَحِقُّ عَلَيْهَا الحَمْدَ) لهذه الحكمة البالغة.

(بَلْ زَعَمَ أَنَّ ذَلِكَ لِمَشِيئَةٍ مُجَرَّدَةٍ) أي: حَدث هذا من غير حكمةٍ، وُلد فلان ومات لغير حكمةٍ، وُلد فلانٌ ومرض لغير حكمةٍ، وهذا - والعياذ باللَّه - كُفرٌ، لذلك قال رحمه الله: (فـ ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾).

فأَخبر عز وجل بأنَّ هذا الظنَّ أرْدَاهم إلى الكُفر، وأمَّا الظنُّ الفردي فليس بكُفرٍ، مثل: لو ظنَّ أنَّ اللَّه لن يغنيه لنقصٍ فيه - يعني: نقص في المخلوق -؛ فهذا ليس بكُفرٍ، وإنَّما سوء ظنٍّ لا يصل إلى الكُفر، أو: ظنَّ أنه لن يعطيه اللَّه عِلماً وافراً؛ فهذا لا يصل إلى الكُفر، وإنَّما هو ينافي كمال التوحيد الواجب.

وأمَّا مَن ظنَّ في أمرٍ دينيٍّ؛ مثل: أنَّ اللَّه لن يَقبل توبته لقنوطه مِن ذلك؛ فهو - والعياذ باللَّه - مِن أكبر الكبائر؛ قال تعالى: ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

ولمَّا ذَكر ابنُ القيِّم رحمه الله خطورة ظنِّ السوء؛ بيَّن بعد ذلك هذا الذنْب هل هو يَكثر عند الناس أم لا؟ فقال: (وَأَكْثَرُ النَّاسِ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ) يصحُّ (السَّوءِ) بفتح السين، ويصح بضم السين (السُّوءِ)، قيل معناهما واحدٌ.

وقيل: (ظَنُّ السَّوءِ) يعني: ظنُّ الهلاك، والبوار، والدمار؛ بمعنى: مَن ظنَّ باللَّه الظَّن الذي لا يليق به؛ فالهلاك محيطٌ به، وعلى الضمِّ (ظَنُّ السُّوءِ) يعني: ظنُّ الشرِّ، وكلاهما قُرِئ بهما؛ (﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾)، (﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السُّوْءِ﴾).

وظنُّ السَّوء باللَّه عند كثيرٍ من الناس يكون عند صنفين:

الصنف الأوَّل: (فِيمَا يَخْتَصُّ بِهِمْ) يعني: فيما يختصُّ بالمرء نفْسِه، مثل أن يقول: أنا أَحفظ القرآن وأطيع اللَّه، فلماذا لا يعطيني اللَّه مالاً كثيراً؟ هذا مِن ظنِّ السَّوء باللَّه؛ لأنَّ اللَّه عز وجل حكيمٌ وحميدٌ، فأفعاله محمودةٌ، وهو سبحانه حكيمٌ بمَن يُعطي أو يَمنع.

والصنف الثاني قال: (وَفِيمَا يَفْعَلُهُ بِغَيْرِهِمْ) يعني: ليس يخصُّه وإنَّما يخصُّ الآخر، وفيما يَعمله بهم، مِثل: لو رأى شخصٌ مريضاً وهو فقيرٌ فقد يقول: مَرَضُ هذا وفقْره في غيرِ محلِّه، هذا إنسانٌ طيِّبٌ، فلماذا اللَّه عز وجل يَفعل به ذلك؟! هذا مِن ظنِّ السَّوء.

ومِثل: لو رأى أو سمع عن شخصٍ أنَّه مصاب بالمرض الفلاني فيقول: حرامٌ، هذا كيف يكون؟! فهذا - والعياذ باللَّه - مِن الظنِّ باللَّه ظَنَّ السَّوء؛ لأنَّ اللَّه حكيمٌ في أفعاله؛ ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

ثُم بيَّن رحمه الله كيف النجاة من ذلك؛ فقال: (وَلَا يَسْلَمُ مِنْ ذَلِكَ) يعني: مِن ظنِّ السَّوء، (إِلَّا مَنْ عَرَفَ اللَّهَ) بأنَّه كريمٌ ورحيمٌ، وقد يَبتلي الشخص ليعطيه العطاء الوافر في الآخرة، (وَأَسْمَاءَهُ) فمِن أسمائه: الحكيم، الرحيم، الرؤوف وهكذا.

(وَصِفَاتِهِ) من الرحمة، والرأفة، واللُّطف، والكرم وهكذا، فإذا عرف ذلك اطمأنَّ قلبُه.

وكذلك (مُوجَبَ حِكْمَتِهِ وَحَمْدِهِ) الموجَب يعني: المسَبَّب، مثال ذلك: الجماع موجِبٌ للغُسل، فالجماع موجِب، والغسل موجَب،

وكذلك: البول موجِبٌ - يعني: سببٌ - للوضوء، فالوضوء موجَب، وكذلك حكمة اللَّه هذه مسَبَّبة؛ أي: ما يصيب العباد من مرضٍ ونحو ذلك؛ مسبَّبٌ بحكمة اللَّه؛ يعني: لم يقع إلا بحكمةٍ، (وَحَمْدِهِ)؛ لأنَّه هو المحمود على صفاته وأسمائه وأفعاله سبحانه.

ولمَّا بيَّن رحمه الله بأنَّ أكثر الخلْق على ذلك؛ بيَّنَ ما هو المَخرج؟ بعد عِلم العقيدة بالأسماء والصفات وموجَب الحكمة والحمد؛ قال: (فَلْيَعْتَنِ اللَّبِيبُ) أي: العاقل، (النَّاصِحُ) يعني: المُشفِق، (لِنَفْسِهِ بِهَذَا) مِن ظن السَّوء، (وَلْيَتُبْ إِلَى اللَّهِ) لأنَّه ذنْبٌ عظيمٌ، فيه تنقُّصٌ لجناب الربوبية، (وَيَسْتَغْفِرْهُ) لأنَّ كثرة الاستغفار تزيل الذنْب؛ (مِنْ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ ظَنَّ السَّوْءِ).

ثُم بيَّن كثرة قدْح الناس في القدَر فقال: (وَلَوْ فَتَّشْتَ مَنْ فَتَّشْتَ) يعني: من الناس؛ (لَرَأَيْتَ عِنْدَهُ تَعَنُّتاً عَلَى القَدَرِ وَمَلَامَةً لَهُ) (تَعَنُّتاً) عدم رضا، مثل: لو شخصٌ أصيب بمرضٍ، ما يرضى ويسلِّم بهذا؛ فهذا تعنُّتٌ، (وَمَلَامَةً) مِثل أن يقول: لماذا اللَّه يصيبني بهذا وأنا أصلِّي وطائع؟

قال: (وَأَنَّهُ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ كَذَا وَكَذَا) يعني: أنا شابٌّ طائعٌ للَّه كان ينبغي لي أن يكون عندي مالٌ وافرٌ ووظيفةٌ عاليةٌ وهكذا، (فَمُسْتَقِلٌّ

(وَمُسْتَكْثِرٌ) يعني: منهم مَن يقلُّ عنده ظنُّ السَّوء باللَّه، ومنهم مَن - والعياذ باللَّه - يزيد ذلك عنده.

قال: (وَفَتِّشْ نَفْسَكَ هَلْ أَنْتَ سَالِمٌ؟) من ذلك؛ لأنَّ قليلاً من الناس يسلَم من ذلك؛ فالشيطان يحرص على هذا؛ لأنَّ فيه طعنٌ في صفات اللَّه عز وجل وفي أسمائه؛ فيجب على كلِّ واحدٍ منَّا أن يحاسب نفْسه، وأن يدعوَ ربه بالرضا بالقدَر.

(فَإِنْ تَنْجُ مِنْهَا تَنْجُ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ) يعني: مِن أمرٍ عظيمٍ وهو ظنُّ السَّوء.

(وَإِلَّا فَإِنِّي لَا إِخَالُكَ) لا أظنك، (نَاجِيًا) مِن عذاب اللَّه إن لم تنجِّ نفْسك مِن ظنِّ السوء باللَّه، والذي ينجِّيك - بإذن اللَّه - حُسن الظنِّ باللَّه، وأنَّ اللَّه تعالى هو مُتَوَلٍّ أمرك، وهو أرحم بك مِن نفْسك وأعلم بك؛ لذلك كلُّ ما يَكتبه اللَّه لك مِن خيرٍ أو شرٍ تَحمد اللَّه على ذلك، وبهذا جاءت النُّصُوص.

***

[٦٠]

بَابُ
مَا جَاءَ فِي مُنْكِرِي القَدَرِ

وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما: «وَالَّذِي نَفْسُ ابْنِ عُمَرَ بِيَدِهِ! لَوْ كَانَ لِأَحَدِهِمْ مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَباً، ثُمَّ أَنْفَقَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ مَا قَبِلَهُ اللَّهُ مِنْهُ، حَتَّى يُؤْمِنَ بِالقَدَرِ، ثُمَّ اسْتَدَلَّ بِقَوْلِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: «الإِيمَانُ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَاليَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ لِابْنِهِ: «يَا بُنَيَّ! إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ الإِيمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ: القَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَقَالَ: رَبِّ! وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ.

يَا بُنَيَّ! سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا؛ فَلَيْسَ مِنِّي».

وَفِي رِوَايَةٍ لِأَحْمَدَ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ: القَلَمَ، ثُمَّ قَالَ: اكْتُبْ،

فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ».

وَفِي رِوَايَةٍ لِابْنِ وَهْبٍ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ؛ أَحْرَقَهُ اللَّهُ بِالنَّارِ».

وَفِي «المُسْنَدِ، وَالسُّنَنِ»: عَنِ ابْنِ الدَّيْلَمِيِّ قَالَ: «أَتَيْتُ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ رضي الله عنه، فَقُلْتُ: فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنَ القَدَرِ؛ فَحَدِّثْنِي بِشَيْءٍ، لَعلَّ اللَّهَ يُذْهِبُهُ مِنْ قَلْبِي، فقَالَ: لَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً؛ مَا قَبِلَهُ اللَّهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالقَدَرِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَلَوْ مِتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا؛ لَكُنْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ.

قَالَ: فَأَتَيْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ، وَحُذَيْفَةَ بْنَ اليَمَانِ، وَزَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ رضي الله عنهم؛ فَكُلُّهُمْ حَدَّثَنِي بِمِثْلِ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم» حَدِيثٌ صَحِيحٌ، رَوَاهُ الحَاكِمُ فِي «صَحِيحِهِ».

الشَّرْحُ:

قَالَ رحمه الله: (بَابُ مَا جَاءَ فِي مُنْكِرِي القَدَرِ) أي: من الوعيد على ذلك.

(بَابُ مَا جَاءَ فِي مُنْكِرِي) أي: جاحدي (القَدَرِ) يعني: باب ما جاء من الوعيد الشديد على مَن أَنكر القدَر، فالقدَر هو الركن السادس من

أركان الإيمان، ولا يستقيم إيمان عبدٍ ولا إسلامه إلَّا بالإيمان بالقضاء والقدَر.

والمراد بالقدَر: هو تقدير اللَّه عز وجل للأمور قبْل وأثناء وقوعها، وهو أحد أركان الإيمان، وما يُصيب الشخص من مصيبةٍ جزءٌ من القضاء والقدر، فقوله صلى الله عليه وسلم: (**وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**») يعني: فيما يصيب الإنسان، وهو جزءٌ من عموم القدَر.

والقدَر له أربع مراتبٍ:

المرتبة الأُولى: العِلم؛ يعني: أنَّ اللَّه عالمٌ بما سيقع قبْل وقوعه، وأثناء وقوعه، وبعد وقوعه جل وعلا، فعِلم اللَّه للأشياء قبْل حدوثها، ومن باب أَولى عِلمه بها أثناء حدوثها.

والمرتبة الثانية: الكتابة: وهي أنَّ اللَّه كَتب ما سيقع في اللَّوح المحفوظ؛ فهو مكتوبٌ، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج:٧٠]، فكلُّ شيءٍ مكتوبٌ.

ودليل المرتبتين قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج:٧٠].

والمرتبة الثالثة: المشيئة والإرادة؛ يعني: أنَّ اللَّه عز وجل هو الذي شاء ذلك أن يقع فوقع؛ يعني: لم يقع عَبَثاً؛ أو لم يوقعه أحدٌ من المخلوقين؛ بل إنَّ الذي أَوقعه هو اللَّه عز وجل؛ لحكمةٍ عظيمةٍ، فلا يقع شيءٌ إلا بإذن اللَّه.

والمرتبة الرابعة: الخلْق والإيجاد؛ أي: أنَّ كلَّ ما يَحدث هو بخلق اللَّه وتكوينه وإيجاده؛ قال سبحانه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩].

هذه مراتب القدَر، فيجب على المسْلِم أن يؤمن بمراتب القدَر هذه الأربعة، وأن لا يُخلَّ بشيءٍ منها، فإنْ أخلَّ بشيءٍ منها لم يكن مؤمِناً بالقضاء والقدَر.

والقضاء والقدَر سرُّ اللَّه في خلْقه، فلا يتوغَّل العبد كثيراً في سرِّ اللَّه في خلْقه؛ وإنَّما الواجب عليه الإيمان بالمراتب الأربعة السابقة: علمٌ، ومشيئةٌ، وكتابةٌ، والخلْق - وهو الإيجاد والتكوين -.

والإيمان بالقضاء والقدَر يُطَمْئِن العبد في حياته بأنَّ ما قدَّره اللَّه عز وجل فهو مكتوبٌ سابقٌ وواقعٌ بعِلم اللَّه عز وجل وحكمته، فلم يقع في

هذا الكون إلا ما شاءه اللَّه عز وجل، وكَتبه، وعَلمه، وخلَقه عز وجل؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩].

ومَن أَنكر القدَر فقد خَرج من الدين، وإنكار عِلم اللَّه للأشياء قبْل حدوثها وكتابته لها؛ ثاني بدعةٍ تقريباً ظَهرت في هذه الأمَّة، في عهد الصحابة؛ فالأُولى بدعة الخوارج في عهد النبيِّ صلى الله عليه وسلم، ثُم بعد ذلك هذه البدعة، وقال شيخ الإسلام رحمه الله عن هذين الأمرين: «وَمُنْكِرُوهُ اليَوْمَ قَلِيلٌ»(١).

وقد خَرج في عهد الصحابة مَن أنكر القدَر؛ فبرِئ الصحابة رضي الله عنهم منهم وحَذَّروا منهم؛ لكونهم أَنكروا ركناً من أركان الإيمان.

والقدَر هو سرُّ اللَّه في خلْقه؛ أي: لا يَعلم أحدٌ مهما كان ماذا سيَحدث بعد ثانيةٍ مثلاً؛ فلا يَعلمه إلَّا اللَّه؛ قال سبحانه: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ [يونس:٢٠]، حتى الملائكة لا يَعلمون ماذا سيَحدث؛ قال

(١) متون طالب العلم ، المستوى الثالث، العقيدة الواسطية (ص١٥٠).

تعالى: ﴿عَالِمُ الغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً﴾ [الجن: ٢٦-٢٧].

والإيمان بالقضاء والقدَر مِن توحيد الربوبية، وهو أيضاً من توحيد الأسماء والصفات؛ لأنَّ فيه إيماناً بقدرة اللَّه وعِلمه وكِتابته سبحانه وتعالى ومشيئته.

والفرْق بين القضاء والقدَر:

إن اجتَمعا: فالمراد بالقدَر: ما قدَّره اللَّه على العبد ولم يقع إلى الآن، أمَّا القضاء فمعناه: وقوع ما قدَّره اللَّه، مثل: اللَّه كَتب أنَّ فلاناً سيَمرض؛ هذا قدرٌ، فإذا مَرض؛ قضى اللَّه عز وجل عليه المرض؛ يعني: حَكم عليه المرض، ووَقع عليه.

وإذا افترَقا: اتَّفقا؛ يعني: إذا قيل الإيمان بالقدَر؛ فالمراد به أيضاً: القضاء، وإذا قيل الإيمان بالقضاء؛ فالمراد به أيضاً القدَر.

أمَّا إذا اجتَمعا؛ فعلى التفصيل السابق.

والمصنِّف رحمه الله ذكر عدة نصوصٍ:

النَّصُّ الأوَّل - كلام ابن عمر رضي الله عنهما - ساقه؛ لبيان أنَّ الإيمان بالقدَر من أركان الإيمان.

والنَّصُّ الثاني – (إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ: القَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ) – ساقه؛ لبيان أنَّ اللَّه كَتب ما سيَحدث إِلَى يوم القيامة.

والنَّصُّ الثالث – (وَفِي رِوَايَةٍ لِأَحْمَدَ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ: القَلَمَ، ثُمَّ قَالَ: اكْتُبْ) –: ساقه؛ لبيان أنَّ هذه الكتابة انتهت، فجرى ما هو كائنٌ إلى يوم القيامة.

والنَّصُّ الرابع – (فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ؛ أَحْرَقَهُ اللَّهُ بِالنَّارِ) – ساقه؛ لبيان أنَّ منكِر القدَر متوعَّدٌ بالنار – والعياذ باللَّه –.

والنَّصُّ الخامس – عَنِ ابْنِ الدَّيْلَمِيِّ قَالَ: «أَتَيْتُ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ رضي الله عنه) – ساقه؛ لبيان أنَّ على ذلك إجماع الصحابة.

قَالَ رحمه الله: **(وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما: «وَالَّذِي نَفْسُ ابْنِ عُمَرَ)** هذا حلِفٌ بصيغةٍ جائزة، فالذي نفس ابن عمر وغير ابن عمر بيده هو اللَّه، فكأنه قال: واللَّه، وقوله: **(بِيَدِهِ!)** أي: قادرٌ على موتي، فكأنه يقول: إن كنت كاذباً يعاقبني اللَّه.

قال: **(لَوْ كَانَ لِأَحَدِهِمْ)** أي: ممَّن ينكر القدَر، **(مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَباً)** أي: مثل جبل أُحُدٍ المعروف في المدينة ذهباً، **(ثُمَّ أَنْفَقَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)** أي: في طاعة اللَّه.

فدلَّ على عِظم ثواب النفقة في سبيل اللَّه؛ إذْ كان الصحابة يُمثِّلون لها بما يعادل شيئاً من أركان الإيمان؛ إذا كان المُنفَقُ كثيراً.

(مَا قَبِلَهُ اللَّهُ مِنْهُ، حَتَّى يُؤْمِنَ بَالقَدَرِ) لأنَّه لم يحقِّق الإيمان بالقدَر؛ إذ هو من أركان الإيمان، ومن كَفر بواحدٍ من أركان الإيمان - والعياذ باللَّه -؛ خَرج من الإسلام.

فلو كان الشخص ممَّن ينكر القدَر عنده مثل جبل أحدٍ ذهباً ثم أنفقه في سبيل اللَّه؛ فإنَّ عَمله هذا مردودٌ؛ لأنَّه أَنكر ركناً من أركان الإيمان، وهو الإيمان بالقضاء والقدَر.

(ثُمَّ اسْتَدَلَّ بِقَوْلِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: الإِيمَانُ) أي: أركان الإيمان في حديث عمر بن الخطاب في صحيح مسْلِمٍ[1] لمَّا سأل جبريل النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: أخبرني عن الإيمان؛ قال: (الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَاليَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(١) كتاب القدَر، باب كل شيءٍ بقدر، رقم (٨).

فدلَّ على أنَّ عدم الإيمان بالقدَر يُخرج الإنسان من دائرة الإسلام؛ بدليل أنَّ اللَّه لا يَتقبَّل منه طاعةً كالإنفاق.

فمَن لم يؤمن بالقدَر خيره وشرِّه لم يكن مؤمناً؛ فلو أَنفق ما أَنفق من كنوز الأرض، أو عَمل من الصالحات ما عَمل؛ فإنَّ عمله مردودٌ، لكونه قد انتُزِع الإيمان منه، فقد أخلَّ بركنٍ من أركان الإيمان، وهو الركن السادس مِن أركان الإيمان.

ثُم بعد ذلك قال: **(وَعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ لِابْنِهِ: «يَا بُنَيَّ!)** هذا فيه دليلٌ على أنَّ الصحابة رضي الله عنهم كانوا يُعلِّمون أبناءهم العقيدة وهم صغارٌ.

(إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ الإِيمَانِ) أي: حلاوته؛ قال ابن حجرٍ رحمه الله: «وله حلاوةٌ محسوسةٌ باللِّسان»(١)، قال: **(حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ)** يعني: حتى تؤمن بالقضاء والقدَر، فإذا وَقع المقدور على العبد؛ عليه أن يُسلِّم، ويَحتسب، ويَرضى به.

(١) فتح الباري (١/ ٦٠).

(وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ) تؤمن أيضاً بأنَّ ما لم يُقدِّره اللَّه لك من الرزق أو ما لم يقدره عليك مِن تقدُّم الموت أو المرض ونحو ذلك؛ فتَعلم يقيناً بأنَّه لن يصيبك؛ لأنَّ اللَّه ما كَتب أنَّه سوف يصيبك؛ قال سبحانه: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢]، وقال جل وعلا: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧]، فما أصاب العبد لم يكن ليخطئه.

فشيءٌ مقدَّرٌ عليك؛ يقع حتى لو اجتمع الخلْق جميعاً على أن يَمنعوه عنك لم يستطيعوا، وكذلك ما جاوزك المكتوب، فلن يستطيع الخلْق جميعاً أن يصيبوك ولو فَعلوا ما فَعلوا، فلو كُتب لك السلامة من الموت في حادثٍ ونحو ذلك، حتى ولو تداعَت الأسباب إلى موتك، واللَّه لم يَكتب لك الوفاة في تلك الساعة؛ فإنه لن يقع ذلك، فإذا استَحضر العبد تلك العقيدة العظيمة؛ يطمئنُّ قلبه، لذلك قال عُبَادة لابنه: (**يَا بُنَيَّ! إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ الإِيمَانِ**)، فإذا كان الشخص مفوِّضاً أمره إلى اللَّه ومسلِّماً أموره إليه جل وعلا، مؤمناً بالقضاء والقدَر، ومسلِّماً له وراضٍ به؛ حينئذٍ

يطمئن قلبه، ولهذا لا تجد الاطمئنان عند المصائب إلا عند المسْلِم فقط.

وكلَّما قلَّ الإيمان كلَّما كثُر التجزع والتسخط، مِن ضرْب الخدود وشقِّ الجيوب والادِّعاء بدعوى الجاهلية ونحو ذلك، إذا قلَّ الإيمان، حتى يصل بعضُهم إذا جاوزه الإيمان إلى أنْ يَقتل نفسه عند المصائب.

أمَّا المسْلِم فإنه يَحمد اللَّه عز وجل على ما أصابه؛ لذلك قال اللَّه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧]؛ وهذا ليس إلا للمؤمن.

لهذا يجب على المسْلِم أن لا يَحزن على الماضي، ولا يَفرح بما أتاه؛ وإنَّما يَجعل الأمر جميعاً مفوَّضاً إليه جل وعلا؛ قال سبحانه: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣]، وقال سبحانه: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [الحديد:٢٢]، وقال سبحانه: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن:١١]، وقال عز وجل: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا

وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ [التوبة: ١٦]؛ ما يمكن لا بد من الابتلاء والامتحان، وقال سبحانه: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢]، وقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، وغيرها من الآيات كما في آخر سورة آل عمران(١)؛ فيَعتقد المسْلِم بأنَّه في هذه الدنيا مبتلىً بالنِّعم، ومبتلىً بالمصائب، ومبتلىً بعبادة الصبر، فيجب عليه أنْ يَصبر في جميع أموره، وأن يَحتسبها، وأنْ يَعتقد بأنَّ ما أصيب به هو كفارةٌ له، ورفعةٌ عند ربِّه جل وعلا.

قال: (سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ: الْقَلَمَ) أي: مِن هذه الكائنات التي نراها غير العرش، والدليل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم في الصحيح(٢): «كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ

---

(١) أي: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

(٢) رواه البخاريُّ، كتاب التوحيد، بَابُ ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود: ٧]،

شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ»؛ فهذا دليلٌ على وجود العرش قبْل القلم.

(فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ) فدلَّ على أنَّ غير العاقل في مخاطبة اللَّهِ له كالعاقل؛ لذلك تكلَّم هذا القلم، وقال: (فَقَالَ: رَبِّ! وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ) فدلَّ على مرتبةٍ من مراتب القدَر وهي الكتابة؛ كما قال سبحانه: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩]، وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ [الحج:٧٠].

(قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ») فكلُّ شيءٍ من حركةٍ أو سكونٍ إلى قيام الساعة؛ فهو مكتوبٌ عند اللَّه.

ومِن ثمرة ذلك أن (تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ)؛ كما ذكر عُبادة ذلك لابنه قبل الحديث، (وَمَا أَخْطَأَكَ) أي: لم يُقدَّر عليك، (لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ).

﴿وَهُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩]، رقم (٧٤١٨)، من حديث عمران بن حصينٍ رضي الله عنه.

ثُم قال: (يَا بُنَيَّ! سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا؛ فَلَيْسَ مِنِّي) يعني: مَن مات ليس مؤمناً بالقضاء والقدَر؛ فليس على دين النبي عليه الصلاة والسلام، وأنَّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام قد بَرئ منه؛ فدلَّ على كُفر مَن أَنكر القدَر - والعياذ باللَّه -.

قَالَ رحمه الله: (وَفِي رِوَايَةٍ لِأَحْمَدَ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ: القَلَمَ) يعني: أوَّل ما خَلق القلم، خلَقه قبْل خلْق السموات والأرض لا قبْل خلْق العرش؛ فالعرش سابقٌ لخلْق القلم، فخلَق اللَّه القلم، ثم خلَق السموات؛ فأوَّل ما خلَق اللَّه القلم قبْل السموات.

(ثُمَّ قَالَ: اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ») يعني: في اللَّوح المحفوظ؛ قال: رب وما أكتب؛ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة.

فكلُّ ما يَحدث في الكون فهو مكتوبٌ في اللَّوح المحفوظ ومقدَّرٌ، واللَّه عز وجل عَلِمه، واللَّه عز وجل خلَق ذلك الفعل، فما يجري شيءٌ في هذا الكون إلا بعلمه سبحانه، وإرادته، ومشيئة، وخلْقه، وإيجاده، وتكوينه، وكتابته له؛ إذاً ليس على العبد سوى التسليم، والرضا، والعمل

بما أمرَه اللَّه عز وجل من الإيمان بالقضاء والقدَر، والالتجاء إليه سبحانه عند المصائب.

لهذا لمَّا كان عدم الإيمان بالقضاء والقدَر منافٍ للتوحيد؛ ساق المصنِّف رحمه الله هذا الباب، ولمَّا كان مَن أَنكر القضاء والقدَر متوعَّدٌ ومهدَّدٌ؛ لأنَّه قد أتى بمُنَافٍ من مُنَافِيَات التوحيد؛ ساق المصنِّف رحمه الله هذا الباب في كتاب التوحيد محذِّراً إنكار القضاء والقدَر، وأنَّه يجب على كلِّ عبدٍ أن يؤمن بالقضاء والقدَر.

فعُبادة رضي الله عنه يريد أنْ يبيِّن لابنه بأنَّ كلَّ شيءٍ مكتوبٌ فاطمئنَّ، فلمَّا بيَّن له القاعدة السابقة: (**أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ**)؛ أضاف إليه، وقال له: واعلم أيضاً أنَّ كلَّ شيءٍ مكتوبٌ؛ كما قال عليه الصلاة والسلام: «قَدَّرَ اللَّهُ الْمَقَادِيرَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ»[١]، فدلَّ على أنَّ كلَّ ما كُتب؛ جفَّت به الصُّحف وجرت به المقادير، وهذا الكتاب لا يُغيَّر؛ قال

---

(١) رواه أحمد في المسند، رقم (٦٥٧٩)، من حديث عبد اللَّه ابن عمرو رضي الله عنهما.

سبحانه: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾؛ هذا في غير اللَّوح المحفوظ، ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد:٣٩]، فلا يتبدَّل؛ فدلَّ على أنَّ مِن مراتب القدَر الكتابة.

ثُم قال: (وَفِي رِوَايَةٍ لابْنِ وَهْبٍ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ) أي: ما هو مقدَّرٌ على المخلوقات من شرٍّ وخيرٍ؛ (أَحْرَقَهُ اللَّهُ بِالنَّارِ») - والعياذ باللَّه -؛ لأنَّه أتى بهذه البدعة، وهذا الكُفر؛ لأنَّه من أركان الإيمان.

ثمَّ قال: (وَفِي المُسْنَدِ) أي: مسند الإمام أحمد[١]، (وَالسُّنَنِ) كسنن أبي داود[٢]، وابن ماجه[٣]، (عَنِ ابْنِ الدَّيْلَمِيِّ) رضي الله عنه؛ (قَالَ: «أَتَيْتُ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ رضي الله عنه، فَقُلْتُ: فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنَ القَدَرِ؛ فَحَدِّثْنِي بِشَيْءٍ، لَعَلَّ اللَّهَ يُذْهِبُهُ مِنْ قَلْبِي) فدلَّ على أنَّ السَّلف رحمهم اللَّه إذا أَشكل عليهم أمرٌ؛ سألوا عنه أهْل العِلم.

---

(١) رقم (٢١٦١١).

(٢) كتاب السُّنَّة، باب القدَر، رقم (٤٦٩٩).

(٣) باب في القدَر، رقم (٧٧).

ويدلُّ على أنَّ بدعة القدَريَّة ظَهرت في زمن الصَّحابة رضي الله عنهم، وهم الذين يُنكرون أنَّ اللَّه عَلِم الأشياء قبل حدوثها وكَتب ذلك، ويقولون: إن الأمر أُنُفٌ.

(فَقَالَ: لَوْ أَنفَقْتَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً) فدلَّ على أنَّ مِن أثمن السِّلع هي: الذَّهب؛ (مَا قَبِلَهُ اللَّهُ مِنْكَ) وذلك لكُفره، فدلَّ على أنَّ إنكار القدَر كُفرٌ، (حَتَّى تُؤْمِنَ بِالقَدَرِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ) ممَّا هو مكتوبٌ بالقدَر؛ (لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ) لتمام قدْرة اللَّه سبحانه وتعالى، (وَمَا أَخْطَأَكَ) من شرٍّ أو خيرٍ؛ (لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ) كما قال سبحانه: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد:٨].

قال: (وَلَوْ مِتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا؛ لَكُنْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ. قَالَ: فَأَتَيْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ، وَحُذَيْفَةَ بْنَ اليَمَانِ، وَزَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ رضي الله عنهم؛ فَكُلُّهُمْ حَدَّثَنِي بِمِثْلِ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم») فدلَّ على إجماع الصَّحابة على كُفر مَن أَنكر القدَر - والعياذ باللَّه -.

قال: (حَدِيثٌ صَحِيحٌ، رَوَاهُ الحَاكِمُ فِي «صَحِيحِهِ»).

***

[٦١]

بَابُ

مَا جَاءَ فِي المُصَوِّرِينَ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي؛ فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً» أَخْرَجَاهُ.

وَلَهُمَا: عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَاباً يَوْمَ القِيَامَةِ: الَّذِينَ يُضَاهِئُونَ بِخَلْقِ اللَّهِ».

وَلَهُمَا: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ، يُجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَهَا نَفْسٌ يُعَذَّبُ بِهَا فِي جَهَنَّمَ».

وَلَهُمَا: عَنْهُ رضي الله عنه مَرْفُوعاً: «مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فِي الدُّنْيَا؛ كُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ، وَلَيْسَ بِنَافِخٍ».

وَلِمُسْلِمٍ: عَنْ أَبِي الهَيَّاجِ قَالَ: «قَالَ لِي عَلِيٌّ رضي الله عنه: أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: أَلَّا تَدَعَ صُورَةً إِلَّا طَمَسْتَهَا، وَلَا قَبْراً مُشْرِفاً إِلَّا سَوَّيْتَهُ».

الشَّرْحُ:

قَالَ رحمه الله: **(بَابُ مَا جَاءَ فِي المُصَوِّرِينَ)** أي: ما جاء في الوعيد الشديد والتهديد الأكيد على مَن استخدم التصوير أو فعَل التصوير، والنهي عنه.

والتصوير ينقسم إلى عدَّة أقسامٍ:

القِسم الأوَّل: تصوير ما هو مأذونٌ في بيعه، كالأواني ونحو ذلك؛ فهذا جائزٌ بالاتفاق(١).

القِسم الثاني: تصوير الأشجار والأحجار والشمس والقمر ونحو ذلك ممَّا لا روح فيه؛ وهذا الجمهور على جوازه.

القِسم الثالث: تصوير ذوات الأرواح، سواء من البشر، أو من الحيوانات، أو من الطيور، أو الحشرات، والدواب ونحو ذلك، وهذا القِسم قال عنه الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله في شرح كتاب التوحيد: «وهذا محرَّمٌ بالاتِّفاق»(٢)؛ فالعلماء إلى عصره جميعاً يرون التحريم.

---

(١) شرح النووي على مسلم (١٤/ ٩١).

(٢) الكتاب يطبع قريباً.

وتصوير ذوات الأرواح يَنقسم إلى أقسامٍ:

القِسم الأوَّل: ما هو من النحت؛ يعني: نحْت الأصنام بأنْ يُجعل وجه فلانٍ يُنحت على هذا الحجَر.

القِسم الثاني: ما يكون بالرسم اليدويِّ.

القِسم الثالث: ما يسمى بالتصوير الفوتوغرافي؛ يعني: الثابت.

القِسم الرابع: ما يكون بالتصوير المتحرِّك المسمَّى بالفيديو.

القِسم الخامس: تصوير المتحرِّك الذي يزول.

القِسم السَّادس: تصوير ما لا روح فيه.

القِسم السَّابع: التَّصوير بالخيوط.

وهذه الأنواع تَختلف في الحُكم، وبعضها تتَّفق في الحُكم، وحتى يُعلم حُكم ما تقدَّم نَنظر إلى الحكمة في تحريم التَّصوير بالأنواع السَّابقة سوى النَّوع السَّادس.

الحِكمة الأُولى - من تحريم التصوير -: أَنَّه وسيلةٌ إلى الشرك؛ وقد وَقع أنَّ أوَّل شركٍ في الأرض بسبب التصوير؛ كما صوَّر قوم نوحٍ صوَّر أنبيائهم وصالحيهم.

والحِكمة الثانية: مضاهاة – أي: مشابهة – خلْق اللَّه؛ أي: المجاراة فيما يَخلقه اللَّه فيما نهى عنه؛ لانفراد اللَّه عز وجل بالخلْق.

والحكمة الثالثة: أنَّه وسيلةٌ في بعض الأحيان إلى استخدامه في أمرٍ محرَّم؛ كتصوير نساءٍ عارياتٍ ونحو ذلك.

والحكمة الرَّابعة: أنَّه قد يكون وسيلةً – أيضاً – إلى نوعٍ من الإكراه في أمرٍ معيَّنٍ.

والحكمة الخامسة: أنَّ ترْكهُ طاعةٌ للَّه؛ فهو نوعٌ من أنواع المناهي يجب أن يُجْتَنَب.

وبناءً على هذه الحِكَمِ وغيرها فأحكام التَّصوير السَّالفة السَّبعة ما يلي:

القِسم الأوَّل: إذا كان التَّصوير بالنَّحت لِمَا فيه روحٌ؛ كنحت صورة الإنسان في صخرٍ أو شجرٍ أو خشبٍ ونحو ذلك؛ هذا لا يجوز؛ لأنَّه وسيلةٌ إلى الشرك، وبهذا النوع عُبدت اللَّات، والعُزى، وعُبد وَدٌّ، وسُواعٌ، ويَغُوث، ويَعُوق، ونَسْرٌ.

والقِسم الثَّاني: وهو رسْم ما فيه روحٌ من الحيوانات والإنسان ونحو ذلك بالقلم؛ وهذا محرَّمٌ؛ لأنَّ فيه مضاهاةً لخلْق اللَّه - أي: مشابهةً لخلْق اللَّه -.

والقِسم الثَّالث - التَّصوير الثَّابت -: وهذا منه ما قد يكون وسيلةً إلى الشرك ولو بعد أزمانٍ متطاولة؛ لأنَّ قوم نوحٍ استدرجهم الشيطان؛ فعُبدت تلك الصُّور بعد ألْف عامٍ؛ كما قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: «عشرة قرونٍ»[1].

فلو مثلاً وُجدت صورة أبي بكرٍ رضي الله عنه ثابتةً؛ فهي وسيلةٌ لوقوع بعض الناس في الشرك لا شك، وهذا محرَّمٌ؛ لأنَّه وسيلةٌ إلى الشِّرك.

ومنه: - يعني: من هذا النَّوع من التَّصوير - ما يكون فيه تصوير أمرٍ محرَّم، كامرأةٍ عاريةٍ ونحو ذلك.

أمَّا إذا كان التَّصوير للحاجة، كالإثبات ونحو ذلك؛ فلا بأس به.

---

(١) تفسير الطبري (٣/ ٦٢١).

والقِسم الرابع - وهو التَّصوير المتحرِّك -، وهو أشدُّ فتنةً من الثَّابت؛ بل هو أشدُّ فتنةً من الأنواع السَّابقة.

فمثلاً: لو كانت صورة أحد الصَّحابة ثابتةً، وأخرى متحركةً يقوم ويتكلَّم ويَجلس؛ لا شكَّ أنَّ النَّفس تتشوَّف إلى رؤية ما هو متحرِّكٌ، مثل: لو أنَّ رجُلاً أراد خطبة امرأةٍ وعَرضوا عليه صورةً ثابتةً وأُخرى متحرِّكةً؛ فسينظر للمتحرِّكة.

وحُكم هذا إذا كان فيه صورٌ للصالحين ونحو ذلك؛ وسيلةٌ للشِّرك.

ومنه: ما يكون محرَّماً؛ كتصوير نساءٍ عاريات مثلاً ونحو ذلك.

أمَّا إذا كان فيه تصوير الأشجار والأحجار والمساجد فقط ممَّا لا روح فيه؛ فلا بأس به؛ كما وَرد ذلك عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما[١] أنَّه يجوِّز تصوير الجبال وما لا روح فيه.

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب البيوع، باب بيع التصاوير التي ليس فيها روحٌ، وما يُكره من ذلك، رقم (٢٢٢٥)، ومسلمٌ، كتاب اللِّباس والزينة، باب لا تَدخل الملائكة بيتاً فيه كلبٌ ولا صورةٌ، رقم (٢١١٠).

والقِسم الخامس - تصوير المتحرِّك الذي يزول -، مثل: ما يُسجَّل على الشَّخص، ثم يُمحى في أصله؛ كما يوضع على بعض البيوت يُنظر فيه من بُعدٍ ونحو ذلك.

فإذا كان يزول؛ هذا لا بأس به؛ لأنَّ الحكمة في أنَّه وسيلةٌ للشرك زالت.

والقِسم السَّادس - تصوير ما لا روح فيه -؛ وهذا جائزٌ.

والقِسم السَّابع - التَّصوير بالخيوط -، مثل: رسم طائرٍ على فِرَاشٍ ونحو ذلك، وحكمه: إذا كان مُهَاناً فيجوز، مثل: إذا وُضِعت صورة طائرٍ على السُّجاد أو وسادةٍ ونحو ذلك؛ فيجوز.

أمَّا وضْعها على ستارةٍ أو في ثوبٍ من الملابس ونحو ذلك؛ فلا يجوز؛ لحديث عائشة رضي الله عنها لمَّا اتَّخذت سِتراً فيه قِرَام - يعني: رسم -، فقال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: «مَا هَذِهِ النُّمْرُقَةُ؟» قالت عائشة: قُلْتُ: لِتَجْلِسَ عَلَيْهَا وَتَوَسَّدَهَا. قَالَ: «إِنَّ أَصْحَابَ هَذِهِ الصُّوَرِ يُعَذَّبُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، يُقَالُ لَهُمْ: أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ، وَإِنَّ المَلَائِكَةَ لَا تَدْخُلُ بَيْتاً فِيهِ

الصُّورَةُ»(١)، وفي الحديث الآخر: «وَمُرْ بِالسِّتْرِ فَلْيُقْطَعْ، فَلْيُجْعَلْ مِنْهُ وِسَادَتَيْنِ مَنْبُوذَتَيْنِ»(٢).

وإذا رأى المسْلِم العلة في التصوير؛ زال عنه اللَّبس - يعني: العلة في تحريم التصوير يزول عنه اللَّبس -، فالعلَّة في التحريم هي سدُّ باب الشرك؛ لكون التصوير وسيلةً عظيمةً لوقوع الشرك؛ بل هو السبب في وقوع الشرك في الأرض، فإنَّ الشرك أوَّل ما وَقع على قوم نوحٍ بسبب التصوير؛ قال عز وجل: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً﴾ [نوح:٢٣].

قال ابن عباسٍ رضي اللَّه عنهما: هذه أسماء رجالٍ صالحين، فلمَّا ماتوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصِبوا إلى مجالسهم التي كانوا يَجلسون فيها أنصاباً، وصوِّروا فيها صورهم فقط؛ قال لهم الشيطان:

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب اللَّباس، باب من كره القعود على الصورة، رقم (٥٩٥٧)، ومسلمٌ، كتاب اللَّباس والزينة، باب لا تَدخل الملائكة بيتاً فيه كلبٌ ولا صورةٌ، رقم (٢١٠٧).

(٢) رواه أبو داود، كتاب اللَّباس، باب في الصور، رقم (٤١٥٨)، من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه.

انحَتوا على هذا الصخر صُوَرَهم؛ لكي تَنشطوا في العبادة إذا نظرتم إليهم، فقط وليس مِن أجْل عبادتهم، وإنَّما إذا نَظر الشخص إلى صور أولئك الصالحين؛ يَنشط في العبادة، فأوحى الشيطان إليهم ذلك قرناً بعد قرنٍ، وبعد عشرة قرون؛ أي: بعد ألْف سنةٍ أتى الشيطان في صورة رجُلٍ؛ وقال: إن أولئك ما صوَّروا تلك الصور إلَّا ليَعبدوها، فاعبدوها؛ فعَبدوها من دون اللَّه.

فانظر إلى خطوات الشيطان؛ بعد ألْف سنةٍ وَقع الشرك، فلمَّا وَقع الشرك بسبب التصوير؛ أَرسل اللَّه عز وجل الرسل في هذه الأمَّة، رسلاً مبشِّرين ومنذِرين بسبب التصوير.

فإذا قيل: إنَّ فتنة الشرك الآن بعيدةٌ؟

نقول: ليست بعيدةً؛ بل قريبة؛ لضعف العِلم، ولبُعد نزول الوحي، ولكثرة الجهل في الناس.

فإذا قيل: نحن نصوِّر أشخاصاً لا نَعتقد في عبادتهم، أو لا يُظنَّ أنها تُعبد؟

نقول: العلَّة واحدةٌ سواء اعتَقدنا عبادتهم، أو لم نَعتقد عبادتهم.

فإذا قيل: قد نصور أشخاصاً ليس لهم مكانةٌ، ولا يتكلمون - كالأطفال ونحو ذلك - فكيف يعبدونهم؟

نقول: نعم؛ خَرج أناسٌ عَبدوا الجمادات، فعَبدوا الشمس، وعَبدوا القمر، وعَبدوا الأشجار والأحجار، فكيف بمَن كان وسيلةً إلى وقوع الشرك في هذه الأرض وهي تصوير ذوات الأرواح؟!

فإذا قيل: نعم التصوير محرَّمٌ؛ لكنَّه خاصٌّ بما فَعله قوم نوحٍ من النحت؟

نقول: لا؛ الفتنة في إظهار حقيقة المُصوَّر بالحركة، أو بإخراجه كما هو؛ الفتنة فيه أشدُّ وأعظم وأشدُّ ضرراً.

فإذا قيل: كيف يكون أشدَّ ضرراً من ذلك؟

نقول: نعم؛ لو أنَّ شخصاً أراد أن يتزوَّج امرأةً، فأُتي له بحجرٍ، ونُحت على هذا الحجر، وقيل له: هذه قريبةٌ من صورة خطيبتك، ثُم أُخرج له صورةٌ حقيقةٌ لها فوتوغرافية، فأيهما يتطلع إليها، الفوتوغرافية أم المنحوتة بالحجر؟ لا شك أنَّ الفوتوغرافية أشدُّ افتتاناً بها؛ فكان التحريم بها أشد.

فإذا قيل: نعم سلَّمنا بذلك، فلِماذا لا يكون التحريم خاصّاً بالثابت، ولا يكون بالمتحرِّك بالفيديو؟

نقول: الفتنة بالفيديو أشدُّ من الفتنة بالصورة الثابتة، وخذ المثال السابق: لو أنَّك أردتَ أن تتزوَّج، وأختك أتت لك بصورةٍ متحرِّكةٍ لخطيبتك - وهي تتحرك: تقوم، تَجلس، تَضحك -، أو صورةٍ ثابتةٍ؛ أيُّهما يكون طلبك، للرؤيا المتحرِّكة أم الثابتة؟ لا شك المتحرِّكة أشدُّ.

والرسم اليدويُّ للإنسان يكون أشدُّ في الحرمة؛ لأنَّه أعظم في المضاهاة، لاسِيَّما وأنَّه أحياناً يَصحبه سخريةٌ بخلْق الإنسان، فمثلاً يكبِّر رأسه في الرسم اليدوي قصداً، أو تطوَّل يده أو قدمه أو بطنه، يَجعله على غير حقيقته، فيصاحب ذلك مع المضاهاة في الرسم اليدوي ما فيه سخريةٌ مِن خلْق الإنسان.

فإذا قيل: إنَّ مَن جوَّز التصوير الفوتوغرافي قال: هو حبْس ظلٍّ مثل المرآة، ومثل إظهار صورة الإنسان في الماء إذا ظَهر عليه نورٌ كضوء القمر ونحو ذلك؟

نقول: لا، هذا قياس مع الفارق.

فإذا قيل: كيف يكون قياساً مع الفارق؟

نقول: المرآة لو أنَّ شخصاً وَقف أمامها، ثُم ذَهب بعد خمْس دقائق، تأتي وتَنظر للمرآة؛ فما تجد صورة ذلك الرجُل، فما فيها افتتان فيه.

أمَّا الصورة الثابتة فتراها الآن، ثُم بعد خمْس دقائق تراها، وكذا بعد عشر دقائق؛ بل قد تراها بعد سنواتٍ.

فهنا الفرق؛ هذه تَثبت - الصورة الفوتوغرافية أو الفيديو -، أمَّا المرآة فما تَثبت، يَتجدَّد فيها المَرئي، ويَتجدَّد فيها مَن يَنظر فيها؛ ليس فيها افتتان - في المرآة -؛ فالقياس فيها قياسٌ مع الفارق.

فإذا قيل: نَجعل التصوير فقط فيما وَقع في قوم نوحٍ؟

نقول: نعم؛ لو سلمنا بذلك، لكن عند مَن يَمنع من ذلك أمران اثنان:

الأمر الأوَّل: العلة فيه موجودةٌ؛ وهي الشرك، فسبب الشرك التصوير.

وإذا قيل: الناس عقولهم كبيرةٌ الآن، ويَتعلَّمون؟

نقول: وما يدريك؛ فالشرك وَقع بعد ألْف سنةٍ.

العلة الثانية - التي تمنع من أنَّ التصوير المحرَّم هو على الصخور من النحت ونحو ذلك -: ألفاظ العموم التي ذَكرها النبيُّ عليه الصلاة

والسلام في تحريمه كما سيأتي، مِثل: قوله عليه الصلاة والسلام: (**كلُّ مُصَوّرٍ فِي النَّار**)، فهنا لفظ العموم؛ بأيِّ نوعٍ مِن أنواع التصوير؛ فوتوغرافي، أو متحركٍ، ثابتٍ، واضحٍ.

ومثل: قول النبيِّ صلى الله عليه وسلم: (**مَنْ صَوَّرَ صُورَةً كُلِّفَ**)، فالذي يصور صورة يُكلَّف، وهذه من ألفاظ العموم.

وقوله عليه الصلاة والسلام: (**أَشَدُّ النَّاسِ عَذَاباً يَوْمَ القِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهُونَ بِخَلْقِ اللَّهِ**)؛ هذا عمومٌ.

فكلُّ نوعٍ من أنواع التصوير يَدخل في مِثل هذه الأحاديث؛ لهذا يجب على المسْلِم أن لا يستخفَّ بتلك المعصية العظيمة الشديدة التي هي سبب الشرك في الأرض حتى ولو كثُر مَن يَفعل ذلك.

وأمَّا من صُوِّرَ بلا رضىً منه؛ فإثمه على مَن صوَّره، وعلى الشخص أن لا يَرضى بالتصوير إن كان اختياريّاً، ويباح مِن ذلك ما هو للضرورة في إثبات الهوية مثلاً ونحو ذلك، أمَّا شخصٌ يضعها في هاتفه مثلاً، أو في جيبه صوراً لا يحتاج لها، ليس لها ضرورة، أو في بيته تعليق ونحو ذلك أو غير تعليق، أو صور زفافه ونحو ذلك؛ فكما قال عليه الصلاة والسلام

(كلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّار) - والعياذ باللَّه -، وفي صحيح البخاريِّ[١]: «أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم لَعَنَ المُصَوِّرَ».

ومِن ألفاظ العموم عند الأصوليين: الألف واللَّام؛ «لَعَنَ اللَّهُ المُصَوِّرَ»؛ فكلُّ مصوِّرٍ - والعياذ باللَّه - يَدخل في هذا الوعيد الشديد.

والمصنِّف رحمه الله ذَكر خمسة أحاديث؛ الأربعة الأُولى في التهديد والوعيد والتحذير من التصوير، والحديث الخامس في كيفية التخلُّص فيمن وَقع في تلك المعصية.

النَّصُّ الأوَّل - (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي) -؛ لبيان أنَّ المصوِّر لا أشدَّ ظلماً منه في حق اللَّه.

والنَّصُّ الثَّاني - (أَشَدُّ النَّاسِ عَذَاباً يَوْمَ القِيَامَةِ: الَّذِينَ يُضَاهِئُونَ بِخَلْقِ اللَّهِ) -؛ لبيان أنَّ المصوِّرين أشدُّ النَّاس عذاباً يوم القيامة.

والنَّصُّ الثَّالث - (يُجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَهَا نَفْسٌ يُعَذَّبُ بِهَا فِي جَهَنَّمَ) -؛ لبيان نوعٍ من أنواع عذابهم يوم القيامة.

---

(١) كتاب اللِّباس، باب مَن لعَن المصور، رقم (٥٩٦٢)، من حديث عون بن أبي جحيفة عن أبيه رضي الله عنه.

والنَّصّ الرَّابع - (**مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فِي الدُّنْيَا؛ كُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ، وَلَيْسَ بِنَافِخٍ**) -؛ لبيان نوع آخر من عذاب المصوِّرين، وهو أن يكلَّف بنفخ الرُّوح فيها، وليس بنافخ.

والنَّصُّ الخامس - (**أَلَّا تَدَعَ صُورَةً إِلَّا طَمَسْتَهَا**) -؛ لبيان ماذا يُفعل بالصورة.

ولأهمية هذا الباب؛ ذكَر المصنِّف رحمه الله النُّصُوص الأربعة من الصَّحيحين، والنَّصُّ الخامس في صحيح مسلمٍ؛ لئلا يُطعن في شيءٍ من سند ذلك.

والمصنِّف رحمه الله قال في **النَّصِّ الأوَّل**: **(عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى)** هذا في إثبات القول للَّه تعالى، نقول: إن اللَّه يتكلم، وهذا الحديث قدسي.

(وَمَنْ أَظْلَمُ) أي: لا أحد أظلم؛ فهو أشد الناس ظلماً؛ **هذا الوعيد الأوَّل.**

(مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي) والمراد التصوير، والإنسان لا يستطيع أنْ يَخلق مثل خلْق اللَّه؛ وإنَّما المراد به: التصوير، والرسم، والنحت ممَّا فيه روح.

﴿فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً﴾ وهي النَّملة الصَّغيرة، ﴿أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً﴾ وهي الحبوب ممَّا يَطلع منها الزرع، وهي الشيء الصغير، ﴿أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً﴾ وهو الشعير المعروف؛ يعني: أنَّ هؤلاء ظالمون، وإذا كانوا يستطيعون أنْ يَخلقوا كما خَلقتُ؛ فليخلقوا ولو هذه الأشياء الصَّغيرة.

فهذا وعيدٌ لهم؛ يعني: لا تَصنعوا من التصاوير، وأنا أتحداكم أنْ تَفعلوا مِثل ما خلقتُ، وإذا كنتَ مستعداً للنِّزال ومضاهاة خلق اللَّه؛ فَاخلُق إن شئتَ ذرةً أو حبةً أو شعيرةً؛ لا تستطيع، فالشاهد: (**وَمَنْ أَظْلَمُ** - أي لا أحد أظلم - **مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي**) فالمصوِّر - والعياذ باللَّه - نعَته اللَّه عز وجل أنَّه ظالمٌ لنفْسه.

ومَن استخدم التصوير - يعني: المصَوِّر -، والمصَوَّر الراضي؛ في الحُكم سواءٌ.

(أَخْرَجَاهُ) الحديث في البخاريِّ ومسْلِمٍ[١]، والنووي يقول عن التصوير: «وإنه - أي: التصوير - غليظ التحريم»، وهو من الكبائر.

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب اللَّباس، باب نقض الصور، رقم (٥٩٥٣)، ومسْلِمٌ، كتاب اللَّباس والزينة، باب لا تَدخل الملائكة بيتاً فيه كلبٌ ولا صورةٌ، رقم (٢١١١).

ثُمَّ بعد ذلك قال: (وَلَهُمَا: عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَاباً يَوْمَ القِيَامَةِ) - والعياذ باللَّه -: (الَّذِينَ يُضَاهِئُونَ): الذين يشابهون، (بِخَلْقِ اللَّهِ).

فإذا قيل: إنَّ الصُّورة الثَّابتة ليست فيها مضاهاةٌ لخلْق اللَّه؟!

نقول: الصُّورة الثَّابتة يجري عليها بعض الحِكَم في تحريمها مثل: قد تكون وسيلةً للشِّرك، أو قد يكون فيها ظهور أمرٍ فِسقيٍّ، أو يكون فيها إكراهٌ لشخصٍ على أمرٍ معيَّنٍ ونحو ذلك؛ فالمضاهاة لخلق اللَّه تكون بالنَّحت أو بالرَّسم.

فهذا الوعيد الثاني: بأنَّهم أشدُّ الناس عذاباً يوم القيامة - والعياذ باللَّه -، مثل قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لَعَنَ اللَّهُ السَّارِقَ»(١)؛ لعموم كلِّ سارقٍ، وهنا كلُّ مصوِّرٍ؛ فأشد الناس عذاباً يوم القيامة المصوِّرون الذين يضاهئون بخلْق اللَّه.

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الحدود، باب لعن السارق إذا لم يسم، رقم (٦٧٨٣)، ومسلمٌ، كتاب الحدود، باب حد السرقة ونصابها، رقم (١٦٨٧)، من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه.

ثمَّ بعد ذلك قال: (وَلَهُمَا: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ) هذا يدلُّ على أنَّ جميع أنواع التَّصوير محرَّمةٌ، لأنَّ كلمة «كُل» باتِّفاق العلماء أنَّها للعموم(١).

ثُمَّ ذكر النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم وعيد ذلك؛ فقال: (يُجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَهَا نَفْسٌ يُعَذَّبُ بِهَا فِي جَهَنَّمَ») - والعياذ باللَّه -.

فهذا الوعيد الثالث لهم وهو: أنَّ كلَّ مصوِّرٍ فهو في النار، ومع ذلك **الوعيد الرابع: (يُجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَهَا نَفْسٌ يُعَذَّبُ بِهَا فِي جَهَنَّمَ»)**، ويقال له: أحيوا ما خلقتم.

ومعنى الحديث: يُجعل له بكلِّ صورةٍ صوَّرها نفسٌ يُعذَّب بها، فمثلاً: مَن صوَّر جملاً يُعذبه هذا الجمل في جهنم، ومَن صوَّر - مثلاً - خيلاً يُعذِّبه الخيل في جهنم، فكلُّ مَن صوَّر يُعذَّب؛ فيُجعل له بكلِّ صورةٍ صوَّرها يوم القيامة نفْسٌ يُعذَّب بها في جهنم - والعياذ باللَّه -.

---

(١) أصول السرخسي (١/ ١٥٧)، شرح تنقيح الفصول للقرافي (ص١٧٩).

وأمَّا من صُوِّر بغير عِلمه أو بنوع إكراهٍ أو نحو ذلك؛ فالإثم على المصوِّر، وإنْ رضي بالتَّصوير؛ فالإثم عليهما.

الوعيد الخامس: حديث - أيضاً - ابن عباسٍ رضي اللَّه عنهما، قَالَ رحمه الله: (وَلَهُمَا: عَنْهُ رضي الله عنه) يعني: عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، (مَرْفُوعاً: «مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فِي الدُّنْيَا) وهذا يُفيد العموم؛ يعني: مَن صور أيَّ صورة في الدنيا سواء كانت نحتاً، أو رسماً باليد، أو متحركةً، أو ثابتةً ممَّا فيه الروح؛ (كُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ، وَلَيْسَ بِنَافِخٍ»)؛ أي: يُؤمر يوم القيامة بأنْ يَنفخ فيها؛ ليتحرك هذا المُصَوَّر؛ وهذا من باب التعجيز له.

يعني: لو صوَّر شخص - مثلاً - صورة خيلٍ؛ يأتي يوم القيامة يقال له: انفخ فيها الروح، يقول: ما أستطيع، فيقال له: انفخ فيها الروح، وهو يُعذَّب، مثل: لو أنَّ سجيناً يؤتى به عند جبلٍ وفوقه الجنود، ويقال له: احمل هذا الجبل فوق رأسك، فيقول: ما أستطيع أحمل هذا الجبل، فيضربونه وهو لا يستطيع.

فيكون العذاب عليه نوعان: نوع جسديٌّ، ونوع نفسيٌّ؛ فهنا يكلَّف يوم القيامة أنْ يَنفخ فيه الروح وليس بنافخٍ، وإنَّما من باب التَّنْكِيل والعذاب عليه - والعياذ باللَّه -.

فهذا وعيدٌ شديدٌ وعذابٌ كبيرٌ، نوع العذاب: أنَّ مَن هو أقوى منك يكلِّفك بفعلٍ أنت لا تطيقه.

ويدلُّ أيضاً هذا الحديث على طول عذاب المصوِّر؛ لأنه قال: (**وَلَيْسَ بِنَافِخٍ**) يعني: يطول فترة استجابته مع العدم، مما يزيد عذابه في النار - والعياذ باللَّه -.

فهذه خمسة ألفاظٍ في وعيد التصوير، **الوعيد السادس** في صحيح البخاريِّ[١] «لَعَنَ اللَّهُ الْمُصَوِّرَ»، ومن العقوبة المعجَّلة على المصوِّر أنَّ الْمَلاَئِكَةَ لاَ تَدْخُلُ بَيْتاً فِيهِ كَلْبٌ وَلَا صُورَةٌ[٢]؛ فيُحرَم ذلك البيت الذي فيه صُور من دخول الملائكة فيه.

---

(١) سبق تخريجه (ص) عند قوله (أو صور زفافه ونحو ذلك؛ فكما قال عليه الصلاة والسلام).

(٢) رواه البخاريُّ، كتاب اللِّباس، باب التصاوير، رقم (٥٩٤٩)، ومسْلِمٌ، كتاب اللِّباس والزينة، باب لا تَدخل الملائكة بيتاً فيه كلبٌ ولا صورةٌ، رقم (٢١٠٦)،

ومَن فعَل التصوير فعليه التوبة إلى اللَّه.

وذَكر المصنِّف الحديث الأخير فقال: (وَلِمُسْلِمٍ: عَنْ أَبِي الهَيَّاجِ قَالَ: «قَالَ لِي عَلِيٌّ رضي الله عنه: أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: أَلَّا تَدَعَ صُورَةً إِلَّا طَمَسْتَهَا) هذا فيه كيفية إزالة ذلك لكونه محرَّماً، وأمَّا وضع الخط على الرقبة يُظنَّ أنه طمسٌ؛ فليس هذا بطمسٍ، وإنما الطمس: إزالة معالم الوجه من العينين والأنف ونحو ذلك.

(أَلَّا تَدَعَ صُورَةً إِلَّا طَمَسْتَهَا) أيُّ صورةٍ تُطمس، والنبي صلى الله عليه وسلم أمَرَ عائشة بِطَمسِ الصُّوَرِ الَّتِي كَانَتْ فِي السِّتَارَةِ[1]، وهذا يدلُّ على أنَّ تحريم التصوير ليس خاصّاً بنحت الأوثان؛ فالنبي صلى الله عليه وسلم أمَر بنَقض التصاوير التي على الستارة، فلمَّا دَخل النبيُّ صلى الله عليه وسلم البيت وَجد عائشة علَّقت ستارةً فيها تصاوير؛ فنهاها النبيُّ

من حديث أبي طلحة رضي اللَّه عنه.

(١) رواه البخاريُّ، كتاب اللَّباس، باب ما وُطئ من التصاوير، رقم (٥٩٥٤)، ومسْلِمٌ، كتاب اللَّباس والزينة، باب لا تَدخل الملائكة بيتاً فيه كلبٌ ولا صورةٌ، رقم (٢١٠٧).

صلى الله عليه وسلم عن تلك التصاوير وأمَر بإزالتها، فدلَّ على أنَّ التصوير حتى لو كان على القماش صورة عصفورٍ، أو طائرٍ، صورة خيلٍ، صورة حيوانٍ ونحو ذلك، حتى لو كان على القماش فيدخل في التحريم.

والعلماء المتقدمون ومنهم المعاصرون يرون تحريم التصوير، فكما ذَكرنا أنَّ الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله ساق الإجماع إلى عصره على تحريم التصوير، وممَّن يرى تحريم التصوير في عَصره من أهل العِلم الشيخ عبد اللَّه بن حميدٍ رحمه الله[1]، والشيخ الشنقيطي[2] رحمه الله في أضواء البيان[3]، والشيخ عبد الرزاق عفيفي رحمه الله[4]، والشيخ عبد

---

(١) شرح كتاب التوحيد (ص٧٢٠). وابن حميد: عبد اللَّه بن محمد بن حميد، وُلد بمدينة الرياض سنة (١٣٢٩هـ)، وتوفي سنة (١٤٠٤هـ). الدرر السنية للشيخ عبد الرحمن بن قاسم (١٦/ ٤٧٦).

(٢) هو: محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، وُلد في موريتانيا سنة (١٣٢٥هـ)، وتوفي بمكة سنة (١٣٩٣هـ). الأعلام للزركلي (٦/ ٤٥).

(٣) (٤/ ٢٩٨).

(٤) فتاوى اللَّجنة الدائمة ١ (١/ ٦٦٣). وهو: عبد الرزاق بن عفيفي بن عطية

اللَّه بن غديان[١] رحمه الله، والشيخ صالح بن غصون[٢] رحمه الله، وكثيرٌ مِن أهل العِلم يرون التحريم، وأنَّ التصوير الفوتوغرافي يَدخل في عموم الأحاديث المذكورة.

فتبيَّن ممَّا سَبق أنَّ التصوير بجميع أنواعه يَدخل في هذا الوعيد.

(وَلَا قَبْراً مُشْرِفاً) أي: مُرتفعاً عن شِبرٍ، **(إِلَّا سَوَّيْتَهُ)** بحيث يصل إلى الشِّبر فقط؛ لأنَّ رفْع القبور وسيلةٌ إلى تعظيمها، ثم بعد ذلك قد تُعبد من دون اللَّه؛ للغلوّ فيها.

***

بن عبد البر ابن شرف الدين النوبي، وُلد سنة (١٣٢٣هـ)، وتوفي سنة (١٤١٥هـ). إتحاف النبلاء بسير العلماء للزهراني (٢/ ١١)

(١) فتاوى اللَّجنة الدائمة ١ (١/ ٦٦٣).

(٢) هو: صالح بن علي بن فهد بن غصون التميمي، وُلد سنة (١٣٤١هـ)، وتوفي سنة (١٤١٩هـ). الدرر السنية للشيخ عبد الرحمن بن قاسم (١٦/ ٤٨٥)، الدرر المصون في سيرة الشيخ صالح بن غصون (ص٢٩).

[٦٢]

بَابُ

مَا جَاءَ فِي كَثْرَةِ الحَلِفْ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «الحَلِفُ مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ، مَمْحَقَةٌ لِلْكَسْبِ» أَخْرَجَاهُ.

وَعَنْ سَلْمَانَ رضي الله عنه مَرْفُوعاً: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: أُشَيْمِطٌ زَانٍ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ، وَرَجُلٌ جَعَلَ اللَّهَ بِضَاعَتَهُ؛ لَا يَشْتَرِي إِلَّا بِيَمِينِهِ، وَلَا يَبِيعُ إِلَّا بِيَمِينِهِ» رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

وَفِي الصَّحِيحِ: عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ - قَالَ عِمْرَانُ: فَلَا أَدْرِي أَذَكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثاً؟ -، ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْماً يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ، وَيَنْذُرُونَ وَلَا يُوفُونَ، وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ».

وَفِيهِ: عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم

قَالَ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ».

قَالَ إِبْرَاهِيمُ: «كَانُوا يَضْرِبُونَنَا عَلَى الشَّهَادَةِ وَالعَهْدِ، وَنَحْنُ صِغَارٌ».

الشَّرْحُ:

قال المصنِّف رحمه الله: (بَابُ مَا جَاءَ فِي كَثْرَةِ الحَلِفْ) والمراد بذلك: الحلِف باللَّه على أمرٍ أنت صادقٌ فيه؛ يعني: كأنْ تقول: واللَّه اليوم ذهبتُ للحرم، وتقول: واللَّه أمس ذهبتُ للجامعة، وتقول: واللَّه جلستُ عند خالد ونحو ذلك؛ هذه على أمرٍ ماضٍ، وأنت صادقٌ فيها، فاليمين على الأمر الماضي وأنت صادقٌ فيه؛ ليس فيها كفارةٌ؛ لأنَّك صادقٌ فيها، لكن لكثرة الحلِف به جل وعلا في أمور الدنيا؛ هذا يدلُّ على استخفافك بجناب اللَّه عز وجل لكثرة الحلِف في أمورٍ لا حاجة فيها.

لذلك قال اللَّه تعالى: (﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾) يعني: لا تَحلف إلا في أمرٍ عظيمٍ، وأمور الدنيا أقلُّ مِن أن يُحلف فيها، والشخص يَحفظ

يمينه إلَّا إن احتاج إليها عند القضاء، وإذا تورَّع فيها عند القضاء فهو أَولى له، كما تورَّع بعض الصحابة[1] عن الحلِف عند القاضي.

فقوله: (**بَابُ مَا جَاءَ فِي كَثْرَةِ الحَلِفْ**) وإن كنتَ صادقاً؛ بمعنى: احفظ لسانك عن الحلِف به سبحانه حتى ولو كان بصدقٍ؛ لأنَّ هذا ينافي كمال التوحيد الواجب، لأنَّ مِن تعظيم اللَّه أنْ يُصَان ربُّ العالمين عن كثرة الحلِف به جل وعلا في أمور الدنيا.

والشخص يُصدَّق ولو بلا يمين؛ واللَّه عز وجل يقول: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ﴾ [القلم:١٠]، فالذي يُكثر من الحلِف؛ الواجب عدم

(١) من ذلك: «أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ، بَاعَ غُلاَماً لَهُ بِثَمَانِ مِئَةِ دِرْهَمٍ، وَبَاعَهُ بِالْبَرَاءَةِ. فَقَالَ الَّذِي ابْتَاعَهُ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ: بِالْغُلاَمِ دَاءٌ لَمْ تُسَمِّهِ لِي؛ فَاخْتَصَمَا إِلَى عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ. فَقَالَ الرَّجُلُ: بَاعَنِي عَبْداً، وَبِهِ دَاءٌ لَمْ يُسَمِّهِ لِي.
وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: بِعْتُهُ بِالْبَرَاءَةِ. فَقَضَى عُثْمَانُ، عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَنْ يَحْلِفَ لَهُ، لَقَدْ بَاعَهُ الْعَبْدَ، وَمَا بِهِ دَاءٌ يَعْلَمُهُ.
فَأَبَى عَبْدُ اللَّهِ أَنْ يَحْلِفَ. وَارْتَجَعَ الْعَبْدَ فَصَحَّ عِنْدَهُ، فَبَاعَهُ عَبْدُ اللَّهِ بَعْدَ ذلِكَ بِأَلْفٍ وَخَمْسِمِئَةِ دِرْهَمٍ». رواه مالكٌ في الموطأ، كتاب البيوع، العيب في الرقيق، رقم (٢٢٧١).

طاعته، ومَن أكثرَ من الحلِف يوشك أن تكون يمينه غموساً، أو أن تكون يمينه مُكفَّرةً؛ وكلاهما المسْلِم في غنىً عنهما؛ لهذا يجب على الشخص أن لا يُكثِر من الحلِف باللَّه عز وجل حتى ولو كان صادقاً.

والحلِف ينقسم إلى قِسمين:

القِسم الأوَّل: حلفٌ بغير اللَّه؛ وهذا شركٌ - والعياذ باللَّه -، وليس فيه كفارةٌ بالإجماع(١)، كالحلِف بالنبيِّ، والكعبة، والنِّعمة، والشرف وغير ذلك.

القِسم الثاني: الحلِف باللَّه عز وجل، والحلِف به سبحانه ينقسم إلى قِسمين:

القِسم الأوَّل: الحلِف على أمور الدين؛ وهذا جائز، وأمرٌ مشروعٌ لا بأس به؛ والنبي عليه الصلاة والسلام حَلَف، وقد ذَكر ابن القيم رحمه الله أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم حَلف في أكثر من ثمانين موضعاً على أمور

---

(١)نقل ابن حجرٍ رحمه الله عن ابن عبد البر رحمه الله قوله: «لا يجوز الحلف بغير اللَّه بالإجماع». فتح الباري لابن حجر (١١/ ٥٣١).

الدين[1]، مثل: لو حَلف شخصٌ وقال: واللَّه إنَّ الإسلام حقٌّ، أو: واللَّه إنَّ اللَّه واحدٌ.

والقِسم الثاني: الحلِف على أمور الدنيا سواء في البيع والشراء أم في غيرهما، وإنَّما خُصَّ البيع؛ ليُصَدَّق البائع، لحبِّ بعض الناس للمال، والحلِف على أمور الدنيا ينقسم إلى أقسام:

القِسم الأوَّل: اليمين الغموس، ومتوعَّدٌ صاحبها بالغمس في نار جهنم؛ لذلك سميت يميناً غموساً، وليست فيها كفارةٌ؛ لعِظم ذنْبها، والكفارة لا تَحمل إلا الذنْب اليسير، لكن هذه اليمين الغموس ذنْبها عظيمٌ.

واليمين الغموس: هي أن يَحلف على أمر ماضٍ عامداً ذاكراً، مثل: لو قال لك شخصٌ هل ذهبت للجامعة أمس؟ وأنت ذهبتَ وتَعلم أنك ذهبتَ، لكن قلتَ: واللَّه ما ذهبتُ - تكذب -؛ هذه هي اليمين الغموس، ليس فيها كفارة يمينٍ.

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ٢٦٩).

والقِسم الثاني: اليمين المكفَّرة: وهي أن تَحلف على أمرٍ مستقبَلٍ، مثل أن تقول: واللَّه لا أَذهب لزيدٍ ثم تَذهب لزيدٍ.

القِسم الثالث: يمين اللَّغو، مثل: لا واللَّه، وبلى واللَّه، كما قَالَت عَائِشَةُ رضي الله عنها(١).

لذا قال المصنِّف رحمه الله: (**بَابُ مَا جَاءَ فِي كَثْرَةِ الحَلِفْ**) ولم يُبيِّن الحُكم؛ لأنَّ كثرة الحلِف ينقسم إلى القِسمين السابقين، وكثرة الحلِف على أمور الدنيا محرَّمٌ؛ لأنَّ فيه استخفافٌ بجناب الربِّ سبحانه، فإنَّ مَن أكثر من الحلِف باللَّه - ولو كان صادقاً - عُرضةٌ للكذب، واللَّه عز وجل عظيمٌ لا يُحلف به إلا لأمر عظيم.

والمصنِّف رحمه الله ساق هذا الباب في كتاب التوحيد؛ لبيان أنَّ كثرة الحلِف على أمور الدنيا منافيةٌ لكمال التوحيد؛ لأنَّ فيها استخفافٌ بالربِّ سبحانه.

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب تفسير القرآن، بَابُ قَوْلِهِ: ﴿لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥]، رقم (٤٦١٣).

والمصنِّف رحمه الله ذَكر في هذا الباب ستة نصوصٍ؛ ليبيِّن وجوب حفْظ اليمين، وليبيِّن أنَّ اليمين التي يُنهى عن الحلِف بها: اليمين في أمور الدنيا، مثل: (**الحَلِفُ مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ**) كما سيأتي، (**وَرَجُلٌ جَعَلَ اللَّهَ بِضَاعَتَهُ؛ لَا يَشْتَرِي إِلَّا بِيَمِينِهِ، وَلَا يَبِيعُ إِلَّا بِيَمِينِهِ**)، ومثل: (**تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ**).

ثُم ذَكر ما هو سبيل السلف الصالح رضي الله عنهم في تربية أولادهم التربية الصالحة وهي حفْظ اليمين؛ بأن لا يحلف الشخص باللَّه، ولو كان صادقاً، بل كانوا يَضربون أبنائهم وهم صغارٌ على ذلك، كما سيأتي.

فالنَّصُّ الأوَّل – (﴿**وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ**﴾) –؛ لبيان وجوب حفْظ اليمين.

والنَّصُّ الثاني – (**الحَلِفُ مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ**) –؛ لبيان عقوبة المكثِر من الحلِف على أمرٍ من الدنيا.

والنَّصُّ الثالث – (**ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**) –؛ لبيان عقوبة الحالف كثيراً على أمرٍ من أمور الدنيا.

والنَّصُّ الرابع – (خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي...ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْماً يَشْهَدُونَ) – ؛ لبيان أنَّ القرون المفضلة لم يكونوا يَحلفون على أمور الدنيا.

والنَّصُّ الخامس – (خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي...ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ) –؛ لبيان أنَّه في آخر الزمان يَكثر الحلِف باللَّه في أمور الدنيا.

والنَّصُّ السادس – (قَالَ إِبْرَاهِيمُ: «كَانُوا يَضْرِبُونَنَا عَلَى الشَّهَادَةِ..) –؛ لبيان أنَّ السلف كانوا يَضربون أبناءهم على كثرة الحلِف.

لذا قال المصنِّف رحمه الله: (وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾) أي: لا تَحلفوا باللَّه كثيراً، وإنْ كنتم صادقين، فاحفظ يمينك ولا تَجعلها إلا في أمرٍ مهمٍّ؛ فإنَّ مِن تعظيم اللَّه عز وجل تعظيم اليمين؛ قال سبحانه: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٤]، فإنَّ مَن عظَّم شيئاً لم يَذكره إلَّا في أمرٍ عظيمٍ.

ثُم قال: (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: الحَلِفُ) يعني: الحلِف باللَّه سبحانه، (مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ) يعني: أنه إذا حَلفَ على سلعةٍ فيُصدِّقه الناس فتُشْتَرَى؛ لأن المشتري إذا حُلف له باللَّه يُصدِّق؛ فيشتري منه سلعته، فتَذهب سلعته بالحَلِف، ولكن العقوبة قال: (مُمْحَقَةٌ لِلْكَسْبِ) أي: أنَّ المال الذي كان

وسيلته الحلِف باللَّه ممحوق البركة، مثل: لو قال البائع: واللَّه إنَّني اشتريتُ هذه السلعة بخمسين، وأنا أبيعها عليك بخمسين؛ ترغيباً له في الشراء؛ فالزيادة التي يأخذها البائع بسبب يمينه عند البيع؛ ماله ممحوق البركة؛ بسبب أنَّه حَلف على بضاعته في البيع باللَّه عز وجل.

والواجب أنَّ البائع يَحفظ يمينه في البيع، ولا يَحلِف، فلو سمعتَ بائعاً يَحلف باللَّه عز وجل في البضاعة، فيقول: واللَّه بعتها غالية، أو: واللَّه بعتها رخيصة؛ قل له: هذا بيعٌ وشراء ليس فيه يمينٌ، أخبرني بالصدق بدون يمينٍ؛ لأنه إذا حَلف وسَرَت بضاعته فإنَّه مهدَّدٌ ومتوعَّدٌ بنزْع البركة من المال الذي جمَعه.

قال: (أَخْرَجَاهُ).

ثُم بعد ذلك قال: (وَعَنْ سَلْمَانَ رضي الله عنه مَرْفُوعاً: ثَلَاثَةٌ) أي: ثلاثة أصنافٍ، والذين يُتوعَّدون أكثر من ثلاثةٍ بمثل هذا الوعيد لكن جاء في هذا الحديث بهؤلاء الثلاثة، وإلَّا المُسْبِل متوعَّدٌ(١) كذلك بمثل هذا الوعيد.

---

(١)كما في حديثٍ رواه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم إسبال

(لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ) والمراد بالكلام هنا يوم القيامة، وفيه إثبات صفةٍ من صفات اللَّه عز وجل؛ وهي صفة الكلام.

(وَلَا يُزَكِّيهِم) أي: لا يطهِّرهم من أدْرَان الذنوب، ولا يُثنِي عليهم ولا يُقرِّبهم؛ بل (وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) أي: عذاب مؤلِمٌ ومُوجِعٌ - والعياذ باللَّه -.

هؤلاء الأصناف الثلاثة قال:

الصنف الأوَّل: قال: (أُشَيْمِطٌ زَانٍ) الأَشْمَط هو الذي علاه الشيب، فالشَّمَط هو البياض؛ يعني كأنَّه يقول: ورجُلٌ ظَهر عليه الشيب - والعياذ

الإزار، والمنّ بالعطية، وتنفيق السلعة بالحلف، وبيان الثلاثة الذين لا يُكلّمهم اللَّه يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، رقم (١٠٦)، من حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه، ولفظه: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، قَالَ: فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ثَلَاثَ مِرَاراً، قَالَ أَبُو ذَرٍّ: خَابُوا وَخَسِرُوا، مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الْمُسْبِلُ، وَالْمَنَّانُ، وَالْمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ».

باللَّه – ويزني، وقال (**أُشَيْمِطٌ**) بالتصغير؛ تحقيراً له، (**زَانٍ**) يعني: على كبر سنِّه يزني.

وكانت هذه عقوبته؛ لأنَّ داعي الزنا لكبير السِّن ضعيفٌ، وداعي الرغبة فيه أقلُّ فيُقدم على هذه المعصية مع عدم الدواعي إليها؛ فيَعظم الذنْب في ذلك عليه – والعياذ باللَّه –، وكذلك المرأة إذا فَعلتْ ذلك.

ولا يعني ذلك أنَّ ذنْب الزاني الشاب ليس بعظيمٍ؛ بل كلاهما عظيمٌ؛ ولكنه في حقِّ كبير السنِّ أعظم – والعياذ باللَّه –.

والصنف الثاني: قال: (وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ) (**وَعَائِلٌ**) يعني: فقير؛ قال سبحانه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [التوبة:٢٨]: إن خفتم فقراً.

(**مُسْتَكْبِرٌ**) يعني: وهو فقيرٌ ويتكبَّر على الناس؛ لأنَّ مِن أسباب الكبْر إمَّا المال، أو الرئاسة، أو الشهرة أو نحو ذلك، لكن هذا ما عنده مالٌ ويتكبَّر على الناس فليس هناك داعٍ للكبر حتى يتكبَّر؛ لا جاهاً ولا مالاً ولا نحو ذلك؛ فلمَّا كان داعي المعصية في حقِّه ضعيفٌ وهو الفقر، والصفة التي اتَّصف بها حقيرةً وهي الكبر؛ كان الذنْب عليه أعظم.

والصنف الثالث: قال: (وَرَجُلٌ جَعَلَ اللَّهَ بِضَاعَتَهُ) أي: يستخفُّ بالحلِف باللَّه؛ كأنَّه بضاعةٌ يَحلف على بضاعته باللَّه؛ يعني: جَعل الحلِف باللَّه لتسويق بضاعته.

فمَن حَلف باللَّه ولو كان صادقاً؛ فهو متوعَّدٌ بمثل هذا الوعيد؛ لذلك قال المصنِّف: (**بَابُ مَا جَاءَ فِي كَثْرَةِ الحَلِفْ**)، وليس بالكذب في الحلِف، وإنما كثرة الحلِف، فالباعة يَغلب عليهم الجَشَع، ولمحبتهم للمال؛ يَتلفَّظون بما هو أحبُّ للناس وهو الربُّ عز وجل فيَحلفون به ليُمضوا سلعتهم.

(لَا يَشْتَرِي إِلَّا بِيَمِينِهِ) يعني: إذا أراد أن يأخذ من أحدٍ بضاعةً حتى يبيعها يقول: خفف لي السعر، واللَّه ما يأتي أحدٌ يشتري، واللَّه السعر عليَّ غالٍ، واللَّه عندي إجار دكانٍ وهكذا.

(وَلَا يَبِيعُ إِلَّا بِيَمِينِهِ) لا يبيع إلا بيمينه؛ يقول: واللَّه هذا رأس مالي، واللَّه ما فيه مَربحٌ إلا قليل، واللَّه هذه البضاعة جيدة.

وهذا هو الشاهد؛ فدلَّ على تحريم كثرة الحلِف في البيع؛ لورود الوعيد في ذلك.

والواجب على الباعة وغيرهم حفْظ اليمين - خاصَّةً الباعة - في البيع والشراء فهذا بيع وشراء ممَّا أباح اللَّه لا يَدخل فيه الربُّ العظيم سبحانه في مِثل هذه الأمور الحقيرة؛ وهي أمور الدنيا في البيع والشراء.

قال: (رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ).

ثُم ذَكر حديثَ عمران بن حصين وحديث ابن مسعودٍ رضي الله عنهما في أنَّ في هذه الأمَّة مَن يتسابق إلى كثرة الحلِف وهو يكون في آخر الأمَّة أكثر مِن أوَّلها.

قَالَ رحمه الله: (وَفِي الصَّحِيحِ: عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «خَيْرُ أُمَّتِي) أمَّة النبي عليه الصلاة السلام يُطلَق عليها أمَّته مِن حين مبعثه – من حين المبعث - إلى قيام الساعة.

فما قبْل مبعث النبي عليه الصلاة والسلام - كالأمة التي قبْلنا -؛ فليست من أمَّة محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، فمِن حين مبعثه كلُّ رجُلٍ يطلق عليه مِن أمَّة محمدٍ، فمَن آمن؛ قيل عنه أنَّه مِن أمَّة محمدٍ من أمة الإجابة؛ يعني: استجاب لدعوة النبي صلى الله عليه وسلم.

(قَرْنِي) هذا فيه خيارٌ من خيار؛ فأمَّة محمدٍ صلى الله عليه وسلم هي خيار الأمم، وخير أمَّة محمدٍ صلى الله عليه وسلم القَرْن الأوَّل؛ لفضل الصُّحْبة، ولفهمهم لنصوص الشريعة، ولقُربهم من النبي صلى الله عليه وسلم ونزول القرآن؛ قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وكلُّ أحد يعلم أن عقول الصحابة والتابعين وتابعيهم أكمل عقول الناس»[(١)]، واللَّه عز وجل وَعدهم بالجَنَّة فقال: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ [النساء:٩٥].

والقرْن المراد به الجيل على أصحِّ الأقوال؛ يعني: جيل الصحابة، ثُم جيل التابعين، ثُم جيل أتباع التابعين، وليس المراد مئة سنَةٍ؛ بل جيلٌ ثُم جيلٌ ثُم جيلٌ وهو معروفٌ عند الناس فيقولون: هذا الجيل انقرض، هذا الجيل بقية الجيل السابق، هذا بقية الجيل الأوَّل وهكذا.

(خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي) الصحابة، ثُم التابعين، ثُم الذين يلونهم وهكذا بعدهم يَكثر الشر؛ كما قال النبي عليه الصلاة والسلام في حديث أنسٍ: «لَا يَأْتِي زَمَان إِلَّا وَالَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ»[(٢)]؛ لبُعد الناس عن النبوَّة

(١) درء تعارض العقل والنقل (٥/ ٧٢).

(٢)رواه البخاريُّ، كتاب الفتن، باب: لا يأتي زمان إلا الذي بعده شر منه، رقم (٧٠٦٨).

والوحي، ولكثرة الفتن، وقلَّة العِلم، وكثرة الجهل، وفشوِّ المعاصي - والعياذ باللَّه -، ولقلة الدعاة والدعوة.

قال: (ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ) أي: ثُم القرن الذي يليه، وليس للقرن تحديدٌ بالزمن - كما سبق -، وإنَّما بالجيل؛ اندثر جيلٌ، ويأتي جيلٌ، فقوله: (ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ) أي: جِيل التابعين، (ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ) أي: جيل أتباع التابعين.

(قَالَ عِمْرَانُ: فَلَا أَدْرِي أَذَكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثاً؟) يعني: هل القرون المفضلة قرن الصحابة والتابعين، أم القرون الثلاثة، وفي بعض الروايات أثبت الثلاثة؛ فيكون قرن الصحابة، وبعده قرن التابعين، وبعده قرن أتباع التابعين رضي الله عنهم جميعاً.

وقد ثَبت عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم في حديث ابن مسعودٍ رضي الله عنه وغيره أن القرون المفضلة ثلاثةٌ؛ لذلك بعْدهم كثُر الافتراق، وظَهرت البدع، وانتشرت، وهكذا إذا بَعُد الناس عن عصر النبوة قَلَّ العلم وكثُر الجهل، وفي صحيح البخاريِّ[١] عن أنس رضي الله عنه: «لَا

(١) سبق تخريجه (ص) عند قوله (كما قال النبي عليه الصلاة والسلام في حديث

يَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ إِلَّا الَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ حَتَّى تَلْقَوْا رَبَّكُمْ، سَمِعْتُهُ مِنْ نَبِيِّكُمْ صلى الله عليه وسلم».

قال: (ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْماً) يعني: يأتي بعد هذه القرون المفضَّلة أُناسٌ فيهم خصالٌ مذمومةٌ، وما سيأتي من أوصاف من أعلام النبوة؛ لأنَّ تلك الصفات لم تكن في عهد الصحابة رضي الله عنهم:

الخِصلة الأولى: قال: (قَوْماً يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ) أي: يتسارعون في أداء الشهادة قبل أن تُطلب منهم؛ تهاوُناً في حقوق الناس، أمَّا إذا كانت في إثبات حقٍّ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ الشُّهَدَاءِ؟ الَّذِي يَأْتِي بِشَهَادَتِهِ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَهَا»[1]؛ يعني يؤدي الشهادة بدون طلبها ويذهب إلى القاضي ويقول: أنا أشهد على كذا وكذا أو شخص يتحدث يقول: أنا أشهد، وهذا من علم النبوة، والأصل حفظ الشهادة لأنها أمر مَتِين.

أنسٍ).

(١) رواه مسلمٌ، كتاب الأقضية، باب بيان خير الشهود، رقم (١٧١٩)، من حديث زيد بن خالدٍ الجهني رضي الله عنه.

والخِصلة الثانية المذمومة قال: (وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ) يعني: يخونون أماناتهم، والناس لا يأتمنونهم على أماناتهم؛ فيعني: أنَّ بعد القرون المفضلة تَكثر الخيانة - والعياذ باللَّه -، وتقلُّ الأمانة، وفي الصحيحين[(١)] - في آخر الزمان - قال صلى الله عليه وسلم: «فَلَا يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الأَمَانَةَ فَيُقَالُ: إِنَّ فِي بَنِي فُلَانٍ رَجُلاً أَمِيناً»؛ يعني: لقلة الأُمناء في الحيِّ أو القبيلة ونحو ذلك لا يوجد سوى أمينٍ واحدٍ، فتكثر - والعياذ باللَّه - هذه الصفة.

ومِن ذلك أن تُحدِّث شخصاً بحديثٍ فتقول: لا تخبر أحداً؟ يقول: ما أخبر أحداً، ثُم يَذهب إلى زميله، ويقول: انتبه لا تخبر أحداً؛ هو قال لا تخبر أحداً؛ فهذا مِن خيانة القول، إضافةً إلى خيانة الأمانة المُودَعَة، وإلى خيانة الأفعال من المعاصي ونحو ذلك.

فالشخص في حال خفائه وتَسَتُّرِه عن الناس يَخُون ما ائتمنه اللَّه مِن حفْظ فرْجه، أو لسانه؛ كما قال اللَّه عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب رفْع الأمانة، رقم (٦٤٩٧)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب رفع الأمانة والإيمان من بعض القلوب، وعرض الفتن على القلوب، رقم (١٤٣)، من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.

تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال:٢٧]؛ يعني بالمعاصي.

قال: (وَيَنْذُرُونَ وَلَا يُوفُونَ) يعني: النَّذر المعلوم شرعاً: وهو إلزام المسْلِم على نفْسه ما لم يجب عليه بأصل الشرع، فإذا ألزم نفْسه يجب عليه الوفاء، وفي آخر الزمان يَنذُر لكن لا يوفي.

والأصل أن النَّذر يُكره؛ لكن إذا نَذر يجب عليه الوفاء به، لكن في آخر الزمان إذا وجب الوفاء عليه لا يوفِ بذلك النذر الذي أَوجبه على نفْسه.

قال: (وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ) بسبب التَّرَف وقلَّة الأعمال الصالحة ونحو ذلك، أمَّا السِّمَن لذاته فلا يُذمُّ؛ قال سبحانه: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي العِلْمِ وَالجِسْمِ﴾ [البقرة:٢٤٧].

وكذلك الأكل والشرب الكثير أحياناً؛ لا محذور فيه، والدليل على ذلك: ما جاء في قصة أبي هريرة رضي الله عنه، أنه كان في شدة من الجوع، وكان يَعرض لبعض الصحابة يسألهم عن بعض آي الكتاب علهم أن يستضيفوه، فلم يفعلوا، فمرَّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم فَفَهِمَ

مراده فاستضافه على قدحٍ من لبنٍ فشَرب منه أبو هريرة حتى قال: «لَا، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أَجِدُ لَهُ مَسْلَكاً»(١)؛ يعني: اللَّبن.

والشاهد في هذا الحديث أنَّ النَّاس في آخر الزمان يتساهلون في الشهادة ويتسارعون إليها، ومِن ذلك أيضاً اليمين يتساهلون فيها، ويُكثِرون من الحلِف، كما هو واقعٌ في هذه الأزمنة، فدلَّ على أنَّ القرون المفضلة ليس عندهم كثرة الحلِف؛ وإنَّما هذا عند مَن بعدهم.

فهذه من صفات مَن يأتي من بعد القرون المفضلة.

ثُم ذَكر بعد ذلك حديث ابن مسعودٍ رضي الله عنه؛ ليُفَسِّر حديث عمران رضي الله عنه؛ ليستدلَّ به على شاهدٍ أتى في حديث ابن مسعودٍ وما أتى في حديث عمران.

ثُم بعد ذلك قال: (وَفِيهِ: عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: خَيْرُ النَّاسِ) يعني: في هذه الأمة وفيما سبقها

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الرقاق، باب: كيف كان عيش النبيِّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم وأصحابه، وتخليهم من الدنيا، رقم (٦٤٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

من الأمم، (خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ) يعني: بعْد القرون المفضَّلة.

(تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ) هنا الشاهد، (تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ) لكثرة الحلِف والشهادة؛ يعني: يتساهلون في الشهادة واليمين؛ لقلَّة خوفهم من اللَّه وعدم مراقبتهم له، ولعدم تعظيم اللَّه عز وجل في نفوسهم، فيجب عدم الإكثار من اليمين.

(وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ) مثلاً: شخصٌ جالسٌ في مجلسٍ، فيقول: واللَّه قال الصدق، واللَّه قال الحق، وشخص آخر يقول: أنا أشهد على هذا الكلام، صحيحٌ أشهد أنك صادق وهكذا.

والواجب أنَّ الشخص يَحفظ لسانه من لفظة الشهادة «أنا أَشهد»، أو من لفظة اليمين، ولا يُظهِر هذه الأمور إلا في حال القضاء إن احتاج إليها، وإلا فالأصل أنَّ الإنسان يَحفظ يمينه، ويَحفظ شهادته ولا يَتطلَّع إليها؛ إلا إذا خَشي أنْ تضيع الحقوق.

ثُم بعد ذلك ذكر كيف كان السلف رحمهم الله يُعَلِّمُون أولادهم أمور الدين وتعظيم جناب اللَّه؟

فقال: (**قَالَ إِبْرَاهِيمُ**) يعني: النخعي: (**كَانُوا**) أي: الصحابة رضي الله عنهم، (**يَضْرِبُونَنَا**) أي: آباؤنا والصحابة؛ والنخعي من طلاب ابن مسعودٍ؛ يعني: كان ابن مسعودٍ رضي الله عنه.

(**عَلَى الشَّهَادَةِ وَالعَهْدِ**)، والفرْق بين العهد واليمين؛ أنَّ اليمين فيه كفارةٌ، وأمَّا العهد فليس فيه كفارةٌ.

فقوله: (**يَضْرِبُونَنَا عَلَى الشَّهَادَةِ**) يعني: بالمسارعة إليها؛ يعني: لا تشهد، (**وَالعَهْدِ**) وهو تأكيد فعلٍ أو ترْكه بالقول، مثل: عهدٌ عليَّ أن لا أَسمع المعازف؛ فالمقصود من ذلك التنبه مِن حلف اليمين.

قال: (**وَنَحْنُ صِغَارٌ**) فدلَّ على أنَّ تعليم الصغار العقيدة؛ مِن منهج السلف، وبهذا يُعَظَّمُ الرب سبحانه وتعالى.

وهكذا يجب على الأب والأخ والأمِّ إذا رأى ابنه يَحلف؛ يقول له: لا تحلف، وإذا رأى أخاه يحلف؛ يقول: لا تحلف، تكلم بدون حلف؛ لأن حفظ اليمين من تعظيم جناب اللَّه عز وجل في القلب.

وإذا أُطلق التلفُّظ باليمين بالحلِف باللَّه عز وجل في الأمور؛ هَانَ في النفس عظمته جل وعلا عند الحالف، وإذا حُفظت اليمين كان أعظم لجناب اللَّه عز وجل في القلب.

فتبيَّن ممَّا سَبق: أنه يجب على المسْلِم أنْ يَحفظ يمينه باللَّه عز وجل وإن كان صادقاً؛ فهذا أسلم لتوحيده، وكثرة اليمين وإن كان صادقاً؛ منافيةٌ لكمال التوحيد الواجب.

***

[٦٣]

بَابُ
مَا جَاءَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ وَذِمَّةِ نَبِيِّهِ

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ الآيَةَ.

عَنْ بُرَيْدَةَ رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم كَانَ إِذَا أَمَّرَ أَمِيراً عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ؛ أَوْصَاهُ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْراً، ثُمَّ قَالَ: اغْزُوا بِسْمِ اللَّهِ، فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تُمَثِّلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيداً.

وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ؛ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ - أَوْ خِلَالٍ -، فَأَيَّتَهُنَّ مَا أَجَابُوكَ؛ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ.

ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ، فَإِنْ أَجَابُوكَ؛ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ.

ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ؛ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ.

فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا؛ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ، يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ،

وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الغَنِيمَةِ وَالفَيْءِ شَيْءٌ؛ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ المُسْلِمِينَ.

فَإِنْ هُمْ أَبَوْا؛ فَاسْأَلْهُمُ الجِزْيَةَ؛ فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ؛ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ.

فَإِنْ هُمْ أَبَوْا؛ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ.

وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ، فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ؛ فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَلَا ذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ.

فَإِنَّكُمْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَمَ أَصْحَابِكُمْ، أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ.

وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ، فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ؛ فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ، وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ؛ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ، أَمْ لَا» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

الشَّرْحُ:

قَالَ رحمه الله: (بَابُ مَا جَاءَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ وَذِمَّةِ نَبِيِّهِ) أي: من الوعيد فيمن أَخفر ونَقض عهده مع اللَّه أو مع نبيِّه، وكذا مع خلْقه، ونقْض العهد مع اللَّه أو مع نبيِّه قدحٌ في التوحيد؛ لأَنَّه استخفافٌ باللَّه عز وجل وبأوامر

رسوله صلى الله عليه وسلم؛ وهذا مناسبة ذكْر المصنِّف رحمه الله هذا الباب في كتاب التوحيد.

وقوله: (**بَابُ مَا جَاءَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ**) أي مِن النهي عن أنْ تَجعل ذمَّة اللَّه وذمَّة نبيَّه في العهود والمواثيق، والتحذير من ذلك، وأنَّ مَن جَعل ذمَّة اللَّه وذمَّة نبيِّه؛ وَجب عليه الوفاء بها وجوباً مؤكَّداً.

ومعنى (**ذِمَّةِ اللَّهِ وَذِمَّةِ نَبِيِّهِ**): يعني: لو أنَّ أميراً مع أميرٍ عدوٍّ ونحو ذلك؛ تعاهدا وتعاقدا على شيءٍ، فقال أمير المسلمين: ما عاهدناه عليكم هو ذمَّة اللَّه وذمَّة نبيِّنا، لن نَخُونَكم؛ فهنا أتى النهي بأن لا تُجعل ذمَّة اللَّه وذمَّة نبيِّه في هذا العقد والعهد والميثاق الذي بيْن الطرفين؛ وإنما يقال: هذا العهد في ذمَّتنا، ولا ننقضه.

وكذلك إذا قيل: حُكم اللَّه، مثل: القاضي إذا حَكم في قضية حضانةٍ ونحو ذلك، لا يقول: حكمتُ عليك بحُكم اللَّه بكذا وكذا؛ وإنما يقول الحاكم: حكمتُ عليك بكذا وكذا؛ فيَجعل الحكم هو حُكمه باجتهاده من استنباط النُّصُوص، ولا يُنزِل حُكم اللَّه عز وجل على هذه المسألة العينيَّة.

يعني: لو أنَّ رجلين تنازعا في عقارٍ، فلا يقول القاضي: حكمتُ عليك بحُكم اللَّه بأنَّ الذي لك هو هذا، وهو حُكم اللَّه؛ وإنما يقول: حكمتُ عليك بكذا وكذا، ولا يقول: حُكم اللَّه وإن كان مستنبطاً مِن الكِتاب والسُّنَّة؛ فإنَّ الإنسان لا يدري؛ كما قال عليه الصلاة والسلام: (**فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ، أَمْ لَا**)؛ فهذا اجتهادٌ منك فقد يكون ما حكمتَ به خلاف الصواب.

فقوله: (**بَابُ مَا جَاءَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ**) من النهي عن أن تُجعل في العهود والمواثيق، وإذا جُعلت؛ يجب الوفاء بها.

فاللَّه عز وجل له عهدٌ مع خلْقه، ولخلْقه عهد معه؛ فعهْد اللَّه مع خلْقه: أن لا يعذِّب مَن لا يُشرك به شيئاً، وعهْد الخلق مع اللَّه: أن يَعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، والدليل على ذلك: قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ﴾، فإقامة الصلاة وما بعدها عهْد الخلق مع اللَّه، وقوله – في نفس الآية –: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [المائدة:١٢]؛ هذا عهد اللَّه مع خلْقه، وكذا حديث معاذٍ

رضي الله عنه: «وَحَقَّ العِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شيئاً»(١).

قال: (وَذِمَّةِ نَبِيِّهِ) أيضاً للنبيِّ صلى الله عليه وسلم عهْد مع الخلق، وللخلْق عهْدٌ مع النبي صلى الله عليه وسلم؛ فعهْد الرسول صلى الله عليه وسلم مع الخلق: أن يبيِّن ما يبلغه اللَّه به ولا يكتم شيئاً؛ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧]، وعهْد الخلْق مع النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنْ يتَّبعوا سُنَّتَه؛ قال سبحانه: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور:٥٤]، وقال سبحانه: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣].

وساق المصنِّف رحمه الله آيةً وحديثاً:

الآية؛ لبيان وجوب حفْظ عهْد اللَّه، وحفْظ عهْد نبيِّه صلى الله عليه وسلم.

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب اللِّباس، باب إرداف الرجُل خلْف الرجُل، رقم (٥٩٦٧)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب من لقي اللَّه بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة وحرم على النار، رقم (٣٠).

والحديث؛ لبيان كيفيَّة التأدب في عهْد اللَّه، وعهْد نبيِّه في المعاملة بين الخلْق، كما سيأتي بإذن اللَّه.

قال: (وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾) (﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ﴾) كما سَبق باتِّباع أوامره سبحانه، واجتناب نواهيه - وأعظم الأوامر التوحيد، وأعظم النواهي الشرك -، ولا يجوز نقْض هذا العهد، فإذا عاهدتَ بعهد اللَّه؛ أوْفِ به سواءً في نفْسك أو مع الآخرين.

(﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾) المراد بالأَيْمان هنا: الأَيْمان مع العهد، وليست الأيمان المنفصِلة؛ أي: ولا تَنقضوا الإيمان التي في العهود بعد أنْ وَثَّقتموها بالعهود.

فمثلاً: تعاهد اثنان، فيقول: هذا عهد اللَّه، أو: هذا عهدٌ بيْني وبينك واللَّه هذا عهد، فمَن حَلف على هذا العهد؛ كانت هذه اليمين أشدَّ في التغليظ من النَّكث فيها.

﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً﴾ [النحل: ٩١] هذا إذاً عهد مع اللَّه، فيجب الوفاء بعهود اللَّه، ونقْض شيءٍ من عهود اللَّه؛ نقْصٌ في جناب التوحيد.

ثُم بعد ذلك قال: (عَنْ بُرَيْدَةَ رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم كَانَ إِذَا أَمَّرَ أَمِيراً) هذا يدلُّ على مشروعية تأمير الأمير في الجيش؛ لِيَنقاد الناس بأمره في غير معصية اللَّه، سواء كان عدداً كبيراً من المقاتلين - كالجيش -، أو قطعةً من الجيش - كالسَّرِيَّة -، (عَلَى جَيْشٍ) وهم الجند الكثير، (أَوْ سَرِيَّةٍ) قطعة من الجيش.

(أَوْصَاهُ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْراً) أي: أوصى الأمير بأمرين، بأمرين:

الأمر الأوَّل: (بِتَقْوَى اللَّهِ) بأن يكون قريباً من اللَّه، وهذه وصيةٌ في تعامل الأمير مع حقوق اللَّه، لأنَّ النَّصْر لا يتحقَّق إلا بالتقوى؛ كما قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ [محمد:٧]، وقال عز وجل: ﴿وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، فالمؤمن هو الذي يُنصر، ويقول سبحانه: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾ [الطلاق:٢]؛ فالنَّصْر لا يأتي إلا بتقوى اللَّه عز وجل، ومَن نصَر اللَّه بالتقوى؛ نصَره اللَّه عز وجل.

والأمر الثاني: في تعامله مع الجيش، قال: **(وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا)** يعني: كلُّ ما فيه خيرٌ للجيش يبذله لهم، وكلُّ ما فيه شرٌّ يبعدهم عنه.

ثُم أوصى النبي صلى الله عليه وسلم الجيش مع الأمير بسبع وصايا عظيمةٍ هي من آداب الجهاد في سبيل اللَّه، وهي من محاسن الدين، ومن أسباب النَّصْر ومِن أخلاق المسلمين:

الوصية الأُولى: قال: **(ثُمَّ قَالَ اغْزُوا بِسْمِ اللَّهِ)** أي: لِيَكن فعْلكم في هذا الغزو مستعينين باللَّه في قتال العدو؛ لأنَّ القتال يطرأ عليه ما لم يكن في الحُسْبَان، ولا يصدُّ ذلك العدو إلَّا العون من اللَّه؛ ولذا فإنَّ الغالب في معارك المسلمين أنَّهم هم الأقلُّ عدداً، وأوَّل ذلك أوَّل غزوةٍ في الإسلام «غزوة بدر».

فيُشرع لوليِّ الأمر أنْ يُذكِّر قائد الجيش باللَّه سبحانه، وأنْ يعلِّق قلبه ومن معه مِن المسْلِمين به جل وعلا؛ فإنَّه هو الناصر.

(اغْزُوا بِسْمِ اللَّهِ) فلا تَعتمدوا على الأسباب؛ وإنَّما استعينوا باللَّه عز وجل فهو مُنزل النَّصْر.

والوصية الثانية: قال: (**فِي سَبِيلِ اللَّهِ**) لأنَّه لا يُنجي المقاتل من النَّار ولا يُدخله الجَنَّة إلا الإخلاص، فمَن قاتل في غير سبيل اللَّه؛ كان عمله في الجهاد هباءً؛ لذلك لمَّا سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الرجُل يقاتل شجاعةً، والرجُل يقاتل رياءً، والرجُل يقاتل جاهليةً أيُّ ذلك في سبيل اللَّه؟ قال: «مَنْ قَاتَلَ لِتكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ العُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»[١]، فما كان غير ذلك فليس في سبيل اللَّه؛ بل جهْده، وخوْفه، وذُعْره في سبيل الشيطان.

فلا سبيل موصلٌ للجَنَّة إلا ما كانت النية فيه خالصةً لوجه اللَّه عز وجل؛ لذلك قال: (**اغْزُوا بِسْمِ اللَّهِ، فِي سَبِيلِ اللَّهِ**)، وهذا فيه تصحيحٌ لنية الأمير مع الجيش، فإذا لم تكن النية خالصةً للَّه؛ فاللَّه عز وجل توعَّد المجاهدين بالنار، والقتال الذي يرضاه اللَّه عز وجل؛ هو الذي يُراد به إعلاء كلمة اللَّه.

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الجهاد والسير، باب مَن قاتل لتكون كلمة اللَّه هي العليا، رقم (٢٨١٠)، ومسلمٌ، كتاب الإمارة، باب مَن قاتل لتكون كلمة اللَّه هي العليا فهو في سبيل اللَّه، رقم (٩١٠٤)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

والوصية الثالثة: قال: **(قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ)** أي: اعلموا أنكم مقاتلون كفَّاراً، ولن تَتنصروا عليهم إلا بالتعلُّق باللَّه عز وجل، وليكن قتالكم للكفار وليس للمسلِمين، فإذا دَخلوا في الإسلام فلا تقاتلوهم.

والوصية الرابعة: قال: **(اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا)** الغُلول: هو الأخذ من الغنيمة قبْل قسْمها؛ وهو من كبائر الذنوب؛ لأنَّه أخْذ حقٍّ من حقوق المقاتلين؛ يعني: لا يَسرق أحدٌ من الجيش من المغنم، فالسرقة من المغنم تسمى غُلُولاً؛ واللَّه عز وجل توعَّد مَن يأخذ من الغنيمة قبْل قسْمتها، فقال: ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ القِيَامَةِ﴾ [آل عمران:١٦١].

والوصية الخامسة: قال: **(وَلَا تَغْدِرُوا)** هذا نهيٌ لقائد المسلمين ولأفراد الجيش مِن الغدر بالكفار، أو غدْر الجيش بعضهم لبعضٍ؛ وإنَّما يجب الوفاء بالعهود والمواثيق، ويجب أن يكون المرء على ظاهره، أمَّا الخدعة في الحرب من المسلمين ضد الكفار؛ فلا بأس بها، أمَّا قبْل ذلك من الغدر بالكفار بعد ضرْب المواثيق معهم؛ فقد نهى عنه النبي عليه الصلاة والسلام.

ونقْض العهد ينقسم إلى ثلاثة أقسامٍ:

القِسم الأوَّل: أن لا يكون بيْن المسلمين وبين الكفار عهدٌ؛ فهؤلاء يُقاتَلون.

والقِسم الثاني: أنْ يكون بين المسلمين وبين الكفار عهدٌ؛ فلا يجوز قتالهم، كما قال سبحانه: ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ [التوبة:٧].

والقِسم الثالث: إذا كان بينهما عهدٌ، ولكن يُخاف ويُظنُّ أنَّ المشرِكين سيَنقضون العهد؛ فهنا يجوز نقْض هذا العهد؛ كما قال سبحانه: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ [الأنفال:٥٨].

والوصية السادسة: قال: **(وَلَا تُمَثِّلُوا)** يعني: زيادةً في التمثيل؛ يعني: لكم أنْ تُمثلوا لكن لا تزيدون في التمثيل، وفي رواية: «وَلَا تَمْثُلُوا»[١]، وهو مأخوذٌ من التمثيل على هذا اللَّفظ، وهو تغيير صورة المقتول بقطع

---

(١) رواها مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث، ووصيته إياهم بآداب الغزو وغيرها، رقم (١٧٣١)، من حديث بريدة رضي الله عنه.

يده أو أنفه ونحو ذلك، لذلك بعض أهْل العِلم[١] يصحِّح رواية: «وَلَا تَمْثُلُوا».

وهذا أدبٌ عظيمٌ من آداب الإسلام في حرْمة الإنسان وإن كان كافراً، فإذا مات لا يُجدع أنفه، ولا تُقطع أذنه مثلاً أو يده؛ وإنَّما إذا مات الكافر يُدفن على حاله؛ فالإسلام عظيمٌ لا يَقصد بذلك التشفِّي والانتقام من الكافر بعد موته؛ وإنَّما يريد الإسلام دعوة الكافر إلى الإسلام، فإذا لم يُسلم، يقتل؛ لأنَّ قتْل الكافر في حقيقته رحمةٌ به؛ لأنَّ كلَّ يومٍ يطول عمره فيه عذابٌ عليه؛ لأنَّه يعصي اللَّه في كلِّ يومٍ، فقتْله رحمةٌ به؛ أما إذا قُتل ثُم نأتي ونَمْثُل به؛ فليس هذا من أحكام الإسلام.

والوصية السابعة: قال: (وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيداً) والمراد بالوليد: الصبيُّ، ويَدخل فيه أيضاً النساء، والشيوخ، والرُّهبان، والعُبَّاد؛ إذا لم يكن لهم يدٌ في القتال؛ أي: لا تَقتلوا طفلاً صغيراً؛ لأنه لا يقاتل، وكذلك الشيخ

(١) مثل: أبي الحسن، محمد بن عبد الهادي نور الدين السندي (المتوفى: ١١٣٨هـ). حاشية السندي على سنن ابن ماجه (٢/ ١٩٩).

الكبير لا يقاتل، وكذلك المرأة وكذلك العبد، وقتْل هؤلاء ينقسم إلى قسمين:

القِسم الأوَّل: أن يُقصدوا بالقتل؛ وهذا لا يجوز لهذا الحديث.

والقِسم الثاني: إذا كانوا مع المقاتلين؛ فيجوز قتلهم، كما لو كانوا مُتَتَرِّسين؛ لذلك لمَّا سُئل النبي صلى الله عليه وسلم يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا نُصِيبُ فِي الْبَيَاتِ مِنْ ذَرَارِيِّ الْمُشْرِكِينَ، قَالَ: «هُمْ مِنْهُمْ»[١].

قَالَ رحمه الله: **(وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ؛ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ - أَوْ خِلَالٍ -)** يَذكر رحمه الله هنا ثلاثة أمورٍ على جيش المسلمين أنْ يَفعلها قبْل قتالهم، وسيأتي حُكم ذلك.

فيُشرع للقائد إذا نَزل ديار الكفار أن يدْعهم إلى ثلاث خصالٍ؛ هذا إذا كانت الدعوة قد بَلغتهم؛ فيستحبُّ له أنْ يدعوهم إلى الإسلام لعلهم يُسلِمون، أمَّا إذا لم تكن الدعوة بلَغتهم؛ فيجب عليه وجوباً أن يُبلغهم

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الجهاد والسير، باب أهل الدار يبيتون، فيصاب الولدان والذراري، رقم (٣٠١٢)، ومسلمٌ، كتاب الجهاد والسير، باب جواز قتْل النساء والصبيان في البيات من غير تعمّدٍ، رقم (١٧٤٥) من حديث الصعب بن جثامة اللَّيثي رضي الله عنه.

بدعوة الإسلام، فإذا أجابوك؛ لذلك قال: (فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ؛ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ) أي: اقبل منهم ما دعوتَهم.

قال: (ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ) وفي مسند أحمد(١) من غير كلمة (ثُمَّ)؛ وإنَّما «فَأَيَّتُهَا أَجَابُوكَ إِلَيْهَا فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمُ: ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ»، ففي بعض النُّسخ لا توجد بها كلمة (ثُمَّ).

يعني: إذا حاصرتَ أَهْل حصنٍ فادعهم إلى ثلاث خصالٍ، وهي: ادعهم إلى الإسلام، فأوَّل ما تأتي أيها القائد إلى ديار الكافرين ادعهم إلى الإسلام، فيقول: ديننا أن تشهدوا أن لا إله إلا اللَّه، وأن تَكفروا بالطاغوت؛ فإذا أعلنتُم الإسلام ودخلتم فيه؛ نكفُّ عن قتالكم.

وهذه الخصال الثلاث:

الخَصلة الأولى: الدعوة للإسلام.

والخَصلة الثانية - إذا لم يقبلوا الإسلام -: الجزية.

والخَصلة الثالثة: هي القتال.

(١) رقم (٢٢٩٧٨).

وقال صلى الله عليه وسلم هنا: **(ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ)**، في هذا الحديث بيَّن النبي صلى الله عليه وسلم أنَّه قبل القتال يجب أن يُدعَوْا إلى الإسلام.

والقول الثاني: أنَّه لا يجب أن يُدعَوْا إلى الإسلام؛ لأنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم أَغَارَ عَلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ وَهُمْ غَارُّونَ[1]؛ يعني: في غفلةٍ.

والقول الثالث: التفصيل؛ وهو أنهم إن كانوا سَمعوا الإسلام؛ فيجوز للإمام أن يُباغتهم بالقتال، وإذ لم يَسمعوا بالإسلام؛ فيُدعون إليه.

(فَإِنْ أَجَابُوكَ) يعني: دَخلوا في الإسلام؛ **(فَاقْبَلْ مِنْهُمْ)** يعني: اقبل منهم إسلامهم، وهذا المراد من شَرْعِيَّة الجهاد؛ وهو أنْ يَدخل الناس في دين اللَّه، والقتال – أي: الجهاد –: يقاتَل مَن صَدَّ عن الدعوة، فإذا لم يَصد الكافر عن الدعوة؛ فإنه لا يقاتَل كما سيأتي في الجزية.

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب العتق، باب من مَلك من العرب رقيقاً، فوهب وباع وجامع وفدى وسبى الذرية، رقم (٢٥٤١)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب جواز الإغارة على الكفار الذين بلغتهم دعوة الإسلام، من غير تقدِّم الإعلام بالإغارة، رقم (١٧٣٠)، من حديث عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهما

فالمعنى: فإذا دعوتَهم إلى الإسلام، فأَسلَموا؛ فاقبل منهم، وهذه الخَصلة - التي إن أَسلموا - تحتها أمران:

الأمر الأوَّل: الأمر بالهجرة.

والأمر الثاني: إذا لم يهاجِروا.

الأمر الأوَّل - وهو الهجرة -؛ قال عليه الصلاة والسلام: **(ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ)**؛ لأنها دار شركٍ، **(إِلَى دَارِ المُهَاجِرِينَ)** في صدر الإسلام كان واجباً على كلِّ مَن أَسلم أنْ يهاجر إلى المدينة؛ لأَنَّه إذْ ذاك لا يوجد بلدٌ إسلاميٌّ سوى المدينة، فكانت الهجرة إلى المدينة واجبةً.

وبعد انتشار الإسلام فأيُّ بلدٍ فيه إسلامٌ تجب الهجرة إليه؛ فكلُّ مَن أسلم يجب أنْ يتحوَّل من داره إلى دار الإسلام.

(وَأَخْبِرْهُمْ) يعني: إنْ هاجروا إلى بلاد المسلمين؛ فأخبِرْهم تشجيعاً لهم ومُؤَازَرَةً لهم: **(أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ؛ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ)** أي: مِن الغنيمة ومن الفَيْءِ ونحو ذلك، **(وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى المُهَاجِرِينَ)** من الحقوق، فلهم ما لهم من الحقوق، وعليهم ما عليهم من الواجبات والأحكام؛ من الجهاد والصلاة والزكاة ونحو ذلك.

الأمر الثاني: إذا لم يهاجِروا وأَبَوْا عن التحول، فقالوا أسلمنا ونريد أن نبقى في ديارنا؛ قال: (فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا؛ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ، يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) والذي يجري على أعراب المسلِمين: أنَّهم لا يَشملهم القَسْم من الفيء، وكذلك من الغنيمة، ومع عدم هجرتهم يجري عليهم ما يجري على أحكام المؤمنين؛ من الصلاة والزكاة والصوم ونحو ذلك.

ثم تأكيداً لذلك؛ قال: (وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الغَنِيمَةِ وَالفَيْءِ شَيْءٌ؛ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ) يعني: إذا لم يهاجروا فليس لهم من الفيء والغنيمة شيءٌ إلا أن يقاتلوا مع المسلِمين، وإذا لم يهاجروا وقاتلوا مع المسلِمين؛ لهم الفيء والغنيمة.

ثم الخَصلة الثانية: يَعرض عليهم الإمام دفْع الجزية؛ لذلك قال: (فَإِنْ هُمْ أَبَوْا؛ فَاسْأَلْهُمْ الجِزْيَةَ) والجزية: هي ما يَدفعه الذمِّيُّ للمسلِمين مقابل حماية المسلمين لهم؛ فلا يُقتلوا، ولا يُؤذَوْا، وتُعصَم أموالهم وذراريهم.

(فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ) ودفعوا الجزية؛ (فَاقْبَلْ مِنْهُمْ) الجزية، (وَكُفَّ عَنْهُمْ) فلا تقاتلهم.

فتُدفع هذه الجزية مِن أجْل أنْ يَحمِي المسلمون دم الكافر في داره بأن لا يعتدي أحدٌ عليه مِن أهْل الإسلام؛ فهذا المبلغ – الجزية – الذي يؤخذ منه للحفاظ عليه.

الخَصلة الثالثة: وهي القتال، قال: (فَإِنْ هُمْ أَبَوْا) يعني: دفْع الجزية؛ (فاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ).

فدلَّ على أنَّ الحكمة مِن مشروعية الجهاد ليس حبَّ القتال؛ وإنَّما هو نشْر الإسلام، فإنْ أسلموا لا نقاتلهم، وإن أبوا نأخذ منهم الجزية؛ لعلهم يُسلِمُون، فدلَّ على أن الجهاد مشروعٌ لنشر دعوة الإسلام؛ لذلك كانت فيه هذه الخصال الثلاث.

فيَبدأ القتال بيْن المسلمين وبيْن الكفار، فإذا حصل بينهم عهْدٌ بعد توقف القتال أو أثناء القتال؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم: (وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ، فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ) في هذا الحديث أمران:

الأمر الأوَّل: عهْد اللَّه، وعهْد نبيِّه، أو أحدهما.

والأمر الثاني: حُكم اللَّه.

وكلا الأمرين منهيٌّ عنهما.

الأمر الأوَّل: قال: (**وَإِذَا حَاصَرْتَ**) الحصار: هو التضييق، (**أَهْلَ حِصْنٍ**) الحصن: ما يُتَّقى به؛ (**فَأَرَادُوكَ**) أي: طَلبوا منك، (**أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ**) أي: عهْد اللَّه، (**وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ**) أي: عهْد نبيِّه؛ يعني: لو كان هناك حصارٌ فطَلب العدو من أمير المسلمين وعموم المسلمين أنْ يَجعلوا لهم عهد اللَّه وعهد نبيه أن لا يَقتلوهم؛ وإنَّما يَخرجوا بأمانٍ من الحصن مثلاً، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: (**فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَلَا ذِمَّةَ نَبِيِّهِ**) يعني: لا تقول أنا أعاهدكم بعهد اللَّه وعهْد رسوله؛ تعظيماً لجانب اللَّه وجانب النبيِّ صلى الله عليه وسلم.

(**وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ**) أي: عهْدك، (**وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ**) أي: يقول الأمير: أعاهدكم أن لا أَقتل منكم أحداً إذا خَرجتم في النهار مثلاً، أو يقول: أنا وأصحابي نعاهدكم بعهدنا أنْ تَخرجوا بلا أذِيَّةٍ مثلاً، وهنا جعل العهد للأمير، ولأصحابه؛ لأنَّ العهد يَشمل الأمير ويَشمل أصحابه بأنْ يلتزموا بما عاهدوا به العدو.

والعلَّة في ذلك: (**فَإِنَّكُمْ أَنْ تُخْفِرُوا**) أي: تَنقضوا، (**ذِمَمَكُمْ وَذِمَمَ أَصْحَابِكُمْ**) أي: عهدكم، بأنْ قلتم عهْدٌ مِنَّا أنا الأمير ومن أصحابي، لو نقضتُم ذلك؛ (**أَهْوَنُ**) حرمةً، (**أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا**) أي: تنقضوا، (**ذِمَّةَ**

(اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ)؛ لأنَّ إبرام العقد بذمَّة اللَّه وذمَّة النبيِّ صلى الله عليه وسلم في حياته أمرٌ عظيمٌ، فبعْد مماته لا يجوز أنْ يقال: ذمَّة نبيِّه؛ وإنَّما يقال: ذمَّة اللَّه - إن قيل - مع أنَّه لا يقال ذلك؛ فلا يقول قائل: ما فعلْناه وذمة اللَّه، أو: أعاهدكم بذمَّة اللَّه؛ لكن يقول: أجعل هذا العهد في ذمتي، وأنَّ أصحابي يوفون به.

فمِن تعظيم اللَّه، وتعظيم رسوله صلى الله عليه وسلم أن لا يُجعل العهد باسمهما؛ وهذا الشاهد من الحديث في الباب.

والأمر الثاني: الحُكم؛ فقال عليه الصلاة والسلام: **(وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ، فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ)** بأن قال أهْل حصنٍ: احكم فينا بحُكم اللَّه، بأنْ نَخرج مثلاً، أو بأنْ تأخذ منا عشرة آلاف ريالٍ - مثلاً - ونحو ذلك؛ قال عليه الصلاة والسلام: **(فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ؛ وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكْ)** أي: أنت الأمير، ولم يقل هنا وأصحابك؛ لأنَّ الحُكم عند الأمير؛ بأنْ يقول مثلاً: حكمتُ عليكم بحرق نخيلكم مثلاً، ولا يقول حكمتُ عليكم بحُكم اللَّه بحرق نخيلكم؛ وهذا من تصحيح الألفاظ.

والعلَّة في ذلك، قال: (فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي) يعني: أيها الأمير، (أَتُصِيبُ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ أَمْ لَا) فلو قلت: حكمتُ عليكم بحُكم اللَّه أنْ تخرجوا العصر، فقد لا يكون هذا حُكم اللَّه؛ لذلك قال: (**فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ، أَمْ لَا**).

فلا تقل مثلاً: بيني وبينكم عهدٌ أنْ أَحكم عليكم بحُكم اللَّه أنَّكم تَمكثون في الجهة الشرقية، وهذا هو حُكم اللَّه؛ لا، لا يقول: هذا حُكم اللَّه؛ وإنما يقول: حكمتُ عليكم أنْ تَمكثوا في الجهة الشرقية مثلاً وهكذا.

فلا يقول حُكم اللَّه، لماذا؟ كما قال عليه الصلاة والسلام: (**فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ، أَمْ لَا**)، فقد يكون حُكم اللَّه أنَّهم يَمكثون في الجهة الغربية مثلاً، أو حُكم اللَّه أنْ يَدفعوا المبلغ المعيَّن لا يَزيدوا عليه أو لا ينقصوا منه؛ فأنت لا تدري هل أصبت حُكم اللَّه فيهم أم لا.

فلو قلتَ مثلاً: وحُكم اللَّه فيكم أنْ يَدفع للمسلِمين كلُّ شخصٍ منكم عشرة آلافٍ في السَّنة، فلا تقل: هذا حُكم اللَّه؛ فقد يكون حُكم اللَّه

أقلَّ مِن هذا المبلغ، أو يكون حُكم اللَّه أكثر من هذا المبلغ؛ لذلك قال عليه الصلاة والسلام: (**فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ، أَمْ لَا**).

فالإسلام أعطاك الحُكم بالجُملة بأخذ الجزية، لكن في تحديد هذا المبلغ وإنزاله على ذلك الشخص، لا تقل: هذا حُكم اللَّه؛ وإنما يكون هذا اجتهاد القائد أو وليِّ الأمر.

وكذلك في الأمور الاجتهادية، فالقاضي لا يقل: حكمتُ عليك بحُكم اللَّه ورسوله أنْ تَدفع لزيدٍ ما يُطالب به، وهو عشرة آلاف ريالٍ مثلاً؛ لأنَّه قد تكون الدعوة كاذبةً، أو كيديَّةً.

فتبيَّن ممَّا سَبق: أنَّ ذمَّة اللَّه وذمَّة نبيِّه عليه الصلاة والسلام لا تُجعل في العهود ولا في المواثيق؛ فذِمَّة اللَّه عز وجل شأنها عظيمٌ، وإنَّما يَجعل الشخص ذمَّته وذمة أصحابه.

وكذا الحاكم ونحو ذلك لا يقل: ما فعلتُه هو حُكم اللَّه أو ما قضيتُه هو حُكم اللَّه؛ وإنَّما يقول: هذا ما حكمتُ به واجتهدتُ فيه ونحو ذلك.

وكذلك المفتي لا يقل: حكمتُ عليك بحُكم اللَّه أنَّ هذا الفعل باطلٌ ونحو ذلك؛ وإنَّما يقول: اجتهدتُ أنَّك لمَّا أكثرتَ مِن الحركة في صلاتك قلتُ أنَّ الصلاة باطلةٌ وهكذا.

***

[٦٤]

بَابُ

مَا جَاءَ فِي الإِقْسَامِ عَلَى اللَّهِ

عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «قَالَ رَجُلٌ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ، فَقَالَ اللَّهُ عز وجل: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَلَّا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ؟! إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ، وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: «أَنَّ القَائِلَ رَجُلٌ عَابِدٌ. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ».

الشَّرْحُ:

قَالَ رحمه الله: (بَابُ مَا جَاءَ فِي الإِقْسَامِ عَلَى اللَّهِ)، قال: (الإِقْسَامِ أي: كلمة أُقسم، (عَلَى اللَّهِ) أي: أنْ يقول الشخص: أقسمتُ عليك يا اللَّه أنْ تدخلني الجَنَّة، أو أقسمتُ عليك يا اللَّه أن تُجنِّبَنِي الفتن، أو أنْ تفعل كذا وكذا ونحو ذلك.

والمصنِّف رحمه الله لم يَذكر حُكم ذلك؛ لأنَّه ينقسم إلى قِسمين:

القِسم الأوَّل: الإقسام على اللَّه؛ حُسنَ ظنٍّ به سبحانه، مِثل: شخص في كربةٍ يقول: أقسمتُ عليك يا ربِّ أن تُنجيني من هذه الكربة؛ قال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ»(١).

وهذا القِسم – وهو الإقسام على اللَّه حُسنَ ظنٍّ فيه – لا يُستحب؛ وإنَّما يباح؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ»(٢) يعني: فيهم مَن لو إذا أقسم، وليس فيه حثٌّ على القَسَم؛ لذلك لم يؤثَر عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه أقسم على اللَّه – فيما أَعلم –.

ومِثل: شخص يقول: أقسمتُ عليك يا ربِّ، أنَّك تَغفر لي ذنبي، أو توفقني ونحو ذلك.

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر﴾ [البقرة: ١٧٨]، رقم (٤٥٠٠)، ومسلمٌ، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب إثبات القصاص في الأسنان، وما في معناها، رقم (١٦٧٥)، من حديث أنسٍ رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

وهذه المقولة مشروطةٌ بأن لا يقولها إلا رجُلٌ تقيٌّ، أمَّا غير التقي؛ فلا يقولها.

فإذا قيل: ما حُكم إقسام الرجُل التقي على اللَّه بحُسن الظنِّ، هل هو مشروعٌ أم لا؟

نقول: لا، الأصل عدم مشروعيته.

فإذا قيل: النبيُّ صلى الله عليه وسلم يقول: «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ، مِنهُم البَرَاءُ»(١).

نقول: هنا أَخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنَّ مِن عباد اللَّه مَن لو أَقسم على اللَّه لأبرَّه، لكن لم يأمره النبي صلى الله عليه وسلم بالإقسام، ولم يُقسِم ذلك الصحابي.

فمِن عباد اللَّه مَن بلغ منزلةً لو أقسم على اللَّه لأبرَّه؛ يعني: لأبرَّ يمينه، لكن ذلك العابد لم يُقسِم على اللَّه عز وجل.

---

(١) رواه الترمذي، أبواب المناقب، باب مناقب البراء بن مالكٍ رضي الله عنه، رقم (٣٨٥٤)، من حديث أنسٍ رضي الله عنه، ولفظه: «كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ مِنْهُمُ البَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ».

إذاً: فلم يُشرَع بأنْ يُقسم العبد التقيُّ على اللَّه بأيِّ أمرٍ، ولو على سبيل حُسن الظن، لكن إنْ فعَله وهو رجُلٌ تقيٌّ؛ نقول: لا بأس، لكن الأصل عدم الشروع فيه.

والقِسم الثاني: إذا كان الإقسام على سبيل التألِّي والترفُّع على اللَّه عز وجل على سبيل الحَجْر، والحُكم الجازم على الشخص بحدوث ذلك الفعل عليه أو له؛ وهذا لا يجوز، ولهذا بوَّب المصنِّف رحمه الله هذا الباب مِن أجْل هذا القِسم.

مِثل قولك: واللَّه لا يَهدي اللَّه هذا الفاسق، أو واللَّه لا يَهدي اللَّه هذا الكافر ونحو ذلك؛ وهذا محرَّمٌ؛ لأنَّه لا يليق بتعظيم اللَّه عز وجل وتبْجِيلِ جَنَابِه سبحانه وتعالى.

ومثال ذلك: أنْ يقول الشخص: واللَّه لا يَغفر اللَّه لزيدٍ، فهو قد حجَّر مغفرة اللَّه بأن لا تَدخل على زيدٍ، وحَكَم حُكماً جازماً بأنَّ اللَّه لن يَغفر لزيد؛ وهذا لا يجوز، لأنه تعدٍّ على مقتضيات الربوبية، وسوء أدَبٍ مع رب العالمين.

فليس للمخلوق أن يَحلِف على الربِّ بأنْ يَفعل كذا وكذا، أو بعدم مغفرته لعباده ورحمته لهم ونحو ذلك.

وكذا لو قال شخص: واللَّه لن يوفَّق هذا الرجُل، فإنْ كان على سبيل الحَجْر، وعلى سبيل الحُكم عليه بأنَّه لن يُوفَّق؛ فهُنا أتى النهي كما في حديث جندبٍ عن مِثل هذه العبارة؛ وهي مِن التألِّي على اللَّه.

والمصنِّف رحمه الله بوَّب في هذا الباب على القِسم الثاني، وهو التألِّي على اللَّه على سبيل الحَجْر، والحُكم على الشخص بهذا الأمر؛ وهذا لا يجوز.

ولم يَذكر نصوص القِسم الأوَّل؛ لأنَّ مقصد المصنِّف رحمه الله بيان ما يُنقِص كمال التوحيد.

والمصنِّف رحمه الله ذَكر نَصَّيْن:

النَّصُّ الأوَّل؛ لبيان تحريم الإقسام على اللَّه من باب التألِّي عليه سبحانه وتعالى.

والنَّصُّ الثاني؛ لبيان تحريم ذلك ولو كان على سبيل الغَيْرَة على المحرَّمات أو الدِّين.

لذا قال: (عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «قَالَ رَجُلٌ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ) هنا على سبيل الحَجر بأنَّ مغفرة اللَّه لن تنال ذلك العبد، وعلى سبيل الجزم أيضاً حَكَمَ

عليه بأنَّ اللَّه لن يَغفر له، وسوف يُدخله النار؛ وهذا فيه تعاظمٌ على اللَّه كأنه يأمر ربَّه بأن لا يَغفر له، أو لن يَغفِر له.

وكذلك لو قال شخصٌ: واللَّه لن يَنجح فلان، أو: واللَّه لن يكون غنياً، وهكذا.

(فَقَالَ اللَّهُ عز وجل: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَلَّا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ) أي: مَن ذا الذي يأمرني ويتكبَّر ويتصرَّف ويَحلف عليَّ، ويظنُّ أنَّ له تصرفاً في تدبير الكون.

(إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ) غَفر لذلك الذي حُلِفَ عليه؛ يعني: الرجُل الفاسق.

فدلَّ على أنَّ الأمر المكروه قد يأتي بخير، فصاحب المعصية هذا سَمع كلاماً لا يُحمد بأنَّ اللَّه لن يَغفر له؛ فأتاه ما لا يَخطر بباله وهو غفران ذنوبه؛ بسبب تألِّي ذلك الرجُل عليه.

قال: (وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: «أَنَّ القَائِلَ رَجُلٌ عَابِدٌ) أي: فكأنه قاله على سبيل الغيرة والحمِيَّة للدين، واللَّه عز وجل قال للنبيِّ صلى الله عليه وسلم: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران:١٢٨]، لمَّا

قال: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ»(١)، فإذا كان اللَّه نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن نفي الفلاح عن قومه؛ فكيف باليمين في ذلك.

يعني: الذي قال واللَّه لا يَغفر اللَّه لفلان هو رجُلٌ عابدٌ، ومع ذلك أُحبِطَ عملُه.

فيجب على المسْلِم أنْ يَحفظ لسانه، وأنْ يَنظر للعاصين بنظر الرحمة، والرأفة، والدعاء لهم؛ لا بالتحجير عليهم، وإبعاد مغفرة اللَّه لهم.

ويدلُّ أيضاً على قُرْب الجَنَّة والنار من الرجُل؛ فالرجل الأول بكلمة سمعها؛ غُفِر له، وهذه الكلمة قد أساءته، ورجل صالح قال تلك الكلمة؛ فسبب تلك الكلمة دخل النار.

فعلى المرء أنْ يَحفظ لسانه؛ فقد تزلُّ به القدم ببعض الكلمات التي لا يُلقِي لها بالاً؛ فتهلكه، حتى ولو كانت على سبيل الغيرة للدين ونحوه.

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب المغازي، باب ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، رقم (٤٠٦٩)، ومسلمٌ، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة أحدٍ، رقم (١٧٩١)، من حديث ابن عمر رضي الله عنها.

(قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ)، وهي: (وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ).

(أَوْبَقَتْ) أَهلكتْ، (دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ) فدلَّ على أنَّ ذلك من كبائر الذنوب؛ لأنَّه قال تلك الكلمة التي كانت سبباً في دخوله النار – والعياذ باللَّه –، وكما قال صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ لَا يَرَى بِهَا بَأْساً، يَهْوِي بِهَا سَبْعِينَ خَرِيفاً فِي النَّارِ»[1]، وفي الحديث الآخر: «أَبْعَدَ مَا بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ»[2].

فيجب على المسْلِم أنْ يَحفظ لسانه، وأن لا يحتقر الآخرين، وإنْ كانوا عصاةً؛ فقد يَغفر اللَّه عز وجل لهم بسبب إحدى المكفِّرات.

لذا من رأى كافراً أو فاسقاً مظهِراً لفسقه الشديد، أو مبتدِعاً داعياً لبدعته؛ لا يجوز أن يتألَّى الشخص في هدايته، أو عدم المغفرة له بالقَسم

(١) رواه أحمد في المسند، رقم (٧٢١٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاريُّ، كتاب الرقاق، باب حفْظ اللَّسان، رقم (٦٤٧٧)، ومسلمٌ، كتاب الزهد والرقائق، باب التكلم بالكلمة يهوي بها في النار، رقم (٢٩٨٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

في ذلك؛ قال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً﴾ [يونس:٩٩].

فتبيَّن ممَّا سَبق: أنَّ الإقسام على اللَّه ينقسم إلى قِسمين:

القِسم الأوَّل: قِسمٌ ممنوعٌ مطلقاً، مثل: ما ساق المصنِّف رحمه الله هذا الباب مِن أجْله، وهو احتقار الآخرين بعدم نيْل مغفرة اللَّه، أو محبته لهم، أو توفيقه على سبيل الحَجْر، وعلى سبيل الجَزم؛ فهذا فيه استخفافٌ بجناب ربوبية اللَّه عز وجل.

والقِسم الثاني: إذا كان من باب حُسن الظنِّ؛ إذا كان مِن رجُلٍ تقيٍّ؛ نقول: جائزٌ، لكن الأصل لا نقول استحباب ذلك ابتداءً.

فيجب على الشخص أن لا يزهو بعمله الصالح، وأن لا يُعجَب به، وأن لا يَنظر إلى العصاة والفسَّاق نظرة ازدراءٍ، واحتقارٍ، واستبعاد مغفرة اللَّه لهم؛ فقد يكونون يَعملون أعمالاً صالحةً في الخفاء؛ تَغفر لهم زلَّاتهم.

وإنَّما الواجب على المسْلِم الطائع تجاه العصاة أنْ يَنصحهم، ويدعو لهم بالهداية والمغفرة ونحو ذلك، لا أنْ يتألَّى على اللَّه عز وجل باستبعاد مغفرة اللَّه، ونوالها لهم.

***

[٦٥]

بَابٌ

لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ

عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رضي الله عنه قَالَ: «جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! نُهِكَتِ الأَنْفُسُ، وَجَاعَ العِيَالُ، وَهَلَكَتِ الأَمْوَالُ؛ فَاسْتَسْقِ لَنَا رَبَّكَ، فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِاللَّهِ عَلَيْكَ، وَبِكَ عَلَى اللَّهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «سُبْحَانَ اللَّهِ! سُبْحَانَ اللَّهِ! فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: وَيْحَكَ! أَتَدْرِي مَا اللَّهُ؟ إِنَّ شَأْنَ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَى أَحَدٍ ...» وَذَكَرَ الحَدِيثَ. رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.

الشَّرْحُ:

قَالَ رحمه الله: (بَابٌ: لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ) (بَابٌ) أي: من الوعيد في ذلك والنهي عنه، وأنه منافٍ لكمال التوحيد؛ لكونه فيه هضمٌ لجناب الربوبية وتنقُّصٌ من الألوهية.

(لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ) يعني: طلبُ شفاعةِ اللَّه، والمراد بالشفاعة: طلبُ الخير للغير.

قال: (**عَلَى خَلْقِهِ**) أي: طلبُ العبد من اللَّه وهو الكبير أنْ يَشفع عند أحدٍ مِن خلْقه؛ ليُلَبِّيَ طلبَ العبد الآخر؛ وهذا أمرٌ محرَّمٌ؛ لأن اللَّه عز وجل شأنه عظيمٌ، وهو كبيرٌ، وطلب استشفاعِ اللَّهِ على خلقه: إنزالٌ من مكانة اللَّه العظيمة إلى الدُّنوِّ، فاللَّه عز وجل لا يُستشفع به على أحدٍ من خلْقه؛ وإنما اللَّه هو الذي يَأمر ويَنهى سبحانه.

ومعنى: (**لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ**) يعني: لا تُطلب شفاعة اللَّه على أحدٍ مِن خلْقه، مثال ذلك في حقِّ المخلوقين: لو ذَهب الطلاب إلى مدير الجامعة، وقالوا له: اشفع لنا عند المعلِّم يَشرح جيداً ولا يغيب، فهل مدير الجامعة يَأمر المعلم أو يَشفع؟! يقول: لو سمحتَ يا معلِّم اشرح جيداً ولا تغيب؟! أو إذا لم يشرح يُبعده عن الجامعة؟! فكذلك الرب عز وجل: لا يُقال يا ربِّ نَطلب منك أن تكون واسطةً بيننا وبين العبد الضعيف.

مثالٌ آخر: لو أنَّ موظفاً نُقل من مكانٍ إلى مكانٍ، فيَذهب زميله ويقول: أنا أشفع يا وزير أنَّك لا تَنقل هذا الرجُل الفلاني؛ أبقه في هذا المكان؛ هذا شيء مقبول لماذا؟ لأنَّ الرجُل الذي شَفع أقلُّ من الوزير؛ لكن لو ذَهب الموظف عند الملِك، وقال: يا ملك اشفع لنا عند الوزير

أن لا ينقل فلاناً، يقول الملك: أنا ما أشفع؛ أنا آمر الوزير أمراً؛ لأني أنا أعلى منه.

فهنا لو قيل - تعالى اللَّه عن ذلك -: يا ربِّ اشفع لي عند فلان أنِّي أَدخل المستشفى مثلاً؛ هذا لا؛ اللَّه أعظم مِن هذا كلِّه؛ لذلك قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ شَأْنَ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ»[١].

وإنَّما رب العالمين هو الذي يَأمر الخلق ولا يشفع عندهم؛ لأنَّه بيده مقاليد السموات والأرض؛ قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

لهذا (**بَابٌ: لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ**) أي: بابٌ لا تُطلب شفاعة اللَّه على أحدٍ مِن خلْقه.

قال: (**عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رضي الله عنه قَالَ: «جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم**) يعني: أصاب الناس قحطٌ؛ فجاء ذلك الأعرابي إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم طالباً منه أنْ يدعو ربه أنْ يغيث العباد

(١) رواه أبو داود، كتاب السُّنَّة، باب في الجهمية، رقم (٤٧٢٦)، من حديث جبير بن مطعمٍ رضي اللَّه عنه.

والبلاد، فقال: يا رسول اللَّه - بدأ يبيِّن له ويشكو حاله - يعني: يا رسول اللَّه أبيِّن لك حالنا؛ لتدعو لنا ربك.

(فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! نُهِكَتِ الأَنْفُسُ) يعني: ضعُفت من شدة الجوع، فما عندنا أكلٌ نأكله؛ فالأرض ما تنبت وقد أجدبت، (وَجَاعَ العِيَالُ) يعني: لا طعام لهم لقلَّة الماء؛ لأنَّ بالماء حياة الناس؛ كما قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [المؤمنون: ٣٠]، فالماء: مادة مُستعذَبة لا لون لها ولا ريح، يُستَمتَع بشُرْبِها، وأحياناً يجعلها اللَّه عز وجل عذاباً، كما أَغرق به فرعون وسبأ وقوم نوحٍ.

قال: (وَهَلَكَتِ الأَمْوَالُ) يعني: الشِّيَاه ونحو ذلك من بهيمة الأنعام؛ لأنه ليس في الأرض نباتٌ فتبقى البهائم على وجْه الأرض؛ وإنَّما هَلكت فماتت.

(فَاسْتَسْقِ لَنَا رَبَّكَ) يعني: اطلب من اللَّه أن يسقيَنا المطر؛ وهذا مشروع أن يَطلب الشخص من رجُلٍ صالحٍ أن يدعوَ لِعموم الناس؛ كما

طَلب عمر بن الخطاب رضي الله عنه مِن عمِّ النبيِّ صلى الله عليه وسلم العبَّاس رضي الله عنه أنْ يدعوَ لَهم بنُزول الغيث(١).

فكان الصحابة رضي الله عنهم مثل هذا الأعرابي يأتي إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم يَطلب منه أن يدعو ربَّه؛ لأنَّ دعوة الأنبياء مستجابةٌ، فقوله: (**فَاسْتَسْقِ لَنَا رَبَّكَ**) في حياته عليه الصلاة والسلام؛ جائز، أمَّا بعد مماته لا يجوز؛ لأنه قد مات عليه الصلاة والسلام.

قوله: (**فَاسْتَسْقِ لَنَا رَبَّكَ**) عبارةٌ سليمةٌ.

وقولُه: (**فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِاللَّهِ عَلَيْكَ**) نستشفع اللَّه عندك؛ هذه العبارة غير سليمةٍ، هذه هي الكلمة المحذورة، ولا تجوز؛ أي: نَطلب من اللَّه أنْ يشفع لنا عندك يا محمد أنْ تدعو ربك لنا؛ يعني: كأنا نقول: يا ربِّ اشفع لنا عند محمدٍ أنه يدعوك؛ فهذا ما يجوز؛ لأنَّه طلبٌ من الأعلى، وإذا طُلِب من الأعلى لا تُطلب منه الشفاعة وإنَّما يطلب منه الأمر، واللَّه عز وجل سبحانه وتعالى لا يَشفع عند النبي صلى الله عليه وسلم ليفعل

(١) رواه البخاريُّ، أبواب الاستسقاء، باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا، رقم (١٠١٠)، من حديث أنس بن مالكٍ رضي اللَّه عنه.

كذا وإنَّما يأمره؛ قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة:٦٧].

وقولُه: (وَبِكَ عَلَى اللَّهِ) أي: نستشفعك عند اللَّه؛ وهذا لا بأس به إذا كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم حيّاً؛ يعني: قالوا له: يا رسول اللَّه أنت حيٌّ، ولك مكانةٌ عند اللَّه، ونَطلب منك أنَّ اللَّه يُنْزِل علينا الغيث؛ وهذا لا بأس به، نطلب شفاعتك عند اللَّه أنَّ اللَّه يغيثنا.

أيُّهما أعلى منزلةً ودرجةً ومقاماً؟ ربُّ العالمين سبحانه لا شك، وهذه العبارة سليمةٌ؛ لأنَّ النبي صلى الله عليه وسلم يَشفع عند الرب العظيم، من الأدنى إلى الأعلى؛ وهذا شيءٌ مقبولٌ.

(**وَبِكَ عَلَى اللَّهِ**) فهذا في حياته، أما بعد ممات النبيِّ صلى الله عليه وسلم؛ لا يُدعى النبي صلى الله عليه وسلم؛ وإنَّما المشروع هو أنْ يصلَّى ويسلَّم عليه، عليه الصلاة والسلام.

(**فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: سُبْحَانَ اللَّهِ! سُبْحَانَ اللَّهِ!**) يعني: أُنَزِّهُ اللَّه عن كلِّ عيبٍ ونقصٍ، فهذا نقصٌ في حقِّ جنابِ اللَّه، (**فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ**) يعني: كرَّر التسبيح، وهذا يدلُّ على أنَّ التسبيح يُشرع إذا سَمِع

الإنسان أو رأى أمراً منكَراً، وهذا يدلُّ على أنه في حال التعجب يُشرع للمرء أن يقول: سبحان اللَّه سبحان اللَّه.

ووَرد عن النبي صلى الله عليه وسلم أيضاً أنه يكبِّر إذا رأى أمراً منكَراً أو متعجَّباً منه؛ فيقول: «اللَّه أكبر»[1]، فهنا قال: (**سُبْحَانَ اللَّهِ! سُبْحَانَ اللَّهِ!**).

(**حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وَجُوهِ أَصْحَابِهِ**) يعني: من الكراهة لتلك اللَّفظة والخطأ فيها عَرَفوا أنها كلمةٌ منكَرة.

(**ثُمَّ قَالَ: وَيْحَكَ!**) كلمة تعجبٍ أو كلمة زجرٍ وتعنيفٍ؛ أي: ما بالُك؟ أو: ويلك!

(**أَتَدْرِي مَا اللَّهُ؟**) يعني: هل تَعرف ما هي جلالة وعظمة اللَّه؛ هذا استفهام للتعظيم؛ يعني: هل تَعرف أن اللَّه كبيرٌ؟ ولا يشفعُ عند أحدٍ من خلْقه؛ وإنَّما يأمرُهم وينهاهُم؟

---

(١) مثل حديث: «اللَّهُ أَكْبَرُ! إِنَّهَا السُّنَنُ». رواه أحمد في المسند، رقم (٢١٨٩٧)، من حديث أبي واقدٍ اللَّيثيّ رضي اللَّه عنه.

(إِنَّ شَأْنَ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَى أَحَدٍ. . .»)
لا من الملائكة ولا من الأنبياء ولا غيرهم.

يعني: أعظم مِن أنَّكم تَطلبون منه أنْ يَشفع عندي؛ فشأنه عظيمٌ، فهو الأعلى، فلا تَطلبون من الأعلى إلى الأدنى؛ وإنما الشفاعة من الأدنى إلى الأعلى، يعني: أنا أشفع لكم عند اللَّه في حياتي بأن اللَّه يغيثكم.

أمَّا الرب عز وجل تقولون: يا رب اشفع لنا عند محمد عليه الصلاة والسلام؛ فهذا لا يجوز؛ لأن اللَّه هو الأعظم: (**إِنَّ شَأْنَ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَى أَحَدٍ من خلقه**) هنا الشاهد؛ يعني: إنَّ اللَّه لا يكون شافعاً عند أحدٍ من خلْقه؛ بل هو الذي يأمر الخلْق، وهو الذي ينهاهم، وهو الذي يدبر شؤونهم وأحوالهم.

فلمَّا كان طلبُ الشفاعة من اللَّه على خلْقه فيه تنقُّصٌ من جناب الربوبية؛ لأنَّ مقام اللَّه عظيم سبحانه؛ ساق المصنِّف رحمه الله هذا الباب في كتاب التوحيد؛ لكونه منافٍ لكمال التوحيد الواجب لِمَا فيه من هضمٍ للربوبية، وقِلَّة تعظيمٍ للَّه؛ وهذا قدحٌ في التوحيد؛ فالشفاعة لا تكون إلا من الأدنى إلى الأعلى.

قال: (وَذَكَرَ الحَدِيثَ. رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ).

❊❊❊

[٦٦]

بَابُ

مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم حِمَى التَّوْحِيدِ، وَسَدِّهِ طُرُقَ الشِّرْكِ

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشِّخِّيرِ رضي الله عنه قَالَ: «انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فَقُلْنَا: أَنْتَ سَيِّدُنَا، فَقَالَ: السَّيِّدُ اللَّهُ، قُلْنَا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلاً، وَأَعْظَمُنَا طَوْلاً، فَقَالَ: قُولُوا بِقَوْلِكُمْ أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ.

وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه: «أَنَّ نَاساً قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! يَا خَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا! وَسَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِنَا! فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ! قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللَّهُ عز وجل» رَوَاهُ النَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ.

الشَّرْحُ:

قَالَ رحمه الله: (بَابُ مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم حِمَى التَّوْحِيدِ وَسَدِّهِ طُرُقَ الشِّرْكِ).

قوله: (بَابُ مَا جَاءَ) أي: من النُّصُوص، (فِي حِمَايَةِ) أي: في حفظ وحراسة (النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم حِمَى) (الحِمى) في الأصل هو المكان الرَّحْب الواسع قبل الدار وقبل المسكن، فهو جانب الشيء الأبعد، فمثلاً: يُبنى مسجدٌ ويُجعل فضاء عن الطريق العام فهذا الفضاء يسمى حمىً.

(حِمَى التَّوْحِيدِ) أي: مسائل التوحيد ممَّا يَقدح فيه أو يضاده، (وَسَدِّهِ) أي: وإغلاقه، (طُرُقَ الشِّرْكِ) وذلك بالنهي عن جميع وسائل الشرك الموصِلة إليه.

والفرْق بين هذا الباب والباب الثاني والعشرين، ونَصُّه: **(بَابُ مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ المُصْطَفَى صلى الله عليه وسلم جَنَابَ التَّوْحِيدِ وَسَدِهِ كُلَّ طَرِيقٍ يُوصِلُ إِلَى الشِّرْكِ)** الفرق بينهما بأمرين:

الفرق الأوَّل: أنَّ ذاك الباب قال فيه: **(جَنَابَ)** أي: الجانب القريب من التوحيد، أمَّا هنا - في هذا الباب - وقد فَقه طالب العِلم التوحيد فيسدُّ ليس فقط الجانب؛ بل حتى الحمى البعيد.

فكأنه يقول لك: هناك احفظ ما قد يَقدح في الشيء القريب من التوحيد، أما هنا فأنت الحمد للَّه تحقَّق توحيدُك؛ فالآن تَوسَّع واحفظ

أيضاً الأمور البعيدة التي قد تؤدي إلى القدْح في التوحيد؛ حتى يكون توحيدك مصاناً من بعيدٍ؛ لذلك قال هناك: (**بَابُ مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ الـمُصْطَفَى صلى الله عليه وسلم جَنَابَ التَّوْحِيدِ**): جانب، أما هنا قال: (**حِمَى التَّوْحِيدِ**) وهو الشيء الواسع على الأصل وهو حماه؛ فهنا أوسع من ذلك الباب، هنا في الحمى، وهناك في الجانب.

والفرق الثاني بينهما: أنَّ ذاك الباب في حماية التوحيد من وسائل الشرك الفعليَّة كزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم كما سَبق هناك، وأمَّا هذا الباب فهو حماية حمى التوحيد من الألفاظ القوليَّة.

فهناك سدٌّ لكل طريقٍ يوصل إلى الشرك بالأفعال؛ لذلك ذَكر هناك حديث أبي هريرة، قول النبي عليه الصلاة والسلام: (**لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُوراً، وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيداً**)، فهذا فعلٌ، وكذلك حديث علي بن الحسين لمَّا رأى رجُلاً يأتي إلى فرجةٍ عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم[١]؛ فهذا فعلٌ، فالنبي صلى الله عليه وسلم سدَّ كلَّ طريق يوصل إلى الشرك بالأفعال، وذكر ذلك المصنِّف في ذلك الباب السابق.

(١) رواه ضياء المقدسي في المختارة، رقم (٤٢٨). (٢/ ٤٩).

وهنا سدَّ طرق الشرك التي توصل إليه بالأقوال؛ لذلك لمَّا قالوا: (**أَنْتَ سَيِّدُنَا وَابْنُ سَيِّدِنَا**)، وقالوا له: (**أَفْضَلُنَا فَضْلاً، وَأَعْظَمُنَا طَوْلاً**)، و(**خَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا!**)؛ فهذه هنا من وسائل الشرك بالأقوال.

فكلُّ طريقٍ يوصل إلى الشرك بالقول سدَّه النبيُّ صلى الله عليه وسلم، كما سدَّ في ذلك الباب كلَّ فعلٍ يوصل إلى الشرك؛ فيكون المصنِّف رحمه الله في كتابه التوحيد قد ذَكر وسائل الشرك الفعليَّة والقوليَّة.

فيَذكر لك بعض الأشياء التي حذَّر منها النبي صلى الله عليه وسلم التي قد تَقدح في التوحيد، وتوصل العبد إلى أمورٍ مخلَّةٍ في توحيده؛ بل إضافةً إلى حفْظ النبيِّ صلى الله عليه وسلم لحمى التوحيد؛ فقد سدَّ كلَّ طريقٍ يوصل إلى الشرك.

فحفْظ التوحيد، وما قد يوصل إليه من أمورٍ مُرِيبَةٍ من الشبهات؛ سدَّها النبي صلى الله عليه وسلم، فبلَّغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، ونصَح للأمَّة فكلُّ ما يخلُّ في توحيد العبد، أو يؤثر عليه ممَّا يورد عليه من الشرك؛ فقد قطَعه النبيُّ صلى الله عليه وسلم، سواءً بالأقوال أو بالأفعال.

وكلُّ ذلك للأمر العظيم وهو التوحيد، وللذنْب الكبير وهو الشرك؛ لذلك اللَّه يقول: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ [البقرة: ١١٩]؛ تُبَشِّر مَن وحَّد بالجَنَّة، وتُنذر من وَقع في الشرك بالنار، فكانت دعوته بهذين؛ واللَّه عز وجل يقول: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

فيحافظ العبد على التوحيد، ويخاف عليه من الشرك؛ لذلك قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم:٣٥]، فهو موحِّدٌ عليه السلام؛ بل إمام الموحِّدين، ومع ذلك دعا ربَّه أن لا يَدخل في توحيده شيءٌ ممَّا يوقع فيه من الخلل، من عبادة الأصنام، فقال: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم:٣٥]، أي: اجعلني أنا وأولادي في جانبٍ، والأصنام في جانبٍ آخر بعيدةً عنا لا تؤثِّر علينا؛ كلُّ ذلك في خطر الشرك.

فساق رحمه الله هذا الباب في كتاب التوحيد؛ لبيان أنَّ الغلوَّ في الألفاظ ممَّا يَقدح في كمال التوحيد.

وساق المصنِّف رحمه الله **الحديث الأوَّل**؛ لبيان النهي عن الغلوِّ في الألفاظ ومِن ذلك كلمة السَّيِّد.

وساق رحمه الله **النَّصَّ الثاني**؛ لبيان اللَّفظ الذي يحبُّه النبي صلى الله عليه وسلم ولا غلوّ فيه وهو: (**عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ**)، وهو الذي يقوله المصلِّي في كل تشهُّده، فمن يحبُّ النبي صلى الله عليه وسلم حقّاً لا يُبعد عنه لقب النبوة والعبودية، ويستبدلها بالسيادة، وهي مرتبة أقلُّ من النبوَّة والعبوديَّة والرِّسالة.

قال: (**عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشِّخِّيرِ رضي الله عنه قَالَ: ٱنْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ**) وفد بني عامر بن صَعْصَعَة، وقد أتوا من قبَل نجد، (**إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فَقُلْنَا: أَنْتَ سَيِّدُنَا**) السَّيِّد: مأخوذ من السُّؤدَد، وهو الكمال في الشيء وما يُرجع إليه.

فلمَّا قَدموا على النبي صلى الله عليه وسلم ظنُّوه كبقية الرؤساء والعظماء يزيِّنون له القول، ويحسِّنونه له فقالوا له: (**أَنْتَ سَيِّدُنَا**).

فأَنكر النبيُّ صلى الله عليه وسلم عليهم تلك الكلمة، فقال: (**السَّيِّدُ اللَّهُ**) أي: أنَّ كمال السُّؤدَد هو للَّه سبحانه وتعالى؛ فلا تغلوا فيَّ بهذا اللَّفظ؛ فلذا كره النبيُّ صلى الله عليه وسلم أن يُقال له: السيد، مع أنَّه عليه

الصلاة والسلام قال: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ»(١)؛ وهذا من باب الشجاعة والإخبار منه عليه الصلاة والسلام، وقال عن سعد بن معاذٍ رضي الله عنه: «قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ»(٢).

فدلَّ على أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم لا يحبُّ ذكْر هذه الكلمة، كما سيأتي أيضاً في الحديث الآخر، فأنكَر عليهم النبي صلى الله عليه وسلم مع أنه هو الحق، هو سيِّد البشر عليه الصلاة والسلام؛ لكن تعظيماً لجناب اللَّه لمَّا قيل له: **(أَنْتَ سَيِّدُنَا)**؛ قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم تأدُّباً مع جناب اللَّه: **(السَّيِّدُ اللَّهُ)** تبارك وتعالى، فأنكَر عليهم تلك المقالة، وإن كان يصحُّ إطلاقها عليه، عليه الصلاة والسلام.

---

(١) رواه مسلمٌ، كتاب الفضائل، باب تفضيل نبيِّنا صلى اللَّه عليه وسلم على جميع الخلائق، رقم (٢٢٧٨)، من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه.

(٢) رواه البخاريُّ، كتاب الاستئذان، باب قول النبيِّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم: «قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ»، رقم (٦٢٦٢)، ومسلمٌ، كتاب الجهاد والسير، باب جواز قتال مَن نقَض العهد، وجواز إنزال أهل الحصن على حُكم حاكمٍ عدلٍ أهلٍ للحُكم، رقم (١٧٦٨)، من حديث أبي سعيدٍ رضي اللَّه عنه.

ولمَّا أَنكر عليهم تلك الكلمة أبدلوها بكلماتٍ أُخَر، قال: (قُلْنَا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلاً) يعني: أفضلنا خيراً، (وَأَعْظَمُنَا طَوْلاً) يعني: أكثرنا خيراً وبركةً، وأعظمنا غنىً ومنزلةً ومكانةً ونحو ذلك، فهُمَا من الكلمات المترادِفَة.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم منكِراً عليهم ذلك الغلوَّ في اللَّفظ: (فَقَالَ: قُولُوا بِقَوْلِكُمْ) يعني: لا تَتَذَوَّقُون في الكلام، ولا تبالغون فيه؛ كونوا معتدلين في القول من غير زيادةٍ فيه.

(أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ) يعني: بحذف بعض الأقوال التي تقولونها ممَّا فيه مبالغة؛ يعني: يكفيكم أنَّكم تقولون: يا رسول اللَّه.

(وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ) أي: لا يجعلنكم جِرْياً له؛ أي: جنداً له في هذا الباب؛ لأنه يحبُّ الغلوَّ في المخلوقين ليوصِلهم إلى الشرك.

وهذا يدلُّ على أنَّه لا يجوز مدْح الرجُل في وجهه وإن كان حقّاً، وقد حذَّر النبيُّ عليه الصلاة والسلام مِن ذلك، فقال: «إِذَا رَأَيْتُمُ المَدَّاحِينَ،

فَاحْثُوا فِي وُجُوهِهِمِ التُّرَابَ»(١)، وفي الصحيحين(٢) لمَّا مدحَ رجُلٌ رجُلاً آخر عند النبيِّ صلى الله عليه وسلم؛ قال له: «وَيْلَكَ قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ»؛ لِمَا يَحصل فيه من الافتتان، فإذا كان يُخشى على المستمِع للمدح من الفتنة وتغيُّر الحال ونحو ذلك؛ فلا يجوز في وجهه المدح، وإذا كان لا يُخشى منه ذلك؛ فلا بأس.

والدليل على ذلك أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «أَبُو بَكْرٍ فِي الجَنَّةِ، وَعُمَرُ فِي الجَنَّةِ، وَعَلِيٌّ فِي الجَنَّةِ، وَعُثْمَانُ فِي الجَنَّةِ»(٣)، وذكر العشرة المبشَّرين، وهذا من أعظم الثناء في الوجه، وكون الشخص يقول لك: أنت في الجَنَّة؛ ما بعد هذا الثناء ثناء، فمعناه: أنت الرجُل المتَّقي الصالح الذي تفضَّل اللَّه عليك بدخول الجَنَّة.

---

(١) رواه مسلمٌ، كتاب الزهد والرقائق، باب النهي عن المدح، إذا كان فيه إفراطٌ وخيف منه فتنةً على الممدوح، رقم (٣٠٠٢)، من حديث المقداد رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري، كتاب الشهادات، باب إذا زكى رجُلاً رجُلاً كفاه، رقم (٢٦٦٢)، مسلمٌ، كتاب الزهد والرقائق، باب النهي عن المدح، إذا كان فيه إفراطٌ وخيف منه فتنةً على الممدوح، رقم (٣٠٠٠)، من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

(٣) رواه أحمد في المسند، رقم (١٦٢٩)، من حديث سعيد بن زيدٍ رضي اللَّه عنه.

فإذا كان الشخص يُخشى عليه من الفتنة؛ لا يجوز أنْ يُمدح في الوجه، وإذا كان لا يُخشى عليه من الفتنة مِثل ما أثنى النبي عليه الصلاة والسلام على الصحابة الذين هم في الجَنَّة؛ فلا بأس به.

والإنسان يَحذر أنْ يَمدح الآخرين في الوجه، وكذلك الممدوح لا يستفيد من الثناء؛ وإنَّما يستفيد مِن نصْح الناس له؛ فهو يستفيد من النقد، ولا يستفيد من المدح؛ لأنَّ المدح قد يضره، أما النقد إذا كان قلب المستمِع سليماً؛ ينتفع به لتصحيح أخطائه، وقبول النَّصِيحة.

قال: (رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ).

ثُم بعد ذلك قال: (وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه: «أَنَّ نَاساً قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! يَا خَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا! وَسَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِنَا!) أي: أنَّهم غلَو في الألفاظ، وإنْ كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم كذلك، فهو السيد وهو الخير؛ لكن أغلق باب الغلو فيه بالألفاظ؛ (فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ! قُولُوا بِقَوْلِكُمْ) أي: المعتاد مِن غير غلوٍّ، (وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ) أي: لا يجعلنَّكم متَّبِعين لهَوَاكُم؛ فتغلوا فيَّ بمثل هذه الألفاظ التي يكون فيها شيءٌ من المبالغة، وقد لا يصح في القلب ما ظهر في القول من المدح في الآخرين.

ثُم بعد ذلك بيَّن عليه الصلاة والسلام اللَّفظ الذي يحبُّه، فقال: (أَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ) فكَرِه عليه الصلاة والسلام أن يلقَّب بالسيِّد، وبيَّن ما هو اللَّفظ الذي يحبُّه؛ وهذا من تواضعه عليه الصلاة والسلام أنَّه سمَّى نفْسه بما سمَّاه به أهله؛ فقال: (**أَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ**)؛ فقولوا عبد اللَّه ورسوله، وبهذين اللَّفظين ناداه اللَّه عز وجل فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧]، وأشار إليه في قوله سبحانه: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء:١].

والغلوُّ بالألفاظ في النبيِّ صلى الله عليه وسلم خاصَّةً؛ ذَكر المصنِّف بأنَّها تُنقِص كمال التوحيد، فعلى العبد أن لا يزيد في الألفاظ، وأن لا يغلو فيها.

ثُم بيَّن النبيُّ صلى الله عليه وسلم العلة في ذلك، فقال: (مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي) يعني: التي أنزله اللَّه عز وجل إياها، فمنزلته العبودية والرسالة وكون النبيِّ صلى الله عليه وسلم يوصَف بالعبودية والرسالة؛ هذه من أعظم الأوصاف التي وصَفه اللَّه بها، فكونه (**عَبْدُ**) يعني: متعبِّدٌ للَّه؛ يعني: أنت المتعبِّد للَّه؛ فهذا الوصف مدحٌ عظيم، (**وَرَسُولُهُ**) يعني: أنت الذي يوحَى إليك بالوحي؛ فهذا مدحٌ كبيرٌ للنبيِّ

صلى الله عليه وسلم، ولا يزاد عن ذلك؛ مِثل الأقوال التي فيها إطراءٌ للنبيِّ عليه الصلاة والسلام فضلاً عن الغلوِّ فيه؛ فهو من أبواب الشرك.

فلمَّا كانت مِثل هذه الأقوال تؤدِّي بالعبد إلى رفْع النبيِّ عليه الصلاة والسلام فوق منزلته وهي العبودية إلى جعْله في منزلة الألوهية؛ قطَع النبيُّ صلى الله عليه وسلم كلَّ طريقٍ يوصل إلى مِثل تلك الأقوال التي قد تَقدح في توحيد العبد.

فتبيَّن ممَّا سَبق: أنَّ مِن نصْح النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنْ بيَّن لأمَّته التوحيد، وأيضاً أَغلق عليهم كلَّ طريقٍ يوصل إلى الشرك ليفسد عليهم توحيدهم، ومن ذلك: تصحيح الألفاظ، وعدم الغلو فيها؛ فنهى عليه الصلاة والسلام مَن زاد في الكلام ووصَفه بأنه سيِّدٌ، مع أنَّه وصْف حقٍّ له عليه الصلاة والسلام؛ لكن لقطْع هذا الطريق عليهم، وكذلك نهاهم لمَّا قالوا له: (**يَا خَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا!**)، ولمَّا قالوا له: (**وَأَفْضَلُنَا فَضْلاً، وَأَعْظَمُنَا طَوْلاً**) فنهاهم عن ذلك، وقال: (**قُولُوا بِقَوْلِكُمْ أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ**).

فالمسْلِم لا يَتكلَّف في الأقوال ولا يتكلَّف في الأفعال مع الآخرين، ولا يَرفع الناس فوق منزلتهم، ولا يَهْضِمُهُم حقَّهم؛ وإنما يكون معتدِلاً موقِّراً لهم مبجِّلاً لهم، لا رافعاً لهم فوق منزلتهم التي أُنزلوا فيها.

ويدلُّ أيضاً على تواضع النبيِّ عليه الصلاة والسلام؛ تواضعه في نفْسه، وتواضعه مع ربِّه؛ فتواضعه في نفسه؛ حيث قال: **(أَنَا مُحَمَّدٌ)**، وتواضعه مع ربِّه، وتعظيمه لجنابه جلَّ وعلا؛ أنْ قال: **(مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللَّهُ عز وجل» رَوَاهُ النَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ)**.

فيجب على العبد أنْ يحافظ على التوحيد؛ لأنه أغلى ما يَملك في هذه الدنيا، وأعظم ما تتوسَّل به إلى ربك من الأعمال الصالحة هو التوحيد، فحافظ عليه من كل ما يَشُوبُه من الشرك ومن البدع ومن المعاصي، وليَكُن الشخص داعياً ربه عز وجل أنْ يَحفظ له دينه وتوحيده؛ ليلقى ربَّه وهو من عباده الموحِّدين.

***

[٦٧]

بَابُ

مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تعَالَى:

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ﴾ الآيَةَ

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: «جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الأَحْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الخَلَائِقِ عَلَى إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ؛ تَصْدِيقاً لِقَوْلِ الحَبْرِ.

ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ الآيَةَ».

وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: «وَالجِبَالَ وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ، فَيَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَنَا اللَّهُ».

وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ: «يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الخَلْقِ عَلَى إِصْبَعٍ» أَخْرَجَاهُ.

وَلِمُسْلِمٍ: عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما مَرْفُوعاً: «يَطْوِي اللَّهُ السَّمَوَاتِ يَوْمَ القِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ اليُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ الجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ المُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي الأَرَضِينَ السَّبْعَ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ الجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ المُتَكَبِّرُونَ؟».

وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرَضُونَ السَّبْعُ فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ؛ إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ».

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي يُونُسُ، أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ، قَالَ: قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: حَدَّثَنِي أَبِي، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ فِي الكُرْسِيِّ؛ إِلَّا كَدَرَاهِمَ سَبْعَةٍ أُلْقِيَتْ فِي تُرْسٍ».

قَالَ: وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ رضي الله عنه: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «مَا الكُرْسِيُّ فِي العَرْشِ؛ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ أُلْقِيَتْ بَيْنَ ظَهْرَيْ فَلَاةٍ مِنَ الأَرْضِ».

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: «بَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَالَّتِي تَلِيهَا خَمْسُ مِئَةِ عَامٍ.

وَبَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ خَمْسُ مِئَةِ عَامٍ.

وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالكُرْسِيِّ خَمْسُ مِئَةِ عَامٍ.

وَبَيْنَ الكُرْسِيِّ وَالماءِ خَمْسُ مِئَةِ عَامٍ.

وَالعَرْشُ فَوْقَ الماءِ.

وَاللَّهُ فَوْقَ العَرْشِ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ» أَخْرَجَهُ ابْنُ مَهْدِيٍّ: عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ، عَنْ عَاصِمٍ، عَنْ زِرٍّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ.

«وَرَوَاهُ بِنَحْوِهِ المَسْعُودِيُّ: عَنْ عَاصِمٍ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه» قَالَهُ الحَافِظُ الذَّهَبِيُّ، قَالَ: «وَلَهُ طُرُقٌ».

وَعَنِ العَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «هَلْ تَدْرُونَ كَمْ بَيْنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ؟ قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمْسِ مِئَةِ سَنَةٍ.

وَمِنْ كُلِّ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِ مِئَةِ سَنَةٍ.

وَكِثَفُ كُلِّ سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِ مِئَةِ سَنَةٍ.

وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالعَرْشِ بَحْرٌ، بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلَاهُ كَمَا بَيْنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ.

وَاللَّهُ تَعَالَى فَوْقَ ذَلِكَ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ» أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ.

وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

الشَّرْحُ:

قَالَ رحمه الله: (بَابُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الآيَةَ) هذا هو الباب الأخير من أبواب كتاب التوحيد، التي ساقها المصنِّف رحمه الله في هذا المصنَّف العظيم الجليل المفيد غزير الفائدة المبارَك، وضَعه؛ ليكون شاملاً – أي: هذا الكتاب – لجميع أنواع التوحيد الثلاثة.

فهذا الباب في توحيد الأسماء والصفات، وذَكر أيضاً في الأسماء والصفات: (بَابُ مَنْ جَحَدَ شَيْئاً مِنَ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ)، وذَكر أيضاً (بَابُ قَولِ اللَّهِ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ الآيَةَ).

وأكثرَ مِن ذكْر توحيد الألوهية؛ لكثرة وقوع الشرك فيه بخلاف توحيد الربوبية، وضمَّن ما بين التوحيدين توحيد الربوبية؛ الذي هو أصل أنواع التوحيد الثلاثة، فالأصل توحيد الربوبية فمَن أَفرد اللَّه في أفعاله؛ وَجب عليه أنْ يثبت الأسماء والصفات كما يليق بجلاله سبحانه وعظمته، ومن أثبت الربوبية استَلزم أن لا يصرف العبادة إلا له وحْده عز وجل.

فكان هذا الكتاب المبارَك - وهو: كتاب التوحيد للإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله - شاملاً لجميع أنواع التوحيد الثلاثة، وختَمه بهذا الباب؛ ليبيِّن لك أنَّ بعض الناس لم يُقدِّروا اللَّه حق قدره؛ فوَقعوا في الشرك، وهَضموا جناب الربوبية، وتنقَّصوا الألوهية، تعالى اللَّه عن ذلك.

فهو لمَّا ساق المخالفات التي يقع فيها بعض الناس قال: يقعون في ذلك، وما قدَروا اللَّه حقَّ قدْره، فلو قَدَروا اللَّه حقَّ قدْره لَمَا وَقعوا فيما وَقعوا فيه من المخالفات المنهيِّ عنها؛ من الشرك، أو من وسائل الشرك، أو من البدع، أو من المعاصي.

وهذا الكِتاب ذَكر فيه المصنِّف رحمه الله الشبهات التي تَرِد على العقيدة، ولم يَذكر فيه الشهوات مثل الزنا والسرقة وشرْب الخمر ونحو ذلك، فاقتصر المصنِّف على ما وَقع فيه الناس في باب الشبهات، وبيَّنها بالأدلَّة من الكِتاب والسُّنَّة؛ فقال في هذا الباب الأخير: (بَابُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الآيَةَ).

وساقه المصنِّف رحمه الله في كِتَاب التوحيد؛ لبيان أنَّ المسْلِم إذا حقَّق ما ذَكره المصنِّف في كِتَاب التوحيد مِن أبوابٍ وابتَعد عن قوادحه؛ يكون بإذن اللَّه قد قَدَرَ اللَّه حقَّ قدره؛ لأنَّ المشركين لمَّا لم يُحقِّقوا التوحيد؛ لم يَقدُروا اللَّه حقَّ قدره؛ أي: لم يعظِّموه حقَّ تعظيمه وتقديره وتبجِيلِه وتوحيده، وأعظم تعظيمٍ للَّه إفراده بالعبادة، وأعظم تنقُّصٍ للَّه وهضمٍ لربوبيته هو الشركُ.

وختم المصنِّف رحمه الله كِتاب التوحيد بهذا الباب؛ تفاؤلاً بأنَّ مَن يَحفظه، ويَفهمه؛ بإذن اللَّه يكون قد بَلغ المنزلة العالية في توحيد اللَّه وتعظيمه.

والمصنِّف رحمه الله ذَكر في هذا الباب عشرة نصوصٍ:

النَّصُّ الأوَّل – (﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ**﴾) –؛ لبيان أنَّ قَدْرَ اللَّه عظيمٌ، وأنَّ المشرِكين لم يَقدروه حقَّ قدْره.

النَّصّ الثاني؛ لبيان (**أَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ**...) إلى آخره.

النَّصُّ الثالث؛ لبيان أنَّ الجبال والشجر على إصبعٍ وليس فقط الشجر.

والنَّصُّ الرابع؛ لبيان أنَّ الماء والثرى على إصبعٍ، وإنْ كان المصنِّف رحمه الله قد ذَكر في أوَّل الحديث أنَّ الماء والثَّرى على إصبعٍ؛ لكن فيه وهمٌ سيأتي بيانه.

والنَّصُّ الخامس؛ لبيان أنَّ اللَّه يطوي السموات السبع ثم يأخذهنَّ بيمينه، ويطوي الأرضين السبع ثم يأخذهنَّ بشماله.

والنَّصُّ السادس؛ لبيان أنَّ السموات السبع والأرضين السبع في كفِّ الرحمن كخَرْدَلَة.

والنصُّ السابع؛ لبيان السماوات السبع في الكرسي.

والنَّصُّ الثامن: الكرسي في العرش.

والنَّصُّ التاسع: أنَّ اللَّه فوق العرش.

والنَّصُّ العاشر: أنَّ اللَّه لا يَخفى عليه شيءٌ من أعمال الناس ومطَّلعٌ عليهم.

وخَتْم المصنِّف رحمه الله كتابه آخر حديثٍ؛ لبيان أنَّ اللَّه مطَّلِعٌ على الموحِّد ليُثِيبَه عليه، ومطَّلعٌ على المشرِك وسيحاسبه على فعْله.

والمصنِّف رحمه الله معروفٌ بدقَّة التصنيف وحُسنه.

النَّصُّ الأوَّل، قال: (﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ﴾) أي: وما قدر المشركون اللَّه حقَّ قدْره، فما عَظموه حقَّ تعظيمه، وما عَبدوه حقَّ عبادته، وما صَرفوا له العبادة كما أمَر اللَّه عز وجل؛ فوَقعوا فيما نُهوا عنه.

فدلَّ على أنَّ المشرِك لا يعظِّم اللَّه، وأنَّ الذي يعظِّمه هو الموحِّد (﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾)، كما سيأتي في تفسير هذه الآية، بقول النبي صلى الله عليه وسلم أنه يطوي الأرض ثُم يَأخذهنَّ بشماله، ثم يقول: أنا الملِك، أين الجَبَّارون، أين المتكبِّرون.

(﴿وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾) كما سيأتي أيضاً في حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّ اللَّهُ يَطْوِي السَّمَوَاتِ يَوْمَ القِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ اليُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ الجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ المُتَكَبِّرُونَ؟).

ثُم قال في النَّصِّ الثاني: (عَنِ ابْن مَسْعُودٍ رضي الله عنه: قَالَ: «جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الأَحْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم) والحَبر هو العالِم

من اليهود؛ لأنَّ اليهود كانوا يَسكنون في المدينة، وكانوا إذْ ذاك عندهم علمٌ؛ لذلك قال: **(فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ!)** هنا إنكارٌ منهم لنبوة ورسالة النبي عليه الصلاة والسلام؛ فلم ينادوه بلقب الرسالة ولا النبوة؛ وإنما نادوه باسمه المجرَّد يا محمد، وهذه طبيعة اليهود الذين يأتون النبيَّ صلى الله عليه وسلم فلا ينادونه بـ «يا رسول اللَّه»، وإنما يقولون: **(يَا مُحَمَّدُ)** إنكاراً منهم للرسالة.

(إِنَّا نَجِدُ) أي: في التوراة ممَّا أَخذوه من العِلم، وهذا يدلُّ على أنَّ اليهود عندهم عِلمٌ، فذكَر هذا اليهوديُّ شيئاً ممَّا قد خَفي على بعض الصحابة رضي الله عنهم؛ وهو إثبات صفةٍ للَّه عز وجل وهي صفة الأصابع - كما سيأتي -، فهذا اليهودي أَثبت صفةً من صفات اللَّه، والجهمية ومن نَحَا نحوهم ينكرون الصفات، فكان اليهود في هذا الجانب خيراً منهم.

(أَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ) وهذا يدلُّ على قوة اللَّه سبحانه، فهذه السماوات السبع على إصبعٍ من أصابع الرحمن، ويدل على قدرة اللَّه العظيمة.

ويدلُّ على أنَّ اللَّه كبيرٌ فهذا الكون الواسع العظيم المتَّسع يضعه اللَّه عز وجل على إصبعٍ.

وفيه دليل إثبات الإصبع للَّه عز وجل كما يليق بجلاله وعظمته، فأهل السُّنَّة - كما سيأتي في حديث ابن عمر - يثبتون أنَّ للَّه يدين؛ يمينٌ وشمالٌ، وَكِلتَا يَدَيهِ يَمِينٌ(١) سبحانه، وأنَّ هذين اليدين لهما أصابع كما في هذا الحديث وما فيه من روايات؛ فنُثبت أنَّ للَّه يدين كما تليق بجلاله وعظمته، ونُثبت أنَّ لهاتين اليدين أصابع كما في هذا الحديث، والحديث في الصحيحين(٢)، كما سيأتي أيضاً من الروايات.

---

(١) كما روى مسلمٌ، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، وعقوبة الجائر، والحث على الرفق بالرعية، والنهي عن إدخال المشقة عليهم، رقم (١٨٢٧)، من حديث عبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) رواه البخاريُّ، كتاب تفسير القرآن، بَابُ قَوْلِهِ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١]، رقم (٤٨١١)، ومسلمٌ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، رقم (٢٧٨٦).

وقوله: (وَالأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ) هذا يدلُّ على قوة اللَّه عز وجل، وقدرته وأنه سبحانه الكبير جل وعلا الذي لا أكبر منه وهو العظيم الذي لا أعظم منه فيضع هذه السموات بعد طَيِّها على أصبع.

وقوله: (وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ) هذه أشجار الأرض كلُّها يضعها سبحانه على إصبعٍ، وفي رواية مسلمٍ[1] كما سيأتي: (وَالجِبَالَ وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ)؛ لذلك أَفرد المصنِّف رحمه الله رواية مسلمٍ للبيان، فإذا كانت هذه الجبال العظيمة والأشجار على إصبعٍ واحد؛ فدلَّ على أنَّ اللَّه كبيرٌ.

وقوله: (وَالمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ) الثرى هو التراب النَّدِيُّ المبلول بالماء - يعني فيه رطوبةٌ -، والمراد به هنا: التراب، وفي نسخة المصنِّف التي كَتبها بيده رحمه الله: «وَالمَاءَ عَلَى إِصْبَعٍ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ»؛ لذلك - رحمه الله - بيَّن في رواية البخاريِّ[2]: (وَالمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ)، فكأنَّه يقول: النَّصُّ الذي نقلتُه؛ لعلَّ الصواب ما في رواية البخاري.

---

(١) كتاب صفة القيامة والجنة والنار، رقم (٢٧٨٦).

(٢) كتاب تفسير القرآن، بَابُ قَوْلِهِ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١]، رقم (٤٨١١).

وإنْ كان هذا اللَّفظ الذي ساقه المصنِّف في البخاريِّ ومسلِمٍ، لكن لعلَّ مَن نقَل منه وَهِم في ذلك؛ لأَنَّه لا يمكن الماء على إصبع والثرى على إصبع، مع ما تَقدَّم وما سيأتي؛ لأَنَّه باتِّفاق أهْل السُّنَّة أنَّ للَّه خمسة أصابع.

ثم قال: (وَسَائِرَ الخَلَائِقِ عَلَى إِصْبَعٍ) من بني آدم وغيرهم ممَّا لا يَعلمه إِلَّا اللَّه؛ فدلَّ على إثبات الأصابع لله عز وجل، وأنَّ عددها خمْساً، وأنَّها لا تشابه أصابع المخلوقين.

قال: (فَيَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ) مِن قول ذلك الحَبر ومقرٌّ له؛ فما قاله حقٌّ، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه، وليس المراد بالنواجذ هنا إظهارها؛ وإنَّما المراد المبالغة في الضحك، فقيل: النواجذ هي آخر الأضراس، وقيل: أنَّها هي ما بعد الأنياب، وقيل: أنَّها ما بين النَّاب وبين الثنايا، فالمراد: (حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ) مبالغةً في ضحكِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم لتصديق ذلك الحَبر، وأنَّ اللَّه أَنطقه بالحقِّ.

وهذا أخذوه - أي: اليهود - من بقايا ممَّا في التوراة؛ مثلما قال عز وجل: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة:٤٤]، فهذا ممَّا أَخذوه في التوراة، واللَّه يقول: ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ

اللَّهِ﴾ [المائدة:٤٤]؛ لكنَّها حُرِّفت حتى لم يبقَ منها شيءٌ؛ قال ابن القيم رحمه الله: «وتسعة أعشارها محرَّف وحقُّها منسوخٌ»؛ أي: التوراة والإنجيل، فما بقي منها شيءٌ على حقيقته؛ بل حُرِّف على توالي الأزمان.

واللَّه عز وجل لم يَتكفَّل بحفظها حتى تُحفظ؛ وإنَّما أَوكلها إلى حفْظ الرجال في زمانهم؛ فضاعت، قال سبحانه: ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [المائدة:٤٤]؛ لكن القرآن اللَّه عز وجل هو الذي تَكفَّل بحفظه؛ قال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩]، فحفِظه فلم يُحرَّف منه حرفٌ.

وهذا الحديث فيه تفسيرٌ للآية المتقدِّمة: (**﴿وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾**)، فتُطوَى بيمينه، ويضعها سبحانه على إصبع، ويضع الأرض على إصبعٍ، على التفصيل السابق.

(تَصْدِيقاً لِقَوْلِ الحَبْرِ) لأَنَّهم يَعرفون أنَّ اللَّه عظيمٌ، كما أنَّه عليه الصلاة والسلام يبيِّن لهم عظمة اللَّه؛ فضَحك النبيُّ صلى الله عليه وسلم على ذلك؛ إقراراً له.

فإذا كان ما ذُكر من التفصيل كلٌّ منها على إصبعٍ؛ فيجب علينا أن نعظِّم اللَّه، وأنْ نُجِلَّه، وأنْ نفرده بالعبادة سبحانه وتعالى.

(ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ الآيَةَ») فهو الكبير المتعال، وهو العظيم، واللَّه قال: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ [الأنبياء:١٠٤].

(وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: «وَالجِبَالَ وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ) وسَبق بيان ذلك؛ يعني: المتفق عليه: الشجر، وهنا في رواية مسلمٍ: الجبال والشجر.

(ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ) فمكث النبي صلى الله عليه وسلم يهزُّها حتى خشي الصحابة أنَّ المنبر يَتحرَّك أو يَسقط من حركة النبيِّ صلى الله عليه وسلم في إثبات تلك الصفة للَّه عز وجل، ففيها إثبات هزِّ ما في يده سبحانه.

(فَيَقُولُ) هذا فيه إثبات صفة الكلام للَّه عز وجل.

(أَنَا المَلِكُ) فيه إثبات صفة المُلك، وهنا فيه إظهارٌ لقوَّة مُلك اللَّه عز وجل؛ فهذه جميعاً على أصابع الرحمن، ويهزُّهُنَّ ويقول: (**أَنَا المَلِكُ**)، فهذا هو حقيقة المُلْك أنَّ جميع المخلوقات على أصابعه، فهو المهيمن، والمطَّلع والمتصرِّف فيهم.

فإذا كان الجميع على أصابعه سبحانه فيُصَرِّف الدهر ويُدَبِّره كيفما شاء، وهو القادر على كل شيء، قال سبحانه: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ

السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ [الأنبياء:١٠٤]، وفي قراءة: ﴿كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلكِتَابِ﴾؛ فمثلما يُطوى الكتاب تُطوى كذلك السموات، وكما بدأنا أوَّل خلقٍ نعيده أيضاً ونطويه وينتهي الكون ويحاسَب الخلائق؛ كما قال سبحانه: ﴿فَرِيقٌ فِي الجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى:٧].

(أَنَا اللَّهُ) فيه إثبات صفة الألوهية.

فهنا إعلاناً لتفرُّده بالربوبية والألوهية؛ قال: (أَنَا المَلِكُ) هنا الربوبية، (أَنَا اللَّهُ) هنا ألوهية؛ فتَبطل جميع المعبودات من دون اللَّه، فلا يبقى إلا ما أريد به وجْهه سبحانه وهو العمل الصالح.

قال: (وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ: «يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ...) ليبيِّن تصحيح ما في البخاريِّ ومسلمٍ في النسخة التي كتبها بيده رحمه الله، ففيها: «وَالمَاءَ عَلَى إِصْبَعٍ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ»، وهنا قال: (وَالمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ وَسَائِرَ الخَلْقِ عَلَى إِصْبَعٍ).

وأهل السُّنَّة أيضاً يثبتون أنَّ للَّه عز وجل أنامل؛ كما في حديثٍ عنه صلى الله عليه وسلم قال: «أَتَانِي رَبِّي عز وجل اللَّيْلَةَ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ هَلْ تَدْرِي فِيمَ يَخْتَصِمُ المَلأُ الأَعْلَى؟

قَالَ: قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ، حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَهَا بَيْنَ ثَدْيَيَّ - أَوْ قَالَ: نَحْرِي - فَعَلِمْتُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ.

ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، هَلْ تَدْرِي فِيمَ يَخْتَصِمُ المَلَأُ الْأَعْلَى؟

قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ، يَخْتَصِمُونَ فِي الْكَفَّارَاتِ وَالدَّرَجَاتِ...» الحديث[١]، فيُثبت أهْل السُّنَّة أنَّ للَّه يدين، ويُثبت أهْل السُّنَّة أنَّ للَّه أصابع تليق بجلاله وعظمته، ويُثبت أهْل السُّنَّة أن للَّه أنامل كما يليق بجلاله وعظمته عز وجل من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ ومن غير تكييفٍ ولا تمثيلٍ.

(أَخْرَجَاهُ) وممَّا يدلُّ على أنَّ المصنِّف يُشير إلى الوهْم الأوَّل: أنَّ كلمة (**أَخْرَجَاهُ**) لم يَذكرها قبل رواية البخاريِّ كعادته يقول: (**أَخْرَجَاهُ**)، (**وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ**)، (**وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ**).

وفي هذا الباب المصنِّف رحمه الله ذَكر أيضاً توحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات؛ فيكون كِتابه هذا شاملاً جميع أنواع التوحيد.

---

(١) رواه أحمد في المسند، رقم (٣٤٨٤)، من حديث ابن عباسٍ رضي الله عنهما.

قال رحمه الله: (وَلِمُسْلِمٍ: عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما مَرْفُوعاً: «يَطْوِي اللَّهُ السَّمَوَاتِ يَوْمَ القِيَامَةِ) هذا يدلُّ على عظيم قدْرة اللَّه سبحانه؛ إذ أنَّ هذه السموات الكبيرة يطويها اللَّه عز وجل، وقد بيَّن في القرآن الكريم كيفيَّة طيِّها؛ فقال سبحانه: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء:١٠٤]، وفي قراءة: ﴿كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلكِتَابِ﴾.

وقوله: (ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ اليُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ الجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ المُتَكَبِّرُونَ؟) يدلُّ على قدرة اللَّه التامة، ويدلُّ على إثبات اليد للَّه عز وجل، ويدلُّ على أنَّ له سبحانه وتعالى يداً يُمنى كما تليق بجلاله وعظمته.

قال: (ثُمَّ يَطْوِي الأَرَضِينَ السَّبْعَ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِشِمَالِهِ) يدلُّ على أنَّ للَّه عز وجل يداً شِمال، وكِلْتا يدي الرحمن يمين سبحانه وتعالى.

ففيه إثبات اليد الشمال للَّه عز وجل كما تليق بجلاله وعظمته، فالسموات بيمينه والأرض بشماله سبحانه.

(ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ) والمراد بذلك: أي: المُلْك المطلق، وهنا أيضاً إظهار الربوبية للَّه عز وجل.

(أَيْنَ الجَبَّارُونَ؟) يعني: ممَّن كان في الدنيا، **(أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟)** أي: مَنْ كان في الدنيا؛ فإنهم تحت قهرِي اليوم.

وهذا تحدٍّ لمَن تجبَّر وتكبَّر وصرَف المعبودات لغيره جل وعلا؛ قال: أين هم وأين الذين استكبروا عن عبادتي، وأين الذين تجبَّروا وجبَروا الخلْق وصرَفوهم عن عبادتي؛ الجميع تحت ذلِّ اللَّه وقهْره؛ فهو القهَّار، كما قال عز وجل: ﴿وَهُوَ القَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام:١٨]، وهو المهيمن.

فيقول: **(أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ الجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟)** فلا أحد يتجبَّر هناك، ولا أحد يتكبَّر، ولا مُلك لأحدٍ هناك؛ فلا ينفع إلا العمل الصالح، مثلما قال سبحانه: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ [سبأ:٣٧]، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم في صحيح مسلم[١] قال: «وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ».

---

(١) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضْل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، رقم (٢٦٩٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وهذا يدلُّ على تحريم الكِبْر على المخلوقين، وأنه خاصٌّ باللَّه؛ قال عليه الصلاة والسلام: «قَالَ اللَّهُ عز وجل: الكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِداً مِنْهُمَا» يعني: لا يتكبَّر، ولا أحد يتعاظم، قال: «قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ»[١].

والشاهد من هذا الحديث: أنَّ من كمال التوحيد تعظيم اللَّه عز وجل، وأن يُقْدَر حقَّ قدْره سبحانه.

فإذا كانت صفات اللَّه عز وجل مثل هذه في غاية العظمة والقوة والقدرة والقهر والجبروت لكلِّ أحدٍ؛ إذاً كأنَّ المصنِّف يقول لك: فما سَبق من مخالفاتٍ شركيَّةٍ، أو ما سَبق من بيان أبواب الشرك؛ فيجب أن لا يَدخل في قلبك منها شيءٌ؛ وإنَّما اصرفها لذلك العظيم المتَّصف بتلك الصفات العظيمة من المُلك والجبروت والعزِّ والقهر والقدرة والكِبر عز وجل.

فتبيَّن ممَّا سبق أنَّ المصنِّف ساق هذا الباب لعدة أمورٍ:

الأمر الأوَّل: لإثبات تعظيم قدْر اللَّه في النفوس.

---

(١) رواه أحمد في المسند، رقم (٧٣٨٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

الأمر الثاني: لوجوب إبعاد ما في القلب، أو ما يَحُوم حول القلب من إدخال الشرك فيه أو وسائله؛ لأنَّ اللَّه عظيمٌ.

الأمر الثالث: وليكون هذا الكِتاب شاملاً لجميع أنواع التوحيد الثلاثة.

الأمر الرابع: ليعظِّم المسْلِم ربَّه في قلبه دوماً؛ لِمَا يتَّصف به جل وعلا من هذه الصفات العظيمة، فيَجعل ربه نصْب عينيه في العبادة، ويَجعل أيضاً ربه نصْب عينيه فيما لو سوَّلت له نفْسه باقتراف شيءٍ من المعاصي والسيئات؛ فالموعد هناك في الحساب وطيِّ الأرض ووضعها على إصبعٍ.

واعلم أنَّك ستكون على إصبعٍ من أصابع الرحمن، ويحاسبك جل وعلا في الحشر على كلِّ ما اقترفتَه من صغيرٍ أو كبيرٍ؛ كما قال عز وجل: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال سبحانه: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾ [الزلزلة:٧-٨]، وقال: ﴿وَنَضَعُ المَوَازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

ويجب عليك أنْ تَستعدَّ لذلك اليوم؛ فأنت مُلَاقِيهِ، كما قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الغَرُورُ﴾ [فاطر:٥].

فلمَّا ذَكر المصنِّف رحمه الله قدْرة اللَّه عز وجل، وأنَّه يضع السموات على إصبعٍ، والأرضين على إصبعٍ، والشجر على إصبعٍ، والماء والثرى على إصبعٍ، وسائر الخلق على إصبعٍ، ثم يهزهنَّ؛ ذَكر بعد ذلك رحمه الله عدة أحاديثٍ ليبيِّن لك ما هو قدْر الأرض والسموات في كفِّ الرحمن، وما هي مساحة السموات في الكرسيِّ، وما هي مساحة الكرسيِّ بالنسبة للعرش، واللَّه فوق العرش.

فساق المصنِّف رحمه الله الأحاديث التي بُيِّن فيها أعظم المخلوقات وهي السموات والأرض، ثُم يليها في الكبَر الكرسيُّ ثم يليها في الكبَر العرش، واللَّه عز وجل فوق العرش مطَّلعٌ على عباده، مهيمنٌ عليهم.

فذكر ما هي نسبة السموات في يد الرحمن سبحانه، وذَكر ما هي نسبة السموات والأرض بالنسبة للكرسيِّ، وما هي نسبة الكرسيِّ بالنسبة للعرش؛ كأنَّ المصنِّف يقول لك: وإذا كان العرش بهذه المثابة العظيمة

من الكِبَر، وأنَّ السموات لا تشكِّل شيئاً عند الكرسيِّ، والكرسي لا يشكِّل شيئاً عند العرش؛ فما ظنُّك بالربِّ الكريم العظيم؛ لذلك ذكَر اللَّه عن وصْف نفسه، قال: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ:٢٣]، فلا أكبر منه.

والعرش هو بحاجةٍ إلى الرحمن، واللَّه سبحانه مستغنٍ عن خلْقه لا يَحتاج إلى أحدٍ من مخلوقاته.

فإذا قيل: جرت العادة أنَ الأعلى محتاجٌ إلى الأدنى؟

نقول: لا، ليس على الإطلاق؛ فاللَّه عز وجل ليس كمثله شيءٌ، واللَّه عز وجل هو القويُّ الحميد، ثُم هناك مثلٌ تراه في كلِّ يومٍ وفي كلِّ لحظةٍ أنَّ الأعلى ليس بحاجةٍ للأدنى، مثل: السموات فوق الأرض وهي ليست بحاجةٍ للأرض؛ بل هي مخلوقةٌ بغير عمدٍ وهي الأعلى، وليست بحاجةٍ إلى مَن دونها، والربُّ سبحانه ليس كمثله شيءٌ فليس بحاجةٍ للعرش؛ بل العرش وجميع المخلوقات بحاجةٍ إلى اللَّه عز وجل، واللَّه غنيٌّ عن عباده جل وعلا.

فلمَّا بيَّن أنَّ اللَّه يطوي السموات، ويطوي الأرض، ويأخذهن بيديه؛ ذكر بعد ذلك حجْم السموات في كفِّ الرحمن، فقال: (وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرَضُونَ السَّبْعُ فِي

كَفِّ الرَّحْمَنِ) فهذا يدلُّ على إثبات الكفِّ للَّه سبحانه وتعالى، (إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ) الخردلة: الشيء اليسير البسيط الذي لا يكاد يُرى، وهي أصغرُ مخلوقٍ في الوزن؛ قال سبحانه: ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ [الأنبياء: ٤٧].

(فِي يَدِ أَحَدِكُمْ) يعني: أنَّ السموات والأرض في كفِّ الرحمن لا تشكِّل شيئاً من المساحة، ولا تشكل شيئاً من الكبَر.

وفي هذا الحديث إثبات الكفِّ للرحمن عز وجل كما يليق بجلاله وعظمته؛ لذلك قال: (**مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرَضُونَ السَّبْعُ فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ**) فأهْل السُّنَّة يُثبتون للَّه يدين تليق بجلاله وعظمته، ويثبتون لليدين أصابع، ويثبتون لها أنامل، ويثبتون لليدين - أيضاً - الكفَّ كما يليق بجلال اللَّه وعظمتهِ.

فالسموات السبع والأرضين وما فيهنَّ ليست في كفِّ الرحمن إلا كخردلة، كشيءٍ يسيرٍ، فإذا كان كذلك؛ فاطِّلاعه على عبيده ورؤيته لهم أمرٌ يسيرٌ عليه سبحانه؛ فهم خلْقٌ يسيرٌ لا يُشَكِّلون شيئاً، (**إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ**).

ولمَّا بيَّن رحمه الله أنَّ السموات السبع والأرضين السبع ليست إلا شيئاً يسيراً في كفِّ الرحمن؛ ذَكر بعد ذلك حجم السموات لشيء مخلوق وهو الكرسي، فروى عن ابن جريرٍ؛ فقال: (وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي يُونُسُ، أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ، قَالَ: قَالَ ابْنُ زَيْدٍ) يعني: زيد بن أسلمٍ[1].

(حَدَّثَنِي أَبِي، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ فِي الكُرْسِيِّ) أي: في مقدارها، (إِلَّا كَدَرَاهِمَ سَبْعَةٍ) والدرهم: هو الشيء اليسير المستدير، (أُلْقِيَتْ فِي تُرْسٍ) والتُّرس: هو القاع المستدير الواسع؛ يعني: كأنَّك في صحراء كبيرة واسعة، تُلقِي سبعة دراهم يسيرة في هذه الصحراء؛ فليست بشيء.

فإذا كان هذا مخلوقٌ مع مخلوقٍ، وهذا المخلوق - وهو الكرسيُّ - موضع قدمي الرحمن؛ فما ظنُّك باللَّه سبحانه وتعالى؟! فهذا يدلُّ على وجوب تعظيم اللَّه، وأنَّه من كمال التوحيد.

(١) هو: أبو عبد اللَّه زيد بن أسلم العدوي العمري، توفي سنة (١٣٦هـ). سير أعلام النبلاء للذهبي (٥/ ٣١٦).

فالسموات السبع في الكرسيِّ لا تشكِّل شيئاً؛ فهي شيءٌ يسيرٌ، فالكرسيُّ أكبر منها بكثيرٍ.

ولمَّا تدَرَّج المصنِّف رحمه الله في حجم المخلوقات؛ السموات والأرضين في كفِّ الرحمن، ثم السموات في الكرسيِّ؛ ذَكر بعد ذلك الكرسيَّ في العرش، فقال: (قَالَ: وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ رضي الله عنه: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «مَا الكُرْسِيُّ فِي العَرْشِ) أي: ما حجم الكرسي - وهو موضع قدمي الرحمن - (فِي العَرْشِ) وهو سرير المُلْك؛ (إِلَّا كَحَلْقَةٍ) أي: قطعةٍ يسيرةٍ، (مِنْ حَدِيدٍ أُلْقِيَتْ بَيْنَ ظَهْرَيْ فَلَاةٍ مِنَ الأَرْضِ») أي: أُلقيت في صحراء واسعةٍ؛ أي: فكذلك هذه المخلوقات العظيمة في جانب اللَّه عز وجل ليست إلا شيئاً يسيراً؛ فوَجَب أنْ نُفرِد العبادة للَّه، وأنْ نَقْدُرَه حَقَّ قدره، وأنْ نَبتعد عمَّا يَقدَحُ في التوحيد أو يُنقِصُ منه.

ثُم لمَّا بيَّن هؤلاء المخلوقات العظيمة وتدرُّجَها في الكِبَر؛ بدأ يبيِّن لك ما هي مساحة تلك المخلوقات العظيمة.

قَالَ رحمه الله: (وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه) يَذكر رحمه الله هنا هذا القول الموقوف عن الصحابيِّ عبد اللَّه بن مسعودٍ رضي الله عنه، قال أهل العلم: «وله حكم الرفع؛ لأنه لا يُقال بالرأي».

ويَذكر رضي الله عنه هنا المسافة ما بيْن السماء إلى البحر الذي العرشُ فوقَه؛ (قَالَ: بَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَالَّتِي تَلِيهَا) أي: أن سَمْكَ السَّماء الأُولى (خَمْسُ مِئَةِ عَامٍ)، (وَبَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ خَمْسُ مِئَةِ عَامٍ) وهذا يدلُّ على أنَّ المسافة بين كل سماء طويلةٌ، وأنَّ السموات ليست كُتلَةً واحدةً؛ وإنَّما سماءٌ ثُم فضاءٌ ثُم سماءٌ؛ لذلك قال سبحانه: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً﴾ [الملك: ٣]؛ بعضها فوق بعضٍ، وبينهم هذه المسافة.

قال: (وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالكُرْسِيِّ خَمْسُ مِئَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ الكُرْسِيِّ وَالمَاءِ خَمْسُ مِئَةِ عَامٍ) أي: أنَّ بيْن السماء الأُولى إلى البحر سبعةُ آلافٍ وخمس مئة عامٍ.

قال: (والعَرْشُ فَوْقَ المَاءِ) أي: فوق الماء، ولم يَذكر رضي الله عنه ما هو سمْك البحر.

قال: (وَاللَّهُ فَوْقَ العَرْشِ) فدلَّ هذا على أنَّ اللَّه عز وجل في علوٍّ عظيمٍ.

ويدلُّ أيضاً على أنَّه ليس ثَمَّ مخلوق فوق العرش.

ويدلُّ أيضاً على أنَّ اللَّه لا يُحيط به شيءٌ من مخلوقاته؛ إذْ ليس فوق العرش مخلوقٌ.

ومع هذا العلوِّ العظيم؛ قال رضي الله عنه: (لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ).

فإذا قِيل: مع هذا العلوِّ كيف يرى ويسمع؟

نقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

قال: (أَخْرَجَهُ ابْنُ مَهْدِيٍّ: عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ) وهو من شيوخ الشافعي، (عَنْ عَاصِمٍ) هو أحد القراء السبعة(١)، الذي يروي عنه

---

(١) هو: أبو بكر عاصم ابن بهدلة وهو ابن أبي النجود الأسدي مولاهم الكوفي، توفي سنة (١٢٨هـ). تقريب التهذيب لابن حجر (١/ ٢٨٥).

حفصٌ[١] وشعبةٌ[٢]، وهو ثقةٌ في القراءات، ولكنَّه ضعيفٌ في الحديث؛ لذلك ساق المصنِّف رحمه الله طريقاً آخر؛ لضعفه؛ قال: (عَنْ عَاصِمٍ، عَنْ زِرٍّ) يعني: ابن حُبَيْشٍ[٣]، (عَنْ عَبْدِ اللَّهِ) ابن مسعودٍ رضي الله عنه.

قال: (وَرَوَاهُ بِنَحْوِهِ المَسْعُودِيُّ) يعني: من طريقٍ آخر، (عَنْ عَاصِمٍ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه).

قال: (قَالَهُ الحَافِظُ الذَّهَبِيُّ، قَالَ) أي: الذهبي: (وَلَهُ طُرُقٌ) أي: تُقَوِّي قول ابن مسعودٍ رضي الله عنه في ذلك.

---

(١) هو: حفص بن سليمان أبو عمر الدوري مولاهم الغاضري الكوفي، وُلد سنة (٩٠هـ)، وتوفي سنة (١٨٠هـ). معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار للذهبي (١/ ٨٤).

(٢) هو: أبو بكر بن عياش بن سالم الأسدي، توفي سنة (١٩٣هـ). سير أعلام النبلاء للذهبي (٨/ ٤٩٥).

(٣) هو: أبو مريم زر بن حبيش بن حباشة بن أوس الأسدي، توفي سنة (٨١هـ)، وقيل (٨٢هـ). سير أعلام النبلاء للذهبي (٤/ ١٦٦).

فإذا كانت هذه المخلوقات بهذا الكِبَر، فكيف بالذي خَلقها؟

فيجب أن نَقْدُرَ اللَّه عز وجل حقَّ قدْره، وأن نُفرده بالعبادة، وأن لا نَعْصِيَهُ، والمشرِك هَضَمَ ربوبية اللَّه عز وجل، وتنقَّصَ منه، ولم يَقْدُرْه حق قدره؛ وهذا الشاهد من الحديث.

ثُم ذَكر حديث العباس[1] رضي الله عنه وفيه زيادة، قَالَ رحمه الله:

(وَعَنِ العَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ رضي الله عنه) هو عم النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يُسْلِم من أعمامه سواه وحمزة، وحمزة رضي الله عنه أفضل من العبَّاس وأسَنُّ منه، (قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «هَلْ تَدْرُونَ كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ؟) وهذا الاستفهام للتشويق، وهذا من أساليب التعليم وهو الاستفهام.

قال: (قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمْ) يجوز أن يُقال: (**اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمْ**).

---

(١) هو: أبو الفضل عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، وكان أسن من رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم بسنتين، توفي سنة (٣٢هـ)، أدرك في الإسلام اثنتين وثلاثين سنَةً وفي الجاهلية ستاً وخمسين سنَةً. الاستيعاب لابن عبد البر (٢/ ٨١٠).

كلمة «اللَّه أعلم»: هذه جائزةٌ لا إشكال فيها، أمَّا قوله: (**وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ**) فيجوز بشرطين:

الشرط الأوَّل: أنْ يكون ذلك في أحكام الشرع.

والشرط الثاني: أنْ يكون الرسول صلى الله عليه وسلم حيّاً، أمَّا إذا كان ميِّتاً، أو كان حيّاً ولكن الأمر في القدَر؛ لا يجوز أن يُقال: (**اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمْ**)، فالقدَر مثل: لو قال شخص لآخر: هل ابنك سيموت غداً؟ إذا قال: اللَّه أعلم؛ الجواب صحيحٌ، أمَّا إذا قال: اللَّه ورسوله أعلم؛ لا يجوز حتى لو كان الرسول صلى الله عليه وسلم حيّاً؛ لأن الغيب لا يَعلمه إلا اللَّه، أمَّا الشرع فاللَّه عز وجل أَوحى إلى نبيِّه ما يشَرِّعه لأمته.

(قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «هَلْ تَدْرُونَ كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ؟ قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمْ، قَالَ: بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمْسِ مِئَةِ سَنَةٍ)، قوله: (مَسِيرَةُ خَمْسِ مِئَةِ سَنَةٍ) أي: بسَيْر الإبل المعتاد؛ لأنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يُخاطب قومَه بما يعقلون.

قال: (وَمِنْ كُلِّ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ) أي: من نهاية السماء إلى بداية الأخرى: (مَسِيرَةُ خَمْسِ مِئَةِ سَنَةٍ، وَكِثَفُ كُلِّ سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِ مِئَةِ سَنَةٍ،

(وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالعَرْشِ بَحْرٌ) كما قال سبحانه: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود: ٧]، (بَيْنَ أَسْفَلِهِ) أي: البحر، (وَأَعْلَاهُ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ) أي: مسيرة خمس مئة عامٍ.

وهذا الحديث بيَّن كم كثافة البحر، أمَّا قول ابن مسعودٍ السابق فلم يُذكَر فيه كِثَفُ البحر.

فدلَّ هذا الحديث مع قول ابن مسعودٍ أنَّ المسافة بين الأرض إلى العرش ثمانية آلاف وخمس مئة سنَةٍ؛ لأنَّ في هذا الحديث يقول: (وَكِثَفُ) أي: سمْكُ، (كُلِّ سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِ مِئَةِ سَنَةٍ)، ومع هذا العلوِّ العظيم للسموات والبحر والعرش؛ اللَّه فوق ذلك.

وهذا الحديث لم يَذكر كم بيْن الكرسي والعرش، وقول ابن مسعود السابق ذَكر كم بيْن الكرسي والعرش.

لذلك قال: (وَاللَّهُ تَعَالَى فَوْقَ ذَلِكَ) أي: فوق العرش سبحانه وتعالى، ومع هذا العلوِّ؛ (لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ).

فدلَّ على أنَّ أعظم أمرٍ يحبُّه اللَّه هو التوحيد، وأنَّ أعظم ذنْبٍ عند اللَّه هو الشرك، ويبغضه اللَّه، فاللَّه عز وجل لا يَخفى عليه أعمال الموحِّدين، كما لا يَخفى عليه أعمال المشركين.

فكأن المصنِّف رحمه الله يشير في ختام كتابه التوحيد بهذه العبارة؛ ليبيِّن أن الموحِّدين يَعلم اللَّه توحيدهم ويؤيِّدهم ويَنصرهم، وأن اللَّه عز وجل يحبُّهم، أما المشرِكون فاللَّه عز وجل لا يحبُّهم؛ وقد عَملوا أعظم ذنبٍ على الأرض.

قال: (أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ).

فإذا كانت هذه مساحة ما بيْن السماء والأرض، ومساحة كلِّ سماءٍ، وكِثَف كلِّ سماءٍ، وما بيْن السماء السابعة والكرسيِّ، وأنَّ فوق الكرسيِّ بحرٌ، ومسافة ذلك البحر مسيرة خمس مئة عامٍ، وفوق البحر العرش، واللَّه فوق العرش؛ فإذا استحضرتَ مثل هذه؛ فتَعلم قدْرة اللَّه عز وجل في أنَّه يدبِّر الأمر من السماء إلى الأرض في لحظة؛ يأتي الأعرابي إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم ويسأله؛ واللَّه ينزل: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾

[البقرة:٢١٥][1]، ويُنزل: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ [البقرة:٢٢٢]، ويُنزل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة:٢١٧].

وتأتي المرأة المجادِلة تسأل النبيَّ صلى الله عليه وسلم، وهي لم تَذهب بعد وفي مكانها؛ يأتي الوحي من السماء بكلام اللَّه من فوق سبع سموات؛ من فوق العرش، من فوق البحر، من فوق الكرسي؛ فيُنزَل: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة:١][2].

فهذا يدلُّك على أنَّ اللَّه سريع العقاب، وأنَّه سبحانه يَسمع ويَرى، وأنه يدبِّر الأمر من السماء إلى الأرض، وأنه لا يَحجبه شيءٌ؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ»[3].

---

(١) تفسير البغوي (١/ ٢٧٣).

(٢) تفسير البغوي (٥/ ٣٨).

(٣) رواه أحمد في المسند، رقم (٨٩٦٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فأمْره سبحانه يسري في لحظة، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالبَصَرِ﴾ [القمر:٥٠]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، فإذا كان ذلك كذلك؛ وَجب على العبد أن يخشى اللَّه عز وجل حقَّ الخشية فلا يَعلم متى تأتيه العقوبة بغتةً؛ لذلك حذَّر اللَّه عباده من إتيانهم بالعذاب بغتةً؛ فقال: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر:٥٥].

فقد يَفعل العبد الذنْب وفي لحظةٍ يأتيه العقاب؛ لأنَّ اللَّه سريع العقاب، وأيضاً ليَعلم العبد بأنَّ اللَّه سبحانه مع عبده المؤمن؛ إذا عَمل طاعةً أو خيراً فإن اللَّه معه ويَنصره ويؤيِّده حتى ولو كان سمك كلِّ سماءٍ، وما بين كلِّ سماءٍ وسماءٍ، وكبَر الكرسي والبحر؛ إلا أنَّ اللَّه يأتي أمره في لحظة سبحانه فلا يتأخر عنه شيءٌ من ذلك.

فإذا كان الأمر مِثل ذلك وَجب على العبد أنْ يُفرد توحيد اللَّه عز وجل بجميع أنواعه للَّه وحْده، ولا يَصرف شيئاً من أعماله لغير اللَّه؛ فهو المستحقُّ وحده.

فإذا كان اللَّه عز وجل بهذا الوصف من القوَّة والكِبَر والعظمة والقدرة؛ وَجب على القلب أنْ يُؤَلِّه اللَّه، وأن يلتجئ إليه، وأن لا يَصرف العبادة لغيره.

وساق المصنِّف رحمه الله هذه الأحاديث في آخر بابٍ؛ لتكون على يقينٍ جازمٍ بأنَّ ما تَفعله من أعمالٍ فاللَّه سبحانه هو المستحقُّ لها فهو العظيم وهو سبحانه الكبير، ولتَعلم أنَّ اللَّه غنيٌّ عنك؛ فعنده خلْقٌ عظيمٌ يسبِّحونه اللَّيل والنهار؛ بل إنَّ أولئك الخلْق وهم الملائكة؛ اللَّه سبحانه هو غنيٌّ عنهم وعن تسبيحهم؛ وإنَّما تسبيحهم هو لحاجتهم إليه عز وجل.

وبهذا يكون المصنِّف خَتم بهذا الباب العظيم كتاب التوحيد وهو كتابه العظيم؛ ليكون العبد معظِّماً للَّه في أفعاله وصارفاً جميع أنواع العبادة للَّه وحده.

قال: (وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ) وبهذا خَتم المصنِّف رحمه الله هذا الكتاب العظيم، النافع، الذي مَن قرأه أو حَفظه وفَهم معناه؛ بإذن اللَّه يكون من عباد اللَّه الموحِّدين؛ لذلك يجب على المسْلِم أن يعاوِدَه حيناً

بعد آخر؛ لعظيم نفْعه، وصِغَر حجمه، ولشمول ما جمَعه، ولا يوجد كتاب في هذا الفن مثله في جمْع هذه الأمور، لا سيَّما وأنه اقتصر في ذلك على الكِتاب والسُّنَّة، وشيءٍ يسيرٍ من أقوال علماء الأمة؛ أي: أنه لم يأت بشيءٍ من كلامه قط، فلا مَدخل ولا قدْح في هذا الكتاب.

وفِقهُ هذا الكتاب في تبويباته، كصنيع البخاري رحمه الله.

***

الخاتمة

لا يوجد كِتابٌ في بابه وفي فنِّه مِثل هذا الكتاب؛ يعني: كتاب التوحيد للإمام المجدِّد الشيخ محمَّد بن عبد الوهاب رحمه الله؛ فصنَّفه كما رأيتَ تصنيفاً بديعاً ليس في أبوابه طولٌ، ولا في أبوابه قِصرٌ؛ بل يسوق الأحاديث، ويسُوق الآيات.

ومِن ميزات هذا الكتاب أنَّه لم يَذكر شيئاً من أقواله؛ حتى لا يقال أنَّ الذي قال هذا هو محمَّد بن عبد الوهاب؛ لا، إنَّما يضع الباب، ويسوق الآيات والأحاديث، والعاقل اللَّبيب البصير بنفْسه يَقرأ تلك الأحاديث والآيات التي وَضعها المصنِّف، ثم يَزِن أعماله هل هي موافقةٌ للكِتاب والسُّنَّة أو لا؟!؛ لئلا يقال إنَّ هذا من أقوال الشيخ، وإنَّما أعطاك من أقوال اللَّه وأقوال رسوله؛ لذلك في هذا الكِتاب من أوَّله إلى آخره لم يقل الشيخ في أيِّ بابٍ منه: «قُلتُ»؛ يعني: هذا من قولي افعل كذا أو لا تفعل كذا؛ وإنما ساق لك أدلَّةً من الكِتاب والسُّنَّة، وأحياناً يسوق أقوال بعض المحقِّقين، مثل: البغويِّ، وابن القيِّم، وشيخ الإسلام

وغيرهم؛ كأنه يقول لك: أولئك من علماء أهْل السُّنَّة فأقرأ لهم في كتبهم؛ فإنهم من أعلام هذا الدين.

ويَنبغي للمسْلِم أنْ يَقرأ هذا الكتاب حيناً بعد حينٍ، ويكون قريب العهد به؛ لئلَّا يَخدش في توحيده شيءٌ، وليحترس مِن أنْ يقع في نفْسه شيءٌ من الشرك، واللَّه عز وجل أعاد في سورةٍ واحدةٍ عن أمر الشرك لعظمته: آيتين اثنتين متماثلتين في سورةٍ واحدةٍ لأهميته، وهي قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨]، فهذه آيةٌ واحدةٌ جاءت في سورةٍ واحدةٍ في موضعين اثنين؛ ممَّا يدلُّك على أهمية ذلك الموضوع وهو الخوف مِن خطر الشرك، وأنْ يَسعى العبد إلى تحقيق التوحيد في نفْسه.

لهذا يَنبغي للمسْلِم أنْ يَقرأ هذا الكِتاب، ويَحفظه عن ظهْر قلبٍ، وأنْ يقرأ شروحاته أو يسمع شروحاته؛ ليكون القلب قريباً من الآيات والأحاديث التي تدلُّ على ذلك، وليكون مستحضراً لها عند الاستدلال.

والشيخ رحمه الله جَمع بين القلم وبيْن السِّنَان فدعا في عصره إلى التوحيد ونبْذ الشرك، وانتشرتْ دعوته في الآفاق، وما يَنعم به المسْلِمون

- واللَّه أعلم - في هذا العصر وقبل هذا العصر؛ إنَّما هو بسبب نشْره للتوحيد واعتنائه به، وإلا فكان في عصره وقبل عصره الناس متَّجهون إلى عبادة الأشجار والأحجار، وإلى عبادة المَخَابِئِ والغار ونحو ذلك؛ فوَقعوا في جهلٍ عظيمٍ وشركٍ به سبحانه.

ومِن رحمة اللَّه عز وجل أنْ جَعل في هذه الأمَّة أمثال هذا الإمام العظيم؛ ليُبَيِّن للناس دعوة اللَّه عز وجل، وإلا لو بقيت الدعوة مندثرةً، فلا يستبعد أن يكون كل واحدٍ منا يجْثُو عند صنمٍ، أو عند شجرةٍ، أو عند قبرٍ يدعوها فلولا تعلُّم أهْل العِلم، ونشْرهم في عصره، ونشرهم لهذه الدعوة بعد عصره؛ لكنا في جهلٍ وظلماتٍ.

فالشيخ رحمه الله بيَّن بجوارحه في الدعوة، وبيَّن في الدعوة ببَنَانِه، فألَّف وصنَّف وهذا كِتابه من أعظم ما صنَّفه وانتفع به المسلمون حيناً بعد حينٍ؛ لأنَّ تبويبه عجيبٌ، وجمْعه للأحاديث أعجب، وترتيبه لها أعجب وأعجب، وذكْره للأبواب أعجب وأعجب وأعجب.

فساق في تبويب الأبواب على منهج الإمام البخاري رحمه الله؛ فيَذكر فقه الباب في الترجمة؛ لذلك يقول مثلاً: (**بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ لُبْسُ الحَلْقَةِ**

وَالخَيْطِ وَنَحْوِهِمَا)؛ يعطيك الحُكم، ثم يعطيك الأحاديث وهكذا، وهذا يدلُّ على فقْهه.

والشيخ رحمه الله معروفٌ بشدة استنباطه من الآيات والأحاديث، ومَن قرأ تفسيره لبعض آيات الأحكام؛ يَعلم قوة استنباطه من الأحاديث، ويَظهر ذلك لطالب العِلم في المسائل التي يسوقها رحمه الله بعد كلِّ بابٍ ويقول فيه مسائل، ويَذكر المسائل المستنَبطة، وكِتابه التفسير لبعض آيات الأحكام مِن أعجب التفاسير في قوَّة الاستنباط؛ بل حتى إنَّ القارئ أحياناً يُعِيد تفسير الآية الواحدة عدة مراتٍ حتى يَفهم ما استَنبطه الشيخ؛ لقوة الاستنباط من هذه الآية.

فهو دعا بلسانه، ودعا ببَنَانِه بالمصنَّفات.

وإذا قيل: ما هي ارتباط دعوة الشيخ محمَّد بن عبد الوهاب بشيخ الإسلام رحمهما اللَّه؟ فأهْل العلم يقولون في وصْفها أنَّ دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب هي تطبيقٌ عمليٌّ لِمَا بيَّنه شيخ الإسلام رحمه الله؛ فشيخ الإسلام بيَّن في الكُتب وأَظهر ما في الكِتاب وما في السُّنَّة، ثُم أتى الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، وجَعل خلاصة دعوة شيخ

الإسلام دعوةً عمليَّةً، وقال للناس: افعلوا كذا ولا تفعلوا كذا، وصنَّف كما صنَّف شيخ الإسلام بأسلوبٍ سهلٍ ميسَّرٍ مرتَّبٍ، ووَضع تلك المصنَّفات فيمَا يناسِب عصْره.

وقد عُمِّر رحمه الله طويلاً؛ فتوفي وعمره اثنان وتسعون (٩٢) سنة، ومَكث في الدعوة إلى اللَّه عز وجل مُكثاً طويلاً، وحُورِب، وعُودِي، وأُوذِي، وعدة مرات يتعرض إلى القتل، ومع ذلك صَبَر رحمه الله وجاهد وبيَّن التوحيد الصحيح، وقيَّض اللَّه عز وجل له طلاباً من أولاده ومن غير أولاده؛ فأَخذوا عنه ذلك العِلم الذي وَهبه اللَّه عز وجل له.

ومِن نعْمة اللَّه علينا أنْ أتانا مَن بيَّن لنا هذا الدين بأمرٍ سهلٍ، فجَمع لنا الآيات، وجَمع لنا الأحاديث؛ لنستفيد منها ولنكون على بصيرةٍ في هذا الدين، فرحمه الله عز وجل رحمةً واسعةً، وجمعنا به في جنات النعيم وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيْر الجزاء

نسأل اللَّه عز وجل أنْ ينفعنا بما عَلِمْنا، وأن يَجعله حجةً لنا لا علينا، وأنْ يرزقنا التوحيد، وأنْ يَصرف عنا قوادحه ونواقصه، وما يضاده.

واللَّه أعلم وصلَّى اللَّه وسلَّم على نبيِّنا محمَّدٍ، وعلى آله، وصحبه أجمعين.

***

الفهرس

***